عمار علي حسن

ملحمة

رواية

المطاريد

الجزء الأول

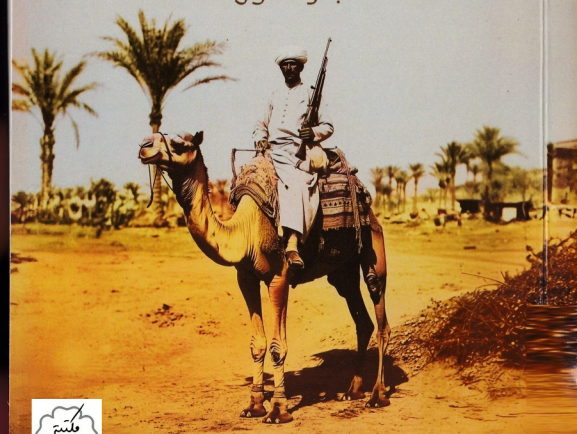

الدار المصرية اللبنانية

عمار علي حسن

ملحمة

رواية

المطاريد

الجزء الثاني

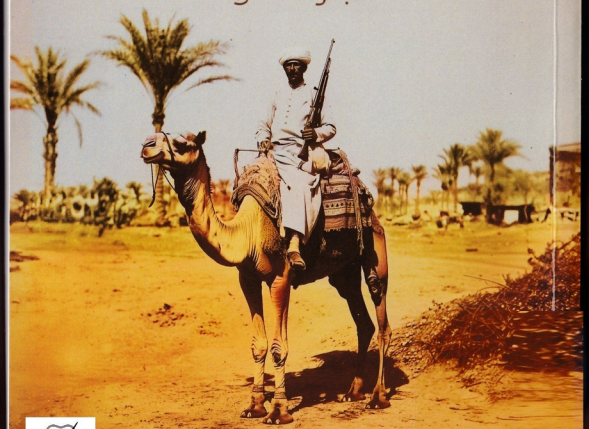

الدار المصرية اللبنانية

عمار علي حسن

ملحمة

رواية

المطاريد

الجزء الثالث

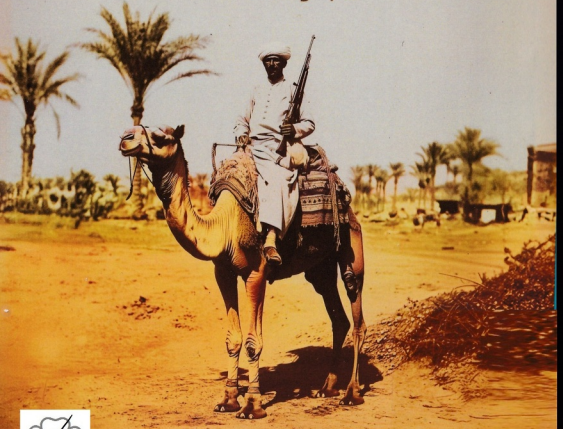

الدار المصرية اللبنانية

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الأول

حسن، عمار علي.
ملحمة المطاريد: رواية / عمار علي حسن. - ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
304 مج 1؛ 20 سم.
تدمك: 9 - 496 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
2- الملاحم العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 26976 / 2024

telegram @
yasmeenbook

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriahbookstores.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

عمار علي حسن

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الأول

telegram @
yasmeenbook

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلـى أهـل قريتي «الوصلية» التـي أكلها النيل فـي فيضانه قبل قرن، فهرب أهلها بالحكايات. وحين غرسـوها في صفحات الأيام وصلت إلى مسامعنا نحن الأحفاد أسطورة كبرى، بينما كانت أقدامنا تدب في شوارع قرية جديدة أسموها «الإسماعيلية»، تعيش الآن وديعة مجهدة في وسط الصعيد.

الرُّبَى واليَمَام

(1)

الأقـدام الغليظـة التي تدوس العشـب لن تعيق نمـوه طالما المطر ينهمر. غلق النوافذ لن يمنع الرياح من الانطلاق، إن جاء أوان هبوبها. السـتائر السـوداء السـميكة لـن تحـرم نـور النهار مـن معانقـة الغرف الحبيسـة. الزمن يجري سـريعًا، ويجرف أمامه كل شيء، لكنه لا يقدر على تبديد الحكايات.

نـزع «آل صابـر» حكايتهم من قبضـة النسـيان. أورثوها لأولادهم قبـل المـال. وضعوهـا فـي أرحام النسـاء قبل نطـف البنيـن والبنات. أطلقوهـا في مجرى النهر فحملها الماء إلـى الآذان والنفوس، بعد أن غنَّاها القوَّالون على الرباب وهم يغلبون دموعهم، ويلقون في مجراها الطويل عبارات وألحانًا جديدة.

كما تنمو الذرية تكبر الأساطير، لكنها لا تشيخ، ولا تموت. كيف يموت مَن يسـكن الحناجر المشبوبة بالأناشيد والغناء؟ كيف يتلاشى ما تردده الألسنة من جيل إلى جيل في الأوجاع والمسرات، وساعات السمر على المصاطب أمام بيوت الطين الخفيضة، وفي الحقول وقت القيظ؟

يتـوه النـاس فينطلـق لحـن مـن الزمـن القديـم، وينشـد القوَّالون وعيونهم مغمضة:

صابر والزمن غدَّار .. يعانـــــد اللي يريده

بيده كاس مُر دوار .. كل ما ينقص يزيـده

(2)

فـي تلك الليلة الشـتوية التـي اعتزلها القمر، ملأ نـور مبهر عيونهم وهـم سـاهرون على طـرف نجع صغيـر لا يزيـد على عـدة بيوت من الطمي، يسـند بعضهـا بعضًا. كان النور قويًّا حتى ظنوا أن الشـمس قد طلعت في قلب الليل. تبعته سـهام على رؤوسـها شُعل تثقب الظلمة. حل صمت مطبق. مات النور، وانطلقت الأقاويل الحائرة.

لم يكن برقًا. السماء لم ترعد. السحب الخفيفة التي تضربها الريح ليس بوسـعها، حتى لو تعاركـت، أن ينفجر غضبها بضـوء غمر الزرع والبيوت. بان سـور الحديقة العالي، الذي طالما داروا حوله حائرين. كانوا كلما سألوا أهلهم عن هذه الحديقة، قال كل منهم: «لا نعرف إن كان شجرها قد نبت في الأرض، أم نزل من السماء».

لـم يمر يـوم إلا واليمام يدور قبيـل الغروب فوق سـماء الحديقة، صانعًا أشكالًا عجيبة تخطف الأبصار، وتملأ القلوب نشوة. في الليل يتهادى عزف الرباب، وينطلق معه صوتٌ نديٌّ لم يطربنا مثله من قبل، ثم تبدأ حمحمات من صدور ملتهبة، كأنها في حضرة ذكر.

(3)

كان شباب نجع «مشتول» قد هرعوا نحو سور الحديقة تحت سماء ترمي فوق رؤوسهم المجهدة رذاذًا خفيفًا. قلوبهم ترتجف. أقدامهم تغوص في أرض موحلة رواها أصحابها أول المساء. هم الآن هاجعون في مخادعهم الخشنة، يصارعون البق والبراغيث والكوابيس.

رفع «رضوان» سبابته نحو السور في خوف، وقال: السهام انطلقت من هنا، شُفت النار الحمراء تخرم النور، وتجري إلى السماء.

رد «حمزة»، وهو يحكم الكوفية السوداء حول عنقه: صوت كأنه غناء أو بكاء، لا أعلم، لكنه جاء من بعيد، ربما من عند النهر.

وجم بقية الرفاق متطلعين إلى الأشجار العالية الكثيفة التي تتعانق تحت ستائر الليل فتزيده سوادًا. هم يحسبون أن الباب الحديدي السميك سيُفتح، ويأتيهم بخبر ما يجري داخله. لكنه ظل مكانه واقفًا أمام العيون الشاخصة إليه. كمشوا مكانهم ساعة لم يخرجوا منها بشيء سوى سعال أجش، وضحكة رنت في الفراغ، وكلام قصير وصل إلى أسماعهم همسًا خفيًّا.

بينما هم رابضون يتخبطون في حيرتهم نبحت الكلاب عند الطرف الأيمن للحديقة، وماءت قطط شريدة. سمعوا صهيل حصان تضرب حوافره قطعة صلدة من الجسر، نقراته القوية المتواصلة سرعان ما خفتت حين دخل إلى التراب الناعم. ماتت هناك في البعيد.

أعاد «رضوان» بصره الذي كان ذاهبًا إلى الجسر، وقال: هو الحصان الأبلق، الذي رأيته وقت الضحى يرعى، حين كان باب الحديقة مواربًا.

لكنهم جميعًا كذَّبوه. لم يرَ أحدهم الباب مفتوحًا ولا مواربًا من قبل. كانت الحيرة تأكلهم حين يرون خفر الحديقة يجوسون شوارع النجع ليلًا، ولم يكن أي منهم يعرف من أين أتوا؟ ومتى يعودون؟

كان هؤلاء الخفر يمرون على البيوت، ولا ينظرون إليها. يرفعون قاماتهم المديدة إلى الأمام. يشمخون بأنوفهم العريضة. لا يلقون السلام إلا على مَن لا ينشغل بهم، متجنبًا النظر إليهم، حتى يصلوا إلى دكان في منتصف القرية، ليبتاعوا حاجاتهم من قرفة وينسون وأقماع سكر ودخان. أما ما يأكلونه ويشربونه فلا يعرفه غيرهم.

ظن أهل القرية أنهم لا يملأون بطونهم إلا من فواكه الحديقة المتنوعة، لكن أحدهم أجاب البقَّال مرة واحدة حين عرض عليه ما على أرفف دكانه من طعام: عندنا خبزنا وغموسنا.

شيخ طاعن في السن يسمى «محروس»، يقال إنه الوحيد الذي اجتاز الباب العالي ذات يوم، أنبأ الشباب أن لدى سكان الحديقة أجولة دقيق، وفرن خبيز، وبلاليص مملوءة بالعسل الأسود والمش، وصفائح من عسل النحل، وأن بالحديقة دجاجًا وإوزًّا وبطًّا وديوكًا رومية وخرافًا ونعاجًا وماعزًا وبقرًا، وأواني عتيقة.

طالما سعى الرفاق إلى تجاوز القليل الذي عرفوه. كانوا يدورون حول السور العالي متطلعين إليه في رهبة، يدركون أن ما بداخله يبدو فرحًا على الدوام باستعصائه عليهم. هم الذين خرجوا في البكور والضحى وساعة القيظ والغسق وفي قلب الليل تاركين خلفهم بيوتًا تنتظرهم، تأكل الريح من جدرانها كل يوم، يبدون في عجز تام عن فك اللغز الكبير.

صغار كانوا في أعمارهم وأحلامهم. كان حلمهم الأكبر أن يهتكوا سر هذ الحديقة مترامية الأطراف، لكنهم في كل مرة لا يعودون إلا بنسمات رخيَّة، وأسئلة تنشب في رؤوسهم كأشواك الشجر الذي يرمي أفرعه الملتفة على السور، ويخرج في الربيع زهورًا بيضاء كالطلع، وحمراء كالدم.

اكتفوا من أحلامهم بمحاولة القبض على أي ثمرة مدلاة من أشجار المانجو العالية، المنتظمة في صفوف مستوية. أبلغهم «محروس» أن في الداخل صفوفًا من أشجار الجوافة والرمان والتفاح والبرتقال والتين والليمون، وتكاعيب عنب، وثلاثة صفوف من النخيل في المنتصف، يتبعها مثل ما سبقها، في هندسة عجيبة تتخللها قنوات مربوطة بالنيل.

لكن أمانيهم تموت عند السور. لا يبقى لهم إلا استحلاب ريقهم مفتتنين بطعوم لم يتذوقوها لثمار يانعة، تتراءى أمام عيونهم، لكنها لا تتهادى لهم أبدًا، وإن مد أحدهم ذراعه محاولًا أن يقبض على أي

منها، تلسعه أشواك أشجار «الدرادكس»، فلا يعرف في فمه سوى طعم الدم الفائر. أحيانًا يلدغه سوط، أو ضربة عصا قاسية، يتبعها سباب جارح.

قبل سنين كانوا يرمقونها وظهورهم منحنية بين أعواد الزرع. عيونهم مدفونة بين السيقان والأوراق والبتلات الكثيرة التي تُغرق رؤوسهم في ظلال لا تمنحهم أي فرصة لتجاوز الزمتة الساخنة التي تجعل العَرَق يتصبب من جباههم، ويتساقط على الأرض الشراقي.

كانت الفراشات ترفرف أمام أعينهم. تروغ منهم حين يمدون أيديهم محاولين الإمساك بها. تعلو في الفضاء فتتابعها أعينهم لتراها وهي تطير صوب الحديقة الغريبة، الواقفة هناك تتحداهم بشموخها وعصيانها عليهم. تحدت الحديقة الغريبة أجيالًا متتابعة سبقتهم، ودبت أرجلها على هذه الأرض، وانحنت ظهورها إليها، وهي تزخر بالزرع الذاهب إلى الحصاد.

كانوا دومًا يخوضون في حديث عن الحديقة، فينسون في بحر الخيال والحكايات الغريبة متاعبهم الشديدة، الناشبة في ظهور أضناها الانحناء والاستواء والميل إلى الأمام طويلًا.

لم يكن يشغلهم في هذا الوقت المبكر من أعمارهم الغضة أن يجيبوا عن أسئلة عصية حول صاحبها، مكتفين بما سمعوه من «محروس». أبلغهم أنه رجل بهي الطلعة، طويل القامة، عريض المنكبين، ذو وجه مستدير يشع منه نور عجيب، لا يمكنه أن يخفي أنفه القاطع كسيف مشرع في وجه عدو بغيض.

أخبرهم أيضًا بأن هذا الرجل ليس سمينًا، ولا نحيفًا، إنما بين ذلك، يبدو حين يضطجع في عباءته السوداء السميكة مثل حصان شارد في غابة داغلة. حين يقف يبدو أسدًا هصورًا. تقدح عيناه بشرر يحرق الأحراش المتناثرة على جذوع الشجر العالي. يظهر فارسًا مغوارًا، أو ملكًا متوجًا، أو سلطانًا عظيمًا، كأنه السلطان «برقوق» نفسه، الذي يسمعون عن هيبته، لكن لا يمكن لأحد منهم أن يتمكن يومًا من أن يتأكد مما يقوله الناس عنه في كل مصر.

قال «رضوان»: سمعت أن الرجل من قادة المماليك، وأنه مقرب من السلطان.

شكك «حمزة» في هذا، وقال: كثيرون يزعمون في بلادنا أنهم مقربون من السلاطين.

قهقه «محروس»، وقال: لا أظن أن هناك سلطانًا على الأرض له هذا البهاء والمهابة.

كان «محروس» قد أخبرهم أيضًا بأنه لم يرَ هذا الرجل سوى مرة واحدة، وأن الظلام الحالك حال دون أن يعرف أوله من آخره، لكنه حين سعل اهتز الشجر، وتساقطت ثمار المانجو والجوافة والرمان. دفقة نور رماها القمر حين غلب السحب الكثيفة جعلت بوسع «محروس» أن يرى جسد الرجل ووجهه اللذين سرعان ما غاما حين هجم السحاب فخنق القمر.

لم يكن لدى «محروس» أي شيء آخر يقوله سوى أن صاحب الحديقة رجل غريب، أتى من مكان لا يعرفه أحد، ومن زمان أبعد

مما يتصوره أولئك الذين يتناوبون على خدمته ويحرسونه، ويشنفون آذانهم بأي حرف ينطق به، وتتابعه أبصارهم لعله يمنح أيًّا منهم شرف إشارة أو إيماءة.

كانوا، وهم يدسون عيونهم بين أعواد القطن المتشابكة، بحثًا عن بيض الفراشات «اللُّطَعْ»، يتشاركون في رسم ملامحه كاملة، مما سمعوه متناثرًا ومن خيالهم، لكنهم يعجزون عن استخلاص صورة كاملة ناصعة له، غير ما وصل إلى آذانهم، وهم منه في شك عميق.

جن هو أو أنس، لا يعرفون على وجه الدقة، لكنهم يدركون أنه جبار، يملك تلك الحديقة الغنَّاء، الممتدة على مرمى أبصارهم من الجسر إلى النهر، وتبدو معرفة ما يجري داخلها محفوفة بخطر شديد.

حين يصرفهم الخولي، بعد أن تمضي ساعتان كاملتان عقب أذان الظهر، يجرون إلى الترعة الوسيعة التي تحاذي سور الحديقة، يسبحون في مياهها لاهين، ويرسلون أبصارًا حسيرة إلى السور العالي. تملأ أنوفهم رائحة الثمار التي استوت على الفروع المائلة. يسحبون ريقهم في حلوقهم الجافة، مستحلبين ما يروق لهم من طعم الفاكهة، بينما الجوع يأكل بطونهم الضامرة.

صاروا مع الأيام منجذبين إلى الحديقة، كدراويش يتطوحون في حلقة ذكر وسيعة. رأى كل منهم أخاه وعظامه تكتسي لحمًا طريًّا، وصوته يخشوشن، وينبت عشب أسمر خفيف تحت أنفه، وفوق

شـفتين تزدادان غلظة. لكن السؤال ظل حائرًا في الرؤوس التي تكبر، وتطل أشواكه من العيون التي تفارقها براءة الطفولة.

كبروا، وكل منهم يخشى أن ينقضي أجله دون أن يتمكن من تجاوز السـور العالي، ومقابلة الرجل الغريب، الذي سـمعوا ذات يوم نقرات حصانـه على الجسـر العالي، ثـم ابتلعه الظلام، بعـد دقائق معدودات ملأ فيها النور المبهر المكان، وكشـف وجوه الشـجر وصفحة السـور الممتد، بينما كان الزرع يغط في سبات عميق.

تمنـى الأشـرار منهـم لو أن السـهام التـي مرقت قد سـكنت صدر أو رأس الرجـل الغريـب، وأن تكون دماؤه قد سـالت لتسـقي شـجرة الكافـور العتيقـة التي لا يحلو لـه إلا الجلوس تحت ظلالهـا الوارفة، لكن ها هم يسمعون نقرات حصانه، ويحاولون عبثًا أن يلحقوا به.

ليلتها جروا ما وسـعهم نحو الجسـر، لكن الوحل أبطأهم. التراب مـلأ عيونهـم. هبت عاصفة هوجاء كانت تدفعهـم إلى الخلف. زامت الريـح فـي آذانهم فامتنعت عن السـمع، حتـى إن كلا منهم لم يسـمع صـراخ صاحبـه، وهو يحـاول أن يتفـادى الحصى الدقيـق الذي هاج وماج وضرب الوجوه.

أين يذهب هذا الرجل في بعض الليالي على ظهر حصانه؟

لا أحـد يعلـم، فهو يخرج حين لا يكون أحد ماشـيًا على الجسـر، أو باقيًـا في حقل قريب منه. هل يقف الرجل على أطول فرع في أعلى شـجرة، ويرقب الطريق جيدًا قبل أن ينطلق؟ وحتى لو كان يفعل ذلك

فما الذي يجعله يضمن ألا يكون أحد مختبئًا في خصه، أو رابضًا تحت شجرة سنط أو صفصاف من تلك التي تقف على رؤوس الحقول، فيخرج فجأة ويلاقيه؟ ولو أنه يركب أعلى شجرة في الحديقة ليطمئن إلى خلو الطريق من المارة فكيف ينكشف له كل هذا الخلاء في الظلمة الحالكة؟

رجل آخر زعم أنه قد قابله، طلب منه كل الذين تجمعوا ذات ليلة أمام باحة المسجد يتحدثون عن الغريب بعد صلاة العشاء؛ أن يصفه لهم، فتلجلج، ورسم أوصافًا لم تدخل عقل أي منهم، وحين حاصروه بالأسئلة، اعترف أنه كان يمزح.

واستسلم الجميع لما سمعوه من «محروس» الذي كان لا يخرج الكلمة إلا بشق الأنفس. يتوه قليلًا، ثم ينطق حروفًا متقطعة، وهو يتلفت حوله، وكأن الرجل يراه، أو هو يرى الرجل، ويتلقى من عينيه شررًا حارقًا، أو يسمع منه تحذيرًا لا يسمعه كل السائلين. في كل مرة بدأ «محروس» الكلام، ثقل لسانه، وارتعش جسده، وقال للناس وهو ينفض جلبابه الواسع من غبار الشارع: لا يمكن أن أزيد.

ما كان مأذونًا له أن ينطق به كان شحيحًا، لا يشفي غليل كل الذين أكلتهم الأسئلة التي تتكاثر بمرور السنين. فكل ما عرفوه إلى جانب ما سبق أن صرح به، وهو كل شيء، أن أحد خفر الرجل الغريب طلب منه أن يحكي له عن كل ما يدور في القرية، يصف له البيوت، ووجوه الناس، رجال ونساء وأطفال، وعدد البهائم في كل بيت، ومساحة الأرض التي يملكها كل فلاح، وأبرز الحوادث التي مرت بالقرية من

أحزان وأفراح، ثم أشار إلى شاب كان يجلس على مقربة منه أن يدون كل ما يقال في ورق ناصع البياض، ممتد لا تبدو له نهاية.

يفتح الشاب، الذي لا أحد يعرف اسمه، صفحة الدفتر، ويغمس ريشة في محبرة، ويبدأ في الكتابة، فيطوي أمامه كل مساحة تمتلئ بالحروف. تمتد مساحة أخرى بيضاء. هكذا، حتى ينتهي، فتكون الورقة قد انطوت. صارت أسطوانة بيضاء لا اعوجاج فيها. يمدها إلى الرجل المُهاب ويمضي.

هذا كل ما قاله «محروس» قبل أن يسقط ميتًا على أول القرية ذات ليلة. كان قبل أن تفارقه الروح بثوان معدودات يسعل. زجر كلبًا نبح عليه بشدة. طلب من أحد الساهرين أن يصب له كوبًا من قرفة تغلي في آنية من نحاس اسودت من طول استعمالها. كانت مدفونة في راكية نار صافية، تهتك ستائر الظلام التي يلفها نور خافت. ثم سعل مرة ثانية، وزجر من جديد الكلب الذي كان يقترب منه مادًّا لسانه يلهث. قبل أن يصل إليه كوب القرفة كان قد فارق الحياة. قلَّبه رجل يمنة ويسرة، فوجده جثة هامدة. صرخ فشرخ السكون المخيم على البيوت الخفيضة. تقلب الناس في مخادعهم. لمَّا توالى الصراخ هبوا فزعين. جروا ناحية الصوت الصارخ. وجدوا أمامهم وجه «محروس» ناظرًا إلى السماء.

كانت عيناه مفتوحتين، يتطاير منهما شرر كثيف. وجهه يدمي من جرح غائر، وكأن سيفًا قد شجه. جبينه صار فحمة. يده كانت مرفوعة في اتجاه الحديقة القريبة البعيدة. من فمه يخرج رغاء، يسيل على

الأرض كأنه سحابة بيضاء ممتدة، تحتشد فيها حروف تتساقط على التراب. تتلاشى قبل أن يتمكن أي من الواقفين حوله من قراءة ولو حرف واحد.

قال أحدهم: يبدو أن الرجل مسموم. الرغاء الذي يتدفق من فمه ليس عاديًّا.

قال آخر: بل عضه الكلب المسعور.

قال ثالث: جبهته محروقة وشعره، وكأنه قد دفن رأسه في راكية النار.

تدخل رابع، وهو ينظر إلى الحديقة وقال: ليست عضة، ولا حرقًا، ولا سُمًّا. هي رمية سهم أتته من خلف سور الحديقة.

عدلوه حتى استوى جذعه أمامهم. نزعوا عنه ملابسه. أشعلوا قشًّا من جديد، فهرب الظلام الراقد حول جثته. فحصوها جيدًا، فلم يجدوا أثرًا لقذفة سهم.

قال أحدهم: إنها صاعقة.

لكن الخفير طوح يده في الهواء مستنكرًا ما سمع، وقال في غضب: كنت إلى جانبه، ولو كانت صاعقة لقتلتني مثله.

وجموا حائرين، وهم يفكرون في الغُسل والكفن والدفن. وحده «رضوان» الذي شرد وهو يرفع عينيه إلى السور العالي، كان يصارع الأفكار المضطربة التي اندلعت في رأسه، فهزته هزًّا، فجعلت مَن

حولـه يعتقـدون أن حمى قـد أصابته فجأة من أثر ما يـرى، أو أنه يكتم دموعًا تتزاحم داخله وتريد أن تنفلت، لتغرق الوجوه والتراب.

تركهـم يتخبطون في الحيرة، وظل صامتًـا، فلمَّا عادوا إلى النجع، وأخلـدوا إلـى النـوم، خـرج هـو يمشـي حـذرًا، وانبعـث فـي الليل، يغالـب ارتجافـه، ويدفع قدميه اللتين لا تقـدران على حمله، في اتجاه الحديقة.

(4)

اقتـرب «رضوان» من الحديقة في جرأة. وقف عند السـور، يتطلع إليه، سـأل نفسـه: كيف أشـب عليه دون أن يراني أحـد؟ لاح له طيف «محـروس» فـي الظلام، فجفل وتردد. وخزه شـوك الأسـئلة. خارت سـاقاه، فسـقط مكانه مغشـيًّا عليه، وكأن صاعقة قد ضربته، أو سـهمًا رُشق في قلبه أو رأسه.

انتبه إلى يد تضرب كتفه في لطف. فتح عينيه، فإذا برجل لم يرَ مثله من قبل، سخي اللحم والعظم، بهي الطلعة، يقف إلى جانبه حصان لم يرَ «رضوان» في قوته وملاحته. أمره الرجل: «اركب خلفي، أو أسـرع بعيدًا، فقد حان وقت الهروب.»

حـاول النهـوض لكـن شـيئًا كان يجذبه إلـى الأرض، بينمـا عيناه ذاهبتـان إلـى حيث صاحـب الوجه المليـح المهيب. مـد الرجل يده، وجـذب «رضوان» بقـوة. ألقاه فـوق الحصان بيد واحـدة. قفز خلفه، ورمح بعيدًا.

(5)

بينما الحصان يرمح هجم الماء عفيًا. طوفانًا كان أو سيلًا عرمًا، وليس مجرد فيضان كما اعتاده الناس. راح يجرف أمامه كل شيء. ضرب سور الحديقة العتيق فأسقطه. خلع الأشجار من مكانها. تهاوى النخيل. اندلع صراخ في النجع، اختلط بنباح كلاب ومواء قطط وصياح ديكة، ترسل استغاثة أخيرة قبل الغرق.

سقطت جدران بيوت الطمي فوق رؤوس مَن لم يتمكنوا من الفرار. مَن فروا جروا غربًا وشمالًا، يسابقون موجًا هائلًا يطاردهم، لكنه لحق بهم وجرفهم. ضاع كل شيء كأنه لم يكن. انتهت المعالم الدالة على أن حياة كانت تدب على الأرض هنا.

لم تبقَ سوى حكايات تلاها الناس على المصاطب في القرى الناجية بعد انحسار الماء كاشفًا الخراب والأوجاع.

(6)

رمح الحصان ساعات، وفوقه جسد الرجل يمزع الريح، و«رضوان» ملقى أمامه كأنه زكيبة شعير. بلغ ربوة عالية. كان الصبح قد انبلج عن نور غامر. ظهر اليمام في الأعالي يدور، بعد أن فارق الحديقة التي طمرها الماء.

توقف الحصان. ترجل مَن يقوده، ثم رفع «رضوان» وحطه فوق ربوة صلدة، كأن عاصفة هوجاء قد حملتها من الجبل إلى الأرض

الطينية في زمن سحيق، ونسيها الناس. غمز الرجل كتف «رضوان». ضرب خده خفيفًا حتى أفاق، فإذا بالشمس بازغة فوق سن الجبل.

ضرب شعاع الشمس عيني «رضوان» ففتحهما، فرأى وجهًا عليه آثار نعمة مقيمة، مستديرًا كالبتاو، وناعمًا كالدقيق. يشع منه نور عجيب، لا يقدر مَن ينظر إليه على أن يستبين الملامح المدقوقة فيه في انتظام وامتثال.

سأله «رضوان» وهو يرتجف: مَن أنت يا عم؟

ابتسم الرجل، وقال في هدوء: أنا الذي حملك من الهلاك إلى النجاة.

سأله: أي هلاك؟

أجابه: الفيضان جرف أمامه حديقتي بأشجارها ورجالها وماشيتها وطيورًا كانت نائمة في الخنان. هجم الماء على نجعكم فكأنه لم يكن. لم ينجُ سوانا.

فزع «رضوان» لما سمعه، وسأله: هل مات أهلي؟

كرر ما قاله: لم ينجُ سوانا.

انهمرت دموع غزيرة من عيني «رضوان»، وبرقت في شعاع الشمس، ونور الوجه الذي يتطلع إليه في امتنان عجيب. سأل الرجل: وأنت، أين أهلك؟

صمت برهة، وقال: لم أتزوج قط، ولم أقترب يومًا من أنثى.

سأله: أراهب أنت؟

أجاب: لا، لكن اكتفيت بذاتي.

استرد «رضوان» شجاعته الهاربة، وسأله من جديد: هل أنت عنين أم عقيم؟

رفع الرجل وجهه في اتجاه الشمس التي كانت قد فارقت سن الجبل، وقال: في الحياة ما يُشتهى غير النساء.

ثم مد يده فنهض «رضوان» وسار به إلى خص صغير من البوص والجريد على طرف الربوة، ووقف أمامه، ونادى: يا مجذوب.

كان رجل ينام في ركن الخص، فنهض يفرك عينيه. حين رأى الرجل تهلل وجهه، وقال: سيدنا العظيم. انتظرتك منذ أن زرتني قبل سنين تعبت من عدها.

نظر الرجل إلى «رضوان»، ثم إلى المجذوب، وقال له: أوصيك بهذا الفتى خيرًا، اعتبره ابني الذي لم أنجبه. أما أنا فذاهب لأفعل ما ينبغي عليَّ.

وسأله المجذوب وهو يملأ عينيه من نور الوجه المستدير: ماذا ستفعل؟ فأجابه: سأنبه الناس في كل قرية أصادفها إلى هجوم الماء، حتى أصل المحروسة، وهناك مقامي إلى جوار الحُسين. رحلة طالما أجَّلتها، وحان أوانُها.

دفع الرجل يده في خُرج يتدلى على جنب الحصان. أخرج صرة مملوءة بالنقود والذهب. مدها إلى المجذوب، وقال: هذه لك. لكن المجذوب قهقه حتى بان حلقه، وقال: أنت تعرف أن هذا ليس لأمثالي. ابتسم الرجل، وقال: هي للفتى، وأنت مؤتمن عليها. ثم وضع يده على كتف «رضوان» وواصل: وعليه.

دخل الرجل المهاب الخص، فإذا بصُرة مهترئة ملقاة وسطه، فتحها عن كسور يابسات. التقط واحدة منها، وراح يقضمها على مهل. شرب من قُلة ينز الماء من جسدها البني. خرج من الخص على مهل، حتى وصل إلى حصانه، وشب فوقه. ضربه في جنبيه خفيفًا بقدمين مدسوستين في خف لين، فانطلق نحو الشمال، يعاند الريح.

أمَّا اليمام، فبعضه راح يطير فوقه، والحصان يجري ما وسعه. بعضه حام حول الخص، ثم حط على أطرافه، وسكن.

(7)

نظر «رضوان» نحو الجنوب، وقال وهو يشير إلى البعيد: سيهجم الماء من هنا. ابتسم المجذوب، وقال: طالما هجم في سنوات بعيدة، ولم يبلغ في أي مرة تلك الربوة العالية، فلا تخف.

في اليوم التالي جاء الماء جارفًا معه جثث آدميين، وبهائم نافقة، وريش إوز وبط ودجاج، وأشياء كانت عزيزة في البيوت التي انهارت

بيـن غمضـة عيـن وانتباهتها، وجذوع وفـروع شـجر، وعراجين نخل وجريد، وقوارب صيد لم يتمكن أصحابها من رفعها بعيدًا.

دار الماء حول الربوة، فصارت جزيرة ناجية، ليس عليها سوى رجل وفتى، وخص هش، وسرب يمام يطير فوق الموج الهادر ويعود.

(8)

انتبـه «رضوان» بعـد أيام إلى أن قُلـة المجـذوب لا ينقص ماؤها، وصـرة الخبـز كلمـا أكلا منهـا سـويًّا عـادت ممتلئة. أخرسـه العجب أيامًـا، ثـم سـأل المجـذوب: مَـن أنت يا عـم؟ ابتسـم، وقـال: دعك منـي، فأسـماء أمثالي يجب ألا تهـم أحدًا، ألم تسـمع الرجل المهيب يناديني بالمجـذوب، حتـى هو لا يهتم باسـمي، ولم يسـألني عنه في مرتيـن التقيتـه، مرة جاء حين ناديته وسـمعني، والأخـرى حين أتى به المـاء المنهمـر. ثم نظر إلى «رضوان»، وقال: المهم هو اسـمك أنت، وبالأحرى اسـم جـدك، فهو مَن سـيظل يتردد في هـذا المكان، يغيب سنين طويلة، ثم يعود، ويبقى.

وضع «رضوان» رأسه بين كفيه، وأجهش بالبكاء، ثم رفعهما، وقال: انقطع ما خلفـي، فأبي وأمي وإخوتي ماتوا في الفيضان، وقراريط أرض كنـا نزرعها أكلها الماء، وربمـا لا تعود. وضع المجذوب يده على رأس «رضـوان» وقال: انظر أمامك، فمَـن أتى بك إليَّ يعرف مثلما أعرف، أن هذا مكانك، وأهلك إلى آخر الزمان. ثم أمسك المجذوب يد «رضوان»، وقـال له: أنت رضوان بن عبد القيوم بن خليفة بن عرفان بن سـدَّاد. فتح

«رضوان» عينيه متعجبًا، وقال: هذا ما حفظني إياه أبي. ابتسم المجذوب، وقال: أبوك لا يعرف مَن كان جدك الكبير، لقد كان صاحب سر عظيم. كان أمهر جندي في جيش منتصر، فلما بغى الجند خالفهم، ولم يرضَ أن يلطخ سيفه بدم أحد، رمى السيف، وعاش شهورًا في جوع وحاجة، حتى صفت روحه، وحمل الفأس، فأكل من ضرباته حتى مات.

شرد المجذوب قليلًا، ثم عاد: جدك رأى الطريق في الفأس، لكنه لم يضربه إلا بمقدار ما يأكل وأهله.

- ومَن أتوا بعده؟

- حافظوا على ما كان عليه، فعملوا أجراء في أرض الناس، حتى جاء أبوك.

- ذرية بعضها من بعض.

- معك ستفيض الفأس بما فوق حاجتك، لكنك لن تبخل على أحد.

(9)

انحسر الماء، وظهرت الأرض حول الربوة، فتطلع «رضوان» إليها، ثم نقل بصره إلى المجذوب وسأله:

- أرض مَن هذه؟

- ليست لأحد، إنما هي طرح النهر، رواسب من طمي جاء من كل البلاد.

مد «رضوان» بصره فإذا بها أرض عفيَّة، تنتظر الحَبَّ، وقال:

- لي في الزراعة، فقد تعبت منها إلى جوار أبي سنوات.

- هل تريد زراعتها؟

- أريد، لكن أين لي بفأس لأغرس، ثم منجل لأيام الحصاد؟

- لا تتعجل، فالكل آتيك دون أن تبرح مكانك هذا.

وما إن انتهى الرجل من وعده، حتى ظهر في قلب النهر قارب عليه سبعة رجال، يمسك اثنان منهم مجدافين، يضربان بهما الماء على مهل. اقترب القارب من الشاطئ، ونزل الرجال. ساروا نحو الربوة، لا يقصدون غيرها. فوق أكتافهم فؤوس، وفي أيديهم مناجل، ومقاطف من خوص. فلمَّا صارت بينهم وبين المجذوب خطوات، تهلل وجهه، وقال لهم: مرحبًا، بأهل الطريق.

مد «رضوان» يده إلى أحدهم، فأخذها بين يديه، وقال له: أهلًا بحفيد «الصابر».

ولم يدرِ «رضوان» إن كان الرجل يصفه، أم ينطق اسمه، فنظر إلى المجذوب، فقال: ما أطيبه من اسم، إنه مقام لا يؤتاه إلا أولو العزم، وهذا يليق بك، فلتكن من الآن رضوان الصابر، فليس أفضل على هذه الأرض من رجل يغرس، ثم يصبر حتى يأتيه الحصاد.

(10)

التقـط «رضـوان الصابر» الرسـالة التي جاءته مـن حيث لا يدري. خـرج فـي البكـور يضـرب الأرض بفأسـه، ليهيئها للـزرع. نظـر إليه المجاذيـب، بعد أن خرجوا من الخص، ورفعوا فؤوسـهم في الهواء، وهبطوا إلى حيث كان.

«ما الذي تنوي زراعته؟» سـأله أحدهم، فأجابه: هذا موسم الفول، وبعـده موسـم القمـح والقطـن. وتذكر «رضـوان» الصُّرة التـي تركها الرجـل المُهـاب، فجـرى إلـى الخـص، وأتى بهـا، وسـكب منها في كفـه، فضرب ما فيها بعضه بعضًا فـي رنين، طرب له هو، لكن الرجال الواقفيـن لم يطربوا. مد ما في يده إلى أحد المجاذيب وقال: لنشـتري حَبَّ الفول من قرية قريبة.

هز الرجل رأسـه، وصعد إلى أعلى، ثم غـاب في الأرض الخلاء، يمشـي على الطين ولا تنغرس قدماه، حتى لـم يعُد أحد يراه. عاد عند الظهـر، يحمـل فوق ظهـره زكيبة فـول. حطها علـى الأرض وفتحها، فاندفعت إليها الأيدي، تغرف وتغرس.

شـق «رضـوان» قناة مـن عند النهـر، وقـف الرجال علـى فوهتها، يغرفـون بأيديهـم من الماء، فيجري في القناة، متوزعًا على السـرائب. فـي اليـوم التالي اشـتروا أواني فخارية، فـزاد الماء الـذي يجري نحو البذور. لم تمضِ سوى أيام حتى ظهرت البراعم عفيَّة.

أشـار صاحب الخص على «رضـوان» أن يدفن ما تبقى من النقود في مكان لا يعرفه غيره، فالرجل الجليل قد ترك المال له وحده، وكأنه كان يعـرف أنـه سـيعينه على أن يبـدأ طريقًا يُحصِّل فيـه رزقه من عرق جبينه. بعد أن اطمأن إلى اقتناع «رضوان» بما نصحه به، قال له: الرجل الذي حملك إلى هنا، سيسعى في خير كثير لك ومَن معك، لكن حين يأتيكم لن تراه عينيَّ.

(11)

انتبـه «رضـوان» إلى أن بقيـة المجاذيب ليسـوا كصاحب الخص، فهـم إن أكلوا من طعام نقص، وإن شـربوا من قُلة فرغت. حين اختلى بأحدهم، وسـأله عما استرعى انتباهه، ابتسم، وقال: ليس بيننا مثل مَن أتينا إليه، فنحن في أول الطريق. وتذكر «رضوان» ما قاله له المجذوب عـن جـده الذي اختـار طريقًا آخر، فقال في نفسـه: «إنمـا جاء الرجال ليزرعـوا ويحصدوا، ويأكلوا من عمل أيديهـم». أما المجذوب، فقال له: أتوا ليؤنسـوا وحدتك بعد رحيلي، وبذا أكون قد أديت الأمانة التي علقها في عنقي الرجل الجليل.

ذات ليلـة كان قمرهـا بدرًا، يمـلأ الأرض نورًا، مـات المجذوب. جمعهـم قبل أن يلفظ أنفاسـه الأخيـرة، وقال لهـم: أوصيكم بالطريق الذي عرفتموه. دفنوه إلى جانب الخص، وهموا أن يصلوا عليه صلاة الجنـازة، لكن أحدهم، قال: بل صـلاة الغائب، فروحه لن تفارقنا، إلا إذا نسينا العهد وخالفناه.

في أيام لاحقة، بنوا إلى جانب هذا الخص زاوية، ولم يهدموه، وقال «رضوان»، وهو يستعيد ما سمعه من المجذوب حين كان ثاني اثنين هنا: هو النقطة التي بدأ منها كل شيء هنا.

(12)

صار لكل مجذوب خصه، يكدح في النهار بين الزروع، وفي الليل يصلي ويلهج لسانه بالتسابيح قبل أن ينام. ولأن الفلاحين يرون أن المجاذيب من أهل الله لم ينازعهم أحد على الأرض التي طرحها النهر، بل كان جيرانهم في الأرض يشيرون عليهم أحيانًا بما يعرفونه من فنون الزراعة.

في كل ليلة جمعة يقيمون حضرة ذكر. ينشد أحدهم بصوت طليٍّ، يحمله الليل إلى آذان الذين يروون أرضهم ليلًا، أو يعزقونها على ضوء القمر، لا سيما في الصيف، هربًا من صهد النهار. بعضهم يترك ما في يده، ويهرع نحو الذاكرين. مع الأيام صارت للمجاذيب صُحبة في القرى القريبة من أخصاصهم.

أبلغهم «رضوان» ذات يوم، بأنه يريد أن يبني بيتًا، واقترح عليهم أن يكون لكل منهم بيته. ثلاثة منهم وافقوه، وأربعة أصروا على استمرار عيشهم في أخصاصهم. اختار الموافقين على الاقتراح بقعة على يسار الربوة وأقاموا عليها بيوتًا بسيطة.

رأى «رضوان» فتاة اسمها «مفيدة» تمشي وراء أبيها حاملة عنه الطنبور، فراقت له. مع كل مناوبة للري كانت تأتي، فراقبها جيدًا. فاتح

المجاذيب في أمر خطبتها، ففرحوا له. وجد الثلاثة الذين انتقلوا من الأخصاص إلى البيوت يفاتحونه في أمر زواجهم، فقال لهم متهللًا: يصبح الفرح أفراحًا.

بعد الحصاد، تزوج «رضوان» من «مفيدة». تزوج أحد المجاذيب من امرأة طلقها رجل من قرية بعيدة. تزوج الاثنان من أرملتين. كانت الفتاة والنساء ولودات، فلم تمضِ سوى سنوات قليلة، حتى أصبحت الربوة شاهدة على شغب الصغار.

أنجب كل مجذوب ولدًا وبنتًا، وأنجب «رضوان» ثلاثة أولاد وبنتًا. وكانوا قد زرعوا أشجارًا ونخيلًا، راحت تمتشق في وجه الريح، فسكنها اليمام وباض، وفقس بيضه عن صغار طير، كان يطاردها الأطفال كلما حطت على الربوة أو بين الزراعات.

كان الحصاد وفيرًا، فتمكن «رضوان» من ادخار مال، زاد به ما معه، حتى اطمأن إلى أنه صار قادرًا على تأجير أرض جديدة ليزرعها، وأتى إليها بفلاحين من قرى مجاورة، فانحنت فوقها ظهورهم يكدحون. نما الزرع عفيًّا، وزاد الحصاد.

(13)

كبر الصغار، فبنى «رضوان» والمجاذيب بيوتًا لأولادهم. تزوج أبناء «رضوان» الثلاثة من بنات المجاذيب. تزوجت ابنته من أحد أولادهم. أما الولدان الآخران فتزوجا فتاتين من قرية قريبة. تجاورت البيوت فأطلق عليها الناس «نجع المجاذيب».

حرص «رضوان» على أن يُعلِّم أولاده الثلاثة فنون الزراعة. أظهر أكبرهم «وهدان» براعة فائقة في هذا، فأسند إليه أبوه الكثير من الأمور، مطمئنًّا إلى حكمة كان يرجعها الأب دومًا إلى سلامة الطريق الذي سلكه أجداده، وبركة المجاذيب.

جاء جُند بعد ظهر أحد الأيام شاهرين سيوفهم، وكان «رضوان» يشرف على أنفار يحصدون القمح. دخلوا النجع، وسأل قائدهم: أين الزاوية؟ أشار إليها أحد المجاذيب، وهو يتوجس خيفة: إنها هذه. سألوه عن «رضوان الصابر»، فأرسل مَن يستدعيه، فلمَّا جاء أبلغه الجُند أن هناك مَن سعى لأن يحبس لهذه الزاوية رزقًا من قبل السلطان، وأن الموافقة قد جاءت، وأنه هو مَن سيقيم على هذه الأحباس، ويكون له حق الانتفاع بها، وينفق منها على أعمال البر.

وحين سلمه الجند مرسومًا سلطانيًّا بهذه الرزقة، قال له كبيرهم: هي معفاة من المكوس، لكن لتعلم أن من حق السلطان استعادتها في أي وقت شاء. هز «رضوان» رأسه في امتنان، وقال: أطال الله عمر السلطان المعظم.

في المساء رفع كفي الضراعة، ودعا كثيرًا للمجذوب صاحب الخص والزاوية، وللرجل الوجيه، الذي لا يخامر «رضوان» شك في أنه هو مَن سعى لتخصيص ارتزاق للزاوية. تحققت النبوءة التي أطلقها المجذوب الطيب قبل رحيله بأيام.

(14)

ضرب الطاعون البلاد، فمات خلق كثير، وانكمش أهل «نجع المجاذيب» في بيوتهم، واعتزلوا ساكني القرى المجاورة، واكتفوا بأنفسهم في أعمال الفلاحة. حين اضطروا إلى ذلك، أبلى الأولاد بلاءً حسنًا، إلا أن الوباء اللعين لم ينقشع إلا وقد خطف رجلين من المجاذيب، والابن الأصغر لـ «رضوان»، وثلاثة آخرين من أطفال النجع.

مع هذا جاءت لـ «رضوان» ما اعتبرها منحة في قلب هذه المحنة، فكثير من فلاحي القرى المجاورة ماتوا، ومَن لم تكن له ورثة، استرد أهل الحكم أرضه، فلمَّا عرضوها للبيع، وكانت قد سُنَّت في البلاد قوانين تسمح بالتملك، اشتراها «رضوان»، وأضافها إلى ارتزاق الزاوية وأرضه، واشترى أرضًا أخرى من تلك التي استأجرها، فصارت له زراعات كثيرة.

فكر «رضوان» في تخصيص جزء من أرضه لزراعة شتلات الفاكهة والخضراوات، فصار الناس يقصدون مشتله من كل القرى، لينفتح له باب رزق واسع.

ولمَّا اشترط أهل الحكم أن يُدفع عن كل فدان من أرض الارتزاق مائة درهم دفعها عن طيب خاطر، إذ كانت تغل له محصولًا وفيرًا. زاد المال في خزينته، فبنى مسجدًا على مقربة من الزاوية، وعلى سطحه بنى كُتَّابًا يصعد إليه الصغار من سلم حجري جانبي. جلب من إحدى القرى إمامًا للمسجد، كان عليه أيضًا أن يُحفِّظ الصغار القرآن.

أدرك «رضوان» أن النجع في حاجة إلى أهل الحرف، فتحدث مع مزين ونجار وحداد من قرية مجاورة، فأرسل كل منهم ابنه ليلتقط رزقه في أرض جديدة. حين جاءوا ساعدهم «رضوان» في بناء بيوت لأسرهم، فانتقلوا إلى النجع عن طيب خاطر.

فاض المال في جيب «رضوان» فرأى أن يبني لنفسه سرايا وسط الزراعات. غرس حولها أشجار الفاكهة، وأحاطها بسور من شجر الوحواح الممشوق، وبينه أشجار الدرادكس ذات الأشواك المسنونة. احتاجت السرايا إلى خدم، فجلب رجلًا يسمى «بخيت»، كانت له زوجة وبنتان وثلاثة أولاد، فصاروا جميعًا من خدم السرايا وعُمالها.

حين ركب «رضوان» النهر ذات يوم لزيارة مسجد الحسين في المحروسة، عاد ومعه جاريتان من سوق الجلابة، واحدة من بلاد الحبشة، والأخرى شركسية. الأولى لها سمرة رائقة، وجسد لولبي ساخن. الثانية كانت حمراء ذات عينين زرقاوين.

اشتعلت الغيرة في قلب «مفيدة»، وهي ترى في ذهابها وإيابها «رضوان» منشغلًا بجاريتيه الحسناوين. حاولت أن تجاريهما، فاهتمت بزينتها، لكنها يئست من كف زوجها عن الشغف بالجاريتين. ولمَّا ضجرت، واستعانت بولديها المتبقيين على قيد الحياة «وهدان» و«طاهر»، لجأ هو إلى إمام المسجد، فقال لسيدة السرايا: ملك يمينه ولا تثريب عليه، وعليك بالصبر.

أدركت الجاريتان ما تشتعل به نفس سيدتهما، فكانتا تحضان «رضوان» أمامها على ألا يهملها، وقالت له الحبشية ذات يوم: «هي

الأصل ونحن الفرع»، ونقل قولها إلى «مفيدة» فرضيت بنصيبها، لا سيما أن «رضوان» كان قد أهملها قبل استقدام الجاريتين، منشغلًا بالأرض، وفض نزاعات تنشب بين حين وآخر في النجع والقرى المجاورة، الذي صار هو كبيرها جميعًا. لكن مع قدوم الجاريتين، استرد صباه، بفضل وصفات العطارين. وكان كلما صار في فراش «مفيدة»، قال لها: لم تشبعني غيرك.

كان يكذب، لكن زوجته أسعدها أن تسمع منه ما لم يقله حتى في أيام العسل، وقبل أن تنجب له أولاده الثلاثة وبنته. ارتاحت «مفيدة» لالتزامه بشرطها، وهي ألا ينجب من أي جارية، فكان يأتي كلًّا منهما في أيام لا تحمل فيها النساء. ساعده على الإيفاء بما تعهد به اختلاف أوقات الطمث بين الجاريتين.

وحتى الخادمات من «آل بخيت» كن لا يسلمن من تلصصه عليهن وهن ينظفن السرايا، أو يقدمن له الطعام. كان يكتفي بالنظرات الطويلة إلى عجيزاتهن المكتنزات، أو مغازلتهن بين حين وآخر، فكن يعتبرنه رجلًا فاضلًا أسكن الله في قلبه محبة الذِّكر والأرض والنساء.

حين أنجب «وهدان» ابنه «غنوم»، نظرت «مفيدة» إلى «رضوان» وقالت: صرت جَدًّا، وعليك من الآن أن تحتشم. لكنه لم يطاوعها. استمر على حاله حتى مات وهو في الخامسة والثمانين، يمشي بلا عكاز، ويصلي واقفًا، ويطوح رأسه في حلقات الذِّكر، ويشمر عن ساعديه أحيانًا لينزع بالفأس الحشائش النابتة حول جذور أشجار الحديقة.

كان قد اشترط على ولديه أن يدفناه إلى جوار الزاوية، في وسط قبور المجاذيب الثمانية، ثم دفنوا بعد سنة واحدة أمهما إلى جواره.

(15)

لم يُنقص «وهدان» الأرض التي تركها له أبوه، بل زادها. زاد أيضًا عدد المحاريث التي تجرها الثيران. شق ترعة تسحب الماء من النهر، وتوزعه على قنوات تمزع أرضه من أدناها إلى أقصاها. أقام جسرًا ليقي الزرع من الفيضان حين يأتي، وأقام قنطرة يجري من تحتها ماء الترعة في قواديس فخارية واسعة، جعل أمامها بابًا من حديد، يوصده الفلاحون إن هجم الماء.

كان «وهدان» على النقيض من أبيه، فاكتفى بزوجته، رغم أنها لم تنجب له سوى ولد واحد، ثم انقطع حملها. حرم على نفسه الجاريتين لأن أباه قد وطأهما سنوات، وكانتا تقربانه في العمر. ومع أنه اشترى جارية أخرى، فقد أبقاها إلى جوار أمه ترعاها حتى فارقت الحياة.

هام «وهدان» بتربية الخيول، فبنى إسطبلًا بالقرب من السرايا. يركب أي فرسة يستملحها، ويرمح فوق الجسر، ليشرف على العمل في أرضه بنفسه، رغم أنه عيَّن فلاحًا أمينًا خوليًّا عليهم، وجعل له أربعة مساعدين.

وكما فعل معه أبوه حرص على أن يُطلع ابنه على كل شيء. كان يترك له الإشراف على الأرض أيام ابتعاده عنها في زياراته المتكررة

إلى المحروسة حيث يزور مسجدي «الحسين» و«السيدة زينب»، أو قصده مقامي «أبو الحسن الشاذلي» في «عيذاب» أو سيدي «عبد الرحيم» في «قنا»، أو في الأيام التي ذهب فيها إلى أرض «الحجاز» ليحج إلى بيت الله الحرام.

وكلما عاد من رحلته، أقام حلقة ذكر، يأتي إليها بمشايخ الطرق الصوفية. استمال بعض المريدين أن يسكنوا النجع فأطاعوه، وكان يقول دومًا: لا يجب أن يخلو النجع من المجاذيب. ولما سمعه «غنوم» يقول هذا ذات يوم ضحك، وقال: كيف يخلو وسيد الزمام هو أكبر المجاذيب؟

(16)

كرَّت الأيام على حالها، لا يتغير فيها إلا شراء «وهدان» لأرض جديدة، حتى جاء يوم ليس ككل الأيام. طار خبر أن بني عثمان قد دخلوا المحروسة، وشنقوا السلطان المملوكي طومانباي. نزل الخبر كالصاعقة على رأس «وهدان»، ورآه «غنوم» مهمومًا، لا يبرح السرايا، فقال له: لم ينزعوا الملك منا حتى نأسى عليه. صمت برهة، وقال: لا تنسَ أن مَن ذهب ملكهم هم مَن خصصوا لنا أرض الارتزاق، وأقروا ملكية الأرض فصار لنا منها الكثير. هز «غنوم» رأسه، وقال: لا أعتقد أن شيئًا سيتغير، وقد ينكسر الغزاة.

لكن وقع ما قدره «وهدان». وضع السلطان، الذي أتى من بعيد غازيًا، يده على كل أرض مصر، وأعاد توزيعها وفق نظام جديد،

يزرعها القادرون، مقابل تسديد ما عليها، ليذهب الخراج في نهاية الأمر إلى «الآستانة»، ويكدح فيها الضعفاء بالسخرة، أو لقاء مبلغ زهيد.

بدأ التوزيع في وجه بحري، ولم يمضِ وقت طويل حتى كان جُند بني عثمان على أرض الصعيد. كان «وهدان» مستعدًّا لهذا اليوم. فتح خزينته العامرة بالنقود والذهب، فدفع منه الكثير كي تبقى أرضه معه، بل أضيفت إليها أرض أخرى في الشمال، نزعت من أصحابها، حتى صار واحدًا من كبار الملتزمين في بلاد الصعيد.

بقيت أرض أخرى في الجنوب، مد «وهدان» بصره إليها، وفاتح السنجق المملوكي الذي عيَّنه بنو عثمان، لكنه قال له: ستؤول إلى شاب في مثل عمر ابنك، يقال له إبراهيم الجابر، دفع الحلوان، وسُجلت له في دفاتر الروزنامة.

(17)

قبل أن يستلم «إبراهيم» أرضه، جاء إلى سرايا «وهدان» صُبحًا، وطلب مقابلته. قادته الخادمة إلى بهو وسيع، فجلس منتظرًا، يغالب دقات قلبه، وهو يوقن أنه الطرف الضعيف في علاقة جوار يجب أن تدوم.

هبط إليه «وهدان» من الطابق العلوي، فلما رآه «إبراهيم» نهض ومشى نحو. صافحه ثم اقترب وقبَّل رأسه، وقال: أنت في مقام

والدي، وسيرة المرحوم الوالد «رضوان»، عاشت في بيتنا سنوات، ولا تزال.

كانت بداية مريحة، بددت مخاوف «وهدان» وهواجسه. ومع أنه كان يريد أن يضم الأرض الواقعة في جنوب النجع إلى التزامه، لكنه لم يبتئس كثيرًا حين آلت إلى غيره، فما صار بحوزته أكبر مما كان يحلم به، حتى وإن غيَّر أهل الحكم الجدد شكل العلاقة بين كبار المزارعين والأرض.

نظر في وجه «إبراهيم»، وقال:

- كيف كانت سيرة أبي تُروى في بيتكم؟

- الوحيد الذي أنقذه السيد الكبير المهاب، الذي قيل إنه صديق السلطان، ورضي صاحب الخص أن يشاطره خلوته.

هز «وهدان» رأسه مستملحًا ما سمع، لكن لم يستطع أن يخفي العجب السابح في بحيرتي عينيه. وكان «إبراهيم» شابًّا ذكيًّا، ففطن إلى ما يدور في رأس الرجل الذي يجلس إليه في تأدب، فقال، وهو يشير من النافذة: المجذوب صاحب الخص والزاوية والضريح يمت بصلة قرابة لجدي. مد «وهدان» بصره إليه، فواصل «إبراهيم» دون أن تفارق الابتسامة مُحيَّاه: جئت طفلًا إلى هذا النجع لزيارة زاوية المجذوب مع والدي، وشعرت براحة عجيبة في هذا المكان، وتملكني إحساس وقتها بأن لي هنا أيامًا.

سأله: هل جئت لزيارة الزاوية؟

– أبي تاجر، جاء ليشتري القطن منكم يا سيدي، ثم أخذني لزيارة الزاوية، وحكى لي عن صاحبها.

– مَن أبوك؟

– اسمه «مساعد الجابر».

– أعرفه، ويبدو أنه قد أورثك الكثير.

– هل تقصد المال؟

– الصفات والمال، وربما أشياء أخرى.

ودخل «غنوم» فقال له أبوه، وهو يشير إلى ضيفه: جارك في السنين القادمة.

(18)

بنى «إبراهيم الجابر» في شمال أرضه بيوتًا لفلاحين جاء بهم من مسقط رأسه، وقيل إن أغلبهم من أهله. كانت تفصل بين البيوت وبين «نجع المجاذيب» مسافة قصيرة.

مع الأيام راحت بيوت أهل «الجوابر» تنمو في اتجاه الشمال، وبيوت النجع من «الصوابر» و«آل بخيت» تتمدد في اتجاه الجنوب، حتى تلاقتا، فأضيف ما بناه «إبراهيم» إلى النجع، ولم يكن لديه أدنى اعتراض على أن يصبح السيد «وهدان» هو كبيره، وأن يؤول هذا الموقع إلى ابنه من بعده.

حتى حين بنى «إبراهيم» بيتًا لنفسه، وآخر لأخيه «يونس»، لم يجعلهما بالاتساع الذي عليه سرايا «وهدان». كان يعرف أن الرجل قد ورث عن أبيه «رضوان» هيبة كبرى في المكان، وله صلات جيدة بقادة المماليك في زمام الصعيد، ضاربة جذورها من قبل حُكم بني عثمان، وأن الناس يحبونه ويكبرونه، وشخص مثله يجب على مَن يجاوره، لا سيما إن كانت أرض التزامه أقل، أن يتقرب إليه بالطاعة والمحبة.

لم يُغيِّر «إبراهيم» موقفه هذا بعد موت «وهدان» وذهاب الالتزام بما عليه لابنه الوحيد «غنوم» الذي كان قد تعلم من أبيه الكثير، لكن جاءت الأيام حبلى بما لم يكن في الحسبان.

اشتعلت النفوس بالغضب. نفرت العروق من فرط الغيظ. بدأت أيام عصيبة، لم يكن أي من أهل النجع وقتها يظن أنها ستطول، وتزرع في طريقها حكاية غريبة طويلة، يرويها الناس جيلًا بعد جيل.

ورفع القوَّال ربابته في وجه الغضب العارم، وأنشد بصوت مجروح:

الأرض وش مقسوم بين الغنم والديابة

والفتنة لمَّا تقوم تكسر قلوب الغلابة

الصَّوابِر والجَوابِر

(1)

سرى عزف الرباب يداعب نسائم الليل، وقلوب الساهرين، وينذر بما هو آتٍ في قادم الأيام. دار في الفضاء قليلًا، وعاد إلى آذان السائرين والجالسين والنائمين. هز الفلاحون العائدون من حقولهم في المساء رؤوسهم ألمًا. رقصت النسوة دامعات في البيوت. دار الصغار حول أنفسهم موزعين بين ضحك وبكاء. هاجت البهائم في الحظائر، فاختلط الثغاء بالنعير والنهيق. نقنق الدجاج، وزبط الإوز، وهدل الحمام، وهو ينظر إلى سماء طليقة حانية، شاهدة على الغربان والثعابين والتماسيح والضباع التي تفكر وتنطق، وتزرع في الأرض شرًّا في طريق مَن يشدون عربة الحياة الثقيلة إلى الأمام.

(2)

كان الناس نائمين حين غضب الماء. تصادم السحاب فوق الهضاب البعيدة، وتدفق الموج غزيرًا من بين الصخور، فجرف أمامه كل شيء. لم يصلهم خبر ما جرى هناك حين ذهبوا إلى مخادعهم البسيطة، يتوسدون أذرعهم التي كلَّت من الكدح نهارًا في الحقول، ويحلمون بصبح لا يختلف عن المساء.

شـق صـراخ قلب ليلة صيـف صافية في «نجع المجاذيب»، سـبقه نباح الكلاب. انتبه صاحب أول بيت على طرف النجع، فهب مفزوعًا، يفـرك عينيه، ويرسـلهما إلى عمق الظـلام، وهو يقاوم التثـاؤب، لعله يتبيـن مَـن يصرخ، لكنه لم يكن في حاجة إلى هذا، حين سـمع الكلمة التي يعرف ما يأتي بعدها: فيضان.. فيضان.

كررها الرجل في صراخ يشتد. ضربت قدماه التراب الذي سيصير بعـد قليل طينًا، فأثار عجيجًا خلفه، وهو يجري في الشـارع العمومي. مرق صراخه من النوافذ الضيقة، واقتحم الغرف المقبضة. سـمع أزيز أبواب البيوت وزمجرتها، ثم شاركته الصراخ، واحدة، فاثنتان، فثلاث من النسوة اللاتي يعرفن جيدًا ما ينتظرهن.

زاد العدد في ثوان معدودات، آتيًا من كل الشوارع الضيقة والأزقة، مختلطًـا بعويل ونحيب، وأصوات صغـار بدت كثغاء عنزات جوعى. فرقـع دق الطبـول، لينبه النـاس، فأدركوا أن كبيرهم قـد وصله الخبر. كان قـد أطلق خفـره وخدمه ينبهون، على طريقة سـيدهم، مَن لا يزال غافلًا من أهل القرية.

انفتحـت أبـواب الـدور عـن آخرهـا، واندفـع منهـا الفلاحـون وزوجاتهم وأولادهم. كل واحد يسحب ما لديه من ماشية، بقرة كانت أو جامـوسـة، أو حمارًا لا غنى عنه في أي بيت. بعضهم كان لديه قليل من الضأن والماعز، فساقه أمامه. جرت الكلاب فالتحقت بأصحابها، تبعتهـا كلاب الشـوارع وقططها التي لا صاحب لها. الكلاب سـارت إلى حيث يمضي الناس خائفين.

حملت النسوة ما قدرن عليه، من الأواني الرخيصة والطعام. مَن لديها شيء من ذهب أو فضة طوقت به معصميها أو عنقها على عجل. حتى الصغار حملوا ما استطاعوا من أشياء البيوت القليلة.

كانوا يعرفون إلى أين يذهبون، فتزاحموا نحو الجسر، حين بلغه أولهم كان آخرهم ينسحب من طرف الشارع المؤدي إلى الزروع. لم يفكر أي منهم في أن يقف لينظر خلفه، فيرى ما إذا كان الماء الهادر قد اقترب أم لا، فأخطار الطبيعة في لحظة المداهمة لا تحتاج أحيانًا إلى مواجهة، إنما هروب، ولا شجاعة في البقاء داخل بيوت إن بلغها الماء عفيًّا لن تصمد سوى ساعة ثم تنهار، كأنها لم تقم ولو دقيقة واحدة من نهار أو ليل.

كانت أقدام السابقين تثير الغبار على اللاحقين، فيتصاعد كثيفًا، ويحجب النجوم الزاهية، لكن أحدًا لم يتوقف بحثًا عن نسمة صافية شاردة، فيمد إليها أنفه، ويلتقط أنفاسه المبهورة. كان عليهم أن يسبقوا خطواتهم ليبلغوا الجسر، فيضعونه بينهم وبين الماء الذي لا محالة بالغه بعد وقت قصير.

تجمعت النساء والصغار في الخلف، وعلى الطرف الأيمن دُقت الأوتاد للبهائم، وأُدخلت الأغنام والماعز إلى حظيرة واسعة من الجريد، ووقفت أمامها الكلاب تحرسها، بينما استعدت الحمير لمهمتها الخالدة.

يضرب رجال فؤوسهم في الأرض، ويرفعون التراب إلى المزابل المنصوبة فوق ظهور الحمير. آخرون يجمعون القش، وأعواد الذرة

الجافة المكوَّمة على الجانب الأيسر، ثم يُرمى هذا فوق الجسر، ويُهال عليه التراب، لعله يرتفع قليلًا، في المكان الذي يحتمي فيه الناس من هجوم الماء.

بينما هم غارقون في عرقهم، انشقت الأرض عن الشيخ «غنوم الصابر» فوق جواده، يلهب حماسهم بقوله الذي اعتاد تكراره في المُلمَّات: «الهمَّة يا رجالة».

(3)

أكل الماء النجع. راح كأنه لم يكن كما تركه الأوائل، واحتفظوا باسمه معتقدين أنه يأتي إليهم بالبركة ونعمة العيش ولو على الحافة. وحده قصر السيد الذي بقي واقفًا، يصد عنه سور صلب، ومعه بيت «آل الجابر» الذي كان نصف جدرانه من أحجار الجبل. شارك النخيل والأشجار العالية هذين البيتين الصمود، ومعهما مئذنة الجامع الذي كان الجد «رضوان» قد بناه بالأحجار قبل خمسين عامًا أو يزيد.

اختفت المعالم التي ألفتها العيون سنين عددًا، ولم يبقَ منها سوى الحسرات على ما ضاع. انقبضت القلوب بالمخاوف من الأيام الآتية، وكاد يقتلها القلق العارم. لم ينعقد الرجاء سوى في كرم صاحب القصر، الذي يعرف الناس كيف يجود بكل ما يقدر عليه حتى تنزاح الغُمة.

للقصر طريق آخر إلى الجسر، لا يصل إليه الماء، فيصبح هو الرئة الوحيدة التي تتنفس منها القرية طوال أيام الفيضان. ينفتح الباب

الخلفي عن العبيد والخدم، وهم يحملون قفف الخبز، وبلاليص الجبن القديم والعسل. ينبعثون وسط الناس، يوزعون عليهم ما حملوه.

الشيء الوحيد الذي لم يتغير في حياة المنكوبين هو قضاء حاجاتهم، إذ لم تكن في بيوتهم أكنفة ولا مراحيض، فكانوا يتسللون إلى الغيطان. يحفر كل منهم التراب تحته، ولمَّا ينتهي، يهيل التراب على ما أفرغه، فيصير للزرع سمادًا. النسوة كن قد اعتدن إمساك ما في البطون، حتى يجن الليل فيتسللن إلى الزروع، أو يقضين حاجتهن في أحواش البهائم، أما الرجال فلهم النهار والليل كالعادة. الصغار، الذين يتبولون في الشوارع، لم يكن شيء يمنعهم عن التقدم نحو الجسر، فيقضون حاجتهم الثقيلة على طرفه فرحين، وكأنهم ذاهبون إلى اللعب.

مع الأيام غاض الماء. جاء بغتة، ورحل على مهل. وقف الفلاحون فوق الجسر، ينظر كل منهم إلى زرعه الغارق والماء ينجاب عنه رويدًا رويدًا، حتى ينحسر. اقتلع الماء كثيرًا من الزرع، وأفسد ما تبقى، لكن هذا كله كان في نفوسهم، على قسوته، مقدورًا عليه. أما ما لا طاقة لهم به فهو غياب البيوت. تهاوت جدران الطين اللبن واستوت، وجرف الماء بعضها، فصارت أرضًا أخرى صالحة للزرع، ورعي الماشية، وقت أن يعود إليها النبات من جديد.

وقف فلاح على أعلى نقطة فوق الجسر، رفع إصبعه وغمسها في الخلاء، وقال: كان هنا بيتي. تبعه الجميع، وكل منهم يتحرى موضع بيته

بين الغرقى، ووجوههم يكسوها الأسى من فرط خوفهم مما ينتظرهم من جهد في سبيل إعادة القرية التي صارت أثرًا بعد عين. حتى الأطلال حرمهم الماء منها، ولم تبقَ سوى الذكريات الحارة الحيَّة.

سرى بينهم خبر، وهم يتابعون انحسار الماء في رجاء وحسرة، أن سيد القرية سيختار لها موضعًا آخر، خلف الجسر، من أرضه الفسيحة. أشاع شيخ الخفر بينهم ما تقرر، وهو يقول: سيبنيها سيدكم من ماله، والجهد عليكم.

هللوا، ورفعوا الأكف إلى السماء داعين له بطول العمر والبركة. لاحت في عيونهم أيام جديدة، بعد أن أجيبوا عن سؤالهم: متى نبدأ؟ فقيل لهم: اليوم، قبل الغد.

قسَّم المَسَّاح الأرض. أعطى «الصوابر» المكان القريب من القصر على اليسار في وجه النسيم. عن يمينهم بيوت «الجوابر». أعطى «آل بخيت»، الذين منهم عبيد السيد وخدمه، قطعة أرض في الخلف، إلى جانب بيوت النصارى. كان في القطعة الأخيرة شارع صغير فيه مكان للمزين، والنجار، والحداد، والمقرقرين الذين يذرون أجران الحصيد، وكانوا من النصارى. أقيم دكان بقالة يتبضع منه الناس ما يأتي به من البندر صاحباه «إسحاق» و«باراك»، وهما اليهوديان الوحيدان في القرية، مع زوجتيهما، ولهما أربعة، ولدان وبنتان.

حدد المسَّاح الشوارع والحارات، وحرص على أن تكون مستقيمة، على خلاف ما كانت في القرية الغارقة. لم يحرم كل واحد من جاره

عن اليمين والشمال، وفي الأمام والخلف، وكان كل هذا ليس خافيًا على مَن يمسك قصبة القياس، ويرفعها ثم يحطها على الأرض ليقرر مصير الناس.

وسط أهله اختار «إبراهيم الجابر» مكانًا لبيت جديد، بدلًا من بيته الذي صار وحيدًا هناك وسط الأراضي التي غمرها الماء. نقل أثاثه الثمين على الجمال والحمير. شارك «الجابر» صاحب القصر في بناء مسجد آخر، فُرش بالحصر، وبنى له جرجس النجار منبرًا من خشب الزان. سُمح للنصارى أن يتخيروا غرفة فسيحة، يقيمون فيها عبادتهم، وأشرف على هذا القس الوحيد في القرية. أما اليهوديان فقد كانا يلتقيان وأهلهما في بيت أي منهما كل سبت لتلاوة أجزاء من التوراة والمزامير والأدعية.

بنى خليفة شيخ الطريقة لنفسه خُصًّا من الجريد والبوص على طرف القرية، اختار له الربوة مكانًا ليواجه الخلاء والريح، وجعل له بابين ضيقين، واحد في اتجاه النيل والجبل الذي يحده من الشرق، والثاني يمكن لمَن يقف فيه إن دقق النظر أن يرى رمل الصحراء الغربية. أطلق الناس على الخص «خلوة المحب»، فالرجل طالما حدث الناس عن نبذ الكراهية.

عبر رجال إلى الضفة الأخرى حيث الجبل. رفعوا سواعدهم، وانهالت الأزاميل على الصخر تمزقه. حملته المراكب إلى حيث ستكون القرية الجديدة. كان السيد قد أمر أن يكون ثلث الجدران

الخارجية لكل بيت من الحجر، اتقاء فيضان آخر قادم لا محالة. حرص على أن تكون في البيت الواحد حظيرة للماشية، وغرفة للخزين، وأخرى للصغار، وثالثة لرجل البيت وزوجته.

رفعت النساء الطين في الطسوت والحلل. استوت المزابل فوق ظهور الحمير. حملت الجمال التبن من شونة القصر، والقش من الزروع الخلفية التي لم يمسسها ماء. خطف رجال مطالع النخل، ومعهم البُلَط المسنونة، فتهاوى الجريد، ليُقلِّمه آخرون، وينظموه في حبال فتلوها من ليف النخل، استعدادًا لفرشه على الأسطح المنتظر نصبها.

أسبوع واحد، وقامت في الدنيا بدايات قرية جديدة. أرباع الجدران قد وقفت، مطوقة الغرف المحددة. صار بوسع كل أسرة أن تضمن مكانًا يستر نصف الأجساد واقفة، وكلها مستلقية بعد ساعات الكدح المتواصلة بالنهار والليل.

في النهار تهدي الشمس كل مَن يبني بيته نورًا يساعده في الكدح. في الليل يتواصل العمل تحت المشاعل، التي أمدها قصر السيد بالزيت. وزعها الخدم والعبيد على كل الدور. نصبوا بعضها في الشوارع التي أخذت تتهيأ لأقدام السائرين.

ولمَّا انحسر الماء تمامًا عن البيوت المهدمة، نظر الرجال إلى أكوام طين بقيت من بعضها. شمروا السراويل وخاضوا إليها، يتلمسون الطرق إلى ما تبقى هناك من أشيائهم، التي لم يتمكنوا من حملها في تلك الليلة العصيبة.

وجدوا بعض الفخار، وحلل النحاس، وفؤوسًا ومناجل، لكن أغلبها جرفه الماء إلى بعيد. عرف كل منهم ما له، وعاد به. لكن الجميع استكمل بعض الأواني البسيطة، التي تحتاجها البيوت الوليدة من دكان اليهوديين الاثنين. جاء الفواخرية من قرى بعيدة وبغالهم تجر عربات كارو محملة بالفخار من كل الأصناف: قُلل وأزيار وبلاليص وقدور وزراوي وقواديس، ومن الصفيح والنحاس حلل وأطباق ومغارف، ومن الحديد فؤوس ومناجل وقواديم وبُلط، فابتاع الناس منها على قدر استطاعتهم.

دعا الشيخ «غنوم الصابر» سنجق الإقليم «خليل شهاب الدين»، فجاء على فرس أشهب في عصر أحد الأيام. نزل في القصر، وطلب «إبراهيم الجابر» فجاء على عجل. نظر إلى الصابر والجابر، وسألهما: هل اخترتما اسمًا للقرية الجديدة؟

تبادل الرجلان النظر، ولاذا بالصمت، وهما يهزان رأسيهما بالنفي. ابتسم الحكمدار، وقال: ما رأيكما أن نسميها الصابرية؟

وجم «الجابر»، بينما نطق «الصابر»: إذا وافق الحاج «إبراهيم»، فلتكن ما قلت. وقال «إبراهيم»: الأرض التي أقمنا عليها القرية هي لسيدنا، أعطاها للناس من فيض كرمه، فليكن هذا اسمها. التفت الصابر إلى الجابر، وقال: لكنك عوضتني بأرض بدلًا من التي منحتها لأهلك. ابتسم «الجابر»، وقال: أغلب المكان لك، وأهلك هم الأكثر، وما منح لغير عائلتنا كان منك، والكل هنا مدين لك بالكثير يا سيدنا. فعاد «الصابر» يقول: بعض أهل القرية تبرعوا بذهب نسائهم. قهقه

الحـاج «إبراهيـم»، وقال: هذه قطرة في بحر، ولـولا جودك لظل أهلنا في العراء. تمتم «الصابر» قائلًا: كنا نتبارك بالاسـم القديم، ونعرف أنه سمي لثلاثة من مجاذيب أبي الحسن الشاذلي، كانوا هم مَن بنوا أكواخًا هنا، والتف الناس حولهم متباركين بهم، وسموا النجع باسمهم.

قهقه السنجق، وسأل: أي بركة لمكان أكله الماء؟ فأجابه «الصابر»: بركة السـيرة القديمـة التي رواها الأجداد، والقـدرة التي مكنتنا من أن نعيـد بناء مـا تهدم أفضل مما كان. هز السـنجق رأسـه، وقال: الاسـم القديـم ذاب مع الماء، والبركة التي تحكـي عنها بقيت في يديك، وما سعيت إليه يستحق أن يحمل اسم عائلتك الكريمة.

انتهى المجلس إلى تسـمية القرية بـ «الصابرية»، وسـجل السنجق الاسـم في دفتره، وانصرف بعد أن تناول وجبة دسـمة في بيت السيد. وصل الخبر إلى الفلاحين المنهمكين في استكمال دورهم الخفيضة، فقال بعضهم: اسـم على مسـمى، فلا نظن أن هناك مَن صبر على غدر الماء في القُطر كله، مثلما صبرنا.

وخصص شيخ الجامع أول خطبة في المسجد الجديد عن فضائل الصبـر في القـرآن، وكذلك فعل القس أمام السـامعين منـه غارفين ما تيسر من الإنجيل، واستعاد اليهوديان آيات الصبر في التوراة.

(4)

عـادت أيـام الناس إلى سـابق عهدها، كدح في النهـار وغطيط في الليل، وساعتان بين الظهر والعصر يتجمعون في ساحة أمام المسجد،

يقضونها في التحطيب ولعب السيجة. أما في أول الليل فيحلو للصغار ألعاب «الاستغماية» و«دارت» و«البجعة».

على الجسر في أيام الربيع عادوا ينظمون سباق الحمير. في النهر يتسابقون في سباحة قلَّما تُبلغ واحدًا منهم الشاطئ الآخر. لكن بقي السباق الأهم لهم جميعًا هو ما تغله الأرض في مواسم الحصاد.

جاء فيضان العام التالي أقل، فغمر الأرض، ولثم الجسر، لكنه لم يتجاوزه، فنجت «الصابرية» من الغرق، ورفع أهلها أكف الدعاء لسيدهم، وهم يتغنون بحكمته التي أهدته إلى اختيار مكان يجعلها لا تستسلم لفيضان اعتيادي، ولا يقدر عليها إلا فيضان كالطوفان.

(5)

يطارد الشرُّ الخير، كما تطارد الضواري فرائسها فوق الجبل الذي يراه الناس إن ركبوا الجسر أو اعتلوا أسطح الدور. تُخبئ الأيام في جعبتها ما لا يكون في الحسبان، وترمي بحمم الجحيم إلى الجنة الوديعة الهانئة، فتغلي القلوب بالضغينة والبغضاء.

تهب العواصف على الزروع التي تنيخ للنسيم العليل في هدوء، وتضرب نوافذ البيوت، فتصطك محدثة جلبة عارمة، تثير في النفوس خوفًا مما يلوح في الغيب، لا سيما لأولئك الذين يعرفون أن الشيطان الرجيم لم يترك بقعة على الأرض إلا ونصب فيها فخاخه.

جاءت العاصفة ذات ظهر، فاقتلعت الأقدام التي ظن أصحابها أنها ستمضي على مهل، حتى آخر العمر. هاج الناس وماجوا، ولم يجدوا أمامهم أحدًا من الخلائق ليستجيروا به إلا سيدهم، الذي كان ينتظر مولوده الأول في لهفة وامتنان.

(6)

امتلأت باحة الديوان الفسيحة بالفلاحين. جاءوا بأقدام حافية، والشكوى تقف على ألسنتهم تريد الانطلاق، وأفئدتهم يعتصرها حزن شديد على ما جرى لأرض انحنت ظهورهم فيها شهورًا. كان النيل قد فاض من جديد، فغمر الزروع التي كانت على وشك الحصاد، وصدته الجسور، على قدر استطاعتها، عن البيوت الخفيضة، لكن الماء كنس العشش الواقعة على طرف قرية «الصابرية»، وطمر أكواخًا أقامها الفلاحون، فذاب طينها، واختفت آثارها تمامًا، بين مياه حمراء مغبرة برمال جبال الحبشة.

وقف الحاضرون صامتين في انتظار السيد «غنوم الصابر»، والأمنيات تسري في نفوسهم بأنه سينظر في مظلمتهم بعين العدل والرأفة، ويرفعها إلى الوالي فيعفيهم من دفع ما عليهم هذه السنة من أموال نظير استئجار أرض الالتزام.

حين دخل الشيخ من الباب أفسحوا له حتى جلس في الصدارة على أريكة عالية. رمى ظهره مفرودًا إلى مسند خشن، ثم اتكأ إلى حاشية قرمزية لينة، ونظر إليهم، بعينين يملؤهما القلق. كان قد ترك

زوجته تعاني من آلام المخاض، ولولا أن المصاب جلل، ما كان قد غادر قصره، وأتى إليهم على عجل في هذه الظهيرة القائظة.

تلفت الشيخ حوله، وسأل: أين القائمقام؟ فبرز رجل طويل القامة من طرف الحشد، ومشى نحوه، فأشار إليه أن يجلس عن يمينه، ثم سأل من جديد: أين الشاهد؟ فنطق شيخ الخفر: أرسلت خفيرًا في طلبه منذ ساعة.

أشار الشيخ بيده إلى الواقفين أن يجلسوا في أماكنهم، فالتصقت أجسادهم الملفوفة في أسمال بالية. عيونهم لا تفارق محياه. أفواههم مغلقة على كلام كثير مرير. كان الشيخ يتوقع ما حبسوه في صدورهم، فالأرض المحيطة بقصره، لم تنجُ من الغرق، فصار معهم فيما هم فيه، بل يسبقهم بخطوات، فقبل عام دفع الحلوان إلى الوالي، نظير توسيع التزامه، وجاء وقت السداد.

تنحنح الشيخ، وقال للفلاحين: اختاروا أحدكم يتحدث عنكم. تبادلوا نظرات حيرى، ثم حطت عيونهم على الخولي الذي جلس في منتصفهم. كان قد طاف أمس على الأرض جميعًا. أحصى الخسائر التي خلفها الفيضان، وامتلأت أذناه بشكوى الفلاحين من سوء الحال، ووعدهم بأن ينقلها إلى الشيخ، لكنهم لم يصبروا، وجمعوا أشتاتهم وأتوا مسرعين.

وقف الخولي، وقال: هلك الزرع، والبيوت خاوية. ضاعف قوله من أسى السيد «غنوم»، فهو لن يقدر فقط على جمع الإيجار نيابة

عن الفلاحين، بل عليه أيضًا أن يمد الناس بشيء من الغلال والعسل والتمر المخزن في شونته، وإلا جاعوا، أو يوزع على كل منهم مائة بارة على الأقل، يشتري بها طعامًا إلى أن يأتي الفرج بعد الشدة.

لم يكن الموقف جديدًا عليه، فالنيل طالما غضب بين سنة وأخرى، لكن غضبته هذه المرة كانت قاسية، إذ جاءت بينما الزروع قد حان حصادها، ولم تفلت منها سوى أشجار الفاكهة والنخيل.

كان مطمئنًّا إلى أنه لم يقصر، فقد فعل كل ما عليه قبيل هجوم الماء. أطلق الجرافات التي تجرها ثيرانه العفية، لتكدس التراب على الجسور. جاء بحفارين ساعدوا الفلاحين في تطهير الترعة والمصرف اللذين أمر بحفرهما قبل سنوات. بنى جدارًا من حجر أمام ثغرة نفذ منها الماء إلى البيوت في الفيضان السابق فهدم بعضها. أوصى خطيب المسجد، الذي بناه بالقرب من قصره البسيط، أن يُذكِّر الناس دومًا بالتعاون حين تندفع المياه، وطلب من الخفر أن يدوروا على البيوت ليدفعوا الفلاحين إلى حصاد زرعهم فور نضوجه، لكن جاء الماء قبل موعده الذي حسبوه، وأغزر مما توقعوه.

قبل أن يُكمل الخولي ما بدأه، وقف فلاح، وقال موجهًا كلامه إلى السيد: اعتدنا منكم الرحمة، فأنت رجل كريم شريف. ابتسم السيد، ورد: كلنا نستحق الرحمة في هذا الموقف العصيب. صمت برهة، ثم واصل: أنتم تعرفون ما عليَّ من التزام واجب السداد، وإن كنت أنا أشفق وأعذر، فغيري لا يريد إلا المال.

قال الخولي: العسكر العثمانلي والمماليك يعرفون ما جرى لنا ولغيرنا في بر مصر كله، وهذا لا يخفى على الوالي. فتدخل السيد «غنوم»: نامة التي أقرها السلطان العثماني، أعزه الله، تعطيني الحق في تخفيض مال الالتزام هذه السنة، لكنهم يعودون لتعويضه في السنوات اللاحقة.

أدرك الفلاحون أن هذا يعني أن نظير الإيجار قد يرتفع، فمَن يدفع ألف بارة سيكون عليه أن يزيدها إلى ألف وثلاثمائة. ومَن يدفع إردبًّا من القمح أو الفول أو الذرة سيزيده ثلاث كيلات على الأقل.

قال الخولي: قادر رب كريم أن يعوضنا في السنة القادمة. فنادى الشيخ على الكاتب، الذي كان يجلس على مقعد خشبي وفي يديه دفتر وقلم ودواة حبر، وقال له: سأملي عليك كتابًا إلى الروزنامجي.

فتح الكاتب دفتره، وغمس قلمه في الدواة، وتطلع إلى فم الشيخ، الذي أملى ما يُطلع به القائمين على الأمر، هناك في قلعة الجبل وحولها، لعلهم يرأفون بحال مزارعين أكل الماء ما غرسوا، ولم يترك لهم شيئًا. قبل أن يرسل مَن يركب النيل إلى القاهرة حاملًا رسالته، أطلع عليها الشاهد والصرَّاف والقاضي والكاشف، وطلب منهم التوقيع بأختامهم إلى جانب اسمه، حتى يصدقه مَن راسلهم، ثم عزم على أن يذهب بنفسه في اليوم التالي إلى السنجق المملوكي ليأخذ توقيعه وختمه على ما كتبه، والذي كان دائمًا يوافق على مثل رسائل السيد هذه، ثم ينصحه: أرسل هدية مع رسالتك، فهذه شفاعة مقبولة.

في اليوم التالي، قام الشيخ «غنوم» باستدعاء الخولي، وقال له: اجمع خدم القصر وعبيده. افتح الشونة، وأحصِ ما فيها من قمح وذرة وفول وعسل وتمر، اترك نصفه لنا، ووزع النصف الآخر على الفلاحين. لكل منهم على قدر ما يعول. صمت الخولي، برهة، ثم مال على أذنه، وهمس سائلًا: هل ما فيها يكفي يا سيدي؟

قبل أن يجيبه، قطع كبير العبيد الطريق إلى «غنوم»، ومال عليه، قائلًا: مبروك يا سيدي، جاء إلى الدنيا ابنكم، يتربى في عزكم. تهلل وجه السيد، وجال ببصره في وجوه الفلاحين الجالسين أمامه، وقال لهم: أراد الله أن يخفف عني الحزن، بمولود انتظرته.

تعالت التبريكات، وراح الجالسون ينهضون تباعًا، ثم انصرفوا صامتين. لم يبقَ منهم سوى رجل طاعن في السن، تتدلى لحيته الشهباء تحت عمامة بيضاء. كان يمشي على مهل متوكئًا على عصاه التي سواها من فرع شجرة نبق. تقدم إلى السيد بوجه مملوء بالبشر، فقام مستقبلًا إياه، حين رآه يمد إليه يده. صافحه، ثم قال: رأيت في منامي شيئًا طيبًا لك يا سيدي، وكثير مما أراه يتحقق.

نظر إليه السيد متعجبًا، متشككًا فيما سمع، لكن الرجل عاجله: يضع الله سره في أضعف خلقه. فهز السيد رأسه، وأنصت إليه، وقال: يعطي الله في الخفاء. تنحنح الرجل، وقال: احفظ مولودك من خطر آتٍ. سرى انزعاج في وجه الشيخ، وسأل: هل هذه رؤيتك؟ فأجاب الرجل: الفتنة نائمة، لعن الله مَن أيقظها. هكذا سمعتها من شيخ الجامع.

شـرد السـيد في الرؤية التي كان هـو قد رآها في منام قبل أسـابيع، وقـال: أعطانـي الله بعض ما عندك، ونحن في شـهر صـوم فضيل. ثم مد يده في جيبه، وأخرج كل ما به، وكان مائة بارة، ومدها إلى الرجل، لكنه قال: يكفي ما سـآخذه من الشـونة. ابتسم السيد، وقال: تُعطى من الشونة كغيرك، أما هذه فلتنبيهك لي مما يأتي.

أخـذ الرجل النقود ومضى، بينما الشـيخ ينادي خفره أن يسـارعوا إلـى الشـونة للإشـراف على تسـليم الناس بعـض أقواتهـم. خرج من المجلس يكاد يجري في اتجاه القصر، حتى بلغه، بينما الشـمس تميل إلى المغيب.

(7)

كان الخـدم قـد رصوا أطباق طعـام الإفطار فوق المائـدة، ووقفوا بالقـرب منهـا منتظرين أوامر سـيدهم وأسـرته، التي سـتتحلق حولها بعـد قليل. مر السـيد بالمائـدة، ناظرًا إلى خادمـات متلهفات إلى أذان المغـرب، أشـار إلـى واحـدة منهـن أن تتبعه، فأسـرعت علـى الفور، ودخلا إلى غرفة الأم.

كانـت القابلة لا تـزال في مكانها، وواحدة أخـرى من الخدم تقدم إلى زوجته صحنًا مملوءًا بعسـل ولبن خلطتـه بالدقيق، ووضعته على النار حتى نضج. أشار إلى القابلة أن تبقى مكانها، ثم تقدم إلى زوجته، وأخـذ يدها بيـن راحتيه، وداس عليها في لطف، ثـم انحنى إليها وقبّل رأسها، وقال لها: مبروك لنا الرزق الجديد يا «منصورة».

ردت، بصوت واهن، وهي تحاول أن تعتدل في جلستها: جئت لك بـ «خلف»، لتكون له أرض أبيه. صمت برهة وقال لها: اسم محبب إليَّ، لكني سأسميه «سالم». تعجبت من الاسم، وقالت: اسم جديد علينا، فكيف اخترته؟

قال لها: رأيت قبل أسابيع في منامي بابًا سميكًا طويلًا عريضًا، أكبر كثيرًا من كل أبواب قصرنا، بل أكبر من أبواب قلعة الجبل. كان مغلقًا. وقفت أمامه حائرًا، لا أعرف كيف أفتحه، لكنني رأيته ينفتح، ويتدفق منه سيل من نار. مددت كفيَّ. فجأة خرج قارب عجيب الألوان، يسبح في النار، ولا تحرقه، يجلس عليه رضيع، راح ينظر إليَّ بعينين ضاحكتين، ويشير إليَّ لأطمئن.

قالت القابلة: هذه بشرى عظيمة يا سيدي. فقال السيد: شدة يتبعها فرج. واحتارت الأم في تأويل ما سمعت، لكنها قالت: يتربى في عزك يا «غنوم». ابتسم، وقال: أتمنى أن يكون عزه أكبر.

رفع «غنوم» الرضيع بين يديه، وهو ينظر إليه في امتنان، ثم انزلقت عيناه على صدره، فاندهش لما رأى. كانت كفًّا صغيرة مطبوعة فوقه، لونها أكثر حمرة من جسده. نظر إلى مَن حوله، ثم قال لزوجته:

ـ ألم تلاحظي شيئًا في «سالم»؟

ـ يشبهك.

مد إصبعه إلى صدر الرضيع، وقال: هذه. فاعتدلت «منصورة» في جلستها، ومدت بصرها لترى، ثم قالت: لا يزال لحمة حمراء.

فقال السيد: هناك علامة أكثر احمرارًا. تفرست الأم في وليدها جيدًا، وقالت: لم يلحظ أحد شيئًا، لا أنا ولا الداية، ولا أي من الخادمات. فقال السيد وهو يحط طرف إصبعه على الكف المطبوعة على صدر «سالم»: هي كف.. لم أرَ هذا من قبل.

تدخلت القابلة: ربما احتكاك الجلد في ولادة صعبة.

وقالت الأم: ليس أكثر من هذا.

وجاء أذان المغرب من المسجد، عذبًا نديًّا، فرفع السيد كفيه إلى السماء، وقال: اللهم، بحق الصيام، اجعل لمَن رزقتني به، نصيبًا من لطفك وحمايتك.

(8)

بعد أربعين يومًا من ولادة «سالم»، أقام السيد «غنوم» لمولوده الجديد حضرة. جاء «علي الحميلي» شيخ الطريقة ومعه مريدوه، يحمل أحدهم كتاب «دلائل الخيرات»، بينما «سرحان الفرغل» صاحب الصوت الطليِّ يحمل في رأسه الكثير من الأشعار والمدائح، التي يحفظها الناس عنه، ويرددونها خلفه، ويتناقلونها، حتى ذاع صيته في الصعيد كله، مع أنه لا يزال صبيًّا.

أخرج الكَلَّاف سبعة ثيران مكتنز لحمها، وتكاثر عليها العبيد والخدم حتى أوثقوا سيقانها، فصارت مهيأة للجزار كي يذبحها أمام الزريبة. بعد سلخها، رفعها الرجال تباعًا فوق قرمة هائلة من

خشب الجميز. راح الجزار يقطعها بساطوره إربًا، وهو يرمي اللحم على حُصر من البوص. هرع الخدم، وجمعوا اللحم في طسوت من الصاج، وساروا بها إلى المواقد، التي اعتلى كل منها قيزان ضخم، يحط فوق ثلاثة أحجار ممتدة قليلًا، وأضرمت النار تحتها في خشب الصفصاف والسنط.

على مواقد أخرى وضعت أواني الطبيخ، بها الفاصوليا البيضاء والويكا والأرز والكِشك، وطهيت الشركسية التي يحبها «غنوم» وزوجته. دارت الأفران، ترمي المطارح إليها البتاو من مواجير العجين، وقرص المخنفر والزلوط. جيء بقفف مملوءة بالعيش الشمسي، وبراميل صغيرة من مخلل الخيار والفلفل والجزر واللفت، وزنابيل مملوءة بالبلح الناشف. دار فرنان آخران على صواني الكنافة والبسبوسة.

حين نضج الطعام مُدت الأسمطة في باحة عريضة أمام القصر، فوق أكلمة وحصر البوص، في صدارتها مائدة للسيد «غنوم»، وشيخ الطريقة، والحاج «إبراهيم الجابر»، وإمام المسجد، والقاضي.

جلس الفلاحون صفوفًا متقابلة حول أسمطة الطعام، الذي غرفه الطباخون، ووضعه الخدم والعبيد. راحت عيونهم تراقب أيدي كبار الضيوف في انتظار أن يمدوا أيديهم إلى الطعام، فيشرع الناس في الأكل، لكن وصل إلى آذانهم قول إمام المسجد منشدًا:

الحمد لله ربي خالق الجزرا والفول والعدس والخبيز للفقرا

ثم الرُشيتة أيضًا والكُشَيك لهم والحب والرمان والطُّطماج للأُمَرَا

تعالت قهقهة الجالسين في صدارة المجلس، فشاركهم الفلاحون الضحك، لكن شيخ الطريقة، الذي جاءهم من بعيد، قاطع إمام المسجد قائلًا: أمامك أكل الأمراء يا مولانا. فقهقه الإمام، وقال: معلوم يا سيدنا، لكنها قصيدة تلح على ذهني كلما دُعيت إلى وليمة.

سأل القاضي: لمَن هذه القصيدة يا مولانا؟ فأجاب الإمام: هي لشاعر يدعى موسى بن عبد الله الدهمراوي، أسماها: «ضوء المصباح في المآكل الملاح».

انتبه «غنوم»، فرمى بصره إلى جدران الباحة، ليطمئن إلى وجود الفوانيس والأسرجة في أماكنها، ووجود المشاعلي قريبًا منها، وقد ملأها بالزيت، مستعدًّا ليسرجها قبل حلول الظلام على رؤوس الآكلين.

حين انتهى الناس من طعامهم، رفع الخدم والعبيد المائدة والأسمطة، وهرعوا إلى جمع ما تبقى من الطعام، وكان قليلًا، وطي الحُصر والأكلمة التي تساقط على بعضها شيء من الطبيخ والأرز، وراحوا يفرشون غيرها، استعدادًا للحضرة.

قبل انطلاق الحضرة، مال «غنوم» على شيخ الطريقة، وقال: أتمنى لو تبارك المولود. تهلل وجهه، وقال: طبعًا.. طبعًا. فأشار السيد إلى أحد العبيد، وقال له: أبلغ «مسعدة» أن تُحضر سيدك «سالم».

كانت «مسعدة» امرأة ماهرة في تربية الصغار، جيء بها لتقوم على شأن المولود، واشتهرت بالطيبة والحنان وعزة النفس، عملت لسنين في قصر السنجق المملوكي السابق، وربت أولاده على أفضل وجه، وحين تم نقله من الصعيد، آثرت أن تبقى، فتركها لشأنها، وأعطاها صُرة مملوءة بالفضة.

حين صار المولود بين يَدي شيخ الطريقة، تطلع إليه مليًّا، وهو يضع يده فوق رأسه، ويتمتم بأدعية، فلمَّا انتهى، نظر إلى جبينه، ثم قال: مَن عبر النار ولم تمسسه، لن يضره شيء. فقال «غنوم»: سيؤول إليه الالتزام من بعد عيني. ابتسم شيخ الطريقة، وقال: له وسية أخرى في مكان بعيد. فتغضن وجه «غنوم» بمسحة حزن، وسأل: إلى أي مكان يفارقنا. تطلع شيخ الطريقة إلى وجوه ثلاثة من العبيد، كانوا يقفون على مقربة من سيدهم، لعله يأمرهم بشيء، وقال: ستكون له أرض وحديقة، وحوله مَن يأتمرون بأمره. ثم رفع يده، وأشار إلى الشمال، وقال: هناك إلى حيث لا ترى الأبصار، إنما تدرك البصائر.

نظر شيخ الطريقة إلى جواره، حيث يجلس طفل بهي الطلعة، وضع يده على رأسه، وقال: هذا ابني «علوان»، سيضع الله في يده مفتاح ما بقيت سنين أنتظره، ولن أبلغه، ففوق الفتح فتوح. لم يفهم «غنوم الصابر» شيئًا، لكنه تطلع إلى «علوان»، وربت كتفه، وقال: مبروك كأبيه.

كانت الكف الحمراء قد اتضحت معالمها، فكشف «غنوم» الغطاء عن ولده، ومد إصبعه، وسأل شيخ الطريقة:

- هل رأيت هذا من قبل يا مولانا؟

- ألم أقل لك إنه ولد مبارك؟

- هل هذه بركة؟

نظر شيخ الطريقة إلى صدر الرضيع، وقال بصوت ممطوط، كأنه يأتي به من قعر بئر سحيقة: نعم، هي كذلك. وكان «سرحان الفرغل» ينظر في إمعان إلى الكف الحمراء، فقال: علامة لم أرَها من قبل على جسد إنسان. ثم ملأ عينيه من العلامة، وقال: وحمة كبرى. فابتسم شيخ الطريقة، وقال: بل إشارة كبرى.

وأخرج شيخ الطريقة من جيبه حجابًا من جلد البقر، ثم طلب مجمرة ومسمارًا من حديد، راح يغمسه في النار، وحفر عليه الاسم الأول للوليد، حتى انجلت حروفه ظاهرة، ثم قال: تحت الجلد ورقة كتبت فيها دعاءً مأثورًا، يجلب له الصحة والرزق والبركة. علق التعويذة في عنق الرضيع، وقال: يعود الضائع ولو بعد حين. فنظر إليه «غنوم» متعجبًا، لكنه فسر ما سمعه على نحو ما أدركه، فقال: كان ضائعًا في صلبي سنوات طويلة حتى عاد.

هز شيخ الطريقة رأسه صامتًا، وهو ينظر إلى البعيد. وفي صبيحة اليوم التالي للحضرة، جيء بالمُزيِّن، ومعه أمواسه وقطع من الشاش والقطن، وحُق مملوء بالمُطهرات، وعلى وقع زغاريد نساء القصر وخادماته، كان طهور «سالم».

في هذا اليوم أيضًا مُدت أسمطة، ودُقت الطبول، وصدحت الدفوف، وعزف الرباب، وغنى الشاعر شطرًا كبيرًا من السيرة الهلالية، والناس يتمايلون معه، حتى مطلع الفجر.

وبينما الصغير يصرخ من فرط الألم، وأبوه و«مسعدة» يهدئان من روعه، والخادمات ينظرن إلى وجهه في حنان، جاء صوت الخولي، وهو يقترب من الشيخ «غنوم»: مُصيبة يا سيدنا، والناس يستنجدون بك.

(9)

ركب الشيخ «غنوم» فرسه، ورمح فوق الجسر العالي، وخلفه يجري الخفر، حتى بلغ الأرض التي كان الماء قد انحسر عنها. رمى بصره فوجد حشدًا من الفلاحين يصرخون، وبعض نسوتهم يرفعن الطين اللازب، ويلطخن به رؤوسهن الملفوفة في طُرح سوداء.

لما رآه الفلاحون هرعوا إليه، وقال أحدهم: الشيخ «يونس الجابر» طردنا من الأرض. وقال آخر: لم نتأخر في دفع الإيجار له، لكنه يطمع في الأرض نفسها. ونفضت امرأة الطين الذي كان تيبس فوق رأسها، وقالت: أنت سيد البلد، وننتظر منك العدل والرحمة.

قال لهم الشيخ «غنوم»: انصرفوا الآن إلى بيوتكم، وقبل أن تغرب شمس اليوم، ستعودون إلى أرضكم مكرمين. والتفت حوله، وقال لشيخ الخفر: أحضر «إبراهيم الجابر» إلى الديوان. وغمز فرسه بمقدمة حذائه، الذي كان يلمع في وقدة الشمس، فأسرع به إلى الديوان.

لم تمر سوى نصف ساعة حتى كان «إبراهيم» يدخل بوجه كسيف، وعينين زائغتين. ما إن رآه «غنوم»، حتى قال له في حسم: سبق أن حذرت أخاك «يونس»، لكنه يصر على العصيان. رد «إبراهيم» وهو يتقدم، حتى جلس إلى جانب السيد «غنوم» على الأريكة، وقال: فعل طائش، لا أوافق عليه. فصمت الشيخ «غنوم» برهة، ثم قال: سأعطيك فرصة لحل المشكلة، وإلا تدخلت بما لا يرضيك.

كان «يونس» يرى أن أخاه «إبراهيم» يتعامل مع الفلاحين في لين وصبر، وأن الأفضل لهما أن ينتزعا الأرض منهم، ويزرعانها، إما بكراء مزارعين يفلحونها لقاء أجور زهيدة، أو بالسخرة، إن لزم الأمر. لكن «إبراهيم» كان يعرف أن السيد «غنوم» يرفض هذا، وهو الذي أجَّر أرض التزامه للفلاحين، ولا يريد لهذا النظام تبديلًا.

حين أخبر «إبراهيم» أخاه بما سمعه، امتلأ وجهه بالغضب، وقال:

- ليس من حقه أن يفرض علينا ماذا نفعل في التزامنا.

- لا تفتح علينا بابًا لا قبل لنا به.

قهقه «يونس» ساخرًا، وقال: سأعلم «غنوم» ألا يحشر أنفه في أرضنا.

رد «إبراهيم»: لكنه الكبير هنا، وطاعته علينا واجبة. ثم صرخ في «يونس»: إن لم تطعه هو، فعليك أن تطيعني أنا؛ لأني أخوك الكبير، وواجبي أن أحميك من طيشك.

قبل أذان العصر، كان الخفر يدورون على بيوت الفلاحين، ويعيدونهم إلى الأرض اللينة. كان الماء قد ذوَّب الحدود بينها، فجاء المسَّاح ومعه قصبته. جاء الكاتب ومعه دفتره المدونة فيه المساحات بالتفصيل، وبدأ القياس، وإعادة تسليم الأرض إلى زارعيها.

بينما كان الفلاحون يتسلمون أرضهم من جديد، كان «يونس» يجلس مع عصابة من الفلاتية والعربان واللصوص، طالما استعان بهم في ترهيب خصومه.

في الليل سعى هؤلاء إلى تنفيذ ما خطط له «يونس»، فغافلوا خفراء قصر «غنوم»، وتسللوا تحت جنح الظلام بين أشجار الفاكهة المحيطة به، ودخلوا من باب خلفي على أطراف أصابعهم، حتى وصلوا إلى الغرفة التي تنام فيها «مسعدة» ومعها الرضيع. مد أحدهم يده في خفة وحمل الطفل الذي كان يغط في سبات عميق، ومشى على مهل، وخلفه بقية الرجال، حتى غادروا القصر.

حين استيقظت «مسعدة» في الصباح، لم تجد الطفل إلى جوارها. ظنت أن أمه ربما أتت في الليل وأخذته لإرضاعه، فمشت إلى غرفة سيدها، وطرقتها على مهل، فقام السيد «غنوم»، وفتح لها. نظرت في عينيه، وسألت بصوت متلعثم: هل سيدي سالم معكما؟ التفت «غنوم» خلفه، وذهبت عيناه إلى السرير ذي الأعمدة النحاسية، المدلاة حوله ناموسية من الستان الرقيق المطرز. تراجع خطوات، ورفع جانبًا من الستائر الناعمة، فلم يجد سوى زوجته، مستسلمة

للنوم. استدار إلى «مسعدة»، وقال: ربما أخذته واحدة من الخدم لتغير ملابسه المبللة.

ونودي في القصر، فجاء الخدم والعبيد مسرعين. حين سألهم عن «سالم» أخبروه بأنهم تركوه مع مربيته قبل ذهابهم إلى مخادعهم. وحين اكتسى وجه «غنوم» بالغضب والحيرة، ابتلعوا ألسنتهم، لا يدرون ماذا يقولون أو يفعلون.

هرع «غنوم» إلى باب القصر فوجده موصدًا، فعاد ينظر إلى النوافذ فوجدها على حالها مغلقة. أسرع إلى الباب الخلفي، فوجده مواربًا. مد بصره أمامه، ليجد آثار أقدام كثيرة حافية، مطبوعة فوق الطين الخفيف، فصرخ: خطفوا ابني الوحيد.

جيء بالخفر، وهرع أهل السيد «غنوم» إلى القصر حين ترامت من نوافذه صرخات النسوة، ووقف العبيد والخدم إلى جانبهم صامتين، ينتظرون ما يقوله سيدهم، الذي لم يلبث أن صرخ فيهم: فتشوا كل بيوت الجوابر وأرضهم. ثم نظر إلى شيخ الخفر، وقال: أما أنت فأحضر إليَّ الشيخ «إبراهيم» على الفور.

فلمَّا جاء «إبراهيم»، قال له في غضب: إن لم يظهر ولدي سأحرق بيوتكم، وأطردكم من البلد. رد «إبراهيم»، بشفتين ترتجفان من الخوف: لن يحدث له مكروه، وسيعود إليك معززًا مكرمًا.

دار الرجال على بيوت «الجوابر» دون أن يغادروا منها بيتًا، فلم يجدوا «سالم». استشاط الشيخ «غنوم» غضبًا، وقال لإبراهيم: إن لم

يعد ولدي، سأقتلكم جميعًا. رد في تودد: لن يكون هناك بيننا دم، وكل ما دونه ويرضيك سأنفذه على الفور.

- أخوك خطف ابني ليساومني على الأرض، وهذا تصرف لا يخرج من رجل شريف، ولولا أني أعرف أنك لا ذنب لك، لقتلتك في الحال.

- وأنت تعرف يا سيدنا، أنني لا أوافق على كثير من طيشه.

وجاء شيخ الجامع وبعض كبار «الصوابر»، والتفوا حول الرجلين، يحاولون تهدئتهما، فانتهز «إبراهيم»، الفرصة، وقال: ليكن مجلس رجال نُحكِّمهم بيننا. فصرخ السيد «غنوم» وهو ينظر في وجوه الجميع: لا مجالس بيننا حتى يعود ولدي.

(10)

ما إن تسلم «يونس الجابر» لفافة مطوية على جسد «سالم» الغض، حتى هرع به، والظلام يستره، وخلفه يسرع رجاله، حتى وصل إلى الشاطئ الغربي للنهر. كان هناك مركب في انتظاره، فصعد إليه ومَن معه، وجدفوا حتى بلغوا الشاطئ الشرقي.

نظر «يونس» إلى المركب، وقال: عوموه، حتى إن طلع النهار يكون قد ذهب بعيدًا، فلا يُستدل علينا. وتلمسوا طريقهم المعتاد. رمل ضيق ينتهي إلى أول الجبل، حيث مدق يتوسط الصخر، ينتهي إلى مغارة بعيدة. حين وصلوا إليها، كان الرضيع يصرخ، وصوته يلف الخلاء. قال «يونس» للرجال: أخرسوه.

تساءل أحدهم: هل نقتله؟ نظر إليه «يونس» في غضب، وقال: وهل قتله كان يحتاج كل هذا المشوار يا غبي؟ ثم صمت برهة، وقال: به سأسترد أرضي. ونادى أحدهم آمرًا إياه: خذ إناءً واحلب ناقة أو حمارة، أيهما في ضرعها لبن، واسق الطفل.

(11)

أرسل «يونس» أحد رجاله بعد أيام، ليعرف ما جرى عقب اكتشاف «غنوم» اختطاف ابنه. كان يتوقع أن يكون السيد قد انكسرت نفسه وظهره، وندم على ما فعله في أرض «الجوابر»، وصار الآن راضيًا بأن يعيدها إليهم مقابل عودة ابنه؛ لذا قال «يونس» لرجل اسمه «فرحان» معروف بقدرته على التخفي: أبلغ أخي «إبراهيم»، أن الطفل لم يمسسه سوء، وسيعود لأبيه حين ترجع إلينا أرضنا.

ثم طلب منه أن يمتطي حمارًا عفيًّا، وأعطاه بعض النقود، وقال له: اشترِ بصلًا وثومًا، واذهب إلى القرية على أنك بائع، حتى لا يشك في أمرك أي من رجال «غنوم». بدا على وجه «فرحان» ارتباك، فقال له «يونس»: أنت لم تنزل القرية سوى مرة. جئت إلى بيتي، ولم يرَك إلا بعض أهلي، ولا أعتقد أنهم يتذكرونك، وحتى لو تذكروك، فلن يفضحوك.

والتفت إلى رجاله، بعد أن أمدهم بقارورة عطر، لينثروها على ملابس «سالم»، حين يأتي وقت إعادته إلى أهله، وقال: احرصوا على نظافة اللفة التي تحيط بجسد الطفل، وأرضعوه كلما جاع.

(12)

عبـر «فرحـان» النيل مع حماره إلى «الصابريـة» خائفًا يترقب. كان ينادي على بصلـه وثومه بصوت مرتعش، وهو يدفع الحمار إلى قرب قصر «غنوم»، ثم أنزل حمولته في سـاحة تطل عليها البيوت من بعيد، ونادى: بصل التقالي يا بصل..

كانـت البيوت في حاجة إلى ما يبيعه، فماء الفيضان قد غمر حقول البصل والثوم وأفسـدها. جاءته نسـوة على مهل. مدت إحداهن يدها إلى كومة البصل، وسألته:

- بكم الحزمة؟

- ربع بارة.

وسألته أخرى عن الثوم، فأجابها: نصف بارة.

وظهـرت عجوز تتوكأ علـى عصاها، وتلهث في شـمس الظهيرة، فلما رأتها المرأتان، مصمصتا شفاههما، وقالت إحداهن: واحدة ممن بقـوا هنا من «الجوابـر». ردت الأخرى: رأف الشـيخ «غنوم» بحالها، وتركها تقضي أيامها الأخيرة بيننا.

اهتز «فرحان» لما سمع، ونظر إلى إحداهما، وقال متعجبًا:

- الوحيدة؟!

- نعم، السيد طرد كثيرًا من «الجوابر».

- ما السبب؟

- خطف أحد كبارهم ابنه «سالم»، فأقسم أن يقتلهم أو يطردهم، واستجاب لمَن طلبوا حقن الدماء، ما عدا «يونس» الذي يبحث الرجال عنه ليقتلوه.

صمت «فرحان» برهة، وقال:

- أعرف أن كبيرهم اسمه «إبراهيم»، فهل رحل هو أيضًا؟

- رحيل مؤقت إلى أن يعثر السيد «غنوم» على ولده الضائع.

- أين ذهبوا؟

- سمعنا أن لهم أقارب في الصعيد الجواني.

- وأرضهم التي هنا؟

- توعدهم السيد «غنوم» بضمها إلى أرضه إن لم يرجع ابنه. أما بيوتهم فتنعق فيها الغربان.

وصلت العجوز، وجلست فوق التراب. وضعت عصاها إلى جانبها، وصدرها يعلو ويهبط وصوت لهائها يقتحم الآذان. نظرت إلى «فرحان»، وامتلأت عيناها بالدهشة، ولاذت بالصمت، إلى أن ذهبت المرأتان تحملان شروتهما، ثم قالت له: وجهك ليس غريبًا عليَّ يا ولدي. فاكتست ملامحه بالذعر، لكنه تماسك، وقال لها: هذه أول مرة أبيع في بلدكم يا حاجَّة. عادت للنظر إليه، ثم قالت: رأيتك

في بيت يونس قبل شهرين. كادت ساقاه تخران بجسده الخفيف. مد يده إلى البصل، وسألها: كم حزمة تريدين؟ فأدركت العجوز ارتباكه، وعاجلته: هل أنت من رجال «يونس»؟ رد في فتور واستهانة: مَن «يونس» هذا؟ عندها رفَّت ابتسامة ساخرة على شفتي المرأة، وقالت: إن كنت من عسسه، فأبلغه بما جرى لأهله من فعلته السوداء.

ولاحت نسوة أخريات قادمات إلى شراء البصل والثوم، فقال «فرحان»: يخلق من الشبه أربعين يا حاجَّة. ردت العجوز في سرعة: لن أفضح أمرك، وإلا قُتلت هنا، أو أخذوك لتدلهم على مكان «يونس»، فابقَ لتبيع ما معك، حتى لا يشك أحد فيك، ثم أبلغ مَن أرسلك بما جرى.

ونهضت، وهي ممسكة بحزمتي بصل وثوم، رفض «فرحان» أن يقبض ثمنهما، وقالت، وهي تنظر إلى النسوة اللاتي اقتربن: إن كان الطفل حيًّا فليرجعه، وإن كان قد قتله، فليهرب بعيدًا، فرجال «غنوم» يفتشون في كل مكان.

(13)

انتظر «فرحان» حتى جاء الليل، ولملم ما تبقى من بضاعته. رفعها على ظهر الحمار، وركب فوقها. دفع حماره في اتجاه بيوت «الجوابر»، ليستيقن مما سمعه، فوجد كثيرًا من أبوابها مغلقة على الصمت. غمز الحمار بعصاه، حتى بلغ أول الطريق إلى النيل.

لم يكن المراكبي الذي جاء به صباحًا موجودًا، فكان عليه أن يبحث عن أي قارب صيد يحمله إلى الشاطئ الشرقي، أو ينتظر حتى الصباح. لاحت له نار تتوهج وسط الماء، وجاءه صوت رجلين يتحدثان، دون أن يتبين ما يقولانه. أدرك أنهما صيادان يلتقطان رزقهما، وقد أشعلا نارًا ليريا ما في الماء، أو يستدفئا بها.

نادى بأعلى صوته: أريد شراء سمك.

خاف أن يسمعه غيرهما، فكتم صوته، وأخذ يلوح بيديه، لعلهما يريانه في لسان النور الشحيح، الممتد من الراكية المشتعلة فوق القارب. قرر في هذه اللحظة أن يشتري بكل ما معه من نقود أسماكًا، لقاء أن يقبل الصيادان نقله وحماره إلى الشاطئ الآخر.

راح القارب يقترب، حتى رسا تحت صخرة صغيرة تلثم الماء. كان السمك يتقافز داخل شبكة مطوية، وفي قفة أخرى إلى جانبها. مد صيَّاد يده نحو الأسماك، وسأل الرجل: أتريد القراميط أم البلطي؟ معنا أيضًا رعاش وثعابين الماء. رد «فرحان»: سآخذ منها جميعًا.

نظر الصياد إلى ما على الحمار، وسأله:

ـ هل ستترك تجارة البصل وتتاجر في السمك؟

– سأقايض السمك بالبصل والثوم.

– لا، نريد الثمن نقدًا.

– موجودة، وسأدفع لكما أيضًا ثمن حملي إلى الشاطئ الشرقي.

بينما كان القارب يعبر، وكل رجل جلس على مجداف، التفت أحدهما إلى «فرحان»، الذي كان يتوسط وحماره القارب، واقفًا ينظر إلى الشاطئ في لهفة، وسأله:

ـ من أي بلد أنت؟

– أسكن عشة بالقرب من نجع «البراهمة».

– تسكن عشة، وتشتري كل هذا السمك؟

– سأسرح به غدًا من الفجرية، فرزق البصل والثوم قليل.

نزل «فرحان» وحماره، وراح الصيادان يراقبانه وهو يصعد في اتجاه الطريق المؤدي إلى أول الجبل، ثم قال أحدهما: نبيع أسماكنا أحيانًا في نجع «البراهمة» ولم نرَ هذا الرجل أبدًا. رد الآخر: ولا توجد عشة قريبة من هذا النجع.

(14)

استقبل «يونس» الخبر ببال كسيف. كان يتقلب على جمر منذ أن أرسل «فرحان» في طلب أخبار أهله، وهو يتوقع أن شيئًا سيئًا قد جرى لهم. يعلم أن «غنوم الصابر» رجل يحمل من اسمه الكثير، لكنه يعرف غضبه حين ينفد صبره.

سأل أحد الرجال: ماذا يمكن أن يفعل «الصابر» حين يضيع ابنه؟

صمت الرجل خوفًا من أن يكدر رأس «يونس» بما لا يطيق، لكن الأخير ألح في الحصول على إجابة، فقال له: كما يفعل فيل غاضب بمخازن الفخار.

وحين سمع ما قاله «فرحان» حين عاد إليه يرتعش، رماه بنظرة قاسية، وكأنه يتخيله كبير «الصوابر»، ثم سأله: هل رحل كل «الجوابر» عن القرية؟ فأجابه، وهو يستعيد ما رآه حين مر على حماره بالشوارع التي يسكنها «الجوابر»: بعض بيوتهم مغلقة، وأخرى مفتوحة دون هرج، لكن عيالهم تلعب في الشوارع، غير عابئين بما يجري.

سأله: هل عرفت أسماء مَن بقوا منهم؟

- السيد «غنوم» خيَّر الجميع بين البقاء معه، أو الرحيل مع أخيك «إبراهيم»، فرحل البعض، وبقي آخرون.

حك ذقنه بظاهر كفه، وقال: معنا هؤلاء أم علينا؟

صمت «فرحان» برهة، ثم قال: ما سمعته من قريبتكم العجوز يبين أن بعضهم بقوا، وفي نفوسهم غضب مكتوم على رحيل أبناء عمومتهم.

داس «يونس» على أضراسه، وقال: بدأت الحرب.

وتطلع إليه رجاله، ليعرفوا ما يفكر فيه، فلم يدعهم حائرين. مسح وجوههم بعينين تقدحان شررًا، وقال: العار لا يمحوه إلا الدم.

(15)

عاد الصيادان إلى القرية عازمَين على إبلاغ السيد «غنوم» بما ساورهما من شكوك في بائع الثوم والبصل. وصلا إلى باب حديقة القصر، واستأذنا في الدخول، فأذن لهما، فدفعا الأقدام التي أثقلها خوف طارئ ارتج له قلباهما تحسبًا للوم قد يطالهما، حتى وصلا إليه. كان يجلس وحيدًا في الحديقة، تحت شجرة الكافور، التي طالما ناجاها في أيام المحن. لما رآهما تطلع إليهما، وقال: لست مستعدًّا لسماع شكوى أحد.

وجما قليلًا، وتشجع أكبرهما سنًّا، وقال: ربما ما جئنا من أجله هو ما تفكر فيه يا سيدنا.

قلَّب ناظريه في وجهيهما، وقال: لا يشغلني الآن سوى ابني الضائع.

قال الآخر: ربما نكون قد أمسكنا أول الخيط إليه.

انتبه، وقال في لهفة: هاتا ما عندكما.

قالا في صوت واحد: نشك في رجل أوصلناه إلى الشاطئ الآخر.

اكتسى وجهه بغضب، فلاحقه كبيرهما: أتتنا الشكوك بعد أن رأيناه يصعد إلى الجبل.

وتبادلا إخبار «الصابر» بما سمعاه، وهو ينصت إليهما في إمعان، فلما انتهيا، أشار إلى أحد العبيد الواقفين هناك لعل سيده يطلب منه شيئًا، فهرع ثم طاطأ رأسه، ليسمع منه: أحضر شيخ الخفر، وليأتِ بمَن معه.

وقبل أن يتراجع العبد خطوات إلى الخلف، حتى لا يعطي سيده ظهره وهو بالقرب منه، سمعه يقول له أيضًا: أبلغ شيخ الخفر بأن يدور على بيوت «الصوابر»، وينادي رجالها، وكل مَن معه سلاح يحمله. ثم نادى عبدًا آخر، وقال له: افتح السلاحليك والخبخانة، وجهز كل ما فيها.

(16)

تجمع «الصوابر» والخفر حتى فاضت بهم الحديقة، فوقف كثير منهم على جانب السور، وملأوا أيضًا نصف الطريق المؤدي إلى القصر. كانوا قد أدركوا من استدعائهم مسلحين أن السيد قد وصله خبر عن مكان ابنه، وأنه سيأمرهم بالهجوم. تبادلوا الرأي أثناء سيرهم جماعات إلى القصر، فانتهوا إلى أن تجريدة كبيرة على هذا النحو لا تليق إلا بمواجهة فلاتية الجبل، مثلما فعلوا قبل عامين حين استيقظوا صُبحًا على سرقة الكثير من بهائمهم.

لكن هذا الجمع الغفير سار في طريق آخر، لم يكن يدور بخلد أي منهم. فقبل أن يبلغهم سيدهم بما انتواه، جاءت خادمة تجري ملهوفة، ومالت على أذن الشيخ، وقالت: الهانم تعبانة جدًّا، وتريدك الآن يا سيدي.

أشـار إلى الرجال ليجلسـوا في أماكنهـم. هرع إلى غرفـة زوجته، فوجدها ممددة على السرير، وصوت أنينها تنفطر له قلوب الخادمات المتحلقـات حولها، والأسـى يكسـو ملامحهن، وفي أيديهـن أباريق الماء والليمون. واحدة منهن كانت تمسك بيدها مروحة خشبية تقلبها على وجه المريضة، وشفتاها تتمتمان بدعاء خفي.

كانـت قـد توعكت الليلـة الماضية، بعـد أن قضت سـاعات تبكي غيـاب ابنهـا، وهو يواسـيها، جامعًا زمام نفسـه التي تبعثـرت من فرط الألم، لا سيما حين همست له: يقتلني الحزن على ابني.

لـم يعتقد وقتها أنها تعني ما تقول، فقد اعتاد صبرها على المكاره، وثقتهـا فيه. طالما وعدها باسـترجاع الغائب، وأنه لا بد فاعل، وعليها أن تتصـرف وكأنه قد صار في حضنها، تتحسـس جلده الناعم، وتحط إصبعهـا على الكف الحمـراء المطبوعة على صدره، ثم تشـرد بعيدًا، وتكرر القول: لهذه العلامة ما تخبئه الأيام.

لكنهـا انهـارت فجأة، بعد أن كانـت تكبت قلقها في سـابق الأيام، حين تظهر مشـكلات مخيفة بين زوجها والسنجق، أو وقت الفيضان، الذي يغمر الأرض، أو صبرها الطويل على تأخر الحمل، أو الإنصات إلى شكوى زوجها حين يختلي بها، فيردد كل مرة: أعيش وحيدًا، رغم كل هؤلاء الذي يقفون رهن إشارتي.

فـي البدايـة ظنت أنه يتألم لتأخـر قدوم ولي عهده، لكنه شـرح لها مـرات، أنه لا يشـعر بأن أبناء عمومته هنـا يخلصون له، وأخاه الأصغر

«محفوظ»، سحرته المحروسة فسكنها، راضيًا بالبقاء قريبًا من الأزهر، بعد أن قال لـ «غنوم» في زيارته الأخيرة للقرية: أدر أنت المال، واتركني لطلب العلم.

كانت قادرة على تعويضه عن هذا الشعور القاسي، وطالما قال لها: وجودكِ يهوِّن عليَّ، لولاكِ لصرت عود قصب وحيد في مهب الريح. فكانت تأخذه إلى حضنها، فيستكين كطفل جائع إلى الحنان، ويملأه الفرح حين تقول له: بل أنت نخلة عالية.

لاحت في عينيها علامات النهاية، لكن «غنوم» تشبث بالأمل، وكان قد أرسل إلى الحكمدار مستغيثًا به كي يرسل إليه طبيبه «شاؤول»، الذي عرف عنه حفظ «تذكرة داود» ومداواة المرضى بالأعشاب، التي يحضرها من عطارين في البندر، ومن المحروسة حين يركب إليها النهر مرة كل سنة.

كانت «مسعدة» تلازم إلى جوار السيدة المريضة، عند طرف السرير تحت قدميها، وتمد يدها بين حين وآخر، لتعرف ما إذا كانت الحياة لا تزال تدب فيهما أم لا. شعرت بأن القدمين قد خمدتا. خمشتهما بأظافرها فلم تحركهما السيدة الطريحة، وعيناها شاخصتان إلى البعيد. لكن المرأة لم تجرؤ على أن تقول لسيدها أن الموت قد بدأ يزحف رويدًا رويدًا، وسيصل حتمًا إلى الرأس، فينتهي كل شيء.

صمتت، وفضلت أن يخبر الطبيب حين يأتي سيدها بالأمر، وقد فعل. نظر مليًّا في عيني «منصورة» الساجيتين، وشفتيها اللتين زحفت

إليهما زرقة، ثم وضع راحة يده على جبينها، وحركها إلى قلبها، فوجد النبض قد توقف. استدار إلى السيد، وقال له: عظم الله أجركم.

انخرط «غنوم» في بكاء حار. ولولت النساء الموجودات في الغرفة. انفلتت واحدة منهن إلى الخارج، وصرخت بحرقة، فتبعتها النسوة صارخات. اقتحم صوت الفجيعة آذان الرجال الواقفين في الحديقة، وخلف السور، فضربوا أكفهم، وقالوا: البقاء لله وحده.

(17)

ماتت «منصورة» قبل أن تطمئن على ولدها، بل اطمأنت حين انزاحت من أمامها الحجب، وصار بصرها حديدًا. هكذا قدر «غنوم»، مفسرًا ذلك الخاطر الذي انتابه بقوة، وهو يتذكر ابتساماتها قبيل الرحيل الأبدي. ربما رأته هناك في مكان ما، سالمًا معافى، اسم على مسمى. بل رأته فعلًا، وشعر بها، وامتد بينهما حبل الخيال والوداد، ناضحًا بلبنها الذي حُرم منه الرضيع منذ ضياعه. كانت سلوى لا بد لها أن تحضر في الملمات الجسيمة في فؤاد رجل مكلوم، جمع الناس ليسترد ابنه من أنياب الخاطفين وبراثنهم، فإذا بهم يستعدون في الخارج للسير في جنازة مهيبة.

انتهوا من غُسلها والشمس يجرحها الأفق، فتنزف دمها غزيرًا على شواشي النخل والشجر، وتنداح على هامات الزرع الناجي من الفيضان الرهيب، ثم يختلط بالدماء التي تغلي في عروق الرجال، والدموع التي انهمرت من عيونهم ألمًا للمحنة التي يعيشها سيدهم الطيب.

بعضهم كان عليه أن يكتم دموعه، فلا يجب أن يبكي كل الرجال في الفواجع. هناك مَن اجتاحهم تفكير عارم في الانتقام. يوجد مَن هرعوا لتجهيز سرادق مهيب، يليق بامرأة فاضلة، وزوجها الكريم. ثلاثة منهم ركبوا أحصنة إلى قرية مجاورة ليحضروا منها مقرئ القرآن المشهود له بحلاوة الصوت. سبقهم عشرة رجال لتجهيز مقبرة العائلة لجثمان سيدتهم الجليلة. آخرون تفرقوا في القرى المجاورة لينبئوا أهلها بالخبر الحزين، حتى يأتوا معزين. لم تمضِ سوى ساعة واحدة حتى كان الزمام كله قد عرف أن السيدة التي انتظرت رضيعها رحلت دون أن تراه في دنيا الناس.

(18)

صعد الخبر إلى الجبل. نقله واحد من الفلاتية كان قد تسلل مع الغروب إلى قرية مجاورة ليبتاع الطعام والدخان إلى مَن ينتظرونه جوعى فارغي الرؤوس. دس الخبر في أذن «يونس»، فتهلل وجهه، ونادى رجاله، وقال: جاءت الفرصة، التي لم تخطر لي على بال.

وبينما كان ركب المشيعين يسير على مهل تحت المشاعل التي تهب ممزقة رداء الليل الأسود، كانت عصابة «يونس» تهبط من الجبل، في عيونها شر مقيم، وفي أيديها سلاح، بعد أن وعوا تعليمات «يونس»، المشحون بقوة عاتية من الكراهية العمياء.

حملهم مركب شراعي كبير، دفعه صاحبه ليضرب الماء، مستسلمًا لقوة الراكبين القاهرة. قالوا له إنهم ذاهبون إلى العزاء، وكان الخبر قد وصله، فقال لهم والشك يساوره: لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم.

لكـن المكـروه لحـق بقصـر السـيد. كان «الصوابر» قـد خرجوا جميعًـا، ومعهـم مَـن تبقى مـن «الجوابـر»، وآل بخيـت والنصارى، واليهوديـان الاثنان. نسـوة كثيرات سـرن خلف الرجال. لـم تبقَ في البيـوت سـوى العجائز والأطفال، ولـم يبقَ في القصر سـوى بعض الخدم والعبيد.

كان الطريـق ممهـدًا تمامًا أمـام «يونـس» ليضرب ضربتـه القوية. تسـلل رجاله إلى القصر من باب جانبي مفتوح على الزروع. لم تمضِ سـوى دقائق معدودات حتى كانـوا يتقاطرون في حديقته، منتقلين بين أشـجارها الباسـقة، ملتحفين بالظـلام. كان الباب الداخلـي موصدًا، لكن النوافذ مفتوحة، فقفزوا منها حتى صاروا داخل القصر.

رأتهـم خادمة، فاعتقـدت في البداية أنهم بعض رجـال «الصوابر» قد عادوا لطلب شيء، لكن الريبة التي اجتاحتها فجأة جعلتها تصرخ، فأسرع إليهـا أحدهـم، وضربهـا بدبشـك البندقية علـى رأسـها، فانطرحت على ظهرها فاقدة الوعي. سـمع العبيد صوت ارتطام جسمها الثقيل بالأرض، فخرجوا مذعورين، فعاجلهم رجال «يونس» ضربًا، وقيدوا أيديهم بحبال كانت معهم، وكمموا أفواههم باللاثات. صار القصر لهم.

كان «يونس» يعرف طريقه، فجرى إلى غرفة السـيدة الراحلة، قلَّب ناظريه، فلمح سحَّارة من خشب الزان، عليها زركشات ملونة وبراويز منحوتة بعناية، تشـي بأن ما فيها نفيـس. لم تكن مغلقة، فرفع غطاءها،

ليجد الشكمجية بديعة الألوان، رفعها، ودس فيها عينيه تحت ضوء خافت يأتيها من مشعل في جدار البهو. كانت محشوة عن آخرها بالذهب والجواهر. لفها في لائته. رمى بصره إلى اليمين فوجد خزانة ملابس، فتحها على عجل ليجد صندوقًا مملوءًا عن آخره بقطع النقود. صرخ مناديًا أحد رجاله فأتاه مسرعًا. أعطاه الصندوق والشكمجية، وقال له: لا تفارقني أينما ذهبت.

(19)

يجرف الفيضان أمامه كل خفيف. تزيح السيول الهائجة في طريقها كثيرًا مما استقر ورآه الناس هكذا. لكن ما شعر به «غنوم» حين عاد إلى القصر، واكتشف ما جرى، لم يكن ذلك الشعور الذي يشبه الفيضان أو السيل العرم، إنما هو طوفان عات، طمر أمامه كل ما بناه من محبة وسكينة، لم تفارقاه طوال عمره.

وجد نفسه يفكر، لأول مرة، في الانتقام. من قبل كان أقصى ما بلغه من عنف هو تنفيذ قصاص، أو استرجاع حقوق مهضومة عنوة، أو معاقبة مقصر من الخدم أو العبيد بلفظ قاس، يندم عليه حين يختلي بنفسه، دون أن يعتذر.

اليوم تكاد الأرض تعجز عن حمل غضبه، ويعجز معه جسده. ما يغلي في نفسه، يزلزله، ويأخذ خياله إلى معركة حامية. يرى نفسه فيها ممسكًا بشومة أو سيف أو خنجر أو بندقية، وكل أداة للأذى، وينهال قتلًا على مَن ألحقوا به الحزن والخزي على هذا النحو.

حيـن عـاد، وجد العبيـد والخـدم الذين بقـوا في القصـر مقيدين، مكممـي الأفـواه. حمد الله أن أحدًا من أهله أو غيرهم لم يروهم على هـذه الحالة. حين سـمع من أول عبـد رفع الكمامة عن فمـه أن غرباء هاجموهم وسرقوا القصر، أسرع إلى الباب الخارجي، وأغلقه.

جمعهـم ليسـمع منهم، رغم ما هـو فيه من كدر، فمَـن ماتت، أخذ الله روحها وهو في هذا متساوٍ مع الخلق أجمعين، والمخطوف يؤكد أهل القرية جميعًا أنها غفلة، وأنه سـيعود معززًا مكرمًا، وسـيؤتى بمَن خطفوه عرايا ممزقي الأجساد من السياط. في النهاية هو رضيع لا يقدر أن يصـد عن نفسـه أذى، ولا يُعيَّـر بخطفه أهله، لا سـيما أن الخاطف هرب واختبأ في جحره. أما سرقة القصر ففيها ما يمس الهيبة، التي إن سقطت أخذت معها كل شيء، ووقتها لن ينفع المال ولا الولد.

أحد الخدم كان يعرف «يونس» جيدًا، فقال لسـيده: سـرقنا «يونس الجابـر».. وجهه ليـس خافيًا عني. كان متلفعًـا وملثمًا بلاثته، واضطر لخلعها كي يضع فيها ذهب المرحومة، فلما انكشف وجهه عرفته.

(20)

أراد «غنوم» كتمان خبر سرقة قصره، حتى لا يهون في عيون الناس. عزم على أن يسـترد ابنه وماله في آن. لكن الخبر انكشـف، وتهامس به النـاس خلف أبـواب بيوتهم، وفي الحقول حين يطمئـن الواحد منهم إلى الذي يسمعه.

لم يخرج السر من بيته، فلا يمكن لمَن فيه من الخدم والعبيد أن يخالفوا أوامر سيدهم، إنما جاء ممن أراد أن يحط من شأن السيد، انتقامًا مما فعله بالجوابر. كان «يونس» قد أرسل بعض رجاله إلى القرى المجاورة، فبثوا فيها الخبر، ومنها جاء إلى «الصابرية».

عقد بعض كبار «الصوابر» العزم على التأكد من سيدهم، فقابلوه بعد انفضاض اليوم الثالث من العزاء. أبصروا في عينيه حزنًا دفينًا، وفي وجهه صفرة، لم يروها من قبل. أدركوا أن الرجل غاية في الجزع والحذر. فابنه وكثير من ماله في يد مجرمين يعتصمون بالجبل والسلاح وقسوة القلوب.

قال أحدهم: الناس يتهامسون بما جرى. وأدرك «غنوم» أنهم يقصدون السرقة، فقال: العار الذي كان يحلق فوق رؤوسنا حط عليها، ولا سبيل لرفعه إلا قوة لا تضعف أبدًا. ردوا في نفس واحد: دبر وقرر ونحن رهن إشارتك.

اقترح أحدهم لو استعان السيد بسنجق الإقليم، فيرسل تجريدة مسلحة من جنده، تهجم على الجبل، وتقبض على العصابة. أنصت «غنوم» له، ثم سأل: وهل استعان اللص الخاطف بأحد غير رجاله؟ ثم طلب منهم الاستعداد لمعركة، كان قد خطط لها جيدًا، خلال ساعات من الاستغراق في صمت طويل، جعل فيها عزمه يغلب خوفه وحذره.

(21)

عند الفجر كانت عشرة مراكب تحمل أشد رجال «الصوابر»، يقودهم سيدهم، إلى الضفة الأخرى. معهم جمل يحمل الماء والطعام. كان من بينهم رجل يعرف الطريق جيدًا، اتخذوه دليلًا. صعد بهم عبر مدق ضيق بين كتلتين ضخمتين من الصخر، ثم انجلى المسار، بين أحجار ورمل وحصى.

ثلاث ساعات سيرًا على الأقدام حتى بلغوا ربوة عالية، ارتقاها العارف بالجبل، ومعه السيد. جثا الدليل على ركبتيه، وفعل السيد مثله، ثم غمس الأول إصبعه في الخلاء، وقال: مغارتهم هناك.

مد «غنوم» بصره، فرأى جبلًا معلقًا بين حجرين عاليين، ترفرف عليه ملابس مغسولة. كان هناك حصان لم يتبين لونه على وجه الدقة يقف شامخًا بأنفه في الهواء النقي، إلى جانبه ناقة باركة، تنظر إلى البعيد. برقت في شمس الضحى آنية من نحاس. ارتفع خيط دخان، يصعد من يسار المغارة.

قال الدليل: يبدو أنهم يطهون شيئًا للإفطار.

هز «غنوم» رأسه، وقال: لن يأكلوا إلا من حنظل جهنم.

هبط «غنوم» سريعًا، ووقف بين رجاله، الذين تواروا خلف صخرة عالية عريضة، وقال لهم: حددنا مكان الكلاب، وبقي أن تعرفوا كيف نباغتهم، ونعيد رضيعنا ومالنا المسروق.

كانت البنادق في الأيدي، مستعدة للتصويب. وزعهم على ثلاث مجموعات، وقال: نقترب حتى يكونوا في مدى بنادقنا، ثم نصطادهم كالفئران. هزوا رؤوسهم، فلاحقهم: لتغلب الحكمة العافية، ولا يطلق أحدكم أول رصاصة، حتى يتلقى أوامري. ثم أشار إلى أحدهم، وقال: حين أشير إليك، تنادي بأعلى صوتك على «يونس» وإن خرج فليلطق عشرة منكم الرصاص عليه دفعة واحدة.

لكن أحدهم، قال: من الأفضل أن يجدونا فوق رؤوسهم داخل المغارة.

(22)

لا تجري المقادير دومًا بما انعقد في الرؤوس. في حالات أعيا البشر إحصاؤها يكون الواقع أسبق من الخيال، وعلى الفطِن أن يحسب لكل طارئ ومباغت، ويفهم هذه الهوة التي تتسع بين التفكير والتدبير. فحتى الخطط المُحكَمة التي يضعها قادة متمرسون في فنون الحرب، لا يتم تنفيذها وفق ما تأملوا وقدَّروا.

هكذا وقع ما خرج عما دبره «الصابر»، وكان هناك ما لم ينتبه إليه الدليل. فبينما كان الرجال يتقدمون في حذر، لا يكاد الواحد منهم يسمع دبيب خطواته على الرمل، ظهر رجل من العصابة فجأة، سار خطوات باتجاه الحصان. رمى إليه حزمة خضراء كانت في يده، لكن الحصان لم يلتقمها كعادته، إنما نظر في اتجاه المتقدمين نحوه في تمهل، وصهل.

التفت الرجل إلى حيث يرسل الحصان ناظريه، فرأى كل شيء. صرخ، وهو يجري في اتجاه المغارة، لكن أحد الرجال عاجله برصاصة استقرت في صدره، فسقط مضرجًا في دمه. وصل صراخه، وصوت الرصاصة، إلى الجالسين في قعر المغارة، فخرج بعضهم متقاطرين، وفي يد كل منهم سلاحه.

قبل أن يصوبوا بنادقهم، كان الرصاص يمطرهم من كل جانب، فتساقط كثير منهم. أحدهم تمكن، وهو يجر ساقًا جريحة، من القفز فوق ظهر الحصان، ودفعه بقدميه مسرعًا نحو صخرة بجانب المغارة لتحمي ظهره، فيتمكن من الفرار.

أطل «يونس» برأسه، فرأى الرجال يقتربون. عاد إلى قلب المغارة، معولًا على بابها الخلفي، الذي لم يتذكره الدليل. رفع الرضيع الملفوف في رداءين من قطن وحرير، وخرج مسرعًا. رأى راكب الحصان، فناداه. كبح جماح حصانه وعاد إليه. رفع إليه الرضيع وصندوقي الذهب والنقود، وهمَّ أن يقفز خلفه، لكن الحصان جفل، فأسقطه أرضًا. ارتطم رأسه بحجر، فغام كل شيء في عينيه. ناداه الرجل في لهفة: اركب.. اركب. لكنه لم يحرك ساكنًا، فتركه، ودفع الحصان يجري في اتجاه الصحراء الممتدة إلى حيث لا يدري.

كل مَن خرج من الباب الأمامي للمغارة سقط صريعًا فور إطلاق الرصاص في اتجاه المهاجمين. بعضهم خرجوا رافعين أيديهم فوق رؤوسهم مستسلمين. الذين تسللوا من الباب الخلفي وجدوا «يونس»

ملقى على الأرض، فحسبوا أن رصاصة قد أصابته. واحد منهم، أمسك كتفه وحركه، فوجد جسده يذهب في يده يمنة ويسرة، فصرخ: قُتل «يونس». سمعه مَن تناثروا حوله، ورؤوسهم مشغولة بمهرب آمن، ففروا لا يلوون على شيء.

ثلاثة فقط من رجال «يونس» كمشوا في أماكنهم عاجزين عن التصرف: الرجل الذي يأتي إليهم بالطعام والشراب والماء والكيوف، وذلك الذي يطهو لهم الطعام ويجهز شبك الدخان ويغسل الملابس، و«فرحان» الذي يعس إليهم بالأخبار إن لزم الأمر.

بلغ «الصوابر» المغارة، سالمين جميعًا إلا من ثلاثة رجال أصيبوا، واحد في كتفه، والثاني في ذراعه، والثالث في ساقه. كان «غنوم» قد قدَّر هذا، فاصطحب معه المُزيِّن، الذي ظل طوال الطريق يرتجف، حتى كاد صندوق المراهم والإبر والجفت، يسقط منه غير مرة. حمل بعض الرجال المصاب في كتفه، وعرج من طالت رصاصة ساقه، وهرول المصاب في يده، واحتموا بصخرة ليتلقوا العلاج المتاح.

دخلوا المغارة في حذر، فربما يكون أحد المسلحين رابضًا خلف نتوءات الصخر التي تتوسطها وتطل من جانبيها، لكنهم لم يجدوا سوى ثلاثة رجال رافعي أيديهم يرتجفون. صرخ فيهم «غنوم»: أين ابني؟ فأجاب «فرحان»، وهو يغالب دموعه: هرب به «يونس». ثم استدار ليشير إلى الباب الخلفي الضيق للمغارة. جرى نحوه «الصابر» ومَن معه، فلما خرجوا، وجدوا «يونس» طريحًا، يئن، وهو يحرك

جسده قليلًا، كأنه يختبر بقاءه على قيد الحياة، ولم يكن الرضيع معه، ولا صندوقا الذهب والنقود.

(23)

جلس «غنوم» القرفصاء إلى جوار «يونس» الملقى مكانه، وبعض دمه قد ساح على الصخرة الصماء. غمزه في كتفه، فلم يدرِ شيئًا عمن يعبث به. ناداه فلم يرد. قال لأحد رجاله: هات كوز ميَّه. سكب الماء فوق رأسه فتململ وسعل. راح يعود من غيابه فاتحًا عينيه. لمح «غنوم» ينظر إليه في غيظ شديد، وهو أكثر مَن يتمنى بقاءه على قيد الحياة. تفرس فيه مليًّا، كأنه لا يعرفه. وربما يكون وقتها قد نسي كل ما جرى. في لحظة محت الغيبوبة القصيرة كل شيء من ذاكرته، لكنه أخذ يستعيده، فصرخ كالمجنون: اقتلوني، فهذا لن يمحو عاركم.

كان صدر «غنوم» يعلو ويهبط، يكاد مَن حوله أن يسمعوا صوت شهيقه وزفيره، بسبب إنهاك جسده من طول الرحلة ومطاردة كانت تضعه بين الحياة والموت. لم يعد أمامه شيء يفعله في هذه اللحظة سوى أن يبصق على وجه «يونس». لم يكن يتردد في قتله، وأخذ جثته لتعليقها في مدخل «الصابرية»، لو كان قد وصل إلى ابنه وماله، لكنه كان حريصًا على حياة غريمه، فهو وحده الذي يعرف أين الرضيع والذهب والنقود.

حمل الرجال «يونس» بعد إفاقته. ربطوا يديه من خلاف. سحبوه إلى الخلف. وضعوه إلى جوار الجمل، الذي كان يرغي غير عابئ بشيء. طلب «غنوم» المُزيِّن الذي كان قد انتهى من مداواة الجرحى

الثلاثـة، فجاءه مسـرعًا، وخطواته تنطق بثقة الظافريـن، بعد أن انتهت المواجهة بانتصار الذين هو معهم.

قـال لـه «الصابـر»: داوِ يونس كما فعلـت مع الجرحـى الآخرين، بل أحسن. نظر إليه المُزيِّن في اندهاش، لكن لم يكن بوسعه أن يسأل، وسط هذا الكرب الشـديد، فالسؤال كان للسيد، الذي قال لـ «يونس» في حزم: أين أخفيت ابني؟ لم يجبه، فراح يهدده: سأقطع من لحمك وأؤكله لك.

ظـل «يونـس» صامتًـا، فقال لـه، وقد اختلطـت نبرته باسـتعطاف، حـاول إخفاءه، لكـن عواطفه غلبته: أنت لم تكن أبًـا، فلا تعرف ما أنا فيه، وهذا ابني الوحيد، الذي جاءني بعد صبر.

كان المُزيِّـن قد فرغ ممـا يفعل، فاعتدل «يونس»، وقال: لا أعرف. فعـاد «الصابر» يصرخ: كيـف؟ فأجابه «يونس»، وهـو يبعد وجهه عن عينين مملوءتين بالغضب العارم: أخذه أحد رجالي، وهرب.

- إلى أين؟

- لا أدري.

- الإنكار لن ينفعك.

- ما كنت صادقًا في حياتي مثلما أنا الآن.

كان «الصوابـر» يتابعون ما يجري بين كبيرهـم و«يونس»، فاقترب أحدهم، وسأل بصوت مفعم بالحنق: أين ذهب رجلك الملعون؟ وما اسمه؟

أجابه، وهو يلهث من فرط الإجهاد، ويضع يده على رأسه، متحسسًا جرحه: اسمه «غـلَّاب»، وهرب في هذا الاتجاه. ثم أشار بيده إلى الشرق، حيث تمتد الصحراء الخالية. كان قد أشار إلى الاتجاه الخاطئ.

(24)

مد «غنوم» إصبعه إلى الخلاء، حيث أشار «يونس»، وقال لرجاله: وراء الهارب، ولا تعودون إلا به. فهرع أحدهم، وقفز إلى ظهر الجمل الراقد، وضرب قدميه في جنبيه حتى نهض، ثم دفعه إلى الشرق. ركب آخر الجمل الذي جاء معهم، وراح الرجال يجرون عن يمينه ويساره، معهم الدليل، وفي أيديهم السلاح، حتى غابوا في أصفر ممتد، لا تبدو له نهاية.

ساعات مرت على «غنوم» دهرًا، استجوب فيها «يونس» مرات عما إذا كان يعرف مكانًا آخر يهرب إليه رجله، لكن لم يحصل على إجابة شافية. تيقن من أن «يونس» قد صار مثله، فقد ما كان معه، الرهينة التي يساوم بها، والذهب والنقود، الذي ربما فكر في أن يأخذ بها أرض التزام في مكان بعيد، يعوض بها «الجوابر» عما ضاع منهم.

عاد الرجال قبيل المغرب، كما ذهبوا. كل ما تغير هو أن قِرب الماء التي حملوها قد فرغت في هذا الصيف القائظ، وأجسادهم صارت أكثر إنهاكًا، يجرون أقدامهم على الرمل، وهم يلهثون.

تطلع «الصابر» إليهم، فقال أحدهم: بحثنا في كل مكان. دخلنا مغارات مهجورة، درنا حول أحجار عالية، لعله يختبئ في أي منها.

وتدخل الدليل: تتبعنا آثار حوافر الحصان، حتى اختفت في منطقة صخرية، وتكفلت الريح بالبقية.

قال رجل من الذين بقوا مع «غنوم»: هذه المهمة لا ينهض بها الراجلون.

فأشار «غنوم» إلى ثلاثة من رجاله، وقال لهم: عودوا إلى «الصابرية»، افتحوا الإسطبل، وأخرجوا كل الأحصنة، اركبوا ثلاثة، واربطوا البقية خلفكم، اعبروا بها النهر، وتعالوا. سنبيت هنا، وفي الصباح لتجري الخيل باحثة في أماكن أبعد مما ذهبتم.

(25)

جرت الخيل في كل اتجاه، يقودها «غنوم» نفسه، وترك «يونس» مقيدًا، يئن من جرحه، ومعه المُزيِّن، وثلاثة من الرجال، جروه إلى المغارة، ليحتموا بها من وقدة الشمس الحارقة.

لا الخيل، التي تمضي إلى حيث يريد راكبوها، ولا الراكبون الذين يمدون أبصارهم في كل مكان، قد وصلوا إلى شيء، حتى دب اليأس في أوصالهم، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على أن يبلغ السيد بعدم جدوى ما يفعلون. انتظروا الأمر منه، وكان عاجزًا عن إصداره. قلبه لم يطاوعه على العودة دون ابنه وماله. لكن ماذا عساه أن يفعل، بعد

كل ما بذل من جهد؟ شعر بأن روحه تنسحب من جسده، لولا بعض أمل كان يسكنه، كلما مر الوقت، في أن معجزة ما ستلوح، من اليمين أو اليسار، من الأمام أو الخلف. وتمتم بصوت جرى على شفتيه المقددتين من فرط الأسى، لم يسمعه غيره: كيف يخذله الله، وهو لم يتأخر عن فعل الخير؟

يومان انقضيا حتى كاد الماء والطعام ينفد، ولم يكن أمام «غنوم» سوى أن يأمر رجاله بالعودة. أصدر أمره بشفتين ترتعشان، حتى خاف عليه مَن حوله من هول ما هو فيه.

(26)

للجبل أسراره التي لا يعرفها سوى رجاله. لجأ «الصابر» إلى عصابات تسكنه في أماكن بعيدة، أرسل رجاله إليهم بالمال، فربما يكون «غلَّاب» قد لجأ إلى أي منها، فإن لم يفعل، فهؤلاء يعرفون أين يختبئ الهاربون بين فجاج الصخر والحصى المسنون.

بعد شهر واحد، عاد إليه أحد رجاله، وقد عرف نصف الإجابة. وقف أمامه يقطر الأسى من عينيه، وقال:

- وجد الرجال جثتين متعفنتين يغطيهما الذباب الأزرق، لرجل وحصان، عند كومة أحراش ليست بعيدة عن هنا.

انتفض «غنوم» واقفًا، وسأل بحروف يسكنها الرجاء: والرضيع؟

أجابه: لم يعثروا له على أثر.

جـرى نحو حجرة ملحقة بالإسـطبل، كان قد حبس فيها «يونس». اقترب منه، وسأله: هل جردتم ابني من لباسه؟

هز رأسه، نافيًا، ثم أردف: عليه ما جاء به، القطن والحرير.

عـاد يجـري إلى حيث العائد من الجبل، وسـأله: ألـم يعثر الرجال على قطن وحرير فارغ؟

- لا، لم يعثروا سوى على ما أخبرتك به يا سيدنا.

- ولا حجاب من جلد مطوي على ورقة مكتوب فيها ما يباركه؟

- لا يا سيدنا، لم يجدوا شيئًا.

سرى في أوصاله أمل، وقال: ابني حي.

كان يدرك أن الدود كان أسـرع إلى جثة طرية، فنهبها نهبًا، وسواها بالتـراب، بينمـا أخـذ التهامه للهـارب والحصان وقتًا أطـول، فلقيهما الرجـال علـى حالهما. لكن ها هو قد عرف أن الكسـاء الذي لن يأكله الـدود ليـس موجودًا، فقال لنفسـه: «يد امتدت إلى ابنـي، وأخذته من رجل ميت، وأخذت معه صندوقي الذهب والنقود».

(27)

كان «غلَّاب» قد جـرى بحصانه على قدر ما وسـعه، لا يعرف إلى أيـن يذهب؟ سـكنه أمل في أن يلقى في طريقـة عصابة من الفلاتية، أو أي مـن تجار الملح، أو حتى الذين يقطعـون الجبل بحثًا عن الذهب، لكن الوقت طال به، والمسافة امتدت في طريق لا يعلمه جيدًا.

كان جرحه ينزف بشدة، فنزع الحرير من فوق الرضيع، وربط ساقه. تراجع النزيف، لكنه لم ينته. ظلت الحياة تخرج من جسده على مهل، قطرة قطرة، حتى لم يعد قادرًا على مواصلة الهرب. سار به حصانه، وراكبه يأمل في النجاة، بعد أن أهداه عقله أن يكر راجعًا نحو النهر، لعله يجد في العمار مَن يداويه. لكن الحياة خانته، فلفظ أنفاسه الأخيرة، بين يدي رجل وامرأته، غريبين عنه. مات بينهما، وهو يحضن الصندوقين بذراعيه، بينما ألقى الرضيع عن يمينه، ينظر إلى السماء الطليقة فوقه، ويبتسم.

(28)

يخرج الحي من الميت، ومَن له عمر لا يوجد من الخلق مَن يسلبه إياه. خاطف يحتضر، ومخطوف يرى بفطرته النقية أيامه الآتية، في بلاد غير البلاد، فمَن ذا الذي يختار خطواته التي يدبها على الأرض، ومَن بوسعه أن يعرف مصيره. مَن لم يختر مكان ولادته، ولا الصلب الذي وضع بذرته، والرحم التي اكتست فيها عظامه لحمًا، لن يكون بوسعه أن يختار مكان موته، حتى لو اختار مكان عيشه بكامل إرادته.

(29)

لا يخلو جبل من سابلة، فلاتية وقاصدي صيد، وملح، وكنوز مطمورة. قبل هؤلاء عربان من أبناء قبائل استوطنت الصحراء، واتخذتها مملكة حرة، بعيدًا عن عيون العسس، وجُند السلاطين، وتحكم أصحاب الالتزام.

لكن نصيب «سالم» لم يكن أيًّا من هؤلاء، إنما كان رجلًا هاربًا من ثأر اسمه «عويس» من قرية بعيدة اسمها «الحوارس»، كانت زوجته «روحية» قد رفضت أن تفارقه في رحلة هروبه، التي امتدت به بين القرى والزروع حتى اقترب من «الصابرية».

ضيق مطاردوه عليه الخناق، فلم يكن أمامه من سبيل سوى عبور النهر. سرق قارب صياد وجده راسيًا، وصاحبه غائب. جدَّف ما وسعه حتى بلغ الشاطئ الآخر. وجدته زوجته يسلك مدقًّا ضيقًا، صاعدًا إلى الجبل، فاستوقفته، وسألت في فزع:

ـ إلى أين أنت ذاهب؟

– لا مهرب ممن يطاردونني إلا باللجوء إلى الفلاتية.

نظرت إليه في تعجب، وسألته: أتذهب إليهم وأنا معك؟

ربت كتفها، وقال: ليس لي في الدنيا سواك، فالله لم يعطنا خلفة، فأعتبرك ابنتي، وأنا ابنك. ثم أردف: لا تخافي، عصابة منها يقودها «صميدة» أخي في الرضاعة، وفي كنفه سيكون الأمان التام.

– هل تعرف مكانها بالضبط؟

– اصطحبني أحد رجاله مرة، وجئت بمفردي مرة أخرى، وطرق الجبال لا تتغير علاماتها سريعًا.

سكنتها حيرة وتردد، وأدرك ما بها، فقال لها:

– لن نبقى عنده إلا عدة أيام، حتى يدبر لنا مكانًا بعيدًا، لا يصل إليه مَن يتعقبونني.

سألته في قلق: أي مكان؟

أجابها في ثقة: «صميدة» يد باطشة لكبار بلاد كثيرة، بعضها بعيد عن هنا، ويمكن أن يطلب من أحدهم حمايتنا، وتدبير معاشنا.

اطمأن إلى زوادة الطعام وقربتي الماء، وكأنه يعلن لها أن الطريق قد يطول. مشيا في مدق ممهد، انتهى إلى تل، لكنه انحرف عن يمينه في طريق أقل تعبيدًا، يكسوه رمل وحصى، وتظهر فيه حوافر خيل. ظهرت مجموعة من أحراش متجاورة في منطقة لينة، فقال لها: لنأكل ونشرب حتى نقوى على الطريق.

جلسا تحت الأحراش التي كانت ترمي ظلًّا ضئيلًا على جانبيها، وحام سرب من طيور في السماء، ثم اختفى، فقال «عويس» لزوجته: فأل حسن، فلا يحوم الطير إلا حول علامات الحياة.

قبل أن يفرغا من طعامهما وشرابهما، لاح هناك حصان يمشي على مهل، فوق ظهره رجل يترنح إعياء. انتفض «عويس»، ساحبًا بندقيته، وتأكد من أن رصاصة مستقرة فيها ومثبتة جيدًا. تقدم خطوات في اتجاه الرجل، وصرخ فيه: اثبت.

لكن الحصان راح يتقدم نحوه، وظهر له أن راكبه لا حول له ولا قوة. فلمَّا بلغه، تنبه إلى قطرات الدم التي تتساقط من ساق الرجل. أوقف

الحصـان، ومد يـده لينزل «غلَّاب» عنـه، فوجد أمامه لفافـة بها رضيع يمص إصبعه، وعلى جانبي الحصان صندوقان مربوطان بعناية.

كان «غـلَّاب» ينـازع الموت، ومع هذا تمكـن من أن يقول بصوت واهـن: لا تتركنـي، ولـك مـا تريـد. معـي مـا أعطيـه لك، ولن أنسـى معروفك.

نحـى البندقية جانبًا، ومد يديه وأنزل الجريح على الأرض. كان لا يسـتطيع السير، فأسنده إلى الأحراش، وهو يتفرس في ملامحه، فربما يكـون قـد مر وجهه عليه من قبل. بدا له غريبًـا، لا يعرف من أين أتى؟ ولا إلى أين يذهب؟

وقف الحصان يلهث، وظهر عليه إعياء شديد، ثم برك مكانه، رافعًا خطمه إلى الهواء، ثم استلقى على ظهره فاردًا أرجله الأربعة.

سأله «عويس»: مَن أنت؟

اشتد على نفسه حتى ينطق، وقال: اسمي ليس مُهمًّا.

فسأله: من أي بلد أنت؟

- من بلد بعيد عن هنا. أنا من بلاد كثيرة، ولا بلد لي.

- هل أنت من رجال «صميدة»؟

هـز رأسـه نافيًا، ثم أردف بصوت واهـن: لا، أنا من رجال «يونس الجابر».

طلب «غلَّاب» ماءً، فمد «عويس» القِربة إليه، فشرب قليلًا، ثم قال: يبدو أنها النهاية. وتململ الطفل بين يدي «روحية»، التي كانت تحضنه كأنه وليدها، فاقتربت به من «غلَّاب»، وسألته: هل هذا ولدك؟ لكنه لم يقدر على رفع عينيه تجاهها، ولم ينطق لسانه سوى بكلمة واحدة: لا. وغامت عيناه، وصوت حشرجة راح يهز صدره، ثم سكن تمامًا.

(30)

اعتقد «عويس» أن الجريح قد سقط في إغماءة. مد يده وفك عن ساقه رباط الحرير، فرأى جرحه، والدم متجلط عليه، بعد أن كف عن النزيف. قلبه يَمنة ويَسرة، فلم يحرك ساكنًا. تقدمت «روحية»، دون أن تترك الطفل من يديها، ومالت على جسد «غلَّاب». ترددت، ثم نظرت إلى «عويس» وهي تميل أكثر لتضع أذنها على صدر الجريح، فلم ترَ في عيني زوجها غضبًا. طبعت أذنها فوق القلب تمامًا، ثم قالت: مات.

رفع «عويس» بصره إلى الصحراء الممتدة، والسماء الطليقة التي تحط عليها عند مرمى البصر، وقال: الدوام لله وحده. فقالت «روحية»: نأخذ الطفل والحصان، ونمشي في طريقنا.

مشى نحو الحصان، وحاول إنهاضه، لكنه تمرغ قليلًا مكانه متشبثًا به. فك الصندوقين، فربما يثقلانه على صغرهما، فيكون قادرًا على القيام دونهما، وغمزه بطرف قدمه في جنبه، لكنه عاد إلى التمرغ،

خفيفًا هذه المرة. جرى إلى القِربة، ووضع فمها في فم الحصان، لكنه كان عاجزًا عن تجرع كل ما يُسكب فيه.

كانت «روحية» تنظر إلى الصندوقين الموضوعين فوق الرمل والحصى، وذهنها شارد فيما يمكن أن يكون داخلهما. لم تقاوم فضولها، فتقدمت، وأمسكت صندوق الحُلي، وهزته فسمعت صلصلة. هزت الآخر، فكانت الصلصلة أشد.

telegram @
yasmeenbook

سألت: يا ترى ماذا في الصندوقين؟

- ربما تكون ذخيرة.

- لا أظن.

أعاد بصره إلى الصندوقين. تقدم ومد يده إلى قفل صغير يغلق صندوق النقود، وهزه بعنف، لكنه لم ينخلع. أمسك بندقيته، وضربه عنيفًا بالدبشك، فانخلع. رفع الغطاء، وعقدت الدهشة لسانه. كانت هي فوق رأسه، فصرخت: يا بختي! ثم نظرت إلى الصندوق الثاني، وقالت لزوجها: افتحه. فتحه بالطريقة نفسها، فلمعت الحُلي وملأت بصريهما بريقًا.

نظر إلى جثة «غلَّاب» المكسوة بلباس رث، يملأه العرق والرمل، وقال: هذه سريقة، كان هاربًا بها. انطلق الرضيع في صراخ ناعم، فقالت المرأة: لا يغامر سارق بكبده. وأردفت، وهي تنقل بصرها بين لباس الطفل الذي يبدو غالي الثمن: يبدو أنه قد خطف الرضيع من

أهله، وهذا مالهم. هز رأسه، وقال: هو لغز كبير على أي حال. ردت، وهي تضرب ساعدها في الحُلي: دعك من الألغاز، ودعك من هذا الطريق، فالآن لنا طريق آخر يجب أن نمشي فيه.

تطلع إليها، ليعرف ما تفكر فيه، فقالت:

ـ إن رأى «صميدة» الصندوقين ربما يقتلك، ويقتل الطفل.

– لا تسيئي الظن به، فقد خبرته وفيًّا لي.

– مَن اعتاد قتل الأنفس في سهولة، لن يصعب عليه قتل مَن يحب، إن لزم الأمر، أو جرى بينهما طمع.. لنأخذ الطفل، فهو رزق لرجل وامرأة، لا يعرفان مَن فيهما عقيم، وليكن المال سبيلنا إلى إسعاده.

صمت برهة، وهو ينظر إلى الطفل فانتبه إلى التعويذة المعلقة في رقبته، وقال لها:

– اخلعيها، فربما تدل عليه.

– هو حجاب يباركه، وأخشى أن يؤدي خلعه إلى مكروه يصيبه. سأداريه، وربك حليم ستَّار.

ثم أشارت إلى قطعة الحرير، وقالت: غريبة على جلباب القتيل، هي للصغير، ولا شك.

التقطتها، وفركت الدم المتخثر عليها، ثم وارت بها رأس الطفل لتحميه من صهد الشمس. أشارت إلى الطريق المعاكس، وقالت: لنعُد

إلـى النهر، ونؤجر مركبًا يأخذنا إلى مكان أبعد في الضفة الأخرى، ثم نذهب إلى بلد لا يمكن لمَن يطاردونك أن يبلغوه أبدًا.

قـال لها، وهو يرمق جثـة «غلَّاب»: ندفنه. ردت: ليس هناك وقت. نتركـه في العراء، ربما يتعرف عليه أحد، ويسـلم جثتـه إلى أهله، بدلًا من أن يقضوا العمر حزانى يبحثون عنه.

(31)

عصيبة مرت الأيام على «غنوم»، لم يشفِ غليله حبس «يونس»، بعد أن أيقن أنه لا يعرف مكان «سـالم»، وحتى لو كان يعرف وينكر متحمـلًا الوحـدة والظـلام والـذل في سـبيل الكيد لمَن حبسـه، أو الإبقاء على بعض انتصار في نفسه، فبموت «غلَّاب» انقطع عنه أي خبر.

انشغل «غنوم» بمصير مَن حبسه، هل يقتله، فيثأر لغياب ابنه، ويسترد هيبـة كان يظـن أن تضيـع تدريجيًـا؟ أم يجعلـه يقبع في السـجن إلى أن يموت؟ سبق له أن أمر رجاله بوضعه مقلوبًا فوق حمار، قفاه إلى الأمام، ووجهـه إلى الخلف، وزفه العيال كأي سـارق لا أهـل له، أهانوه في كل شوارع القرية، بما فيها مَن يسكنها الذين بقوا فيها من «الجوابر».

وبينما هو غارق في التفكير عما يفعله بهذا الذي حرمه من أغلى ما لديه في الحياة، برقت في رأسه فكرة، لم يسمع بها أهل القرية من قبل، وتمكنت من رأسه، جارفة أمامها كل ميراثه من السماحة والرحمة.

طلب ثلاثة رجال أشداء من «الصوابر»، ومعهم المُزيِّن، فلمَّا مثلوا أمامه، تطلع إليهم، وقال: قررت أن أحرم «يونس» من الخلفة إلى الأبد. نظروا إليه صامتين في حيرة، لا يدرون ما يقصده، فعاجلهم: سأميت نسله في صلبه.. سأجعله من الخصيان.

رد أحدهم على الفور:

ـ له نسل، أنسيت الغجرية التي شكت قبل سنين أنها قد حملت منه؟

– لا، لم أنسَ، لكن «يونس» أنكر هذا وقتها، وطردها من القرية. إنها من المساليب، لا تستقر في مكان، وربما أجهضت نفسها، أو نسبت الطفل لرجل آخر، أو قتلته فور ولادته.

وجيء بـ «يونس» مُقيَّدًا. ألقوا به تحت قدمي «غنوم» الذي كان يجلس على كرسيه، وينظر إلى سجينه باحتقار. لم ينشغل «يونس» بنظرات تغمره بالاستهانة، يريد أصحابها أن يحطوا من شأنه، فهو موقن أنهم لن يقدموا على قتله، طالما ظل رضيعهم مخطوفًا. لم يكن خبر موت «غلَّاب» واختفاء الطفل قد وصله، ولهذا بدا متماسكًا، بل اعتقد أن السيد الجالس يغالب انكساره، سيتودد إليه، كي يعرف منه أدنى خبر يمسك به أول الخيط إلى ابنه الضائع.

حرص «يونس» على ألا يرفع عينيه في عيني «غنوم». كان يحملق في أرضية البهو الرخامية، ويحاول أن يستدعي أي ذكرى يلهو بها،

لعلها تخفف من وطأة ما هو فيه. لكن عينيه لم تلبثا أن انفتحتا عن آخرهما، حين قال له «غنوم»: سأخصيك كما نفعل بالجديان. امتلأ دهشة ورعبًا، ونظر إلى المُزيِّن، الذي كان مَن استدعوه قد أخبروه بمهمة لم تخطر له على بال فأتى إليها مُجبرًا.

قال «يونس» مستعطفًا، وهو ينظر إلى شفرة الموسى: اقتلني أفضل.

– لم أعتد القتل مثلك، ولا أريد أن أقابل الله وفي عنقي دم.

نظر «غنوم» إلى رجلين من أهله، وقال لهما: أمسكوه كما يُمسك صغير في طهوره. فك الرجلان قيد «يونس»، وطرحاه أرضًا. جرداه من سرواله. رفعا ساقيه، وسحبا ذراعيه بينهما، وأمسك كل رجل بيد، فأفسحا بين فخذيه. نهض «غنوم» من فوق كرسيه، وأمسك رأس «يونس»، بعد أن خلع كوفيته، وسد بها فمه. جاء أحد الخدم، وأمسك مع سيده. كان «يونس» يجأر كذبيحة، ويحاول التملص، لكن الرجلين أحكما الإمساك به، حتى لم يعد قادرًا على حراك. مد المُزيِّن الموسى ومزع خصيته اليمنى، وداس فيها بقوة، فأخرجها من صفنها. فعل الأمر نفسه باليسرى سريعًا، ثم غمس إصبعه في حُق مرهم أحمر، وغرسه في المكانين الفارغين.

تركوه يتلوى مكانه، وصراخه يتراجع حتى سقط في إغماءة. طلب «غنوم» من المُزيِّن أن يتصرف، فأخرج حُق نشادر كان بحقبيته، ومرره أمام أنف «يونس»، ثم سكب عليه ماءً باردًا فأفاق، وهو يتمنى لو كان قد مات دافئًا عاره معه.

سأل رجل من الاثنين: ماذا نفعل بخصيتيه؟

وقبل أن يجيب «غنوم» نطق الثاني: يأكلهما نيئتين.

لكـن «غنـوم» رفض هذا الاقتـراح، وقال: تربطـان بخيطين. تعلق واحـدة على صـدر أول بيت بالقريـة، والثانية على آخـر بيت، ليعرف أهل الصابرية جميعًا ما حدث للص الخائن.

أعادوا تقييده، وجروه إلى الإسطبل.

(32)

فـار الدم في عروق مَن تبقـوا من «الجوابر» في «الصابرية»، لكنهم كانـوا أضعـف من أن يفعلوا شـيئًا. كل مـا انتهوا إليه أن يرسـلوا اثنين منهم إلى «غنوم» ليفرج عن سـجينه، إلا أنـه أبى، وقال لهما في حزم: سيظل رهينة فاقدًا رجولته، حتى يعود ابني.

لكـن «يونـس» لـم يبـقَ. لم يتحمـل جرح كرامتـه، وهـو ينظر بين فخذيـه فيـرى عجزه الأبـدي عن أن يكون فـي يوم من الأيـام أبًا لولد أو بنـت. زحف على عجيزتـه، حتى اقترب من جدار الإسـطبل الذي حبسـوه فيه. كان حاسر الرأس، متشقق الشفتين، تغيم عينيه لا يريد أن يرى أي شيء حوله.

كان الليـل قد انتصف، حيـن اتخذ قراره الصعب جـدًّا على غيره، السـهل جدًّا عليه، لا سيما حين تشتعل نفسه حنقًا على ما جرى له من إهانـة وعار. راح يضرب رأسـه بقوة في الجـدار حتى انبجس الدم منه

غزيرًا. سال على وجهه وملابسه الرثة، مؤذنًا بنهاية لم يكن يعتقد في يوم من الأيام أنها ستأتيه على هذا النحو المهين.

سلم الخدم جثة «يونس» إلى أهله في الليلة التالية، واشترط «غنوم» ألا يُشيِّعه إلا أربعة رجال منهم، يحملون الخشبة التي تطوق جثمانه إلى قبره، وألا يُقام له سرادق عزاء.

دفنوه في الظلام، وعادوا إلى بيوتهم غارقين في الصمت والانكسار.

(33)

لم يستسلم «غنوم» لضياع ابنه. أرسل رجالًا إلى كل القرى والنجوع، القريبة والبعيدة. عبروا النهر، وسألوا رجال العصابات التي يعرف الأدلة الكهوف التي يعششون فيها. في الصباح والمساء، يجلس في الديوان أو في بهو قصره منتظرًا الخبر الذي يعيده إلى سابق حياته، لكن الرجال يعودون تباعًا فارغي الأيدي. ليس لديهم سوى حكايات عن المسافات التي قطعوها، وما سمعوه من كل الذين سألوهم في المشارق والمغارب، وفي الشمال والجنوب.

ثلاثة أشهر مرت، ولا خبر. راح الأمل يغور في تقدم الساعات المُرة. لم يعد أمامه سوى اللجوء إلى مَن يعتقد في أن لديهم ما يكشف له ولو طرف من الأسرار. جاء بضاربي الرمل من الغجر، ومَن يطالعون الخبر من الأفلاك التي تدور في جوف السماء البعيد. زاره كثير ممن اشتهروا بمخاواة الجان.

هرف كل من هؤلاء بما يراه أو ينصت إليه ممن يقول إنهم محدثوه من العالم الأثيري الخفي. كلما سمع «غنوم» من إحداهن أو أحدهم ولد أمل جديد في نفسه، فأرسل من رجاله مَن يسعى وراءه، لكن بلا جدوى.

تذكر شيخ الطريقة الذي رأى العلامة الحمراء على صدر طفله، وتحدث بشيء عما سيلاقيه في قابل أيامه. أرسل إليه، فجاءه وليس معه سوى ما حكاه قبل شهور، خلال أيام الأفراح الهائمة، التي لم يكن «غنوم» يظن أبدًا، أنها ستنقلب إلى أحزان سوداء مقيمة.

ذكَّره بما سمعه منه، فقال الشيخ: لم أحدثك سوى بما نطق به قلبي.

نظر إليه في انكسار، وسأله: ألا يحدثك قلبك الآن بجديد؟

صمت برهة، وقال: لا أقطع الأمل أبدًا في خاطر يسكنني بغتة، ولا حيلة لي به، أو رؤية في منام هادئ، وكلاهما من عند ربك.

غالب «غنوم» دموعًا تطفر من عينيه، وسأله من جديد: ألم يأتك شيء حين سمعت ما جرى؟

أجابه، وهو يرق لحاله: لم أسمع سوى اليوم منك، وقبلها كنت أدور على البلاد في حضرات لا تنتهي.

ثم أطرق برهة، وقال: سيكون له مثل مالك وأحسن، لكن في مكان بعيد.

تهلل وجه «غنوم» بشيء من رجاء، وقال: هل أراه في نعمته البعيدة؟

هز رأسه نافيًا، وقال: سترى غيره، من صلبك يأتي من رحم لم يكن في حسبانك. أما «سالم» فسيعود حاملًا رايتك، التي ستتركها سنين قبل أن يرفعها عالية في وجه الريح.

(34)

استبد اليأس بـ «غنوم»، ولم يجد له مصرفًا سوى في الذهاب عصر كل يوم إلى الزاوية. شاطر «متولي السمطي»، المريد المختلي بنفسه ساعات طويلة ترديد الأوراد، فوجد بعض السلوى في العبادة والذكر. يلهج بالتسابيح حتى يتعب لسانه، دون أن يتعب قلبه.

يركب أحيانًا فرسه في الظهيرة ويصعد إلى الجسر العالي الذي يحمي القرية من الفيضان، ويرسل ناظريه إلى صفحة النهر المنساب إلى الشمال، فيطل هناك الجبل، حيث صعد ذات يوم وكله أمل في أن يعود ومعه ولده وماله.

كانت سلوته الثانية في شاعر الربابة الذي يستقدمه يوم الخميس من كل أسبوع، يُجلسه على كرسي قبالته في الديوان، ويغمض عينيه للعزف الحزين، ثم الصوت الطلي الذي يشدو بالسيرة الهلالية. كان يطلب منه كل مرة أن ينشد مواويل عن الصبر والفراق وغدر الزمن، ويتوه معها هاربًا من دنياه المقبضة.

حدثه بعض أقربائه عن طبابة يمنحها الحشيش والنبيذ، لكنه رفض، وقال لهم: المسطول يشطح، والمخمور يترنح، والكبير لا يجب أن يفقد وعيه ولا هيبته دقيقة واحدة.

وأدرك سلوى أخرى ضائعة، على غير إرادة منه. كان قد أغلق خلفه باب غرفة أخرى اختارها للنوم، فهو لم يكن يقدر على المبيت في غرفته المعتادة، فكلما دخلها جاءه طيف «منصورة»، وسمع كلماتها الأخيرة، ثم يرى وجه «سالم» وهو يبتسم غير عابئ بشيء. الغرفة الجديدة كانت جانبية، نافذتها تطل على الحديقة من الخلف، وشمس العصاري تغمرها بالنور، وقت أن يكون هو في الزاوية غارقًا في التسابيح.

حين يختلي إلى نفسه في غرفته هذه يغرق في تفكير مضن، تتخبطه الهواجس والوساوس والآمال الكاذبة، التي يحاول أن يطمرها بالأدعية والأذكار.

ذات ليلة، ما إن استعد للنوم حتى شعر بحركة إلى جانب النافذة. قام وفتحها، فواجه القمر بدرًا يتوسط السماء. شخص ببصره إلى الجانب الأيسر، فرأى تحت نخلة قصيرة كلبًا يختلي بأنثاه. وجده يعض جسدها في خفة، وهي مستسلمة له، ثم راح يتشمم فرجها فزاد استسلامها. قفز عليها، وراح يطعنها في لهفة، وهي غارقة في اللذة.

جرت دماء الشهوة في عروق «غنوم». وجد نفسه لا يريد أن يغلق النافذة. كان يخشى أن يراه أحد الخفر الذين توزعوا على ورديات ليل عند سور القصر، منذ حادثتي الخطف والسرقة. فمَن أدراه أن تعود

عصابة من «الجوابر» الذين أجلاهم عن القرية للانتقام، لا سيما بعد أن ألحق بهم عارًا جديدًا حين أقدم على إخصاء «يونس».

وارب النافذة دون أن يفقد متابعة ما يجري بين الكلب والكلبة، ولأول مرة، منذ رحيل زوجته، شعر بأن هناك شيئًا جميلًا لذيذًا قد نقص من حياته، وربما يمنحه بعض السعادة، ولو لوقت قصير، إن استعاده. لكنه سرعان ما طرد الفكرة من رأسه، ومات الاشتهاء، حين أغلق النافذة، وعاد إلى سريره. بدأ التسابيح التي تسبق النوم، إلا أنه شرد منها فيما رآه، ولم يكن ينكر السعادة التي تغمره حين أدرك أن الرغبة لم تمت تمامًا بموت زوجته، كما كان يظن، وهو يقسم صامتًا على نفسه أن يظل وفيًّا لها إلى آخر العمر.

عرف الخدم والعبيد ما جدَّ على سيدهم من أحوال، فكانوا يقدمون له الطعام والشراب في موعده. يبلع في مشقة لقيمات يقمن صلبه، ويقوم غير هانئ بطيبات الرزق المرصوصة على الخوان أمامه. في الليل يتقلب على جنبيه، كأن تحته جمرًا، ولا يسقط في نومه إلا حين يكرر النداء الذي تعلمه من ساكن الزاوية: يا لطيف.. يا لطيف.

لكن النوم لم يُذهب عنه ما يداهمه في أحلامه، وما يلقاه في انتظاره حين يفتح عينيه في البكور. إنه الأسى، وما يخمش نفسه من أفكار تعيسة، حين يدرك أن كل ما جمعه لن يذهب إلى ولد من صلبه. أخوه «محفوظ» الراضي بالعلم، لم ينجب سوى بنت، لم يرَها «غنوم» سوى مرتين. يصر «محفوظ» على رفض المشاركة في التزام الأرض، ولا يريد لابنته أن تعيش هنا.

بيـن الذِّكر والذِّكـر هناك حياة لا بد أن يعيشـها، بعد أن ناداه رجال «الصوابـر» ليعود إلـى دوره المحتوم. يقضي بين النـاس في المظالم، ويصلـح بيـن المتخاصمين، ويأمر بتوزيع بعض الطعـام على الفقراء، ويُحسـن إلى خدمه وعبيـده، فهم وحدهم الذين شـعر بأن إخلاصهم له لا ينتهي.

كان يشـعر بهـم، وهـم ينقلـون أقدامهـم في هـدوء طـوال الليل، ليطمئنـوا إلـى أنـه نام، أو يسـأل حاجة يقضونهـا له. كانـوا قريبين من نفسـه، أقربهن «مسـعدة» التـي يرى فيهـا رائحة ابنه الضائـع، وخادمة شـابة من «آل بخيـت»، كانت تذهب إليه لتدلك سـاقيه وركبتيه اللتين سكنهما عجز طارئ بفعل تصاريف الأيام التي لا ترحم.

كان اسـمها «بديعـة»، وطالمـا رآها اسـمًا على مسـمى. ضحكتها الصافيـة، وصوتهـا الـذي يشـبه الرباب المجـروح، وهو مـا يحبه من العزف، وقوامها الممشـوق، ومشيتها التي تتهادى بها في خيلاء كأنها انحدرت من صلب سكان القصور.

لـم تكـن تنقطع عنه فـي أي يوم، وكلمـا نادى أحدًا مـن خدمه أو عبيده كانت الأسرع إليه. ارتاح لوجودها، ووجد للحديث معها طعمًا محببًا. كانت تروق له ردودها، وكأنها قد أوتيت حكمة لا يمسـك بها المرء سـوى في آخـر أيامه، بعد أن تعركه السـنين والمحن. كانت إن حملـت هـي إليه الطعـام، أكل أكثر، حتـى لفت هذا انتبـاه الخدم مع الأيام، فكانوا حريصين على أن تكون هي التي تحمل الخوان إليه.

فـي ليلة شـعر بألم في جنبيه. نـادى، فهرعت إليـه خادمة بدينة في وسط عمرها. وقفت عند مخدعه، وسمعته يتوجع، فسألته: هل نطلب المُزيِّن؟ فهز رأسه، وقال لها، بصوت مسكون برجاء، لا يعرف من أين داهمه: هاتي «بديعة».

(35)

دخلـت إليـه ملهوفـة، فوجدت الألـم يسـكن عينيه قبـل غيرهما. نظرت إليه، وكانت قد بدأت تدرك ما يشـعر به وتخشاه، وقالت: ألف سلامة عليك يا سيدي.. ما يوجعك؟

وضع يده على بطنه، وقال: مغص شديد.

التفتـت إلى النافـذة، فوجدتهـا مواربة، فمشـت إليهـا، وأغلقتها، وقالت: أصابك برد في هذه الليلة الشتوية.

اقترحـت عليـه أن تغلـي لـه الكمـون والشـيح البابونـج فوافـق. اسـتدارت نحو باب الغرفة، لتعد هذا المشروب الساخن، فرمى بصره نحوها. انتبه إلى عجيزتها المسـتديرة، التي تهتز في لطف، وتتدلى من خصر نحيل يعتليه ظهر معتدل، ينتهي بكتفين مسـتديرتين. سأل نفسه بعد أن غابت: كيف غفلت عن هذه الجوهرة؟

تذكـر أن «منصـورة» قـد فاتحته ذات ليلـة في أمـر زواج «بديعة»، وقالت له إن شـابًّا من «آل بخيت» اسـمه «بحر» يريد التقدم إليها، وأنه قد وسَّـط «مسـعدة» في قضاء طلبـه. لكن «غنوم» وقتها كان مشـغول

البال بشكوى الفلاحين من اغتصاب «يونس» الأرض التي يزرعونها، فلم يهتم كثيرًا بما سمع، بل نسيه مع الأيام.

ها هي الظنون تهجم عليه من كل جانب. هل كانت «منصورة» تريد إبعادها عن القصر بعد أن بزغت فتنتها على هذا النحو؟ ربما كان هذا شعور امرأة تأخر إنجابها؟ بل الأحرى شعور مَن لا تلبي نهم زوجها، بعد أن جار عليها الختان، فأفقدها تجدد الرغبة المتأججة على نحو سريع. ولماذا يعتقد أن المرأة التي سمعت عن تحرش الصابر الكبير بخادماته لا تخشى من خادمة تفتحت كزهرة برية أمام حفيده؟ أليس العرق دساسًا؟

لكن ما يعرفه جيدًا أنه ظل وفيًّا لـ «منصورة» حتى وفاتها. كان يناديها بالهانم منذ أن جاءت عروسًا تتعثر في براءتها، وطلب من الخدم والعبيد أن يفعلوا مثله. عززها بين أهلها، وجعل حتى زوجات السناجق المتعافين يحسدونها على ما هي فيه. ألم يكن لديها صندوق من الحُلي والمجوهرات، وخزانة مملوءة بالفساتين والعباءات الفاخرة؟

تزاحمت في رأسه الأسئلة والذكريات، لكنها ماتت فجأة حين أطلت «بديعة»، حاملة صينية من الفضة الخالصة، عليها كنكتان يتصاعد منهما البخار، وتلتف حولهما كؤوس النحاس. وضعت الصينية على طاولة صغيرة إلى جانب السرير، وراحت تصب، منهكمة فيما تفعل، بينما «غنوم» يتفرس ملامحهما الجانبية، فيجدها أشد فتنة.

التفتت إلى سيدها، وسألته: هل أنتظر حتى يبرد المشروب؟

كان تائهًا في وجهها وفي خواطره، فلم يرد، فواصلت: هل أنقله بين الكؤوس حتى يبرد، أم ستنفخ فيه يا سيدي؟

هنا انتبه، وقال لها: انفخي أنت يا «بديعة».

وكانت تقرب الكأس منه، وهي تنفخ، فتلفح وجهه بعض أنفاسها، حاملة سخونة الكأس إليه، لكنه أيقن أنها سخونة جسدها الفائر. اعتدل، ومد يده ليأخذ الكأس، فمست أصابعه يدها. سرت في جسده رعدة، وانطلق في داخله نداء خفي عامر بالمسرات واللذة.

تناول الكأس من يدها. سحب شفطة، ونظر في عينيها، ولأول مرة يدقق النظر فيهما هكذا، فانتبه إلى أنهما أجمة نخيل ساحرة. بدت وجنتاها اللتان ينسكب عليهما ضوء الفانوس الواهن قطعتين من نحاس أحمر. رآها فاتنة على نحو ارتجف له قلبه، وآمن بأن الوصل لا بد آت.

كانت تراقبه بغريزة الأنثى التي تعرف سحرها، الذي طالما تحدث به آل بخيت والخدم والعبيد، وكل مَن رآها رأي العين من شباب القرية، حين انزاحت طرحتها السوداء عن وجهها الذي تحرص على تغطيته إن سارت في الشارع ذاهبة إلى بيت أهلها، في مرات قليلة. احتار الذين رمقوها في النطفة التي انسابت في العروق حتى وصلت إليها، فصورتها بما لم يكن لأي فتاة من عائلتها السمراء الفقيرة.

كان «غنوم» يسحب رشفات متتابعة، واحدة من كأس الكمون، وأخرى من الشيح، ويرمقها بطرف خفي، وكلما التقت عيونهما

ارتبكا سويًّا. هي تعرف أنه ليس من المناسب أن تتجرأ على سيدها، وهو يدرك أن مكانته تُقيِّده، لكن أي قيد في محبة ولدت عارمة؟

قال لها بصوت خفيض كأنه الهمس: لا حرمني الله منكِ يا «بديعة».

هزت رأسها في امتنان، وقالت: أنا تحت أمرك يا سيدي.

أي أمر يصدره إليها؟ تمنى لو طلب منها أن تقترب منه، فيدس رأسه الحاسر في صدرها، ويبكي أوجاعه المكتومة. وجع على ابنه الضائع، وآخر على آثار الطريق المفروش بورد المحبة وأشواكه، وثالث على ما يجب أن يقوله إن صارحها بما يضنيه، وما يبرر به موقفه أمام أهله، الذين لن يكون سهلًا عليهم أبدًا أن يقترن سيدهم بخادمته.

سألها بصوت يغالب ارتعاشه: هل طلبك قريب لك للزواج؟

صمتت برهة، ثم أجابت: فاتحتني الهانم رحمة الله عليها.

ارتبك حين جاء ذكر زوجته الراحلة، ثم تماسك، وعاد يسألها: هل وافقتِ عليه؟

ابتسمت، وردت بسؤال حمَّال أوجه: منذ متى كانت الواحدة منا لها رأي في هذا؟

سحب شفطات متواصلة، وطال بينهما الصمت، ثم سألها من جديد: لو كان لكِ رأي، فما هو؟

هـزت رأسـها، وقالت: لا أعـرف كيف يمكن أن أعيـش بعيدًا عن مكان كبرت فيه.

وفرت عليه بقولها ربع المسـافة إليها، فقال في حماس: مَن أدراك لعلك لا تبتعدين عنه.

جمعـت حصيلة نظراته وكلماته، وسـرى في قلبهـا دبيب عجيب، جعلها تكاد ترتجف، لكنها تماسكت، وقالت له: لا شيء عندي أفضل من البقاء إلى جوار سـيدي خادمة مطيعة له. تنحنح، وقال: بل سـيدة. ارتجت لكلمته، ولـم تحملها سـاقاها، فرجعت إلى الخلف خطوتين. اقتربت من الصينية، وأمسكت كنكة الكمون، وسألته: أصب لك كأسًا أخرى، فهو مفيد لك جدًّا؟

مـلأ ناظريه من جسـدها الفائـر، وتحرك داخله شـعور طاغ، جعله يسـحب اللحاف على جسـده، حتى لا ينكشـف أمره علـى هذا النحو الـذي يخجلـه، لكنهـا كانت قد أدركت مـا هو فيه. التفتـت إلى الباب المغلق، والنافذة المغلقة، وفضح النور الواهن ارتباكها.

أدرك هـو مـا يدور في رأسـها، فقال لهـا: حرصي عليـك أكبر من حرصك على نفسك.

هزت رأسها، وقالت: أدام الله رضاءك عني.

فقال على الفور: أراك فوق ما تتصورين.

وكانـت تعرف أنه ليس كجـده الكبير، الذي تناقـل العبيد والخدم حكاياتـه معهـم، فقالت: لـم نعرفك إلا سـيدًا محترمًا، لـم يخرج منه عيب في أي يوم.

رد في ثقة: ما أحله الله يخلو من العيوب.

لم تفهم الأمر كله على النحو الذي قصده، إذ لم يدُر بخلدها يومًا أن يدور بينهما حديث في مثل هذه الأمور، فاحتمت ببراءة لم تصطنعها، ورنت إليه في هدوء، وقالت: تثاقلت همومك يا سيدي، كان الله في عونك.

وخاف من أن توارب الحديث بعيدًا عما اقترب منه، فباغتها: تتزوجيني يا «بديعة»؟

خطفت الصينية، والكأسين الفارغين، وجرت إلى خارج الغرفة.

(36)

كتب إلى أخيه «محفوظ» في المحروسة أن يأتي، وسلم أحد الخفراء الخطاب إلى أول مركب شراعي ذاهب إلى «بولاق» حاملًا القمح من الصوامع إلى ساحل الغلال. قال له إنه يريده في أمر مهم، ولا سبيل لأي اعتذار. كان هو أقرب الناس إليه، ورأى أن إخباره بما عزم عليه واجب.

لم يفاتح أحدًا في نيته، حتى جاء «محفوظ» إلى «الصابرية» في عصر يوم ملبد بالغيوم، تداعب فيه النسائم الطرية هامات النخيل والشجر، وتدفع في النهر أمواجًا خفيفة. كان كعادته يصطحب معه بعض مخطوطات الفقه، وصواني الحلوى، وبعض هدايا التقطها من جوار مسجد الحسين. وكان يعتقد أن مرضًا قد أصاب أخاه لحزنه على ضياع ولده الوحيد.

ما إن رأى «غنوم» حتى سأله وهو يعانقه: خير يا أخي؟

شد على يده، وقال: كل خير، لا تقلق.

وكان يعرف أن الرحلة الطويلة قد أرهقته، فقال له: لتتناول غداءك، وبعدها أحدثك بما طلبتك من أجله.

كان متعبًا، فلم ينتظر الغداء الذي أمر أخوه خدمه بطهيه له، وذهب إلى الغرفة التي تُخصص له كلما أتى، وتُغلق فور رحيله، في انتظاره من جديد. نام تاركًا ابنته تلعب في حديقة القصر. استيقظ قبيل صلاة العشاء، فوجد «غنوم» ينتظره في لهفة.

ما إن اختلى به، حتى قال له: نويت أن أسلك طريقًا يعوضني عمن راح مني.

وكان يعرف أن أخاه قد أضناه البحث عن ابنه الضائع دون جدوى، فقال له: الانتظار مُر، وكل ما يعوض عنه مطلوب.

هز رأسه، وقال: قررت أن أتزوج.

- نعم القرار، فيه صحبة وألفة وفرصة لترى من صلبك ابنًا آخر، حتى يعيد الله إليك مَن ضاع.

- من واجبك أن تعرف العروس.

- سيدنا لا يتخير إلا طيبة.

ـ لا تستعجل، فقد تغير رأيك إن عرفت مَن هي.

- عهدناك تختار الصواب دومًا.

تلفت حوله، وكأنه يستجمع صور خدمه وعبيده، وقال: هي هنا، معي طوال الوقت.

نظر إليه في استغراب وقال: هنا؟! أعرف أنه لا يوجد في القصر إلا خدمك وعبيدك.

- فتاة مليحة طيبة من الخدم.

وجم «محفوظ»، وامتلأت نفسه عجبًا، ثم قال: في «الصوابر» فتيات وأرامل ومطلقات، وفي عائلات أخرى بكل الزمام، حتى بعض نساء الأتراك والمماليك سيرحبون بصاحب هذا الالتزام الكبير، والسمعة الطيبة.

ملأ «غنوم» صوته بعاطفة تغلبه، وقال: القلب وما يريد يا أخي. حين تراها ستعذر أخاك.

أدرك ضعفه الذي يطل من عينيه، فقال: بوسعك أن تجعلها ملك يمينك، إنها جارية.

- هي خادمة، لكنها حرة، وأريدها أُمًّا لابن آخر أنتظره.

- هل تضمن هذه؟

- أمها ولود، وجدتها كذلك، وأنت تعرف أن «منصورة» قد حملت بعد سنوات طويلة من الزواج، وكان في حملها مشقة.

ثم أبعد ناظريه عن «محفوظ»، وقال: أعرف أن الناس قد تتعجب، وأهلنا قد يلومونني، لكن أنا لا يهمني من الناس سوى أنت.

– أنا أعيش بعيدًا، أما مَن يسمع همزات الناس ولمزاتهم وملامتهم فهو أنت.

– ليس مهمًّا، أنت الأقرب في كل شيء، وعلمك الشرعي يفصل أيضًا فيما عرضته عليك.

– الشرع لا يمانع، فالناس سواسية كأسنان المشط، والحلال لا يُقارن بالحرام.

تهلل وجه «غنوم» وقال: لتكن شاهدًا على العقد.

(37)

لم ينشغل «غنوم الصابر» بما يتهامس به الناس خلف أبواب بيوتهم، وغرق في العسل مع زوجته حتى أذنيه. تولى العطار مهمة تقريب المسافة بين شيخ وقور يذبل وفتاة تتفجر فتنة وميوعة. صالح بها غرفة نومه القديمة بعد أن غيَّر أثاثها، وطلاها بلون مختلف، وعرف على السرير الفرق بينها وبين الراحلة.

صارت «بديعة» سيدة القصر، عاملت الخدم والعبيد بلطف، فازدادوا إقبالًا على خدمة سيدهم. أصبحت سيدتهم حين ظهرت عليها أعراض الحمل. حرص «غنوم» على راحتها، وأمر «مسعدة» أن تكون قريبة منها، وقال لها: قدَّر الله أن تواصلي واجبك.

دمعت عيناها، وقالت: أدعو الله ليل نهار أن يعيد الغائب، وأربي الاثنين على أفضل ما يكون.

كـرَّت الشـهور سـريعًا، وولـدت «بديعـة» فـي يـوم مغبـر بريـاح الخماسـين ولـدًا، فأسـماه أبوه «ربيـع»، تيمنًا بهذا الفصل من السـنة. حين بلـغ الرضيع أربعين يومًا، جاء المُزيِّـن ليطاهره، لكن الطهور مر بلا طبل وزمر وغناء، كما جرى الزواج من أمه، حزنًا على الغائب. كل مـا تم هـو ذبح أربعة عجول ليأكل النـاس، وانتظمت حضرة اقتصرت على الإنشاد بلا مزمار.

فـي هـذه الليلة أكل «الصابـر» أكثر مما اعتاد، وسـف وبلع ومضغ ممـا أعطاه إياه العطار، واختلى بـ «بديعة» مشـتاقًا إليها بعد انتهاء فترة النفاث. كان ليلتها قويًّا إلى درجة تعجبت منها هي، لكن تلذذها غلب خوفهـا عليه. عاد شـابًّا نهمًا، وغطى زئيره علـى غنجها، وهو يعاودها من جديد كلما فرغ، حتى صاحت الديوك مؤذنة بطلوع الفجر.

عند الظهيرة، مدت يدها في حنان وامتنان لتوقظه، فوجدته ميتًا.

دُفن «غنوم» كما أوصى، في قبر إلى جوار الزاوية. رفعوا شـاهده، حتـى صـار ضريحًـا، وقـال النـاس: كان طيبًـا، وهـو جديـر بالمكان المبـارك. وقالت «الصوابر»: جدنا الكبير ينحدر من صلب المجاذيب الطيبين.

أما القوَّال فأنشد على ربابته الحزينة:

عمـود البيـت اتكسـر نخِّـت حِيطانـه العَلالـي

والقلـب لمَّـا اتعصـر راحـت سـاعاته الخَوالـي

ظِلالُ الجُنينَة

(1)

هبط «عويس» وزوجته من الجبل سريعًا. قبيل شاطئ النهر أفرغ صندوق النقود في قِربة الماء التي لم تعد فيها قطرة واحدة. أبقى قليلًا من القطع ووضعها في جيب جلبابه، لتعينه على الرحلة التي لا يعرف إلى أين تنتهي به. فتح صندوق الحُلي، ووضع محتوياته في ثوب الحرير، بعد أن غسلته «روحية» جيدًا، فذهب عنه الكثير من آثار الدم. خاف أن يبرق الذهب تحت الحرير، فخلع شاله، ولفه مرة أخرى، حتى لم يعد يظهر منه شيء.

برقت في عيونهم دنيا جديدة، وتناسى مخاوفه في طغيان حضور المال، وآمن بأن حياة رغدة تنتظره لا بد أن يعيشها بعيدًا عن الذين يسعون خلفه. لم يرَ شيئًا وهو يسرع إلى الشاطئ، تسبقه زوجته، سوى أحلامه، وغاصت في الماء المنساب عن يساره وجوه مطارديه، حتى لم يعد يراهم.

لاح قارب صيد يسير عكس التيار يغالبه. نادى «عويس» بصوت زاعق، جعل زوجته تجفل، وتقول له: لا تنسَ أنك رجل في خطر. التفت الصياد من عمق الماء، فأوقف التجديف. لم يعبأ «عويس»

بتحذير «روحية»، فعاد إلى الصراخ، محددًا ما يريد هذه المرة: عدينا يا معداوي ولك ما تريد.

أنصت الصيَّاد إليهما، وجاءهما صوته: ألملم شباكي، ولا وقت عندي.

دفع «عويس» يده في جيبه، وأخرج بارات في كفه، وفردها في عين الشمس، فلمعت، وقال: أي أجر تريده أنا جاهز.

جدَّف الصياد إليهما، حتى لثم القارب الشاطئ، وقال: اركبا سريعًا قبل أن يحدفني الماء.

في سرعة خاطفة ساعد «روحية» على القفز داخل القارب وهي تحضن الرضيع، ورمى جسده وراءها، فصارا في قلبه، وعاد الصياد إلى التجديف، وهو يسألهما: هل أنتما غريبان؟

صمت «عويس»، برهة، وأجابه: نحن ذاهبان إلى أهلنا في الشاطئ الآخر.

فلمَّا صار القارب في وسط النهر، نظر «عويس» إلى الصياد، وسأله: هل تعرف مكان رسو مركب شراعي يأخذنا إلى بندر قريب؟

نظر إليه الصيَّاد في ارتياب، وسأله: أي مكان تريد؟

تنحنح «عويس»، وقال: كنا سنشتري حمارًا نركبه إليه، لكني فكرت في أن نركب الماء، فهذا أفضل وأسرع.

قال الصياد: تتوقف المراكب الشراعية المحملة بالبضائع للراحة في مرسى ليس بعيدًا عن هنا، لكن الوصول إليه، سيكلفك الكثير.

وضع «عويس» يده على جيبه، وقال له: لك ما تريده، لكننا مساكين على باب الله.

أوصلهما القارب إلى مرسى حجري على الشاطئ الشرقي للنيل، منطرح في انتظار المسافرين، يعلوه كوخ طيني خفيض، إلى جانبه تعريشة ترمي ظلها على الأرض، وعشة من جريد وبوص، تتصاعد منها أبخرة طعام، تدفع النسائم روائحه إلى منتصف النهر، فذكرت «عويس» وزوجته بالجوع الذي صبرا عليه طويلًا.

قال الصيَّاد، وهو يتلمظ ويضع يده على بطنه: هنا طعام طيب يعد لأصحاب المراكب الشراعية. يأكلون، ويدخنون الجوز، ويتزودون بما ينقصهم من بضائع.

أيقن «عويس» أن الصيَّاد يعرف المكان جيدًا، ولذا سيكون وجوده مفيدًا لرجل يحمل كل هذه الثروة، ويقدم على أناس لا يعرفهم، فنظر إليه وقال له: أنت معزوم على الغداء.

رفع الصيَّاد رأسه غير مصدق، وسأل: من أين للمسكين المال الذي يتصدق به على جائع؟

جفل «عويس»، وقال سريعًا: يأكل كل منا ثلث بطن بدلًا من السقوط جوعًا.

وضع الصيَّاد يده على كتف «عويس»، وقال: سنأكل جميعًا على سبيل الصدقة.

لم يكن في العشة سوى رجل نحيل وامرأة بدينة، يقفان حول ثلاثة أوانٍ نحاسية تستقر فوق كوانين تشتعل فيها نار الحطب. لم يريا الصيَّاد

حين رسا، وربط قاربه. صعد وخلفه «عويس» و«روحية»، وضرب كفًّا بكف، فانتبه الرجل، فلمَّا رآه تهلل وجهه، ورحب به.

طلبت «روحية» أي شيء للرضيع، فقالت لها المرأة البدينة: أرضعيه.

وضعت يدها على ثديها وقالت: نشف، من سوء حظ رضيعي.

تعجبت المرأة، لكنها قالت: في الكوخ عنزة ولود.

أعطت «عويس» كوبًا من نحاس، فدخل إلى الكوخ ليجد غنمًا وخرافًا وماعزًا وتيوسًا كثيرة. تسلل من بينها حتى وصل إلى عنزة يقعى صغارها تحتها يمصون ضرعها. أبعد واحدًا منها، وحلب حتى نصف الكوب وعاد.

شرب الرضيع ما أمكنه، ثم أكل ثلاثتهم، ودفع «عويس» نصف ثمن الطعام إكرامًا للصيَّاد، الذي أوصى به خيرًا، فقال الرجل النحيل: المركب القادم سيذهب إلى «المنيا».

نظر «عويس» إلى زوجته، التي همست في أذنه: كلما قصرت مسافة السفر كان أفضل لنا.

عاد إلى الرجل النحيل، وقال: على بركة الله.

وجاء المركب، ونزل منه سبعة رجال، تناولوا طعامًا دسمًا، ودخنوا، واشتروا ما يحتاجونه من سمن وزيت وملح وخضراوات جافة وتمر، حتى مالت الشمس إلى الغروب، فقاموا إلى مركبهم الراسي وعلى متنه أشولة من الدوم والكركديه والعراديب والشطة والتوابل وحلفا البر.

ركب «عويس» على أنه رجل فقير ذاهب بابنه الذي أصابه مرض عُضال إلى شيخ جليل في «المنيا» يقال إن الله قد منحه قدرة على المداواة. حين سمع منه المراكبية ما يريد، سأله كبيرهم: هل هو الشيخ أحمد الفولي؟

وكان أول مرة يسمع اسمه، لكنه تصنع معرفته، فقال: نعم هو.

تدخل آخر وهو يكاد يغمض عينيه: مدد مدد يا أبا سليمان.

وانطلق الرجال في الغناء، يصدح أحدهم:

«المنيا زينوها للفولي أبو اسلمان»

فيرد البقية: «للفولي أبو اسلمان»

(2)

تحلو الحكايات فوق مركب يمضي على مهل في مياه النيل، لا سيما مع أول المساء. تُشعل النار في آنية مطروحة من الفخار، وتدس فيها كنكات يغلي فيها الينسون أو الكركديه أو الحلبة أو الزنجبيل أو القرفة، التي حمل الرجال كيسًا من كل منها لزاد الطريق ذهابًا وإيابًا. يستعذب الرجال الحديث بين رشفات متتابعة يسحبونها منها، وهم يتابعون قرى ونجوعًا غارقة في الظلام، عن اليسار وعن اليمين، ولا يأتيهم سوى نقيق الضفادع، وطقطقة الجنادب، ونباح الكلاب، وصوت انجراح الماء بزعانف سمك يتقافز بين حين وآخر.

تتوزع حكايات المسافرين بين ما يجري حولهم، وما يعرفونه من الماضي القريب والبعيد، دون أن تخلو من نميمة، تعطي ما يقال شغفًا

تُشنف به الآذان. ويا حبذا لو كانت النميمة تدور عن الوجهاء، إذ يشعر كثير من الذين يعيشون في الهامش بأن أي تجريح للكبار يشفي الغليل، ويعوضهم عن الإهانات اللفظية التي يوجهها إليهم هؤلاء، أو المزمنة التي يصنعها الفقر والضعة.

غمس أحدهم إصبعه في عمق الظلام متسائلًا: أليست هذه هي الصابرية؟

رد آخر: يبدو أنك قد نسيت الطريق، فقد عبرناها قبل المرسى بكثير.

هز رأسه، وقال: عندك حق، هي قبل المرسى، زرتها ذات يوم ونعمت بكرم وجيهها الأجلّ «السيد غنوم الصابر».

تدخل الثالث: رجل كريم، أعانه الله على حزنه الكبير.

عاد الثاني: رأيته هاشًّا باشًّا، لا أثر لحزن في محياه.

سأل الأول: ألم تسمعوا عما جرى له؟

أجاب الثاني بسؤال أيضًا: هل تقصد ضياع ابنه الوحيد؟

قال الثالث: هذه حكاية دارت في القرى، حتى وصلتنا. يقال إن أحد كبار «الجوابر» قد خطفه إلى الجبل، أمسكوا بخاطفه وخصوه انتقامًا، ومات حبيسًا، لكنهم لم يعثروا على الولد.

ضمت «روحية» الرضيع إلى صدرها، ونظرت في ارتياب إلى «عويس»، الذي أسعفته قريحته، فقال: الضنى غالي، خصوصًا إن كان وحيدًا.

تدخل الرابع: يُقال إن خاطفه قد سرق مالًا كثيرًا وذهبًا من قصر «الصابر»، وهذا أيضًا ضاع مع الولد الغائب.

قال الخامس: المال يُعوَّض، لكن الأسى كله في ابن ضاع بعد أن انتظر أبوه سنوات طويلة حتى رآه.

أدارت «روحية» ظهرها لهم، وهي تجلس على طرف المركب، وألقمت الرضيع ثديها الضامر الجاف، وسحبت غطاءها على وجهه، وهي تغالب رجفة سرت في أوصالها، واشتعلت في رأسها الأسئلة، وفي خواطرها مشاعر الخوف، بينما بقي «عويس» متماسكًا، ليسعفه لسانه: خلَّفت ولدي بعد زمن من الانتظار، ولا أتخيل أن أفقده في أي يوم.

قال السادس: ربنا يخلي ويبارك.

سعل السابع، فخرج دعاؤه مجروحًا: اللهم اجعل يومي قبل أيام أولادي، ولا تُرني فيهم مكروهًا.

ورد الرجال بمَن فيهم «عويس»: اللهم آمين يا رب العالمين.

على الفور، أدار «عويس» دفة الحديث بعيدًا، فسأل: سمعت أن «المنيا» بلد حلو.

رد الأول، وكان كبير المراكبية: كل البلاد حلوة إن وجدنا فيها رزقًا حلالًا.

مصمص الثاني شفتيه متسائلًا: أي رزق في بلد يمص العثمانلية والمماليك دمه ليل نهار؟

وتدخل الثالث: قامت فتنة بينهم.

قهقه كبير المراكبية، وسأله: أتقصد التجريدة الصغيرة التي أدبت المملوكي شعبان البيرقدار؟

- نعم.

- خلعوه من منصبه، وعينوا مملوكيًّا آخر مكانه، وعادت المياه إلى مجاريها.

قال «عويس»: هي عصابة واحدة تنهب خيرات بلادنا.

والتفت الرابع إلى «عويس»، وقال: كُن حذرًا من عساكر المماليك وأنت في شوارع «المنيا»، فبعضهم يستولون على ما مع المارة، وقد يجرحونهم أو يقتلونهم إن قاوموا.

انقبض قلب «عويس»، لكنه تصنع اللا مبالاة، وأطلق ضحكة رنت على صفحة المياه، وقال: «إيش ياخد الريح من البلاط».

(3)

لاحت «المنيا» بعد أيام لم يستطع فيها «عويس» أن ينام ساعة متصلة خوفًا على ما معه. خصص له المراكبية مكانًا جانبيًّا في قعر المركب، وأمدوه بفرشة من صوف الغنم ولحاف خفيف، وقالوا له منذ اللحظة الأولى: أنت أخونا، وزوجتك أختنا.

رغم هذا ظل يوزع النوم بينه وبين «روحية»، التي كانت مجبرة على الاستيقاظ طويلًا لهدهدة الطفل، ووضع طعام في فمه، لم يزد

على عسل أسود ودقيق مخفف بالماء. ولفت هذا انتباه أحد المراكبية، فسألها: لماذا لا ترضعيه؟

لم تنطق، ووارت وجهها خلف الطرحة السوداء خجلًا، فتدخل «عويس»: جف لبنها.

وليمعن في سبك أسباب سفره، واصل: حكوا لنا أن شريرًا دفع لمَن أضرها بسحر أسود، جفف اللبن، ونتمنى أن يتمكن الشيخ من فكه.

رد الرجل على الفور: الشيخ سره باتع، فلا تخف.

حين رسا المركب أفسح الرجال لـ«روحية» وطفلها طريقًا، فنزلت وخلفها «عويس»، الذي ما إن صارت قدماه تدبان في الشارع الذي يعلو النيل، حتى قال لزوجته: لنذهب إلى الشيخ «الفولي»، ليبارك الطفل. أشعر بأن بركته كانت تحمينا في سفرنا هذا، وكم مرة سمعت صوتًا يناديني من عمق الماء، وقلبي يحدثني أنه صوته.

كانت زاوية «الفولي» تطل على النهر، قريبة من المرسى، فوصلا إليها سريعًا، ليجداه جالسًا بين مريديه. وقفت «روحية» على الباب، بينما راح «عويس» ينقل قدميه على مهل، متهيبًا هيئة الشيخ الجليل، الذي كان يقرأ من قرطاس يفرده بين يديه، فرفع رأسه، وقال له: أهلًا بالمُطارَد.

جرى نحوه، وقال في استعطاف: أطلب الأمان في جوارك يا مولانا.

ابتسم الشيخ، وقال: لا تجلب لك الأمان سوى التوبة وزكاة وصدقات لا مَن فيها ولا أذى.

وتاه الشيخ برهة، وعاد يقول: أعطِ الفقراء قليلًا مما وجدته، وبالكثير ازرع واحصد، وسيأتيك الأمان إلى حين.

وتململ «عويس» في وقفته، وهو يشعر بأن الشيخ يعرف مَن هو، وما معه، وقبل أن ينطق طلب الشيخ ممن حوله أن يبتعدوا عنه، ثم همس في أذن «عويس»: أعرف أنني إن أخبرتك مَن يكون صاحب المال والولد، فلن تعود إليه، فهوى نفسك يغلب أي سؤال يطرحه عليك ضميرك، الذي مات نصفه، حين سفكت الدماء.

مد الشيخ بصره إلى باب الزاوية، حيث تقف «روحية» وهي تسحب الطرحة على وجهها والطفل، وقال: هاتي الصغير يا بنتي.

تقدمت إليه مترددة، فأخذه منها، ووضع كفه على رأس الرضيع، وتمتم بما لم يسمعه أحد، ثم سحب أصابعه إلى التعويذة المعلقة في رقبته وحركها قليلًا، ثم قال: حجاب من رجل صالح يجعل البركة تحل في «سالم» دائمًا.

نظر إليه «عويس»، وخانه لسانه من المباغتة، فسأل: «سالم»؟!

ابتسم الشيخ وقال: اسمه محفور على الجلد، وليستمر هكذا كما سمَّاه أهله.

مدَّ «الفولي» يده، فجثا «عويس» على ركبتيه، ودفع إليه يده طائعًا، فقال الشيخ: عاهدني على التوبة والعطاء.

قال على الفور: أعاهدك يا مولانا، ولتدعو لي بالأمان والستر.

قال الشيخ: أمانك مرهون بالتزامك التوبة والصدقة.

(4)

اكترى «عويس» بيتًا خفيضًا ضيقًا في مكان ليس بعيدًا عن زاوية «الفولي». نزل إلى السوق فاشترى ما يحتاجه وزوجته من أوانٍ وفرش وطعام وشراب. واظب على الصلوات الخمس خلف الشيخ في البداية، لكنه لاحظ أن كثيرين من أهل الصعيد الجواني يقصدونه لطلب العلم والمباركة، فخفف من التردد على الزاوية.

ربطته صداقة برجل من مريدي الشيخ اسمه «عبيد»، كان مزارعًا أجيرًا، يأتي كل يوم إلى «المنيا» من قرية «الحجاني» القريبة، قبيل صلاة العصر، ويمكث فيها إلى بعد صلاة العشاء ثم يعود. في كثير من المرات كان «عويس» يصطحبه إلى بيته، لتناول شيء من طعام، يعينه في طريق العودة.

أراد «عبيد» أن يرد له الجميل، فدعاه ليزور بيته في «الحجاني» فلبى دعوته، وذبح له يومها الديك الوحيد الذي يملكه، وقدمه على خوان بسيط، يناسب بيتًا مبنيًّا من الطوف، وسطحه من الجريد. جلسا في صالة ضيقة ينفتح بابها على جسر ترابي، تطل من خلفه الزراعات، وتلوح هناك عن بعد حديقة مُسوَّرة. نظر إليها «عبيد» وقال: أكدُّ بفأسي في هذه الجنينة من البكور حتى بعد الظهر.

ابتسم «عويس»، وقال: أعانك الله.

هز رأسه، وقال: شيخنا لا يقبل حوله مريدًا لا عمل له. مَن رأيتهم عنده مزارعين أجراء ونجارين وحدادين ومنجدين وصيادين وباعة في السوق.

كان «عويس» لا يعمل حتى هذه اللحظة، وينفق من المال الذي معه، دون أن ينسى قولًا تلاحقه به زوجته: «خد من التل يختل»، فقال لـ «عبيد»: الفِلاحة أكثر المهن في بلدنا.

اغتبط لكلامه، وقال: إن كنت تجيدها فلك مكان معنا.

تذكر ثروته الطائلة، وقال: هل هنا مَن يريد بيع أرضه؟

رد «عبيد»، وهو يدس نسيرة من لحم الديك في فمه وقال: لا أرض هنا سوى للوجيه التركي «مراد الأناضولي».

أشار «عويس» بيده، وسأل: كل هذا؟

أجابه: الجنينة مائة فدان وما حولها مائة أخرى، ونحن أجراء عنده، ولا نعرف مصيرنا بعد أن يرحل.

- يرحل؟!

- يريد بيعها، لكنه لم يجد مَن يشتري إلى الآن.

- كم يريد فيها؟

ضحك «عبيد»، وقال: وما لك أنت وأنا بسعرها؟

ابتسم «عويس»، وقال: ربما وجدت مَن يشتريها.

انتبه «عبيد» وقال: يا ليت مَن يفعلها يكون من طرفك، لأضمن ما أملأ به بطن أولادي.

كان لديه ثلاثة، ولدان وبنت، ينتظرون ما يتبقى من الضيفين ليأكلوه. نظر إليهم «عويس»، وقال: الكريم لا يُضام.

(5)

فوجئ «عبيد» بعد يومين بصديقه الجديد «عويس» يقول له: أريد مقابلة الوجيه.

ضحك، وقال: عملك في جنينته لا يتطلب مقابلته.

- بل أريده فيما هو أكبر.

- ليس هناك ما هو أكبر عند أمثالنا من الكد والذِّكر.

ابتسم «عويس»، وقال: وجدت مَن يشتري الجنينة.

نظر إليه «عبيد» طويلًا، وقال: لم أرَه في حياتي سوى مرة واحدة، لكن يمكنني أن أحدث الخولي في هذا، المهم أن يكون ما تقوله صادقًا، وإلا طردوني.

رد في ثقة: الشاري موجود، أعرفه كما أعرفك. فتحت معه الموضوع، وينتظر تحديد موعد.

وضُرب موعد، وانتظر «عبيد» عند باب الحديقة مع الخولي، عند ضحى اليوم المحدد، يرمي بصره إلى الجسر، ليرى المشتري الثري الآتي، لكن لم يظهر هناك سوى «عويس». بدا في هيئة لم يعهده «عبيد» عليها. كان يركب بغلة عفية، ويرتدي جلبابًا من الصوف الغالي، يطل بين ضفتي عباءة سوداء من الجوخ، ويحط رأسه تحت عمامة بيضاء، وفي يده سبحة من الكهرمان.

ما إن وصل «عويس» إليهما، حتى سأله «عبيد»: أين المشترِي؟

هز رأسه، وقال: فوضني عنه.

(6)

لم يكن بوسع «عبيد» أن يحضر البيع. فمَن هو حتى يجالس الأكابر؟ سلم صديقه للخولي وانصرف محتارًا فيما رأى. تفاوض «عويس» على أفضل ما يكون، مظهرًا مهارته كسمسار صغير كان يلتقط رزقه في سوق البهائم. أغرى «الأناضولي» بأنه سيدفع الثمن نقودًا وذهبًا. كُتبت العقود، ووقع «الأناضولي» عليها، وختم «عويس» بخاتم كان قد أعده عند حدَّاد في «المنيا»، منقوش عليه اسمه الجديد الذي اختاره، كي يسهم في منحه أمانًا يفتقده، ويتعشم أن يجده بين أسوار الجنينة.

سمى نفسه «عمر بن عدنان الأشرف»، وقال للأناضولي: نسبي ينتهي إلى آل البيت.

ثم نهض، و«الأناضولي» يطالع جسده النحيل، وقال: عند مولانا «الفولي»، أسلمك المال، وتعطيني العقود، ويكون هو شاهدًا على العقد، ومعه مَن يختار من مريديه، لتحل البركة في البيع.

هز «الأناضولي» رأسه، وقال: اخترت مَن لا تُرد له كلمة في كل الزمام.

فلما انتهى البائع والشاري إلى «الفولى»، قال لـ«عويس»: شهادتي مشروطة بما نصحتك به.

ابتسم، وقال: ما تأمر به فوق رأسي.

صمت برهة وقال: في قلبك ونفسك، وأمام عينيك لا يفارقهما. وبينما راح «عويس» يهز رأسه، واصل الشيخ: تعطي الكادح في أرضك أجره قبل أن يجف عرقه، ولا تطرد مَن يلجأ إليك، وتحسب كل موسم ما عليك من زكاة، ولا تكف عن التصدق، ولا تتجهم في وجه أجير أو كسير، ولك من الخدم مَن تشاء، لكن لا يكون لك عبيد، فالله خلق الناس أحرارًا.

رد «عويس» دون تردد: هذا عقد أغلى عندي من عقود البيع والشراء.

قال الشيخ: بل عقد بينك وبين مَن خلقك ووهبك ما أنت فيه.

أغمض «عويس» عينيه، وقال: وكيلي الله ألا أخلف عهدًا قطعته على نفسي أمامك يا مولانا.

ملأ الشيخ عينيه من وجه «عويس»، وأشار إلى «عبيد» الذي كان يجلس بعيدًا أن يقترب، فهرول إليه. لم يقف هذه المرة إلى جوار «عويس» كتفًا بكتف، كما كان يحدث في الماضي، فالآن صار مجرد أجير عنده. لكن الشيخ قال، وهو يمسك يد «عبيد»: هذا خولي الجنينة، إنه العارف الأمين.

(7)

صار «عويس» الوجيه الجديد. أبلغ «عبيد» باسمه الذي اخترعه، وقال له: هو اسمي الحقيقي، أما «عويس» فقد اشتهرت به لأني كنت

مريـدًا لمجذوب عظيـم في بلاد بعيدة كان هذا اسـمه، وكنت ألازمه، فلما مات، آل الاسـم إليَّ على ألسـنة الناس، ومَن يعتاد عليه الخلائق هو الذي يمشي بينهم.

كان بالحديقـة بيـت أشـبه بقصـر بسـيط، انتقلـت إليـه «روحيه» و«سالم»، غير مصدقة عينيها، وهي تطالع الجدران الملساء البيضاء، والسـجاجيد والأكلمة الملونة، والتحـف والتماثيل التي تتوزع على أركان البهـو، وفوقهـا القناديـل الزاهيـة، والمخادع اللينـة في غرف النـوم، وفتحـات التهوية التي تندفع منها النسـائم، وأشـعة الشـمس الذهبية.

لم تمضِ سـوى ثلاثة أيـام حتى كان «الفولـي» ورجاله في حضرة أمام القصر. ذبح «عويس» خمسـة عجول سـمينة، وزع أغلب لحمها علـى أهل «الحجانـي». طوح فيهـا المريدون والخفـراء والمزارعون رؤوسـهم ذاكريـن، متطلعين إلى السـماء، التي سـاقت إليهـم وجيهًا جديدًا، ينظر إليهم في عطف وامتنان.

(8)

تركب الأيام ظهور الخيل المسومة، وتجري بها ما وسعها، لتمضي هينة لينة، فإن تعبت تباطأت لتصبح الساعات أثقل من جبال تجثم على الأبدان والنفوس المهيضـة التي يأكلها الوقت، فتغور الأفراح وينهمر الأسـى. لكـن الواثق في فضل اللـه وعدله لا يضنيه تقلـب الزمن، بل ينظر إلى هذا، ثم ينادي الأمل.

تقدمت السن بـ«عويس»، ولم تفلح في وقف تقدمها الأرض التي جادت عليه بهبات الحصاد المتتابع، فاكهة وقمح وفول وخضراوات، يأتي التجار لشرائها، وتحملها الجمال إلى سوق «المنيا». من حصيلتها توزع الزكاة والصدقات، فيأكل الجوعى، وينامون قريري العيون مطمئنين.

بنى «عويس» زاوية في جانب الحديقة، وجاء لابنه المستعار بشيخ من «المنيا»، اختاره «الفولي» بنفسه، ليُحفِّظ «سالم» القرآن، حتى صار يتلوه عن ظهر قلب. حفظ كذلك الكثير من الأحاديث النبوية، واختار معلمه له ما يقرأه من كتب السابقين في الفقه والسير والشعر.

طلب «عويس» من «عبيد» أن يصطحب معه «سالم» ليراه وهو يشرف على عمل الأنفار، وجعله يجلس مرات إلى «تواضروس» ماسك دفاتر الحسابات، كي يعرف كيف تسير أملاكه، وأملاه جدول الضرب فحفظه، وأظهر نجابة في معرفة ما له وما عليه.

تخلى الأب المستعار، بل الأب الحقيقي الذي ربى، عن كثير من مشاغله، وأعطى الصبي ثقة في أن يحل مكانه في أمور عديدة، فأمسى واثقًا من قدرته على تسييرها، لا سيما أن السمسار القديم نقل إليه خبرته أيضًا في التفاوض مع التجار.

تعلمت «روحية» كيف تصير سيدة بين خادماتها، اللاتي ورثتهن عن سيدة القصر السابقة، وأخريات اختارهن «عبيد» من نسوة القرية. أما العبيد فقد حررهم «عويس»، وصاروا أجراء في أرضه، وخفراء يحرسون الأجران في مواسم الحصاد، والفاكهة حين تنضج.

نسي الهارب مَن يطاردونه، فأين لهؤلاء بإدراك أن مَن يسعون خلفه قد صار وجيهًا، يصعب عليهم الوصول إليه، فإن وصلوا فلن يعرفوه في لباسه الجديد، ولن يدركوا آثار النعمة التي كست ملامحه، واسمه الجديد، الذي صار الناس حوله ينادونه به، وكذلك التجار الذين يأتون إليه، وحتى مريدو «الفولي» تحدثوا في البلاد عن رجل من نسل النبي يتدفق الخير من بين أصابعه، ولا يُظلم عنده أحد.

(9)

مات «الفولي» آخذًا السر معه إلى قبره، الذي صار ضريحًا يقصده الناس من كل مكان.

كان صيفًا حارًّا، وأشجار الحديقة تصطاد النسائم الشاردة، وتهديها إلى نوافذ القصر البسيط، فتضرب خفيفًا رأس «عويس» وهو جالس على أريكة، يرسل ناظريه إلى ضوء القمر، الذي يطل من بين فروع الشجر وجريد النخيل.

كانت «روحية» تجلس قبالته، ترمي بصرها إليه، وقلبها يدق من فرط إحساسها بأن الغيب يحمل لها خبرًا غير سار. صدق حدسها في هذه الليلة، فبعد أن غاب القمر، التفت إليها «عويس»، وقال:

- كانت رحلة، وكانت تجربة.

طالعته بعينين غارقتين في الأسى، وقالت: نعيش أفضل مما دار به الخيال.

أغمض عينيه، وسألها: أيغفر الله لقاتل حتى لو زرع وحصد فأكل الناس والبهائم؟

نهضت من مكانها، وجلست إلى جانبه، وأخذت رأسه في صدرها، وقالت: قتلت خطأ، وأنت مجبر.

ابتسم وقال: دائمًا، هناك حلول أخف من قتل الناس للهروب من تجبرهم.

اغرورقت عيناها بدموع، وكأنهما تتهيآن لبكاء حار غزير، وقالت: «ساعة القدر يعمى البصر».

سكت قليلًا، ثم قال: تجري أمام بصري الآن كل خطوات قطعناها سويًّا.

ورفع كفيه إلى السماء، حيث الظلام المرصع بنجوم بعيدة، ودعا في تبتل لابنه «سالم»، وقال لها: أريد الحجاب الذي كان مُعلقًا في رقبته.

نهضت، وأتت به، وأعطته إياه. قبض عليه، ثم قال: أخبرني مولانا الفولي أن «سالم» محاط بالبركة والسكينة.

قالت، وهي تعيد رأسه إلى صدرها: رأينا السعد منذ أن رأينا وجهه الجميل يضحك بين الصخر والرمل.

ابتسم، وسألها: هل نذهب عن الدنيا، دون إخباره بمَن هو؟

قالت في تأثر: الأب الذي ربَّى وعلَّم، وأنا لم أبخل عليه بكل ما على الأم من واجب. حتى صدري الجاف كنت أضمه إليه، وأتركه يمصه.

مصمص شفتيه، مستعيدًا كل شيء، لكنه قال: أحس الآن أنه سيعرف ذات يوم مَن هو، حتى لو ذهبنا قابضين على سرنا الكبير.

راح يحكي، كما لم يفعل من قبل. ساعتان يسرد حياته من البداية إلى اللحظة التي هو فيها، ثم تمتم بكلمات لم تسمعها، وسعل وشهق، بينما صدره يفور بما يصل إلى قلبها، وصعدت روحه إلى بارئها، فاحتضنته بشدة، وهي تقول: استرد الله وديعته.

(10)

خرجت «الحجاني» وراء نعش «عويس» في جنازة مهيبة، جاء إليها رجال من القرى المجاورة. ودفنوه، كما أوصى، في قبر على طرف الحديقة. تزاحم في عزائه الزُّرَّاع والتُّجَّار ومريدو الفولي، وكان على رأسهم سنجق الإقليم «صالح حاجي». قُرئ القرآن ثلاث ليال. انعقدت حضرة ذِكر بلا دفوف ولا زمر. وتطلع الناس جميعًا إلى «سالم» الذي خطت الرجولة معالمها في وجهه بشارب نبت عفيًّا، ولحية مشذبة، وعينين نافذتين، تطلان من ملامح صارمة، وهو يتلقى عزاء والده الذي ربَّى، فرأوا فيه خير خلف للراحل الطيب.

في اليوم التالي لانفضاض العزاء، أرسل «حاجي» في طلب «سالم»، فذهب إليه راكبًا فرسه، وخلفه ثلاثة من خفره. انفرد به فور

وصولـه، وقال: عرضنـا على المرحـوم أرض التزام فـي «العجاجير» لكنه كان دائمًا يكتفي بما لديه.

كان «سالم» قد سمع هذا مرارًا من «عويس»، فقال له: أعرف.

تنحنح السنجق وقال: كان مكتفيًا بما عنده، ولم أضغط عليه؛ لأني كنت أقدره وأحبه.

- رحمة الله عليه، كان زاهدًا وأورثني حاله.

- زيادة الخير لا تضر الزهد، إن كان صاحبه لا يطمع بما في يد غيره.

أدرك «سالم» أن الرفض قد يجلب له متاعب هو في غنى عنها، لا سيما أنـه لا يعرف إن كان «حاجي» قد مد حبـال الحب والتقدير إليه، أم ذهبت مع غياب المرحوم. تفكر قليلًا، وقال: أرض عفية، ولا غبار عليها.

قـال «حاجي»: صارت أعفى بعـد أن أمدها الفيضان الأخير بطمي غني.

كانت «العجاجير» تحد الحديقة من اليسـار، مطروحة من شـاطئ النيل حتى جسـر عالٍ في الغرب، يطل على التزام «مرتضى الماحي»، الذي يمتد شمالًا إلى «سمالوط». استحضر «سالم» الأرض في رأسه، وكان يعرفها جيدًا، فقال: أشكرك على ثقتك الغالية.

تنحنح السـنجق مرة أخرى، وقال: هذا قـرار مبدئي، لكن لا بد أن نكتب إلى الوالي، وليرافق رسالتي حلوانك السخي.

رد في امتنان: على بركة الله.

ونال «حاجي» حلوانه أيضًا، ولم يمر سوى شهرين، حتى جاءت الموافقة.

كان «عبيد» قد تقدمت به السن، فاختار لـ «العجاجير» خوليًّا آخر اسمه «عباس الرزين»، كانت لديه خبرة بالعمل سنوات في أرض «الماحي»، حتى استغنى عنه، حين راجعه ذات صبح في قرار خفض ما على الفلاحين دفعه، بعد أن أضر الفيضان محاصيلهم.

كلَّف «سالم» فلاحي «الحجاني» بزراعة الأرض. وزعها عليهم في حضور «المسَّاح» وشيخ الخفر والشاهد، بناءً على قائمة أملاها «عبيد» الذي أعطى كل فلاح على قدر جهده، وعدد أولاده، وسمعته في رعاية الزرع.

ولم يجد المزارعون من «سالم» سوى حسن المعاملة. أدركوا أنه يسير على درب الراحل، وأقبلوا على الأرض يفلحونها في اجتهاد، فزادت ما تُغله، ومعه زادت قيمة الزكاة والصدقات.

في موسم الحصاد التالي، اختلت «روحية» بابنها، وقالت له: أريد أن أرى أحفادي قبل الرحيل.

هز رأسه، وقال: كأن في رأسكِ عروسًا لي.

ابتسمت، وسألته: ما رأيك في ابنة «الماحي»؟ رأيتها مرتين، جميلة بلا حد، تقول للقمر انزل لأجلس مكانك.

صمت برهة، وأجاب: رائحة ظلم أبيها تفوح في الزمام، ويقال إن أمها سيدة متعجرفة.

لـم تجد ما ترد بـه، إذ كانت تعرف جيدًا ما قاله، لكنها واصلت: لا ذنب للبنت في هذا.

حـك لحيتـه الخفيفة بأطـراف أصابعه، وقال: لا أضمـن أن تكون الزوجة الصالحة.

عاجلته بالسؤال: هل وضعت عينيك على فتاة؟

- نعـم، وهي قريبـة منا، وأبوها أخلص للمرحـوم، ويمد إخلاصه لي، وابنه «سعيد» هو صديقي الوحيد، وأدخره لأيامي القادمة.

- تقصد..؟

لم يدعها تكمل، وسألها: ما رأيك في «مباهج» بنت الخولي «عبيد»؟

كانت تعرفها جيدًا. فتاة ورثت من أمها الحُسن، ومن أبيها النزاهة، لكنها قالت: لا تنسَ أنك الوجيه.

قهقه، وقال: علمني أبي ألا أتعالى على خلق الله.

زُفت «مباهج» إلى «سالم» في ليلة صيفية مقمرة، ذُبحت فيها ثلاثة عجـول بقر، وعشـرون خروفًا وتيسًـا، وامتدت الأسـمطة في سـاحة القصر، وطالت بين صفوف الشـجر، وأُطعم أهل «الحجاني» جميعًا، وببطون ممتلئة رقص الناس وغنوا على الرباب والأرغول مع فرقة أتى بها «عبيد» من «بني مزار».

في الليلة نفسـها، جلس الناس صفوفًا، ليستمعوا إلى غناء الشاعر، وهو ينشـد من سـيرة بني هلال، فتراءى «سـالم» أمام أبصارهم واحدًا

من الفرسان القدامى. في اليوم التالي جاء مريدو «الفولي» فانتظمت الحضرة من بعد صلاة العشاء حتى مطلع الفجر.

كان المنشد رجلًا ممشوق القوام، يطل الشيب من فوديه تحت عمامة بيضاء، تتوسطها طاقية خضراء. قيل لـ «سالم» إنه أطلى صوت في الصعيد كله.

كان المنشد هو «سرحان الفرغل».

(11)

استضاف «سالم» مريدي «الفولي» ثلاث ليال. تركهم ليلتين قضاهما غارقًا في شهد العُرس وعسله. في الليلة الثالثة، نزل إليهم ليجالسهم. كان يرتدي جلبابًا حريريًّا أبيض مفتوحًا عند الصدر بين قطانين ذهبيين. جاءت جلسته إلى جوار «سرحان»، مد يده ولمس حنجرته، وقال: لم أسمع أطلى منها في حياتي.

ملأ «سرحان» عينيه من محيا «سالم»، وهو يبتسم في رضا وامتنان، ثم انزلق بصره إلى صدره، فماتت الابتسامة. تمعن جيدًا فيما رآه على صدر «سالم»، وقال: أنت مبروك يا سيدنا.

تلفت «سالم» حوله، وقال: البركة في وجودكم.

رفع المريدون أكفهم، وحطوها على صدورهم في غبطة، وقال الذي كان طاعنًا في السن محدودب الظهر، ذا عينين كليلتين: كانت بركة المرحوم تجري في صلبه، وأورثها لوجيهنا الأجلّ محبة ونعمة.

قال «سرحان» فجأة: كان «غنوم الصابر» من أطيب خلق الله.

ورمى بصره سريعًا إلى وجه «سالم» فلم يجد فيه ما يدل على شيء، فلاذ بالصمت في حيرة، وهو يدقق النظر في الكف الحمراء المرسومة على صدره وشمًا لم ينل الزمن من وضوحه.

قبل انصراف المريدين، طلب «الفرغل» أن ينفرد بـ«سالم»، فلما صارا منعزلين في ركن البهو بعيدًا عن البقية، سأله: من أي بلد جاء وجيهنا؟

ابتسم «سالم»، وأجابه: لا أعرف لي بلدًا سوى «الحجاني»، وإن كنت تسأل عن بلدة جدي فقد أخبرني أبي بأنها في الصعيد الجواني.

- ما اسمها؟

- أتذكر أن اسمها «التربانة».

هز «الفرغل» رأسه، وسأل من جديد: ألم تسمع ببلدة تسمى «نجع المجاذيب»؟

- لا؟

- ولا قرية «الصابرية»؟

- أين تقع هذه؟

مد يده ولمس صدر «سالم»، وقال: ربما تعرف «روحية» هانم النجع والقرية.

ابتسم «سالم»، وقال: أسألها عنهما.

صمت «الفرغل» برهة، وقال: أنت محروس يا وجيهنا، باركك رجل موصول بالسماء، وعلق في عنقك حجابًا في بطنه كلمات تحفظك من كل سوء.

نظر إليه «سالم» في دهشة، وقال: يبدو أنك أنت أيضًا من الواصلين، وإلا كيف عرفت الحجاب المعلق في عنقي منذ صغري.

قام «الفرغل» وهو يشد على يد «سالم»، وقال: الدنيا غنية بما هو أغرب من الخيال.

وأشار للرجال فنهضوا إلى مخادعهم، حتى يستيقظوا مصبحين، كل إلى بلده.

(12)

هبت «روحية» في هذه الليلة من نومها مذعورة. كان العرق يتصبب من جبينها غزيرًا، وهي تقاوم ارتجاف أطرافها، رغم سخونة الصيف. نادت على الخادمات فهرعت إليها واحدة. طلبت منها دورق الماء، فأتت به، وقالت: خير يا هانم.

هزت رأسها، وردت: لا أعرف إن كانت رؤيا أم كابوسًا.

لم تجد الخادمة ما تقوله سوى: أبعد الله عنك الكوابيس يا هانم.

لم يكن كابوسًا على أي حال، كانت رؤيا تلقتها «روحية» على أنها حلم أسود مخيف. وأي سواد أكثر من انكشاف السر الذي مات «عويس» قابضًا عليه، وتركه لها وحدها، يخز ضميرها بين حين

وآخر، لكنها تطرده، وهي تردد ما تؤمن به، ويُسرِّي عن نفسها، كُلَّما جثم السر على صدرها: الوالدان مَن ربَّيا لا مَن خلَّفا.

رأت في نومها «عويس»، كما غادرها. كان مُنهكًا وهو يشق مسربًا بين حشائش النهر، تلتف على جسده، تريد أن يصبح من الغارقين. كان ينادي بأعلى صوته على ابنه أن ينقذه، لكنه سمَّاه باسمه الحقيقي: يا سالم يا بن غنوم الصابر، أنقذ أباك.

وظهر سالم على الشاطئ وفي يده حبل طويل متين ألقاه إليه، فأمسكه «عويس» بيديه الاثنتين، وراح ينسحب بعيدًا عن الحشائش، حتى خرج إلى بقعة من رمل خفيف يعلو النهر، وجلس يلهث، بينما يهدئ «سالم» من روعه، ويقول له: كتم الأسرار هو ما يُميت.

فأخذ «عويس» يهز رأسه مؤمِّنًا على ما سمعه، وقال: البوح يفضح، لكنه يزيل عن النفس همومها.

والتفت إلى «روحية» التي كانت تقف عاجزة عن الكلام، وقال: من حقه أن يعرف، ومن واجبك أن تبوحي، وإياكِ أن تأتي إليَّ بهذا الحمل الثقيل.

(13)

عند الظهر، ترك «سالم» مخدعه في الطابق العلوي، وهبط السلالم الحجرية، قاصدًا غرفة «روحية». وجدها جالسة في سريرها، تضع رأسها بين كفيها، غارقة في الصمت والحيرة. اقترب منها، وجلس إلى جوارها. مد يديه وأخذ كفيها، فانجلى وجهها وعليه خطان أسودان

مـن طـول البكاء. انزعـج لمرآها، وقال لهـا: لـم أرَكِ مهمومة من قبل على هذا النحو.

رفعـت رأسـها، ودون أن تنظـر فـي عينيـه، قالت: تنتهـي همومي برؤيتك.

ابتسم، وقال: وأنا لا يهمني في هذه الدنيا سوى سعادتك.

اغتصبـت ابتسـامة فاتـرة مـن حزنهـا الدفين، وسـألته: هـل غادر ضيوفك؟

- نعم، لكن أحدهم ألقى عليَّ أسئلة لا أعرف لها إجابة.

- أي أسئلة؟

- سـألني عـن قرية بعيـدة اسـمها «الصابرية» كانت تُسـمى «نجع المجاذيب»، ورجل لم أسمع عنه من قبل اسمه «غنوم الصابر».

في هـذه اللحظة أدركـت معنى الرؤيـا التي غزت منامهـا، وألقت عليهـا جبالًا من الهمـوم. رفعت إليه وجهًا كسـيرًا، وعينين مملوءتين بالدهشة والخوف، وقالت: مَن السائل؟

- المنشد صاحب الصوت الجميل.

صمتت برهة، وعادت تسأله: من أي بلد هو؟

- لا أعرف، لكنه على أي حال من الصعيد الجواني مثل جدي.

وباغتها بما جعلها تدرك أن انكشـاف السـر قد اقتـرب. نظر إليها، وقال: سألني «الفرغل» عن الحجاب الذي كنت أعلقه في عنقي.

نظرت إليه ساهمة، ولم تنطق، فسأل وهو يهز رأسه عجبًا: كيف عرف الرجل موضوع الحجاب وهو لم يأتِ لبيتنا من قبل؟

فتح لها بابًا للهروب، فقالت بحروف ثقيلة مرتعشة: زارنا وأنت صغير.

- هنا؟

- في بيتنا بـ «المنيا»، وكنت رضيعًا.

بدا أنها غير صادقة، ولم يكن يصعب عليه إدراك هذا، وهو مَن لازمها طويلًا، ويعرف حركاتها وسكناتها، ويكمل لها ما تريد قوله إن وقفت في حلقها العبارة.

هز رأسه، وقال: ربما.

وغيَّرت هي مجرى الحديث، فقالت: أنا جائعة، فاطلب من الخدم تجهيز غدائي.

(14)

تركها والظنون تعبث برأسه. صعد إلى الطابق العلوي. كانت «مباهج» تتثاءب متناومة في مخدعها. نظرت إليه، وقالت: عدت غير ما ذهبت.

ابتسم، وقال: رجعت إلى قرة عيني.

تركها تتلذذ بما سمعته، وفتح باب خزانة ملابسه. أخرج منها شكمجية يغطيها الصدف الملون، فتحها فوجد الحجاب مكانه، التقطه، ودسه في جيبه، وقال لها: دقائق وأعود.

اختلى بنفسه في غرفة جانبية. نظر إلى الحجاب طويلًا. كان اسمه لا يـزال ظاهـرًا. لمس الحروف بسـبابته، ثم قلَّبه في يـده. داس عليه، فأدرك أنه محشو بشيء ليِّن. هرع إلى البهو، وطلب من أحد الطباخين أن يمـده بسـكين. غرس مقدمة السـكين في الحجـاب، فانخلع طرفه المطـوي، وظهـرت ورقة تميل إلى الاصفرار. مزع الطرف، وسـحب الورقة، وفردها، وراح يقرأ بعينين مندهشتين:

«اللهم يا بديع السـماوات والأرض، احفظ عبدك الفقير سـالم بن الرجـل الأجلّ، والكهف الأظـل، جناب غنوم الصابـر، واجعله لأبيه خيـر خلف. اللهـم اجعل بفضلك القليل فـي يده كثيـرًا، وباركه أينما ذهب أو راح، في أي من بقاع الأرض التي خلقتها وسـويتها، ولتعمي عنه عيون الأعداء والطامعين، وارزقه بذرية صالحة، واملأ قلبه بعطف على المسـاكين والمحتاجين، واجعله موصـولًا بك. اللهم آمين»، ثم كُتب النداء «يا لطيف» تسعًا وتسعين مرة.

هـرع إلى غرفة «روحية» فلـم تكن قد غادرتها بعـد. وقف أمامها، والورقة في يمناه، وجلد التعويذة في يسـراه، وقال: شـاء الله أن أتعلم القراءة حتى أعرف ما هو مكتوب هنا.

وقرأ عليها، فانخرطت في بكاء حرور، وقالت: شاء الله أن يرحمني من عذاب العجز عن كشف السر.

وترامى صوت الشاعر حزينًا:

تراب السكك هاج وماج خلَّى طريقي متاهة
والخوف ضرب له سياج وضاقت الأرض وسماها

رياحُ السَّموم

(1)

مكث «محفوظ» في «الصابرية» أسبوعين بعد وفاة أخيه «غنوم»، طالما تحدث خلالها عن شعوره بالغربة. حين لاموه، وتعجبوا من نفور رجل بمسقط رأسه، قال لهم: ليس نفورًا. أنا أعتز بجذوري، لكنني وجدت نفسي إلى جوار الأزهر. هناك بهجتي ومهمتي في الحياة. وفاتحوه في مآل أرض الالتزام، فقال في حسم: لم أُخلق للزراعة. وملأ عينيه من وجوه الرجال المتحلقين حوله وقال: شاء الله أن يعوض المرحوم بمولود جديد، وإليه يؤول الالتزام.

طلب منه الرجال أن يُقدِّر ميراثه في أخيه، فاكتفى بالقليل منه، تاركًا الكثير للوليد وأمه التي صارت في منزلة لم تحلم بها يومًا. لكن ابنَي عمه «همام» و«سلامة» كان لهما رأي آخر.

حك «همام» ذقنه، وسأل: هل يرضى ولاة الأمور بأن تنتهي أرض الالتزام في يد رضيع وأمه؟

رد «محفوظ»: للرضيع أهل، ولأمه أهل، ليتعاونوا في إدارة الأرض، والمهم تسديد ما قدَّره أهل الحكم على الملتزمين سنويًّا.

ولا تنسوا أن مَن عاونوا المرحوم لا يزالون في أماكنهم.. المساح والصراف والخولي وخفر الزراعات.

نفخ «همام» متضجرًا، وقال: أخشى ألا تسير الأمور بخير، إن كان هذا هو الحل الوحيد.

وتدخل سلامة، وهو يكتم غضبه: العبرة بموافقة السنجق، وتصديق ولاة الأمر في قلعة الجبل.

(2)

ما إن سمع «إبراهيم الجابر» بموت «غنوم» حتى أرسل مستئذنًا في مقابلة السنجق الجديد للإقليم «إبراهيم الغوري»، وأذن له، فجاءه في عصر يوم غائم على حصان أبلق، وخلفه هدية من صفائح الجبن والعسل الأبيض، وأجولة العدس والقمح والكركدية والبلح الجاف محمولة على ناقة عفية، وفي جيبه صُرة مملوءة بالبارات.

حين اختلى به، قال له: أريد أن أموت في بلدي.

نظر «الغوري» إليه مليًّا، وقال: أخشى أن تفتح عودتك شلال دم.

ملأ صوته مسكنة، ورمى ذراعه في الهواء، في إشارة إلى استبعاد هذا تمامًا، وقال: حاشا لله، أنا من نسل طيب، لم أقتل أحدًا في حياتي، وأريد أن أقابل ربي وليس في رقبتي دم. أنت تعلم أنني من الخيِّرين في الزمام كله، ولا ذنب لي فيما فعله أخي، ونال جزاءه وأكثر على أي حال.

استبقى الحكمدار «إبراهيم» عنده، وأرسل في طلب «همام» كبير «الصوابر»، الذي تهلل وجهه حين قال له قائد الجند: السنجق يدعوك إلى قصره.

كان يعتقد أنه أمر يتعلق بالالتزام، لكن فرحته ماتت في صدره فجأة حين وقعت عيناه على «إبراهيم»، وقد صار عجوزا يتوكأ على عصاه. أدرك أن الأمر قد يكون فيه غرم شديد. صافحه السنجق، وقال في حسم، بعد أن سحب يده: أمرت بعودة الجوابر إلى دورهم، وأريد أن يمضي هذا دون عناء.

بلع «همام» ريقه، وقال بصوت خفيض: ما تأمر به على رأسي، لكن امنحني فرصة لأخبر أهلي.

ابتسم السنجق، وقال: اصطحب مَن شئت، وليختار «إبراهيم» من أهله كيفما يشاء، ونعقد صلحًا بينكم، وتفتحون صفحة جديدة.

ردَّ «همام» في فتور: «اللي فات مات».

لم يمضِ سوى أسبوع حتى تقاطرت على الجسر العالي قافلة من الإبل، تحمل كل ما يصلح لإعمار بيوت الجوابر الخربة، ودخلت «الصابرية» بُعيد الظهر، وأتى المساء ليجد القرية قد استعادت هيئتها القديمة.

كان من بين بنود الصلح أن يسترد «إبراهيم» التزامه، وقد قبل «الصوابر» على مضض، ولم يكن أمامهم أي سبيل للرفض، وإلا ضاعت منهم كل الأرض. كان عليهم أن يبلغوا «بديعة» بما انتهوا إليه،

فقبلت كارهة، وقالت في امتعاض: ما لم يقدر الرجال على صده، فلا تستطيع ذلك النساء.

آل إلى «إبراهيم» ثلث الزراعات الممتدة من الجسر العالي حتى أطراف الصحراء الغربية. ولم يكن للمزارعين رأي، فسيقوا إليه، معولين على أنه لم يكن رجلًا سيئًا، وأن معاملته لهم ستكون أفضل مما كانت عليه أيام أخيه «يونس». جاء إليه زراع آخرون من قرى بعيدة، هاربون من ظلم أصحاب الالتزام هناك، وضيق الرزق.

(3)

استعانت «بديعة» بـ «آل بخيت» في إدارة الأرض، فاختاروا «بحر» ليكون الخولي الجديد. عينت منهم خفر الزراعات. كلفت بعضهم بزراعة فدادين لم يكن أي منهم يحلم بأن تطأها قدماه. خلعوا أسمالهم البالية، وارتدوا جلابيب نظيفة، وانتعلوا مراكيب من الجلد بعد حفاء طويل. عرفت بيوتهم أصنافًا من الطعام لم يتذوقوها إلا في أيام أفراح «الصابر». زال عنهم بعض انكسارهم. وكان لا يزال فيهم خمسة من العبيد فنالوا حريتهم، وصاروا فلاحين.

انقبضت نفوس «الصوابر» لما جرى، لكنهم كانوا عاجزين عن مواجهة «بديعة» التي استندت إلى وساطة قام بها «محفوظ» عند أولي الأمر في المحروسة، ليبقى الالتزام في يد ابنها الرضيع، فقبلوها على الفور من رجل يدينون له بفضل تعليم أولادهم في أروقة الأزهر، ويعرفون قدره بين أصحاب العمائم.

كان «محفوظ» يدرك ما تغلي به صدور أهله، فلم ينقطع عن مراسلتهم ليشعروا بوجوده. حرص على النزول مرة كل عام إلى «الصابرية»، ليلتقيهم ويطمئن على ابن أخيه. في زيارته الأخيرة، اختلى به «سلامة» وقال:

ـ أرملة ابن عمنا لا تزال شابة، وبقاؤها هكذا بلا رجل ليس مقبولًا.

ابتسم «محفوظ»، وسأله: هل اشتكت لك من وحدتها؟

– الناس يتهامسون.

ـ هل يوجد ما تخفيه عني؟

صمت برهة، وقال: الكل يعرف أن الخولي كان يرغب في الزواج منها قبل أن يختارها أخوك أمًّا لابنه.

نظر «محفوظ» طويلًا في عيني «سلامة» باحثًا فيهما عما يداريه، وقال: أخلصت لأخي، ولا تزال تحافظ على شرفه حتى وهو في قبره.

– حاشا لله، لم أقصد أي شيء من هذا، لكنني..

وانحبس الكلام في حلقه، فسأله «محفوظ» مبتسمًا: هل طلب يدها أحد؟

– لا.

– ما الذي جعلك إذن تحدثني في شأن زواجها؟

- لأن هناك مَن يريد الزواج منها؟

- مَن؟

- أنا.

ـ أنت؟ وتكسر قلب زوجتك، ابنة عمتنا، وتُغضب أولادك؟

- لا ينقصني حسب ولا قوة، والشرع يعطيني الحق، وأنت سيد العارفين.

فطن «محفوظ» إلى ما يدور في رأس «سلامة»، فهو يريد أن ينفذ إلى الثروة من باب الزواج. خاف أن يغلق الباب أمامه، فيتحرش بالخولي، أو يسيء إلى سمعة «بديعة»، وهو الذي لا يتورع عن الخوض في أعراض الناس. فكر قليلًا، وسأله: هل تطلب يدها مني؟

- هي يتيمة الأب، وأنت عم ابنها، ولك مقامك الذي يعرفه الجميع.

- لها عم وخال، فاطلبها من أيهما.

سرت في وجه «سلامة» مسحة من غضب، وقال: مقامها من مقامك أنت، بعد أن صارت سيدة في بيت ابن عمي.

تململ «محفوظ»، في جلسته، ثم قال: نسأل صاحبة الشأن.

- منذ متى نسأل النساء هنا؟

- هذا هو الشرع الذي تعلمته.

- وسلو بلدنا؟!

- الشرع قبل كل شيء.

- سلها، وأنا في انتظار الرد.

لكـن «بديعة» رفضت، وقالت في حزم: صرت رجلًا مع ابني، ولا أريد لأحد أن يتحكم فيه.

- لكنكِ لا تزالين شابة.

نفخت ضجرًا وقالت: من العبث أن أضع مكان الحصان حمارًا.

كتم «محفوظ» الضحك، وقال: لا تنسي أنه ابن عم المرحوم.

شـعرت بأن لسـانها قد سـبق عقلها من فرط الغضـب، فاعتذرت، وقالت: لكن الطالب لا يمكن أن يكون في مقام الراحل.

ووجد نفسـه يأتي على ذكر الخولي، ففطنت إلى ما يريد، وقالت: هذه حكاية قديمة جرفتها الأيام في طريقها.

- لكن..

- «بحـر» لا يسـتطيع أن يرفـع عينيـه في عينـيَّ، وبينـي وبين الكل حدود لا أسمح لأحد بتخطيها.

نهض «محفوظ» وفي رأسـه مخـاوف من قابل الأيام. كان عليه أن ينقل الرفض إلى «سلامة» بشكل لطيف، حتى لا يثير حفيظته أكثر من هذا. اختلى به وأبلغه القرار على مهل، ثم قال: إن تعرضت لها بسـوء سأكون خصيمك إلى يوم الدين.

لكن سرعان ما انزاح الخصم من أمام «سلامة»، إذ حملت الأخبار الواردة من المحروسة نبأ موت «محفوظ». ودُفن بجوار قبر الإمام الشافعي، بناءً على وصيته.

(4)

لم يمر عام على عودة «إبراهيم» إلى «الصابرية» حتى تحقق له ما طلب. مات ودُفن في مقبرة أهله، الذين بنوا له ضريحًا، وقالوا: كان من نسل المجاذيب.

وكتم الناس الضحك، وقالوا: جده الكبير كان يصاحبهم، أما الذي من نسلهم فهو «الصابر».

لكن آخرين، قالوا، وكانوا محقين: كان من مجاذيب الأرض.

آل الالتزام إلى «درويش» الابن الأكبر لـ «إبراهيم». كان على النقيض من أبيه، تمتلئ نفسه بالوساوس والخبث، حتى صار مضرب الأمثال لدى أهل القرية عن الطالح الذي يخرج من ظهر الصالح. الشيء الوحيد المليح فيه هو فهمه لما تطلبه الزراعة، وإلمامه بالحساب، وميله إلى ادخار يهبط به إلى الشُّح.

مع حرصه على المال، كان نهمًا للنساء وللطعام. تزوج امرأتين وأنجب منهما سبعة، أربعة أولاد وثلاث بنات. لم يكتفِ بزوجتيه، فكثيرًا ما كان يميل إلى ثلاث عبدات حبشيات يعملن في داره الفسيحة، وكان يقول لكل الذين يلومونه من أهله، حين ينصت إلى شكوى الزوجتين: ملك يميني ولا لوم عليَّ.

لكـن خبثـه كان يـزول عنـه فـي سـهرة يـوم الخميس، حيـث كان يخصص واحدة للحشـيش، وأخرى للنبيذ، ويتحكم على مدار الأيام الستة الباقية في ميل نفسه إلى السُّكْر والسطل، ويرفض كل محاولات رفقته أن يشـرب ويُدخِّن كل يوم، ويقول لهم: مرة واحدة في الأسبوع نفصل بها بين هم راح، وآخر آت.

وبعـد أن كان يعقد جلسـاته هذه خفية عن عينـي أبيه، أخرجها إلى العلن، لكن في حذر وعلى استحياء، حين توعك «إبراهيم» في شهوره الأخيـرة، ولم يعد قادرًا على مغادرة بيتـه. فلمَّا مات، صار «درويش» يفعل هذا جهارًا نهارًا، غير عابئ بأحد من «الجوابر» ولا غيرهم.

انضم «سلامة الصابر» إلى هذه الجلسة، واستملح الشراب والتدخين، محاولًا أن ينسـى بهما أحزانه وأطماعه، فقال الندماء ضاحكين: صالح الحشيش والخمر بين المتخاصمين أكثر من جلسة السنجق.

لكن الأيام كانت حُبلى بما جعل «سـلامة» و«درويش» يقتربان من بعضهما، ليواسـي كل منهمـا الآخر. فذات ليلـة، وبينما الخمر تلعب بـرأس «درويـش»، نظر إلى «سـلامة» وقال: أريـد لما بيننا أن يسـتمر ويقوى.

قهقـه وسـأل: وهـل يوجد ما هـو أقوى مـن أن يحفظ كل منا سـر الآخر، بعد أن كشفه غياب العقل في هذه الساعات اللعينة؟

صمت «درويش»، وسـحب رشفتين من كأس نبيذ، وقال: أريد أن أناسبكم.

رفع «سلامة» جفنين أثقلهما الخمر، وسأله: أي من بنات «الصوابر» تريد؟

- ليست بنتًا.

- في عائلتنا ثلاث أرامل، ومطلقة واحدة.

- هناك أرملة رابعة.

- لم أسكر بعد لأخطئ في العدد.

- بل نسيت الأهم من اللاتي في رأسك.

- مَن؟

- بديعة.

(5)

أدرك الناس منذ زمن بعيد أن عدو العدو صديق، حتى ولو إلى حين، وأن المصالح تتصالح. لكن هذه القاعدة التي تعيها العقول، وترددها الألسنة على مر الأزمان، تأخذ هيئة أخرى إن حضرت فيها امرأة، وصار العشق سلطانًا عليها.

يتقارب أكثر رجلان كسرت قلبيهما امرأة واحدة. يشكو كل منهما إلى الآخر، رغم أنه غريمه المؤجل، ويشفق عليه لأنه في الحقيقة يشفق على نفسه. يحرص على الإنصات إليه، ويواسيه، حتى إن لاحت له الفرصة بالظفر بمَن يحبها كلاهما، تمنى شفاءه من العشق، أو سعى في قتله.

أراد «سلامة» الزواج من «بديعة» ليذهب إليه التحكم في الثروة، لكنها حين رفضته، تعلق بها، وغلبت المحبة الطمع، فقال لنفسه ذات ليلة، وهو يعود مترنحًا إلى بيته آخر الليل: سكرت لأنساها فنسيت النسيان.

أما «درويش» فقد وقع في غرامها حين رآها بعد أن صارت سيدة، تركب حصان زوجها الراحل، فيتبختر بها على الجسر العالي، بينما شمس الأصيل تضرب وجهها فيصير نحاسًا، يخطف الأبصار.

كان يسرع على مُهرته، ولا يعرف مَن تكون التي تسبقه، فلمَّا تفاداها بخطوات قليلة، التفت إليها فجأة، فبهره حسنها، الذي زاد حين سحبت طرحتها على وجهها، ولم تظهر سوى عينين خضراوين صار قتيلهما.

سأل أحد خفر زراعاته، كان يجري خلفه، بعد أن ابتعدا عنها: مَن السيدة؟

- أرملة «غنوم الصابر».

ابتسم، وقال: كان المرحوم محظوظًا حتى في النساء.

في الليلة التالية كان في بيت عمها «عبد البر» خاطبًا إياها. أنصت إليه الرجل، وقال: لك زوجتان.

رد على الفور: أطلقهما لو أرادت.

لكن جاءه الرد ليس أفضل مما تلقاه «سلامة» من قبل، إلا أن «درويش» لم يفقد الأمل. عرف أن «بديعة» يحلو لها أن تركب حصانها

فوق الجسر عصر كل ثلاثاء. موعد مقدس لا يفوتها. تُفضل دومًا أن تكون وحدها، بعيدًا عن الخادمات والخفر. لم تكن نزهة تقطع بها حبسة القصر فقط، بل كانت أيضًا مزاولة لمهمتها في أن ترى زروع الالتزام على أفضل حال، لتطمئن إلى أن الحصاد سيأتي عفيًّا، وتتأكد من أن الفلاحين يركبون أراضيهم في كدح لا يتوقف.

في كل مرة كان «بحر» يتابعها في شغف ووجل، وهو يخبئ جسده بين أعواد القصب والذرة، أو خلف جذع نخلة أو شجرة. وكان يقول لنفسه: يكفيني أن أراها ولو من بعيد.

المرة الوحيدة التي أسرع إليها، وهي تمضي راكبة فرسها فوق الجسر. كان قد قدَّر أن الفيضان قد اقترب، بينما الرجال في غفلة. فخرج إلى الجسر. رأته فجأة أمامها، فارتبكت، ثم استكانت حين وجدت عينيه تحطان عند قدميه، ويقول: سامحيني يا سيدتي على اقتحام نزهتك، لكن الأمر خطير.

نظرت إليه في تطلع وخوف داهمها فجأة، فواصل: الفيضان على الأبواب.

قالت له: الرجل العظيم يدافع عنا من قبره، أقام الجسر ليصد عنا هجوم الماء.

نكس رأسه أكثر، وغالب الغيرة التي اجتاحته، وقال: يبدو أن الفيضان هذه المرة سيكون شديدًا، والحذر واجب.

ضربت الحصان بقدمها، وقالت: قم بما عليك مع الرجال.

كانت بعض جوانب الجسر قد ضعفت، تدوس عليه أقدام الناس والدواب، وتكنس منه الريح ما وسعها، ويلثمه ماء الزرع في بعض جوانبه، فيوهن مع الأيام. حدد «بحر» ما يحتاج منه إلى ترميم، فلم تمضِ ساعة إلا وكان الرجال يدقون عندها الأوتاد، ويجرون إليها التراب وحزم القش، ويكبسونها بأحجار جمعوها من كل مكان في القرية وحولها.

هجم الماء عاتيًا، فجرف أمامه كثيرًا من أثاث الناس وزروعهم في القرى التي تسبق «الصابرية» من الجنوب، وحيواناتهم وطيورهم النافقة، والبوص والحطب الذي كانوا قد جمعوه فوق بيوت الطين ليدفئهم في الشتاء، والتبن الذي خزنوه لماشيتهم ودوابهم.

وقفت «بديعة» فوق سطح القصر، تراقب الرجال وهم يذودون عن الزرع والبيوت، وبدا لها «بحر» متفانيًا في الدفاع، يحث الفلاحين على المقاومة، ويجري يَمنة ويَسرة فوق الجسر، ليطمئن إلى أن الأجزاء المرممة صارت متينة.

غرق طرح النهر، الذي كان الناس قد زرعوه على مدار تسعة أشهر فائتة. علا الماء حتى ساوى هامة الجسر، لكنه لم يتخطاها، وكلما ضرب مكانًا منه ليفلت إلى غربه، سبقته الحمير التي تحمل فوق ظهورها مزابل التراب والطوب والحجر، وكذلك الجِمال التي وضعت فوق أسنمتها أشنفة القش والتبن والبوص الجاف والحطب.

لم يغادر «بحر» الجسر. نصب خيمة صغيرة على طرفه الغربي، ولازمها في النهار والليل. كان «آل بخيت» هم عدته الأساسية في الحرب التي خاضها ضد الماء، وكذلك مَن عاونهم من رجال

«الصوابر» و«الجوابر»، الذين كانوا يجيئون ويروحون، ويهمس بعضهم في غدوهم ورواحهم: سيخرج «آل بخيت» من هذه المعركة غير ما دخلوها.

وتحقق ما تخوفوا منه، فما إن انحسر الماء، حتى ذبحت «بديعة» سبعة عجول. أشرف عمها وخالها على توزيع اللحوم على البيوت لتأكل النساء والأطفال. مُدت أسمطة الطعام أمام القصر للرجال، فقال بعضهم وهم يلتهمون الطبيخ والمرق: كأن «غنوم الصابر» لم يغادرنا.

رد آخرون: ترك خيره لآل بخيت فلم يبخلوا علينا.

وحول «جوزات» الحشيش قال «درويش»، موجهًا كلامه لـ «سلامة»: إن بقيت الضغائن قائمة بيننا ركبنا «آل بخيت».

قهقه «سلامة» وقال: لا تعلو العين على الحاجب.

لكن عين «بحر» علت، فصار الرجل الذي تعتمد عليه «بديعة». أرسلت ابنها «ربيع» ليعلمه شيئًا من فنون الزراعة. أتت إليه بمُحفِّظ قرآن من قرية مجاورة، لكنه كان ملولًا في كل هذا. يتعتع في قراءة القرآن. ينظر إلى الزرع باستهانة. لا يحلو له سوى اللعب مع أطفال «آل بخيت»، الذين زحفوا تباعًا إلى القصر، حتى صاروا يدخلونه دون استئذان، من بعد طول تردد وخوف.

راقب «الصوابر» و«الجوابر» ما تدبره «بديعة»، دون أن يدفعهم الغيظ إلى الكيد لها، باستثناء رجلين، لم يكن هناك شيء يمنعهما من التفكير في الإساءة إليها.

(6)

حاول «سلامة» أن يسحب «بحر» إلى جلسة الحشيش والخمر، لكنه رفض. كان كلما غلبه العشق لجأ إلى الزاوية، يستمد العون من أوراد مريدها الشيخ «السمطي»، الذي صار طاعنًا في السن، ويقول أهل القرية إنه قد كسر التسعين بسنوات.

كان النوم يغلب «السمطي» أكثر الساعات، بينما يلهج لسانه بالتسابيح. وكان يحلو لـ «بحر» أن ينام في الزاوية ساعات القيلولة. يُلقي جسده على مقربة من المريد الذي يغط في سبات عميق، فيشاطره نومه، حتى قبيل العصر.

وتفتق ذهن «درويش» بعد أن عَبَّ سبع كؤوس من النبيذ عن فكرة شريرة. التفت إلى «سلامة»، وقال: ستبقى «بديعة» قوية طالما بقي «بحر» إلى جوارها.

كانا وحيدين حول الشراب، فنظر إليه «سلامة»، وهو يهز رأسه مترنحًا، وقال بحروف متكسرة: يُخلص لها بلا حد.

صمت «درويش» برهة، وقال: إخلاص لا يصدر إلا عن قلب عاشق.

- أتقصد..؟

- كل شيء واضح كالشمس في عز الظهر.

- أحس بهذا، لكني أكتمه، فما يمكنني أن أفعل، وهي تفضله على الجميع.

فرقعت حنجرة «درويش» بضحكة، اهتزت لها الكؤوس، وقال: يا حسرتي على عجز الرجال!

سرى الغضب في أوصال «سلامة»، وقال: ليس عجزًا، إنما استهانة، فكيف أضع رأسي برأس خادم.

- هذا الخادم صار سيدًا فوقنا الآن.

دس «سلامة» في فمه حبات من الفول السوداني، وسحب رشفات متتابعة، وقال: ليس هناك سبيل سوى أن يسقط في نظرها، فهي تُقدره إن لم تكن تحبه.

ورمى «درويش» فكرته: لا بد من تلويث سمعته.

- يدي على يدك.

- لا يضر سمعة رجل أكثر من امرأة لعوب.

- أين هذه التي ترضى بهذا؟

- واحدة من عبداتي، أكثرهن مَلاحة.

كان اسمها «سابا»، فتاة ساخنة كأنها قُدَّت من نار تلظى، مسقط رأسها «أمهرة» في بلاد «الحبشة»، وتتقن لهجة أهل الصعيد. اصطحبها «درويش» ذات صباح إلى الجسر لترى «بحر» وهو بين الفلاحين المحنية ظهورهم وسط الزرع. أشار إليه بطرف إصبعه، وقال لها: ها هو.

ملأت عينيها من جسده الفارع، وطلته الواثقة، وقالت: ليتني أوقعه في عشقي وتحررني.

ضحك، وقال: لو قدرتِ عليه نلتِ حريتك ومعها صرة من البارات.

كان «درويش» يعرف ذهاب «بحر» إلى الزاوية بعد الظهر، ففتح لعبدته الحسناء الطريق. دعا المريد إلى مباركة ابنه الصغير، وأرسل إليه خادمًا ليصطحبه، فلمَّا جاء، وجده قد أعد له غداءً دسمًا، وحلف عليه أن يقبل عزومته لتحل البركة في البيت.

ما إن انهمك الرجل في طعامه يلوكه على مهل بأسنانه المثرمة، حتى لفَّت «سابا» جسدها بملاءة سوداء، وخرجت قاصدة الزاوية بعد ساعة من أذان الظهر. وقفت ببابها وأرسلت ناظريها إلى جوفها، فرأت «بحر» ممددًا.

خلعت نعليها، وأمسكتهما في يدها، ثم وضعتهما إلى جانب الجدار، وأغلقت باب الزاوية. مشت على أطراف أصابعها، حتى صارت إلى جانب النائم، سابحًا في أحلامه. نزعت عن جسدها الفائر الملاءة. خلعت جلبابها عن صدر ناهد وفخذين ممتلئتين. مدت يدها في حذر، ووضعتها بين فخذَي «بحر»، ودلكت في هدوء. بدا متجاوبًا مع حلم لذيذ، وقف له ذكره.

راحت تسحب جلبابه من عند ساقيه، حتى انكشف نصفه الأسفل عن سروال أبيض. أمسكت تكة السروال، وسحبت الخيط في هدوء حتى بان لها ما تقصده. مسته بأطراف يمناها وهي ترتعش، فتململ قليلًا. جفلت، واستردت يدها، فتلمظ بشفتيه الغليظتين تحت شاربه الكث، ثم غلبه النوم من جديد. عادت إلى ما تفعل، مستسلمة هذه

المرة لشهوة سرت في أوصالها، فقبضت بقوة على ذكره الصلب، ففتح عينيه ليجدها تهم أن تقعد فوقه.

صرخ فيها: مَن أنتِ؟

وقبل أن تجيب انفتح باب الزاوية عن ستة رجال، وامرأتين، عجوز وشابة، يقودهم «سلامة»، الذي هرع إلى الداخل، وهو يقول: في بيت الله يا كافر؟!

(7)

اجتمع الشهود المجهزين في بهو قصر «الصابر» بعد صلاة العصر بين رجال كُثر، يتقدمهم «همام» كبير الصوابر، و«درويش» كبير الجوابر، و«خير» كبير «آل بخيت». كان الخبر قد وصل إلى «بديعة» فارتجفت، وأغمضت عينيها، وقالت: لم أرَ من «بحر» ما يدل على فُجره.

لكن «همام»، الذي كان فرحًا بما جرى ليتخلص من «بحر»، دفع إليها بالمرأتين اللتين رأتا الواقعة، فحكتا لها ما أبصرتاه. وضعت إحداهن يدها على عينيها، وقالت: وحياة عيني التي سيأكلها الدود، لم أحكِ إلا ما رأيت.

وبرر «سلامة» أمام «بديعة» اجتماع كل هؤلاء عند الزاوية، فقال: حين رأيتها تدخل الزاوية إلى الملعون، ناديت مَن وجدت ليكونوا شهودًا معي، حتى لا يشكك الناس فيما أقول. ثم بلع ريقه وقال: لم تكن المرة الأولى.

وقال رجل آخر بما اتفق معه «درويش» على النطق به: رأيتها ذات مرة تذهب إليه ليلًا في الزراعات، على مقربة من القصر، وكذبت عينيَّ.

تدخل «درويش»: الآن عرفت أين كانت تختفي الملعونة عن البيت ساعات، بعد مغافلتنا جميعًا. وفي هذا اليوم المشؤوم انتهزت فرصة وجود «السمطي» في بيتي ليبارك ابني، وأسرعت لتختلي بعشيقها، وتدنس هذا المكان الطاهر.

زفر «سلامة» في غضب: أزعج الطيبين «الصابر» و«الجابر» في قبريهما الملاصقين للزاوية، وهذه خطيئة إضافية.

انكسرت «بديعة» فلم تجد ما تقول، فهي لا تملك دليل تكذيب كل هؤلاء إلا بما يحدثها به قلبها، وهي إن أفصحت عنه أثار حولها ظنونًا هي في غنى عنها. وكأي امرأة لا تقبل أن يخونها رجل يحبها، حتى إن لم تكن تحبه، قالت في هدوء: مَن أخطأ يقع عليه العقاب.

وحَكَم الرجال على العبدة بالجلد، لكن «بديعة» قالت: هذا لا يفصل فيه إلا شيخ الجامع.

استدعوه فجاء يهتز تحت عمامة بيضاء، تلتف حول طاقية حمراء، وقال: لا بد أن يكون قد دخلها كما يدخل المرود في المكحلة، ولو مررنا خيطًا بينهما لصده التحام الجسد بالجسد.

وحين أقر شهود الزور بأنهم قد رأوا هذا تمامًا، قال الشيخ: لا بديل عن جلدهما أمام الناس.

زام «آل بخيت» رافضين أن يُهان أحد رجالهم الكبار على هذا النحو، فقال «همام»، وهو يفتح الباب للتخلص من «بحر» تمامًا: يُطرد من «الصابرية»، ولا يعود إليها أبدًا. أما العبدة فتباع في سوق الجلَّابة.

وقال شيخ الجامع: الطرد لا يعفي من الجلد.

قال رجل من «آل بخيت»: لا بد أن يكون هناك حل آخر.

قال شيخ الجامع: لا يقيهما من الجلد سوى الزواج.

نظر «درويش» إلى «سلامة» وأدركا أنهما قد حصدا مكسبًا جديدًا. هز كل منهما رأسه للآخر بالموافقة، فنطق «سلامة»: يتزوجها ويُطردان معًا من البلد.

وعاد «آل بخيت» إلى الغمغمة، فنهرهم «همام» بصوت زاعق: لن نقبل ببقاء النجاسة في قريتنا.

واستعار «درويش» شيئًا من خبثه، فقال لهم: البنت جارية لا أهل لها، أما هو فأنتم أهله، وسيلحق بكم بعض عاره، فإن ذهب فقد ينساه الناس مع الأيام.

نظروا إليه وهزوا رؤوسهم صامتين، فرمى في سرعة سهمه الجديد ليصيب هدفه: سأحررها ويتزوجها، ويبتعدان معًا.

وجيء بالمأذون على الفور، وانتظر الرجال أن يأتي «بحر» مُقيدًا من الحجرة الملحقة بإسطبل الخيل، التي سبق أن حبس فيها «يونس». عرضوا أمامه ما توصلوا إليه، فصرخ فيهم: لن أرحل، بل أُفضل الجلد

في وجه شاهدي الزور. وطلب أن يواجه الجارية، فأرسل «درويش» في طلبها، فجاءت تحفظ ما ملأ به رأسها، وأسعفتها ذاكرتها وذكاؤها وأملها في نيل حريتها في أن تبلي بلاءً حسنًا، حتى اقتنع الرجال بزعمها أن ما جرى في الزاوية لم يكن الأول بينهما، وأنه طالما غرر بها والتقاها في الزراعات، ثم وضعت يدها على بطنها، وقالت: ظهرت عليَّ أعراض حمل، وذنب ابني أو ابنتي القادمة في رقبة مَن يحرمه من أبيه.

لكن «بحر» صرخ مكذبًا كل هذا، فرمى «درويش» سهمه الرابع، وقال: لتفصل في هذا «الداية».

وكان قد اتفق مع الداية على إخبار الرجال بأن «سابا» حامل في شهرها الثاني على الأقل، فاختلت بها في غرفة بقصر «الصابر»، ولما عادت نطقت بما أوصاها به «درويش»، بعد أن أجزل لها العطاء، وهددها إن لم تفعل بالموت.

حرص «درويش» على أن تصعد «الداية» إلى «بديعة» التي كانت تنتظر في غرفتها على قلق وحيرة، وحين أخبرتها بما وجدته في بطن الجارية، شعرت بأن الشقة بينها وبين «بحر» قد اتسعت، ولم يعد في نفسها منه رجاء.

جاء الدور على السهم الخامس لـ «درويش»، فأراد به أن يسترد كل ما دفعه للشهود والداية ولجاريته، فقال وهو يدوس على حروف الكلام: سيدة القصر تحدثت عن عقاب يكافئ الجُرم، ولا راد لكلمتها، فنحن في بيتها.

تطلع إليه «آل بخيت» متوجسين، فقال: ليدفع لي «بحر» ألف بارة، في جاريتي الحسناء التي ستصير زوجته، وهذا أقل ما يجب كي يدفع أهله عنهم العار، ثم نغلق هذا الباب إلى الأبد.

أقر الرجال ما حدده «درويش»، وجمع «آل بخيت» المبلغ، وعقد المأذون لـ «بحر» على «سابا» بعد أن سلمها «درويش» صك الاستعباد، فأخذته دون أن تصدق، وشعرت وقتها بأن لها جناحين يرفعانها إلى السماء الطليقة، فتطير فوق القرى والنجوع حتى تصل إلى أهلها فتخبرهم بأنها قد صارت حرة.

كانت الأرض لا تسع قدميها فرحًا بحريتها، وزواجها ممن أشعل النار في جسدها حين رأت رجولته الطافحة، فتمنته من وقتها. أما هو فقد كان مكسورًا أمام فضيحته المفتعلة التي أطلقت في رأسه الظنون والحيرة، وفي نفسه رغبة متأججة في الثأر، لكنه لا يعرف ممن يثأر على وجه الدقة. ما كسره أكثر أن حلمه بالارتباط بـ «بديعة» التي أبلى بلاءً حسنًا في سبيل أن ترضى عنه، قد تبخر، وندم على خمسة عشر عامًا قضاها أعزب إلى جوار حلمه المهدور.

خرج «بحر» و«سابا» من «الصابرية» عند ضحى اليوم التالي، يتعثران في خطواتهما، ولا يعرفان إلى أين يمضي بهما السبيل.

(8)

اقترح «همام» على «بديعة» أن يكون خولي الالتزام من رجال «الصوابر»، فقبلت على مضض. كان رجلًا ربعة، يمضي في العقد السادس من عمره، اسمه «عمران»، يعرف عن الفِلاحة الكثير. وقال

«آل بخيت» حين عرفوا الخبر: واسع الذمة، يقبل الحرام دون أن تهتز له شعرة. وأبلغوا «بديعة» بما لا تعرفه عنه، لكنها قالت لهم: لا مجال لرفضه، وإلا أثرت غضب «الصوابر»، وهم أعمام ابني.

جاءت أيام عصيبة على المزارعين، ترحموا فيها على أيام «الصابر» و«بحر». فما إن أتى موسم الحصاد حتى وجد كل منهم أن عليه أن يسدد للملتزم ما يزيد على الثلث فوق جُعل السنة الماضية. وعبثًا حاولوا أن يقنعوا «عمران» بخسارتهم، لكنه صدهم بقسوة لم تكن غريبة عليهم.

ظل الحبل ممدودًا بين «همام» و«عمران»، يذهب الثاني إلى الأول ليطلعه على سير العمل في الأرض، وما تُغلُّه أيام الحصاد، قبل أن يُطلع «بديعة» عليه، فيسويان الأمر معًا بما يضمن لهما حصة ليست بالهينة.

راح الفساد يأكل كل شيء. ضج الفلاحون بما عليهم دفعه. تذمروا كثيرًا، وأفصحوا عن غبنهم في جلسات الليل على المصاطب، لكن كلامهم لم يذهب إلى ما هو أبعد من آذانهم. بعضهم لم يطق فترك أرضه وفر هاربًا. بعضهم انتقل للفلاحة في أرض «الجوابر». آخرون ظلوا على حالهم معولين على أن تبلغ مظلمتهم أذن «بديعة».

كانت «بديعة» تسابق الأيام، لا يشغلها سوى حماية «ربيع» من الخطر الذي يحدق به، رافضة أن تُدخل حياتها مَن يضيق به، أو يكيد له. رفضت مجددًا طلبي «سلامة» و«درويش»، فعادا إلى تدبير المكائد خلال جلسات الدخان الأزرق والجعة والنبيذ. لكن كل ما

دبراه كان لا يغير دفة الأمور إلى ما يريدانه، وإن تسبب في إزعاج وقلق لـ «بديعة».

لكن تفتق ذهن «درويش» ذات مرة عن لعبة قاصمة. قال وهو يسحب أنفاسًا متواصلة من الجوزة العامرة بالحشيش: لا بد من أن تفقد «بديعة» الالتزام، فينكسر أنفها.

وتنبه «سلامة» إلى خطر أن يكون «درويش» راغبًا في نقل الالتزام إليه، فقال في حسم: أولى به أخي «همام».

لكن «همام» مات في اليوم التالي. فلما انعقدت جلسة الحشيش بعد أسبوع من رحيله، قال «سلامة»: صرت الأولى بالالتزام.

ابتسم «درويش» مغالبًا حنقه، وقال: لا تنسَ أن الالتزام ملكاني يستمر بالوراثة.

بدا «سلامة» متحسسًا موضع قدميه جيدًا، فقال: أدخل المزاد الذي يُعقد كل سنة في شهر «توت» بالديوان العالي، وأنا واثق من الحصول عليه، وأتفق مع الروزنامة، ويصبح كل شيء رسميًّا.

قهقه «درويش»، وسأل: وهل هي عاجزة عن دخول المزاد ضدك؟

- لا أعتقد أنها لا تزال قادرة، بعد كل ما سلبها إياه «عمران».

- وهل أنت قادر على زيادة فوق ما تسدده «بديعة»، وما عليها من فلوس الحلوان؟

– عشت أيامي كلها أعمل لأجل هذا اليوم، وأولاد أخي «همام» سيقفون معًا، لننقذ التزامنا الذي كاد أن يذهب إلى «آل بخيت».

هز «درويش» رأسه، وقال: عمومًا، لك الالتزام، ولي «بديعة».

وكان «سلامة» يعرف أنه ما طلب يدها إلا ليضع يده على الأرض، فقال: ما يفيدك الارتباط بها بعد تجريدها من الثروة.

زفر «درويش» في ألم، وقال: ما سيتبقى في يدها ليس بالقليل، والمهم عندي أن أنالها، فأنا لا أقبل أن ترفضني امرأة.

وحرر «سلامة» مكتوبًا إلى «خليل شهاب الدين» عن ضيق الفلاحين بالتزام «بديعة»، ورغبتهم في هجران الأرض، وسحب إبهام كل منهم، ليبصم أمام اسمه، بعد أن اتفق مع «عمران» على أن يبقيه في منصب الخولي، ولم تكن لديه طاقة على تحمل مغبة الرفض.

ونال «شهاب الدين» ثلاث صرر من المال كي يرفع المكتوب إلى الوالي مشفوعًا بتوصية منه، لم ينسَ أن ينوه فيها إلى عجز السيدة «بديعة» عن إدارة الالتزام، وعدم صلاحية ابنها الذي لا تزيد سنه على ستة عشر عامًا.

انعقد المزاد في أحد أيام شهر «توت»، ورسا على «سلامة»، فلم يبقَ لـ «بديعة» وابنها سوى القصر وحديقته. لم يمر سوى عام حتى عجزت عن إيواء كل هؤلاء الخدم والطباخين. ربما لو كانت الحبشيات الثلاث اللائي في القصر، إلى جانب أقربائهن من «آل بخيت»، ما زلن عبدات لباعتهن، واستفادت بأثمانهن.

حين ماتت «مسعدة» لم تقدر على جلب مربية غيرها، واعتمدت على نفسها في هذه المهمة، وعجوز من أهلها، معولة على أن «ربيع» قد كبر، وإن كان لم ينل تربية على النحو الذي أرادته.

كان ولدًا مائعًا، لم يأخذ من أبيه وأمه شيئًا، إنما ورث نزق جده الصابر الكبير، فبدت عليه كثير من خصاله، التي سمعت عنها، وصارت تجري على ألسنة أهل القرية فوق مصاطب السمر، لا سيما «الجوابر»، كلما أرادوا أن ينتقموا بالكلام من «الصوابر»، ويحطوا من شأنهم في عيون الناس، ليردموا الهوة القائمة بينهم في المال والجاه والقوة.

وذات عصر كان «سلامة» راجعًا على فرسه الأشهب من مباشرة الالتزام، فرأى «ربيع» يركب مهرة بيضاء على الجسر، فنظر إليه، وقال: أصبحت رجلًا يا غالي.

ابتسم له، وقال: أهلًا يا عمي.

نظر إليه في حنان مصطنع، وقال: أعتب عليك أنك لم تدخل بيتي إلى الآن.

ـ أمي حريصة على أن أبقى بعيدًا، وتقول إن هذا أفضل من مخالطة قد تسبب المتاعب.

– أصبحت رجلًا وقرارك في يدك.

ثم دعاه إلى زيارة قصره الجديد الذي بناه على الطرف الآخر من «الصابرية»، فقال:

ـ أُخبر أمي وآتيك غدًا.

- أخبرها وتعال، لكن لا تدعها تقرر عنك بعد أن صرت رجلًا.

وأبلغها فلم تقبل، فغافلها وذهب بُعيد العشاء، سائرًا على قدميه. شق الشارع الرئيسي، والناس ينظرون إليه مستملحين هيئته التي كانت تتبلور على تلك التي عاهدوا عليها والده، الملامح وطريقة المشي، لكنه لم يكن مثله في تواضعه.

نبت شارب «ربيع» خفيفًا، واخشوشن صوته قليلًا، فبدا يشعر بأنه قد كبر على وصايا أمه، التي كانت تبيع حُليَّها، قطعة تلو أخرى، حتى تحافظ على عيشه كريمًا كما كان. عاتبته ذات يوم على تعاليه على الفلاحين، فصرخ فيها:

ـ أتعملين حساب هؤلاء الحمير؟

- هم منا ونحن منهم، فلا تتكلم وكأنك من المماليك والعثمانلية.

- منك أنت، أما أنا فلست منهم.

صرخت فيه: هل جننت؟

- لم أنطق سوى بالحقيقة، فأنا ابن سيد البلد، أما أنتِ فأهلكِ كانوا من خدمه.

ألجمها قوله، فلم تجد ردًّا يناسبه سوى صفعة قوية على وجهه، فصرخ في وجهها: القصر لي، ولولا العيب لطردتكِ خارجه.

وأحزنها ما سمعته، ولم تكن تتوقعه، فانسحبت من أمامه كاسفة البال، لتختلي في غرفتها، التي كان «الصابر» قد اختارها مخدعًا لهما. جلست على حافة السرير، ونظرت من النافذة إلى الحديقة التي تطل خلفها زراعات الذرة من بعيد، وخاطبته قائلة: كم أحتاج إلى حكمتك التي لم يرث ابنك منها شيئًا.

وتكررت زيارات «ربيع» إلى بيت «سلامة»، فحكى عنها أمام «درويش»، فوجده يقول له: هاته ليجالسنا.

رفع «سلامة» عينيه في دهشة، وقال: إلا هذه..

قهقه «درويش»، وقال: بل هي، إن أردت أن تفي بوعدك لي، ويكتمل اتفاقنا.

كان «درويش» يرى أن «ربيع» طُعم جيد يصطاد به والدته، سواء طواه تحت جناحيه فكان خير رسول إليها، أو أشعل غضبه أكثر، فتمرد عليها. تمنى أنها حين تعجز عن كبح جماح ابنها ستدرك أنها بحاجة إلى رجل يساعدها في تربيته، بعد أن ابتعد عنها «آل بخيت»، باحثين عن مصلحتهم في أرض «درويش»، الذي أملى لهم كي يبعدهم عنها.

لم يتحقق ما أراده «درويش» سريعًا، إذ لم يجرؤ «سلامة» على أن يطلب من «ربيع» الانضمام إلى جلسات السُّكر والسطل المتكررة. لكن «درويش» قال له: إن ثقل عليك الأمر، فهو أخف عندي من الريشة.

وانتهز فرصة خروج «ربيع» للتنزه على الجسر، كما اعتاد، ودفع إليه ابنه الأصغر «مصطفى»، فاقترب منه. كان يكبره بثلاثة أعوام تقريبًا، يجالس أباه في البيت إن راق له شراب أو تدخين، ويشاطره ما يفعل، لكن على مهل.

أفهم «درويش» ابنه أن مصاحبة ابن «الصابر» سيأتي من ورائها خير كثير. كان «مصطفى» قد ورث عن أبيه الخبث، ورغم حداثة سنه، بدا جديرًا بالاعتماد عليه في مشاركة الإشراف على الزراعة، ومراجعة بعض الحسابات.

لم يجد «مصطفى» صعوبة في جذب «ربيع» إليه، حتى صار تابعه. ضرب «مصطفى» موعدًا لصديقه اللدود بعد العشاء عند الزاوية، ليقضيا سهرة لا يحلم بها، فغافل «ربيع» أمه، وخرج ليلتقيه. أخذه ليلتها إلى الجسر العالي، وسارا في موازاة القرية حتى ابتعدا عنها، وهو يحكي له عن تجاربه اللذيذة مع الخادمات. ثم سأله: أليس في قصركم خادمات؟

أجابه وهو يعددهن أمام بصره: قليلات.

- أليس فيهن ما يجده الذكر في الأنثى؟

- واحدة منهن لا تزال حلوة رغم أنها فارقت الأربعين.

ضحك «مصطفى» وقال: الأنثى في هذه السن سخية في عطائها.

ثم مد إليه زجاجة نبيذ أحمر، كان يحملها في يمينه طوال الطريق ويخبئها في كيس من القماش، وقال: خبئها من أمك، وصب منها في

كأس حين تختلي بنفسك في غرفتك، وبعد ثلاث كؤوس سيزول عنك الخجل.

ولمَّا وجده مترددًا، قال: معي كأسان، سأصب لكل منا واحدة، ولتجرب أمامي ما أُبشرك به.

سحب «ربيع» رشفات متتابعة، فراحت النشوة تسري في عروقه، فقال وهو يكاد يرقص من البهجة: هو السحر الذي كنت أبحث عنه دون أن أعرف ما هو؟ وما الطريق إليه؟ أعطاه «مصطفى» الزجاجة أثناء عودتهما إلى القرية. حملها إلى القصر، ودسها في غرفته فور رجوعه. ولمَّا انتصف الليل، واطمأن إلى نوم أمه، صب كأسًا وعبها عبًّا، فراقت له الدنيا، فصب أخرى مسترخيًا للبهجة الكاذبة، وفرغ من الكأس الثالثة فاستيقظت الشهوة عارمة. تسلل من غرفته إلى مكان نوم الخادمة التي قصدها. أنساه الخمر الحذر، فدفع الباب غير عابئ باصطكاكه، فهبت مفزوعة، ناظرة إليه في استغراب. اقترب منها، وهو يقول: عاوزك.

ظنت أنه قد أتى إليها لتُعد له طعامًا أو شرابًا في هذه الساعة المتأخرة، فنهضت تفرك النوم في عينيها، مقبلة نحو الباب في طريقها إلى المطبخ، لكنه اعترضها، فاتحًا ذراعيه. وقفت مشدوهة، لكنه لم ينظر في عينيها، إنما طوق جسدها بقوة، وأعاد القول: عاوزك.

حاولت الإفلات منه، وهي تقول: عيب يا سي «ربيع» أنت في سن أولادي.

مد فمه إلى عنقها لينهشها، لكنها صرخت، ودفعته بقوة، فسقط إلى جانب مخدعها، وخرجت مسرعة، لكنه نهض ولاحقها، عازمًا هذه المرة على أن ينال منها. زاد صراخها، فاستيقظت بقية الخادمات، وسمع الخفير الواقف عند البوابة الرئيسية، فخلع بندقيته من كتفه، ودخل إلى القصر، وهو يظن أن لصًّا قد تسلل إليه.

وصلت الجلبة إلى «بديعة» في الطابق العلوي، فهبت مفزوعة، لترى مع خادماتها ابنها الوحيد في موقف مُخزٍ. هبطت السلالم سريعًا، حتى صارت واقفة في وجهه. لفت انتباهها أنه يهذي ويترنح قليلًا. اقتربت منه أكثر، وسحبت شهيقًا قويًّا، ثم صرخت فيه: سكران يا كلب؟

وشعر بإهانة شديدة، فصرخ فيها: أنا حر، أسكر أو أصلي، لا دخل لكِ بي.

رمته بنظرة هازئة وقالت: ليتني لم أُخلِّفك، لتوسخ سيرة أبيك العظيمة.

أشاح بيده في وجهها، وزاد هياجه وهو ينصرف، دافعًا أمه بقوة، في الجدار، بينما الخادمات يقفن متعجبات مما آل إليه الحال في بيت «غنوم الصابر».

كادت توجه له صفعة أخرى، لكنها أمسكت زمام نفسها أمام الخادمات والخفير، وإن كانت نظراتها الغاضبة قد طيَّرت سطوة الخمر من رأسه. ما بقي منها دفعه إلى الإيغال في تمرده، فخرج من باب القصر إلى الحديقة، ومنها إلى الباب الخارجي، حيث

سلمته قدماه إلى الفسحة الأمامية المؤدية إلى أول الشارع الرئيسي، فسلكه غير عابئ بالذين ينظرون إلى هيئته في عجب، حتى بلغ قصر «درويش».

رآه «مصطفى» الذي كان لا يزال ساهرًا في الشرفة الأمامية، فهبط سريعًا حتى وصل إليه. مد يده وسحبه خلفه، وهو يغمغم لاعنًا أمه والخادمات وقصر «الصابر» الذي لا يجد فيه مبتغاه. أخذه إلى غرفته، وأجلسه على أريكة إلى جوار مخدعه، وسأله، وهو ينظر إليه مليًّا: هل صدتك الملعونة؟

رفع إليه عينين لا تزالان مثقلتين بالخمر، وقال: أمي فضحتني.

قهقه، ثم رد: لا عليك، هكذا تكون البدايات صعبة دائمًا.

ونهض نحو خزانة جانبية، فأخرج منها زجاجة نبيذ، ووضعها على الطاولة، وإلى جوارها وضع كأسين، وقال له: داء هو الدواء.

وصب له كأسًا، فرفعها سريعًا إلى فمه يعبها، وأتبعها بأخرى، ثم ثالثة، حتى دار المكان به، فنهض مترنحًا إلى السرير، وألقى جسده عليه، وراح في سبات عميق.

حين فتح عينيه في الصباح، وجد نفسه عاريًا في أحضان امرأة سمراء متناومة. تلفت حوله مذعورًا، لا يعرف أين هو؟ هز رأسه بعنف، وهو يغمض عينيه ويفتحهما، فلما استرد وعيه، سألها: مَن أنت؟

قالت ضاحكة: أنا مَن بسطتك، وفرجت همك الشديد.

(9)

مضى كل شيء كما خطط له «درويش». راح يعد الأيام لبلوغ ما رمى إليه. عبثًا حاولت «بديعة» أن تثني ابنها عن صحبة الأشرار، لكنه كان قد اعتاد الخمر والحشيش في جلسات الليل، وأدمن معهما جسد العبدة الحبشية «تانا»، ولكل هذا سحره الذي يخطف لب وجسد مراهق نزق.

منعت أمه عنه المال حتى يستقيم، لكن «درويش» تكفل بحل مشكلته هذه. تركه يوغل في السكر والسطل، وليس عليه سوى أن يبصم له بخاتم الحديد المحفور عليه اسمه، كوارث أبيه، على أوراق ديون تراكمت حتى لم يعد بينها وبين انتزاع القصر وحديقته سوى مبلغ بسيط.

كان «درويش» و«سلامة» قد قدرا ثمن القصر سويًّا، حتى لا يقال إن البيع، حال إتمامه، فيه ظلم لـ«بديعة»، حين يصل الخبر إلى أهل «الصابرية»، أو تقدم هي شكوى إلى السنجق.

جرى كل هذا سرًّا، إلا على «سلامة» الذي طلب منه «درويش» أن يختار مَن يذهب بين حين وآخر إلى «بديعة» يطمئنها إلى أن إعادة ابنها إلى جادة الصواب ليست صعبة، لكن يجب أن يتم هذا بحكمة، وعلى مهل. كان «سلامة» يدرك أن «بديعة» لا تطيق رؤيته منذ أن سلب منها الالتزام، فأشار على «درويش» أن يختار هو رجلًا من «آل بخيت»، ممن يفلحون في أرض التزامه، للقيام بهذه المهمة، وقال له: لا يخدعها إلا واحد من أهلها.

أوكلت المهمة إلى «جويد»، المعروف بحلاوة اللسان، فأمعن في خداعها. فلما ضاقت بإخفاقه في إعادة ابنها إليها كما وعد، قالت له ذات ليلة: لو كنتم أخواله حقًّا لمنعتموه من هذا العبث.

ابتسم، وقال لها: لا تنسي أنه ابن سيدنا، وعلينا أن نخلعه من هذا العبث برفق شديد.

– سيدكم مات، وأدرتم معي أرضه، لكنكم نسيتم ما كنتم فيه، وعدتم إلى الرضا بالذل.

ابتلع ريقه، وقال لها: انفردتِ بتربيته بعيدًا عن أعيننا، فلا تلومين إلا نفسك.

ثم بحث عن سبب آخر لطمأنتها، فقال: كان جده الكبير مثله، ومع هذا ترك أرضًا ومالًا، صنعت للصوابر مكانتهم على مدار السنين.

هزت رأسها في غبن، وقالت: كان جده رجلًا ناضجًا، لم يترك عبئه الصغير يكبر فيدمره.

اقترح عليها الرجل أن ترقيه لدى شيخ الزاوية الجديد «عارف الإسناوي»، فبكت أمام ابنها حتى احمرت عيناها، لتقنعه بأن يذهب إلى الزاوية، وقالت: نزور قبر أبيك، لعل روحه تحل فيك، ثم نختلي إلى المريد الطيب، لينظر في أمرك.

تطلع إليه «الإسناوي» طويلًا، وقال: شياطين الإنس أشد خطرًا.

قالت في انكسار: أحاطوا به من كل جانب، وعجزت عن ردهم.

هز رأسه، وقال: الفراغ يغري بالتفكير في الرذيلة.

واقترح عليها أن تدفعه إلى عمل يشغله، فقالت: راحت الأرض التي كنت أعده لها.

ابتسم، وقال: في التجارة رزق وفير.

وباعت بعض حُليِّها، وفكرت فيما ينقص «الصابرية»، فهداها عقلها إلى تجارة الأقمشة والأكلمة والسجاد، والتي لم تكن موجودة في دكان «إسحاق» و«موسى» اللذين ورثاه عن أبيهما. واختارت شابًّا من «آل بخيت» معروفًا بأمانته، اسمه «عايد» ليساعده في عمله الجديد.

كان «عايد» يرفع بعض البضائع على جمل، ويخرج بها في البكور، ليبيعها في البلدان المجاورة، ويعود قبيل العشاء، فيسلم إلى «بديعة» ما باع به، ويطلعها على دفتر سجل فيه ما تأجل دفع ثمنه إلى موسم الحصاد. لكن «ربيع» رفض أن تتسلم أمه حصيلة البيع، وقال لها غاضبًا: متى تكفين عن النظر إليَّ كطفل يستحق الوصاية؟

ولم تكن تريد منه مالًا، إنما ينشغل بعمله عن نزواته. مستعينة على حاجاتها بما ادخرته، وحصيلة بيع التمر والفاكهة من حديقة القصر، وثلاثة قوارب صيد، يعمل عليها ثلاثة رجال، كانت قد اشترتها بُعيد ضياع الأرض.

لكن التجارة لم تنهَ «ربيع» عن اللهو، وكان ما يشربه ويدخنه قد سكن دمه، فلم يستطع الصبر على الابتعاد عنه إلا أيامًا قلائل عقب

زيارتـه للزاوية. عاد إليه أشـد مما كان عليه. مـع الأيام لم تعد حصيلة التجـارة قـادرة علـى توفيـر أجر «عايـد» وأثمـان الحشـيش والخمر، فظـل رأس المـال يتآكل حتى أشـرف علـى النفـاد، فعاد «ربيـع» إلى الاستدانة.

صار فسـاد «ربيـع» حديث الفلاحين وهم يسـتريحون قليلًا تحت الشـجر، وعلى مصاطب السـمر في الليل. تجاذبته ألسـنة النسـاء أمام أفـران الخبيز. تندَّر به الصغار في ألعابهم. سـاحت الأخبار في القرى المجاورة، فشمت الذين كانوا يستكثرون على «بديعة» أن تصير سيدة، وحزن مَن لا يزالون يتذكرون سخاء «غنوم الصابر» وهيبته.

جمـع «درويش» ما ورد في الصكـوك، فوجده قد وفَّى ثمن القصر والحديقة، فجهز عقد بيع، وقبل أن يجلس «ربيع» ليتناول كأسـه، قال له: نتحاسب قبل أن تسكر.

رد في عجالة: ليس بين الخيرين حساب.

قهقه «درويش» وقال: لا يجلس هنا الخيرون يا بن «الصابر».

وسأله: هل أحضرت الختم؟

رد: أنسيت أنني أعرف الكتابة، سأوقع لك.

لكـن «درويش» اشـترط أن يبصم بختمه إلى جانـب التوقيع، فقام ليحضـره من الدكان، وعاد سـريعًا. جلـس متلهفًا، وقال للجالسـين: ليحدث هذا أفضل، وأنا سـكران، فما أشـد حاجتي إلى ما يغيبني وأنا أخلع أمي من مكان لم تفكر يومًا في أنها ستفارقه إلا إلى قبرها.

لكـن «درويـش» اشـترط أن يتـم البيع وهو فـي وعيه، وأن يشـهد الشـهود وهم كذلك، ومن بينهم «سلامة»، الذي كان موزعًا بين حزن وفرح. حزن من تسليم قصر «الصابر» إلى واحد من «الجوابر»، وفرح لأنه سيرى «بديعة» منكسرة، وقد لا تجد بيتًا يسعها إلا قصره الجديد، الذي بناه خلف الجسـر، بعد سـنة واحدة من تسـلمه الالتزام، وبذلك يكون قد ربح كل شـيء، الأرض، وهذه الحسـناء التي استعصت عليه في سالف الأيام.

وسمع القوَّال ما جرى فأنشد في أسى:

الضبـع صالـح الديـب علـى نهـش لحـم الغزالة

والهـزة لمَّـا تصيـب غرابيلنـا ترمـي النخالـة

مكتبة ياسمين
telegram @
yasmeenbook

الظفرُ واللَّحم

(1)

ظل «سالم» يتقلب على جمر، منذ أن عرف نسبه الحقيقي. فارت نفسه حتى كاد ينفجر، لكنه لم يحنق على «روحية»، ولم يتوقف عن مناداتها بأمه. كان قد قرر منذ أن انكشف له السر أن يعود إلى مسقط رأسه ليرى أهله.

أبهجه أن يعرف أن أباه الأصلي كان كبيرًا بين أهله. أخرج الورقة التي كان قد أعادها إلى الحجاب، وقرأ عدة مرات كلمة «جناب» التي سبقت اسم أبيه، واستعذبها كثيرًا. ولما قصت «روحية» على سمعه حكايته منذ أن وجدوه قطعة لحم حمراء ملقاة بالقرب من أحراش عطشى في رمل وحصى، عرف أن ما هو فيه من ثراء يعود إلى «الصابر». حمد لمَن ربياه أنهما حافظا على مال أبيه، ولم يهلكاه في سفه أو إسراف أو انحراف عن جادة الطريق.

وقال ذات مساء لـ «روحية» بعد أن طبع قبلة على رأسها كعادته: أريد أن أرى أهلي يا أمي.

صمتت برهة، وقالت: أخشى إن جئت معك أن يفتكوا بي.

نظر إليها في استغراب، وقال: لا يمكن أن يكون هذا جزاء مَن تولتني بالرعاية، وحافظت على مالي.

قالت وهي تخفض رأسها: عشنا من خيرك حياة لم نحلم بها.

ابتسم، وقال: بل عشت أنا في حجرك، ألم يكِد أبي «عويس» ويجتهد. كم من رجل في هذه الحياة بدد ثروة كبرى ورثها أو هبطت عليه فجأة!

اقترحت عليه أن يُرسل أحد رجاله إلى «الصابرية» ليجمع الأخبار، حتى إن عاد إليها، كان يعرف جيدًا ما يجري بها. راقت له حكمتها، وفكر فيمَن حوله فاحتار، لكنه سأل الخفر: هل يعرف أحد منكم بلدة اسمها «الصابرية» في الصعيد الجواني؟

نبش الخفير «شلبي عبد السميع» في ذاكرته، وقال: هناك مَن يعرفها؟

- مَن؟

- صاحبي «بسخرون النجار» حكى أمامنا ذات مرة أنه قابل رجلًا منها قبل عشر سنوات في مولد العذراء، يعمل نجارًا مثله، وقضى معه أيامًا، وتواعدا على تبادل الزيارات، لكن هذا لم يتم إلى الآن.

أرسل «سالم» إلى «بسخرون» فجاء مسرعًا، ممنيًا نفسه بنجارة واسعة في القصر، على غرار التي جهزها قبيل العُرس، لكنه فوجئ بمهمة لم تخطر له على بال. تلقى الطلب في فرح، وقال: بركات العذراء، التي تواعدت أمامها على لقاء «جرجس».

أعطاه «سالم» صُرة من النقود، وقال له: اركب الماء من مرسى «المنيا»، وكن حذرًا في أسئلتك.

هز رأسه، وقال: لا تخشَ يا سيدنا.

كان «بسخرون» حكيمًا. نزل في مرسى المراكب الشراعية الذي أكل فيه «عويس» و«روحية» ذات يوم غداءً دسمًا، وشرب «سالم» لبن ماعز. قال له المراكبي: يمكنك أن تركب قارب صيد يأخذك إلى «الصابرية».

لكن صاحب القارب قال له: لم يعد هذا اسمها، كانت «الصابرية» والآن هي «الجابرية».

احتار قليلًا، ثم قال: لكنني أريد «الصابرية».

ضحك الرجل حتى اهتز القارب تحته، وقال: لا عليك، هي ما تقصدها، وكن متأكدًا أنني لن أضلك.

ولمَّا أوصله إلى الشاطئ، أشار إلى قصر بين الزراعات، تطل خلفه منداحة على الجانبين بيوت خفيضة، وقال: ها هي، فانزل.

ما إن صار «بسخرون» على مدخل القرية حتى سأل عن بيت «جرجس»، لكن أتاه الجواب بما لم يكن في حسبانه: توفي قبل سبع سنوات، لكن أبناءه موجودون. جفل قليلًا، فقال له مَن أجابه، وهو يحسب أنه يقصد أعمال نجارة: أولاده أكثر مهارة منه، فلا تخف.

أخذوه إلى بيت «جرجس»، فصارح ابنه الأكبر «سمعان» أنه قادم من «المنيا» لزيارة أبيه، بناءً على تواعدهما قبل سنين. أنصت إليه «سمعان»، وسأله: هل أنت عم «بسخرون»؟

تهلل وجهه، وهز رأسه، فواصل «سمعان»: طالما حكى لنا أبي عن أيام قضيتماها في مولد العذراء. ظل يمنينا بمعاودة الزيارة واصطحابنا معه، لكنه تنيَّح قبل أن يحقق ما أراد.

ابتسم «بسخرون»، وقال: يرانا الآن، ويفرح في الأمجاد السماوية، وربما روحه هي التي دفعتني إلى المجيء، لتحققوا معي ما أراد أبوكم.

استضافوه خمس ليال، كانت كافية ليعرف كل شيء عن آل «الصابر»، وأحوال «الصابرية» عمومًا، ثم رجع من حيث أتى.

(2)

لم يصدق «سالم» ما سمعه من «بسخرون»، وأسف لحال أخيه وأمه «بديعة»، اللذين خرجا من القصر، وسكنا بيتًا بسيطًا بين بيوت «آل بخيت»، وتركا الخادمات يعملن في قصر «سلامة»، فحيل بينهن وبين الذهاب إلى «بديعة» لمجرد السؤال عنها.

كانت «بديعة» لا تزال تحتفظ بثلاث قطع من الحُلي، وقت خروجها من القصر، وثلاثة خيول وفرسة في الإسطبل، وأربعة جِمال، فباعت الأحصنة، وأجَّرت الجمال للحمَّالين، واستمر الصيادون يأتونها بما لها في بيع الأسماك، إلا أن كل هذا لم يكن يفي بعيش رغيد لها، لا سيما أن «ربيع» لم ينقطع عن الخمر والحشيش.

لكنها مع هذا استطاعت أن ترمم بيتها الجديد، وتطليه بالمصيص واللون الأبيض، واشترت أثاثًا، ليس بمستوى ما كان في القصر، إلا أنه يكفي سيدة لا تريد من الحياة سوى الستر.

لم تفارقها روح «الصابر»، فواظبت على أداء الصلوات الخمس، وكانت تحمل الطعام إلى «الإسناوي» في الزاوية، وتتصدق على ثلاث أرامل من أهلها، وتدخر لشراء ثلاث خرفان تُذبح في عيد الأضحى، وتوزع لحومها على فقراء القرية.

لم ينسَ «درويش» طلبه القديم، فأرسل يطلب يدها، لكنها استعصمت بهجرة الرجال. وحين قال له «سلامة»: صارت راهبة، ولم يعد لديها ما تعطيه لرجل.

قهقه، وقال: يكفي أن تذوق امرأة استملحها رجل كبير مثل «الصابر».

ولم يدرِ «درويش» أن لسانه قد خانه، وأنه كشف عن نواياه في إذلال «آل الصابر»، فقال له «سلامة» غاضبًا: يبدو أنك لم تنسَ الثأر القديم.

فانفجر فيه، وقال: دم عمي «يونس» لم يجف في عروقي.

وكان «سلامة» قد وصله خبر قبل هذا بيومين أن «درويش» يسعى إلى أن يرسو عليه التزام «الصوابر» في شهر «توت» المقبل، بعد أن اعتزم ديوان الالتزام في المحروسة زيادته. ولم يكن خافيًا على «درويش» إسراف «سلامة»، وضجر الفلاحين من سوء معاملته.

أراد «درويش» استعجال الأمر، فأرسل أحد رجاله ذات ليلة ليأتي له بـ «عوف» كبير الفلاتية، الذين تجمعوا من بلاد شتى، واهتدوا إلى المغارة التي حل بها «يونس» من قبل، فاتخذوها مأوى لهم. ولمَّا جاءه

يتصبب عرقًا من طول المشوار في هذا الحر، اختلى به في بهو قصره، ورمى إليه ثلاث صُرر من النقود، وقال: أريدك في شيء، وليكن سرًّا بيننا.

تلمظ الرجل وهو يضع الصُّرر في جيبه، ويعدل وضع بندقيته على كتفه، وقال: جنابك تأمر، وسرك في بئر.

مد «درويش» يده، وأخذ يد الرجل، وقال: حتى الموت.

هز رأسه، وقال: أطال الله عمر جنابك. أنا لص لكن لا أخون عهدًا.

وفي الليلة التالية صرخ رجل كان يمشي على الجسر هاربًا من حر بيته الضيق: حريقة.. حريقة.

هرع الفلاحون ونساؤهم يقاتلون النار، بجريد النخل والعصي وماء يُحمل في جرار من النهر القريب، والقنوات التي تشق الأرض. دفع «درويش» أولاده ورجالًا من «الجوابر» ونساءً ليشاركن في المعركة ضد النار، ليخفي تدبيره. كان ضمن خطته أن يحرق حقل قمح له ملاصق لأرض «سلامة»، فضحى به، كي يُمعن في إخفاء جريمته.

لكن المعركة، التي استمرت حتى مشارف الصبح، انتهت بهزيمة منكرة للناس، إذ أتت النار على أغلب زراعات القمح في التزام «سلامة» ولم يكن يبقى على حصاده سوى أيام قلائل.

هرع «سلامة» عند الضحى إلى غرفة داخلية في قصره، كانت بها خزانة يدخر فيها المال. فتحها وجلس يحصي ما فيها، فوجده لا يكفي عُشر

المطلوب منه سداده. طلب من امرأتيه وزوجتي ابنيه أن يأتين بحُليهن، وقدره، فلم يفِ سوى بنصف العُشر، فأدرك أن أيامًا عصيبة تنتظره.

بعد العصر كان قد جمع فلاحي التزامه في باحة القصر، وقال لهم: نحن شركاء في الغُنم والغُرم.

قلبوا أبصارهم في وجوههم، وقال أحدهم: جيوبنا خاوية، وجنابك تعلم.

وقال آخر: ما نحصل عليه في مواسم الحصاد لا يكفي سوى الخبز والجبن القديم والكِشك الناشف والبصل.

وقال ثالث: لا نأكل اللحوم إلا في الأعياد.

لكنه صرخ فيهم: لم أحرق القمح لأتحمل وحدي ما علينا.

وكان ما يفعله «غنوم الصابر» حين يأكل الفيضان الزرع يتناقله الناس من جيل إلى آخر، فقال رابع: عمك كان يعرف كيف يواجه المصائب.

فعاد إلى صراخه: لا شأن لي بعمي، لكل زمن ظروفه.

وصمت برهة، وقال: بعضكم يملك بقرة أو جاموسة أو أغنامًا، وهناك حميركم.

رد أحدهم: دونها لا يمكن أن نبقى أحياء.

وعبثًا حاولوا إقناعه بعجزهم عن سداد أي شيء، فانصرفوا كاسفي البال. لم يأتِ الصباح حتى كان كثيرون منهم قد هربوا من القرية.

بلغ الخبر السنجق الجديد «علي بن برقوق» فأتى على فرسه بين مائة من جنود المماليك المسلحين بالبنادق. قصد قصر «سلامة»، فوجد عنده «درويش» يواسيه. جلس بينهما على أريكة لينة، وأسند كوعه على حاشية من ريش النعام، وقال: تعرفان حرج موقفي، ولا بديل عن تسديد ما على الالتزام، والموعد بات على الأبواب.

كان يوجه كلامه لـ «سلامة»، الذي اصفرَّ وجهه، وقال بصوت غارق في الرجاء: أليست هناك طريقة لتسديد جزء هذه السنة، وتأجيل البقية للسنة المقبلة؟

هز السنجق رأسه نافيًا، وقال: الباب العالي زاد الخراج على مصر، وديوان الالتزام لن يرضى بتأجيل شيء.

وكان «سلامة» يعرف أن ما معه من مال وذهب لن يكفي لتسديد الخُمس فقط، فقال: أعطني فرصة لأبيع القصر بما فيه، وأدبر البقية.

ابتهج «درويش» لما سمع، وزاد ابتهاجه حين قال الحكمدار: أعتقد أنه من الصعوبة أن تجد مشتريًا في هذا الوقت الضيق.

هنا انبرى «درويش» وقال: المشتري موجود، وحريص على أن يُخرج «سلامة» من العثرة.

رفع «سلامة» رأسه، وكان مطرقًا في تفكير عميق، وسأل: مَن؟

بلع «درويش» ريقه، وكأنه يستعد لالتهام وجبة دسمة، وقال: أنا.

وقبل أن ينطق «سلامة» بكلمة، قال السنجق: لك الشكر على أي حال.

قدَّر «سلامة» ثمن القصر، وغالى في هذا كثيرًا. وقدر «درويش» ثمنًا آخر، وكان أقل كثيرًا. وتمسك كل منهما بما قدَّر، فقال السنجق: نقسم البلد نصفين، وهذا ما يفرضه التفاوض في الحرب والسياسة، كما هو في البيع والشراء.

لكن «سلامة» اشترط كي يوافق على البيع أن يتدخل السنجق لدى ديوان الالتزام ليؤجل المتبقي، وهو كثير، إلى العام المقبل. على مضض وافق السنجق بعد أن قال له «درويش»، ليخفي جريمته تمامًا: البركة فيكم، ولن يبخل «سلامة» عليكم بالحلوان.

وكُتب عقد البيع، وشهد عليه السنجق وإمام المسجد، وأُمهل «سلامة» أسبوعًا كي يُخلي القصر لمَن اشتراه، ويعود إلى بيته القديم في شارع القرية الرئيسي.

كتب السنجق إلى «ديوان» الالتزام يستأذنه في تأجيل نصف المقرر على «سلامة» إلى موسم حصاد القمح المقبل، بعد أن أرسل إليه النصف الذي تحصل عليه، لكن طلبه قوبل بالرفض، وأُرسل إليه كتاب يطالب «سلامة» بتسديد ما عليه بعد شهر واحد، وإلا سُحبت منه الأرض، وأُدخلت المزاد القادم، دون أن يُسقط هذا ما تبقى من أموال واجبة السداد، يمكن وقتها تقسيطها سنويًّا، فإن تعثر «سلامة» في السداد، قُبض عليه، وأودع السجن، إلى أن يحصل أهل الحكم على ما قدَّروه غير منقوص.

لجأ «سلامة» إلى «الصوابر» ليعينوه في محنته، لكن الدهر كان قد أناخ عليهم، فأعطوه ظهورهم، وقالوا: ليس لدينا سوى أرض قليلة، فإن بعناها تعرينا، وأصبحنا خدمًا في بيوت «الجوابر».

وقال له «إسماعيل» الابن الأكبر لـ «همام»: يا عم، لا يرضيك أن نتسول على الأبواب، وقد علَّمنا أجدادنا أن الفرد في عائلتنا وجبت عليه التضحية من أجل الكل.

جاء المزاد في موعده، وكان «درويش» قد رتب كل شيء مع السنجق، فرست الأرض عليه. جاء الجند لتسليمها له ذات ضحى، والفلاحون يتقاطرون فرادى وجماعات على الجسر العالي، ينظرون إلى الأرض التي يكسو الرماد أغلبها، ويفكرون في أيامهم القادمة مع سيدهم الجديد الذي يعرفون ظلمه وبخله جيدًا.

حين بلغه خبر تسليم الأرض إلى «درويش» غامت الدنيا في عيني «سلامة»، وكان في داره يسحب أنفاسًا متلاحقة من الأرجيلة في صمت. سقط مغشيًّا عليه وسط دوامات الدخان. هرعت إليه زوجته الأولى التي كانت قريبة منه، هزته مرات، ولم يتحرك. رفعت يده إلى أعلى وتركتها لتتهاوى إلى جانبه. خرجت من صدرها صرخة مدوية، لفت القرية كلها، وأتت بالناس مسرعين.

دُفن «سلامة» في مقبرة العائلة، ووقف «درويش» إلى جانب أولاده وأولاد أخيه يتلقى عزاءه، متصنعًا الحزن، وكأنه للغائب ولي حميم.

لم يمضِ سوى أسبوع على موت «سلامة» حتى كان «درويش» في قصر السنجق حاملًا له هدية ثمينة، هي خنجر من الذهب الصافي، وثلاث صُرر من الفضة. وما إن أخذ الحكمدار ما أُهدي إليه باسمًا، حتى قال له «درويش»: من العدل أن تُسمَّى قريتنا باسم كبيرها.

هز الحكمدار رأسه موافقًا، وتحولت «الصابرية» إلى «الجابرية». سُجِّل هذا في الخطط الرسمية، وأشار إليه خطيب الجمعة، داعيًا الله أن يجعل هذا الاسم مباركًا على أهل القرية، وأن يوفق سيدها، صاحب الالتزام، إلى ما فيه الخير والبركة. أما شيخ الزاوية فقد تلقى الخبر حزينًا، وقضى الليل كله أمام قبر «غنوم» يناجيه.

ضاق «الصوابر» بما جرى، وفي مقدمتهم أولاد «سلامة» و«همام»، فاجتمعوا ليدبروا أمرهم. انقسموا بين مَن تشبثوا بالبقاء في المكان، معولين على الزمن الدوَّار، وبين مَن رأوا أن عارًا شديدًا قد لحق بهم وأنهم لم يعودوا قادرين على رفع عيونهم في عيون الناس، وأن الرحيل هو القرار الأصوب.

علم «درويش» بما دار في اجتماعهم، وكانت له بين «الصوابر» عين منهم، فأحصى مَن قرروا الرحيل، وأرسل عارضًا عليهم شراء أراضيهم وبيوتهم، فوافقوا. لم يبخسهم الثمن، مكتفيًا بالزهو الذي ملأ صدره، والفخار الذي جلبه لأهله، الذين قالوا في الناس: خلعونا من هنا فخلعناهم، والعبرة بالنهاية.

مَن تمسكوا بالبقاء، كان عليهم أن يتحملوا نظرات الناس القاسية، والأقسى هو تضييق «درويش» الخناق عليهم، إذ راح يهدد الفلاحين حتى لا يؤجروا للعمل في أراضيهم. هدد النجارين والحدادين والمقرقرين ليتلكأوا في الاستجابة لهم إن احتاجوا إليهم. فاوض التجار حتى لا يشتروا غلتهم. أمعنت نساء «الجوابر» في الشماتة من نساء «الصوابر». تحرش العيال بالعيال في أوقات اللعب. لم يكن

بقيـة الأهالي من النصـارى واليهـود وآل بخيت قادرين على مواسـاة «الصوابر» خوفًا من «درويش» وأهله.

توالـت الأيـام علـى «الصوابر» ثقيلـة عصيبة، وصـارت أرواحهم فـي أنوفهم. يسـتدعون ماضيهـم حين يختلـون في البيـوت المغلقة، ويتحسـرون علـى كبارهم الذين ضيَّعوا من أيديهم كل شـيء. سـرت حكايتهم في أوصال القرى، فتغنى بها القوَّالون على الرباب، وصارت حكاية رديفة للسيرة الهلالية.

وقال السـامعون وهم يهزون رؤوسـهم مع العزف المجروح: كأن «الصابر» أبو زيد الهلالي، وكأن «الجابر» دياب بن غانم.

(3)

قال «سـالم» حين سـمع الحكاية كاملة من «بسخرون»: لا خير فيَّ إن تركت أهلي مقهورين.

وعـزم علـى العـودة إلى مسـقط رأسـه، ليجمـع أهلـه، ويأتي بهم إلـى حيث يعيش في بحبوحة. وبينما يسـتعد لهـذا مرضت «روحية». توجعت ذات ليلة من رأسـها، فعصرت الخادمات الليمون ودعكن به جبينهـا، لكن الوجع انتقل إلى جذعها. راحت تشـكو من وهن قلبها، وثقل في معدتها، وألم في جنبها الأيمن.

وقـال المُزيِّن بعد أن فحصها جيدًا: سـأوصي لهـا ببعض العطارة، وعلى الله الشفاء.

لكـن العطار لم يُصلح ما أفسـده الدهر. كان مـرض النهاية، الذي تكسـل معه أعضاء الجسـد في أداء وظائفها. شعرت هي بدنو الأجل، فاسـتدعت «سـالم» بعد منتصف الليل، وكان سـاهرًا فـي قلق عليها، وكان قلقهـا أشـد بعد ما سـمعت منه ما جرى لأهله هنـاك في الصعيد الجوانـي. مَثُـل بين يديها منكسـرًا، فقالـت له بصوت واهـن: تحتاج مواجهة الأشرار إلى حكمة.

ابتسـم، وقال لها: رباني أبي «عويس» على تحسـس موضع قدميَّ جيدًا.

وأوصته بألا يذهب، إنما يرسـل مَن يسـتدعيهم لزيارته، فلمَّا يأتوا ويجـدوا ما هو فيه من نعمة، يمكنه وقتها أن يعرض عليهم البقاء معه، ثم قالت: أريد أن أترك الدنيا وأنا مطمئنة، ولا يرضيني سوى أن أدعك في عزوة، تعينك على قابل الأيام.

وأُرسـل «بسـخرون» مرة أخرى، بعد أن عرَّفه مَن يكون، فنزل إلى «الجابرية» ليلًا، وقصد بيت النجارين. هناك طلب منهم أن يدلوه على بيـت «ربيع الصابـر»، فلمَّا طرقه فتحـت «بديعة» له البـاب، فقال لها: ضيف يقصد بيت الكرام.

نـادت «ربيع» وكان يجلس وحيدًا في غرفة علوية، يسـتعد لسـهرة جديـدة مع زجاجة نبيذ. هبط لاعنًا في سـره هـذا الضيف الثقيل الذي أتى في وقت غير مناسـب. فلمَّا سـمع منه، تهللت أساريره، ونظر إلى أمه وقال: أليس هذا أخي الضائع؟

قالت: يبدو هو.

لكن «بسخرون» قال وهو يدوس على الحروف: هو يا سيدتي.

سألته في توجس: هل عرف ما جرى لنا؟

- عرف كل شيء.

- لماذا لم يأتِ هو؟

- أنا رسوله إليكم، ويريدكم أن تأتوا إليه.

صمتت «بديعة» برهة، وقالت: لا أتخيل أن تكون لي حياة بعيدًا عن مكان لا أعرف في الدنيا غيره.

لكن «ربيع» قال بوجه تكسوه فرحة، لم يقدر على كتمها: أنا أجيء معك.

ولمَّا رأى «ربيع» ما فيه أخوه من نعمة، رضي أن يكون رسوله إلى «الصوابر» جميعًا، لكنه قال: بعضهم يعيش معنا في القرية، وهناك مَن تشتتوا في البلاد.

وضع «سالم» كفيه على منكبي «ربيع»، وداس عليهما، ثم قال في ثقة: لا يتوه مَن يسأل.

- أتقصد..؟

- نعم، نجمعهم من البلاد. أنا في حاجة شديدة إليهم.

وحتى يطمئنه، سأله: هل سمعت عن أفضال أبيك على الناس؟

مصمص شفتيه، وقال: ضعنا جميعًا من بعده.

ابتسم، وقال: اعتبرني مكانه. ما أنا فيه هو له، وكما كان ماله للصوابر في الزمن البعيد، يكون لهم الآن، ولأولادهم وأحفادهم من بعد.

جمع «ربيع» مَن تبقوا من رجال «الصوابر» في بيت «بديعة»، وشاورهم في الأمر، لكن أحدهم قال: هل مكتوب علينا الفناء من هذا المكان؟

نظر «ربيع» في وجوههم، وقال: البقاء مع الذل أوعر من الغربة.

ثم أردف، وهو يطيل النظر في عيون الرجال: لن تكون غربة لأن أخي يعرف كيف يعيد أهله إلى سابق مكانتهم.

عرضوا ما تبقى من أراضيهم وبيوتهم للبيع، فاشترى «درويش» ما استملحه فيها، واشترى النصارى ما تبقى، وآلت بعض الأفدنة إلى «آل بخيت». أما «بديعة» فجمعت ما ادخرته واشترت فدانًا من الأرض قريبًا من الزاوية، وقالت: اذهبوا، أما أنا فسأبقى مع أهلي.

(4)

دخل الصوابر «الحجاني» عند الظهر. كان «سالم» في استقبالهم عند باب الحديقة، فاصطحبهم إلى قصره. بعد الغداء، الذي ذبح لأجله عجلي بقر، أخذهم إلى السطح. وقف أمامهم، وغمس إصبعه في البعيد، وقال: هذه أرض التزامي.

دار مكانه، غامسًا إصبعه في كل اتجاه، فلمَّا صار قبالة «الحجاني»، قال: أوصيت الخولي بإخلاء بعض البيوت، إلى أن نبني لكم دورًا جديدة.

حين أشرقت شمس اليوم التالي، كان البناءون يتتابعون إلى القصر، منتظرين أمر «سالم»، فقال لهم: اخترت قطعة أرض ملاصقة لـ «الحجاني» سنبني فيها ثلاثين بيتًا.

مَن لم يرضَ أن يحل بديار غريبة، ضرب «سالم» له خيمة على مقربة من قصره، يعيش فيها مؤقتًا حتى يجهز بيته. في اليوم التالي حملت المراكب الأحجار من البر الشرقي. انهمك الفلاحون يصبون قوالب الطوب النيء. ذهبت جِمال إلى «المنيا» و«سمالوط» لشراء الأواني والخشب. انخرط النجارون يعدون الأسِرَّة والخزائن والطاولات. لم يمر سوى شهرين حتى كانت بيوت «الصوابر» جاهزة، فانتقلوا إليها، متطلعين إلى عهد جديد في كنف ابن سيدهم.

شرع «سالم» في بناء قصر جديد له على الطرف الشمالي للجنينة، اختار له بقعة كانت خالية، حتى لا ينقص من أشجار الفاكهة شيئًا. فلمَّا انتهى انتقل إليه مع زوجته «مباهج» وابنيه «عطاء الله» و«سعد الله»، وترك القصر القديم لـ «ربيع».

بنى زاوية فوق تلة ترى النيل، وأسكنها واحدًا من المجاذيب جاء ذات يوم إلى «الحجاني» يضرب على صدره بحجر صلد، ويطلق الأدعية والابتهالات، وهو يقول: أبو حجر المدد.. سيدي سيدي المدد.

كان «سالم» يختلي إليه ساعة من كل نهار، ينصت إلى أقواله الغريبة. استمع منه كثيرًا، وكان يقول كلامًا لا تعرف إن كان جدًّا أم هذيانًا، فيشرد فيه طويلًا، ويقول: أسرار الكون لا تنتهي.

قام الرجل فجأة، ثم قال: شيخي دعاني، ولا أقدر على معصيته. وجال ببصره في أرجاء الزاوية، وقال: مكان يصلح لاعتكاف رجل واحد من نسل المجاذيب. ورفع خُرجه فوق عصاه، والتقط الحجر الذي كان ساكنًا إلى جواره، وقال: دعني أرحل. طلب منه أن يهديه دعوة صالحة قبل أن يرحل، فقال: كفاك الله شر مَن آويت.

فطن «سالم» إلى أنه يقصد «ربيع»، ففكر في طريقة لإصلاح حاله، وقال لنفسه: «قد يستقيم مَن يعول». واختلى بـ«ربيع» في اليوم التالي، وسأله في ود: ألم يحن وقت إتمام نصف دينك؟

رد في اقتضاب: اعتدت الوحدة.

ثم عدل عن قراره، وتزوج من ابنة أحد «الصوابر» اسمها «مكاسب»، وأنجب منها في خمس سنوات فقط «مالك» و«خليل» و«زينب». أسند إليه «سالم» مسؤولية الجنينة، فكان يتجول فيها آخر النهار. يقضي الليل مع خمره وحشيشه، بصحبة ثلاثة رجال من أبناء «الحجاني»، ويستيقظ متكاسلًا، يلقي نظرات سريعة على ما قام به الرجال منذ البكور وحتى بعد الظهر، ويعود غير عابئ بما يجري.

ضاقت به زوجته فذهبت إلى «سالم»، وقالت: تعبت من حض أخيك على الاستقامة.

وكان قد تعب من قبلها في أن يثنيه عما يفعل، لا سيما بعد تراجع إيراد الجنينة في السنوات الأخيرة، فكان ينفجر فيه قائلًا: مال أبي، وأنا حر فيه.

صرخ في وجهه هذه المرة: ما أنت فيه نبت من مال أبيك، لكن الرجل الذي ربني زاده، وجئت أنا لأضيف إليه أرضًا جديدة، يجب أن نزيدها لأولادنا.

نظر إليه في استهانة، وقال: لي نصفه حسب الشرع، ويكفي أنك كنت مُنعَّمًا هنا بينما أنا هناك أعافر ضيقًا لا ينتهي.

اقترب منه، وقال له بصوت حاسم: استهتارك ضيَّع كل شيء في «الصابرية»، بل ضيَّع اسمها، ولن أدعك تُفني ما بقي من إرث أبينا.

جمع «الصوابر» ليشهدوا عليه، فجاءوا يرجون «سالم» أن يعطيه فرصة أخرى، فاستجاب لهم. لكن «ربيع» لم يرجع إلى صوابه، استمر في معاملة الفلاحين بقسوة، ولم يُحسن عِشرة زوجته فعادت إلى بيت أبيها مع أبنائها.

فاتح «سالم» أهله في أمر «ربيع»، فقالوا له: لا يلومك أحد إن ألزمته حده.

لكنه كان قد اهتدى إلى الاستعانة بـ«بديعة»، فأرسل إليها «بسخرون» يستدعيها، ولو في زيارة قصيرة، فأتت ذات مساء. اصطحبها شيخ الخفر إلى قصر «سالم»، فباتت ليلتها، وفي الصباح انفرد بها، وقال: لا يعرف عيب أخي أكثر منكِ في هذه الدنيا.

زفرت في أسى، وقالت: أعرف أنه يثير المتاعب، لكنه أخوك، والظفر لا يخرج من اللحم.

اقترب منها، وقال متوسلًا: أرجوكِ يا خالة، ابقي هنا، إن لم يكن من أجلي، فمن أجل ابنك وأحفادك.

فكرت قليلًا، وقالت: وبيتي هناك؟

همت أن تنطق باسم «الجابرية»، لكنها بلعت الكلمة حزينة، وقالت: لا يزال قبر أبيك هناك.

ابتسم، وقال: قبر أبي وبيتك نداء دائم يدعونا إلى استعادة ما كان لنا هناك ذات يوم، أتمنى ألا يكون بعيدًا.

تأثرت «بديعة» بما سمعته، فمدت يدها إليه، وقالت: عدني ألا يبقى أبوك في قبره مخذولًا.

ثم فكرت قليلًا، وقالت: سأبقى هنا، وأعمل لأساعدك على تحقيق ما تسعى إليه.

ابتسم، وشد على يدها، وقال: ليتكِ تزرعين هذا الحُلم في نفس «ربيع»، فإن لم يتحقق في أيامنا حمله أولادنا وأحفادنا من بعد.

أبلغها أنه قد حكى لابنيه كل شيء، بعد أن طالهما الوعي، وقبل أن يرسلهما مع مرافق أمين للدراسة في الأزهر، وقال: لتبقى الرغبة في استعادة ما لنا حيَّة.

نظرت إليه في امتنان، وتمنت لو كان هو ابنها، أو كان ابنها مثله، أو يتعلم منه شيئًا. آمنت في هذه اللحظة أن وجودها إلى جوار «سالم» واجب، فقالت له: أريد العودة لآتي بما تبقى معي من مال وذهب.

هز رأسه متعجبًا، فطمأنته: لا تقلق، خبأته في مكان لا يعرفه أحد.

أرسل معها «بسخرون» بصحبة ثلاثة رجال، ورجاها أن تعود سريعًا، فوعدته بهذا، لكنها لم تنسَ أن تقول له: كل ما أريده منك أن تدفنني إلى جوار والدك.

(5)

تموت بعض الأسرار برحيل الذين حفظوها في رؤوسهم فلم تبرحها. بعضها لا يطيق أصحابها عليها صبرًا فيهمسون بها لصديق أو صاحب. في الغالب فإن السر لم يعد سرًّا إن صار بين اثنين. هناك أسرار تُهتك لا بما ينطقه الذين يكتمونها، إنما بسكناتهم وحركاتهم التي يحصيها مَن يراقبونهم ويتعقبونهم بعناية.

لم يكن «درويش» بالرجل الغافل الذي لا يسعى وراء سر رحيل «الصوابر» طواعية عن «الجابرية». سأل في دقة، وتساقطت عنده الأخبار، فعرف وجهتهم. لكنه أراد أن يتأكد أنهم ذاهبون إلى التزام ابن سيدهم في «المنيا» ولن يصعدوا إلى الجبل، ويُكوِّنوا عصابة من الفلاتية تهاجم «الجابرية» بغتة.

أرسل خلفهم شابًّا من «الجوابر» مشهودًا له بالذكاء والفطنة اسمه «أدهم عبد البديع»، فركب النهر مثلهم، لكنه جعل بينه وبينهم مسافة

حتى لا يلاحظونه. فلمَّا نزلوا في مرسى «المنيا» كانت في انتظارهم قافلة من جِمال وبغال وحمير وأحصنة، حملتهم وأشياءهم إلى قصر «سالم». رآهم «أدهم» يدخلون الجنينة. عرف المكان جيدًا.

أهداه ذكاؤه إلى أن يصرف المكاري الذي أجَّره من «المنيا»، واستأجر حمارًا من «الحجاني»، ظل طوال الطريق يسأل صاحبه، الذي كان يمشي خلفه، عن كل شيء، بعد أن وعده بأجر كبير. قدم نفسه للحمَّار على أنه تاجر من «أسيوط» سيأتي في الموسم القادم لشراء فاكهة ومحاصيل. حين سأله الحمَّار عن اسمه، أجابه في ثقة: زين الغنَّامي.

عاد «أدهم» يسعى وراء «بديعة» بتكليف من «درويش»، الذي لم ينسَ أبدًا أن هذه المرأة، التي اشتعل رأسها شيبًا، قد صدته في الزمن البعيد، وكأنه كلب أجرب. فلمَّا عادت لأخذ ما تركته من بقايا مالها، لم يكن في حاجة إلى تعقبها. قاوم رغبة في أن يستدعيها ليخبرها بأنه يعرف وجهتها. حسبها جيدًا، بعد أن انقسم بين إظهار اهتمامه بها بعد جريان كل هذه السنين، وبين ضرورة أن تذهب دون أن تعرف أن «الجوابر» قد عرفوا شيئًا عن التزام «الصوابر» الجديد. كالعادة، غلب عقله قلبه، فتركها تمضي هذه المرة، دون أن يرسل خلفها عسسًا.

(6)

شاركت «بديعة» في تربية أبناء «ربيع» مع زوجته «مكاسب». اختارت الكبير بينهم «مالك» لتسقيه حكمة جده. كان في صباه، فشرب حتى ارتوى. انتبه «سالم» إلى نجابته فأسند إليه مشاركة

«سعيد» في منصب الخولي، فأظهر قدرة فائقة على معرفة أحوال الزرع والحساب.

كان «سالم» قد أوصى أخاه بإرسال ولديه إلى الأزهر، لكنه رفض، وقال: لا أريد لهم غربة عمنا «محفوظ».

لم يُقلع «ربيع» عن عاداته، حتى أكلت الخمر كبده، فسقط في إعياء شديد. في يومه الأخير، وجده «سالم» يقف على باب الزاوية، كان قد نحل واسود وجهه، قام إليه يأخذ يده في شفقة، وأجلسه إلى جانبه، فأتاه صوته واهنًا: خُلقتُ للهزل، وخُلقتَ أنت للجد.

استعاد «سالم» مع سمعه كثيرًا من «عويس»، وقال: كل منا يختار طريقه.

هز «ربيع» رأسه يمنة ويسرة، رافضًا ما سمع، وقال: العِرق دسَّاس، أنت لأبي، وأنا لجدك الكبير.

ابتسم، وقال: أبلغتني أمك أن جدنا من المجاذيب.

أراد أن يقهقه، لكن قدرته خانته، فاكتفى بهز صدره، وعلى شفتيه ابتسامة، وقال: كان غريبًا، زاوج بين الجد والهزل، وهذه قدرة لا يؤتاها رجل نصفه من «آل بخيت».

وطلب «ربيع» من «سالم» أن يؤمه في ركعتين، فنهض فرحًا بما يريده أخوه. قرأ آيات من سورة «يوسف»، وحين قام من السجدة الثانية، وجده لا يزال ساجدًا، فلمَّا انتهى من قراءة التشهد سريعًا، مد يده إليه فوجده قد فارق الحياة.

دُفن «ربيع» إلى جانب «عويس» في طرف الجنينة. أقام له «سالم» سرادقًا كبيرًا، جاءه الناس معزين من كل مكان.

لم يمضِ سوى أسبوع واحد حتى ماتت «بديعة» وقت الغروب، بعد أن اطمأنت على أحفادها في كنف عمهم الكريم الأمين.

احتار «سالم» كيف ينقل جثمانها كل هذه المسافة التي تقطعها المراكب في أسبوع على الأقل، دون أن يفوح منه العفن. أشار عليه المُزيِّن أن تُغمس جثتها تمامًا في صندوق مملوء بالملح، وأن يُحكم إغلاقه، ثم يلف الصندوق بقماش سميك، ويغطيه تمامًا بثوب من الحرير، يربطه جيدًا، حتى لا يتسلل إليه الهواء، فامتثل لما سمعه. طلب من زوجته وزوجة «ربيع» أن يُملحا جثتها على هذا النحو بعد الغُسل، وزاد عليه إفراغ ثلاث زجاجات من العطر على الصندوق من كل جانب. حملته عربة كارو تجرها الخيول إلى النيل. وضعه الرجال في مركب شراعي استأجره «سالم»، ثم جلسوا حول الجثة، وانطلق المركب إلى الجنوب.

كان حزن «سالم» على «بديعة» يطغى على فرحته برؤية مسقط رأسه، وعلى خوفه من لقاء «الجوابر» وجهًا لوجه بعد كل هذه السنين. لكن الحكمة التي كانت تسكن رأس رجل كسر السبعين من عمره، رسمت له معالم الطريق الذي لا بد له من أن يسلكه.

أوقف المركب قبالة «الجابرية»، وطلب من الرجال أن يمدوا السقالات إلى الشاطئ، فلمَّا أنزلوا الصندوق واقفين حوله، أرسل أحدهم إلى «درويش» يستأذنه في الدخول. ما إن أبلغ الرسول «درويش» النبأ، حتى هبَّ واقفًا. سرت في أوصاله رعدة، كادت تخور

لها ساقاه. تحدرت من عينيه دموع، وقال بصوت غارق في الأسى: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ركب فرسته، وأعطى رسول «سالم» مثلها حتى بلغ النهر، وثالثة لابنه «مصطفى». لم يكن يصعب على رجل مثله أن يعرف غريمه بعد كل هذه السنين. رآه جالسًا على حجر مستوٍ جلبه له رجاله، وهم يفترشون الأرض حوله، فترجَّل، ومشى إليه مادًّا يده، وهو يقول: لا أراكم الله مكروهًا في عزيز لديكم.

أمهله قليلًا حتى يشيع الخبر في «الجابرية» فتكون للمرحومة جنازة تليق بها. أرسل «مصطفى» فجمع الناس. جاءوا من البيوت والحقول، يتقدمهم إمام المسجد. فلمَّا وصلوا، قال «درويش»: نقيم صلاة الجنازة عليها هنا. اصطف الفلاحون، يتقدمهم «الجوابر»، فلما فرغوا من الصلاة، طلب «درويش» من «سالم» أن يمتطي فرس رسوله. ركبا أمام الجنازة، حتى بلغوا الزاوية، لتدفن «بديعة» حيث أرادت.

أمر «درويش» البنائين أن يقيموا لها شاهدًا، وقال: كانت سيدة طاهرة عفيفة، يليق بها مجاورة الصالحين.

وارى جثمان «بديعة» الثرى، وجلس الغريمان يقرآن الفاتحة على روحها، ثم انتقلا لقراءتها مرة أخرى عند قبري «الصابر» و«الجابر»، فلمَّا فرغا، قال «سالم» لـ «درويش» بصوت غارق في الرجاء: لي طلب عندك يا سيد «درويش».

رفع رأسه إليه منتظرًا ما يسمعه، فقال: يبقى بيت «بديعة» كما هو، فربما أراد أحفادها زيارته.

هز رأسه موافقًا، فلاحقه بالطلب الثاني: أريد أن أجلس ولو قليلًا في قصرك الذي كان لأبي.

سكت «درويش» برهة، ولم يكن يتوقع الطلب، وقال: تحل فيه ضيفًا مع رجالك حتى يزول التعب، فليس من المناسب أن تقطعا الطريق صدًّا ردًّا.

وكان القصر خاليًا، إلا من ثلاثة خدم وجاريتين، يذهب إليه «درويش» مرة واحدة في الأسبوع، لينام في مخدع «بديعة» كشيخ طاعن في السن. دخله «سالم» ورجاله، وجلسوا في البهو. جيء لهم بالماء البارد والقرفة، وانخرط الطبَّاخون، الذين جلبهم «درويش» من قصره الآخر، في إعداد الطعام.

كانت «بديعة» قد وصفت القصر جيدًا لـ «سالم» حتى جعلته يراه. ترك رجاله، وراح يتجول في أروقته. دخل غرفة أبيه، يتشمم رائحته. سمع صوت «مسعدة»، الذي لم يستقر أبدًا في ذاكرته، لكن صوت أمه وأبيه كان أوضح. شعر بأنهما يريانه، بل يراهما. وجد نفسه يفتح صدره، لتطل الكف الحمراء، ومدها في كل اتجاه ليعرفاه، وتمنى لو دخلا عليه من الباب واحتضناه بشوق جارف، ثم أوصياه بأن يعود.

أراد «الصوابر» الذين كانوا بصحبة «سالم» أن يتجولوا في القرية فأذن لهم «درويش» على مضض. أرسل معهم خفره. غبَّروا أقدامهم

في تراب شوارعها. ذهب كل منهم إلى داره التي خرج منها، وقف أمامها، واستأذن صاحبها الجديد في الدخول، فأذن له، وأعطاه حق الضيافة من شراب ومصافحة وابتسامات. انطلقوا على الجسر العالي الذي أقامه «الصابر»، وراحوا يشيرون إلى أراضيهم التي راحت، فرفع الفلاحون إليهم أيديهم مرحبين.

في اليوم الثالث، أرسل «سالم» إلى «درويش» مستئذنًا في الانصراف، فأتى إليه على فرسه مسرعًا. ترجل وسأله: لِمَ تتعجل الرجوع؟

ابتسم، وهو يشد على يده، وقال: كرمك معي دَين في عنقي.

لم يكن يدري وقتها أن روح «بديعة» التي سكنت «درويش» في الزمن البعيد، هي مَن جعلته يلين هكذا، حتى تعجب «الجوابر» مما جرى لسيدهم، وضرب بعضهم كفًّا بكف، وقالوا: لله في خلقه شؤون.

(7)

ظل «سالم» في رحلة العودة واجمًا أغلب الوقت. نعم لم يكن قلبه قبل المجيء إلى «الجابرية» مملوءًا بحنق الثأر وحقده، لكنه كان مشغولًا بالعودة إلى الديار التي خطفه منها أحد رجال «الجوابر»، وحرم أبوه منه حتى مات حزينًا على ضياعه.

ها هو قد عاد، وجلس ونام في قصر أبيه، وقرأ الفاتحة أمام قبره، لكنها عودة الضيف أو عابر السبيل. سأل نفسه بصوت تناهى إلى سمع مَن حوله: هل في العمر بقية لعودة انتظرتها؟

تبادل الرجال النظرات، لكن أحدًا منهم لم ينطق، وإن كان قد وصلهم ما يحل في نفس سيدهم من هموم، أرجعوها إلى حزنه على فراق امرأة كان يعتبرها بمنزلة أمه الثالثة.

لم يمضِ سوى شهر واحد، حتى شعر «سالم» ذات ليلة بثقل في صدره. طلب من الخدم أن يسندوه إلى مخدعه. تمدد وأمرهم بالانصراف. جاءت «مباهج» ملهوفة حين أبلغها الخدم. نظر إليها، وسأل: ما رأيكِ في «مكاسب»؟

أجابت على الفور: أختي التي لم تلدها أمي.

هز رأسه، وقال: الحمد لله.

ثم أخذ يدها في يده، وقال: إن كان «ربيع» مستهترًا فقد وهبنا الله من صلبه رجلًا يُعتمد عليه.

أمَّنت على كلامه، وقالت: أخ لولديك، وبينهم محبة غامرة.

سكت برهة، وقال: تمنيت لو كان «عطا الله» و«سعد الله» هنا، لكن المحروسة أخذتهما كما أخذت عمي.

ابتسمت، وقالت: طلبا العلم ونالاه، ولا ينقصهما إلا زوجتين صالحتين.

تاه قليلًا، ووضع يده على صدره، وقال لها: أريد الذهاب إلى الزاوية.

جفلت من طلبه، وقالت: لتسترح الليلة، ولتذهب إليها عند الفجر.

لكنه ألح في طلبه، فأرسلت إلى «سعيد» و«مالك» فأتيا مسرعَين. اصطحباه إلى الزاوية. أجلساه برفق، وأسندا ظهره إلى الجدار. صمت قليلًا، وقال لـ «سعيد»: لم يترك أبوك أبي «عويس»، فلا تترك أنت ابنيَّ، وارعَ الأرض مع «مالك».

جزع «سعيد»، وقال: أمدَّ الله في عمرك يا سيدنا، لنجتمع في وجودك على الخير والبركة.

وتلقف يد «مالك»، وداس عليها، بكل ما أوتي من قوة، وقال: لا تنسَ وصية جدتك.

هز رأسه، وقال: كل «الصوابر» لا يمكنهم نسيان وصيتها.

وغام وجها «سعيد» و«مالك» في عينَي «سالم»، ونطق الشهادة، ثم أسلم روحه لبارئها.

(8)

حسبت «مباهج» أن ابنيها قد صارا عالمين كبيرين بالأزهر. كانا يهبطان إلى قرية «الحجاني» مرتين في السنة، يرتديان قفطان الأزهر وعمامته، فلم يكن لمثلها أن ترى أبعد من هذا المظهر الجليل في نفسها. أما الحقيقة فكان لها شأن آخر.

برع «سعد الله» في تلقي العلوم، وشهد له شيوخه بالنبوغ، وكان بعضهم يترك له عموده بعض الوقت ليُعلِّم مَن هم في مثل سنه. أما «عطا الله» فلم يكن يُحسن الحفظ والفهم، ولم يتقدم إلى حيث بلغ أخوه.

لكن «سعد الله» لم يكشف أمر أخيه أمام أبيه وأمه، وكانا يقتسمان ما يحصلان عليه من نقود كلما هبطا إلى القرية، أو جاء إليهما رسول أبيهم بالزاد والمال. فلمَّا مات «سالم»، اختلى «سعد الله» بأخيه، وقال: الأرض تحتاج إلى مَن يرعاها.

صمت «عطا الله» برهة، وقال: البركة في ابن عمك.

لكن «سعد الله» رفض أن يعيشا عالة على مَن يكدح نهارًا وليلًا، فقال متوددًا لأخيه: داريت حالك، لكن أجد نفسي الآن في حِل من الكتمان.

أبلغ أمه بما انتهى إليه وأخيه في طلب العلم، فأسفت لحال «عطا الله»، لكنه قال: شاء الله أن يكون له مسار لا يقل خيرًا عن طلب العلم، وما حصله في الأزهر من القراءة والكتابة والحساب، يُعينه على العمل هنا، ويُميزه عن كثير من أصحاب الالتزام.

اقتنع «عطا الله» بالبقاء في «الحجاني»، لا سيما بعد أن رأى «زينب» ابنة عمه في هيئة بالغة الجمال. أخذت من «بديعة» استدارتها وليونتها وعينيها الخضراوين، وأخذت من أمها حلاوة الملامح، وبياض البشرة.

تزوج «عطا الله» من «زينب»، وأنجب منها «فالح» و«رفيدة». أما «سعد الله» فقد راقت له فتاة من «الجمالية» فتزوجها، وأنجب منها «محمد» و«خديجة»، بعد أن سكن بيتًا واسعًا بجوار الأزهر.

وتزوج «مالك» من ابنة أحد «الصوابر»، فسعدت كثيرًا بانتقالها إلى القصر، وأنجبت ولدًا سماه أبوه «عبد الرحمن».

مضت الأحوال طيبة. يتعاون «مالك» و«عطا الله» في الإشراف على الالتزام. تتعزز مكانة «سعد الله» بين أهل العلم، حتى صار له عموده، وكم كان يسعده أن يقول له أكبر العلماء سنًّا في الأزهر: تعلمت طفلًا على يد جدك «محفوظ».. لحقت به في سنته الأخيرة، كان عالمًا متبحرًا، ورجلًا متواضعًا أصيل الحسب والنسب، يجري الخير بين يديه، والعلم على لسانه.

حرص «سعد الله» في إحدى زياراته إلى «الحجاني» على توسيع المسجد القديم. أقام فوق سطحه كُتابًا لتحفيظ أطفال القرية القرآن الكريم، وتعليمهم مبادئ الحساب والفقه. استقدم لهذه المهمة شيخين من «المنيا»، أحدهما كان من مريدي «الفولي»، وأقنعهما بالبقاء في القرية حتى يكونا قريبين من تلاميذ العلم. اشترك «عطا الله» و«مالك» في بناء بيتين لأسرتيهما. وبنى «مالك» إلى جوار المسجد حوض مياه من الحجر، طُليت جدرانه الخارجية بالجص، وجعل له سقفًا من الخشب، إلا من فتحة لها غطاء من حديد. جعل عشرة رجال ينقطعون لملئه من النيل. اشترى لهم عربة كارو يجرها بغل عفي، فكانوا يقضون النهار في حمل المياه، لتأخذ كل امرأة إلى بيتها منه ما تشاء، بعد تعبهن الطويل في السقاية، حين كانت الواحدة منهن تتردد غير مرة كل يوم على النهر لتملأ بلاصها، وتسكبه في زير يقف في مدخل البيت.

كما بنى «مالك» سورًا من الحجر في الجهة الشرقية لأرض الالتزام حتى يحميها من الفيضان إن أتى، وقال بعد أن انتهى البناءون من عملهم: هو بديل للجسر العالي الذي أقامه جدنا «غنوم الصابر» ذات يوم بعيد.

(9)

لم يمضِ على زيارة «سالم» لقرية «الجابرية» سوى شهر واحد، حتى مات «درويش» في الخريف، وسار الناس وراء جنازته يكتمون البهجة في صدورهم، وقبلوا على مضض دفنه في قبر إلى جوار أبيه «إبراهيم». وآل الالتزام إلى «مصطفى»، وكان عربيدًا أشد قسوة من أبيه، فأذاق الفلاحين طعم الظلم والقهر أضعافًا مضاعفة. حتى أهله من «الجوابر» لم يسلموا من صلفه وطول لسانه.

اشترى ثلاث جوارٍ من سوق الجلَّابة، كن حسناوات قادمات من بلاد القوقاز، وهجر زوجتيه اللتين فعلتا كل شيء في سبيل إنجاب ولد، لكن سعيهما خاب. كانت الأولى منهما قد أنجبت «جواهر»، ثم انقطع خلفها. أما الثانية فلم تحمل قط. وعبثًا حاولتا دفعه إلى العطارين لعله يجد لديهم ما تطلبان، لكنه أبى، وقال للأولى: لا يعيبني شيء، وابنتي خير برهان، اللهم إلا إذا كانت ابنة حرام.

صرخت في وجهه: اخرس، أنا أشرف من الشرف نفسه.

لطمها على وجهها، وقال: لا يعيب الرجل سوى عجزه عن وطء النساء.

غرق في الملذات ليل نهار، وأجزل العطاء للسنجق، وانتظم في إرسال الحلوان كل سنة إلى «ديوان الالتزام». حمَّل كل هذا على عاتق الفلاحين، الذين كانوا يعرقون في الأرض بلا هوادة، في سبيل أن يوفروا ما يملأ بطونهم طعامًا خشنًا.

فـر بعـض الفلاحين مـن «الجابريـة» باحثين عن ملتـزم آخر، لكن «مصطفـى» جلب غيرهم من بلدان مجـاورة، وكانوا أجراء بلا أرض، فرضوا بما وجدوه صابرين.

لـم يعبـأ «مصطفى» بتآكل الجسـر العالي من أطرافه، ومن ممشـاه العلـوي، بعـد أن كنسـت الريـح كثيرًا مـن ترابـه. فلما جـاء الفيضان غزيرًا، اعتلى الجسـر. وعبثًا حاول الفلاحون أن يزموا الماء بعيدًا عن زروعهم فغرقت قبيل حصادها، لكن «مصطفى» لم يرحمهم. ألزمهم بأن يؤدوا ما عليهم كاملًا. لم يُنصت إلى استرحامهم الممزوج بالبكاء والانكسـار، فاضطروا إلى بيع مواشيهم وأغنامهم وحميرهم. مَن كان قد اشترى قطعة حُلي لزوجته استردها وباعها.

كانـوا يعولون على انحسـار المـاء، لتعود الأرض عفية بما شـربته مـن طمي، فيجـدوا عوضًا في موسـم الحصاد الجديد. انحسـر الماء شـرق الجسر، وعاد إلى مجرى النهر المعتاد. أما غربه فقد ركد. صده الجسر، وصار بركًا آسنة، تسكنها الضفادع والبعوض والذباب.

لم يجدوا سبيلًا لرد الماء الراكد إلى النهر سوى قطع الجسر. مزقوه في أماكن كثيرة، تتوالى على قدر طول أرض الالتزام. صنعوا زحافات مـن الجريد، ربطوها فوق ظهورهم، وراحـوا يدلونها حتى تحط فوق الطين ثم سحبوا الماء والطمي الذائب فيه إلى الشرق.

قضوا شـهرًا كاملًا يكدحون نهارًا وليلًا حتى انجلى وجه الأرض. حيـن عـادوا إلـى زراعتها نبـت زرعهـم ضعيفًا هـذه المـرة. كانوا قد باعـوا أغلـب بهائمهم، فلم يعد في حظائرهم سـماد بلدي. لجأوا إلى

«مصطفى» شاكين، فقال لهم: أجلب لكم السماد من قرى مجاورة، وأُقيِّد أثمانه على زرعكم الجديد.

لم يكن أمامهم بد من القبول، فأرهقوا أنفسهم بديون جديدة. حين أدرك بعضهم أن زرعه لن يقدر على سداد ما عليه، أخذ زوجته وأولاده ليلًا، وفر من «الجابرية» دون أن يقف برهة لينظر إلى بيوتها الخفيضة التي تنيخ تحت النخيل.

أدرك «الجوابر» أن ترك الأمر لسيدهم الجديد سيلحقهم بـ«الصوابر»، فاجتمعوا ذات ليلة في دار «عبد البديع»، وكان أكبرهم سنًّا. انتهوا إلى مكاتبة السنجق لينقل الالتزام إلى أحد منهم غير «مصطفى». لكن الأخير قد بلغه ما يعتزمون فعله، فدخل عليهم غاضبًا والخمر تثقل رأسه ولسانه، بصحبة خفره، وقال: اللعنة على الخائنين.

نهض «عبد البديع» متكئًا على عصاه، وقال له في غضب أشد: الخائن هو مَن يُضيِّع أهله.

رد في اشمئزاز: ما يضيعكم سوى التآمر.

مشى «عبد البديع» نحوه وسأله: هل جئت بخفرك لتهديد أهلك؟

قهقه، وقال: لا أحتاج إلى أحد لمواجهة أنصاف الرجال.

اكتسى وجه المجتمعين من «الجوابر» بالغضب. نظروا إلى «عبد البديع» لعله يرد عنهم الإهانة، فلم يجد سبيلًا إلى هذا سوى البصق على وجه «مصطفى». وقبل أن يهم الرجال ليحولوا بينهما، كان

«مصطفى» قد أخرج خنجره ودقه في صدر «عبد البديع» فسقط وسط دمه في سرعة خاطفة، وسط ذهول الجميع.

وقف الخفر عاجزين، لا يدرون ما يفعلون، وبنادقهم معلقة في أكتافهم، فصرخ فيهم أحد «الجوابر»: اخرجوا، وإلا صار ثأرنا معكم.

ارتبكوا، ونظروا إلى «مصطفى»، الذي كان يقف مذهولًا، لا يدري كيف فعل هذا، وخرجوا تباعًا. وبينما كانت عينا «مصطفى» تحطان على بقعة الدم التي تنداح تحت الجثة الهامدة، ويده ترتعش، هجم عليه ثلاثة رجال، وجردوه من سلاحه. نزع رابع كوفيته، وهمَّ أن يربط يديه من خلاف، لكن «مصطفى» كان قد عاد من ذهوله، فأخذ يقاوم، وهو يسب ويعلن ويبصق. تكاثر الرجال عليه، وربطوا يديه وقدميه، وألقوا به في ركن المجلس.

تركوه مكانه في حراسة رجال منهم. حملوا جثة «عبد البديع» لغسله ودفنه، فلمَّا فرغوا من هذا، عادوا ليجدوا «مصطفى» يرغي ويزبد، ويمد أذنيه ليسمع تشاور الرجال حول مصيره. منهم مَن قال: القاتل يُقتل.

لكن أحدهم قال: لا تنسوا أنه منا، ولا نريد أن يُقال إن «الجوابر» قد قتلوا رجلًا منهم، كان كبيرهم.

انتهوا إلى طرده من «الجابرية»، فإن حاول العودة إليها يُقتل، فوافق على هذا الحُكم، واشترط أن يخرج بزوجتيه وجواريه وماله. جاءه

الرد من الرجال بعد تشاورهم ثانية: لك نساؤك، ولنا مالك، نُصلح به الأرض التي أفسدها إهمالك وظُلمك.

لكن أحدهم، قال: لا تنسوا أن زوجتيه وابنته منا، ومن العار أن نجعلهم يمدون أيديهم إلى الناس.

جردوا ما بحوزته من نقود وذهب، وأعطوه الخُمس، وسألوه عن الوجهة التي يريدها، فقال على الفور: المحروسة.

تبادلوا النظرات مستغربين من اختياره، فقال لهم: قاتل ظالم مثلي يحتاج في أيامه الأخيرة إلى مجاورة سيدنا الحسين.

(10)

استقبلت «القاهرة» في صبح يوم غائم «مصطفى» وزوجتيه وابنته وجواريه. استأجر بيتًا خلف مسجد «الحسين»، لم يكن يسعه وكل هؤلاء النسوة، فاصطحب جواريه في اليوم التالي إلى سوق الجلَّابة، فباع لمَن دفع، وعاد يفكر كيف يدبر عيشه في قابل أيامه بما تبقى له من مال.

جمع زوجتيه ذات صباح، ليطلعهما على ما فكر فيه، وقال: لا أعرف كيف تمضي بنا حياة ضيقة لم نعتدها.

قالت الأولى، وهي أم البنت: لم تشكُ إحدانا سوء العيش.

أطرق برهة، وقال: أقدر الضيق الذي حلَّ بنا، ولا أحتاج إلى شكوى.

واستفهما منه عما يريد فعله، فقال: رحلة واحدة، إما أصابت أو خابت.

ركب النهر ليلًا إلى الصعيد الجواني. هبط من المركب، واستأجر فرسًا، ركبه إلى قصر السنجق، الذي ما إن رآه، حتى سأله: هل أنت قادم من «الجابرية»؟

أجابه بعينين كسيرتين: لا بد أنه قد بلغك أنهم سيقتلونني إن غُبرت قدماي بتراب أي شارع منها.

رفت ابتسامة فاترة على شفتي السنجق، وقال: إذا كان الأمر كذلك، فماذا بوسعي أن أفعل لك؟

قال وهو يتودد إليه: عشمي أن تسندني.

سكت برهة، وسأله: ماذا تريد؟

قال باستجداء: يعيدني جنودك إلى قصري، وأتسلم التزامي، ولك الحلوان.

هز السنجق رأسه، وقال في جدية: فات الأوان.

وعبثًا حاول أن يقنعه، لكن السنجق كان قد رتب الأمر مع «الجوابر»، وحصل على حلوان كبير، ولم يجد ما يقوله له سوى ما أطلق الفزع أكثر في أوصال «مصطفى»: بوسعك أن تدخل المزاد القادم، فإن رسا عليك، مكنتك من العودة.

عـاد «مصطفـى» إلـى المحروسـة خائبًـا، فمـا تبقـى معه مـن مال لا يكفي لدخول المزاد، ولا يعرف سـبيلًا لإكمال ما ينقص، فليس له في «المحروسة» أهل، ولا أحد من ملتزمي المناطق المجاورة لقريته، التي طُرد منها، سيقرضه فيخسر «الجوابر»، وقد يُغضب السنجق.

آل الالتزام إلى «أدهم عبد البديع»، وكان أقدر رجل في «الجوابر» على إدارة شـؤون الزراعة، كما رأى أهله أن هذا يعوضه عن قتل أبيه. اعتمد السنجق «علي بن برقوق» اختيارهم، على أن يدخل مَن اختاروه مزاد السنة القادمة.

(11)

كان «أدهم» عند حسـن ظن «الجوابـر»، فأقبل على إصلاح أرض الالتـزام مـن المال الذي صـادروه من «مصطفى». طلب من المسَّـاح أن يعيـد قيـاس الأرض بعد أن ذوَّب الماء حدودها، ليعرف كل مزارع أرضه. أعاد ترميم الجسر وتعليته، ليتقي هجوم الفيضان القادم.

بعد انقضاء موسـم الحصاد، وتسـليم مخصصـات الالتزام، جمع الفلاحيـن، وقـال لهـم: لا بـد من عمـران بيوتكـم الخاويـة. فتطلعوا إليـه فرحين، وظن كل منهم أنه سـيفتح الشـونة ليعطيهم بعض ما فيها مـن غلة، كمـا عرفوا عـن «غنـوم الصابـر»، وتناقلته الحكايـات فوق المصاطـب، لكنه كان أبعد نظرًا، فاشـترى لكل فـلاح عجلة جاموس يربيهـا، على أن يكون للفـلاح الثلثين وللملتزم الثلـث من بيع وليدها حيـن يكبـر. قال لهم: لا يبـدد أي منكم ثلثيه، بل يشـتري بـه نعجة أو عنزة. لم تمضِ سوى خمس سنوات، حتى عمرت البيوت بالضأن.

بنى «أدهم» مسجدًا جديدًا، بعد أن اشتكى الناس من تداعي جدران مسجدهم القديم. عمَّر الزاوية، التي كان ينقطع للعبادة فيها مجذوب جديد اسمه «مبارك البقلي»، يقال إنه كان يجاور مسجد «أبي حسن الشاذلي» في «عيذاب».

(12)

لم يُغيِّر «مصطفى» عاداته، وإن كان قد قلل مرات الشراب. عرف الحانات الرخيصة التي تقدم البوظة، فكان يعب ثلاث قرعات حتى يسكر، ويعود إلى بيته مترنحًا. نبهته زوجتاه مرارًا إلى أن المال يقل مع الأيام، ولا يعرفان كيف تمضي بهما الحياة إن نفد.

قالت له أم «جواهر»: بنتك صارت عروسًا، ولن يتقدم إليها مَن يراك سكيرًا معدمًا.

ترك البيت في عصر يوم ثلاثاء، ودخل مسجد «الحسين»، فوجد جمعًا من المريدين، يجلسون في صفين متقابلين، وبينهما رجل بهي الطلعة اسمه «أبو العينين» يقرأ من كتاب وردًا. وقف على الحافة ينظر إليهم، فقال له الرجل: تعالَ.

مد الرجل يده، فسار «مصطفى» نحوه، ثم أشار إليه أن يجلس في الصف الأيمن، فأفسح له الرجال مكانًا. كانوا يرددون ما لا يعرفه مع الشيخ، فحرك شفتيه كأنه ينطق مثلهم. لم يكن يعرف معنى كل ما يسمع، لكنه شعر به يسري في أوصاله، ففاضت عيناه بالدمع. فلمَّا أشار الشيخ إلى الجالسين أن ينهضوا نهض معهم، وبدأت الحضرة.

راح يتطوح يمنة ويسرة، وهو يردد: «الله حي.. الله حي»، حتى انخطف، فلم يعد يدري أين هو!

بعد انقضاء الحضرة، استمهله الشيخ، وانفرد به، وقال: باب الله مفتوح دومًا، لا يُغلق في وجه مَن يطرقه.

أجهش بالبكاء، وقال: دمي خمر يا مولانا.

ابتسم الشيخ، وقال: ابقَ معنا، لتسكر بلا خمر.

اعتاد الذهاب إلى الحضرة، وتراجعت مرات زيارته للحانة، حتى جفل منها. ذات يوم سأله الشيخ: هل تريد ملازمتنا؟

تهلل وجهه فرحًا، وقال: طبعًا يا مولانا.

شد على يده، وقال: لسنا مقطوعين للذكر، إنما انقطاعنا أكثر للذكر الأكبر.

نظر إليه مستفهمًا، فواصل الشيخ: الكد فوق الذِّكر.

طأطأ رأسه خجلًا، وأدرك أن الشيخ يعرف ما هو فيه، فقال بصوت خفيض: مالي نفد، وورائي مَن أعول.

ألحقه «أبو العينين» بدكان عطارة يملكه أحد مريديه، فواظب على العمل، دون أن يحرم نفسه من مرة واحدة كل شهر يذهب فيها إلى الحانة. ذات مرة كان خارجًا منها يترنح فتحرش به صبية كانوا ساهرين على ناصية الحارة. عبثوا به كأنه لعبة رخيصة، وزفوه حتى بلغ بيته.

نظرت ابنته من وراء المشربية فرأته ألعوبة تتهاوى في غبشة الفجر بين أيدي العابثين. فلمَّا صعد إلى البيت، قابلته في الصالة، وقالت له وهي تغالب البكاء: حين تفيق لي معك عتاب.

وكان نصف الخمر قد طار من رأسه والصبية يتجاذبونه، فقال لها: هاتي ما عندك.

أطارت النصف الآخر حين فجعته: إن لم تقلع عما أنت فيه سأترك البيت.

قال لها مستعطفًا: احتاج أحيانًا إلى نسيان ما كان.

لكنها ضربته بالسيف الذي لا مرد لحكمه، فقالت: عهدتك رجلًا، والرجال لا ينكسرون.

غاص في نفسه حزينًا، وقال: أعاهدكِ على أن تري مني ما تفخرين به.

كان قد ادخر بعض المال من عمله في دكان العطار، فأولم للشيخ وبعض مريديه. جاءوا بعد صلاة العشاء، أكلوا وأقاموا حضرة في صالة البيت. حين انتهوا مد الشيخ يده وأخذ يد «مصطفى»، وقال: الآن تعاهدني.

قرأ خلفه العهد، وأقسم ألا يخونه، فطلَّق حياة الماضي إلى غير رجعة، وانخرط في العمل والذكر، متساميًا على الأحقاد التي كانت تغزوه بين حين وآخر، كلما تذكر أيام أن كان وجيهًا مقتدرًا في قلب التزامه.

كان يعمل معه في دكان العطارة شاب من مريدي الشيخ اسمه «حمزة»، رأى «جواهر» ذات مرة حين أتت إليه تطلب المُغات والمرمية لأمها التي تشكو وجعًا في بطنها. كان وجهها مختبئًا خلف البرقع، الذي أظهر جمال عينيها، لكنها حين مالت لتلتقط قرطاس نعناع سقط من يد أبيها على الأرض، لمح كامل وجهها، فراق له حُسنها. لم يمر سوى أسبوع حتى ذهب إلى بيت «مصطفى» خاطبًا ابنته. بارك الشيخ الخطبة، التي استمرت شهرين فقط، بعدها انتقلت «جواهر» إلى بيت زوجها. سعد «مصطفى» بزواج ابنته، وقال لزوجتيه: خفتما أن يحرمها عبثي من زوج صالح.

قالت أم «جواهر»: أرسلك الله إلى الشيخ في الوقت المناسب.

سعد «مصطفى» أكثر بحفيدته «فردوس»، فكان يقضي معها أول الليل يلاعبها، ثم يهجع إلى مخدعه ليستيقظ في البكور إلى دكان العطارة. تاق إلى أن تنجب ابنته ولدًا، وفق عادة تربى عليها، لكن أجله انقضى دون أن يرى غير البنت، وهي تكبر أمامه، ويستدير جسدها على نحو غاية في اللطف والليونة.

عاشت أم بنته بعده عامًا، ثم ماتت يوم جمعة من شهر رمضان. فرغت الدار على زوجته الثانية، لكن «جواهر» عرضت عليها أن تنتقل للعيش معها، فوافقت. تولت رعاية «فردوس»، تنقل إلى رأسها ما رسخ في ذهنها وقلبها من حكمة، فأنضجتها قبل الأوان فتاة عارفة بتصاريف الحياة، ثم ماتت مطمئنة إلى صلاح الزرع الذي غرسته.

(13)

كان بيت «حمزة» يقف ضيقًا خفيضًا إلى جوار بيت «سعد الله»، الذي كان من طابقين فسيح الأرجاء، أمامه فسحة تتوسطها فسقية يندفع منها الماء، وعلى جانبيها أشجار دقن الباشا، تزقزق فوق أغصانها العصافير من الفجر حتى المغرب.

كان يحلو لابن «سعد الله» وبنته، اللعب في الفسحة لاسيما أيام الجمعة، حين تتوقف دروس «محمد» في الأزهر، ولا يأتي محفظ القرآن لـ «خديجة». يوم جمعة خرجت «خديجة» من البيت لتجد «فردوس» واقفة إلى جانب جدار البيت الذي يواجهه، تنظر إلى الفسقية في فرح. نادتها فجاءت إليها، فأدخلتها إلى الفسحة، وقالت لها: قفي هنا، وسأعود إليك.

صعدت إلى أبيها، الذي كان جالسًا فوق أريكة يراجع الدرس الذي سيلقيه غدًا، فاستأذنته في أن تلعب بنت جارهم معها. كان «سعد الله» يعرف «حمزة» مما كانت تقوله الخادمة التي كان يرسلها إليه لشراء بعض العطارة، ورآه مرات في مسجد الحسين ملتحقًا بحضرة الشيخ «أبو العينين»، مغمضًا في خشوع بين الذاكرين.

دخلت «فردوس» إلى بيت «سعد الله»، فدخل «محمد» إلى بيت «حمزة»، وجرت السنوات كعادتها، وأهدت الطفلين فرصة، زادت حين صار هو صبي، وهي فتاة. ومع الأيام قام بينهما رباط وثيق من المحبة.

حين جاء اليوم الذي فاتح فيه «سعد الله» ابنه في أمر زواجه بعد أن أتم دراسته، قال له على الفور: العروس موجودة، وأنت تعرفها.

وعُقد قران «محمد» على «فردوس»، وانتقل بها إلى بيت اشتراه له أبوه في «الغورية».

(14)

تتقلب الأيام بين رخاء وشدة، ويسر وعسر، ومسرات وأحزان. يبتعد القريب، ويقترب البعيد. تظمأ النفوس، وتطلب ارتواء، وكل إنسان يرويها بما يهتدي إليه، أو يلقيه الدهر في طريقه. ينقبض الجبر في كف الاختيار، وينفلت الاختيار من بين أصابع الجبر. يولد من نسل العالم جاهل، ومن نسل الجاهل عالم، والعرق دائمًا دساس.

ينادي منادٍ في جوف الليل البهيم: يا مُقلب القلوب والأبصار ثبتها على محبتك.

لكن قلة من الناس تسمع. أكثرهم ينساقون وراء اللهو والدعة، وينسى الأحفاد ما كان عليه أجدادهم، ويتمنى الأجداد في قبورهم لو عادوا ليأخذوا بأيدي الأحفاد إلى جادة الصواب، لكن منذ متى كانت للموتى عودة؟

(15)

لم يسر «فالح» و«عبد الرحمن» على درب أبيهما بعد أن فارقا الحياة، ونسيا وصايا «مباهج» و«مكاسب» التي ضاعت في بطن سنين طويلة أعقبت موتهما. أما وصايا «بديعة» فلم يعد لها ذكر.

تشاحنت زوجتا «فالح» و«عبد الرحمن». كل منهما تحصي للأخرى حُليَّها وجواريها، وتراقب ما تأكل وتشرب، وتقول لزوجها: أنت تأخذ النصيب الأصغر، وتظلم ذرارينا.

وثرثرة النساء في آذان الرجال أمر من السحر. كان «فالح» و«عبد الرحمن» في البداية يدافع كل منهما عن الآخر. راح الدفاع يخفت مع ازدياد الثرثرة، التي تحولت إلى تحريض صريح، فسكن الحنق القلوب واستقر. كل منهما بدأ يعتقد أن زوجته ترى ما هو لاهٍ عنه، فأخذ ينصت إليها، وهو يخشى أن تراه زوجته عاجزًا عن حماية حقوقه.

تباغض الرجلان صامتَين في البداية. انهمر الحقد فولدت مواجهة صريحة، ظهرت عند استدعاء كل منهما لماسك الحسابات كي يراجعه. قلَّ الحرص على المال المشترك فآثر كل منهما أن يأخذ منه دون حساب، حتى تشابكت الأيدي ذات مساء.

صار صراع القصرين حديث الناس في «الحجاني». سعى كل منهما إلى الانفراد بالالتزام، فلم يجد السنجق طريقة لإنهاء الفتنة سوى اقتسامه بينهما. لم يُحسن أي منهما رعاية ما آل إليه، فقلت غلة الأرض، وهرب فلاحون بعد عجزهم عن الإيفاء بما عليهم.

عرف كل منهما طريق الاستدانة من تجار في المحروسة وأصحاب التزام مجاور، ليلبي الملذات التي غرق فيها مع الجواري، وتدخين الحشيش والأفيون، الذي كان يجلبه لهما «أبو سريع» كبير فلاتية الجبل.

تراكمت الديون حتى عجزا عن سدادها. كل واحد منهما كان يُحمِّل الآخر مسؤولية تراكم الدين. كل منهما يريد للآخر أن يسدد. ألح الدائنون في طلب ما لهم، فأرجأ الرجلان الدفع إلى مواسم الحصاد، جاءت المواسم بلا سداد، فعاد الدائنون إلى إلحاحهم، فصدهم «فالح» و«عبد الرحمن» في صلف وتنطع.

لجأ الدائنون إلى السنجق، وأعطوه رشوة كبيرة، فجاء ذات يوم على رأس تجريدة تضم ثلاثمائة جندي من المماليك مسلحين بالبنادق. دخلوا «الحجاني» عند الضحى، فانتبه إليهم «الصوابر»، وانتظروا ما هم فاعلون. فلمَّا هجموا على الجنينة وأرض الالتزام، حمل «الصوابر» ومَن تضامن معهم من رجال القرية، العصي والبنادق، وهاجموا الجند، فدارت رحى معركة حامية، لم يشهدها الزمام كله من قبل.

قُتل كثير من «الصوابر» وجُرحوا، وقُتل بعض الجند وجرحوا. سقط «عبد الرحمن» صريعًا، وقُبض على «مالك» واقتيد إلى السجن. أقسم الحكمدار ألا يُبقي في «الحجاني» أحدًا من «الصوابر». دار الجند على بيوتهم فقبضوا على مَن وجدوا من رجالهم. بعضهم فر مع أسرته إلى الشمال والجنوب. ما تبقى من النساء والأطفال أُخرجوا من ديارهم، فتفرقوا في البلاد.

أما التزام «مالك» و«عبد الرحمن» فقد آل إلى المملوكي «عليان الطوبجي».

وجاء القوَّال في اليوم التالي. نظر إلى الحديقة وأنشد وهو يكاد يبكي:

راح الوجيه الأصيل سايب وراه الهوايل
يجي زمن العويل يهد شمل العوايل

الفَلَاتيَّة

(1)

لا يفنى نبت بقيت بذرته على قيد الحياة. فحتى لو ذرتها العاصفة في أي اتجاه، تخبئ تحت قشرتها الواهية شجرة وارفة الظلال، تهدي إلى الدنيا أطيب الثمر. تنتظر اللحظة التي تسقط فوقها قطرة ماء، وتغمرها الشمس بالنور والدفء، وتطيب لها النسائم سخيَّة رخيَّة.

كما تنبت شجرة في الأرض العفيَّة، المسكونة بالطمي وعرق الفلاحين، تنبت أخرى في الرمل، بين الصخر الصوان. تعلو وتشاكس الريح، حتى يقف السائرون في القيظ أمامها مندهشين من قدرتها على البقاء في القحل.

(2)

تشتت «الصوابر» في بلاد الناس. كان أغلب مَن بقي منهم نساء. كل واحدة راحت تنظر إلى صغارها، وتنتظر أن تراهم رجالًا من جديد، فتهديهم إلى الغابرين في قبورهم، وتقول لهم بملء فمها: يبقى النسل طالما الأرحام تدفع.

فني الرجال من صلب «رضوان الصابر» بالموت حين حان الأجل، وبالقتل في الأرض يوم المعركة الحامية، أو بمفارقة الحياة في السجن

الطويـل. فأولـو الأمر في المحروسـة التي انتقل الذيـن قُبض عليهم من «الصوابر» إلى أحد سجونها؛ لم يرضوا أبدًا الإفراج عن فلاحين أجهزوا على جند من المماليك، وأرادوا أن يجعلوا القاتلين عبرة لمَن يعتبر.

رجلان فقط من صلب «رضوان» بقيا على قيد الحياة. الأول ابتعد عـن الأرض، وإن كان بعض خيرها يأتيه، واعتمـد على راتبه المنتظم مـن التدريس في الأزهر هو «محمد سـعد الله»، الـذي كان قد اقترب من السـتين، الثاني شاب كان قد سـمع الوصايا من أحفاد «الصوابر»، الذين كانوا يتناقلونها على مصاطب السمر في الصيف، وهو «مهدي» الذي أنجبه «فالح» بعد الأربعين.

فر «مهدي» من «الحجاني» مع أمه «نفيسـة» و«جمال الدين» الذي كان عجـوزًا، يسـاعد في عمل خولي الالتزام بعد موت أبيه «سـعيد». هربوا شـرقًا حتى وصلوا إلى شـاطئ النهر، فقـال «مهدي»: لا أمل لنا في النجاة إلا بعبور النهر، فقد يلحق بنا جند المماليك.

صمتـت الأم، غارقـة في أحزانهـا، بينما قال «جمـال الدين»، وهو يشير إلى الجبل الذي يطل هناك خلف النهر: ركوب النهر إلى الشمال أو الجنوب ليس آمنًا، ولا ينجينا من الموت إلا الجبل.

نظر إليه «مهدي» في اندهاش، وسأل: الجبل؟!

هز «جمال الدين» رأسـه، وأجابه: منذ قرون وهو وحده الأكثر أمنًا من عسس المماليك وبني عثمان، وبنادق جندهم.

قال «مهدي» بصوت يرتعش: ليس معنا زاد ولا قربة ماء.

اغتصب «جمال الدين» ابتسامة من أنياب الوجل والحسرة، وقال: أعرف الطريق، والوصول إلى مَن يوفر لنا الأمان ليس طويلًا.

كان «جمال الدين» قد صعد إلى الجبل مرات مع «أبو سريع»، ليأتي لسيديه «مالك» و«عبد الرحمن» بالأفيون والحشيش، ويعطي الفلاتية هدايا السيدين حتى لا يكريهم مَن يريد إلحاق أذى بأرض الالتزام أو أصحابه.

ساروا على شاطئ النهر مبتعدين، حتى لاح لهم قارب صيد، نادى «مهدي» بأعلى صوته، كما نادى «عويس» في الزمن القديم: عدينا يا معداوي ولك ما تريد.

كانوا لا يملكون إلا ثلاث صُرر من النقود، خطفتها «نفيسة» قبيل هروبها، وما في جيدها ومعصميها من حُلي. جاء القارب سريعًا، فركبوه إلى الشاطئ الشرقي. صعدوا وتوغلوا في شريط ضيق من الزرع، حتى بلغوا الجبل. توقف «جمال الدين»، وقال، وهو يشير إلى الجنوب: هذا نخيل نجع، وهناك نشتري قِربة ماء وطعامًا.

تزودوا للطريق بما يحتاجون، ومشى «مهدي» وأمه على وقع خطوات «جمال الدين» حتى بلغوا مدقًّا، يمزع الصخر نصفين. مضوا فيه ست ساعات، إلى أن لاحت مظاهر حياة، يقيمها الفلاتية. كانت هناك أحصنة واقفة وجِمالًا، وملابس معلقة في حبل ترفرف في الريح السخية. حين اقتربوا انبرى لهم رجل على حصانه، رمح حتى بلغهم، فقال له «جمال الدين»: نحن ضيوف المعلم «أبو سريع».

(3)

باتت «نفيسة» ليلتها في مكان منعزل بالمغارة. في الصباح نادت ابنها فهرع إليها. تلفتت حولها، وسألته: هل تترك أمك بين رجال غرباء؟ اقترب منها، ووضع كفه على كتفها، وهمس: كبيرهم لا ينسى خير أبي، وأبلغني أنكِ أخت الرجال جميعًا هنا. لكنها أبت، وقالت: هؤلاء لصوص لا عهد لهم. رد، وهو ينظر في عينيها مليًّا: أغلبهم هاربون من ظلم بني عثمان والمماليك. صمتت برهة، وقالت: لا أقدر على البقاء. أشعر باختناق رغم وسع الجبل.

عبثًا حاول إقناعها، ولم يكن يعرف كيف يُدبر أمره، حتى قالت له: أنسيت أن لك ابن جد في المحروسة؟

وخرج «مهدي» إلى «أبو سريع»، وقال له: صرنا في مأمن، ولنا أن نذهب.

ابتسم «أبو سريع» فبانت أسنانه السوداء من فرط شرب الكيوف، وقال: واجبي أن أحميك إلى النهاية، وقد يكون الجند الآن في بحث عنك، ولن تكون بعيدًا عن عسسهم حتى ولو في المحروسة، فما جرى في «الحجاني» لا بد أنه قد بلغ الوالي، وكل مَن هو من نسل أبيك وعمك مطلوب للقتل، أو السجن على أحسن حال.

- وأمي؟

- قلت لك إنها أخت الرجال.

لكـن «نفيسـة» تمسـكت بالرحيـل، فقـال «أبـو سـريع»: يصحبها «جمال الدين» إلى المحروسـة، وسأرسـل أحد رجالـي حتى يبلغهما مرسى «سمالوط»، وتبحر من هناك في مركب.

غادرت «نفيسـة» في اليوم التالي، بعـد أن اختلت بابنها في مكانها مـن المغـارة. مـدت إليه صرتيـن من النقـود، وهمـت أن تخلع بعض حُليها، لكنه قال لها: لا أحتاج شيئًا. صرت اليوم واحدًا من الفلاتية.

(4)

حين وصلت «نفيسـة» إلى الأزهر سـألت عن الشيخ «محمد سعد اللـه»، فقيـل لها: تعيشـي أنت. وقفـت محتارة، لا تعرف مـاذا تفعل؟ لكن أحد الشباب قال لها: لا تجزعي يا عمة، سأصحبك إلى بيت ابنه «خير الله» في الغورية.

كان «محمد» قد طُرد من الأزهر. اتهمه المشايخ بإفساد عقول طلبة العلم بآرائه الغريبة. حين قاومهم أوغروا عليه صدر الوالي، وقالوا: له آراء مسمومة قد تثير الفتنة.

وجـد «محمـد» أن عليـه الاختيار بيـن مغادرة الأزهر أو السـجن، فاختار الأولى مرغمًا، بعد أن توسط له الشيخ الكبير عند الوالي، آخذًا في الاعتبار مكانة أبيه «سـعد الله» وجده «محفوظ»، وقال للوالي: لم أسـمعه قط يقدح فيكم يا مولانا، فهو واحد من المخلصين، واختلافه لا يتعدى مسائل الشرع، وعقابه بأيدينا نحن.

كان «محمد» قد بلغه ما جرى لأهله من «الصوابر»، حين ذهب ذات يـوم إلى ديوان الالتزم وقـت المزاد، كما اعتاد، لعله يقابل أحد أعمامه. سأل رجلًا كان قد رآه في مرة سابقة يلازم «عبد الرحمن»، فأجابه: ضاع التزامهم، ورسا على غيرهم، وشرَّدهم جند المماليك في البلاد.

حكى له ما جرى، وطلب منه ألا يفكر في زيارة «الحجاني» فكتم «محمد» السـر، وأدرك أن ما قد يأتيه مـن أهله قد انقطع، فجمع ما في بيتـه من مـال، وباع حُلي امرأته، واشـترى دكانًا صغيرًا وسـط طائفتي القماشـة والقمصانجيـة، يبيع فيـه عمائم الكتان والشـيلان والعبايات والجلابيب والمآزر والزعابيط والفوط. بدا مخلصًا لتجارته فربحت، واكتفى من علمه بإلقائه في رأسي ابنه «خير الله» وابنته «سكينة».

رفض إلحاق «خير الله» بالأزهر، وقال له: يكفيك ما جرى لأبيك، وما علمته إياك سيجلب لك المتاعب.

كانـت تجارته قد اتسـعت، فتركهـا لابنه، وزوجه حيـن بلغ الثامنة عشرة، من ابنة تاجر حرير وأصواف في خان الخليلي اسمها «كريمة». زوَّج ابنته من ابن أحد أصحاب الخانات في قيسارية النحاسين. وكان لـه نصيب أن يـرى حفيده «أحمد» وحفيدته «رابحـة»، قبل أن يموت. وبعده بشهور قليلة ماتت زوجته «فردوس».

التحـق «جمال الدين» بالعمل فـي دكان «خير الله» ونفعه ما يعرفه مـن مبادئ الحسـاب وإدارة المال، وزاد على ذلـك بقدرة عجيبة على التقاط الزبائن السـائرين في الخان ينظـرون إلى البضائع، وأيديهم في جيوبهم، وبرع في مفاوضتهم على السعر.

أما «نفيسة» فقد تفانت في مساعدة «كريمة» في أعمال المنزل، وتربية «أحمد» و«رابحة»، فعوضاها عن غياب «مهدي»، وعن رغبتها في أن ترى من صلبه أحفادًا.

(5)

أظهر «مهدي» منذ البداية حكمة وشجاعة، جعلت ثقة «أبو سريع» تزداد فيه كل يوم. كان قد تعلم النيشان بمختلف أنواع البنادق في الجنينة، وعرف كيف يُصلح الأسلحة الخربة. حين يجلس الرجال للتشاور يلتزم الصمت، فهو أصغرهم، فلمَّا يأتي دوره في النهاية ينطق بما يذهلهم، حتى قال «أبو سريع» ذات مرة: خُلق هذا الفتى ليكون سلطانًا. ثم جال ببصره حوله، وواصل: الجبل خارج سيطرة أي سلطان، لكن سياسة مَن فيه، وما فيه، أصعب من حكم الخلائق في الوادي المزروع.

بمرور الأيام آمن الفلاتية بقدرة «مهدي» على قيادتهم، حين كان «أبو سريع» يسند إليه أمرًا ما. كان هو من الفطنة بمكان لينزع من قلوبهم أي حقد عليه، إذ حرص على إرضائهم في اقتسام ما يسرقونه، أو في مخاطبتهم بما يجعل كلًّا منهم يشعر بأنه شريك في كل شيء.

ذات مرة هجموا على قرية في الليل فسلبوا منها ما استطاعوا، لكن أهلها أطلقوا عليهم نيرانًا كثيفة، فسقط منهم رجلان، وأصيب «أبو سريع» إصابة بالغة. أعانه «مهدي» على العودة إلى المغارة، وطببه على قدر استطاعته، بعد أن نزع الرجال من فوق ركبتيه رصاصتين، بسكين وضع على النار حتى احمرَّ نصله. نجا الرجل من الموت، لكنه لم ينجُ من العجز، صار أعرج، يضنيه الأسى على أيام خفته وهمته.

حال عرج «أبو سريع» دون اشتراكه في بعض السرقات الكبرى، فأسند إلى «مهدي» قيادة الرجال، الذين يهبطون إلى القرى ليلًا لسرقة بهائم أو محاصيل. لكن «مهدي» قال لهم ذات يوم: تحلو سرقة بيوت الأثرياء.

نظروا إليه في تعجب، وقال «غندور»: لكن هؤلاء لهم خفر مسلحون يحرسونهم.

ضحك «مهدي» وقال: خفر أثقلتهم كروشهم، وراحتهم الطويلة.

شرح لهم ما يعرفه عن خفر التزامهم الذي راح، وقال: لنركز على ما خفَّ وزنه، وغلا ثمنه.

قرر أن تكون وجهة أول سرقة كبرى من قصرَي أجداده اللذين سكن فيهما «عليان الطوبجي» وأخوه. وسمع «أبو سريع» ما يعتزم «مهدي» فعله، فجمع الرجال، وقال: هذه مغامرة، قد تكلفنا الكثير.

هز بقية الفلاتية رؤوسهم موافقين، وقال أحدهم: هذا إعلان حرب.

تفحص وجوههم جميعًا، ثم قال: من الحروب ما هو كر وفر.

وتدخل «شديد» بعد أن دار الكلام في رأسه، وقال: «ضربة بالمرزبة ولا عشرة بالشاكوش».

طمأنهم «مهدي» قائلًا: أعرف أن «الطوبجي» هذا له أعداء كثيرون حتى من بين كبار المماليك أنفسهم، وسيذهب رأسه إلى الشك فيهم.

راقت الفكرة لكبيرهم «أبو سريع»، بعد أن فكر مليًا، ورآها تجربة مظفرة لـ «مهدي» مع رجاله، وكان يعتزم أن يتركهم له بعد وفاته، بعد أن أدرك محبتهم له، واقتناعهم بقدرته. اعتبر هذا أقل ما يجب أن يؤديه إلى «مالك» و«عبد الرحمن» اللذين عاش ورجاله في خيرهما طويلًا، حيث وجد المال والأمان والصحبة التي لا تُنسى.

أرسل «مهدي» اثنين من رجاله ليتسقطوا الأخبار. عرفا أن «الطوبجي» وأخاه قد ركبا النهر إلى «المحروسة» لحضور مزاد حول الالتزام، واصطحبا معهما زوجتيهما لشراء ما تحتاجانه من «خان الخليلي». ما إن عاد الرجلان بالخبر، حتى قال «أبو سريع»: فرصة لا يجب أن تفوتنا.

عبر الرجال النهر في ليلة من أواخر الشهر العربي، لم يكن قمرها قد طلع بعد. ركبوا المركب نفسه الذي كان الفلاتية يؤجرونه من صاحبه، ولا يستطيع أن يرد لهم طلبًا، لا سيما أنهم كانوا يجزلون له العطاء.

قسمهم «مهدي» إلى مجموعتين. كل منها تقصد قصرًا. تسللوا خفية حتى وصلوا إلى سور الجنينة، الذي كان «مهدي» يعرفه جيدًا. أخذهم إلى جزء متهدم فيه، كان بعيدًا أيضًا عن عيون الخفر. قفزوا فصاروا في الداخل، وأخفتهم أشجار الفواكه عن أي عين ناظرة.

بلغت المجموعة الأولى باب القصر الذي بناه «سالم» في سالف الأيام، بينما وصلت المجموعة الثانية إلى القصر الذي ورثه «عويس» وعاش فيه «ربيع». كانت كل عصابة تعرف ما يجب عليها

أن تفعله، بعد أن وضع لهم «مهدي» الخطة، وهو الذي كان يعرف غرف القصرين جيدًا، وأين تُخبأ النقود والذهب؟ وقبل هذا أين يكون المدخل الخلفي البعيد عن عيون الخفر.

كان الرجال متمرسون على التسلل والاختباء، فسلكوا في يُسر طريقهم إلى المكان الذي حدده لهم «مهدي». الخدم والعبيد هجعوا إلى مخادعهم. الخفر يتساهلون في غياب سيدهم وأخيه. الفلاحون الذين يعملون في تنقية حشائش الجنينة غادروا أماكن كدحهم بُعيد المغرب.

لم يجد السُّرَّاق صعوبة في بلوغ ما يسعون إليه، فمكان الخزانة التي تحوي النقود والذهب، في كل قصر، معروف لقائدهم. خطفت المجموعة الثانية ما وجدته، وعاد رجالها يمشون على أطراف أصابعهم، داخل القصر، حتى عبروا مدخله الخلفي، ومنه غشَّاهم ظلام الأشجار الكثيف، حتى صاروا عند السور الخارجي، يتقاطرون نحو الجزء المتهدم منه.

المجموعة الأولى التي كان يقودها «مهدي»، وجدت عقبة أمامها، لم تكن سوى جارية فائقة الحُسن تنام في حجرة مفتوح بابها إلى جانب غرفة «الطوبجي». كانت جالسة في مخدعها الذي يواجه الباب حاسرة الرأس عن شعر ذهبي، ترتدي قميص نوم خفيف يبين مفاتنها. رأت أشباحًا تتسلل من أمامها. هبت واقفة، وخرجت تغالب خوفها، لتجد نفسها أمام «مهدي». همت لتصرخ، لكنه كتم فمها بكفه اليمنى، ودفعها إلى الخلف حتى أدخلها الحجرة.

مد فرده المحشو بالرصاص إلى رأسها، وقال لها بصوت خفيض يخرج من بين أسنانه، لكن في حزم: اصمتي وإلا قتلتك.

كتمت أنفاسها مغمغمة، فرفع يده عن فمها، وهي ترتعش. نزع شاله الذي كان يخبئ به وجهه، ولفه حول فمها. أزاح كوفيته المدلاة قليلًا حول عنقه، وربط يديها من خلاف. همَّ أن يخرج ليلحق بالرجال، بعد أن يُغلق عليها الباب. كانوا قد وصلوا إلى الخزانة، وحملوا النقود وحُلي النساء. رآهم يتسللون فنادى بصوت واهن: انتظروا.

كان يقاوم رغبة عارمة اندفعت في أوصاله، حين مست أطرافه جسد الجارية الساخن، وسكنت عيناها الزرقاوان الوسيعتان نفسه. وجد نفسه مشدودًا إليها، وهو الذي طالما كتم شهوته الحارقة بين الصخور والرمل.

عاد إليها، فأمسك يديها المربوطتين، ودفعها في لطف أمامه، وهو يقول: «امشي ساكتة وإلا قتلتك»، خرجت كلمة «قتلتك» هذه المرة كاذبة. جاءت واهنة غارقة في التردد والرجاء. وكأي أنثى تنظر إلى عيني رجل لتقيس ضعفه ولهفته، أدركت أنه لن يقتلها، إنما يريدها.

في هذه اللحظة، تلاقت إرادتها مع إرادته. هي فتاة روسية اسمها «كاترين»، من السبايا اللاتي غنمتهن جيوش بني عثمان في حربها ضد الروس، وبيعت في سوق الجلابة بالمحروسة، واشتراها «الطوبجي» بثمن باهظ، لتقض منذ مجيئها إلى القصر مضجع زوجته وجواريه الأخريات.

كان «الطوبجي» يعشقها، لكنه لم يستجب أبدًا لرغبتها في أن يحررها. طالما عانت معه وهو رجل غليظ يقع على أنثاه كالبهيمة، بعد أن يعذبها كي تثير دموعها شهوته المتبلدة. كان يفعل هذا مع جواريه، أما زوجته فلم يجرؤ على تعذيبها، وإلا عاقبه أهلها من المماليك، لهذا بدا معها عاجزًا، لكنها ارتضت منه بما كان يجلبه لها من حُلي وهدايا، وهي تحسب أن زهده فيها يعود إلى عجزه القاهر، وأنه يكتفي من جواريه بمداعبة تنتهي دون شيء. كان هو قد أمر الجواري بألا يُبلغن زوجته بقدرته على وطئهن، حتى لا تغار وتطردهن جميعًا.

في كثير من الأيام والليالي فكرت «كاترين» في الهرب، لكنها كانت تدرك أن هذا مستحيل، فهي تعرف أن بينها وبين الخروج من القصر عيونًا تراقب، وأن في الجنينة عيونًا أخرى، وحتى لو خرجت من سورها، فلا تعرف أين تسير؟ وإن سارت فإن تعقبها يسير، واقتناصها واقع لا محالة، ووقتها ستذوق من العذاب أصنافًا لا قبل لها بها.

لهذا اندفعت أمام «مهدي» في يُسر. كانت تدرك أن اللصوص جاءوا من أجل المال والذهب، وليس من أجل جارية، قد تثقل طريق عودتهم، ولهذا قد يتركونها بعد أن يبلغوا مأمنًا، ووقتها تفر في هذا الليل، مستترة بظلامه الكثيف، حتى تبتعد. المهم أن تفر من هذا المكان الموحش، الذي جرح روحها قبل أن يُضني جسدها، ويكون بمقدورها أن تغادر أرض الالتزام قبل طلوع الفجر، ووقتها يمكن أن تجد مَن يساعدها على العودة إلى المحروسة، أو بلوغ أي مدينة، تلتقط فيها رزقها، حتى ولو مدت يدها إلى الناس.

سارت صامتة أمام «مهدي»، فلما بلغ منتصف الجنينة، فك يديها، وترك فمها مربوطًا. أبقاها على حالها حتى بلغ الرجال النهر، فلما ابتعد المركب إلى منتصفه، حرر فمها، بينما الرجال ينظرون إلى وجهها الفاتن الذي أجلاه شعاع قمر أطل في استحياء، فمنح جمالها نورًا على نوره.

(6)

قبل الفجر كان الرجال قد وصلوا إلى المغارة. انهمكوا جميعًا، وفي مقدمتهم «أبو سريع» في حصر السرقات الثمينة. أما «مهدي» فكان مشغولًا بعيني «كاترين»، التي كانت تنطق العربية مكسورة، فتبدو ليست كلمات يمكن لمَن يسمعها أن يفكر في معناها، إنما موسيقى تهيج لها العواطف.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تأتي فيها أنثى إلى الجبل. فمن قبل جاء «أبو سريع» كثيرًا بغجريات، إحداهن كانت غازية ترقص في الموالد، راقت له بعد أن أثقل الشراب رأسه، فأجزل لها العطاء، وقال لها: داري شرق النهر، فتعالي معي.

جاءت، وأخلى الرجال له مكانًا منعزلًا في المغارة، وأعدوا له مخدعًا لينًا من بسط وحاشيات قطن ووسائد. إنه المكان الذي حلت فيه «نفيسة» ذات يوم. بقيت الغجرية شهرًا كاملًا، لا يقربها سوى مَن أتى بها، وهو يكتم فمها حتى لا يثير غنجها رجاله المحرومين.

تكرر هذا مع رجال آخرين، إن أتى أحدهم بامرأة تكون له وحده، حتى تغادر. قانون متفق عليه بينهم، ولم يكسره أي منهم. بعضهم

كان يتسلل أحيانًا إلى داره التي غادرها خوفًا من ثأر، أو دَين تراكم عليه حين عجزت الأرض التي يفلحها عن الإيفاء به، أو توعُّد أيٍّ من جند المماليك له بالسجن أو القتل. يصل إلى الدار ليلًا، ليجد امرأته يحرقها الشوق إليه، فيقضي وطره منها، ثم يفر إلى الجبل من جديد.

لهذا اعتبر الرجال أن «كاترين» هي لمَن أتى بها. وقال «أبو سريع» بعد أن رأى الجارية الروسية الحسناء: سلطانة تليق بسلطان.

على النقيض من قصر «الطوبجي» وجدت «كاترين» في هذه المغارة الموحشة متعة وراحة وسكينة. رأت نفسها قد صارت حرة وهي تنظر إلى الصحراء الطليقة. غمر هذا الشعور نفسها بعد أن قال لها «مهدي» وهو يحتضنها في لهفة: يعلم الله أنكِ زوجتي.

ورغم أن الحياة الجديدة قد راقت لها، كانت تخشى أن تكون مجرد غنيمة حرب أخرى. ولما امتلأت نفسها محبة لفارسها، الذي خلصها من العبودية، قبلته في جبينه، كما يحلو للفرسان أن يتلقوا القبلات بعد معاركهم المظفرة، وقالت: أريد أن أبقى معك إلى الأبد.

ولما عرف منها أن «الطوبجي» متعلق بها، أسعده هذا، وارتضاه ثأرًا مما فعله بأهله، وقال في نفسه: حرقت قلبه، كما سرقت ماله. إني أقتله في بطء.

(7)

منذ متى كان البغاة يتركون حولهم أرضًا حرة؟ مَن يطمع في أرض حتى تؤول إلى قبضته، يمد عينيه دومًا إلى ما بعدها، وإلى البشر الذين

يعيشون عليها. ما لا يبلغه السائرون على أقدامهم، تبلغه الخيل، وهي تثير حولها عجيجًا مؤذنًا بمعركة حامية.

كان المماليك قد اعتادوا، حماية لأنفسهم أو بأمر من بني عثمان، أن يدفعوا تجريدة بين وقت وآخر إلى الجبل، ليصدوا العربان ويؤدبوهم إن أغاروا على القرى. كذلك فعلوا ضد الفلاتية، ليعيدوهم خاضعين.

(8)

صرخ «الطوبجي» حين أخبره الخولي بما جرى. أبلغوه أن عصابة قد سرقت المال والذهب من القصرين، وزاد في صراخه حين علم أن جاريته المفضلة قد اختفت. كانت زوجته موزعة بين فرح لغياب «كاترين» وأسى على حُليها الضائع.

وحدها التي كانت تبحث عن سلوى في موازنة بين مكسب وخسارة، أما «الطوبجي» فلم يكن أمامه إلا التفكير حزينًا في الخسارة التي حلت به. زاد إحساسه بالخسارة حين داهمه شعور بأن «كاترين» قد سهلت للصوص كل شيء، كي تنتقم منه. لكنه تشكك في هذا الخيار، فهي لم تبرح القصر منذ أن جاء بها، ولا يعرف أنها قد اتصلت بأحد.

ساوره شك آخر في زوجته، للتخلص من «كاترين» لكنه استبعد هذا، فهي كانت معه في المحروسة، وهي قد تسهل تهريب الجارية الحسناء، لكنها لا يمكن أن تفرط في حُليها، وفي ماله الذي تطمع كعادتها أن تأخذ منه على قدر استطاعتها.

أطلعها على ما يضنيه من شكوك، فقالت له: كارهوك كثيرون في الزمام كله.

ذهب إلى سنجق الإقليم، فجمع الملتزمين، وقادة جُند المماليك في قصره. أبلغهم «الطوبجي» بما جرى، فهرع واحد منهم إلى المصحف الذي كان موضوعًا على طاولة في ركن البهو، ورفعه إلى عينيه، وقال: أعماني الله إن كذبت. أنا لم أدرِ بما جرى سوى الآن. فعل باقون مثله، وإن كان بعضهم قد اعترف بأن الخبر قد وصله. وكان «الطوبجي» يُمعن النظر في عيونهم طوال الجلسة، ليتبين الكاذب من الصادق، ويلتقط كل ما يخرج من أفواههم، لعله يجد أي قول يستدل به على شكوكه في أي منهم.

أيقن «الطوبجي» والسنجق معه، أن المجتمعين أبرياء، فسأل في انكسار: مَن فعلها إذن؟

رد السنجق في ثقة: لم يعد أمامك سارق سوى الفلاتية. وأكد الجالسون ما انتهى إليه السنجق، فتوازى قولهم وتتابع: ليس غيرهم أبدًا. فصمت «الطوبجي» كاسف البال، ثم جال ببصره في وجوههم وقال: سُرقت اليوم، وإن مر هذا دون عقاب، فسيُسرق أي منكم غدًا.

سرى في أوصالهم خوف، فعزموا على خطوة استباقية يحمون بها أموالهم وسمعتهم، التي لا يقبلون أن تُهان على أيدي فلاتية، هم في النهاية من الفلاحين، الذين يخضعون لهم بالقول والفعل، نهارًا وليلًا. ونظروا إلى السنجق ليعينهم على التدبير، فقال: سأدفع تجريدة كبيرة

لتأديب الفلاتية، وليشارك خفر كل منكم في الهجوم. ارتاحوا جميعًا للقرار، لكن قلقًا جديدًا اندلع في نفس «الطوبجي»، فقال في تودد: نؤدبهم، لكن يعود إليَّ مالي وذهبي وجاريتي.

اقترح أحدهم أن يكون «الطوبجي» نفسه مع التجريدة، حتى يطمئن إلى استرداد كل ما سُلب. ضربوا موعدًا لإطلاق جندهم وخفرهم إلى الجبل، لكن جاءهم ما لم يكن في الحسبان. فبعد يوم فاض النهر غزيرًا جارفًا أمامه أشياء كثيرة. انهمك كل منهم في حماية أرضه، وهو يدرك أن العبور إلى الشاطئ الآخر وقت الفيضان عمل شاق إن لم يكن مستحيلًا.

(9)

كرَّت أيام الفيضان على الفلاتية وهم في سعادة غامرة. حسبوا أنهم قد أفلتوا بسريقتهم. وحسب «مهدي» أنه قد فاز أيضًا بالحسناء، التي فاجأته بعد شهرين من مجيئها إلى المغارة، وقالت بلهجة عربية مكسورة: يبدو أنني حُبلى.

انفرجت أساريره بابتسامة عذبة، وقال: ولد يحفظ نسل الصابر.

وقالت هي: بنت ترقق قلب أبيها على أمها.

حين أُبلغ «أبو سريع» بالخبر السعيد، قال له: يمكننا أن نعرف إن كان ولدًا أو بنتًا. عرج نحو غرفة داخلية بها أشولة القمح والشعير المرصوصة حول رحايا مستقرة في المنتصف. قبض بيمناه على القمح، وبيسراه على الشعير، وخرج إلى «مهدي». مد إليه ما معه،

وقال: منذ آلاف السنين، والحُبلى تبول على القمح والشعير، فإن نبت الأول كان ما في بطنها ولدًا، وإن نبت الشعير كانت بنتًا.

كانوا قد زرعوا حقلًا من القمح على أطراف الأرض، يسقونه من ماء البئر، ليسد جزءًا من مؤونتهم. وزرع أحد الرجال واسمه «خراجة»، كان يعمل قبل هروبه في مخمرة لصناعة البوظة، فظل يمارس مهنته بقدر خفيف، إذ كان الرجال يفضلون الحشيش والأفيون، عدا «سبعاوي» الذي كان يجمع بين الكيفين، فيشاطر «خراجة» الشراب أحيانًا، ويأتي بين وقت وآخر أحد العربان، ليجلس ثلاثتهم، في الخلاء، حول قرعات البوظة في بعض الليالي القمرية.

أظهرت التجربة القديمة أن «كاترين» تحمل في رحمها ذكرًا من نسل «الصابر»، تمنت هي أن تكون له شجاعة أبيه، وملاحة أمه. وقال «مهدي» وهو يضحك: شاء الله أن يُحسِّن نسل أسرتنا العريقة، فليسعد جدنا الطيب في قبره.

(10)

انحسر الفيضان، وعاد النهر إلى سابق عهده، يجري هادئًا سخيًّا. وجاءهم الناضورجي ذات ضحى يلهث. خرجت حروف كلامه متقطعة ضائعة، لكنها كانت كفيلة بإيقاظ الهلع في نفوس الرجال: جنود يسدون عين الشمس في الطريق إلى هنا.

في لمح البصر كان الفلاتية على ظهور الخيل، ومعهم ما سرقوه من مال وذهب. أما أدوات معيشتهم فقد خطفوا منها ما قدروا عليه،

ثـم ابتلعتهم الصحراء وهـم يهربون نحو الجنـوب، باحثين عن مأوى جديد، لا يصل إليه متعقبوهم.

سـارعت الخيل مبتعدة بالفلاتية، ولأنهم عارفون بمسـالك الجبل جيدًا، بينمـا لا يعرف مهاجموهم عنه كثيرًا، تمكنوا من النجاة. دخلوا فـي فجاج بين الصخـور ألفتها خيولهم. انتهوا إلـى مدق طالما مر منه العربان يسوقون إبلهم وماعزهم.

لـم يتوقفـوا إلا حين اطمأنـوا إلى أن الجبال قد حالـت بينهم وبين الذين يطاردونهم. اختاروا بقعة ظليلة تحت كتف صخرة مقطوعة من الجبل. جلسـوا ليتناولوا طعامهم، ويفكروا فـي مكان جديد يجب أن ينتهوا إليه، ويجعلوه مقرًّا.

رأى «مهـدي» شـيئًا يتحـرك عـن بعد. نهـض من مكانـه، ومضى خطـوات إلـى الأمام، ثم التفـت إلى الرجـال، وقال: نصيبنـا أن نأكل لحمًا.

أدرك «أبو سريع» ما يرمي إليه، فقال: لا تفتح علينا باب جهنم.

قهقـه «مهدي»، وسـأل: أي جهنـم هذه التي يفتحهـا اصطياد تيس بري؟

رد «أبو سريع»: أخاف أن يكون التيس لواحد من العربان.

وأشـار «أبو سريع» إلى واحد من رجاله اسـمه «سبعاوي»، فنهض ومشـى في حـذر حتى حاذى «مهدي». دقق النظر جيـدًا، وهو العارف بكل الحيوانات التي تسكن هضبة البحر الأحمر، ثم قال: ماعز جبلي.

وكان «سبعاوي» قد اصطاد من قبل غزلانًا وكباشًا وأرانب ليأكلوها، وثعالب وحميرًا برية لبيع جلودها، وقنافذ لبيعها إلى مَن يستخدمون لحمها في التداوي من الاستسقاء والجذام والثعلبة والبثور والجرب وأوجاع الكلى والصداع، ويستخدمها رجال الجبل حين يُجرحون في معاركهم؛ لأن لحمها يساعد الجروح على الالتئام سريعًا، ويمنع تقرحها.

كانت بندقية «مهدي» بيمناه، فرفعها ليصوبها نحو التيس، الذي كان لا يزال يقف هناك، يأكل من حرش وحيد، وينظر إلى الرجال الجالسين. قال «سبعاوي»: هذا لا تأتي به بندقيتك إنما سهمي. وكانت معلقة في ظهره جعبة سهام، فثبتها جيدًا، وراح يتقدم في حذر، و«مهدي» إلى جانبه. أطلق «سبعاوي» السهم، فاستقر في الفخذ الخلفية للتيس، لكنه لم يسقط، بل جرى، ثم أخذت خطواته تضيق، وهو يبتعد خلف تلة رقيقة، بدت أشبه بجدار عازل. توقف «سبعاوي» وقال: لا بد أنه سيعجز عن مواصلة الهرب، لكننا نحتاج إلى فرس لنحمله عليه.

رجع «مهدي» وامتطى جواده، ورمح إلى حيث يتوقع أن يكون التيس واقفًا مكانه ينتظر نهايته المحتومة. وجده يترنح بمنطقة رملية في أرض منخفضة، تغطيها طبقة من الطمي الخفيف، تتناثر عليها أحراش وبقع من العشب، وثلاث شجرات من العوسج، ويحط فوقها ضباب خفيف، ويطن النحل، ويحوم الطير.

سمع صوت سرسوب صغير يسيل في هدوء نحو فجوة بين صخرتين تميلان إلى الشرق، ويهبط لتبتلعه الأحجار في الأعماق،

دون أن يكـون بوسـع أحـد أن يراه. تقـدم خطوات، ورمى جسـده في لطف فوق الصخر، ومد أذنه اليسرى، فتأكد من خرير يأتي من بعيد.

وقـف ينظر إلى ما حوله، ووجهه يكتسـي بفرحة غامرة، ليس فقط لما يراه من منظر افتقده منذ أن جاء إلى الصحراء، إنما لما دار في رأسـه. دار حول نفسه، وهو مطمئن إلى رقود التيس مكانه يئن. ترامت أمامه مساحات شاسـعة تحيط بها الجبال عن بعد من الجهـات الأربع، فقال بصوتٍ عالٍ لكن أحدًا لم يسمعه: لتكن هنا مملكة صغيرة جديدة لآل الصابر.

وقفز إلى ذهنه ما يمدحه به «أبو سريع» حين يراه سلطانًا، ثم سخر من نفسه، وقال: أي مملكة هذه التي يكون كل سكانها من الفلاتية؟

حين عـاد واضعًا التيس أمامه على الفرس، والروح لا تزال تجري في دمه، قال للرجال في فرح: أخيرًا وجدنا مكان إقامتنا. ثم حكى لهم مـا رآه خلف الصخـرة التي تطل هناك، وهم في إنصات شـديد له، ثم مدوا أبصارهم نحو «أبو سريع» الذي سأل ساخرًا: هل مكان مثل هذا بعيد عن سـطوة العربان؟ فنظر «سـبعاوي» إلى «مهدي»، وسـأله: هل رأيت ما يدل على أثر حياة آدميين في المكان؟ هز رأسه، وقال: يمكن أن نرى الإجابة جميعًا، بعد أن نضع التيس على النار، لنسد جوعنا.

ذبح أحدهم التيس، ونزع أحشـاءه، وغسـله بنصـف قربة ماء. كان الرجال قد جمعوا حطب شـجرة صغيرة يابسة على مقربة منهم. تركوا أحدهم يحرك التيس على النار، بعد أن دبوا فيه سيخًا حديديًّا مزعه من أوله إلى آخره، وقاموا ليروا ما بشـرهم به «مهدي» بينما يطل من عينيه أمل غريب جديد.

(11)

تطلع الرجال إلى المكان حائرين، وقال أحدهم: لم أرَ مثله منذ مجيئي إلى الجبل قبل عشرين سنة.

قال آخر: سيكون مطمعًا على أي حال.

هز «مهدي» رأسه، وقال: لكل طامع ثمن.

انفرجت أسارير «أبو سريع»، وقال: ابن الكبار كبير.

تطلع الرجال إلى «مهدي» ليعرفوا ما ينوي، فقال: لو أن العربان اكتشفوا هذا المكان من قبل لحفروا هنا بئرًا، وضربوا خيامهم حولها، أو أقاموا بيوتًا من حجر.

سأل أحدهم السؤال الذي طالما أقلق الخلائق منذ الماضي السحيق: ما العمل؟

أجاب «مهدي»: نحفر بئرًا هنا.

تدخل «أبو سريع»: هل نضمن إن حفرنا أن يخرج لنا الماء؟

أجاب «مهدي»: كل العلامات هنا تدل على ماء مخبوء تحت الرمل.

ولم تكن معهم أدوات حفر كافية، فجلسوا ينبشون الأرض بخناجرهم، لكن «مهدي» قال: نحتاج إلى فؤوس وكواريك وأزاميل ومرزبات ومقاطف.

قال «أبو سريع»: نرسل مَن يأتي بها إلينا من أي نجع قريب من النهر.

سأل «مهدي»: أي بلد يقع هناك إن سرنا في خط مستقيم؟

قال «أبو سريع»: رمحت بنا الخيول ست ساعات، وأظن أننا بين «أسيوط» و«سوهاج».

فقال «سبعاوي»: ابتعدنا عن حريمنا وأولادنا. إنها غربة مضاعفة.

قهقه «مهدي»، وقال: لعل الشمل يجتمع في هذا المكان.

(12)

لم تمضِ سوى أيام وبان الماء هناك في الأعماق، وراح يعلو حتى وصل إلى السطح. طوق الرجال البئر بسور من حجر، طلوه من الخارج بالرمل المخلوط بالماء والحصى، لكن بعض الماء أخذ ينز من شتى الجوانب، فقال «مهدي»: بئر عفيّة. ثم قهقه، وقال: نشرب ويشرب زرعنا.

سأله «أبو سريع» في اندهاش: زرعنا؟

أجابه: أغلبكم فلاحون تركوا أرضهم من فرط الظلم، وآن الأوان أن تكون لهم هنا أرض جديدة، لهم ولأولادهم، وليس لأصحاب الالتزام.

تهلل وجه «أبو سريع»، وقال: نزرع الحشيش والأفيون فتؤول إلينا أثمانه، بعد أن كنا نوزعه ونجني عائدًا قليلًا.

رد «مهدي»: ليس هذا فقط، فالمكان صالح لإنبات الشيح الجبلي، وبصل العنصل، والزعتر، والحنظل، وشوك الجمل، وعبَّاد القمر، والحبق.

سأل «سبعاوي»: وما فائدة هذا لنا؟

لاحقه «مهدي»: نباتات يتداوى بها الناس، ويُقبل على شرائها العطارون في المدن، ولها مكانها في «خان الخليلي»، رأيته في زيارتي الوحيدة للمحروسة مع أبي، وأنا صغير، وقرأت هذا في كتاب عن العطارة.

هز «أبو سريع» رأسه، وقال في موافقة تامة: رائحتها ستغطي رائحة الحشيش والأفيون، فلا تطير إلى حيث تصل إلى أنوف العربان أو مَن يحكمون.

جاء الرجال بالبذور التي عزموا على زراعتها. اتخذوا لهم بيوتًا قريبة منها لم تكن سوى كهوف غير عميقة، أو مساحات ممهدة محصورة بين صخرتين. لكن «مهدي» حدثهم عن بناء بيوت تأويهم. كان يفكر في أن يكون له أحدها، حتى يحمي زوجته، وطفله الذي أصبح على وشك المجيء، من عقارب الصحراء وثعابينها وذئابها.

لمَّا نما الزرع جاء النحل من كل مكان، وحط على الزهر مختلف الألوان والأحجام، وبنى خلاياه بين الصخور، وأفرز عسله على مهل، ففتح بابًا جديدًا للخير، لم يكن الرجال يحسبون له أي حساب.

في زمن قليل نجح «مهدي» في ترويض عربان قبيلة «جهينة» الذين كانت لهم سطوة في هذا المكان. جعل بينه وبينهم تجارة، فرضوا بالخير الذي ساقه الله إليهم على أيدي هؤلاء الذين أقاموا حياة في قلب الموت. تمكن من إبرام هذا الاتفاق قبل أن يحصد

زرعه. اشترى بالمال المتبقي من سريقة قصري «آل الطوبجي» كباشًا وتيوسًا من العربان، يذبحونها ليأكلوا لحمها، وإبلًا لتحمل بضاعتهم. جعل من بين العربان ثلاثة، وثق فيهم، يمدون الفلاتية بما يحتاجونه لتستقيم حياتهم هنا، كأنهم هناك في الوادي. عزم على أن يكون من بينهم الذين يوزعون الحشيش والأفيون على الناس في القرى والمدن، وقال لهم: أنتم شركاء في العائد.

رضي العربان بهذا لأنهم لا يجيدون الزراعة والحصاد، ولم يعترضوا على أن يسكن هؤلاء الأغراب أرضًا يعتبرونها مملكتهم التليدة. رضوا أكثر حين زعم لهم «مهدي» أن كبيرهم «أبو سريع» من قبيلة المُزيِّني، وأنه قد عبر خليج القلزم إلى البحر الأحمر. اعتمد في هذا على أن الرجل كان بالفعل قد زار سيناء مرات للحصول على الحشيش، وعرف الكثير عن أهلها، فكان يسوقه أمام العربان كلما جرى الحديث عن المُزيِّنات على الألسنة، فآمنوا أنه واحد منهم.

قال أحد العربان: المُزيِّنات القدامى كانوا من صحابة النبي.

تساءل آخر: كيف لرجل من نسل النبي أن يزرع الحشيش والأفيون؟

رد «مهدي» على الفور: هو مَن أصر على زراعة نصف الأرض بالنباتات الطبية، ولا ينشغل إلا بها، وطالما حاول أن يثنينا عن زراعة المخدرات، ولا يملك حيالنا إلا دعوة الله لنا بالهداية.

لم يتغير موقف العربان بعد أن مات «أبو سريع». شاركوا في عزاءه آسفين على رحيل واحد من خيرة رجالهم. بنى له «مهدي» قبرًا جعل له شاهدًا، وقال: كانت له كرامات عجيبة، وأعمال غريبة.

تطلع إليه العربان واجمين، فواصل كذبه: قادنا إلى هنا، وضرب يده على الرمل فخرج ماء، ثم أخبرنا بأنه ستكون لنا في المكان حياة سعيدة، وأوصانا خيرًا بأهله من البدو.

ثم نسج من خياله الكثير من الحكايات عن كرامات «أبو سريع»، والعربان منه في عجب، وقبلهم الرجال الذين معه، فسألوه، بعد رحيل العربان، عن جدوى كذبه، فقال: كذب أبيض، والناس يلتفون كثيرًا حول الأساطير.

سأله «سبعاوي»: من أين تأتي بكل هذه الحكايات؟

ضحك وقال: أنسيت أنني قد تعلمت القراءة والكتابة.. كتب الأساطير لا تبخل بشيء.

لمَّا رأى الرجال نساء من العربان قادمات، وهن يحملن صغارهن، للتبرك بقبر «أبو سريع»، تعجبوا، وآمنوا بفائدة الكذبة الكبرى، التي صنعها عقل راجح، اختلق ما يجعل العربان راضين عن المكان وأهله.

لا يمر شهر حتى يقول «مهدي» للعربان: جاءني شيخنا «أبو سريع» في المنام بوجه منير مبتسم أضاء الليل، وأوصاني بكم وبرجالي خيرًا. تناسلت الحكايات، وسكنت رؤوس العربان، حتى قال كبيرهم ذات

ليلة، وهو يجلس مع رجال «مهدي» حول الشواء: جاءني الشيخ الليلة الفائتة، وأوصاني بكم خيرًا.

اطمأن الفلاتية إلى ما صاروا فيه، فطلب منهم «مهدي» أن يهبطوا إلى الوادي لاصطحاب زوجاتهم وأولادهم، وقال: تذهبون تباعًا، وليكن هذا خفية، وإياكم أن يشعر بكم أحد.

أبدوا أمامه مخاوفهم، فقال: نتعاهد على أن مَن يقع في أيدي الجُند أو الأهالي، يبتلع لسانه، فلا يدل علينا أبدًا، حتى لو وضعوه على النطع أو الخازوق، وسيكون أولاده في أعناقنا، نرسل إليهم ما يكفيهم كل موسم، دون انقطاع.

كان لبعضهم أولاد قد كبروا وتزوجوا، واستقروا في بيوت بالقرى والمدن. وانتبه «مهدي» إلى هذا، فقال: لا تصحبوا معكم سوى الزوجات والصغار.

عاونهم العربان على تحديد المكان الذي هم فيه بدقة، واصطحبوهم، وهم العارفون بدروب الصحراء، حتى النهر، فاستقل كل منهم مركبًا إلى مكان قريب من قريته، وانتظر حتى جاء الليل، فطرق باب داره، وأمر زوجته بالرحيل معه إلى أرض فيها خير، فأطاعته.

كانوا من بلاد متفرقة، يجيدون الاختباء والتسلل، فنجح أغلبهم في العودة بصحبة زوجاتهم وصغارهم.

واحد منهم، وجد زوجته قد فارقت الحياة، فجاء بصغاره. آخر رفضت زوجته أن تصحبه مفضلة البقاء بين أهلها. ثالث اسمه «مشحوت» لم يرجع.

(13)

انشغل «مهدي» بمَن لم يرجع، وقال لرجاله: أخشى أن يكون قد وقع في أيدي الجُند.

قال «سبعاوي»: يُلزمه العهد أن يصمت.

لكن «مهدي» قال، وابتسامة فاترة ترف على شفتيه: تخور أحيانًا عزائم الرجال الأشداء من التعذيب الشديد.

(14)

نسي الرجال مَن غاب منهم، وتوالت الأيام رخيَّة. يحصدون زرعهم، وتحمله الجِمال إلى حيث يُوزع. نبات التداوي إلى العطارين. الحشيش والأفيون إلى تجار المخدرات الموجودين في كل مكان. وتدفقت الأموال عليهم غزيرة، فكان «مهدي» لا يبخل على الرجال وأولادهم بشيء. ما تبقى كان يحفظه في مكان حفره عميقًا، بمساعدة رجاله، في باطن الصخر، وجعل في أعلاه بابًا سميكًا من حديد عليه أقفال غليظة، مفاتيحها معه.

ذات يوم جمع «مهدي» الرجال، وقال لهم: لا يجب أن نبخل على أولادنا بما كان يمكن أن يحصلوا عليه في القرى.

سألوه عما يقصد، فقال: نعلمهم القراءة والكتابة.

كان قد بنى مسجدًا بالقرب من البيت الذي تعيش فيه «كاترين» وابنها «فخر الدين» فجاء الرجال بأولادهم، فكان يقرأ عليهم من القرآن والأحاديث كل يوم. ثم طلب من العربان أن يساعدوه في

استقدام شيخ للقيام بهذه المهمة، فقالوا: نعرف رجلًا فقيرًا غزير العلم يقيم وحيدًا في زاوية قريبة من البحر، اسمه «مكي الطماوي»، فطلب «مهدي» أن يأخذوه إليه ليقنعه، فجلس إليه ساعة من نهار، ثم قال: حرام أن يذهب هذا العلم دون أن يستفيد منه الناس.

قال «الطماوي»: لا أكتمه على أي سائل.

قال «مهدي»: قد تمر شهور ولا تجد أحدًا من السائلين، وهناك بيننا صغار يسعدهم أن يكونوا لك تلاميذ نجباء.

بنى للطماوي «زاوية» يتعبد فيها حين يفرغ من تعليم الصغار. بنى «مهدي» للصغار كُتَّابًا، وقال للرجال: نرجو أن يغفر الله لنا إثم الحشيش والأفيون، بهذا العلم وأعشاب الدواء، وعسل النحل.

رد عليه أحدهم وكان يليه في المكانة بين الرجال: احتياج بعض الناس للغياب عن الهموم ولو ساعة من نهار لا يقل أهمية عن حاجتهم إلى الدواء.

ضحك «سبعاوي» وقال: لكل داء دواء، ونحن لم نبخل على خلق الله بشيء.

(15)

لم يبخل «مهدي» على رجاله في مقامهم الجديد بالترويح عن نفوسهم، وكان يعرف ما ينقصهم وسط هذه الصحراء. كما كان يتذكر جيدًا الأفراح التي كان يقيمها أهله في القصرين، اللذين صارا

للغريب، وكانوا يقولون له: هذا سلو عائلتنا منذ أيام جدنا «رضوان»، الجد الأكبر كان لا ينسى حظه من المتعة.

قال «مهدي» ذات يوم لأحد العربان: ما حال أعراسكم؟

نظر إليه متعجبًا، فالبدو لا يزوجون بناتهم للفلاحين، وظن أن «مهدي» يريد مصاهرتهم لتقوى الرابطة بينهم، لكن فوجئ به يقول له: أتعرفون الغوازي والقوَّالين وعازفي الرباب؟

هز البدوي رأسه، وقال: لنا طريقتنا، لكننا نعرفهم وبعضنا يأتي بهم لإحياء أفراح عُرس أو طهور، لكن هذا يتم على فترات متباعدة.

ثم نظر إلى «مهدي» وسأله: هل تريد هؤلاء؟

- نعم.

- هل سيتزوج أحد رجالك؟

- لا، لكننا نريد أن نحتفل بأرضنا الجديدة، ولم شمل أُسرنا.

فكَّر قليلًا، وقال: سأحدث شيخ قبيلتنا في الأمر، ليرسل أحدًا من رجالنا في طلب جوقة «عبد الوارث»، فمعه غازيتان من المساليت، واحدة اسمها «بخت» والثانية «زارا»، ما سلم أحد من سحر رقصهما.

جاءت الجوقة بعد أن أقنعها رسول شيخ قبيلة «جهينة» بأن صاحب الفرح رجل كريم سيجزل لهم العطاء. اختاروا بقعة من الرمل الصافي، يطل عليها قمر ليلة صيفية طيبة النسائم، وأقاموا فوقها نصبة

من الأحجار المستوية، وفرشوها بالسجاجيد. جاءوا بمقاعد من بيت «مهدي»، وفرشوا حصرًا للرجال، وأخرى للنساء والأطفال. كانت الليلة الوحيدة التي اختلط فيها نساء العربان بنساء الفلاحين، والأولاد بالأولاد.

قبل أن يبدأ الغناء والرقص مُدت أسمطة الطعام من اللحم والطبيخ والأرز، وصواني البسبوسة والكنافة، ووضعت «الجوَز» المعمرة بالحشيش، فانفتحت النفوس على الطرب. شرب «خراجة» و«سبعاوي» ومعهما ثلاثة من العربان قرعات البوظة، فكانوا الأشد تمايلًا حين عزف الرباب.

بدا «مهدي» غاية في الامتنان لأنه شعر في هذه اللحظة بأنه يستعيد جانبًا من أمجاد عائلته. كان حريصًا، إن جالس الرجال لشرب الحشيش، على ألا ينسطل، مثلما كان يفعل والده وعمه، مكتفيًا بالضحكات الصافية، كلما أطلق أحدهم نكتة، أو حكى حكاية غريبة، لا يعرفون إن كانت حقيقة أم خرافة.

هذه المرة لم تطلق ضحكات على شيء، إنما كان التمايل مع العزف والرقص، الذي ألهب النشوة في نفوس الرجال. نسوا أين هم، وسقط من رؤوسهم الأسى على ما جرى في أيامهم السابقة التي حاولوا فيها أن يغلبوا التعاسة، لشعورهم العميق بأنهم سجناء حتى في هذه الأرض المفتوحة على السماء.

رقصت «بخت» و«زارا» حافيتين على النصبة المستوية. مالتا مع الرباب كالخيزران، تستعرضان مفاتنهما. زادتا في الرقص كلما هبَّ

الرجال واقفين، رافعين عصيهم ليشاركوا الراقصتين الدوران اللطيف، ويرمون على جسديهما اللولبيين ما في جيوبهم من نقود.

لعبت البوظة برأس «خراجة» وكان يعب منها دون حساب، فغاب عن كل مَن حوله إلا الراقصتين. صعد إليهما يغالب ترنحه. دس يده في جيبه، وأفرغ كل ما فيه من نقود فوق رأس «زارا»، التي كانت أشد حُسنًا، وراح يقول وهو يشير إلى الزرع الذي يحط عليه ضوء شحيح لقمر يريد الرحيل، حتى تردد الراقصة خلفه: سمعني أحلى سلام يا عم لأكبر زُرَّاع الكيف في الزمام كله. ثم أمسك عصاه بكلتا يديه ورفعها، وطوق بها جسد الراقصة، وهي تميل معه، فتثير جنونه. دون أن يدري جذبها إليه، فالتصقت به على غير إرادة منها، فعصرها عصرًا، لتسقط العصا، وتصير «زارا» في حضنه، نهداها في صدره، وجيدها يستقبل قبلات لاهبة من فمه الذي تفوح منه رائحة البوظة.

وقع هذا في ثوانٍ معدودات، فتوقف الرباب عن العزف، واكتسى وجه «عبد الوارث» بفزع شديد. جرى لينزع «زارا» من يد «خراجة»، بينما كان رجلان يصعدان سريعًا إلى النصبة. جذبا صاحبهما بشدة، فسقط مكانه، والنساء يغطين عيونهن، ناظرات من أطراف الطُّرح السوداء إلى زوجة «خراجة» التي كانت ساهمة في غضب.

نظر «عبد الوارث» إلى «مهدي» الذي كان يجلس بين رجاله مندهشًا مما يجري، وقال: لست قوادًا يا سادة، وليس معي لحم رخيص.

نطق «مهدي» على الفور: الحق معك، وما تطلبه مجابًا.

مشى «عبد الوارث» خطوات إلى الأمام حتى صار على طرف النصبة في وجه الرجال، وقال: أنا مثلكم من الصعيد، لا أقبل ما جرى، والبنتان إن كانتا راقصتين من المساليب فهما ليستا عاهرتين.

كانت «زارا» واقفة في الخلف تجهش بالبكاء، بينما «بخت» تُهدئ من روعها. كان العازفون قد ركنوا الرباب إلى جانبهم، وأسند الطبال طبلته فوق فخذه صامتًا مثلها.

طلب «مهدي» قطعتين من الجبن الغارق في المش وكوزًا من الماء، فجيء بها على الفور. أمر «خراجة» أن يأكل الجبن، وصب على رأسه الماء، فلما أفاق، قال له: اصعد لتعتذر عما فعلت.

نظر إليه، وسأله: وماذا فعلت؟

همس أحد الرجال في أذنه بما جرى، فسرى الخجل في ملامحه، ثم قال: ما يأمر به سيدنا.

صعد إلى النصبة، ووقف أمام «زارا» وهو لا يستطيع أن يرفع عينيه في عينيها، ثم لثم رأسها بقبلة تملمت لها، وقالت له: خلاص، حصل خير.

عاد العزف والطبل والرقص، وصدح «عبد الوارث» بمواويل ارتجلها خصيصًا عن أهل الكيف، وسكان الجبال، والسيد الكريم الذي أولم له، ومنحه وجوقته أكبر أجر حصل عليه في حياته، ولم ينسَ بالطبع شيخ العربان، وكبار رجالهم.

حين استيقظ الجميع بعد الظهر، طلب «مهدي» من أحد الرجال أن يأتي إليه بالقوَّال «عبد الوارث»، فلما مَثُل بين يديه، اعتذر له عما

جـرى أمس، وأهداه ثلاث طُرب من الحشـيش وأوقية أفيون، وثلاث صفائح من عسل النحل المُصفَّى.

ابتسـم الرجل، وهو ينظر إلى وجه «مهـدي» في امتنان، وقال: ليلة لا تُنسى، إنها أجمل ليلة أحييتها طوال عمري.

(16)

حين اسـتقر الوضع للرجال في مكانهم الجديد، فكر «مهدي» في أمرين كان يؤجلهما إلى الوقت المناسب: الاطمئنان على والدته التي انقطعـت أخبارها عنه منذ سـفرها، ومعرفة ما يجري فـي «الجابرية»، امتثالًا للوصية التي لم ينسها.

كان يريد أن ترى أمه حفيدها الذي أنجبته الروسية الحسناء. طلب من زوجته أن تستعد لزيارة خاطفة إلى المحروسة، فانخطف قلبها من الفرح، وقالت: كم أنا في حاجة إلى رحلة!

ابتسم، وقال لها: فرصة أن تري حماتك، وترى هي حفيدها.

لم يكن يعرف في المحروسة سوى عمه «محمد»، الشيخ الأزهري الجليـل، هكـذا ظـل قائمًا في مخيلته، منـذ أن رآه صغيـرًا. كان يتذكر أيضًا ابنه «خير الله» الذي كان قد شب عن الطوق صبيًّا فتيًّا تظهر عليه علامات النجابة والشجاعة.

نـزل مـع زوجته وطفله فـي فندق اسـمه «التفاحة»، قريـب من «خان الخليلـي»، يرتـاده التجار الـواردون إلى الخـان من بلاد بعيدة. اسـتأجر غرفـة، وبـات فيها ليلته. في الصباح تناول إفطـاره، ونزل إلى قهوة قريبة.

دخن أرجيلة، بدلًا من جوزة الحشيش التي يتناقلها الرجال في يسر بجلسة لهم على الرمل، وإلى جوارهم راكية تنفخ الريح في جمرها الزاهي.

كان يريد للوقت أن يمر حتى تقترب صلاة الظهر، فيكون الشيخ «محمد» قد ذهب إلى عموده ليلقي درسه على طلاب العلم. قبيل الظهر، صعد إلى الفندق، واصطحب معه «كاترين». سارت خلفه تحمل طفلها على صدرها، حتى بلغ الجامع الأزهر.

حين نطق باسم مَن يريده في الأزهر، قال له شيخ معمم من تلاميذ «محمد»: توفاه الله قبل سنين، لكن البركة في ابنه. ثم قاده إلى دكان «خير الله»، الذي كان يجلس داخله فوق كرسي عالٍ، يتابع البيع والشراء. دخل إليه وخلفه «كاترين» ملفوفة في عباءتها، ووجهها محجوب خلف اليشمك، لكن حُسنها يطل من الفتحات المتتابعة. قام لها «خير الله» مرسلًا كل ناظريه إليها، دون أن يرى الرجل الذي يتقدمها بخطوتين.

كشف «مهدي» عن شخصيته، فتلقفه «خير الله» بين ذراعيه، وقال: الغالي ابن الغالية.

ثم طأطأ رأسه في أسى، ولم يدرِ ما يقول، فأطلق التوجس في نفس «مهدي»، الذي نطق بصوت خفيض: لعل أمي بخير.

صمت «خير الله» وقال: تعالَ نتحدث في البيت أفضل.

في البيت أبلغه بأن أمه ماتت قبل سنة، ومات «جمال الدين» بعدها بشهرين، ودفنهما في مقبرة الأسرة. بكى «مهدي» بحرقة، حتى

أبكى «كاترين»، وقال: أريد أن أزور قبرها. فأخذه إلى حيث ترقد. جلس أمام قبرها، وعلا نحيبه، و«خير الله» يشاطره البكاء، وقال: لم تكن أمك وحدك، كانت أمي، وقد عاشت معنا، لا كلام لها إلا عنك. وصمت برهة، وقال: قبل موتها بأسبوع فاتحتني في أمر رحيلها للبحث عنك، لكني خفت عليها، واستمهلتها أيامًا حتى أطمئن على تجارتي وأسافر أنا لهذه المهمة، وسبقنا جميعًا السر الإلهي.

هز «مهدي» رأسه، وكأنه يستجمع كل الذكريات في نقطة واحدة، وقال: كنت أنوي أخذها إلى حيث أقيم الآن في بيت يليق بها. أنا الآن لي مكان ومكانة كانت ستعيدها سيدة عزيزة كما كانت في قصر أبي.

رد «خير الله» في أسى: يكفيها أنها مدت الحبل بيني وبينك، ثم مدته إلى الصعيد الجواني، حيث «الصابرية» المغدورة، وأوصتني بما أوصتك به.

(17)

حين عاد «مهدي» إلى الجبل، وخلفه جمل يحمل ما اشترته زوجته من ملابس وأثاث وبعض أطعمة جافة، كان «شلتوت» الذي أرسله إلى «الجابرية» قد رجع حاملًا أخبارًا جديدة.

عرف «مهدي» أن التزام «الجوابر» لم يعد على حاله بعد موت «أدهم»، فابنه الأكبر «خالد» لم تكن له حكمة أبيه وكرمه. صار أهل القرية يتهامسون عنه بكل أمر مشين، لا سيما ما يفعله مع عمته «لواحظ»، وهي أرملة جميلة، أصابها خبل بعد الخمسين.

كانت تغافل مَن في السرايا، وتتسلل هائمة على وجهها فوق الجسر، ثم تنزل إلى الزرع لتختبئ فيه. يبحثون عنها في شوارع القرية، ويسألون الناس، فيدلونهم على المكان الذي ذهبت إليه. حين يعثرون عليها يجدونها قد خلعت ملابسها، ونامت عارية لا تسترها إلا أعواد الذرة أو القصب أو أغصان القطن، وسبلات القمح، فهي كانت تهرب في كل المواسم. أحيانًا كانت تملأ حجرها بالأحجار، وترمي الصغار وهي تسبهم بألفاظ نابية، فيجرون منها ضاحكين.

جاءوا إليها بالشيوخ والقساوسة، وهم يظنون أن جنية شريرة قد سكنت جسدها، ولا بد لها من الخروج، لتعود إلى سيرتها الأولى، لكن الجميع فشل في إعادتها.

قال لهم «مجذوب» يسكن الزاوية: انجذبت، فاتركوها. لكن عطارًا قديمًا ذا حكمة، قال، بعد أن سمع منهم حكايتها: هو خبل، لن تفلح فيه الأدوية، وقد يذهب عنها فجأة، كما جاء فجأة. وسألهم إن كان في أجدادهم مَن كان على حالها، فقالوا له: لا نعرف. فهز رأسه، وقال: يكمن الخبل أجيالًا، ثم يظهر من جديد. ونصحهم بألا يضايقوها، وحدثهم عن بيمارستان في «القاهرة» عمره قرون ينظر في أمثال حالتها، ونصحهم بالذهاب إليه.

لكن «خالد» حبسها في غرفة بالسرايا، تدخل عليها الخادمة بالطعام والشراب، وتسوقها إلى الحمَّام لتقضي حاجتها، ثم تعيدها إلى غرفتها. تهاجمها في بعض الليالي نوبات من الصراخ، فيمزع صوتها النافذة، ويدور في الشوارع القريبة من السرايا، فيمصمص الناس شفاههم في

أسى، ويرفعون أيديهم إلى السماء داعين الله أن يرد إليها عقلها. أما «خالد» فيهرع إلى غرفتها ويوسعها ضربًا، حتى تخمد.

حكى «شلتوت» أيضًا عن هروب فلاحين كثر من أراضيهم، باحثين عن ملتزمين آخرين في أقاليم أخرى. زاد الرجل في هذا أن قال: حفيد «أدهم» واسمه «عماد» يشكو أطفال الجابرية من أذاه. خلع عين أحد أبناء عمومته، وكسر رجل طفل آخر من آل بخيت، وقطع إصبع طفل من النصارى بالمنجل.

سأله «مهدي»: هل سكتوا على ما جرى لأولادهم؟

أجاب «شلتوت»: لا أحد منهم يجرؤ على الاعتراض أو الثأر.

رمى «مهدي» بصره إلى قدميه، وقال: مع هذا الصغير المجرم سيضيع الالتزام.

لكن «شلتوت» قال: بعض المجرمين يحسنون إدارة أموالهم.

(18)

لم يكن «مشحوت» قاتلًا أو هاربًا من أرض الالتزام، إنما سرق بقرة وباعها في السوق، ولمَّا ثبتت عليه السرقة، حكم عليه رجال قريته بدفع ثمنها لصاحبها كاملًا، وزادوا على ذلك بأن يُزفَّ في القرية راكبًا فوق حمار، وجهه إلى الخلف، وظهره إلى الأمام.

أمهل أهله دائنيه يومين حتى يدبروا المال كاملًا، وقالوا: أنفق أغلبه في شراء أشياء لبيته. ثم طلبوا منه الهرب، حتى لا يجد الناس مَن يزفونه غارقًا في عاره، على أن يجمعوا هم المال ويسددوه عنه.

ولمَّا صعد إلى الجبل، وانضم إلى الفلاتية، تنصلوا من الإيفاء بدينه. عرف الناس أنه قد صار لصًّا محترفًا، فأقسموا أن يُعاقَب بما هو فوق دفع ما عليه أو زفه، وأبلغوا السنجق، فسجله من المجرمين الهاربين. ولمَّا عاد إلى قريته شعر به بعض الساهرين على المصاطب، فتعقبوه وأمسكوا به، وسلمه الخفر إلى الحكمدارية، فنقلته إلى السجن.

في السجن يُسري الموقوفون عن أنفسهم بالحكايات. كل يقص على الناس ما جرى له. وجد «مشحوت» أن المبالغة في إظهار الإجرام تعطيه قوة في مواجهة عتاة المجرمين، فقص على الأسماع مغامرته. زعم أنه هو مَن حفر البئر، وغرس الزرع، وادخر ثروة طائلة من صناديق مملوءة بالنقود والمجوهرات والذهب مدفونة في بطن الجبل، لا يعرفها غيره، ثم وعد الرجال بأن يكون لهم منها نصيب حين يخرج.

في السجن يندس العسس بين الزنازين، يلتقطون الأخبار، ويُبلغون عمَّن يفكر في الهرب، ويكتشفون حقيقة الجرائم الخفية، ويعرفون ما يُضمره السجناء حيال المماليك وبني عثمان. اقترب أحد العسس وكان اسمه «سعدون» من «مشحوت»، حتى صار يراه صديقه الصدوق، وكانت مهمته أن يعرف منه مكان الثروة المزعومة. وقال له ذات ليلة بعد أن هرَّب إليه علبة من دخان فاخر: ربما أموت قبلك، أو تموت قبلي هنا، فأعمارنا في يد صاحبها.

نظر إليه في اندهاش، إذ كانت المرة الأولى التي يسمع فيها أحدًا يتحدث عن الموت في السجن بهذا الجلال، وقال: لن أموت إلا بين رجالي في مملكة الجبل.

وكلمة بكلمة، عرف «سعدون» مكان المملكة التي يتحدث عنها «مشحوت»، وعرف أيضًا أن سلطانها الحقيقي اسمه «مهدي بن مالك»، وأنه رجل انحدر من نسل كبار كان لهم التزام في «المنيا» ترمح فيه الخيل فلا تبلغ آخره بعد ساعة، وأنه هو مَن يؤتمن على الثروة الطائلة، لكنه لا يبخل على رجاله بكل ما يحتاجونه.

كان السنجق لا يريد منه إلا هذا، لكنه قال لنفسه: ما يدرينا أن يكون السجين يدلنا على مكان خاطئ، فمَن هذا الذي يفرط بهذه السهولة في نصيبه في ثروة طائلة، جُمعت من بيع المخدرات والعطارة وعسل النحل الجبلي الشهي.

ووضعت الخطة الناجعة، التي تهدي الطامعين إلى أرض «مهدي» الجديدة. همس «سعدون» ذات ليلة في أذن «مشحوت»: من العبث أن نموت معدمين بينما عيش هانئ ينتظرنا هناك؟

رفع «مشحوت» رأسه، وقال: لا أمل لنا إلا أن يمد الله في أعمارنا إلى أن نخرج من هنا سالمين.

قهقه، وقال: أغلب مَن دخلوا إلى هنا خرجوا إلى قبورهم.

(19)

ذات ليلة جاء «سعدون» يلهث، وقال لـ «مشحوت» الذي كان يستعد لغسل واحد من جلبابين قديمين يمتلكهما: حان وقت الهرب.

نظر إليه متعجبًا، وسأله: أي هرب والحراس ساهرون؟

اقترب منه في تصنع، وقال: رشوت حارسًا منهم، وسيترك لنا بابًا خلفيًّا يطل على الزرع، فإن خرجنا سترتنا الذرة، ولم يدرِ أحد بنا.

تردد «مشحوت»، وقال: يبدو أنك تسعى إلى قتلنا.

شد على يده، وقال: الفرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة، وهي في السجن نصف فرصة، فإن لم ننتهزها الآن تحسرنا عليها حتى نموت بين هذه الجدران الكالحة.

وأشار إليه: اتبعني.

مشى خلفه حذرًا، حتى بلغا الباب، وكان الحارس يبتسم لهما، وإمعانًا في الخداع، أمسك بكتف «سعدون» وقال: ما دفعته يكفي لهروب سجين واحد.

دس «سعدون» يده في جيبه، وأخرج فضيات وألقاها في يد الحارس، ثم هرع نحو الباب حتى خرج، و«مشحوت» خلفه. أغلق الحارس الباب وراءهما، فقال «سعدون» آمرًا: استلقِ على بطنك، وازحف على هذا النجيل حتى نصل إلى غيطان الذرة.

زحفا مسافة لا تزيد على عشرة أمتار، ثم دخلا إلى الزرع، فغطتهما أعواد الذرة العالية. سارا فيها نحو الشمال حتى ابتعدا عن السجن، وعندها قال له «سعدون»: هل تعرف الطريق إلى النهر؟

هز رأسه، وقال: هذا أسهل عليَّ من شرب الماء.

ضحك «سعدون» وقال: وأسهل عندي من شم الهواء.

أبلغه بأنه يعرف مكان مكوث قوارب صيادين، فسار خلفه، حتى وصلا إلي المكان المقصود. كانت القوارب راسية، مشدود كل منها إلى وتد مدقوق على الشاطئ. انتبه «مشحوت» إلى مراكب تظهر أشرعتها في الظلام، فقال: فأل طيب، فهي تحمل الأرزاق إلى البعيد.

كانت المراكب مملوءة بجند مدججين بالسلاح. وضعوا أسلحتهم في قعورها وجلسوا في أماكنهم حتى لا يُفضح أمرهم. كان بين الجند مَن يراقب تحرك الرجلين جيدًا، ويأمر المراكبية بالابتعاد كي لا يلاحظ «مشحوت» مَن بها.

استأجر «سعدون» قارب صيد، فاندفع بهما إلى الشاطئ الشرقي. حين نزلا، قال «مشحوت»: أعرف رجلًا من نجع قريب اسمه «عسران»، يوزع لنا الحشيش، سنقصده ليرسل معنا دليلنا في الجبل، وقد نبيت عنده ليلتنا، والصباح رباح.

رفض «سعدون»، وقال: الليل ستار، ولا بد أن نكون في قلب الجبل قبل أن يطلع النهار، فقد يكون بقية الحراس قد اكتشفوا هروبنا، وأرسلوا خلفنا مَن يلاحقنا.

هبط الجنود على الشاطئ. جعلوا بينهم وبين الرجلين مسافة كافية لتغطية تقدمهم الوئيد. كان بينهم رجال مختصون في العس والمراقبة، فتقاطروا تباعًا، أولهم يرى «سعدون» و«مشحوت»، وآخرهم يسبق الجند بخطوات.

حين دخل الرجلان النجع، وقف الجنود بعيدًا، محتمين بحقول الذرة. طرق «مشحوت» بابًا على طرف النجع، ففتح رجل ربعة يفرك عينيه من أثر النعاس. كان يعرف «مشحوت» جيدًا، فطالما قابله في الجبل، أو كان هو يهبط إليه في النجع حاملًا طُرب الحشيش على ظهر جمل عفي، بعد أن غطاها بأعواد الشيح والحبق.

قال «عسران» وهو يطوق «مشحوت» بذراعيه: أهلًا بالغائب العزيز.

صافح «سعدون» ثم أخذهما إلى مندرة الضيوف. أيقظ زوجته لتعد لهما طعامًا وشرابًا، لكن «سعدون» قال له: ضيافتنا أن ترسل معنا مَن يدلنا على الطريق.

نظر «عسران» إلى «مشحوت»، وقال: لم تُعرِّفني بصاحبك.

رد: زميلي في السجن، اسمه «سعدون»، ساعدني على الهرب، وله في عنقي دَين لا أنساه طالما أتنفس.

حين جلس «سعدون» طلت من جيبه فوهة طبنجة، فلمحها «عسران» ودارت في رأسه الظنون. كان يعرف أن هذا السلاح قد ورد حديثًا إلى مصر، ولا يحمله إلا جند المماليك، وستمضي سنوات حتى يُمكن أن يصل قديمه إلى أيدي الفلاحين.

نظر «عسران» في وجه «سعدون» طويلًا، ثم سأله: من أي بلد أنت؟

قفزت إلى ذهنه إحدى القرى التي طالما عس أخبار أهلها، ففتح الباب لمداهمة جند المماليك لها في أيام سالفة، فقال: أنا من «السفيانية». كان

«عسران» يعرف العائلات التي تقطن هذه القرية، حيث يوزع الحشيش على كبارها، فسأله: من أي عائلة أنت؟

خانته الذاكرة، فأجابه: عائلة البهجوري.

ولم يكن في هذه القرية أي فرد ينتمي إلى هذه العائلة، فأدرك «عسران» أنه ربما يكون فخًّا قد نُصب لـ «مشحوت» ولا يدري. ولأنه موزع مخدرات له أنف يقظ، يشم به رائحة الفخاخ والشراك التي تُنصب لأمثاله، ساوره شك عارم في «سعدون». قام من مكانه، وخرج من الغرفة، ثم أشار إلى «مشحوت»، وقال: لا بد أن ترى أولادي، لقد كبروا، وسيفرحون برؤية رجل كان يحمل إليهم العسل الجبلي الذي يحبونه.

حين انفرد به في غرفة أخرى، سأله: هل تعرف هذا الرجل جيدًا؟

أجابه: قضى معي في السجن الشهور الأخيرة، وكان نِعمَ الصاحب.

وكرجل محنك، مد «عسران» دائرة الشك لتطول «مشحوت»، فلم يخبره بهواجسه. أخذه إلى غرفة أولاده، وكانت أجسادهم قد تمددت فوق حصير مفروشة عليه حاشية من قطن. فأشار إليهم، وقال: لقد كبروا.

ثم التفت إلى «مشحوت» وقال: هل أوقظهم، أم يرونك حين يستيقظون فجرًا كعادتهم.

ابتسم «مشحوت»، وقال: لا تقلقهم.

دخل إلى زوجته، وأيقظها، وقال لها: جهزي ما عندك من طعام.

فلما عاد إلى مندرة الضيوف، قال: لا ملح في البيت، سأخرج لأحضر بعضه من عند الجيران.

خرج مسرعًا، قطع الشارع الجانبي، حتى وصل إلى بيت «محجوب» الناضورجي، فأيقظه، وقال له: اركب فرسك، واصعد سريعًا إلى الجبل، أبلغ السيد «مهدي» أن أمره انكشف، وقد يهجم الجند عليه قبل طلوع النهار.

أثناء عودته حاملًا قرطاس ملح، أخذه من بيت «محجوب»، لمح رجلًا يحاول الاختباء خلف جدار بيت جانبي، فأدرك أن شكوكه كانت في محلها. عاد إلى البيت، وقال لضيفيه: لم أجد ملحًا في هذا النجع البائس إلا في بيت بعيد.

استبقاهما حتى أكلا، وكان يطمئنهما وثلاثتهم يزدردون بشهية مفتوحة، إلى أنه سيمضي بعد أن يفرغوا من الطعام، ليوقظ الدليل.

لكن «مشحوت» قال له: لن نحتاج إليه، فقد تذكرت الآن الطريق إلى الجبل.

(20)

عاد العساس إلى قائد التجريدة، وحكى له ما رآه، فهز رأسه، وقال: يبدو أننا مضطرون إلى الانتقال إلى الخطة البديلة.

ثم نظر إلى العساس، وسأله: هل تعرف بيت الرجل الذي ذهب إليه الهارب ورجلنا؟

هز رأسه، وقال: أعرفه كما أعرف نفسي.

أمر القائد أغلب جنده أن يسبقوه إلى سفح الجبل وينتظروا، حيث وقفت الخيل والجِمال التي حملتها ثلاثة مراكب. استبقى معه عشرين رجلًا، قادهم داخل نجع نائم، والعساس يحدد له أين يمضي، حتى بلغت التجريدة الصغرى بيت «عسران». كان الباب مغلقًا، فدفعه الجنود بأقدامهم وانكسر الترباس، وصاروا داخل البيت، فلما لمحهم «سعدون» أخرج طبنجته سريعًا، ووضعها في رأس «عسران»، وقال لـ «مشحوت» مواصلًا خداعًا تدرب عليه طويلًا: نصب لنا صاحبك فخًّا.

وقف «مشحوت» مبهوتًا من فرط الفجيعة، لا يقدر على تحريك ساقيه، حتى أمسك به الجُند. قاد الجُند الرجلين إلى خارج النجع، وساروا بهما حتى بلغوا الجبل، فرأى «مشحوت» جندًا كثيفًا ينتظرون. كان «سعدون» يلاصقه، فنظر إليه متحيرًا، فقال له ضاحكًا: أديت واجبي، وأشهد بأنك كنت صيدًا سهلًا.

ثم همس في أذنه: ليس أمامك سوى أن تدلنا على الطريق إلى سيدك «مهدي» وإلا قتلناك.

تدخل قائد الجند: تضليلنا يعني صلبكما أو حرقكما وأنتما حيَّان.

تململ «عسران» و«مشحوت» في سيرهما، فدفعهما الجند بدباشك البنادق في جنبيهما، فندت عنهما صرختان مزعتا الليل الجاثم فوق الرمل والحصى والصخر. في هذه اللحظة كان الناضورجي يركب فرسه، ويضربها بقدميه في جنبيها لتسرع به نحو الشرق، حيث «مهدي» ورجاله.

(21)

لـم يفزع «مهدي» لما سـمعه مـن الناضورجي، حيـن دق باب بيته وأيقظه، وقال: ربما «عسران» يبالغ كعادته.

وما هي سوى ساعة حتى وصل ناضورجي آخر، وقال: تجريدة لم أرَ مثلها من قبل متوجهة إلى هنا، ولا يمكننا هزيمتها.

أرسـل «مهدي» الناضورجييـن لإيقاظ الرجال، فهبـوا فزعين إلى بنادقهـم. أمـا هو فأيقـظ «كاترين» وأركبها فرسـة عفيـة، ووضع على فرسـة أخرى ما اسـتطاع من صناديق المال والذهـب، وكان رجاله قد تجمعوا حوله، فقال لهم: نهرب بعيدًا ونراقب.

سـاعدهم العربان في أن يسـلكوا مدقًّا ينتهي إلى تلٍّ عالٍ يحجبهم عن الأنظار، فغابوا بعيدًا، حتى وصلوا مغارة مهجورة، فقال «مهدي»: نحطّ رحالنا هنا إلى حين.

(22)

لم يسـتطع «عسران» و«مشحوت» عصيان أمر الجند، فقاداهم إلى حيـث مملكة «الفلاتيـة» المهجورة. بلغوها والفجر يرمي غبشـه على الجبل. فزعوا لما رأوه. أرض مزروعة تحيطها الصخور العالية. بيوت مـن طابـق واحد مبنيـة من الحجر. بيت واسـع من طابقيـن يقف على الطرف في اتجاه النسائم البحرية.

صرخ قائد الجند في أسيريه: أين مكان الخبيئة؟

أخذه «مشحوت» إلى مكان قريب من البيت الوسيع. وقف فوق رمل، وقال: لنحفر هنا.

على الفور، ضرب الجنود دباشك البنادق، فهالت الرمل بعيدًا. أطل عليهم باب من حديد عليه أقفال غليظة. ضربوه بقوة لكنه استعصى عليهم. فقال القائد: أشعلوا نارًا.

جيء بالنار لتصهر الأقفال. حين احمرَّ الحديد حزوه بالخناجر في عنف فانكسر، وكان الحديد تحته قد صار جمرة كبيرة، فهالوا عليه الرمل. انطفأت النار، ثم أفرغوا فوقها ماء ثلاث قِرب ليبرد الحديد، فبرد، حين مد القائد يده، ورفع الباب انزاح عن سرداب فارغ.

صرخ القائد في «مشحوت»: أين الكنز الذي كنت تتحدث عنه في سجنك؟

أجابه وهو يرتعش: لا أعرف غير هذا المكان.

حاوره القائد طويلًا، وهو يتوعده، ثم أدرك أن الهاربين قد أخذوا معهم المال والذهب. أرسل ثلثي التجريدة تبحث عن الهاربين في الجهات الأربع. حين عادوا بلا أحد ولا شيء، قال القائد: أحرقوا كل شيء.

حرقوا الزروع التي كان موعد حصادها قد اقترب. حرقوا ما تبقى في البيوت من أثاث، فصارت خاوية. خلعوا سور البئر، وألقوا الأحجار في جوفه، ثم أهالوا فيه الرمل حتى طُمر الماء. حرقوا ألواح الإردواز في الكُتاب، وكل ما وجدوه فيه من قراطيس وكتب.

اندلع الدخان كثيفًا، فهرب النحل تاركًا خلاياه، وهجم الجنود عليها، يخلعون الشمع المملوء بالعسل، ويلهطون منه ما شاءوا، ويضعون البقية في أوانٍ التقطوها من البيوت المشتعلة فيها النيران، ثم حملوا بلاليص المش والعسل الأسود والأبيض، ورصات البتاو التي كانت واقفة في غرف الخزين، وأجولة الخبز المحمص، وزكائب الدقيق والسكر والأرز. رفعوا كل هذه المؤن فوق ظهور الجمال، التي كانوا قد جهزوها لحمل ما يجدونه.

بعدها وقف القائد بين جنده، وقال: سنعود ومعنا ما نهدم به كل هذه البيوت.

وقيَّد الجند أذرع الأسيرين من خلاف، ليؤخذا إلى السجن. وقال القائد لهما ساخرًا: لولا أنكما تعرفان وجه «مهدي» هذا لدفنتكما في السرداب الذي لم نجد فيه الخبيئة.

لم يبقَ في المكان سوى الرماد، وضريح «أبو سريع»، وأطلال بيوت شاهدة على أن رجالًا قد مكثوا هنا طويلًا، وأقاموا مملكة فوق الرمل والحصى، تنظر إليها التلال المحيطة في عجب، من قدرة الإنسان على صنع الحياة في قلب الموت. وغنَّى القوَّال على ربابته بصوت يفضي إلى البكاء. كان يطوح رأسه يمنة ويسرة، وكأنه يبحث عن دروب ضائعة أمام أقدام الهاربين:

فلاتي ينادي ليلاتي ع الخلا يستر هروبه

الخوف لمَّا يواتي السبع تهرب دروبه

حَيُّ الغُربَاء

telegram @
yasmeenbook

(1)

تهـدي الطبيعة وتجارب السـابقين الأذكياء من البشـر بعض سـبل الفـلاح والسـلامة. إنهـم أولئك الذين يسـتفيدون من قوانين الأشـياء حولهـم، ومما عركـه الذين دبت أقدامهم على هـذه الأرض ورحلوا. الأحمق فقط مَن يظن أنه جاء بغتة، وسـيظل معلقًا في الفراغ، لا أصل له مغروس في الطين، ولا هامة تلامس النجوم الزاهية.

تجربـة وحيـدة كان علـى «مهـدي» أن يبحـث عما يشـبهها فـي تاريخ أجـداده، وهو يجلس هناك أمام قصر أبيه سـاعة من النهـار ينظر إلى الزرع والنخل والشـجر، أو إلى النحل والنمل والفراشـات والجـراد والعصافير واليمام، بل إلى السحالي والثعابين في الجبال، ليتعلم منها كل ما ينقصه.

(2)

فر العربان لأنهم يدركون أن المماليك لن يصدقوا أبدًا أن فلاحين مـن الوادي قـد جاءوا إلى الجبل، وعمَّروا ما تحـت أقدامهم، دون أن يعلم هذا سـكان الصحاري الأصليين، وهم إن كانوا لا يجيدون فنون الزراعة، فدون شـك قد شـاركوهم التجارة، أو قبضوا ثمن بقاء هؤلاء الأغراب كل هذه السنين.

وحدهم العربان كان بوسعهم أن يعشُّوا على ما جرى في المكان الذي تركوه خلفهم. حين تلصصوا من بعيد، مرسلين هذه المرة، بعض نسائهم يركبن الحمير، ويسُقن أمامهن الماعز والغنم، عرفن أن المماليك قد دمروا كل شيء. حتى البيوت رأوها تتهدم بأيدي رجال يضربون فيها الأزاميل، فتتكوم أحجارًا، متآلفة مع التلال المحيطة بها من بعيد.

لم تنطق النسوة، وماعزهن تزحف نحو نباتات قليلة لم يطلها الحرق، لكنهن حين رأين الأزاميل تمتد إلى ضريح «أبو سريع»، رمحن نحو الهادمين، وقالت إحداهن: هذا شيخ مبروك منا، لا علاقة له بالأغراب، فلا تهدموه وإلا طالكم الأذى.

أنصت خولي الأنفار لهن، ورفع بصره إلى الضريح، وقال: اتركوه.

حين علم «مهدي» بما جرى، قال لرجاله: لا مكان لنا في الجبل.

نظروا إليه في عجب، فكلهم هاربون من الوادي إلى الصحراء بحثًا عن أمان وصحبة ورزق ولو شحيح يبقيهم على قيد الحياة. سألوه، فأجابهم: نبتعد ونبحث عن مكان آمن.

نادى شيخ العربان، وأعطاه مالًا وذهبًا مما معه، حتى يتركهم يغادرون إلى حيث شاء رجل لا يزال مسكونًا بالأرض العفيَّة التي قسَّمها أولو الأمر بين الكبار، يعصرون فيها عرق الفلاحين ودماءهم، من أجل أن تمتلئ خزائن السادة بالمال.

حين هبط «مهدي» مع زوجته وطفله ورجاله إلى الوادي، نظر إلى «كاترين» وقال: آن الأوان أن تكوني سيدة في بيت وسط الناس.

(3)

نـزل «مهـدي» ورجاله إلى «قنـا». كان في الطريق إليها قد اسـتعاد حكاياته حول «أبو سريع»، وقال لرجاله:

- هو الوحيد الذي نجا من أيدي العابثين.

نظـروا إليه مسـتطلعين ما يفكر فيه، فقال: حـول ضريح «القناوي» تكون أيامنا القادمة.

(4)

تحدث الناس في «قنا» طويلًا عن تاجر أتى من بلاد بعيدة، بعد أن ناداه «القناوي»، فترك دنيا مُنعمة خلفه، ورضي أن يكون مجرد مجاور للشيخ الكبير.

كانوا يستعيدون الحكاية ويتعجبون، لكنهم امتثلوا في النهاية لقول واحد من المتصوفة، شاع قوله حتى صار على طرف كل لسان: أوقات المسرَّة لا تغر إلا الغافلين.

(5)

أجَّر «مهدي» بيوتًا لرجاله بالقرب من ضريح «القناوي». سكن هو بيتًا مناسـبًا، كما وعد «كاترين»، كانت أمامه باحة واسـعة يلتقي رجاله فيها. لم يرضَ الشـيخ «مكـي الطماوي» أن يكون لـه بيت، إنما قضى أيامـه إلى جوار ضريح الشـيخ، يجلس في المسـجد منذ صلاة الفجر حتى العشاء، وينام في الساحة المترامية أمامه.

وقال «مهدي» لرجاله: لا تنسوا أن العسس في كل مكان.

وإمعانًا في الاختباء اقترح عليهم أن يقيموا حضرة مساء كل جمعة في ساحة بيته. وأرسل إلى «الطماوي» مَن اصطحبه إلى بيته، وقال له: نحن مريدوك يا مولانا.

ابتسم «الطماوي»، وقال: لك من المعرفة والبداهة يا سيدي ما يجعلك تقوم بهذه المهمة.

لكن «مهدي» كان يعرف أن له في الحياة طريقًا آخر، وهو إن خدع الغرباء، وكان مكشوفًا لأقربين منه يجارونه، فلا يجب أن يخدع نفسه. أخذ بيمنى «الطماوي» وداس عليها، وقال: لا يبدأ هذا الطريق بالهزل.

اندمج الرجال في دورهم الجديد، مستندين في تدبير عيش أسرهم على ما يعطيه لهم «مهدي» أول كل شهر هجري. أمَّنوه على المال، وأخلص هو لحقهم فيه، لكنه، كسليل عائلة يُحسن بعض رجالها إدارة ما في أيديهم من مال، قال لهم ذات مساء: إن بقينا بلا عمل، نفد ما معنا، ومددنا أيدينا إلى الناس.

ضحك «سبعاوي»، وقال: يُقال إن الصوفية هم أول مَن أدخلوا الحشيش إلى مصر، ليعينهم على السهر والتجلي.

قهقه الرجال، وسألهم «مهدي» في اهتمام: ولماذا لا يكون الشيء الآخر الذي نعرفه جيدًا؟

اشترى دكانًا واسعًا في الشارع الخلفي لمقام «القناوي»، صار وكالة كاملة وقسَّمه إلى ثلاثة أقسام، الأول للعلافة، والثاني للعطارة،

والثالث للتوابل، وأوكل رجاله لشراء ما يلزم لبدء تجارته الجديدة من «وكالة الجداوي». أرسل آخرين لجمع الغلال، فساحوا في القرى المجاورة، كل واحد على حمار. باع الحمير واشترى ثلاثة بغال تجر ثلاث عربات «كارُّو»، وجعل على كل عربة ثلاثة رجال. جعل اثني عشر من الرجال باعة في الدكان الواسع، يتبادلون الورديتين، الصباحية والمسائية. واختار اثنين منهم سقاءين يملآن أزيار بيوتهم بالماء الذي يغرفونه في القِرَب من النهر. جعل رجلين يخدمان مَن يقصد بيته ليطلب طعامًا أو شرابًا.

شاركت زوجات الرجال في إعداد الطعام يوم الحضرة، فاقتربن أكثر من «كاترين». التقطت منهن الكثير من الكلمات والعبارات، فتحسنت لهجتها الصعيدية. أصر «مهدي» أن يرسل الرجال أولادهم إلى الكُتَّاب القريب من مسجد «القناوي»، وكان يجلس هو قبل الحضرة يراجع عليهم بعض ما حفظوه من القرآن والأحاديث النبوية والشِّعر.

مع الأيام ربحت التجارة، فاسترد ما كان قد أعطاه للعربان، وما أنفقه على رجاله في الشهور الأولى، التي ظلوا فيها بلا عمل. ساوم أصحاب البيوت المكتراة على شرائها، فوافق بعض الملاك، وأبى آخرون. لم تمضِ سوى سنة واحدة حتى كان لكل رجل بيت يملكه، سواء كان يؤجره من قبل ثم اشتراه من صاحبه، أو كان بيتًا جديدًا بالقرب من الوكالة.

بلغ صيت «مهدي» المدينة كلها، فانضم إلى حضرته رجال جدد، كانوا يقصدون الذكر والطعام. ضاق بيته عن طهي ما يأكله كل

هؤلاء، فاشترى مكانًا وبنى فيه أفرانًا للخبيز، ومواقد للطهي، وخزائن للمؤن.

في أيام مولد «القناوي» كانت رصات البتاو وصواني الطعام تُنقل إلى خيمة، يقصدها القادمون إلى المولد. ولأن كل خيمة تتبع طريقة، كتب على خيمته «الطريقة المكية الشاذلية»، نسبة إلى المجذوب، الذي جاء معهم من الجبل.

لكن الناس كانوا يسمونها «خيمة المهدي»، حتى قال أحدهم ذات يوم بعد أن أكل حتى التخمة: يبدو أنه المهدي المنتظر.

وكما كان «مهدي» بارعًا في نسج أسطورة «أبو سريع»، التقط رجاله بعض براعته، فألقوا على الأسماع حكايات عجيبة عن صاحب الوكالة والخيمة، وأطلقوا على المكان الذي يسكنه الرجال «حي السالكين»، ووصفوا الرجال أنفسهم بالغرباء؛ لأنهم رأوا أن ما يفعلونه في خدمة الناس من ربح تجارة حلال شيئًا بالغ الغرابة، في أيام بلغ فيها الفقر مداه.

(6)

لكل ناجح حاسد، يسعى خلفه بالشر، أو يثير حوله الضغائن. أي منفعة لا تذهب هينة إلى مَن يقصدها. ففي أيام الندرة تتكالب الكثرة على الفُتات. قصعة واحدة وجوعى كثيرون، وحين تجوع البطون ينظر أصحابها، خاضعين أو طامعين، إلى مَن يملك الطعام، بعضهم يأكل ويشكر ويمضي، وبعضهم يتساءل: من أين يأتينا بكل هذا الطعام؟ وهناك مَن يتطوع بالإجابة: لا يمكن أن يكون كل هذا من الوكالة.

فتح السؤال أسئلة حول «مهدي» ورجاله الغرباء، الذين هبطوا على «قنا» فجأة. لم يتوجس الناس منهم في البداية، فمقام «القناوي» يقصده المصريون من كل مكان. حتى بعض سكان مديريات الوجه البحري يأتون إليه، سواء كانوا من مريدي الطرق الصوفية، أو أولئك الذين يتباركون بأولياء الله الصالحين.

كان أول مَن أثار الأسئلة وأطلق الشكوك في نفوس الناس، هو «صميدة» صاحب وكالة تبيع ما يبيعه «مهدي». كان قبل مجيء الغرباء يحتكر التوابل والغلال في المدينة كلها، ويفرض ما يريد من سعر على الزبائن، ويعاملهم في تمنع وصلف.

كان يشبه «درويش إبراهيم الجابر» في كثير من طباعه، يتفنن في صناعة الأذى بمَن يراهم خصومه. جاءت أول ضربة وجهها إلى «مهدي» عن طريق «قابض الضرائب» الذي كان يُحصِّلها لكشوفية السنجق، فينفق منها على الإقليم، الذي يتولى شؤونه، أما حصيلة أرض الالتزام، فكانت كالعادة، تتجمع في المحروسة، وتذهب خراجًا إلى السلطان في «الآستانة».

لم يكن «مهدي» يتهرب من الدفع، ولا يقدر هو أو غيره من التجار على التهرب، وإلا دُمرت تجارتهم وسيقوا إلى السجن. كان قابض الضرائب يُحصِّل من «مهدي» المبلغ نفسه الذي يأخذه من وكالة «صميدة» سنويًّا. فلمَّا جاء في آخر العام، قال له «صميدة»: أسألك العدل، وهو اسم الله فلا تخذلني.

تطلع إليه الرجل في استغراب، وسأله: هل عهدتني ظالمًا من قبل؟

فاقترب منه في تودد، وقال: حاشا لله، لكن أريد أن أنبهك إلى ما غفلت عنه.

صمت الرجل، فواصل «صميدة»: وكالة «مهدي» تبيع أضعاف ما أبيع، وتربح بلا حساب، وليس من المعقول أن يدفع ما أدفعه، دون زيادة.

قال قابض الضرائب: نراجع دفاتره، ونرى.

ابتسم «صميدة»، وقال: ورثت هذه المهنة عن أبي، ولا أعرف أنها تعطي صاحبها كل هذا المال.

سأله في اندهاش: ماذا تقصد؟

قهقه، وقال: راجت تجارة الحشيش في المدينة، ولم يراعِ الأوغاد أن بها المقام الطاهر.

ثم مد يده في جيبه، وأخرج صُرة نقود، ودسها في يد قابض الضرائب، الذي وضعها في جيبه، وقال: هذا كثير.

رد «صميدة» وهو يداري فرحته: هناك أكثر لو قام العدل على يديك.

(7)

فوجئ «مهدي» بمضاعفة الضرائب ثلاثة أمثالها، فسأل القابض عن السبب، فأبلغه أن رواج تجارته قد بلغ السنجق، وهو مَن يحدد ما

يُقبض، ولا راد لكلمته. دفع إليه ما أراد، ثم قال لرجاله قبيل الحضرة، وهو ينفخ في أسى: يريدون مشاركتنا في رزقنا بلا حياء.

عرف بعد أيام أن منافسه في التجارة وراء ما جرى. قال له هذا «دياب»، وهو أحد العسس، استماله وأجزل له العطاء، فكان أذنه وعينه على أولي الأمر في المدينة. فكَّر «مهدي» في أن يفتح باب رزق آخر، فقال للرجال بعد انتهاء الحضرة: عزمت على تجارة جديدة.

سأله «خراجة» وهو ينظر إلى وجوه الرجال: أي تجارة يا سيدنا؟

أجابه، وهو ينظر إلى بعيد، ليرى ما لا يرونه: ابن عمي في المحروسة يتاجر في الأقمشة، وأعرف أنها تُدر عليه دخلًا وفيرًا، ويمكنه أن يمدنا بما نريد.

وتبادل الرجال النظرات، وقالوا: نحن لا نفهم في هذا الكار.

ابتسم، وقال: اتفقت مع اليهودي «هارون منشة» على العمل معي. زدت أجره عما يتقاضاه في «وكالة عامير» للأقمشة فوافق. سيأتي من الغد ليشرف على النجارين وهم يحددون أماكن تركيب الأرفف. عليكم أن تلازموه وتتعلموا منه.

ووصف لثلاثة من رجاله دكان «خير الله» في المحروسة الذي كان قد اتسع مع الأيام، فصار وكالة أيضًا، وقال: اركبوا النيل، وسأعطكيم المال، وهاتوا من عنده ما يصلح للبيع هنا.

اتصل حفيدا «الصابر» رغم بُعد المسافة، وتعززت بينهما المنفعة من التجارة، والصُّحبة من الرسائل المتبادلة، التي كانت لا تخلو أحيانًا

من ذكر بعض ما ورثوه من حكايات عن «الصابرية» التي ضاع اسمها ذات يوم بعيد.

(8)

فُرضت ضريبة جديدة على دكان الأقمشة، دفعها «مهدي» رغم فداحتها. رضي بما يتبقى من أرباح تلبي احتياجات بيته، وأجور رجاله، ونفقات ما يُذبح ويُطهى ليأكل الرجال وعابرو السبيل والمجاذيب وكل مَن يقصده من مريدي الشيخ «القناوي».

يهون كل تعبه حين يختلي إلى ابنه «فخر الدين»، الذي شب عن الطوق، وصار صبيًّا لا يخفى ذكاؤه وفطنته على أحد. أخذه معه إلى الوكالة ودكان الأقمشة، وكان حريصًا على أن ينقل إليه خبرته، فتلقاها مسرورًا، حتى أسند إليه بعض المهام الكبرى في تجارته، فلم يخذله.

(9)

تخبئ الأيام ما لم يكن في الحسبان. تدخره صامتة كحية رقطاء، رابضة تنتظر ضحية لاهية لتلدغها. فجأة ضنت الأيام بمسراتها، وفتحت باب الأوجاع على مصراعيه، فانهمرت المصائب على الرؤوس، لتنسى أنها قد تنعَّمت، ولو ساعة من النهار، بالراحة والسكينة.

وكما قال السابقون، وآمن اللاحقون: «المصائب لا تأتي فُرادى».

(10)

انتفض «مهدي» واقفًا ينظر إلى رجل دخل الوكالة، وخلفه سيدة وصبي وفتاة. فرك عينيه، لا يصدق ما يرى. غاب عن عقله كل شيء لحظة، ولم يدرِ إن كان مَن يُقبل عليه حقيقيًّا أم طيفًا رماه حلم يقظة أو حلم ليل أتى في النهار.

جرى نحو القادم إليه، وأخذه في حضنه، وقال: شرَّفت الصعيد يا «خير الله».

وقبَّل وجنتي «أحمد» و«رابحة»، ومد يده ليصافح «كريمة» فمدت إليه يدها مدسوسة في طرف طرحتها. أفسح لهم مكانًا في الوكالة، ورص الرجال ثلاثة كراسي للضيوف، وجيء بمشروب الخروب والدوم. راح «خير الله» يرشف على مهل، مُطرقًا في تفكير عميق، فنظر إليه «مهدي» وقال: زيارة عزيزة كم تمنيتها.

وضع الكوب جانبه، وقال: زيارة ستطول.

رفع عينيه إلى الرجال الذين ترك أحدهم البيع، ومد ناظريه إلى الضيف ومَن معه، فقال «مهدي»: نقوم إلى البيت، وهناك تنبئني بكل شيء.

(11)

عاش «خير الله» وسط أسرته وتجارته مُنعَّمًا، يدفع ما عليه من ضرائب إلى قابضها بانتظام، ويعطي الفتوة «سلومة البطش» ما يحدده من إتاوة بلا تردد.

سعى «خير الله» إلى أن تكون علاقته بالفتوة طيبة، وكان يعطيه فوق الإتاوة كل سنة ثوبًا من الجوخ، ولاسة من الحرير، ويقول له: كرامة فتوتنا من كرامتنا.

ظن أن الحياة ستمضي على حالها، إلى أن ضجت الحارة في عصر يوم قائظ بزفة مدوية. ظهر رجال يرفعون نبابيتهم في وجه المشربيات، ووجوه النساء التي تطل من خلفها في توجس. ظهر رجل ذو جسد فارع ممتلئ، قبيح المنظر، يشرخ الهواء بنبوته، ويفتح فمه منتشيًا، وهو يسمع مَن يصرخون حوله: أبو ضب.. أبو ضب.. اسم الله عليه.

تهامست النساء في البيوت باحثات عن الخبر، فجاءهن به الرجال الكادحون في الدكاكين والورش، حين حلَّ المساء، وقالوا: هُزم البطش في معركة حامية.

أُبتلي «خان الخليلي» بفتوة جديد غاشم اسمه «فرجوح أبو ضب»، أخذ اسمه من هيئته، فهو يوسع بين ساقيه في سيره كأنه يريد أن يملأ الحارة، وله أسنان بارزة تستعد لتمزق أي جسد يقابله. ومعه عصبة من القُساة المجانين.

كان «أبو ضب» قد رتَّب أمره مع أهل الحكم، يرشو صغارهم قبل كبارهم، ويعس لهم على مَن يفكر في التذمر أو الغضب، ويتولى تأديبه، فأطقلوا يده تعبث بالناس كما يشاء. ضاعف الإتاوة على الجميع. أما بالنسبة لـ «خير الله» فضاعفها ثلاث مرات، وقال له: عقاب لك على صحبة «البطش» الخسيس.

كان «خير الله» حكيمًا بين التجار، يقصدونه لفض نزاعاتهم، وحل أي مشكلات تقع بينهم، ويستدينون منه إن احتاجوا، ثم يردون الديون في امتنان. وكان «البطش» يعرف أن «خير الله» يقضي بين الناس من دونه، فصمت على هذا، وقال: حتى أنا أحتاج إلى حكمته في الأوقات العصيبة. وحين نبهه بعض رجال عصابته إلى أن هذا قد يُنقص من قدره أمام الناس، قال لهم في حسم: الكل يعرف أنه صاحبي، ويعيش، مثل غيره، في حمايتي.

لجأ التجار إلى «خير الله» ليقودهم إلى تفكير في مواجهة الفتوة الجديد الغاشم. تداولوا خيارات كثيرة أولها اللجوء إلى الوالي، لكن أحدهم قال: هذا رجل لا يشغله سوى زيادة الخراج، وإن شكونا إليه، ربما ينتبه إلى ما معنا جيدًا، وقد يزيد الضرائب، فنخرج خاسرين.

اقترح أحدهم الذهاب إلى القاضي، لكنهم كانوا جميعًا يعرفون أنه رجل مرتعش ومرتشٍ، على النقيض من سابقه. قال «خير الله» وهو ينظر في وجوههم: لا يفل الحديد إلا الحديد. تطلعوا إليه، فقال: نرسل إلى «فرماوي أبو شنب» فتوة الحسينية، ونفتح له بابًا لنكون تحت حمايته، فهو على الأقل لا يخرج عن أصول تعارف عليها الفتوات.

وافق الرجال على هذا الاقتراح، وأرسلوا إلى «أبو شنب»، لكنه كان يدرك أن خطوة من هذا القبيل لا بد أن يبدأها بموافقة قائد فرقة الإنكشارية. ولمَّا عرف الأخير أبلغ «أبو ضب» بما جرى، فطفح الشر من رأسه، وجأر من فرط الغضب، وأقسم ألا يُبقي لـ «خير الله» شيئًا، وإن لم يقتله أعاده متسولًا مشردًا، أو بهلولًا من مجاذيب الحسين.

بلـغ «خير الله» الخبر، وقال له مَن اجتمعـوا معه بالأمس: اختفِ أيامًا حتى يهدأ.

هرب بأسرته إلى بيت تاجر أقمشة في «عين شمس»، ربطت بينهما صداقـة عميقة، وأرسـل مَن يعس له علـى الأخبار، فجاءته أسـوأ مما تصـور. نهب رجال «أبو ضب» دكان «خير الله». باعوا محتوياته بثمن بخس، وبعض التجار الذين تداولوا معه الأمر اشـتروا ما قدروا عليه. ضـرب رجـال الفتوة نبابيتهم في أرفف الدكان فصـارت حطامًا. نُهب بيته في «الغورية»، فُعل في أثاثه ما فُعل في الأقمشـة، واشـترى بعض الناس ما كومته عصابة الفتوة في الشارع، والأدهى أن «أبو ضب» أخذ كل ما كان يدخره «خير الله» من نقود وذهب.

شرح له رسوله الأمر وهو يتصبب عرقًا، ثم قال له: أقسم الظالم إن رآك سيقتلك. فلم يجد أمامه من سبيل سوى الهروب إلى الصعيد.

(12)

ترك «مهدي» دكان الأقمشة لـ «خير الله»، وقال له: واثق أنه سيكبر معك ويصبح وكالة كبرى.

لـم يرضَ «خير اللـه» أن يكون رزقه خصمًا من رزق ابن عمه. كان يخشـى أن يكون قـد أثقل على رجـل ذي همة، لكن «مهـدي» قال له ذات يوم حين صارحه بمشـاعره: ما أنا فيه من خير كان أساسـه البعيد هـو المال والذهب الذي صحب جدنا «سـالم»، وهو رضيع رموه في الصحراء ينتظر الموت.

صبـر «خير الله» على مـا آلت إليه حاله، حتى انفتح أمامه ذات يوم باب رزق لم يدُر بخلده أبدًا.

(13)

كان يمر بـ «خير الله» في دكان الأقمشـة بخان الخليلي رجل ثري من أهل الصعيد اسمه «عطوة السايح»، فيُحسن ضيافته، ويمنحه سعرًا خاصًّا لما يشـتريه من أقمشـة فاخـرة. حين توطدت علاقتـه به قال له ذات يوم:

- في بلدنا ما هو أثمن من تجارة الأقمشة.

ابتسم يومها، وقال: لا أعرف غيرها.

نظر إليه الرجل وقال: أنا أعرف، وليس مطلوبًا منك سوى جزء من أموالك، وستعود إليك أضعافًا. ثم أبلغه بأنه يعمل خفية في استخراج الذهـب من الصحراء الشـرقية، ويحتاج إلى توسـيع عمله، فيجلب له رجالًا من السودان والحبشة، يبرعون في هذه المهنة، لكن هذا يتطلب مزيدًا من المال.

أنصت إليه «خير الله» يومها، ثم قال: دعني أُدِر الأمر في رأسي.

أعطاه الرجل يومها عنوان بيته في «أسـوان» وقال: إن غيرت رأيك فأنا أنتظرك، لترى بنفسك، ويطمئن قلبك.

لكن «خير الله» أصبح على فيض الكريم، ولم يكن أمامه من سبيل سوى أن يفاتح «مهدي» في الأمر. اختلى به في ركن من دكان الأقمشة، وباح له بما يفكر فيه، فقال له: سنضع مالنا على حافة الخطر.

ابتسم يومها وقال: منذ متى كانت التجارة تخلو من المخاطرة؟

هز رأسه، وقال: اتركني أفكر، فربما لا يكون أمامنا سوى العودة إلى الجبل.

(14)

كان «مهدي» قد بلغه منذ أيام ما جرى في مولد «القناوي»، داخل خيمة البهجة والافتتان. جاء إليه «سبعاوي» لاهثًا، وقال بحروف متقطعة من فرط الخوف والتعب: انكشف الأمر يا سيدنا.

حكى له أن جوقة «عبد الوارث» نصبت خيمة في مولد «القناوي»، وأن «خراجة» ذهب إليها، وعبَّ من البوظة حتى ترنح، وفعل ما فعله في الجبل دون أن يدري. ثم التقط الرجل أنفاسه المبهورة، وقال: تخيل يا سيدنا أنه طلب من الجوقة مرارًا مديح تجار المخدرات، وكان يجلس في الصف الأول بين الحاضرين رجال من جند المماليك والإنكشارية وعسسهم.

بصق «مهدي» غاضبًا، وقال: لا بد أن نبعده عن هنا.

طأطأ «سبعاوي» رأسه، وقال: عرفته «زارا» وفضحته أمام الجالسين، وغنى «عبد الوارث» الموال الذي ارتجله عنا في الجبل.

صرخ «مهدي»، وقال: كلب، أحسنت إليه فغدر بي.

زاد «سبعاوي» من مخاوف «مهدي»، حين قال: تردد اسمك على النصبة، حين حياه «خراجة» مرات على أنك كبيرنا الذي علمنا الكسب، فتبادل الحاضرون من العوام النظرات في حيرة.

وجم «مهدي» كاتمًا غضبه وخوفه، لكنه لم يقدر حين طأطأ «سبعاوي» رأسه مرة أخرى، وقال: كان بين الحاضرين بعض الباعة في دكان «صميدة».

صرخ «مهدي» من جديد: هذه مصيبة كبرى.

ثم أمر «سبعاوي» وهو يعض على أنيابه: هات لي «خراجة» حالًا.

(15)

كان العسس ومعهم بعض الجند قد تعقبوا «خراجة» وهو يعود إلى بيته مترنحًا، بعد أن ظنوا أنهم قد وجدوا خيطًا لأسباب انتشار المخدرات في المدينة. قبل أن يدفع الباب ليدخل، وجد أيادي غليظة تقبض على كتفيه، فالتفت إليها حيث يُمسك، وحين رأى الجُند، طار من رأسه الخمر، وقال: أنا من رجال السيد «مهدي»، وأنتم تعرفونه.

لم يكن مدركًا ما فعله، فقال لزوجته التي مدت رأسها من نافذة ضيقة في صدر البيت: أبلغي سيدنا بما جرى.

سار معهم وهو لا يعرف سبب القبض عليه، حتى وجد نفسه في غرفة مظلمة. دخل عليه جنديان واصطحباه إلى ساحة فارغة، وألقياه على الأرض يتخبط في حيرته. لم تمضِ سوى دقائق، حتى برز من باب جانبي رجال يتقدمون مقرفصين، وخلفهم جنود، يقودهم رجل لم يرَ في غلظته. كان يأمرهم بما يخرق أذني «خراجة» فرأى آثار أمره، حين انهال الجُند على ظهور الرجال ضربًا بالسياط.

تقدم الرجل الغليظ نحو «خراجة»، وقال له: هذا أقل تعذيب لدينا.

ثم ضربه برجله فانطرح على الأرض خائرًا، وهو يسمع مَن يقول له: لأمثالك النطع والخازوق.

اجتاحه الفزع، فبال في سرواله، وهو يسمع من جديد: بوسعك أن تتجنب كل هذا إن تعاونت معنا.

رد في رجاء: أنا تحت أمركم.

لم تمضِ سوى ساعة حتى كان قد اعترف بكل شيء، منذ هروبه من قريته قبل سنين، وحتى دخوله الخيمة. ونقل مَن استجوبوا «خراجة» ما سمعوه إلى نائب السنجق، فنظر إليهم متسائلًا: أليس «مهدي» هذا هو صاحب الوكالة القريبة من المقام؟

(16)

حين عاد «سبعاوي» من بيت «خراجة»، قال لسيده: أبلغتني زوجته بالقبض عليه.

جرت أمام عيني «مهدي» كل أيامه السابقة في لحظة. ترامت أخرى مسكونة بالخوف والحيرة. دفعته نفسه إلى سلوى كاذبة، فسأل «سبعاوي»: هل يقدر «خراجة» على كتمان السر؟

أجابه على الفور: إن لم تذهب عزيمته بالتعذيب، ذهبت في هذيان السُّكْر.

قفزت إلى ذهن «مهدي» سلوى أخرى، فسأل «سبعاوي» في لهفة: هل تعرف «دياب»؟

هز رأسه، وأجابه: أعرف بيته أيضًا.

أرسله إلى «دياب» فجاءه يلهث، وقال: كنت سآتيك قبل أن ترسل إليَّ. الأمر خطير، وقد يهجم الجُند على دكانك وبيتك، أو على أقل تقدير يرسلون في استدعائك أولًا.

سأله بصوت خفيض: بِمَ تنصح؟

أجابه في إشفاق: استضعفوا رجلك فاعترف بكل شيء، وقد كتبوا ليستخبروا عنك من سنجق الإقليم الذي أرسل جُنده إلى الجبل للإمساك بك قبل سنين.

ضرب «مهدي» مسند مقعده بقبضته في غيظ، وقال: قُدر لي أن أظل هاربًا.

وترامى صوت القوَّال إلى أذن «مهدي»:

الخطوة سابقة أختها والعمر وَلَّى هرايب

دي عيلة مال بختها ومين يلم القرايب

telegram @yasmeenbook

الفهرس

إهداء 5

الرُّبَى واليَمَـام 7

الصَّوابِر والجَوابِر 41

ظِلالُ الجُنينَـة 123

رياحُ السَّموم 153

الظفرُ واللَّحـم 190

الفَلَاتيَّة 235

حَيُّ الغُربَاء 284

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الثاني

حسن، عمار علي.
ملحمة المطاريد: رواية / عمار علي حسن. - ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
280 مج 2؛ 20 سم.
تدمك: 7 - 502 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
2- الملاحم العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 29086 / 2024

telegram @
yasmeenbook

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriahbookstores.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

عمار علي حسن

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الثاني

telegram @
yasmeenbook

الدار المصرية اللبنانية

نَجْعُ بَحْر

(1)

تضيق أرض الله على وسعها بمَن لا يعرف إلى أين يذهب. لا وطن لمُطارد إلا ما في جيبه. الهارب قد يثقله الخوف على مَن معه، أكثر من ذلك الذي يسري في دمه. لكن كيف لرجل أن يرى وجهه في مرآة أو بئر عميقة، إن تخلى عن أهله؟

(2)

لم يُبلغ «مهدي» بقية رجاله بما جرى، فهم مثقلون بزوجات وعيال، وخروجهم جماعة سيلفت النظر إليهم، وقد يبلغهم الجُند قبل أن يخرجوا من «قنا» كما دخلوها ذات يوم بعيد. كانت الحسرة تسكنه على نذالة اضطر إليها، لكن ما عساه أن يفعل، والوقت ضيق، وقال لنفسه، وهو يجمع في سرعة خاطفة ما في بيته من مال، ليس بالكثير: «إن جاك الطوفان حط ابنك تحت رجليك».

لكنه لم يترك ابنه وزوجته، وكذلك أخاه وأسرته. هم فقط ومعهم «سبعاوي» الذين هربوا بصحبته. كان الأخير قد رفضت زوجته وأبناؤه القدوم معه يوم ذهب لاستصحابهم كبقية الرجال إلى الجبل، فسهل هذا لـ «مهدي» أن يتركه يرافقهم.

خرجوا من «قنا» متوجهين جنوبًا، يرتدون زي الأزاهرة، الذي كان يُباع في دكان الأقمشة. قفطان وعمامة بيضاء أوسطها قرمزي داكن. اقترح «خير الله» هذا، وقال لـ «مهدي» وهو يخطف اللباسين من الدكان: تغيير هيئتنا سيُسهل هروبنا.

كان الفيضان قد أتى غامرًا، فحال بينهم وبين العبور إلى الشرق. نظر «خير الله» إلى الماء الذي يجرف أمامه كل شيء، وقال: حتى النهر غاضب منا. وابتعدوا نحو الجنوب الغربي، فلما اقتربوا من رمل الصحراء، قال «خير الله»، وهو يشير نحو الجنوب: هناك بيوت ونخيل، نذهب لنتزود بالماء والطعام.

في الطريق إلى ما رأوه، قابلوا فلاحًا يمتطي حماره، فسألوه: أي بلد هذا؟

توقف ونظر إليهم مليًّا، ثم قال: نجع بحر.

وبلغ خبر دخولهم النجع، الذي ترامت بيوته بين الزرع والرمل، «شيخ البلد» فأرسل خفيره يدعوهم لبيته، فقال له «مهدي»: نريد شراء طعام وقِرَب ماء من بلد الكرام.

رمى الرجل بصره نحو الصحراء، وأجابهم: لا يدخلها أحد لا يعرفه شيخنا «مرعي عبد الصمد»، هذا سلو يجري بينه وبين العربان.

وصلوا بيت «مرعي» والشمس تميل إلى الغروب. دخلوا إلى مندرة الضيوف، وجلسوا يتبادلون النظرات، ثم حط نظر «خير الله»

على تمثال واقف في الركن، لرجل أسمر فارع الطول، يمد بصره إلى البعيد، وعلى شفتيه ابتسامة عذبة.

دخل عليهم «مرعي» مرحبًا، وقال: أهلًا بضيوفي الكرام.

وتطلع إلى ما يرتديه «مهدي» و«خير الله»، وقال: مقدور لهذا البيت أن يدخله الأخيار.

جاء الخدم بصوانٍ مرصوصة فوقها أكواب الدوم والخروب والعرقسوس، مدوه إلى الجالسين، فأخذ كل منهم ما يريد. راحوا يشربون على مهل، و«مرعي» يتطلع إليهم صامتًا. ثم قطع الصمت سائلًا: من أي بلد أنتم؟

همَّ «خير الله» أن ينطق، لكن سبقه «مهدي»، وقال، وهو يشير إليه: دُرنا في بلاد كثيرة نعظ الناس ونعلمهم، وللأمر نفسه سنقطع الصحراء إلى الواحات، فهناك طلبة علم ينتظروننا.

ابتسم «مرعي» وقال وهو ينظر إلى الزي الأزهري للرجلين: خيركم مَن تعلم العلم وعلمه. ثم ضحك فبانت ثناياه التي ضرب السوس بعضها، وقال: حفظتها من شيخ الجامع.

هزا رأسيهما في امتنان، وهما يشعران بأنهما قد قطعا أول خطوة في طريق الأمان. لكن «مرعي» فاجأهما بسؤاله: كيف تُتركان هكذا بلا حراسة أو مؤونة أو خيل أو جِمال تعينكما على بلوغ الواحات البعيدة؟

لكن «مهدي» وبخبرة رجل عرك كيف ينجو من المزالق قال: أُعطينا مالًا لهذا، وقيل لنا أن نتزود بما نريد من نجعكم.

تـاه «مرعي» قليـلًا، وقال: طلبكـم مُجاب، لكنكم فـي حاجة إلى ونس ودليل.

أشـار «مهدي» إلى «سـبعاوي»، الذي كان يتابـع الحديث صامتًا، وقال: البركة في الرجل، يعرف الطريق.

قهقـه «مرعـي» وقال: إنهـا مئات الأميـال، لا تخلو مـن الوحوش والثعابين السامة، وقطاع الطرق، وهؤلاء أوعر.

ثم صمت برهة، وقال: تبيتون الليلة عندي، وفي الصباح يكون كل ما تحتاجون جاهزًا.

وجـاء أحـد الخفـر، وهمـس فـي أذن «مرعـي» فقال: ليـأتِ على الفور.

دخل عليهم رجل طاعن في السـن، يتـوكأ على عصاه، جال ببصر كليل في الوجوه، وقال: لا يخلو بيت شيخنا أبدًا من الطيبين.

قدمه إليهم «مرعي»، قائلًا: جدنا جميعًا «بدران أبو الفيض»، كسر المائة عام، لكن ذاكرته على حالها.

ثم نظـر إلى التمثال، الذي كان بصره ممـدودًا إلى عيني «مهدي»، وقال: لولا العم «بدران» ما عرفنا شيئًا عن صاحب هذا التمثال.

ضحك «بدران» عن أسنان مثرمة، تحط على أطرافها زرقة، وقال: كلمـا أتـى إلينا أحد، طلب مني شـيخنا أن أحكي له مـا كان في الزمن البعيد.

(3)

حكاية غريبة، تناقلها الناس في النجع، وأضاف إليها كل جيل من عنده الجديد، حتى استوت أسطورة بازغة. ظلت تجري على الألسنة بلا انقطاع، في الحقول وقت الكدح، وفي رحلات الصحراء بين حين وآخر، وعلى مصاطب السمر في الصيف والربيع. تغنَّى بها القوَّالون في البلاد، ونسجوا حولها الأشعار والأمثال والمواويل.

(4)

أغمض «بدران» عينيه ليرى، فانهمرت الحكاية من جوف زمن بعيد. رأى رجلًا رائق السمرة، بصحبته امرأة مخبوء جسدها الليِّن في ملاءتها، لها عينان نجلاوان كحيلتان، قادرتان على الفتك بكل مَن ينظر إليهما مرة واحدة.

الرجل كان يُقال له «بحر» والمرأة اسمها «سابا»، ظُلم الرجل في بلد بعيد، أبعدوه عمَّن يعشقها، فوجد نفسه مع مَن تعشقه. خرج بلا مال ولا جاه، محتارًا في اختيار الطريق. لكنَّ هاتفًا ناداه، وهو يهم ليركب النهر إلى الشمال، أن يتوجه إلى الجنوب، فهناك مَن ينتظره. كان صوتًا جليًّا جليلًا، يُقال إنه قد سمعه كأن مَن أطلقه يقف إلى جانبه، فحدثه كما يُحدث الصاحب صاحبه، حتى إن «سابا» ظنت به الجنون. قال لها، وهو ينظر إلى السماء الطليقة: نوديت وسأستجيب. صرخت يومها، وقالت: سمعت في بيت سيدي «درويش» أنكم «آل بخيت» يمسكم الجنون في أيام الخوف والحيرة.

لم يرد عليها، وقال: الزوجة تكون حيث زوجها.

وكانت قد استملحته حين اختلت به في الزاوية، ضربها العشق من الوهلة الأولى، فسارت خلفه مطيعة، يبحثان عن مركب ذاهب إلى حيث سمع النداء. لم تسأله عن المكان الذي يقصده، حتى استويا في المركب، فقال لها: سأشكو مذلتي إلى الشيخ «القناوي».

لم تكن قد سمعت به من قبل، لكنها أكبرته حين رأت مقامه البهي. فلمَّا انتهت الزيارة، أخذها إلى الساحة الوسيعة التي يطل عليها المقام. جلسا متجاورين، والجوع يأكلهما، فمر بهما بهلول رث الثياب، يطوق عنقه بعقود من الخرز الملون. مد إليهما كفين مملوءين بالتمر، وقال: لا يجوع مَن قصدنا.

أكلا التمر، فشعرا بشبع، لا يأتي إلا لمَن التهم خروفًا كاملًا. داهمهما الليل، وضرب النعاس «سابا»، فجعلها تضع رأسها على فخذ «بحر» وتنام. أما هو فظل ساهرًا حتى أذان الفجر. قام وصلى في المسجد جماعة، ثم صلى ركعات وركعات، وأطال في سجوده، حتى انبلج الصبح، فلمَّا خرج، وجدها تقبض في يدها على شيء. سألها، فسكتت، فألح في السؤال وأبلغته أن سيدة جاءت وسط حرس مهيب، وأعطتها ما في يدها.

اكتسى وجهه بالغضب، وقال لها: لا أكسب طعامي إلا من عرق جبيني.

وزع المال على أول فقراء صادفهم، وما أكثرهم حول المقام. دعا مَن أخذوا صدقته له بالبركة في الصحة والرزق والذرية، وهو يردد

خلفهم في خشوع: آمين.. آمين. كان أول ما يفكر فيها أن يكتري غرفة يسكنها وزوجته، لكن من أين له بثمن ما يريد؟

طلب من رجل لاقاه على أول الشارع المؤدي إلى المقام، فأشار بيده إلى فندق قريب. مشى نحو الفندق، وقال لصاحبه: أريد غرفة وأعمل هنا لأسدد ثمنها.

ملأ صاحب الفندق عينيه منه، فوجده قويًّا متينًا، فاستأجره، لكنه قال له: ثمن الغرفة هنا أكبر من أجرك.

واصطحبه إلى بيت خفيض في الحارة الخلفية، كانت تحط على سطحه غرفة ضيقة من خشب، تكون لينة في الصيف، حين يتسلل الهواء من فتحاتها، لكنها في الشتاء تصير كتلة من ثلج. لم تتذمر «سابا» من البرد، فقد كان «بحر» يدفئها بمحبته.

مع الأيام وثق صاحب الفندق بأجيره «بحر»، وجده قويًّا أمينًا، فأسند إليه شراء ما يحتاجه الفندق من خضار وفاكهة ولحم وأثاث ومفروشات وشراب، فزاد رزقه، وصار قادرًا على أن ينقل «سابا» إلى غرفة تصد الريح، أنجبت «سابا» فيها «هلال».

كان «بحر» قد عرف كيف يسوس الناس جيدًا، وقت عمله في التزام سيده قبل خروجه من بلده تاركًا أهله خلفه عاجزين عن حمايته. استطاع أن يسكن رأس صاحب الفندق، فترك له أمر إدارته. أوغر هذا عليه صدر مَن سبقوه في العمل، فدبروا له ما لم يحسب له أبدًا. غافلوه وجلبوا إلى الفندق ساقطة، بعد أن أعطوها ما طلبت. أدخلوها على رجل غريب اعتاد

أن يسكن الفندق كلما جاء لزيارة «القناوي»، فلمَّا رآها في غرفته تتلوى وهي تنزع ملابسها، صرخ فيها أن تبتعد، لكنها أقبلت عليه، كأن بينها وبينه ميثاقًا غليظًا، وقالت: أفهمني «بحر» أنك تريد مَن تدفئ لك فرشتك.

راوغها الرجل، وجرى يهبط السلالم الحجرية، قاصدًا غرفة صاحب الفندق. أبلغه بما جرى. أمسك بعض خدم الفندق بها، وقادوها إلى صاحبه أيضًا، فأبلغته أنها أتت إلى هنا بعد اتفاق مع رجل اسمه «بحر». كان مدبرو المكيدة قد جعلوها ترى «بحر» في ذهابه إلى الصلاة وإيابه، فعرفته جيدًا، فلمَّا استدعاه صاحب الفندق، أمسكت كتفه، وقالت: هذا مَن اتفق معي، ولا شأن لي.

طردها صاحب الفندق، وخلفها «بحر»، وهو يقول: «تحسبه موسى يِطْلع فرعون».

ظلمان ثقيلان وقعا على عاتق «بحر»، لكنه كان رجلًا من حديد. أدرك أن عارًا قد لحقه؛ لأن خبر ما فعل سيسيح في المدينة كلها بألسنة حاسديه. مع هذا لم يغادرها إلا بعد أن ذهب إلى مقام «القناوي» وبكى أمامه طويلًا، وهو يُشهده على طُهره.

كان واثقًا من أن الله سينصفه، فترك «قنا» سائرًا على قدميه، حاملًا طفله على صدره، وخلفه «سابا» تبكي وتقول: مكتوب علينا أن نتشرد في بلاد الناس. انفتح أمامه باب لم يسكن رأسه من قبل. التفت إليها، وقال: في كل مكان هناك الأشرار.

سألته وهي تمسح دموعها بطرف طرحتها السوداء: كيف لا يطولنا شرهم؟

أجابها على الفور: باعتزالهم تمامًا.

كانت معه نقود ادَّخرها من كدحه لقابل الأيام. اشترى حمارًا من أول قرية صادفها، واشترى طعامًا وثلاث قِرَب من الماء، وعلفًا للحمار. أركب «سابا» فوق ظهر دابته، وأمامها «هلال»، وسار أمامهما يجره إلى حيث لا يدري. ترك خلفه الزراعات والقرى، وتوغل في الصحراء حتى تعب، فحط رحاله. وسألته: إلى أين نسير؟

أجابها: إن ابتعدنا نفد الماء والطعام، فلنقم هنا.

نظرت حولها فإذا الصحراء موحشة، وسألته من جديد: وإن نفدت النقود؟

رد مغالبًا مخاوفه: سأهبط قرية وأشتري نعجة وخروفًا، وعنزة وتيسًا، ولتبدأ حياتنا الجديدة.

جمع الأحجار، ورصها لتصير عشة صغيرة، وقلَّم شجرات رآها على مقربة منها وفرد فوقها سقفًا. في النهار كان يركب حماره إلى قرية تطل هناك بين الزرع، ليملأ القِرَب، ويشتري ما يحتاجه من طعام.

ضاجع الخروف النعجة. ضاجع التيس العنزة. ضاجع «بحر» امرأته. صار له قطيع من ضأن، وثلاثة أولاد وبنت مع «هلال»، سمى الأولاد «خير» و«بخيت» كما جرت الأسماء في أهله، ثم «غنوم»، وهو اسم رجل عظيم كان صاحب التزام، سُميت قريته باسمه، ثم غيرها مَن غدروا به. ورغم أنه أخذ منه حبيبته فإنه لم ينسَ فضله وكرمه، وكان يقول: أسعدها فأسعدني.

أما البنت فحملت اسم «بديعة»، وهو للمرأة التي عشقها، ولأن «سابا» كانت تعرف حكايته أرادت لها اسمًا آخر، ولمَّا رأته مصممًا على ما سمَّى رضيت على مضض، موقنة أن طريقه إلى معشوقته الأولى قد سُد إلى الأبد، ومطمئنة إلى أنه قد عشقها أيضًا، و«الغايب مالوش نايب».

كان جدنا يُقدِّس الكد، ولا يستطيع العيش من دونه، فحفر بئرًا بمفرده، وهذا من معجزاته الخالدة. ولأنه كان بارعًا في الفلاحة، زرع لضأنه البرسيم والذرة، وزرع القمح ليتقوت أولاده. كانت مساحة ضيقة حتى لا يلفت الانتباه إليه، فأيامه كما في أيامنا لا تُترك أرض لا يضع أهل الحكم عليها أيديهم.

حتى مَن رأى الزرع من بعيد، ظنه لرجل من العربان، وسناجق المماليك كانوا حريصين على عدم إغضابهم، حتى لا يتحولوا إلى فلاتية، يكرون على القرى وينهبونها، ثم يفرون في صحراء يعرفون دروبها ومخابئها، فلا يمكن تعقبهم.

كان «بحر» حصيفًا، استقدم لأولاده شيخًا من أقرب قرية، ليحفظوا القرآن على يديه، ويتعلموا مبادئ الحساب. طلب من الرجل أن يأتي إليهم بالكتب من دكاكين الورَّاقين، فنبت في المكان العلم، كما نبت الزرع، وصار لديه قطيع من الغنم والماعز، واشترى جملًا وناقة، فصار بحوزته، مع الأيام، كثير من الإبل.

في وسط حقله الذي أحسن إليه فأعطاه حصادًا كافيًا، بنى له البناءون بيتًا من الحجر، وأرسل جِماله ونقوده فحملت الخشب إليه

من النجارين، وجاءوا ليسقفوا البيت، فجعل لكل ولدين غرفة، وغرفة للبنت بمفردها، ورابعة له ولزوجته.

حين كبر الأولاد، بنى لكل واحد بيتًا، وزوَّجه من فتاة مليحة من القرى المجاورة. أنجب أبناؤه عيالًا كُثر. جاء عريس خاطبًا بنته، فاشترط عليه أن يُقيم هنا، وبنى لها بيتًا. صارت البيوت بداية هذا النجع، وتوالت الأجيال، فكبر، وصار أهله أولاد عمومة أو خؤولة، إلى أيامنا هذه.

نظر إلى وجوهم ثم قال: أنا بدران بن أبي الفيض بن رمضان بن عجب بن هلال بن بحر، الذي يعود نسبه إلى «آل بخيت».

قام الرجل يتوكأ على عصاه، حتى بلغ التمثال. مد أطراف أصابعه حتى بلغت رأسه، ثم قال: هذا تمثال جدنا «بحر» صنعه له في آخر أيامه أشهر الفواخرية في «قنا» استجابة لما أراد جدنا «هلال»، وحافظ الأحفاد عليه، حتى وصل إلينا.

ترحم «مهدي» و«خير الله» على الجد الراحل، ثم قال «خير الله»: وراء كل عظيم خطر.

مصمص «مهدي» شفتيه، وقال: الدنيا ضيقة وإن وسعت.

كان يكتم في صدره ما يريد قوله. هو مَن ورث الحكاية الطويلة من «نفيسة»، التي ورثتها عن سابقاتها. يعرف أن جدتهم «بديعة» كانت حريصة على أن تظل الحكاية حية. قيل له إن لها بيتًا لا يزال قائمًا في «الجابرية». هكذا أبلغه الرجل الذي أرسله قبل أن يذهب إلى «خان الخليلي»، وقال: صار مهدمًا، لكن «آل بخيت» يحافظون عليه، كأنه مقام ولي صالح.

تـاه «مهدي» في شـرود تدفقت فيه أمام عينيـه الذكريات، وقال في نفسه: بركات جدنا «غنوم»، لقد كان من نسل المجاذيب.

جـاء خـادم، وهمـس في أذن شـيخ البلـد، فهز رأسـه، ونظـر إلى الجالسين، وقال: نأكل لقمة، ليصير عيشًا وملحًا.

وذهبـت زوجتـا «مهـدي» و«خيـر الله» ومعهمـا «رابحـة» لتناول الطعـام مـع حريـم البيـت. جلـس «بـدران» على صـدر مائـدة عامرة باللحوم الحمراء والبيضاء والأرز وأصنـاف من الطبيخ. شمَّر الرجال عن سواعدهم، وأقبلوا على الطعام بشهية مفتوحة.

(5)

خصص شـيخ البلد ثلاث غرف لمبيـت الضيوف، واحدة للرجال الثلاثة، وثانية للولدين، وأخرى للمرأتين والبنت. فلما اختلى «مهدي» بابن عمه «خير الله»، قال له: هل تعرف مَن يكون شيخ البلد؟

هز رأسـه، وقال: هممت أن أُبلغه، لكني خفت من انكشاف أمرنا، وتركت كل شيء لك.

نظـر «مهدي» من النافذة، فإذا بها تطل على الخلاء. زعقت الريح، وثار الرمل قادمًا من الصحراء الواسعة.

نظـر إليهمـا «سـبعاوي» محتـارًا، لكنـه فضـل الصمـت. ولاحظ «مهدي» صمته، فسأله: هل سبق لك دخول الصحراء الغربية؟

هز رأسـه، وقال: لا، لكنني أعرف أنها تختلف عما كنا فيها، أوسع وأكثر خطرًا، والسائر فيها مكشوف لمَن يرقبه.

وضع «مهدي» رأسه بين راحتيه، وأطرق مفكرًا، ثم رفعه بعد قليل. نظر إلى «خير الله»، وقال: ليعرف «سبعاوي» ما يدور في رأسينا، ونُشركه في القرار.

حكى له «مهدي» كل شيء، فعرف «سبعاوي» همزات الوصل بين «الصوابر» و«آل بخيت»، فقال في تأثر: صدفة يخفف الله بها عن المظلومين. نحن تبنا توبة نصوحًا، لكن الأشرار دسوا لنا.

أمسك «خير الله» بالكلمة الأخيرة، وقال: هذا نجع أسسه مظلوم، ولا بد أن كراهية الظلم مستقرة في نسله.

نهض «مهدي» وأغلق النافذة، ليصد الريح والغبار، وقال: يبدو أن الصحراء تُخبرنا بوعورتها.

ظلوا يتداولون الأمر حتى نضح نور الصبح من شيش النافذة، لكنهم ناموا على قرار، ودعوا الله أن يكون الأمان حليفهم.

(6)

طرق خادم أبوابهم عند الضحى، ليستعدوا لتناول الإفطار. كان «مرعي» شيخ البلد قد جهَّز لهم من عنده مؤونة تكفيهم أسبوعين في الطريق إلى الواحات، وأحضر لهم دليلًا يعرفه العربان جيدًا، حتى يضمن لهم حماية. لمَّا انتهوا من إفطارهم، طلبه «مهدي» ليجلس إليه على انفراد، ثم نظر إليه، وقال: نجع بحر صار مكان المظلومين.

هز «مرعي» رأسه في امتنان، وقال: لم نفعل سوى الواجب يا فضيلة الشيخ.

ابتسم «مهدي» وقال: ما سمعته أمس عن حكاية جدكم شجعني على أن أبوح لك بسر.

انتبه «مرعي»، وقال: هاتِ ما عندك، فالمجالس أمانات.

انطلق «مهدي» يحكي في وجع وحرقة لا يفارقهما الرجاء. كلما غاص في الحكاية اتسعت عينا الجد «بدران»، فلمَّا انتهى، قال شيخ البلد في تأثر: الدنيا فيها العجب.

رد «مهدي» دون أن يزايله التأثر: إن لم تصدقني، ذهبنا في طريقنا، ويكفينا الكرم الذي وجدناه في ديارك.

ابتسم شيخ البلد، ونظر إلى الجد «بدران»، وقال: ورثنا عن أجدادنا كيف نزن كلام الرجال، ولو كنت تكذب ما خفي هذا عني.

ابتلع «مهدي» ريقه، وشعر بأن يدًا تنتشله من الغرق في الرمال الطويلة، وقال: إن بقينا، لن نخذلك، ومعي ما نبدأ به هنا حياة جديدة.

رفع «بدران» يده، وقال: مكتوب منذ زمن بعيد أن نجتمع على خير في رحاب سيرة الأولين الكرام.

(7)

على طرف النجع بُنيت ثلاث دور، اثنتان واسعتان لأسرتي «مهدي» و«خير الله»، والثالثة ضيقة يقطنها «سبعاوي». وقال «بدران» لأهل النجع، بعد أن عرف أن الرجلين على علم: شيخان جليلان جاءا لتعليم أولادنا كتاب الله.

استعاد «مهدي» ما قرأه في الكتب، واسترجع «خير الله» ما علمه إياه أبوه الأزهري الراسخ في العلم. جيء بأطفال النجع ليجلسوا إلى القراءة والكتابة، لقاء أجر زهيد، يدفعه أهلهم في مواسم الحصاد. قرر «مرعي» أن يجعل من «سبعاوي» عريفًا للشيخين، يحمل الماء إلى زيرين مثبتين خارج باب الكُتَّاب، وينظم جلوس الأولاد.

كان أغلب المال قد أُنفق في بناء البيوت وتأثيثها، وما تبقى كاد ينفد في قضاء حاجيات الأسرتين، اللتين تنازلتا عن الكثير من متطلبات عيش اعتادتا عليه، في «قنا» و«خان الخليلي».

أراد «مهدي» توسيع الرزق، فقال لشيخ البلد بعد صلاة الجمعة: لديَّ معرفة بوجود الماء في الصحاري، ويمكن أن تتسع الزراعات.

صمت «مرعي» برهة، ثم قال: الصحراء للعربان، ولا بد من استئذانهم على أي حال.

وافقوا على أن يكون لهم نصيب مما تخرج الأرض. انطلق «مهدي» ذات صبح، ومعه الدليل و«سبعاوي»، حتى بلغ مكانًا يبعد عن النجع عشرة أميال وتوقف. نظر حوله فإذا بأحراش تتناثر، وثلاث شجرات سنط واقفات، ونخلة واحدة تهتز في الريح الخفيفة.

جلس على الأرض، وضرب فأسه ضربات متتابعة، فبانت تحت الرمل الناعم بقعة تكسوها سمرة. طوق دائرة قطرها ثلاثة أمتار بالأحجار، وقال: نحفر هنا. عاد إلى النجع بعد أن وضع علاماته، واصطحب معه رجالًا أمده بهم «مرعي»، وقال: ما أدرانا، فلعل الخير يكون على قدوم الواردين.

حُفرت البئر، وانبجس الماء على مهل. جُهزت حوله الأرض التي كانت في استواء. جيء بحب القمح والشعير، وضعت حبات في كل نقرة، وفوق كل نقرة حطبة تحدد موقعها، وتوالت النقر في سرائب. حمل الرجال الماء في البلاليص من البئر، وسكبوا فوق كل نقرة ما يروي حبها. أعادوا فعل هذا كل يومين، حتى نبت الحب، ولم يمضِ شهر حتى ترامى اللون الأخضر في قلب الصفار الوسيع.

خاف «مهدي» على زرعه من غضب الصحراء المفتوحة إلى بعيد، فطلب من الرجال أن يقيموا سورًا من الجريد والبوص في اتجاه الريح. قلَّموا النخيل الواقف في البيوت، وفي شوارع النجع. جمعوا البوص المكدس فوق الأسطح، وفتلوا الحبال. أقيم السور مغروسًا في الرمل، تسنده من الشمال أحجار جمعوها من حولهم.

ولمَّا رأى «مرعي» الزرع، نظر إلى «مهدي»، وقال: بقيت خطوة أخيرة.

سأله في لهفة: ما هي؟

أجابه، وهو يشير إلى بعيد: هذه حدود أرض الملتزم «يوسف الأقصري»، وأخشى أن يطمع في أرضنا.

رد «مهدي» وهو يكتم غضبه: هذه أرض ميتة أحييناها، والشرع يعطينا حق امتلاكها.

قهقه «مرعي» وقال: لا يغيب عن رجل جاء من صلب ملتزمين أفذاذ أنه لا أحد في بلادنا يملك شيئًا.

سكنت الحيرة رأس «مهدي»، وتطلع إلى شيخ البلد، لعله يكون لديه ما يُفيد. صمت «مرعي» برهة، وقال: لهذا سويت الأمر أولًا مع العربان، فهم وحدهم الذين تُركت لهم الصحراء مقابل الطاعة.

واصطحب معه شيخ قبيلة «المرابطين» إلى الأقصري، وترك الرجل يقول له ما اتفقا عليه. فالبئر للعربان، والمال الذي سُوِّيت به الأرض وزُرعت لشيخ البلد، أما الحصاد فللملتزم فيه نصيب. رضي «مهدي» بهذه القسمة، ولم يكن لديه سبيل لرفضها، لكنه كان يتطلع إلى البعيد، ويقول لـ «خير الله»: قد نستعيد على هذه الأرض مكانة أجدادنا.

لم ينسَ كلاهما، أن يُعلِّما ولديهما مما تعلما في الكتب وفنون الزراعة، حتى برعا في الأمرين، فأطلقا في نفس الأبوين وعدًا، اكتمل حين أسرَّا إليهما بحكاية «الصوابر»، فعرف كل منهما أنه منذور لمهمة، عليه ألا يدعها تغيب عن ذهنه ولو ساعة واحدة.

(8)

لم يدخر «مهدي» و«خير الله» جُهدًا في تعليم أولاد النجع ما تعلماه، ونقل الصغار حبهم للشيخين إلى أهاليهم، فأحبوهما، وكانوا ينصتون إلى قول «شيخ البلد» عنهما دائمًا: تربطنا بهم صلة قُربى ونسب.

اكتفى «مرعي» بهذا، ولم يبح بما يعرفه لأهل النجع، فهو يدرك أن الرجلين اللذين استجارا به ذات يوم مطلوبان. عوَّل على بُعد المسافة، وتوالي الأيام حاملة في طياتها الغفلة والنسيان، واطمأن أكثر حين جاءته الأخبار بأن السنجق الذي كان يسعى خلفهما قد نُقل إلى وجه بحري.

(9)

ذات يـوم نظـر «خيـر الله» إلى «مهـدي»، وقال: حـان وقت رحلة أجلتها طويلًا.

ابتسم، وقال: أوحشتك المحروسة؟

هز رأسه، وقال: أوحشتني، لكن ما أدراني لعل «أبو ضب» لا يزال قابضًـا علـى الفتونة والظلـم، أو آلت العصابة إلى أحـد رجاله وهم لا يقلون عنه غلظة وبطشًا.

ثم صمت برهة، وقال: إنها رحلة في اتجاه الجنوب.

- إلى أين؟

حكـى لـه عن «عطوة السـايح» الذي يسـتخرج الذهـب من جبال الصحراء الشرقية، وقال: باب رزق جديد نطرقه.

لكـن «مهدي» الذي علمته الأيام الحذر، سـأله: هـل أنت مطمئن إلى هذا الرجل؟

- لـم أرَ منه إلا كل خير.

أخذ «خير الله» ابنه «أحمد» معه في هذه الرحلة، وركب النهر إلى «أرمنت». كان يحفظ عنوان «عطوة» فطالما ردده بين حين وآخر حتى لا ينساه. بلغ بيته ذات ضحى، طرق، ففتح له خادم، وتطلع إليه، فقال «خير الله»: أريد سيدك «عطوة».

قال الخادم: سيدي ليس هنا.

ظهر من باب جانبي شاب عريض المنكبين، يرتدي جلبابًا خفيفًا، بدت على وجهه آثار النوم، فلما رآه الخادم، مشى نحوه، وهمس في أذنه. هز الشاب رأسه، ونظر إلى «خير الله» وابنه، وقال: تفضلا.

كان «مزيون» ابن «عطوة»، الذي اطمأن إلى «خير الله» حين حكى له عن وقائع جرت بينه وبين أبيه قبل سنين، فقال: حدثني أبي مرارًا عنك، وكثير من ملابس الصوف في سحَّارتي، اشتراها من عندك.

ظن «مزيون» أن «خير الله» قد جاءهم ضيفًا، فقال له: لتبقَ ضيفي حتى يأتي أبي.

- وأين أبوك؟

- في الجبل.

- متى يعود؟

- لا أعرف بالضبط.

طلب منه «خير الله» أن يأخذه إلى حيث «عطوة»، فسكت «مزيون» برهة، ثم قال: الطريق طويل، وهناك قد لا يريحك المكان.

صارحه أن أباه قد عرض عليه مشاركته في استخراج الذهب، وأنه طلب منه مهلة ليفكر، وقد فكر وحسم أمره. ولم يكن «مزيون» يعرف موعد عودة أبيه، ولم يكن أمامه بد من اصطحاب «خير الله» إلى الجبل، فصعد به وابنه حتى بلغ موقع المناجم.

رحب «عطوة» بضيفيه، وقال له وهو يزاور عينيه عنه: عرفت ما جرى لك، حين قصدت دكانك قبل سنوات.

هز «خير الله» رأسه، وقال: نحمد الله على أي حال.

وسأله «عطوة» عن أحواله، ومكان إقامته، فقال: نزلت عند ابن عمي، له أرض يزرعها، وحاله ميسورة.

- وأنت، هل تركت كارك؟

- أشارك ابن عمي الزراعة، وأُعلِّم الأولاد في كُتَّاب النجع.

صمت «عطوة» لا يدري ماذا يقول، فاستدرك «خير الله»: طلبت مني قبل سنوات أن أشاركك، والمال موجود.

تهلل وجه «عطوة»، وقال: أنا عند كلمتي.

ترك «أحمد» في الجبال الخطرة، وقال له، قبل أن يودعه ليجلب المال الذي طلبه «عطوة»: فتح عينيك جيدًا، واحرص على أن تعرف كل شيء هنا.

استقر المقام بالفتى «أحمد» في كار جديد. كان «عطوة» قد جلب رجالًا من السودان والحبشة، واتسع العمل، فصار للصوابر باب رزق لم يخطر لهم على بال.

(10)

توالت الأيام رخيَّة، وحرص «مهدي» على ألا ينسى عادته في ادخار المال، ودفع «خير الله» إلى أن يفعل مثله، فلم يكن في حاجة إلى نصيحة. كان كل منهما يريد أن يترك ذريته أغنياء، بعد أن غرس لها وتدًا عميقًا في هذه التربة الجديدة.

جـاء «فخر الدين» يومًا إلى أبيـه، وقال: أريد الزواج. كان قد فاتح أمـه في هذا الأمر، فلم تدعه يكمل ما يريد قوله، ونطقت عنه: لن نجد له أفضل من «رابحة».

تزوج «فخر الدين» في ليلة بهيجة، مُدَّ فيها الطعام إلى أهل النجع، وغنـى القوَّال علـى الرباب، فرقص الرجال بالنبابيت، ووسـعوا حلقة تحطيب بينوا فيها إتقانهم لهذا الفن البديع. صدح المنشـد في حضرة بهية، تطوحت فيها رؤوس الرجال، وألسنتهم تلهج بالذِّكر.

لم تمضِ سـوى أربع سنوات حتى كان «فخر الدين» قد رُزق بولد سـمَّاه «فراس»، وبنت سـماها «عزة»، وبعد ثلاث سـنوات رزق بولد آخر سمَّاه «منصور».

(11)

لاحـظ «مهـدي» أن حفيـده «فراس» قـد تأخر في الـكلام. نطقت «عـزة» حتى صارت تُحسـن التعبير عما تريـد، بينما أخوها واقف عند حـدود الإشـارة. كانـت هيئته سـليمة لا تشـي بنقص يعيبـه، وطمأنته «كريمة» قائلة: البنات أسرع في الكلام من البنين.

لكـن الأيام مضـت، و«فراس» واقف عند حالـه لا يبرحها. يغمغم ويطـوح رأسـه كثيرًا، فإن أسـنده إلى جـدار، راح يضربه فيـه، دون أن يشـكو من وجع. بدا عصيًّا علـى التعلم، رغم الجهد البالغ الذي بذلته «رابحة» معه كي ينطق، أو يكف عن إيذاء نفسه.

ولمَّا صارت «عزة» وردة تتفتح كل يوم، صار مكتوب على «فراس» أن يبقى دون سنه. أدرك كل مَن حوله ذلك بعد أن صار «منصور» ينطق بلسان فصيح.

مـلأ «مهـدي» ناظريه من حفيده المتأخر في الكلام، وقال: لسـت قلقًا على أحد في الأيام الآتية سوى هذا المسكين.

وقالت «كريمة»: لا يجب أن نتركه، فإن كان مرضًا فله دواء.

أشـار عليهم شيخ البلد بعرضه على المُزيِّن، فتأمله الرجل طويلًا، وقال: عليكم بطهي ألسنة الجديان له، ولكم في بذور اللبلاب دواء.

نفذوا ما قاله المُزيِّن، سـنة كاملة دون جـدوى، وكلما رآه المُزيِّن، قال: هذه وصفـة مجربة، وعلينا الصبر. ثم نصحهم بأن يقطفوا أوراق شـجر النبق، ويهرسـوها جيـدًا، ثم يطبخوهـا في آنية من فخـار، فلما تطيب يبردونها، ويدهنون جسـده منها ثلاث مرات، في البكور، وبعد العصر مباشرة، ثم قبل أن يناموا الليل. أخذوا بالنصيحة، وصبروا على تململ «فراس» وهم يدهنون جسده. لكن الشهور كرت، دون أن يروا أي تقدم في حال الولد.

تطرقـوا إلى ما فيه «فراس» ذات يوم أمام شـيخ البلد، فقال: الحياة مليئة بالأسرار، وأنتم على علم.

كان «فراس» قد نطق، لكنها كانت حروفًا متقطعة، لا تصير كلمات، فلمـا جاءت الأخيـرة، كانت مفردة بلا معنى، ينطقهـا كالببغاوات مما يسـمعه. كانوا مطمئنين إلى سـمعه، فهو يهتز إن سـمع القرآن يُتلى أو يُرتل، ويتراقص إن سمع عزف الرباب.

أشـار عليهـم رجل مـن «آل بخيـت» أن يذهبا إلى شـيخ فـي قرية مجاورة اسـمه «شـمروخ»، يعرف من الغيبيات الكثير. أرسلوا إليه مَن

يجـزل له العطاء، فجاء عند الظهر، وأخذ «فراس» بين يديه، وتلا على رأسه ما لم يعرفه الحاضرون جيدًا، والولد يتململ بين يديه، راغبًا في العودة إلى ضرب رأسه في الجدار.

قال «شـمروخ» وهو يتوه بعيدًا ويعود: تمسـك لسانه جنية شريرة. وطلـب أن يأتـوا إليـه من العطـار بما يسـاعده على صرف هذا الشـر، فنفـذوا ما طلـب. أطلق البخـور، وتـلا التعاويذ، وكتب علـى جريدة نخـل خضـراء كلمـات وحروفًـا، وأمرهـم أن يجـردوا «فـراس» من ملابسـه، وراح يضربه على ظهره، ويأمر ماسـكة لسـانه بأن تخرج من ظفـر خنصـره، ويصر على طلبـه، ويقول إنها تلاوعـه وتريد أن تخرج مـن عينه، ثم أذنه، ثم حلقه، لكنه ظـل يأمرها، حتى قال لهم: خرجت الملعونة بعد تعب.

وحيـن لم يـروا تقدمًا في حال «فراس» أشـار عليهـم بعض الناس بالذهاب إلى الدير، حيث الراهب «باخوم» المعروف عنه القدرة على التعامل مع عالم الجن، وقالوا إنه أخرج منهم الكثير من أجساد نصارى ومسـلمين. دخل «مهدي» الدير على فرس، حاملًا حفيده أمامه. سـار بيـن صفـوف النخل والرمان وتكاعيب العنب، وهش عن رأسـه نحلًا يدور ثم يعود إلى خلاياه على جذوع الكافور. اسـتقبله الراهب بوجه بشـوش، ونظر إلى «فراس»، وقال: ممسـوس، وبإذن الرب سينصلح أمره.

قـرأ علـى رأسـه آيات مـن الإنجيـل، ثـم راح يحـدث مَن لـم يرَه «مهـدي»، وهـو يضـرب «فـراس» خفيفًا على ظهـره براحة يـده. أتى

بقارورة فيها زيت لونه مائل إلى الحُمرة. جرد الطفل من ملابسه. دهن جسده كله، دون أن يتوقف عن قراءة بعض ما يحفظه عن ظهر قلب.

لكن الأيام مضت، دون أن يتغير شيء. يكبر جسد «فراس» لكن طفولته لا تغادره. حين صار ينطق عبارات مفككة يلتقطها من أخته، كان يتحدث كأنه أنثى، فيقول: «أنا عاوزة.. أنا عطشانة». قال الناس: إنه لسان الجنية اللعينة. ولمَّا رآه رجل آخر يسمى «فتحي» قصده أهل القرى بعد موت «شمروخ» وكان يفوقه في القدرة على جلب الإيحاء والاستهواء، قال: لطف الله به، وعلم سره، فجعل الجنية التي تسكنه تودع الكفر إلى الإيمان.

سمعه أهل «نجع بحر»، فقالوا: هذه أولى كرامات الصبي «فراس».

كان «فراس» يميل إلى عزلة شديدة في غرفته. ولمَّا وجد أبوه الناس يقصدونه لنيل البركة، بنى زاوية على طرف الزراعات، وجعلها له مستقرًّا، وأسند إلى «سبعاوي» مصاحبته، فظل يلازمه حتى وجده الناس ميتًا في وسط الزاوية ذات صباح، بينما «فراس» يجلس إلى جانبه، واضعًا يده على صدر لا نبض فيه، ويبتسم.

قبل أن يغادر «مهدي» و«خير الله» الدنيا، بعد وفاة «مرعي» بتسعة شهور، اتفقا على أن «فراس» ليس سوى واحد من نسل المجاذيب. كان أهل النجع، قد رأوه بركة، وقال بعضهم: زاد الخير في بيوت الواردين كرمًا من الله لأجل هذا الولد الطيب.

ولمَّا صارت «عزة» فتاة تنتظر خاطبها، لحقت «كاترين» و«كريمة» بزوجيهما، ودفنتا في قبرين يجاوران قبري رجلين فعلا كل شيء من أجل إسعادهما، وحمايتهما من جور الأيام التي تتقلب بلا هوادة.

استقرت الحال بـ «فخر الدين» وابنه «منصور» في زراعة الأرض، وتربية الماشية والضأن، يشاركهما «منازع بن مرعي»، الذي ورث مشيخة البلد بعد وفاة أبيه. أما «أحمد» فاستقر به المقام في «أرمنت»، وتزوج فتاة اسمها «ناعسة» تأخر حملها سنوات طويلة.

كان «عطوة» قد أوصى ابنه «مزيون» الذي ورث المهنة عنه، أن يجعل قبره قريبًا من المناجم، فبنى له شاهدًا عاليًا، كأنه قُدَّ من الجبل، وضع على مقدمته لافتة من رخام أبيض، حُفر عليها اسمه مطليًّا بماء الذهب، وفوقه آية قرآنية تقول:

«أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ».

كان «أحمد» يحرص على زيارة ابن عمه في «نجع بحر»، ويرد «فخر الدين» الزيارة إلى «أرمنت»، ويجري بينهما حساب كل عام، لما غلته الأرض من محاصيل، والجبال من ذهب.

ولما اطمأنا إلى الأمان والخير قررا أن يحجا إلى بيت الله الحرام، كما اعتاد الكثير من أجدادهم. ركبا إلى عيذاب، حيث مقام الشيخ «أبو الحسن الشاذلي» فمكثا عنده يومين، ليعبر بهما مع الحجاج مركب البحر الأحمر إلى «جدة».

وقال «فخر الدين» وهو ينظر في إجلال إلى الغارقين في الذِّكر: حكى لي أبي أن مَن أسس النجع الذي سكنه جدك الكبير كان من أمثال هؤلاء الذاكرين.

هز «أحمد» رأسه، وقال: أبي أيضًا حكى لي هذه الحكاية.

ابتسم «خير الدين»، وسأله: ألم يوصك بشيء؟

أجابه على الفور: أوصاني بألا أنسى «الصابرية».

قهقه «خير الدين» وقال: يضع الرجال بذورهم في أرحام زوجاتهم ليحفظوا نسلهم، أما «الصوابر» فيضعون حكايتهم مع البذرة، بل قبلها.

وشاركه «أحمد» الضحك، وقال: كأنه ثأر.

رد «خير الدين» على الفور: صوروه لنا على أنه ثأر بلا دم.

واتفقا على أن يرسلا إلى «الجابرية» مَن يجمع أخبار «الجوابر»، عملًا بالسنة الجارية في العائلة، حتى لا ينسوا أن في عنقيهما وصية لا يجب أن يُسقطها أو يُبعدها شيء عن الأذهان والوجدان.

(12)

جاءتهما الأخبار أن «عماد» الذي كان طفلًا مؤذيًا، صار شابًّا أكثر إيذاءً، ورث الالتزام، ويحرص على المال أكثر من حرصه على نفسه، فصار بوسعه دفع ما عليه للوالي في موعده، ولهذا يتيه السنجق به على بقية الملتزمين. ورغم أن ظلمه الشديد أدى إلى هروب الفلاحين، أكثر مما جرى أيام أبيه، فإنه لا يعبأ بهذا أبدًا، إذ يرسل من رجاله مَن

يستقدمون آخرين، يعطيهم بيوت الهاربين، ويدفعهم إلى فلاحة أرض الالتزام مقابل البقاء فقط على قيد الحياة.

هز «خير الدين» و«أحمد» رأسيهما في أسى لما سمعا. فكراهية الفلاحين للملتزم لا تعني شيئًا طول كل هذه السنين، رغم أنهم هم مَن يكدحون في الأرض، ولولا فؤوسهم وطنابيرهم وشواديفهم ومناجلهم التي تطيعهم طول الوقت، ما كان لأي ملتزم ثروة، وما كان الوالي سيجمع شيئًا، ولا يتلقى السلطان في الباب العالي أو الواطئ مزيدًا من الأموال يرفع به عرشه.

نعم، يأسى رجلان من نسل ملتزم كان يحسن إلى الكادحين في أرضه، ويعتبرهم شركاءه، لكن هذا الأسى لن ينهي التزام «الجوابر» الذين آلت إليهم القرية، فاستقروا فيها، يتقلبون بين قوة وضعف، لكنهم مستقرون في مكانهم، بينما الصوابر مشردون في بلاد الله.

لكن حامل الأخبار ألقى أخيرًا بما جعلهما ينتبهان، وفرحة تسري في أوصالهما، حين قال: ينازع «عماد» على الالتزام أخوه الأصغر «مراد»، والجوابر منقسمون بين الاثنين، لكن الأكبر مسنود من السنجق.

قال «خير الدين» وهو ينظر إلى الرجل في امتنان: تذبل العائلات وتموت من داخلها.

وتدخل «أحمد»: شقاق الأهل كالسوس الذي ينخر الخشب حتى يهوي.

ثم ألقى الرجل لهما بخبر جعل عيونهما تتسع، وعنقيهما يمتدان إلى أعلى، وأنفيهما يسحبان كل ما أمامهما من هواء، لعله يكون مشبعًا

بالأخبار المُفرحة أيضًا. قال الرجل: رجل من نسل «الصوابر» اسمه «حجازي» عاد إلى القرية، ومعه زوجته، واسمها «نبوية».

تشكك «خير الدين» في الأمر، وسأل: كيف عرفت أنه منا؟

- الناس جميعًا في «الجابرية» يعرفونه.

وسأل «أحمد»: هل سمح له «عماد» بدخول القرية؟

- كان قد أرسل في استئذانه، ثم جاء إليه بهدية يحبها، إنها ثلاثة براميل صغيرة من النبيذ، حملها حمار من المركب إلى القصر.

وماتت الفرحة في قلب «خير الله»، وقال: بلد جدنا الكبير، ويطلب أحد أحفاده إذنًا، ثم يقدم رشوة من أجل أن يدخله.

كان هذا آخر ما قاله، ففي اليوم التالي، وجدوه ميتًا، وهو لم يتخطَّ الأربعين سوى بسنة واحدة. سكت قلبه فجأة، وترك كل شيء وراء ظهره.

(13)

تدور الدوائر، حاملة حكمة الزمن الذي لا يبلى. يفيض النهر ويغيض. يتوالى الجالسون على العرش في القلعة. يترك السناجق أماكنهم إلى القبور أو العزل أو النقل إلى زمام آخر. تُحكم القبضة على أعناق الناس، فيئنون صابرين. مَن يضيق من اختناقه فليس له من سبيل سوى القتل أو السجن أو الهروب إلى المغارات الموحشة، لينضم إلى الفلاتية المحبوسين في الخلاء.

أدرك النـاس فـي الوادي والدلتا أن ما هم فيه راسـخ كالجبال، لن يذهـب إلا حيـن تصير الصخور عهنًا منفوشًـا تُبعثـره الريح. قلة منهم كانـت تهمـس وهي تلتفـت حولهـا خشـية العسـس: دوام الحال من المحال.

جـاء يـوم وطـار خبر إلـى أهل الصعيـد أن الفرنسـيس قـد دخلوا المحروسـة، فلم يعرفوا إن كان هذا سـيجلب لهم فرحًا أم حزنًا أشـد وأنكى؟

وبلغهم أن قسـمًا كبيرًا من جند المماليك قد فروا إلى الصعيد أمام مدافـع «بونابرتـه» وقُنبره، فخـاف الناس على زرعهـم ودورهم خوفًا شـديدًا. أهـل المنافع تمنـوا أن يؤول الصعيد إلى الفاريـن، ومَن ظلوا على ضيم وقهر، آمنوا بأن الفرنسيس لا محالة سيتعقبونهم.

وانتصـر رأي الفريـق الثانـي، لكـن ثلاث سـنوات كـرَّت، وخرج الفرنسـيس خاسـرين، ونودي فـي الناس: عاد كل شـيء إلـى حاله.. الوالـي العثمانـي في القلعة، والسـناجق في الأقاليـم، والفلاحون في أرض الالتزام.

في الفوضى التي لـم تطل، توقف «منصور» و«منازع» عن الدفع للملتـزم، لكنهم اسـتمروا في دفـع نصيب العربان. وسـنحت فرصة كبـرى أمـام «مزيـون» و«أحمـد» لتوسـيع التنقيب في الجبـال. لكن لـم تلبـث الأمور أن عـادت إلى ما كانـت عليه، حين طـار الخبر، أن علمـاء الأزهر قد أجلسـوا رجـلًا ألبانيًّا مـن الجيش العثماني اسـمه

«محمد علي» على عرش مصر، وأن السلطان في الآستانة قد بارك اختيارهم.

وتوالت السنين فتزوج «منصور» وأنجب ابنه الوحيد «جعفر» من ابنة فلاح عشقها اسمها «رقية». قبله كان «أحمد» ابن عم أبيه قد أنجب «عمر» و«رسمية» بعد طول صبر. وتزوج «منازع» من «عزة»، وأنجب منها «محمود» فاختلطت أنساب الصوابر وآل بخيت والفلاحين. كان الأولاد في سن متقاربة، وكأنهم قد جاءوا لمهمة دبرها العليم الخبير. ولم ينسَ «منصور» و«أحمد» أن يورثا ذريتهما ما يعرفانه من سبل تحصيل الرزق من أرض أوسعها الله، وضيقها أولو الأمر.

مات «فراس» فبنى له أهل «نجع بحر» مقامًا، جاءه خادم من أهل الطريق، ووجده فارغًا فسكنه، وعاش يتلقى أعطيات قاصدي الضريح ونذورهم، التي قدموها عن طيب خاطر من أجل التبرك بمَن نسج الناس حوله الحكايات الغريبة.

(14)

كان الملتزمون قد عادوا يقبضون على الأرض، واضطر «منصور» و«منازع» إلى معاودة دفع ما كان عليهما بأثر رجعي. سكن الخوف قلبي «أحمد» و«مزيون» على كارهم الخفي. ولم تتغير حال الذين يكدحون في الأرض بين صحراوين وبحرين يجري إلى أحدهما نهر، ناظرين إلى السماء لعلها تسعفهم مما ورثوه عن أجدادهم من عسف وظلم مقيمين.

ورآهـم «منصور» على حالهم، ظهورهم في انحناء، وجلابيبهم بين الممزقة والمرقعة، وسراويلهم بالية، وعلى رؤوسهم تلفيحة تقيهم قسوة شـمس ذاهبة إلى منتصف النهار، فقال في نفسـه: هؤلاء هم المجاذيب حقًّا، أيديهم إلى الأرض، وأقدامهم عليها، وقلوبهم في السماء.

(15)

سنوات قليلة كرَّت بين توجس ورجاء، لكن الظلم لم تُقطع رقبته، إنما عاد ضاريًا كما كان وأكثر، بعد أن ألغى الباشا نظام الالتزام، وطرد الملتزميـن من الأرض، فانكمشـوا في قصورهم وسـراياهم خائفين، بعد أن صار الباشا هو الملتزم الوحيد في كل البلاد، شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها.

أُرسـلت التجريدات العسـكرية إلى ربوع البلاد كافة تنزع الأرض ممن تمسكوا بها رافضين أمر تسليمها، وتوزيعها على مَن يريد زراعتها لقاء ما عليها من ضرائب تُدفع إلى الوالي بانتظام.

كان «نجـع بحر» بعيدًا عن الأعيـن فتأخر الانتباه إليه لكن عند ظهر يوم لا ينسى جاءت تجريدة إلى «نجع بحر»، فخرج «منازع» إلى قائدهـا، داعيه إلى بيته ليُحدثه في أمر ما بحوزتهم من أرض، لكـن القائـد رفـض، وقال: لا حديث مـع أحد هنا إلا بعد تسـليم الأرض.

راح «منـازع» يشـرح لقائد التجريـدة أن زمام النجـع لا يخص أي ملتـزم إلا على سـبيل العـرف الذي سـاد، ولا حصر له فـي التزام «آل

الأقصري»، لكن القائد صمَّ أذنيه عنه، فلما انتهى قال له في حزم: لديَّ أوامر يجب أن تُنفذ، وأنت يجب أن تطيع.

ثم أعطى الأمر لجنوده، فدخلوا الأرض التي استصلحها «مهدي» ذات يوم بعيد. وكان «منصور» نائمًا فأيقظوه، فخرج هائجًا، حاملًا بندقية على كتفه، وفرد في جيبه، وخلفه رجال كثر، يحملون العصي، حتى بلغوا الأرض، بينما المسَّاح يقيسها على مهل، والجنود واقفين في انتظار حصرها وتسليمها.

صرخ «منصور» كالمجنون: اخرجوا من أرضنا.

نظر إليه قائد الجند في استهانة، وقال: كل أرض مصر ملك الباشا.

رد «منصور» في غضب: أين كان الباشا وأبي يحفر البئر، ويشق السرائب، ويغرس الحب؟

قهقه القائد، وقال: لا تُضيِّع وقتنا، فما تفعله لا فائدة تُرجى منه.

جرى «منصور» نحو المسَّاح، ونزع منه القصبة التي كان يحطها على الأرض، ومزق دفتره الذي كان يُقيِّد فيه ما قاسه. اندلع الغضب عارمًا في أوصال القائد، فصرخ في جنوده: اقبضوا على هذا المجنون.

هرع الجنود نحو «منصور» لكن يده كانت أسبق منهم إلى الدم، فأطلق الرصاص من بندقيته نحو صدر القائد، فخر صريعًا. ارتبك الجنود برهة، وقبل أن يرفعوا بنادقهم المعلقة في أكتافهم، كان أهل النجع قد هجموا عليهم بالعصي، فأدموا رؤوس مَن لم يقدر منهم

على إطلاق الرصاص. مَن أطلق الرصاص أسقط كثيرًا من الفلاحين على الأرض غارقين في دمائهم.

قُتل القائد وعشرة من جنوده، وجُرح عشرة، أما المسَّاح فجرى ومرق من فتحة وجدها في سور الجريد والبوص، وراح يعدو في الصحراء.

صرخ «منازع» شيخ البلد في الناس أن يتوقفوا عن الضرب، ففعلوا. وأمر نائب القائد ما تبقى من الجنود بالانسحاب إلى طرف الزراعات، ففعلوا وهم يحملون قتلاهم ويساعدون مصابيهم على السير الوئيد، ثم انسحبوا نحو الشرق. جرى شيخ البلد نحو نائب القائد ليسترضيه، لكنه هشَّه بدبشك بندقيته، وقال: انتظروا الهلاك.

(16)

اجتمع «منازع» و«منصور» مع رجال النجع في ساحة بالقرب من المسجد، يتشاورون الأمر، وعلى وجوههم فزع وترقب. تطلع الفلاحون إلى الكبيرَين ليروا ما سيفعلان، لكنهما كانا عاجزَين مثل الجميع.

نظر «منازع» إلى «منصور» وقال: ذهب عنك صبرك، وفقدت حكمة أجدادك.

هز رأسه راضيًا بما سمع، وقال في أسى: فات وقت العتاب.

قال «إسطاسي» نجار «النجع»: لا أرض لي، ولم أكن معكم وقت العركة، لكن الانتقام سيطول الجميع.

قال فلاح في وسط الجالسين: نحن في مركب واحد.

وتطلعوا إلى إمام المسجد، فقال: لا ترموا بأيديكم إلى التهلكة.

نهره «منصور» قائلًا: مَن مات دون أرضه فهو شهيد.

لكن الرجال كانوا غير مستعدين للشهادة، وقال أحدهم: علينا الاختيار بين خسارة أرضنا وبيوتنا وبين خسارة أرواحنا وذرارينا إلى الأبد.

وقال «منازع» وهو ينظر إلى وجوه الجميع: الباشا لا يرحم، ومَن قتل المماليك على سطوتهم لن يعجز عن قتلنا جميعًا.

رد «منصور»: الباشا صار شيخًا طاعنًا ولن يعمر طويلًا.

صرخ «منازع»: لا تتحدث عن شيء ليس بيدك.

ثم قام، وقال للرجال: لا يطلع الصبح على أحد منا في هذا المكان.

(17)

جمعوا ما استطاعوا من أشيائهم، وحملوها على ظهور الحمير والجِمال والبغال. ربطت النساء الملابس في بقج منفوخة. رص الرجال فوق أكتافهم ما قدروا على حمله. شهد الليل الخروج الكبير، للناس والبهائم وأقفاص طيور تصيح محتجة ضد مَن حرموها النوم.

كان من بينهم الذين يعرفون إلى أين يذهبون؟ فبيوت أقربائهم في قرى مجاورة قد تحميهم ولو بعض الوقت، إلى أن يُحسنوا اختيار وجهة الفرار. البعض لم يكن يعرف إلى أين يسير بين الزروع والشجر. قلة منهم قصدت الصحراء، معولة على أيام صحبة عابرة جمعتهم بالعربان.

أما «منصور» و«منازع»، فقصدا الجبل الشرقي، حيث مناجم الذهب، اصطحب كل منهم أسرته، وجرى عليهم ما جرى على أهل النجع جميعًا. فقدا مكانتهما بين الأهالي في ساعات، لكنها لم تزايل رأسيهما، وكل منهما يؤمن بأن الغنى في الغربة يمكن أن يكون وطنًا جديدًا.

حرص «منصور» قبل هروبه على زيارة قبري أمه وأبيه، ليقرأ لهما الفاتحة ويعدهما بأن ينقل رفاتهما إلى حيث يجب أن تكون قبور العائلة. زار ضريح «فراس»، وبكى أمامه أكثر مما بكى يوم عرف أن صمته سيطول، وأكثر مما بكى يوم موته. قرأ له الفاتحة، وطلب منه أن يدعو، وهو في عالم الحق، لأهله بالنجاة.

أشرقت الشمس على «نجع بحر» لتجد بيوتًا خربة، وشوارع تتساءل كلابها: أين ذهب الذين كانوا يرمون إليها العظم والفتات.

بانت الزراعات زاهية، هي وحدها التي تعرف أن الجند القادمين لا محالة، سيأتون إليها بمَن يواصل رعايتها حتى موسم الحصاد.

وجاء صوت القوَّال ينشد وسط عزف مجروح:

يا نجع نخله مال وأهل فروا هرايب

وكيف ينعدل حال اللي همومه قرايب

أيَّامُ الذَّهَب والدَّم

(1)

إن لم يمضِ العيش على وتيرة واحدة، فهناك مَن يرتبك. يوجد مَن لا يتحمل وطأة التغيير فيقع في يأس أو يستسلم. هناك مَن يألف غدر الحياة وخياناتها، ويعتبر الدهشة أو الحسرة التي تصاحب تقلباتها شيئًا يكسر الرتابة، أو محنة تنتهي بمنحة، ويؤمن أن العظمة لا تولد إلا مع العرق، والوقوف على حافة الخطر.

(2)

لم يكن «منصور» يعتبر ما هو مقدم عليه شيئًا مربكًا، فهو اعتاد العيش بين الزراعات وها هو ذاهب للإقامة بين الصخور. نعم كانت هناك صحراء يمكن للواقف على سطح أي بيت في «نجع بحر» أن يراها صحراء مبسوطة، تأخذ العين إلى المدى، لكن الصحراء التي هو ذاهب إليها مختلفة.

تجري في صلب «منصور» المغامرة، وكذلك «منازع»، فالأجداد سقطوا على درب الحياة الطويل، لكنهم لم يزحفوا على بطونهم، وقعوا واقفين، ونظروا إلى الأمام، وعوضوا ما ضاع، وغرسوا لهم أوتادًا جديدة في أرض أخرى.

لـم يكن «منصور» يعـرف بيت «مزيـون» في «أرمنـت»، لكنه كان يعـرف الجبل. مر بـه مع «أحمد». زاره مرات. صار هو الدليل، فما إن نزلت الأسرتان إلى مرسى على الشاطئ الشرقي يعرفه جيدًا، حتى قال لهم: لنشـتري جِمالًا من نجع قريب، وهنـاك تضاف إلى الجِمال التي تحمل الصخر المسكون بالذهب.

واشـتروا أيضًا مؤونة أخرى، وملأوا القِرَب من ماء النهر. انجابت أمامهـم الصحـراء مختلفـة عن تلك التي كانوا يمسـونها مـن بعيد في أيامهـم التي خلت. لم تغرب شـمس اليـوم حتى كانوا قـد اقتربوا من تجمـع الرجال عنـد أول منجم. وقـف «منصور»، وقـال لهم: دعوني أخبر الرجال بمجيئنا.

رجل من الواقفين كان يعرفه، فلما رآه، ناداه باسـمه: أهلًا بالسـيد «منصور».

لـم يكـن «أحمد» موجودًا. كان في مكان بعيـد مع زمرة أخرى من الرجـال يسـعون خلـف عـروق الكوارتز التي تشـي بوجـود الذهب. أنزلهـم الرجال في خيمة «أحمد»، وجاءوا لهم بطعام جديد، تبقى من لحم ثلاثة تيوس مشوية وثريد.

مـلأ الوافـدون بطونهـم، وأثقلهم الشـبع فتمـددوا على الأبسـطة المفروشة في قلب الخيمة، بينما نهض «منصور» و«منازع» ليستكشفا مكانهما الجديد.

تطلـع «منازع» إلـى الهضاب المسـربلة بضوء شـحيح، يرميه قمر بـدا هنا أقـرب إلى الواقفين على الرمل والحصى مما كان عليه وسـط

الزراعات، أو حتى أسطح البيوت في النجع الذي صار من الماضي. بدت وديان تحجب التلال عنها ضوء القمر، فقال «منازع»: مكان يسكنه الخوف.

قهقه «منصور» وقال: سيكون سكنًا آمنًا حين تقع عيناك على الذهب.

رأى «منصور» أحد الرجال يقترب منهما، فسأله: أين السيد «مزيون»؟

- نزل إلى المحروسة ليبيع ما جمعه الرجال من ذهب في شهرين كاملين.

همس «منازع» في أذن «منصور»: جئنا لنأخذ من أرزاق الناس.

قهقه، وقال: غدًا سيكون لنا رجالنا وأرزاقنا. الجبل يتسع للآلاف.

(3)

انطلق صوت كالرعد، أتبعته كركبة عالية. اندك الجبل، وتهاوت الصخور يلحق بعضها بعضًا، فلمَّا سكنت مكانها عند السفح، ترامت أصوات طرقات قوية. بدا «منازع» حائرًا، لا يعرف ما يجري حوله. أما «منصور» فكان قد اعتاد هذا خلال زياراته السابقة. نظر إلى «منازع»، وقال: تواصل الخير بقدومنا.

تطلع إليه وفي عينيه سؤال، فأجابه: الصخور التي تهاوت ستحطمها المرزبات، حتى تصبح قطعًا صغيرة، تتولاها القواديم

والشواكيش حتى تنهرس، ليأتي مغربلون ليهزوها مرات، فيُحجب الحصى، ويتساقط رمل مدسوسة فيه فتافيت الذهب، كأنها شرر يطير. تُجمع، وتُؤخذ إلى المصاهر، وتسيل ثم تجمد في سبائك يخطف بريقها العيون.

ابتسم «منازع» وقال: كار جديد على «آل بخيت» لو عرفوه في الزمن البعيد، ما أصبحوا خدمًا في القصور.

(4)

حين عاد «أحمد» سمع من «منصور» ما جرى، وأدرك أنه أتى هذه المرة للإقامة وليس لزيارة عابرة، فرحب به وقال: الجبل يتسع لنا جميعًا.

رحب «مزيون» بعد عودته حين عرف أن «منصور» و«منازع» أتيا بمال جديد، يساعد في توسيع العمل، بجلب المزيد من العمال الأفارقة. تاه قليلًا وقتها، ونظر إلى قبر أبيه، وقال: كان في الحاج «عطوة» شيء لله، قلبه حدثه أن هذه الأرض ستجمعنا حين عرض على السيد «خير الله» مشاركته ذات يوم بعيد.

(5)

كان «أحمد» قد عرض على «منصور» و«منازع» أن يُنزلا أسرتيهما في «أرمنت»، وقال: بيتي واسع، يساع من الحبايب ألف. لكن كل منهما فضل أن يكتري لأسرته بيتًا مؤقتًا، إلى أن يبني لها دارًا تليق بها، وكان لهما ما أرادا.

انشـطر «الصوابر» و«آل بخيـت»، حالت بين الرجال وبين النسـاء والأطفـال بيوت ونهر ومسـافة واسـعة من الصخـر والرمل والحصى وريـح تزعـق في الوديـان والكهـوف. الرجـال يكدحون فـي الجبل. النسـاء ينتظرن في البيـوت ويقمن بما عليهن من سـبل العيش اليومي لهـن ولأطفالهن. الأطفال إلى الكُتَّاب لمواصلة التعليم الذي يحرص «الصوابر» خصوصًا عليه.

ورأى «مزيون» أن توسـيع الـرزق يتطلب عمالًا آخرين، فاعتزم أن يقطع الصحراء الشرقية كما اعتاد، ويساعده العبابدة والكبابيش ليصل إلى شـرق السـودان حتى أطراف الحبشـة، فيجلب مَن يريد من هناك. صمـم «منازع» على أن يصحبه، وقال في سـره: لعلي أسـير في أرض داستها قدما جدتنا «سابا» في زمان بعيد.

ركبـا فرسـين قويين، وانطلقا عنـد البكور. ودعهما الرجـال بالدعاء، بعـد أن حملا على ظهر الفرسـين الطعام والماء. قـال «مزيون»: لا تثقلا الفرسين، ففي الطريق نتزود بما نريد. معنا المال، وأهل الخير لا ينقطعون على طول الصحراء وعرضها.

(6)

جاء الرجال السـود الأشـداء، ذوو الخبرة في اسـتخلاص الذهب المخبـوء فـي بطـن الصخـر. تضاعـف العمـل، وزاد الرزق. اشـترى «منصور» و«منازع» بيتين لأسـرتيهما، فعاشـتا في رغد، أكبر مما كانتا عليه في «نجع بحر».

وكما كان عربان الصحراء الغربية يأخذون رزقًا من الزرع الذي أنبته «مهدي» في الرمل، كان لعربان الصحراء الشرقية نصيبهم. لم يأخذوا ذهبًا، إنما أخذوا جزءًا من النقود التي يباع بها في المحروسة وغيرها.

كان لكل عامل أجر على قدر ما تجود به الصخور من ذهب، إلى جانب ملء بطنه ثلاث مرات في اليوم. كانوا يتناوبون في قطع الصحراء ذاهبين إلى أهليهم في السودان والحبشة مرة كل عام، ليمدوهم بما ادخروه، ثم يعودوا مقبلين على العمل بشهية مفتوحة. في الذهاب والإياب يتولى العربان حمايتهم، ويقودونهم في الدروب المبسوطة على شاطئ البحر الأحمر، حتى يبلغوا مأمنهم.

مَن يمرض منهم في هذه الرحلة الشاقة يداويه العربان بما عرفوه عن أجدادهم من طبابة. مَن يمت في الذهاب أو الإياب، يُدفن مكانه. أما مَن كانوا يموتون في مكان العمل، فأعد لهم أربابه مقبرة تقع خلف قبر «عطوة». أقل الموتى كانوا يسقطون إعياءً من الكدح تحت الشمس الحارقة، وأكثرهم كانت تدهسهم كتل الصخور العمياء حين تدحرج بقوة أو تهوي من علٍ، أو تتهاوى فوقهم الآبار التي يحفرونها عميقة بحثًا عن الذهب.

كل شيء كان يسير وفق ترتيب مُحكم، ولم يمر يوم واحد حتى كانت الجبال تجود بما ادخرته أزمانًا طويلة. حتى جاء يوم كئيب، لم يكن في الحسبان.

(7)

صباح يوم غائم، جاء أحد العمال متهلّلًا، وقال: رأيت عروق ذهب في كهف عميق.

كان «أحمد» قد اعتاد القيام بهذه المهمة، فمع الأيام صارت له الخبرة الكافية التي تعينه على تعقب عروق الذهب المدسوسة في الصخور المنزوية. كان العثور على مثل هذه الكهوف حدثًا كبيرًا، فخيرها أوفر من طحن الصخور وغربلتها.

اصطحب معه ثلاثة من العمال، حاملين القواديم والشواكيش والبُلط والمرزبات، ومعهم مشاعل وزيت، وساروا نحو الكهف. سار خلفهم ثلاثة رجال ليتناولوا منهم ما يعثرون عليه في بطون الصخر البعيدة.

وقف الرجال الثلاثة ساعة، يسمعون فيها صوت الطرقات في البعيد، فكانوا مطمئنين إلى أن الأمور تمضي على ما يرام. فجأة سكت الصوت. ظنوا أنهم قد استخلصوا ما قدروا عليه، وأنهم يعودون على مهل. لكن الوقت مر دون أن يخرج أحد. نادوا فلم يجبهم أحد.

قال واحد منهم: علينا أن ندخل لنرى ما جرى.

تردد اثنان، ودخل مَن طلب. غاب وقتًا مر على الاثنين الواقفين في انتظاره كأنه دهر. وحين خرج، قال: لم أرَ أحدًا. لم أسمع أحدًا.

جروا نحو الرجال الذين كانوا منهمكين في العمل، فهرعوا معهم إلى الكهف يتقدمهم «منصور»، فلمَّا بلغوه، صمتوا وأصاخوا إلى أي صوت، لكن الخرس كان سيِّد المكان.

على الفور طلب «منصور» مشاعل، فأمسكها رجلان، ودخلا بقلبين يرتجان من فرط الخوف. انزاحت الظلمة الجاثمة تحت أقدامهما، وهما يتقدمان في حذر، ثم جاء صوت صراخهما في الأعماق البعيدة: لا أحد هنا.

دخل خلفهما «منصور» متغلبًا على تردده وخوفه، يسبقه ضوء الشعلة، حتى وصل إليهما. وجدهما راجعين، فأمرهما بالسير خلفه. ساروا عميقًا، ولم يجدوا أثرًا للرجال الأربعة.

عادوا ووقفوا أمام الكهف تأكلهم الحيرة جميعًا، وعلى وجوههم تلال من أسى. كان الخبر قد وصل إلى «مزيون» فجاء على فرسه، ترجل وقال: لا يجب أن نُقدِّر البلوى قبل وقوعها.

سأله «منصور»: هل حدث هذا من قبل؟

كان قد حدث، ولم يجد الرجال له تفسيرًا سوى الحكايات العجيبة. ابتلع «مزيون» ريقه، وقال: حدث مرات، ولا داعي للخوف.

كان العمال القدامى في المكان يعرفون أنه يكذب، لكن ما عساه أن يفعل في مثل هذا الموقف العصيب؟ وهل بوسع أحدهم أن يقول الحقيقة وهو يرى «منصور» مفطورًا على وشك الجنون؟

أراد «مزيون» أن يخفف من فجيعة «منصور»، فقال لأحد الرجال: هاتِ قِربة ماء. حين جاء بها، أمر أحد العمال أن يدخل ليضعها في أبعد مكان يصل إليه، حتى إذا خرج الغائبون عطشى وجدوا ما يروي

ظمأهم الشديد. بقيت القِربة على حالها في عمق الظلام، لكن الأيام مرت دون أن يخرج أحد.

توالت الحكايات عن الجن الذي يحرس الكنوز المطمورة في بطن الجبل، فيخطف كل مَن يصل إليها، ويأخذه إلى باطن الأرض، أو يصعد به ويلقيه فوق كوكب قريب. حكى آخرون عن ثعابين ضخمة تسكن الأعماق، ويموت على الفور مَن تلدغه. لكن هناك مَن لم يرُق له كل هذا، وقال: لو كانوا قد لُدغوا لعثرنا على جثثهم، أو حتى سمعنا صرخاتهم. ارتاحت الأغلبية لما قاله أحدهم بأن صخرة قد وقعت فجأة فسدت عليهم باب العودة. لم يرضَ «منصور» بأي من الحكايات، وتمسك بأمل كاذب، حتى مر شهر دون خبر، فأيقن أن مَن ذهب في بطن الجبل لن يعود.

جمع ملابس «أحمد» ولفها، وأحكم ربطها، ثم سكب فوقها العطر، وحملها والرجال خلفه، ودفنها إلى جانب قبر «عطوة». أقيمت على الغائب صلاة الجنازة، ثم أُقيم شاهد، وضعت في صدره لوحة من رخام أبيض، محفور عليه اسم «أحمد»، وطُليت الحروف بماء الذهب. أما العاملان اللذان كانا معه، فلم يُقم لهما شيئًا.

(8)

تقاسم الرجال الثلاثة إدارة الرزق الذي انهمر سخيًّا، وظنوا أن الجبال قد دانت لهم، ولذريتهم إلى الأبد. ووجد «منصور» فيما يأتيه أقل ما يعوضه عن غياب «أحمد»، وكان يأخذ نصيبه، كأنه حي، ويعطيه لزوجته. وكان الرجال يدركون أنهم في خطر مستمر، فألَّف هذا بين قلوبهم.

(9)

منذ متى كانت الأرض في مصر ملك الناس؟ الوالي العثماني اعتبرها له، يأتيها خراجه، ويستنفع المماليك، السناجق منهم والملتزمون، وفوقهم «شيخ البلد» بما يُترك لهم، وهو ليس بالقليل. يشاركهم ملتزمون من أهل مصر. فلمَّا جاء الباشا، رد كل شيء إلى نفسه. كان وحده المتحكم في الأرض ومَن عليها. ولأن الجبال تقع تحت سلطانه، فكان من الطبيعي أن يمد بصره إليها.

أراد في البداية أن يستميل العربان بالأُعطيات السخية، فاستجابوا له. مَن تمرد وقع تحت طائلة التأديب القاسي. كان يريد في البداية أن يمنعهم من الإغارة على القرى، أو التجمع لتشكيل خطر على حكمه، وكان طوال الوقت لا يريد لهم أن يميلوا إلى غيره.

لكن وقع ما جعله ينظر إلى الجبال نظرة أخرى، حين رآها مددًا قويًّا لجيوشه التي ذهبت بدورها تجوب الصحاري سعيًا وراء توسيع سلطانه خارج مصر. لم تكن الجبال في نظر الباشا صخورًا صماء، ولا رملًا وحصى ينفرش تحت السفوح المتتابعة، ولا وديانًا يمكن أن يجري فيها بعض الماء، لا سيما أوقات السيول، فتنبت الأحراش والأشجار، وبذور النباتات الشاردة، فيجد العربان ما يربون عليه أغنامهم وإبلهم، إنما صارت شيئًا آخر، لم يجهله. عرف الباشا منذ سنوات أن في الجبال ذهبًا، وكان عليه أن يعمل على البحث عنه بأي ثمن، ليعزز ماله، فيشتري به القلوب والسواعد.

لكن الرجال الذين يكدحون في النهارات المشمسة والغائمة على حد سواء، وفي الليالي القمرية، من أجل أن يلتقطوا نثار الذهب من بين الصخور الصلدة، لم يصل إليهم خبر اهتمام الباشا بما تحت أيديهم، فظلوا يعتقدون أن الخطر الذي هم فيه مقدور عليه.

حتى أتى يوم مشؤوم لم يكن أبدًا قد ورد على خاطر.

(10)

جاء من أقصى المدن رجل يلهث، اسمه «حسب النبي». كان قد صاحب «مزيون» في رحلته لبيع الذهب في المحروسة، وعاد وحده. تطلعوا إليه في هذا النهار البائس، فقال وهو لا يقدر على التقاط أنفاسه: قُبض على السيد «مزيون»، سيق إلى السجن، وصودر الذهب، وتمكنت أنا من الهرب بأعجوبة.

مادت الأرض تحت أقدام الجميع، ونظروا إلى الجبال الراسية حولهم فحسدوها على حالها. ملأ «منصور» عينيه من الرجل، وسأله: هل تعقبك أحد؟

أجابه وهو تائه: لا، زُغت من الجُند في الزحام.

كاد «منصور» يسترد بعض الطمأنينة الغائبة، لكن «منازع» فتح بابًا واسعًا للقلق، حين قال: قد لا يقدر «مزيون» على الإنكار والصمت.

(11)

أرسل «منصور» مَن يعس على الأخبار في «قنا»، فعرف أن اهتمام الباشا بالذهب قد وصل إلى حيث مناجمهم. كان قبل سنوات قد

أرسل بعثة إلى روسيا لتعرف كيف يُستخرج من الجبال. وحين سمع بعض العمال من السودان، أخبروا السيدين المتبقيين معهم في الجبال بأن الباشا كان قد جاء بخبير روسي، وأرسل معه الجُند، ومَن خبروا استخراج الذهب، وكثيرًا من العمال إلى «سنار»، ليحفروا هناك بحثًا عن المعدن النفيس.

قلل «منصور» من شأن ما سمع، وقال: بيننا وبين «سنار» مسيرة شهر.

لكن «منازع» الذي لم يكن قد نسي مهاراته كشيخ سابق للنجع المغدور، قال: مَن بدأ هناك، سينتهي إلى هنا.

واتفقا على أن يظلا في العمل حتى اللحظة الأخيرة، ولا يقدران البلاء قبل وقوعه. لكنهما حرصا على أن يتركا أي ذهب في مكان مغلق بالجبل معهما أقفاله، ولا يعرفه غيرهما. كلما كان الرجال يسبكون بعض السبائك، كان أي منهما يحملها إلى «أرمنت» لتكون هناك في أمان.

وزع «منازع» ثلاثة ناضورجية من مرسى النيل وحتى قرب المناجم، لكل منهم كوخ من حجر يعيش فيه، ومعه حصان، وعليه إن رأى الخطر قادمًا أن يرمح ليبلغ الذي يليه. طالبهم بأن تظل عيونهم مفتوحة ليل نهار.

توقف «منصور» و«منازع» عن إرسال أحد إلى المحروسة، حتى لا يلقى مصير «مزيون» ويزيد الطين بلة. فكرا في معاودة التواصل مع

تجار في الصعيد، كانوا يشترون السبائك بثمن أقل من المحروسة، وتخليا عن الفرق لقاء الأمان.

لكن، منذ متى كان على أرض البلاد مكان آمن بعد أن مَدَّ الباشا بصره إليه؟

(12)

أنكر «مزيون» أن يكون صاحب الذهب، وما هو إلا وسيط بين مَن يملكه وبين مشتريه. عذبوه على قدر ما يطيق، فاعترف بأنه صاحبه، وأنه تاجر يتحصل عليه من بنادر الصعيد. جاء التعذيب أقسى مما يطيق، فاعترف بكل شيء.

أعادوه إلى الزنزانة مثخنًا بالجراح والقهر، ينزف ويئن دون أن يسمعه أحد، حتى صار جسده خرقة بالية. أغمض عينيه ليرى كل شيء، الهضاب والوديان والعمال والأحصنة والجِمال وقبور الراحلين، ورأى جدران زنزانته تكتسي بالأصفر الزاهي، الذي راح يبرق في الظلام، ثم غاب في ظلمة الموت التي يعقبها نور، يضيع فيه بريق كل ذهب الأرض.

(13)

في ظهر يوم ليس ككل الأيام، ظهر الناضورجي يرمح، وحوافر حصانه تثير حوله عجيجًا تبلعه الريح. حين رآه «منصور» نظر إلى «منازع»، وقال: جاء ما كنا نخافه.

رد «منازع» بحروف يابسة بعد أن جف ريقه من هول ما يتوقعه: وقوع البلاء خير من انتظاره.

جريا نحو السبائك التي صنعها العمال على مدار أسبوع. رفعا الذي غلا ثمنه وخف وزنه، وطالبا العمال بالهروب بعيدًا، بعد أن يُخبئوا معدات الحفر والغربلة والصهر في كهف قريب، ويسدوا بابه بالأحجار. وقف العمال حائرين، فطمأنهم «منصور» وهو لا يعرف إن كان كاذبًا أم صادقًا: ننحني للعاصفة حتى تمر.

لكن العاصفة كانت هوجاء، شديدة أكثر مما توقع أي من السيدين الساعيين وراء الذهب، واستعادة المجد الغابر. ظهرت خيول تثير حولها عجيجًا هائلًا، لا تقدر الريح على ابتلاعه. لمعت في الشمس بنادق مشرعة، فوق أكتاف رجال يمتطون الخيل، وآخرون يركبون عربات تجرها خيول أخرى. كانوا يتقدمون في الخلف على عجل. رآهم العمال، وكانوا لم يفرغوا بعد من تخبئة الآلات والأدوات التي رافقتهم كأعمارهم، فهاجوا وماجوا. جرى منهم على قدميه مَن لم ينتظر. هناك مَن شب على أي فرس رآه أو جمل، وتركوا خلفهم كل شيء.

انطلق الرصاص يحصد منهم الكثير، فسقطوا على الأرض. هناك مَن واصل الجري والدم ينزف من كتفه أو ساقه. رصاصة حطت في ساق «منصور» فأسقطته من فوق فرسه. هب واقفًا يغلب جرحه، وتوقف الفرس، وكأن بينهما عقدًا لا تنفصم عُراه. شب المجروح، وامتطى الذي انتظره من جديد، وراح يرمح نحو الجنوب، والفرس يسعفه. كان يرمح أكثر مما فعل في أي من أيامه التي خلت.

جاء نصيب «منازع» أشد ضراوة، فالرصاصة أصابته في كتفه اليسرى. لم يسقط، إنما تماسك والحصان يجري به إلى البعيد،

دون أن يـدري أن راكبـه يمد يده ليحاول عبثًا أن يمسـك عمره الذي يذوي.

وقـف بعـض العمال رافعيـن أيديهم فوق رؤوسـهم مستسـلمين. آخـرون منهم لم يكتفوا بالوقوف إنما استداروا ومشـوا على مهل في اتجـاه الجنـود، يحاولون مغالبة الفزع الذي ارتعـدت له فرائصهم. لم تمضِ سـوى سـاعة واحدة، حتى كان جند الباشا قد سيطروا على كل المناجم، لا سـيما بعد أن قادهم أحـد العمال إلى مكان تخبئة الآلات والأدوات.

صارت المناجم للباشـا، ولم يبقَ لحفيد «الصابر» من طريق سوى مواصلة الهروب.

(14)

حين اطمأن إلى أن المسافة قد اتسعت به بعيدًا عن الجنود، ترجل «منصور»، كشـف عن سـاقه فـإذا بالرصاصة قد اسـتقرت فـي الربلة، وتوغلـت حتـى مسـت العظم. حاول السـير، فـإذا بألم شـديد يندلع، والدم يواصل النزيف. نزع الشال الأبيض الملفوف حول عنقه، وفوق الجـرح ربـط وهو يكتـم صرخاته حتـى لا يسـمعه أحد. تجلـط الدم ووقف النزيف.

نـزل الحصان إلى النهر ليشـرب. مد «منصور» بصره فـوق الماء، فلم يجـد قاربًا ولا مركبًـا. رأى فقط فلاحين منحنيـة ظهورهم في أرض على الشاطئ الغربي. هجمت عليه المخاوف من نفسه وحوله، فخاف إن انتظر

قد يكشفه أحد، ويدل أي جند يتعقبونه على خط سيره، كما أن الرصاصة المستقرة في ساقه لا بد لها أن تخرج قبل التورم الشديد، وربما الغرغرينة التي إن جاءت لن ينفع معها سوى القطع، فيعيش بقية حياته أعرج.

شرب الحصان حتى ارتوى، والتفت ينظر إلى صاحبه، فلحق به على ساق واحدة، ولم يكن أمامه بد من المغامرة. أيسبح حتى يبلغ شاطئ النجاة؟ لكن كيف له أن يغلب الماء بساق لا يستطيع تحريكها؟ أيموت غرقًا فيلحق بالذين حصدهم الرصاص في قلب الجبل؟ أم هناك مسرب ضيق للنجاة؟

اندلعت الأسئلة تلسع رأسه. سيطرت عليه محبة الحياة، فجازف. أنزل السرج من فوق ظهر حصانه، حتى لا يثقله، ضرب ظهره فمال قليلًا، ليشب فوقه، بعد أن تجرد من ملابسه وحملها على رأسه. دفع الحصان على مهل نحو الماء. جفل الحصان، وهو لا يرى أمامه ترابًا أو رملًا أو حتى صخرًا ينقره بحوافره متقدمًا إلى الأمام. دفعه بقدمه، وأرخى له اللجام، فراح الحصان يخوض الماء على مهل، حتى بلغ رقبته، فرفعها إلى أعلى، يسحب من الهواء الناعم ما يقدر عليه، ودفع سيقانه الأربع، فشقت الماء، وأخذ يعوم، والماء يسحبه معه إلى حيث يجري.

ساعة كاملة وهو وحصانه يقاومان الموت الواقف على الباب، حتى وجد الحصان ما يضع عليه قدميه عند الشاطئ، فنفض عن جسده الماء، وهو يخرج على مهل. صار النهر خلفه، فمال برأسه على رقبة الحصان وقبّلها في امتنان.

رأى الفلاحون رجلًا يخرج من النهر ممتطيًا حصانه، ثم توقف عند الشاطئ وارتدى ملابسه مغالبًا وجعه. نادوه إن كان في حاجة إلى مساعدة، لكنه قال في نفسه: لا أطلب منكم سوى أن تنسوا ما رأيتموه. ألقى عليهم السلام، وسألهم: أين الطريق إلى الجسر؟

أشاروا له أن يتوجه غربًا ففعل فلمَّا ركب الجسر، تذكر الطريق إلى «أرمنت» جيدًا. رمح حتى بلغ المدينة عند الغروب. حرص طول الطريق على أن يُدلِّي جلبابه فوق ساقه، حتى لا يرى الناس جرحه، وقد يكشفون أمره. وصل بيته والليل يستره، طرق الباب، فلما انفتح عرج وسط صرخات الخادمات، وهو ينهرهن ليصمتن. على أريكة تمدد. كان صغيره «جعفر» يهبط السلم، آتيًا من غرفته. كان قد كشف عن ساقه، وراح يفك الرباط، فصرخ ابنه سائلًا: ماذا جرى؟

قال له: ساعدني على إخراج الرصاصة من ساقي.

ولم يكن يعرف ما عليه أن يفعل، فأشار إليه أن يُشعل النار، ويدفن فيها سكينًا، فلمَّا احمرت جاء بها إليه. طلب قطعة من قطن نظيف، وحُق ملح، وحطبة طرية. وضع الحطبة بين أسنانه، ودفع السكين إلى ساقه، وهو يعض على الحطبة فانغرست فيها أسنانه، بينما النصل الحارق يمزع ربلته في اتجاه الرصاصة، حتى بلغها. نغزها بقوة، فأطل رأس المقذوف حادًّا، ضرب جانبه، فظهر كله، فدفعه إلى الخارج، بينما صراخه يذيب الحطبة بين أسنانه، حتى غاب عن الوعي.

وجد «جعفر» الجرح يواصل النزيف، فجاء بحبل من دوبارة، وربط فوقه، حتى تجلط الدم. أمر الخادمات اللاتي كن واقفات بعيدًا،

وظهورهن إلى «منصور» لا يتحملن النظر إليه، أن يأتين بالبصل، فشق إحداها بالسكين الملطخ بالدم، ثم مدها إلى أنف أبيه، فراح يتململ، حتى استرد وعيه، فوجد زوجته قد أخذت رأسه إلى فخذها، ودموعها تنهمر بغزارة.

نفض رأسه، وكأنه يسقط منها مخاوفه، ثم قال بصوت مرتعش: لا بد أن نغادر الآن.

وسألته زوجته: إلى أين؟

كتم دموعه، وقال: لا أعرف.

عادت تسأل: كيف نمضي وجرحك لا يزال ينزف؟

اغتصب ابتسامة من بئر أحزانه وقال: إن بقينا فمصيري القتل أو السجن.

وجال ببصره في وجوههم، وقال: سيصادر كل ما معنا، ولا أريد أن أترككم تمدون أيديكم إلى الناس لقاء لقمة أو شربة ماء.

وسأله «جعفر» في جزع: لِمَ كل هذا؟

غلبه البكاء، وأجابه: هاجمنا جند الباشا، واستولوا على المناجم، وتفرقت بالرجال السبل، إلى الآخرة أو السجن أو الفرار أو الضياع في الصحراء الموحشة.

وطلب من ابنه أن يطلب من أسرتي «أحمد» و«منازع» أن تستعدا للرحيل، وتأخذا كل ما في البيتين من نقود وذهب.

قبل انتصاف الليل كانوا ينسحبون من «أرمنت» على ثلاث عربات كارو تجرها البغال، وكان «منصور» يمتطي حصانه ويقودهم إلى حيث لا يعرف.

وجاء صوت الشاعر ملهوفًا يلاحقه الرباب:

لا دهب يعيد اللي مات ولا فضة تبري الجروح

واللي باقيالـه ساعات ويـن فيها يروح؟

telegram @
yasmeenbook

الوجَعُ والمَسرَّة

(1)

لم يكن «منصور» يدري شيئًا عن مخالفة أجداده لوصية المجذوب صاحب الخص والزاوية. كل ما يؤمن به هو أن لعنة قد أصابت «الصوابر»، ولا تريد أن ترحل عنهم. تفرقوا في البلاد، وتقلبوا بين ثراء وسترة وفقر، وبين أمان وخوف، وتسربت السنين من بين أصابعهم، وهم يدبون على كل أرض بلغوها، وأرادوا أن يقيموا فوقها مكانة، ما إن تستقر حتى تهتز، ثم تترنح وتسقط فوق التراب. يلتقطون نثارها، ويجمعون أشتاتها، ويعاودون القيام من جديد، دون أن يدركوا أن الفرار والحيرة واللهفة تجري في دمائهم.

(2)

بلغوا قرية في الطريق، فتزودوا منها بالطعام. ملأوا قربهم بالماء لقاء دراهم معدودات. حين كان الناس يسألونهم عن الرحلة، كان «منصور» يجيبهم: نقصد مقام سيدي «أبو الحسن الشاذلي».

فيسمعون تهليلات وتبريكات وأدعية ليس بوسعها أن تزيح الأسى الجاثم في الصدور.

(3)

وصلوا إلى أرض بور. قطعة ليست بالضيقة، يبدو أنها قد استعصت على الناس زراعتها. سبخة كانت تتناثر عليها نباتات ذابلة هشة، تنفخها الريح فتوشك أن تنخلع من جذورها. على طرف الأرض كان يوجد كوخ، يتراءى حتى للأعمى، وسط الفراغ. تطلع «منصور» إليه، وقال لمَن معه: دائمًا تلوح البدايات من الأكواخ المنسية.

حين اقتربوا منه، خرج لهم عجوز يتوكأ على عصاه. وقف فوقفوا، فنظر إليهم، وقال: أهلًا بالتائهين.

وجد «منصور» نفسه يسأله، وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد: كيف حالك يا عم؟

ابتسم، وأجاب: يستقر حال مَن يعرف مقامه.

أشار العجوز إلى النساء، أن يهبطن من فوق عربات الكارو، ويدخلن إلى كوخه ليحميهن من شمس حارقة. نظرن إلى «منصور»، فوجدنه يترجل، ويهز لهن رأسه موافقًا. تلاصقت الأمهات وأولادهن، وامتلأ بهم الكوخ، والعجوز يقول: ليس لديَّ ما أقدمه لكم سوى النصيحة.

سرى شيء من بُشرى في وجه «منصور»، وقال: هذه أغلى ما ننتظره منك يا مولانا.

شرد العجوز برهة، ثم عاد ليقول: مَن خرج من داره قلَّ مقداره.

طأطأ «منصور» رأسه، وقال: ما باليد حيلة.

ابتسم العجوز، وقال: عجبي لمَن يهرب من مكان يناديه، هو الوطن والسكن والأمان.

مصمص «منصور» شفتيه، وقال: لا أمان لمَن يسري الفرار في دمه.

ملأ العجوز عينيه من الجالسين، وقال: كفى للمرء ذنبًا أن يُضيِّع مَن يعول.

رد «منصور»: ما باليد حيلة.

غمس العجوز يده في دفقة هواء كانت تسري من فتحة ضيقة بجدار الكوخ، وقال: عُد إلى حيث كان أجدادك.

أطلق «منصور» قهقهة مكتومة مبتورة، وقال: عظامهم تفرقت في أماكن كثيرة، فأيها تقصد؟

عبث العجوز في لحيته البيضاء، وقال: ما الحب إلا للحبيب الأوَّل.

ثم أغمض عينيه، وبسط كفيه، وراح ينقل إبهامه بين أصابعه، ويتمتم بما لا يسمعه أحد، فأدرك «منصور» أن الرجل قال نصيحته، وأنه من المجاذيب الذين لا يخلو منهم مكان. حاول أن يدفعه إلى تفصيل ما قال، لكنه لاذ بالصمت. نهض «منصور»، وأشار إلى مَن معه أن يخرجوا ففعلوا. شبوا فوق العربات، بينما هو يغلب وجعه ليمتطي حصانه. فلما ساروا بعيدًا عن الكوخ، التفت إلى «جعفر»، وقال: يطالبني المجذوب العجوز بالعودة إلى حيث كان جدك الكبير «رضوان الصابر».

وكان «جعفر» يعرف الحكاية، التي تجود بها ألسنة «الصوابر» عبر الأجيال، فقال: مكان أجدادي لم يعد لنا، ومَن فيه لن يرحبوا بنا.

صمت «منصور» برهة، وقال: يهمني الآن ألا تنسى النصيحة، ولا تنسَ الحكاية كلها، فما أدراك لعل العجوز يقصدك بها ولست أنا.

(4)

كان «منصور» يحس بأن النهاية قد اقتربت، ولن يكون لديه وقت ليعمل بنصيحة العجوز، ودعا الله أن يمهله حتى يطمئن إلى استقرار أهله في سكن يأويهم من هذا التشرد الطويل.

استأجر بيتًا واسعًا من طابقين في «إسنا»، كان يكفي ليسكن فيه الكل. كانت في الطابق الأول صالة تطل عليها مندرة للضيوف، وحجرة للخبيز، وأخرى للطبيخ، وثالثة لتخزين الطعام والغلال، وحجرة ضيقة للخدم، وحمامان في كل منهما حوض للماء، وحفرة لقضاء الحاجة، حولها رخام قديم. تنبت من الصالة ردهة طويلة تنتهي إلى حظيرة في الخلف. سكنت كل أرملة حجرة في الطابق العلوي، وحجرة لـ «منصور» وزوجته، وأخرى لابنه.

دفع «منصور» وقت تحرير عقد الإيجار سنة مقدمًا، وقال في نفسه: ضمنت أن أحمى مَن أعول سنة كاملة من التشرد.

لم تمر سوى أيام قلائل بعد أن استقر بهم المقام في هذا البيت، حتى اجتاحت الحمى جسد «منصور». كانت قوية إلى درجة أنها لسعت كل مَن يمد يده إلى جبينه. غرق في كمادات الماء البارد

المتوالية. أشارت عليه «رقية» أن يدهن جسده باللبن الرائب، ففعل. عصر جرحه المتقيح، وهو يجأر من الألم، حتى شعر بأذ قلبه يكاد يتوقف.

جاءوا إليه بالمُزيِّن، فحص الجرح، رفع لبخة من ورق الخروع كانت موضوعة فوقه، ونظفه جيدًا ودهنه بالمراهم، وقال: سيصبح كل شيء على ما يرام. لكن بعد انصرافه لاحت علامات النهاية في عيني «منصور»، فطلب أن يأتي الجميع إلى غرفته. جلسوا على أرضية من الخشب الكالح. كان هو ممددًا فوق سريره، ينظر إليهم بعينين تغيمان. راح يغيب ويكلم أناسًا لا يرونهم، ثم يفيق فينظر إليهم بعينين شاحبتين.

طلب أن ينهض إليه «جعفر» و«عمر» و«محمود»، ومد يده إليهم، فأمسكوا بها، وقال: لتتعاهدوا أمامي على ألا تفترقوا، ولا تنسوا أبدًا وصية «الصوابر» التي لم ينقطع ذكرها على مدار السنين.

أخذ يقرأ فاتحة القرآن على مهل، وبصوت غارق في الخشوع، وهم يرددون معه بقلوب ترتجف، فلمَّا وصل إلى «آمين»، شهق، وفاضت روحه.

(5)

ثلاث أرامل كان عليهن أن يحملن فوق ظهورهن المكدودة مهمتين ثقيلتين: البقاء على قيد الحياة في سترة، والعودة إلى أرض الأجداد. كانت «عزة» منشغلة كثيرًا بهذه العودة، فهي ابنة «الصوابر»، التي رضعت الوصية صغيرة. لكن «رقية» لم تكن أقل التزامً منها، حبًّا

فـي ابنها، الذي كان قابضًا على ما سـمعه من أبيه قبل أن يفارق الدنيا، وكذلك كانت «ناعسة».

تفكـرت «عزة» فيمـا انتهـوا إليه، وقالت: هـي المـرة الأولى التي تحمـل الوصية نسـاء وصغارهن. كان الناس يتحدثـون عن عودة وباء الطاعون، فجزعت أكثر، وسـألت «رقية»: ماذا لو انقرض «الصوابر»، وضاعوا في متاهات الزمن؟ فلما سمعت منها السؤال، ضربت صدرها بيدها، وقالت: لنغلق علينا أبوابنا، ولدينا مؤونة تكفينا شهورًا.

التزمـوا بالعزلة، وسـاعدهم على هـذا أنهم غربـاء لا أهل لهم في «إسـنا»، ولا يدخل عليهم أحد، باستثناء السـقَّاء، لكنه لا يتوغل بعيدًا في الدار، فالأزيار التي يسكب فيها قِرَبه واقفة عند الباب الخارجي.

علـى النقيض من الناس، كان الوباء رحيمًا بهم، ليس لأنه تفاداهم جميعًـا فقـط، لكن أيضًـا لأنه كف عنهـم الناس، وحال بيـن مَن كانوا يطاردونهـم وبينهـم. نعـم لا يكف جنـد طاغية، حتى أيـام الوباء، عن صناعة الأذى، لكنهم في النهاية بشـر، يخافون على حيواتهم، ويؤدي خوفهم هذا إلى التفاف الصغار على أوامر الكبار.

لا تعـرف «رقيـة» أن هنـاك مَن يطاردهـم على وجه اليقيـن، لكنها تحـاذر، كمـا نصحهـا زوجهـا الراحـل، حتى لا يضيـع مَـن تبقى من «الصوابـر». حيـن كانـت تقـول لـه إن أهلـه الذيـن طُـردوا مـن قريـة «الحجانـي»، قبل زمن بعيد، من المؤكد أن كثيرين منهم بقوا على قيد الحياة، تزوجوا وأنجبوا، ولم ينقطع نسل العائلة، كان يرد عليها: لكن لا أحد من هؤلاء يحمل الوصية.

(6)

حين انحسر الوباء كانوا قد اقتربوا من استهلاك المؤونة التى أصر «منصور» على شرائها في الأيام الأولى لمجيئهم إلى «إسنا». حتى علف البغال والأحصنة لم ينسَه، وكأن قلبه كان يحدثه بأمر عزلتهم الواجبة. عادت «عزة» من غرفة الخزين، وقالت لهم وهم يتناولون غداءهم جميعًا في صالة البيت: لا بد من شراء مؤونة جديدة.

ران عليهم صمت عميق، وتوزعوا على هواجس لا يبتعد بعضها عن بعض. ونطقت «رقية»، وكان الكل يثق في حكمتها، وقالت: «خد من التل يختل».

ثم حدثتهم عن ضرورة ألا يُظهروا أي مظهر لثراء أو حتى سترة، حتى لا يلفتوا الانتباه إلى العائلة، وقالت: لا تنسوا أننا جئنا إلى هنا هاربين. وكانوا يدركون ما تقصده، فقال «جعفر» وهو ينظر إلى «عمر» و«محمود»: تربينا على أن يكد الرجال على النساء، ولا ننسى الوصية.

كانوا لا يزالون صبية، لكن ما عساهم أن يفعلوا؟ تركوا كل شيء وراء ظهورهم، البيوت المطمئنة إلى استمرار الخير، والتعليم الذي كانوا يتلقونه في الكُتَّاب، وقبل كل هذا فقدوا الآباء الذين كانوا يعرفون كيف يتحصلون على الرزق.

جلس الثلاثة فوق سطح البيت صباح اليوم التالي. نظروا حولهم إلى البيوت، وبانت لهم شوارع لا يألفونها، أخذتهم إلى مشهد لم يمر بهم من قبل. أطل عليهم معبد «خنوم» ببوابته العالية، وأعمدته

الأمامية الستة، والنقوش المرسومة على جدرانه، وباحته الفسيحة، التي ظهر فيها رجل طويل، يرتدي بنطالًا أسود وقميصًا أصفر فاقعًا لونه، وعلى رأسه قبعة بيضاء. ملأ «جعفر» عينيه من الرجل، وقال: خواجة قادم من بلاد بعيدة.

وقال «محمود»: أنظروا إلى يده، بها سلة من خوص، تبدو مملوءة عن آخرها.

وسألهما «عمر»: ماذا تظنان بها؟

رد «جعفر»: يشتري الخواجات ما تمتاز به بلادنا، قطع آثار مقلدة، ومشغولات يدوية.

غمس «عمر» يده في اتجاه آخر، وقال: أترون ما أرى؟

نظروا فإذا بمبنى لم يروا مثيلًا له من قبل، أمامه ساحة تغص بعربات الكارو المحملة بزكائب وأجولة لا يعرفون ما فيها، وحولها بِغال وجِمال. دققوا النظر، فإذا برجال يقفون فوق الحمولات، وآخرون ينيخون ظهورهم عند العربات، فتُرفع فوقها الزكائب والأجولة، ويمضون بها إلى داخل المبنى.

عند الغداء حكوا عما رأوه صبحًا، فقالت «رقية»: يبدو أن أنظاركم قد حطت هذا الصباح على رزق جديد.

وسألتها «عزة» عما تفكر فيه، فقالت: خادمتي تجيد تطريز أشياء من الخرز الملون والقماش، يمكنها أن تُعلمنا، ونصنع جميعًا ما نبيعه للخواجات الذين يأتون إلى المعبد.

تهلل وجه «جعفر» وقال: يمكننا أن نؤجر عربات الكارو أيضًا إلى المبنى، الذي يبدو أن به تجارة واسعة.

قالت «عزة»: هي وكالة الجداوي، طالما اشترى المرحوم منها التوابل والصمغ والبلح المجفف، وأشياء أخرى كثيرة.

وكان «جعفر» قد فكر في اتجاه آخر، فقال: يمكنني أن أعمل على العربة، فيكون لي أجر أكبر.

اتفق الصبية الثلاثة على أن يذهبوا جميعًا في اليوم التالي، ويعرضوا عرباتهم على أحد في الوكالة.

(7)

علَّمت الخادمة كل نساء البيت فن التطريز، بعد أن جلبت من السوق الخرز والخيوط الملونة. تعلم الأولاد الطريق إلى وكالة الجداوي. كانوا يافعين بينما العربجية رجال لهم شوارب وأصوات خشنة، فاستصغرهم مَن يشرف على حركة استلام البضائع وتوريدها. طلبوا منه أن يعطيهم فرصة، ويجربهم أيامًا، فربما وجد أنهم لا يقلون كفاءة لهذا العمل عن المنخرطين فيه منذ سنوات. نظر إليهم، وإلى عربات الكارو التي كانت سليمة قوية نظيفة عليها طلاءات زاهية، بينما البغال سمينة عفيَّة. بدوا له منعمين أناخ عليهم الدهر، فرق لحالهم، وقال: نُجرب، فإن لم تفلحوا أنتم، اكتفينا بتأجير العربات منكم.

كان على كل منهم أن يُشرف على رص الزكائب وقت تحميلها، وأن يرفعها على ظهور الرجال وقت تفريغها، فبدا هذا في البداية عملًا

شـاقًّا لهم، لكنهم صبـروا. انتصروا على ضعف أجسـادهم، والرجال جميعًا يسـاعدونهم، معجبين بأن يطمح صبية إلى القيام بعمل الرجال الأشداء.

اسـتكثروا إيجار البيت الواسـع، فانتقلوا إلى آخر من طابق واحد، لكل أسـرة فيه حجرة، ورابعة للخادمات. وخيـرت «رقية» الخادمات «خضـرة» و«تماضـر» و«أم الخير» بيـن البقاء معهـم أو الرحيل، وكن عوانـس لـم يتقـدم إلـى أي منهـن خاطب، فقالـت «خضـرة» وكانت أكبرهن سنًّا: نحن معكم على الحلوة والمرة.

كانـت «رقية» قـد وعدت الخادمات بأنها سـتجهز أيًّـا منهن يتقدم إليها خاطـب، لكن الأيام مرت وهن راضيات بحالهن. تتوجعن قليلًا أو كثيـرًا حين تختليـن في حجرتهن، ثم لا تلبثن أن تعدن إلى الرضاء، وكل منهن تقول في نفسها: هذا نصيب مقدر، وكل أمر بمشيئة الله.

رفضت «رقية» ما قالته «عزة» ذات يوم من أن قدم هؤلاء الخادمات إلى ديارهم في «أرمنت» كان شؤمًا على عائلتهم، حيث كان «منصور» قـد جاء بهـن قبل هجـوم الجند علـى المناجم بشـهر واحـد. دافعت «رقية» عنهن؛ لأنهن في نظرها أكثر إخلاصًا ممن سبقتهن، وقد عرفن في سرعة شديدة طباع سيداتهن وأولادهن.

لـم يكن في البيت الجديـد مكان لعربات الكارو، فوضعوها أمامه متتابعة، وربطوا البغال في أوتاد دقوها خلف الجدار الأخير، مستغلين أن بيـت جارهـم يعطي ظهـره لبيتهم. أما الحصان فباعـوه، وكان ثمنه يكفي تغطية إيجار بيتهم الجديد سنة كاملة.

يخرج الصبية الثلاثة في البكور قاصدين وكالة الجداوي. تخرج الخادمات الثلاث عند الضحى قاصدات المعبد. يعود الصبية عند العشاء، وقبلهن تعود الخادمات قبيل الغروب. السيدات الثلاث في البيت يجهزن الطعام في أوقات متقطعة تتخلل انهماكهن في أشغال التطريز.

(8)

دارت الأيام دورات، والرزق الذي يأتي من الوكالة والمعبد يكفي الطعام والشراب والإيجار والملبس، ولا يجعل أيًّا من السيدات تمد يدها إلى صندوق صغير مملوء بالنقود وبعض الذهب، تنتظر أن تسلمه لولدها حين يفتح بيتًا جديدًا.

وقت الجلوس إلى الغداء يوم الجمعة، حيث يستريح الجميع من العمل، تحرص «عزة» على تذكير الجميع بالوصية، وتقول: خُلق «الصوابر» لتحصيل أرزاقهم من الأرض.

لكن من أين لهم بتوفير ما يُمكنهم من دخول المزاد السنوي في المحروسة على أرض أي التزام؟ ومَن يسند التزامًا لنساء وصبية؟ كن يعرفن أن التزام الأجداد رسا في بعض السنين على شباب من العائلة، لكن آباءهم أورثوهم الهيبة مع الأرض، بينما هم الآن لا هيبة لهم، ولا وراثة لأرض، إنما لوصية لا يكفي المال الموجود للإيفاء بها.

(9)

طار إليهم خبر موت الباشا الكبير، فارتاحوا لما سمعوا، وكأنه كان لا يزال يسعى خلفهم بنفسه، منذ أن طارد جنده رجالهم عند

المناجـم، فقتلـوا واحدًا، ومـات آخر بإصابـة من بنادقهـم، والثالث لا يعرفـون مصيره في السـجن، ويخافـون إن ذهبوا للسـؤال عنه، أن يطولهم أذى.

جـاء «جعفـر» إلى أمه ذات يوم، وقال: الباشـا الجديد فتـح لنا بابًا وعلينا أن ندخله.

رفعـت رأسـها إليه فـي حيرة، فواصـل: فتح باب تملـك الأرض. إنهـا فرصـة أن نبـدأ الطريق إلى اسـتعادة مجـد جدنا الكبيـر «رضوان الصابر».

تشـككت في الأمر، وتسـاءلت: منذ متى كان الجالس على عرشه في القلعة يترك للناس شيئًا؟

أجابهـا في ثقـة: أحمـل القمح من حقـل بعيد، وسـمعت صاحبه يحـدث الفلاحين عن قوانين جديدة، وعرفت أيضًا أن هناك أرضًا في الجنوب معروضة للبيع.

صمتت «رقية» برهة، ثم قالت: خبر لا بد من إطلاع عمتك وزوجة عمك عليه، فنحن معًا في القسوة واللين.

تشـاوروا في الأمر، فقالت «عـزة»: وجدنا طريقًا إلـى العيش هنا، وهو إن كان أقل مما عرفناه في بيوتنا بأرمنت، فعلى الأقل نعرف كيف نكسب أرزاقنا. نحن نسوة ولا خبرة لنا بالزراعة.

ابتسـمت «رقية»، وقالـت لها: لا يجب أن ننسـى الوصية، ونخذل الراحلين في قبورهم.

ردت «عـزة» وهـي تداري غضبها: أنـا أيضًا لم أنـسَ الوصية، ولا خير الأرض، لكننا عشـنا سـنوات في المدن، وكانـت أرزاقنا تأتي من الجبل.

هزت «رقية» رأسـها، وقالت لها: لا تنسي أنكِ المعنية أكثر بوصية «الصوابر».

كن يتحدثن بصوت عالٍ في هذا البيت الضيق، فوصل ما قالوا إلى أسـماع الشـباب، فخرج «جعفر»، وقـال: لا يوجد في هـذا البلد أكثر مـن فلاحيها، ولديهـم ما يفيدنـا مقابل أجورهم. سـمع صوته «عمر» و«محمـود» فخرجا في وقت واحد، وقـالا: الأرض أفضل من حبس مالنا، وقيمته تتراجع مع الأيام.

كانـت النسـوة الثـلاث يعرفـن جيـدًا مـا يكابـده الشـباب الثلاثة. يعـودون في المسـاء منهكيـن، يرمي كل منهم جسـده علـى الفراش، ويروح في سبات عميق. كان كل واحد منهم ينظر في عين أمه، ويقول كلامًـا كثيـرًا دون أن ينطـق. كانت الأمهات تتوجعـن لآلام أولادهن، لكـن الوجع كانت تطمره سـعادتهن الغامرة بإظهـار الصبية قدرة على تحمل المسؤولية، وعدم الاتكال على الأموال التي تركها الآباء.

فكـرت «عزة» قليـلًا، وقالـت: يمكـن اختصار الطريـق، وضرب عصفورين بحجر واحد، ولنبحث عن امتلاك أرض في «الصابرية».

اسـتملحت «رقيـة» الفكرة، لكنها قالت: علينـا أن نعرف أين نضع أقدامنا قبل أن نخطو.

ثم نظرت إلى «عزة» وقالت: لا تنسي أنها الآن صارت «الجابرية».

وأدرك «جعفر» ما تقصده أمه، وقال: لنرسل مَن يعس لنا على الأخبار هناك.

نظروا جميعًا إليه، فواصل: يمكنني السفر، ومعرفة ما آلت إليه أوضاع الناس في قريتنا القديمة.

ارتجف قلب «رقية»، فقالت على الفور: لا، إن ذهبت أنت، فقد يعرف «الجوابر» مراميناً، وربما تكون في خطر شديد، فأبوك طالما كان يقول لي إن الحكمة بينهم قد رحلت بموت كبيرهم «أدهم».

وصمتت برهة، ثم قالت: ليس هناك أفضل من النساء في التقاط الأخبار الشاردة.

(10)

كانت «رقية» تعرف أن «خضرة» خادمة «عزة» تعرف شيئًا عن ضرب الرمل، ومعرفة الطالع، تعلمته صغيرة في بلاد السودان. التفتت إلى الخادمة، وقالت لها: قارئو الطالع يدخلون البيوت في سهولة، ويرمون خيط الكلام للنساء، فيكشفن الأسرار في رضاء تام.

تهلل وجه «عزة» وقالت: لو لم أكن أعرف مَن أنتِ لظننت أنكِ من نسل «الصوابر»، وورثتِ حكمة جدهم الكبير.

أعطت «رقية» نقودًا لـ «خضرة»، وقالت لها: اشتري من المساليب ما تحتاجينه. فاشترت قفة صغيرة من الخوص، وكثيرًا من الودع،

ولباسًا يليق بغجرية أصيلة. أكملت هيئتها بدق وشم أزرق في ذقنها، وخرمت جانب أنفها. أعطتها «رقية» حلقًا من ذهب. مررت مشبكه من الثقب الدقيق، فاستقر مكانه. ارتدت في معصميها الكثير من الغوايش السوداء والزرقاء والخضراء. ولمَّا تهيأت إلى مهمتها الجديدة، وقفت في صالة البيت، وقالت: «أبين زين، واضرب رمل».

ضحك الجميع، ثم جلسوا يرسمون لها معالم الطريق. قالت لها «عزة»، دون أن تتوقف عن الضحك: ما تلقطينه من رزق في هذه الرحلة، هو لك. وانتبه «عمر» فقال: ربما يحلو لها هذا الرزق، ولا تعود. ضربت «خضرة» صدرها براحة يدها، وقالت: لا يخون العِشرة إلا أولاد الحرام.

(11)

كما جمع الرجل الذي أرسله «يونس» في الزمن القديم الأخبار من فم امرأة من «الجوابر» بقيت في القرية، كانت امرأة «حجازي» هي سبيل «خضرة» إلى جمع الأخبار في زمانهم. لم تذهب إليها مباشرة، كما أوصتها «رقية»، إنما دارت على البيوت، فنادتها النساء، فدخلت بيوت «الجوابر» و«النصارى»، ودخلت بيت اليهودي الوحيد الذي بقي في القرية، بعد أن هاجر البقية إلى البنادر.

استغلت شكوى المرأة من هموم الوحدة، فقالت لها: وحيدة أنت، لكن هناك مَن هي مثلك في هذه القرية. رفعت المرأة رأسها، ونظرت إليها في عجب، وقالت: ليس هنا مثلي إلا «نبوية» أرملة «حجازي الصابر». فطلبت منها «خضرة» أن تدلها على البيت بعد أن قرأت

لهـا الطالع، وطمأنتها على أن دكان زوجها سـيبقى مفتوحًا، وبضاعته ستروج في قابل الأيام.

وصلـت إلى بيـت «حجـازي»، وكان خفيضًـا، يدل أثاثه البسـيط على شـظف عيش مَن تسكنه. جلست فوق حصير من سعف النخيل، وأسـندت ظهرهـا إلـى الجـدار، وقالت لصاحبـة البيت: عشـتِ أيامًا صعبة، وضايقكِ الحصار الطويل.

تمتمـت «نبويـة»، وقالت: كانـت القرية لأجداد ابنـي، لكن دارت عليهـم الأيـام. حين جئنا إلى هنـا كان لزوجي مال قليـل، وكان يحلم ببنـاء دار جديـدة، لكن «الجوابر» لـم يمكنوه مما يريد. فـي أيام كثيرة كانـوا لا يدعونـه إلى الشـغل فـي أرضهم، فمـا كان معنـا خلص على الطعام والشـراب. حتى عفش البيت بعنـاه في أيام عصيبة. كل هذا لم يكسرني إنما موت ابني الوحيد أيام الوباء. مات صبيًّا، ودفناه في مقبرة إلـى جوار جده «غنـوم». كان أبوه يريد أن يزوجه عند بلوغه مباشـرة، حتى ينبت «الصوابر» هنا من جديد.

لـم تكن «خضرة» فـي حاجة إلى أسـئلة كثيرة، فقد كفتهـا «نبوية» تعـب السـؤال، حدثتهـا كأنها تعرفهـا منذ زمـن بعيد، كأنهـا صاحبة. كانـت تكتم ما لا تقدر على قوله لنسـاء غريبـات عنها، وما إن وجدت الغريبـة حتى فاضت لها بما يضنيها. واسـتغلت «خضرة» ما تعرفه عن «الصوابـر» فتحدثت عنهـم، والأرملة المجهدة تعزو هـذا إلى قدرتها كضاربة ودع متمرسة.

سرقهم الوقت في الحديث، وجاء الليل، فعرضت عليها «نبوية» أن تبيت عندها، فاستجابت على الفور، وقالت: لن ينقطع الكرم في نسل «الصوابر» أبدًا. قضتا أغلب الليل في حكايات عن «الجابرية»، وبثتها «نبوية» أحزانها، فالتقطت «خضرة» منها الكثير عما آلت إليه القرية.

التزمت «خضرة» باتفاقها مع سيدتها، ورغم أنها تآلفت مع «نبوية»، وكأنها خليلة، فلم تكشف لها عن هويتها. كانت قد اعتادت طوال خدمتها في بيت «منصور» أن تكتم أسرار الأسرة. ترى بعينين مغمضتين، وتسمع بأذنين بهما صمم.

في صباح اليوم التالي، أخذت قُفتها، وراحت تقطع الشارع إلى سرايا «زياد الجابر»، فلما بلغتها، تغنت بأعلى صوتها: «أبين زين، واضرب رمل»، وفُتحت نافذة، وأطلت منها سيدة لم يأتِ العجز على كل جمالها، ونادتها: تعالي. وفتحت خادمة الباب، وأخذتها إلى بهو وسيع، ينطق أثاثه بثراء صاحب البيت. أجلستها تنظر حولها، وتغلب نبضات قلبها المتسارعة. جاءتها السيدة التي نادتها، تغلب حزنًا دفينًا يطل من عينيها. كم بدت تعيسة أمام «خضرة» التي لم تُضع الفرصة، وقالت لها: «ارمي بياضك».

أخرجت السيدة كيس قماش مطرزًا بألوان بديعة، دست يدها فيه وأخرجت ريالات من الفضة. وضعتها في القفة فوق الودع والرمل، وقالت لها: إن صدقتِ سيكون لكِ أكثر، فلا أظن أن هذه هي المرة الأخيرة التي تأتين فيها إلى «الجابرية».

كانت «خضرة» قد عرفت من «نبوية» أن «زياد بك» قد أصيب بالفالج، بعد انفعاله ذات ليلة على ابنه المستهتر «زاهر»، ويلازم سريره منذ سنة، مشلولة أطرافه، ولسانه عاجز عن النطق إلا بحروف متعثرة لا تكون كلمات واضحة، فقالت لها: اسمك واسم أمك؟

فأجابتها: اسمي «حورية»، وأمي اسمها «وصيفة».

كسبتها إلى جانبها سريعًا، حين قالت: اسم على مسمى، جمالك شغل قلوبًا كثيرة، لكن النصيب أتى بكِ إلى هنا.

هزت رأسها، وقالت: كله مقسوم.

مدت «خضرة» جسر الثقة مع «حورية»، حين قالت لها: رجلكِ كريم، عاش أيامه في نكد، بسبب واحد من لحمه ودمه. زاد نكده مع آخر من صلبه.

مصمصت «حورية» شفتيها، وقالت: هو كذلك.

واصلت «خضرة»: نكد مَر، ونكد مُر، والله في العون.

ردت «حورية» بصوت مخنوق: ونعم بالله.

كانت «خضرة» تريد أن تعرف أكثر عن الأرض والثروة المتبقية، فقالت: ضاع الكثير، وبقي القليل، والخوف مما في الغيب يزيد.

ردت «حورية»: ابني ضيَّع الكثير، أرض خسرها في القمار، وأخرى كان أبوه قد اشتراها باسمه فباعها وأنفقها على ملذاته، خمور وحشيش ونساء.

أرادت «خضـرة» أن تهيئها إلى ما سـيأتي، فقالـت لها: أنتِ ربيتِ، ولا ذنب لكِ، لكن العرق دساس.

- ماذا تقصدين؟

- في أجداد ابنك مَن ظلموا.

تململت «حورية» في جلستها، وسألت: وما ذنب الأحفاد ليؤخذوا بجريرة الأجداد؟

ردت «خضرة» على الفور: الثروة المسمومة لا تتعافى أبدًا.

صمتـت «حوريـة» في حيرة، فلا سـبيل للتخلص من ثروة عاشـوا في ظلالها أسـيادًا، وهي تدرك أن كل الثـروات في البلاد تراكمت من السبيل الذي سلكه «الجوابر»، إنه نظام الالتزام الذي انحنت له ظهور، وانهمـر عرق من أجسـاد مكـدودة، وشـهدت الأرض أنينًـا متواصلًا لقلوب خائفة، وقرقرة بطون جائعة.

أدركـت «خضرة» ما انتاب السـيدة من مشـاعر، فقالت لها: يخف الذنـب بالزكـوات والصدقات والدعـاء. أخرجي مما لديـكِ للفقراء، وخـذي زوجـك إلى الزاوية، يقضي بها نهارًا كامـلًا، ولا يعود إلا بعد غياب الشـمس، وليقضِ وقته في الدعاء والتسـبيح، ولا ينسـى الدواء الذي أتيتم به من العطار.

هـزت «حوريـة» رأسـها مسـتجيبة لمـا طلبتـه ضاربـة الرمـل، وقالت: للأسـف الزاوية مهجورة. ثم سـألتها: هل أخبركِ الودع بأنه سيشفى؟

صمتت «خضرة» لا تعرف بِمَ تجيب، لكنها لم ترغب في أن تغلق أمامها باب الأمل، فاكتفت بالقول: لا تيأسي من رحمة الله، ولكل داء دواء.

وسألتها: وداء ابني، هل له دواء؟

أجابتها: التوبة.

ردت في أسى، وهي تغلب دموعها: تعبت من نصيحته بالاستقامة، وكلما وعدني غلبته شهواته.

أرادت «خضرة» أن تقطع خطوات نحو هدف مَن أرسلوها، فقالت: ربما يفيد تغيير باب الرزق.

انزعجت «حورية» لما سمعته، وقالت: لا يعرف زوجي إلا بابًا واحدًا، ورثه عن أجداده، هو الأرض.

لكن «خضرة» سارعت إلى القول: الأرض تنقص، وقد تضيع، لكنْ هناك باب لو فتحتموه سيكون الربح والفلاح.

سألتها في لهفة: ما هو؟

أجابتها في ثقة: التجارة.

هزت «حورية» رأسها هازئة، وقالت: أي تجارة تربح في قرية يشتري الناس فيها بضاعتهم ببيض الفراخ، وأكواز الذرة، وأقداح القمح؟

وكان لدى «حورية» مسألة أخرى تقلقها، إنها ابنتها «عبلة» التي اقترب عمرها من العشرين، ولم يتقدم إليها خاطب، فالكل إما خائف

من أخيها، الذي إن غضب من أحد طاله أذى شديد، أو جفل من مسلك «زاهر» الذي لا يروق لأبناء العائلات، لا سيما أولئك الذين يقدرون أن أرض «زياد» قد تتآكل ولا يبقى منها شيء، وحتى ما يبقى ورثًا للفتاة، قد يكون محل طمع من أخيها، أو ينازع عليه مَن يتزوجها.

نادت «حورية» ابنتها فجاءت، وكانت فتاة أخذت من أمها الكثير، وزادت عليها بأنها تعرف القراءة والكتابة، بعد أن حرص أبوها على تعليمها على يد معلم كان يأتي إلى السرايا ثلاث مرات في الأسبوع يدرس لها اللغة العربية ومبادئ الحساب وشيئًا من العلوم الدينية.

جلست الفتاة منكمشة، كأنها مقدمة على اختبار عصيب، فطمأنتها «خضرة»: لا تقلقي، كل ما يتعبكِ سيذهب بإذن الله.

تهلل وجه «حورية»، وسألت: هل هذا ما قاله لكِ الودع؟

هزت «خضرة» رأسها، وقالت: نعم، قلقكِ عليها سيصبح من الماضي.

ثم لملمت «خضرة» الودع الذي كان ماثلًا بين يديها، وقالت: في زحام المدن تروج التجارة.

أرادت أن تفتح بابًا آخر للتفكير، فواصلت: هناك الطبيب، وغيبة الإحساس بالعار.

كانت «نبوية» قد أخبرت «خضرة» أن ما أصاب «زياد» بسبب ابنه، جعل «حورية» في انكسار دائم، لا تستطيع أن ترفع عينيها في عيون أهلها، وعيون الفلاحين، وحتى عيون خدم البيت، الذين يحملون

زوجها لقضاء حاجته، فيطلعون على ما يخفيه أي رجل عن سائر الناس إلا زوجته.

قبل أن تغادر «خضرة» بهو السرايا، التفتت إلى «حورية» التي كانت واقفة أمامها، وقالت: لا يعلم الغيب إلا الله، لكن ما وصلني من الودع أن تغيير العتبة سيجلب الفرحة.

ردت «حورية»: سأعرض الأمر على الوجيه، وله القرار.

حرصت «خضرة» على زيارة الزاوية، وقبري «رضوان الصابر» و«بديعة» تنفيذًا لوصية «عزة». وجدت القبرين قائمين، لكن بنيانهما قد تآكل من أطرافه. بدا أنهما مهملان لا يقصدهما أحد. أما الزاوية فكانت مغلقة على الخواء، تغوص قدما مَن يدخلها في تراب كنسته الريح إليها.

(12)

عادت «خضرة» إلى «إسنا» تتقافز من الفرحة؛ لأنها أتت بالبشارة إلى بقايا «الصوابر» المخلصين لوصية الأجداد. تصرفت كذلك الذي يؤمن بأن مصائب قوم عند قوم فوائد. حلمت طويلًا في رحلة العودة أن تنتهي سرايا «زياد» الكسيح إلى سيدها «جعفر» فتكون لها وحدها غرفة فسيحة. حلمت أكثر أن تجد بين الخدم الذين سيرثهم سيدها مع السرايا مَن يتخذ منها زوجة، فيكون لها الأولاد الذين تنتظرهم قبل أن يجف رحمها.

لكن فرحتها انقلبت إلى غم شديد فور عودتها. وجدت النساء الثلاث جالسات يخيم الحزن على رؤوسهن. وقوبلت بفتور لم

تعهده، وكانت تظن أنهن متلهفات على السماع منها. وضعت قفتها، وسألت: ما الذي جرى؟

- شيء لم يكن في الحسبان.

لم تجد «رقية» أنه من المناسب أن تحكي هي، فنظرت إلى «ناعسة» التي كان الأمر يخصها أكثر، فقالت: سيدك «عمر» خرج منذ ثلاثة أيام، ولم يعد، ولا نعرف إلى أين ذهب؟

ظنت أنه قد تشاجر مع «جعفر» أو «محمود»، أو اختلف مع أمه وترك البيت، لكنها حين عرفت السبب، دقت صدرها بشدة، وقالت: أنا خجلانة مما فعلته «تماضر»، فالشاب لا يقدر على العبث بأي بنت ترفضه.

قالت «عزة»، محاولة التخفيف مما جرى: المهم الآن أن نجد الضائع.

كانت «خضرة» متعبة من طول الرحلة، وبدا على وجهها الإنهاك الشديد، فقالت لها «رقية»: ارتاحي في غرفتك. لكنها لم تقدر على النوم، أو السكينة. بدت كبقلة خضراء ألقوها فجأة فوق جمر صاف. تقلبت مكانها، وهي تنظر إلى مخدع «تماضر»، وبصقت عليه.

عرفت أن «رقية» ضبطت «عمر» في غرفة الخدم يعتلي «تماضر»، وهي مستسلمة له، تنتظر أن يمنحها ما هي محرومة منه. كان في هذا اليوم قد أبلغ «جعفر» و«محمود» بأنه غير قادر على الذهاب معهما إلى الوكالة. انتظر حتى خرجت «أم الخير» لتبيع بضاعتها عند المعبد،

وانشغلت النسوة الثلاث في المطبخ، وتركتا «تماضر» التي ادعت المرض. بدا كل شيء متفقًا عليه بين الشاب والخادمة، وهذا ما زاد الطين بلة.

طُردت الخادمة، ولم يجد «عمر» نفسه قادرًا على مواجهة أهل البيت، فغافل الجميع، وخرج إلى الشارع. يذهب «جعفر» و«محمود» للبحث عنه كل يوم، ويعودان أول الليل بلا خبر.

قالت «ناعسة» في اليوم الرابع: خائفة من أن تكون الملعونة قد دبرت معه الهرب إن افتضح أمرهما، ليلتقيها بعيدًا عنا، ويكملا ما بدآه. واكتسى وجهها بغضب شديد، وقالت: نسي الأحمق مَن يكون هو، ومَن تكون هي. ردت «عزة»، وهي تتذكر ما سمعته عن حكايات جدها «رضوان» مع الخدم: خيط الشقاوة يمتد في نسل الصوابر على مر الزمن، يغيب سنين ثم يعود.

(13)

في الليلة الخامسة سمعوا طرقات عالية على باب البيت. هرع «جعفر»، وكان النوم قد جافاه خوفًا على الغائب. فتح الباب، فإذا بعجوز ذي لحية بيضاء، تذوب في جلبابه الأبيض، وسبحته البيضاء المعلقة في أصابع يمناه، يقول: أعرف أن الوقت غير مناسب، لكن للضرورة أحكام.

تسرب شيء من جلال الرجل إلى نفس «جعفر»، فأخلى له الطريق، وسمعه يقول: أنا الفقير إلى الله «صفي الدين التازي».

أدخله إلى الصالة، وكان «محمود» قد استيقظ، فخرج إليهما. قال «جعفر» للرجل: أجهز لك القرفة.

ابتسم الرجل، وقال: ضيافتي أن تصفح أسرتكم الكريمة عن ابنها، والله تواب رحيم. وأبلغهما أنه قد أتى من زاويته التي تقع على طرف قرية قريبة، وأن «عمر» يقيم عنده منذ أيام، وقد تركه نائمًا، بعد أن عرف منه أين يسكن أهله، وجاء إليهم لاسترداده.

جرى «جعفر» فأيقظ أمه، وطرق بابي «عزة» و«ناعسة» فأتيتا مسرعتين. سمعن من الرجل ما قاله، والفرحة تسري في أوصالهن التي سكنها الحزن منذ غياب «عمر». وقالت «ناعسة» في خوف: ربما استيقظ ولم يجدك يا شيخنا، فذهب إلى مكان لا نعرفه.

ابتسم العجوز، وقال: تعلق بي، ولن يفارقني، وقد عاهدني على البقاء معي، لكني رأيت أن أهله أولى به. ثم تنهد في حرقة وقال: كان لي ابن في مثل سنه، لكنه مات وزوجتي في الوباء، فرأيته في «عمر».

قال «جعفر»: لنسرع إليه قبل أن يستيقظ.

أصرت «ناعسة» على الذهاب معهم. ساعد الشابان العجوز والمرأة على ركوب الكارو، وركب «جعفر» في المقدمة، وإلى جانبه «محمود» يضرب البغل قويًّا بالسوط، ليسرع في اتجاه الزاوية، حتى بلغوها قبيل الفجر.

وجدوا «عمر» ممددًا على حصير بال، يغط في سبات عميق. غمزت «ناعسة» كتف ابنها، ففتح عينيه، ليجد وجهها يخلص إليه من

طيات الظلام، فقضى برهة لا يعرف أين هو؟ أما هي فقد أخذت رأسه إلى صدرها، وراحت تبكي بحرقة، وهو يشاطرها البكاء.

(14)

اطمأنت «خضرة» إلى ذهاب الأسى، فقالت لهم عند الضحى: ستصير الفرحة فرحتين. وحكت تفصيلًا ما عرفته في «الجابرية»، وهم ينصتون إليها في اهتمام، حتى انتهت، فقالت «رقية»: ربما يرفض الوجيه بيع أرضه إن عرضت زوجته عليه ذلك.

لكن «عزة» قالت: وربما يقبل.

ورفع «جعفر» يده إلى أعلى، وكأنه يشير إلى شيء بعيد، وقال: شاب سفيه يفرط في أرضه، وأبوه عاجز عن منعه. نهاية هذا معروفة.

كان «جعفر» يُظهر كل يوم ما يؤهله ليكون هو الكبير الجديد للعائلة، فلاقت كلماته استحسانًا. آمن الجميع بأن الزمن، هذه المرة، يعمل لصالحهم. لكن «عزة» استعادت كل محاولات الذين سبقوهم في العودة إلى مسقط رأس جدهم الكبير، والتي ذهبت سدى، وقالت: في كل الأحوال يجب أن نكون قريبين من الأخبار.

سألت «ناعسة»: كيف؟

أجابها «جعفر»: لديَّ فكرة، لكن تنفيذها لا يتوقف على إرادتنا فقط.

تدخلت «خضرة»: هناك باب مفتوح، الدخول منه أسهل وأفضل.

تطلعوا إليها، فواصلت: لدينا، ما شاء الله، ثلاثة عرسان، وابنة «زياد» خير عروس لأحدهم.

ضحكت «رقية»، وقالت: ليكن «عمر» فهو متعجل الزواج.

دفن «عمر» رأسه في صدره، وقال: لا أفكر في هذا الأمر الآن.

نبشت «عزة» في ذاكرتها، وقالت: إن جرى هذا، ستكون المرة الثانية التي نصاهر فيها «الجوابر»، لكن هذه المرة ستكون في «الصابرية» وليس في المحروسة، وستكون الفائدة أعظم.

قالت «ناعسة»: ابننا «جعفر» هو الأكبر، وهو الأولى.

ابتسم «جعفر»، وقال: هذا باب ليس سهلًا، كما تقول «خضرة»، فالوجيه والهانم لن يزوجا ابنتهما الوحيدة لعربجي.

دقت «رقية» صدرها، وقالت في غضب: أنسيت مَن أنت؟ أنت ابن «الصوابر» أساس القرية هناك، وقد ترك لنا الراحلون مالًا يجعل مصاهرة الوجيه لك مرحبًا بها.

قهقه «جعفر» وقال: هذا سيكشف أوراقنا منذ اللحظة الأولى، فيفسد كل شيء.

حك ذقنه بظهر سبابته، وواصل: نشتري ما تبقى من نصيب «زاهر» وأمه، أما نصيب «عبلة» فيأتي من الباب الذي تفكرن فيه.

(15)

سمع «زاهر» أمه تحدث أباه فيما سمعته من ضاربة الودع. كان الوجيه ينصت دون أن يحرك شفتيه كالمعتاد، أما مَن نطق فهو ابنه. اكتسى وجهه بفرحة عارمة، وقال: لم تعد الأرض تأتينا إلا بالقليل.

تململ الوجيه في مكانه، وغمغم في غضب شديد، وهز رأسه رافضًا. لكن ابنه واصل: «الخديوِ إسماعيل» يريد أن يجعل المحروسة مثل باريس. سينطلق البناء، وهو باب رزق وسيع، وفي المحروسة أيضًا ستعود علينا التجارة بأكثر مما يأتينا من الفلاحة.

مدت «حورية» بصرها إلى ابنها، وكلامه يدور في رأسها، وقالت: اعتدت ألا أعرف في كلامك الجد من الهزل.

قهقه، وقال: سمعت هذا في زيارتي الأخيرة للمحروسة، لا حديث للناس هناك إلا هذا. كثيرون يجهزون أموالهم لتشغيلها في هذا الرزق الجديد. وتطلع إلى وجوه أبيه وأمه وأخته، وقال: إن ملكنا فندقًا في المحروسة سيكون عائده أكبر مما تعطيه لنا كل هذه الأرض. لم ينطق أي منهم، فواصل: ويمكن إلى جانب الفندق أن تكون لنا تجارة رائجة.

كان «زاهر» يريد أن يبقى إلى جانب ملذاته المستعرة. ففي المحروسة توجد البارات التي يقضي فيها ساعات غائبًا عن أوجاع تنتابه أحيانًا بسبب فعله بأبيه، وما يسمعه من تقريع أمه، ومن أنين الذين يؤذيهم من الفلاحين والتجار.

في المحروسة أيضًا أماكن الغناء والطرب والرقص، الذي يهيم معه، ويحاول أن يطرد به عزف الرباب والإنشاد، الذي لا يروق له، ويسأل نفسه كل ليلة: مَن ذا الذي يطاول الصيتة هناك، خصوصًا سي عبده الحامولي، والست ألمظ.

وفي المحروسة بيوت الدعارة التي اعتاد ارتيادها، ووطأ فيها أصنافًا من النساء، تعب من عدهن. فيها المقاهي التي يدخن عليها الأرجيلة في تلذذ وامتنان. فيها خان الخليلي الذي يحلو له أن يشتري منه ملابسه الغالية، ويأتي لأبيه وأمه وأخته بهدايا، محاولًا استرضاءهم.

اقترب «زاهر» من أبيه، وأخذ رأسه على فخذه، وكانت المرة الأولى التي يفعل فيها هذا، وقال له بصوت خفيض: أنت أب عظيم، ولن تقف أمام ما أحبه.

زحزح البك رأسه بصعوبة حتى صار فوق الوسادة، وارتفعت غمغمته، وأطلق حروفًا لا تصنع أي كلمات مفيدة، لكنها كانت كافية لتفهم «حورية» أنه يرفض ما قاله ابنه، فنظرت إلى «زاهر»، وقالت: يكفي أبوك ما رآه منك، فلا تضاعف من ألمه.

وقف غاضبًا، وقال: يعطيني نصيبي وأنا حر فيه.

صرخت «حورية»: أتريد أن ترثه وهو حي؟

ملأ عينيه من أبيه، وقال في نفسه: «حي لكنه ميت».

وجاءت «عبلة» حين سمعت صراخ أمها. وقفت أمام «زاهر» والغضب يكسو ملامحها، وقالت له: اخرج من هنا فورًا.

امتلأ رأس «زاهر» بالأذى. خطا نحو الباب، ثم استدار، وقال: أنا ذاهب غدًا إلى المحروسة، سأغيب شهرًا، وهذا وقت كافٍ للتفكير في ما قلته.

ضربت «حورية» الهواء بيدها، كأنها تطرده، وقالت: اذهب يا مقرف.. ليتك لا تعود.

(16)

لم يتوقف «جعفر» و«عمر» و«محمود» عن عملهم في وكالة الجداوي، بل أصبحوا متمسكين بالكدح أكثر، حتى لا تكون أمهاتهم مضطرات إلى أن تمددن أيديهن إلى الثروة التي تركها الراحلون. ما سمعه الشبان الثلاثة من «خضرة»، بعد رحلتها المثمرة، جعلهم يرون الأمل المدفون في بطن سنين طويلة، قد آن له أن يطفو على السطح. لقد أجَّلوا الزواج حتى لا يلهيهم عن الإخلاص لوصية الراحلين، ويخطف من آذانهم الحكايات التي تملأها.

لم تتوقف الأمهات عن صناعة المشغولات التي تبيعها «أم الخير» إلى الأجانب أمام المعبد، بل فكرتا في توسيع الرزق، ببيع الفائض منها إلى دكان اليهودي «مزراحي»، الذي يقصده الناس في «إسنا» لشراء الكثير من حاجاتهم.

حين يجمعهم العشاء يواصلون الحديث عن الأرض التي تنتظرهم هناك، دون أن يزايلهم الخوف من ضياعها إن سبقهم إليها مشترٍ، بينما هم في غفلة. فكروا أن يرسلوا «خضرة» مرة أخرى، لكن «جعفر»، قال: قد تضيع الأرض من أيدينا بينما هي ذاهبة أو راجعة!

تطلعوا إليه ليعرفوا ما يفكر فيه، فقال: لا سبيل إلا بأن يقيم أحدنا هناك.

نظرت كل امرأة إلى ابنها، وتخوفت أن تُوكل إليه هذه المهمة الثقيلة. فما حكته «خضرة» عن «زاهر» جعلهن يحسبن أن يد أذاه قد تطول أي شاب، إن عرف أنه من «الصوابر»، فالحكايات القديمة كما يتوارثها «آل صابر» يتوارثها «آل جابر»، إن لم يسمعوها من أهلهم، فإنهم ينصتون إليها حين يغنيها القوالون في الأفراح والموالد.

أدرك «جعفر» ما ينتابهن من وساوس، فقال: مَن سيذهب سيكون آمنًا.

سألن في صوت واحد متلهفات: مَن؟

- الشيخ «صفي الدين التازي»، ومعه واحد منا.

أدرك «عمر» أنه المقصود، فقال: أنا مستعد، إن رضي الشيخ، وكانت الخطة مُحكمة.

بلغوا كوخ الشيخ وقت العصر، وكان بابه مفتوحًا، فوجدوه يصلي. انتظروا في الخارج، فلما فرغ، رفع بصره فوجد «عمر» فقال: كنت أعرف أنك ستجيء.

ثم ظهر «جعفر» فابتسم الشيخ، وقال: مريدان وليس مريدًا واحدًا.

شاركه «جعفر» الابتسام: في عائلتنا يتتابع المجاذيب، ولا يخلو منهم جيل.

وفاتحاه في الأمر، فابتسم وقال: لا أمضي إلا في خير. ثم تنهد، وواصل: مكتوب عليَّ الرحيل. مات ابني وزوجتي، فرحلت إلى هنا، والآن عليَّ أن أترك هنا إلى هناك.

اقترب «جعفر» منه، وقال: هذا عين الخير يا مولانا. تعمير زاوية خربة يحتاج إلى رجل طيب مثلك.

لم يكن الشيخ «صفي الدين التازي» معنيًّا بتاريخ الانتظار الطويل الذي ظل يقض مضاجع «الصوابر» قرونًا، فهذا إن كان ثأرًا فلن يشارك فيه لكراهيته هذه العادة السيئة التي حطت في رؤوس أهل الصعيد، وإن كان حقًّا، فهو يرى أن الحقوق تؤخذ في النور. لكنه كان مهتمًّا بحق آخر، إنه ما للغلابة في مال المقتدرين، يدفع إليهم بلا ذُل ولا أذى. رأى «عمر» في الأيام التي قضاها معه، كيف كان يأتي بعض الناس، وأغلبهم فقراء فاض من قوتهم شيء، ليضعوا إلى جانبه في الزاوية رُبطًا بها أقداح من القمح أو الفول أو الشعير، أو قبضة من البتاو ترص على طبق من خوص. تضع بعض النسوة في بلاص إلى جانب الرصة قطعًا من الجبن القديم. في قفة تتوسط الاثنين توضع حفن من الكشك الجاف. يتجمع كل هذا إلى جواره وهو لا يأخذ منه إلا لقيمات يقمن صلبه، والبقية تؤول إلى مَن يحتاج. كل مَن يطلب طعامًا في بيته ولا يجد، يقصد الزاوية، فيأخذ على قدر احتياجه.

لهذا اشترط «صفي الدين» حتى يقبل الذهاب إلى زاوية «الجابرية» أن يكون هذا مؤقتًا ثم يعود إلى مكانه بعد أن يتمكن «الصوابر» من الأرض، وأن يمهلوه حتى يأتي بمجذوب آخر يجلسه مكانه، كي لا

ينقطع نصيب الفقراء من زاويته. الأهم هو أن يتعهد «جعفر» بأن يبني، حين يتمكن من الأرض، إلى جانب الزاوية في قريته مضيفة، لا ينقطع عنها الطعام، وأن يكون من أطايبه.

وافق «جعفر» على الفور، فقال له الشيخ: بقي شيء واحد.

تطلع إليه «جعفر»، وقال: ما تأمر به مجاب.

قال الشيخ، وكان قد سمع منهما الحكاية كاملة: لا تبخسوا ثمن الأرض المشتراة، ولا تجوروا على نصيب الفتاة في مال أبيها، ولا تظلموا الفلاحين، بل توفوهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم، وتعطوهم هبة في مواسم الحصاد، إن جاد الزرع عليكم بمحصول وفير.

انتظر «صفي الدين» قدوم رجل طيب من مريدي الشيخ «عبد الرحيم القناوي» كان يأتيه بين حين وآخر، يأخذ نصيبه من الطعام ويمضي، فأبقاه مكانه، وأبلغ أهل القرية بما فعل، فامتثلوا لاختياره، لا سيما أنه وعدهم بالعودة.

ترك «صفي الدين» الزاوية ذات صباح قاصدًا بيت «الصوابر» في «إسنا». حين وصل كان الشبان الثلاثة منهكمين في عملهم بوكالة الجداوي، فآثر أن ينتظرهم حتى يعودوا عند العشاء.

بات الشيخ ليلته في بيت «الصوابر». أنصت إلى نصائح النساء، دون أن يرفع وجهه إلى وجوههن. حين أذن الفجر، أيقظ «عمر»، وقال له بعد أن فرغا من الصلاة: يحدثني قلبي أن في هذه الرحلة خيرًا كثيرًا.

فقال «عمر»: طاب مقامك أينما حللت يا مولانا.

ابتسم «صفي الدين» وقال: زارني جدكم «رضوان» في المنام. رأيته راكبًا فرسة عفيَّة، كانت بيضاء ليس بها شعرة واحدة مخالفة. كان يرتدي جلبابًا أبيض فضفاضًا، فذاب البياض في البياض. كانت الفرسة تجري به على مدق يتوسط غيطان القمح، حتى بلغت النهر. ترجل ومشى في تمهل على الشاطئ. رفع بصره إلى الماء الساري، ولوح لسرب من اليمام يطير من الشط إلى الشط، ثم يعود. جلس القرفصاء، وراح يحفن ويشرب، ويطلق ابتسامة عذبة تزيد نور الشمس نورًا.

تابعه «عمر» باهتمام شديد، ثم قال: رؤية مبشرة.

كانت النسوة قد جهزن للمسافرَين قفة مملوءة بالطعام، وقربة ماء، وصرة بها بعض النقود، فأخذا الزاد، وانطلقا في البكور إلى المرسى، ليستقلا مركبًا ذاهبًا إلى الشمال.

(17)

كان الوجيه «زياد» قد حمى فلاحي أرضه من أن يُقادوا مع الذين ربطهم الجند بالحبال وجروهم إلى الصحراء، ليحفروا القناة الجديدة بلا أجر. دفع رشوة سخية، فتفاداهم الجُند، وسكت عنهم عمدة «الجابرية»، إذ لم يكن يستطيع أن يخرج على طوع الوجيه، وكانت تناله منه منافع لا تنقطع.

كان «زاهر» يعرف ما فعله أبوه كي ينجو فلاحوه من قبضة السخرة، ففكر في أن يمضي في اتجاه مخالف، فكر فيه طويلًا وهو يعب من

كـؤوس الويسـكي، أو يطرد دخـان الأراجيل من فمـه، وأحكم خطته وهو منتبه تمامًا في غرفته بفندق «نيو أوتيل» في الأزبكية.

ما إن عاد إلى «الجابرية» حتى قصد بيت العمدة «مرتجي الجابر»، فقابلـه الرجـل بوجـه مـوزع بين الانبسـاط والانقبـاض، وقـال: أهلًا بالوجيه.

ضحـك «زاهر» وقال: لسـت وجيهًـا بعد، لكن بيـدك أن تفتح لي الطريق.

هز العمدة رأسه، وقال: أنت تعرف أنني لا أتأخر في فعل ما يجلب لكم الخير، فأنا من «الجوابر»، «والضفر ميطلعش من اللحم».

كان «زاهر» يعرف أن العمدة كاذب، لكن لا يعنيه كذبه من صدقه، فالمهم أن ينصت إلى أوامره وينفذها. نظر إليه في إمعان، والعمدة في ارتباك، ثم قال: سـكوتك على هروب فلاحي قريتنا من حفر القناة قد يضرك.

ارتعدت فرائص العمدة، وقال: ليس لدينا هارب. هرب بعض من التحقوا بالعمل وفروا. هناك موتى بعشرات الآلاف.

قـال «زاهـر» وهو يدوس علـى الحروف، ليكون لـه وقع في نفس العمدة: ما فعله أبي كان خطأً، وأنت تعرف أنه الآن بعيد عن المساءلة، فمَـن ذا الذي يحاسـب رجلًا عاجزًا حتى عن قضـاء حاجته؟ وعندها سيقع العقاب عليَّ.

رد العمـدة، وهـو يتصنع اللهفة: نجاك الله مـن كل مكروه، لكن.. لكن..

قاطعـه «زاهـر»: إياك أن تعتقد أن مـا فعلته مع كبيـر الجُند لا يزال سرًّا.

ارتعشـت أطراف العمـدة، وقال: الناس هنا تعـرف، لكن ما جرى كان في صالحهم، ولن يضروا أنفسهم.

باغتـه وهو يقـرب فمه من أذنه: عمد القـرى الأخرى يتحدثون في الأمر.

رد العمدة: بوسـعي أن أفاتحهم وأنبه عليهم ألا يخوضوا فيه، وأنا واثق من طاعتهم.

مد «زاهر» فمه أكثر، وكأنه يريد أن يقضم أذن العمدة، وقال: الخبر وصل المحروسة.

وجـم الرجل من فرط الخوف، وواصل «زاهر»: أنت تعرف أن لي صُحبـة هنـاك، وبعضهم قريب من القصر، ولـولا أنني لا أبخل عليهم بشيء لفضحوا ما جرى.

التقط العمدة أنفاسه المبهورة، وقال: البركة في جنابك، وما فعلته في مصلحتك.

ارتد «زاهر» إلى الوراء قليلًا، وقال: تغيرت المصلحة الآن.

حملق العمدة في عيني «زاهر» مسـتفهمًا، فقال له: أبي لن ينفعك، ومصلحتـك أنت أيضًا مع ما أريده. ثـم أطلق ضربته القاضية: لا تنسَ

أننا تركنا لك العمدية راضين، وإن كان أبي قد فعل هذا، ليبعد عن رأسه الخلافات الصغيرة، فأنا لن أتركها لك، وكفتي راجحة لأسباب كثيرة تعلمها جيدًا.

صمت العمدة برهة، وابتلع ريقه، وقال: أنت أكبر مما أنا فيه.

قهقه «زاهر»، وقال: هذا أحدده أنا، ولست أنت.

رد العمدة في انكسار: أنا معك حيث تشاء، كل ما في الأمر أنني أراعي التزامي مع الوجيه الكبير.

زفر «زاهر» غاضبًا، وقال: الوجيه لا يعرف ما يجري حوله، وإن عرف لا يستطيع أن يغير شيئًا مما أقرره.

بصوت خفيض، قال «العمدة» راجيًا: أستأذنك في بقاء مَن يشتغلون في أرضي، فليس معقولًا أن آتي لها بفلاحين من بلاد بعيدة.

هز «زاهر» رأسه، وقال: استبقِ مَن تشاء.

(18)

وصل الشيخ «صفي الدين» ومعه «عمر» إلى «الجابرية» مساء يوم مشبع بالغبار. كانا قد هبطا من المركب عند الضحى، لكن «المجذوب» تعمد أن يصل إلى القرية عند العصر. رآه الناس يدب على الجسر بعصاه، ويمد بصره أمامه في ثقة كأنه يرى كل ما سيأتي في قادم الأيام. سأل «صفي الدين» عن دوار العمدة، فقادوه إليه. أوقفه الخفر عند الباب، لكن شيخهم حين رأى جلال هيئته، هرع إليه، وقال: تفضل يا مولانا.

دخـل إلى صالة واسـعة مرصوصـة فيها أرائك مـن ثلاث جهات. جلـس على إحداهـا، فلما جـاء العمدة قال لـه على الفـور: أنا مأمور بإعادة الأُنس إلى الزاوية المهجورة.

ثم التفت إلى «عمر» وقال: مريدي، يتبعني أينما ذهبت.

هـز «العمدة» رأسـه، وقال: هذا مـكان بُني في الزمـن القديم على أكتاف المجاذيب.

ابتسـم «صفي الدين»، وقال: جاءني صاحـب الزاوية والخص في المنام، ودعاني إلى هنا، فتركت كل شـيء ورائي ولبيت النداء. فهتف العمـدة: مدد.. مدد. ثم نادى الخفير أن يأمر للشـيخ ومريده بالطعام، فقـال «صفـي الديـن»: لا أريد إلا كسـرة خبـز وماء. وتنحنـح «عمر» فابتسم الشيخ، وقال: هاتوا للفتى ما تجودون به.

أمر العمدة أحد خدمه بأن يذهب لتنظيف الزاوية المنسية، ويطلب من السقاء أن يملأ الزير المُهمل.

(19)

سـعى «زاهـر» فـي التخلص من فلاحـي أرضه. دفـع حلوانًا لقائد الجنـد، ورتب كل شـيء. في اليوم المشـؤوم علـى «الجابرية»، جمع العمدة الفلاحين الذين يكدحـون بأرضه في دواره، لتتفاداهم الأيدي الغليظـة التي سـتقبض على البقيـة. جاءوا إليه طائعيـن، فأوصاهم ألا يبرحـوا المـكان. على غيـر العادة ذاقوا منـه كرمًا، حين جـاءت إليهم صواني الطعام، وكان «زاهر» قد دفع لأجلها مبلغًا سخيًّا.

أمـا فلاحو أرض «زياد» فذهبوا كعادتهم في البكور ليكملوا حرث الأرض وعزقهـا وتهيئتها لزراعة جديـدة. فوجئوا عند الضحى بفرس ترمح نحوهـم، كان «زاهر» يمتطيها في خُيلاء. لمَّا وصل إليهم، نادى الخولـي وأمـره أن يجمـع كل الرجـال تحت شـجر الكافـور. هرعوا طائعيـن، وفؤوسـهم فوق أكتافهم. وقفوا غارقين فـي الظلال الرقيقة، فأمرهم: اجلسوا في أماكنكم.

جلسـوا، وتطلعـوا إليه، فقال: سـيأتي جُند إلى القرية، فلا تخشـوا منهم شيئًا.

نظـر إليـه الخولي في تودد، وقال: لن نخـاف، طالما كنا في حماية ابن سيدنا.

لـم يلتفت إليه «زاهـر»، وكأنه لم يقل شـيئًا، وواصـل كلامه: أنتم سمعتم عن الذين يؤخذون إلى حفر القناة.

ارتجفت القلوب في الصدور، لكنها استقرت هادئة، حين تفحص «زاهر» وجوههـم، وقال: لا يزال الاتفاق الذي جرى مع الوالد قائمًا، لكنها إجراءات صورية لا بد منها.

سأل الخولي: أي إجراءات؟

امتعـض «زاهر» لكنه أخفى شـعوره، وقال وهو يبعد ناظريه عن عيـون الفلاحيـن: لا يكف القائمـون على الأمر من طلب الرشـى، إنهم يقبضون على كل رأس منكم مبلغًا من المال، لقاء أن يتركوكم هنا.

تلاصقت أجساد الفلاحين كأن كلًّا منهم يسعى إلى جلب الاطمئنان بالاقتراب أكثر من صاحبه، وتطلعوا إليه مستغربين لينه معهم على غير العادة.

حين كادت الشمس تتوسط السماء، ظهر الجُند قادمين على الجسر فوق أحصنة، يتقدمهم الضابط، الذي ما إن بلغ مجلسهم حتى ترجل، ومد يده إلى «زاهر»، وقال: جئت في موعدي.

رد عليه دون أن ينهي المصافحة، وقال: وأنا جاهز.

رفع الضابط يده إلى الجُنود، فشكل نصفهم في سرعة خاطفة دائرة حول الجالسين، ثم سحبوا بنادقهم المعلقة في أكتافهم وصوبوها نحو رؤوس الفلاحين. تصنع «زاهر» استغراب الأمر، فقال للضابط: يبدو أن هناك خطأً لا بد من تصحيحه، بيننا اتفاق قديم.

ابتسم الضابط، وقال: الاتفاق على حاله، كل ما في الأمر أننا نحصر عدد فلاحي القرى، كما أُمرنا.

رد «زاهر»: يمكنك حصرهم الآن.

لكن الضابط، قال في حسم: سيتم هذا في الثُّمن.

نظر «زاهر» إلى الفلاحين، وقال: لا تخشوا شيئًا، إنه أمر عابر، سينتهي بسلام.

سحب النصف الآخر من الجند طيات حبال كانت مثبتة على جوانب سروج الخيل. مشوا بخطى ثابتة نحو الفلاحين، الذين كان

بعضهم قد وقف مكانه، موزَّعًا بين إيثار السلامة بالبقاء، والتفكير في الهرب، لكن أين المفر، وفوهات البنادق مصوبة نحوهم، وأصابع الجُند على الزناد؟

قال لهم «زاهر»: مدوا أيديكم ولا تخافوا.

تململوا، لكن الجُند كانوا قد تمكنوا من ربط بعضهم. حاول فلاح الهرب ففرقع الرصاص ومرق فوق رأسه، فربض مكانه يرتجف. استسلم الباقون لمرآه، ومدوا أيديهم طائعين مَن يربطونهم كالغنم. سحبوهم ومضوا بهم في ثلاثة طوابير متوازية، تحدها البنادق عن الشمال واليمين، حتى فارقت أقدامهم الأرض المحروثة إلى الجسر العالي.

وصل الخبر إلى البيوت، فخرجت النساء تصرخن بحرقة، وبينهن أطفالهن، الذين ملأوا حجورهم بالأحجار الصغيرة والطوب. هرعوا نحو الجسر، وراحوا يقذفون الجُند، لكن الرصاص أُطلق غزيرًا فوق رؤوسهم، فتراجعوا خائفين. جرت النسوة نحوهم. كل امرأة تبحث عن أطفالها لتعيدهم إلى البيت. فوق الجسر وقفن عاجزات ومعهن الصغار، لإلقاء نظرة وداع على الرجال الذاهبين إلى الجحيم.

وصل الهرج والصراخ إلى «زياد» فتململ في مخدعه. غمغم باحثًا عن أي أحد في البيت ليسأله عن الخبر، فجاءه العمدة، الذي ترك فلاحيه يأكلون في ساحة الدوار، وهرع إلى السرايا ليتمم بقية اتفاقه مع «زاهر». لمَّا رآه «زياد» نظر إليه في غيظ، وكانت الظنون تملأه عما فعل ابنه، فقال العمدة: جاءت الضبطية، وأخذت الرجال إلى القناة.

ملأ الانكسار عيني الوجيه، ثم أغمضهما، ولما فتحهما كانتا غارقتين في العتاب، فطأطأ العمدة رأسه، وقال: ذكَّرت الضابط أفندي بالعهد الذي قطعه لجنابك، فأبلغني أنه مأمور ممن هم فوقه، ولا حيلة له.

دخل «زاهر» عليهما، وقال لأبيه على الفور: لم يعد أمامنا سوى بيع الأرض، فالبصاصون عرفوا ما بينك وبين الضابط، ولولا معرفتهم بما أنت فيه لاستدعوك إلى الثُّمن.

لكن «حورية»، التي كانت واقفة بالباب تنصت إلى ما يدور، قالت في غضب: نكتري فلاحين من قرى أخرى.

قال «زاهر» وهو يداري شماتته: القرى خلت من أغلب الفلاحين. مَن تبقوا فيها لا يستغني عنهم أصحاب الأرض هناك.

غمغم الوجيه مجددًا، محاولًا أن يحرك رأسه، فقالت زوجته: نتركها بائرة حتى نجد مَن يزرعها.

كان «زاهر» يُعول على الوقت، ويراه يعمل لصالحه، ولديه الكثير مما يفعله، كي لا يجرؤ فلاح من أي قرية على نزول أراضيهم. نظر إلى أمه، وقال: إذا بارت الأرض نقص ثمنها.

صرخت، وأعادت ما قالته سابقًا: لن ترث أباك حيًّا.

وكان قد غافل أمه وأخته، واستولى على حُجج الأرض، وخبأها في مكان لا يعلمه غيره، فقال: لا فائدة من العناد.

ووجد العمدة نفسه في حرج شديد، فنهض، وقال: هذه أمور عائلية، وبقائي هنا غير مقبول.

لم ينتظر ليرى وقع كلامه على عيون سامعيه، بل هرع نحو الباب، وقلبه مفطور على الوجيه، الذي لم يجد منه سوى حسن المعاملة على مدار السنين الفائتة.

(20)

انتظر «جعفر»، في لهفة، خبرًا يأتيه من «الجابرية»، ودارت في البيت الأحاديث كل ليلة عن الأيام المنتظرة هناك. عاشت النسوة أحلامًا رخية. ثرثرن طويلًا عن السرايات والخدم، والأرض البراح والحصاد. لم تنسَ أي منهن الزاوية وأضرحة الراحلين.

أتين ذات ليلة بصناديق المال والذهب، وقضين منذ العشاء وحتى الفجر يحصين ما فيها من نقود فضية وذهبية. جمعن حليهن وقدرن ثمنه، فأدركن أن الثروة كلها لا تكافئ شراء كل أرض «زياد»، فتملكهن حزن شديد، خوفًا من أن يكون هناك مشترٍ جاهز، يغتال الحلم في ساعة من نهار أو ليل.

قالت «ناعسة»: نبيع العربات الكارو والبغال.

ضحك «جعفر»، وقال: هذا لن يزيد ما معنا كثيرًا.

تطلعوا إليه منتظرين ما يشير به، فوجدوه غارقًا في حيرة شديدة، لم يبددها إلا مجيء «عمر» بعد أيام. أبلغهم أن «زاهر» وحده الذي يمكن أن يبيع نصيبه الآن، رغم أنف أبيه العاجز. كان ما معهم يكفي

هذا البيع، فاطمأنوا، معولين على أن الراغب في البيع لن ينتظر طويلًا، وبوسعه أن ينفذ ما يريد، إن وجد مالًا جاهزًا.

اتفقوا على أن يعود «عمر» إلى «الجابرية»، ويفاتح «زاهر» في الأمر، وينبئه أنه يعرف شاريًا لأرضه، سيعطيه ما يطلبه عدًّا ونقدًا قبل إبرام عقد البيع. لكن «جعفر» قال: قد لا يصدق «زاهر» أن مريدًا لشيخ الزاوية له في البيع والشراء.

قال «عمر»: العمدة بابنا إلى «زاهر»، ولن يتأخر عن فعل ما نريد إن كانت له منفعة.

قالت «رقية»: وما أدراك إن أدخلناه وسيطًا أن يطمع في الأرض ويشتريها لنفسه.

تدخلت «خضرة»، وقالت: ما عرفته من «نبوية» يطمئنني أن العمدة ليس معه ما يشتري به كل أرض «زاهر».

قالت «عزة»: نذهب جميعًا، وننزل ضيوفًا على «نبوية»، حتى يتم البيع، ونبني لنا دارًا وسيعة هناك.

لكن «جعفر» طوح يده في الهواء رافضًا، وقال: الأفضل ألا يحس «زاهر» أننا من «الصوابر»، فما أدرانا أن يكون، رغم استهتاره، مخلصًا لما تبقى من الحكايات القديمة.

(21)

جاءهم نبأ موت «مزيون» في سجنه، ودفنه في مقابر الصدقة بالمحروسة، فنسوا الأرض والبيوت التي تنتظرهم، وانخرطوا في

أيام حداد. كانوا قد عرفوا مثلها جيدًا يوم موت «منصور». ولمَّا غلبت الأيام الحزن، أدركوا أن صفحة الماضي قد طُويت، وأن عليهم التفكير في ما هو آت، بعد أن استيقظت الحكايات القديمة في قلوبهم غضة كأن زمنًا طويلًا لم يمر.

(22)

قبيل عودة «عمر» إلى «إسنا»، قال له الشيخ «صفي الدين»: اعتدت دومًا أن يكون هناك ما أفعله. وحين استفسر منه عما يقصد، اكتفى بالقول: كل باب مغلق لا بد من أن يُطرق، فلا تستعجل فتحه.

صمت «عمر» ولم يلح في السؤال، إذ كان قد اعتاد من الشيخ أن يتلفظ أحيانًا بعبارات غامضة، بعضها يظل عالقًا في الهواء لا يحط على أرض، ويكون من الصعب تذكره، وبعضها كان يعقبه فعل يجعله يفهمها بأثر رجعي.

خرج الشيخ ذات صباح من زاويته قاصدًا سرايا «زياد»، ضرب عكازه حول سور الحديقة، حتى وصل إلى بابها الخارجي، وجده مفتوحًا فدخل واثقًا كأنه يعرف أهل البيت منذ زمن بعيد. رآه الخفير فهرع إليه يستوقفه، لكنه لم يستجب. كان الخفير يعرفه فتركه يمضي. فلمَّا وصل إلى باب السرايا نادى بأعلى صوته: يا صاحب الدار.. صلِّ على النبي المختار.

وسمعته خادمة، فجرت نحو الباب. فتحت لتجد أمامها رجلًا مهيب الطلعة. وقفت صامتة، فسألها: أين سيدك؟

أجابتـه وهـي تملأ عينيهـا من وجهه الـذي يكاد يضـيء بين لحيته البيضاء: سيدي في غرفته.

كان الخفيـر قـد لحـق بـه فمـال علـى الخادمـة وأنبأها مَـن يكون الضيف، فأجلسـته على أريكة في البهو، وصعدت السلالم إلى الطابق العلـوي. لم تمر سـوى دقائق حتى رأى الشـيخ «حوريـة» هابطة إليه. وقف دون أن ينظر إليها، وقال: أهلًا بالصابرة المحتسبة.

وقـع كلامه في قلبها وقوعًا حسـنًا، فأقبلت عليه مستبشـرة. كانت قـد وصلتها حكايات أهل القرية عن كراماته، وكثير منه اختلقوه، وهم يكدحون في الغيطان نهارًا، ويتسـامرون على المصاطب ليلًا، فقالت له: حلَّت البركة في بيتنا يا مولانا.

طلب منها أن يرى زوجها، فأشارت إليه أن يتبعها حتى بلغ غرفته. وجدتـه مكانه يحدق في الفراغ. حين وقعت عيناه على «صفي الدين» اتسـعتا وسـكنهما فرح عجيب. جلس الشـيخ على طرف السـرير إلى جانبه، وراح يمسح رأسه، ويدعو له بصوت خفيض أن ينزل الله على قلبه السكينة، ويصبره في محنته الطويلة.

قالـت «حوريـة» وكانـت واقفـة إلـي جوارهمـا: طالـت رقدتـه يا مولانا.

نظـر إليـه وابتسـم، وواصـل دعاءه، ثـم طلـب إبريق ماء وطسـتًا، فنادت الخادمة، التي كانت عند الباب تنتظر أمر سـيدتها. حين جاءت

بمـا طُلب منها، توضأ الشـيخ، ثم وضع يده علـى صدر «زياد»، وقال: نصلي ركعتين لتُقضَى حاجتنا.

تزحزح «زياد» حتى صار جسـده على طرف السـرير. رفع الشيخ عنه اللحـاف الـذي كان يتدثر به، ثم راح يصب الماء في يده، ويوضئ الرجل العليـل، فلمَّـا فرغ رص الوسـائد خلف ظهره حتى اعتدل. وقف الشـيخ علـى طرف سـجادة مفروشـة بالقـرب من السـرير يقرأ ويركع ويسـجد، و«زياد» يتبعه مغمض العينين، لا يحرك سوى لسانه، دون أن ينطق شيئًا.

انتهـى من صلاتـه، فرفع وجهه إلـى «حورية»، وقال: لا تنسـي أن تساعديه على أداء الصلوات في موعدها.

هزت رأسها في طاعة، وتطلعت إلى زوجها لتجد ارتياحًا قد سرى في ملامحه، فانبسـطت بعد طـول انقباض، وامتـلأت نظراته بامتنان، لا سـيما كُلما توجهت إلى الشـيخ، الذي عاد وجلس إلى جانبه، وقال له: لا يعرف المرء متى يضع أقدامه على أول الطريق.

حاول «زياد» أن يهز رأسـه، فاهتزت رموشـه، بينما سـمع الشـيخ يقول: يمتحن الله أحباءه في أعز ما لديهم.

رأت «حوريـة» علامـات البشـر باديـة علـى وجه زوجهـا، فقالت للشيخ: لا تتأخر علينا.

ابتسم، وقال: لا يتأخر الشيخ على مريده.

انعقـد في هذه اللحظة رباط وثيق بين «صفـي الدين» و«زياد»، بل إن «حورية» نفسـها شـعرت بشـيء من هذا يربطها بالشـيخ، فقالت له

وهي تودعه: من حسن حظ قريتنا أن أتاها الرجل الطيب، ومن حسن حظنا أن رأيناه قبل انقضاء الأجل.

قبل أن يخرج من باب السرايا، قالت له: نتمنى أن يشفيه الله على يديك يا مولانا.

ابتسم، وقال: إن شُفيت القلوب هان كل شيء.

(23)

طرق خاطب يدعى «حفني» باب بيت «الصوابر» و«آل بخيت» في «إسنا» يطلب يد الخادمة «أم الخير»، فوافق «جعفر» حين أدرك أن الخادمة تميل إليه. جهزتها النسوة على أفضل ما يكون. تأخر وقت مغادرة «جعفر» و«محمود» إلى «الجابرية» حتى يتم زفاف الخادمة، وكان عليهم أن يدبروا أمر إقامتهم في القرية المنتظرة.

تطلعوا إلى «جعفر» لعل لديه حلًّا لمشكلتهم هذه، فقال: الزاوية تسع ثلاثتنا مع الشيخ «صفي الدين»، وبيت «نبوية» يتسع للنساء.

أعادت «رقية» ما حذرت منه، وقالت: قد يُفتضح أمرنا، فيرفض «زاهر» البيع لنا.

لكن «خضرة» طمأنتهم، وقالت: نبوية ليست من «الصوابر»، هي من عائلة «أبو فاوي»، وقد نحل بدارها على أننا من أهلها. ثم تنحنحت، وقالت، وكأنها تلغي الاطمئنان الذي بعثته في النفوس قليلًا: يعرف الناس في «الجابرية» أن ما تبقى من أهل «نبوية» قد ماتوا أيام الوباء.

قـال «جعفر»: نبوية هي الوتـد القديم المدقوق لنا فـي «الجابرية» قبـل أن يحل فيها الشـيخ «صفي الدين». واقتـرح أن تذهب «خضرة» إليهـا وتنبئهـا بأنها أثنـاء ذهابها وإيابهـا في القرى مرت ببيـوت أقرباء لزوجها، وأنها ليست مقطوعة من شجرة، كما تقول.

ضحكت «عزة» وقالت: قد تظن أننا نريد حقنا في ميراث زوجها.

قالـت «رقيـة»: أظن أن زوجها لـم يترك ما يطمع أحـد فيه، إنه من الفرع الفقير في «الصوابر» الذي قضى عمره كادحًا في الحقول.

(24)

رفعـت «خضـرة» قفتها التـي يحط فـي قعرها الرمل ويتـوزع عليه الودع، واسـتعادت هيأتهـا التي رآها أهـل «الجابرية» عليهـا من قبل، وسـبقتهم لتمهـد لهم الطريـق. حين وصلت ذهبت إلـى بيت «نبوية» مباشـرة، فلما رأتها قالت لها: جئتكِ بخبر طيب. وحكت لها عن أهل زوجهـا الذين التقتهم في «إسـنا»، والمرأة فرحة بما تسـمعه، ثم امتلأ وجهها دهشة، حين أمسكت «خضرة» يدها وقالت لها، وهي تنظر في عينيها: تركتهم يعتزمون زيارتك، لكنهم يخشون العواقب.

سألتها في لهفة: أي عواقب؟

- يخافـون من أن يعرف «الجوابر» مَـن هم، فيطردونهم كما فعلوا في الزمن القديم.

وجمـت «نبويـة» لا تعرف بماذا تجيب، لكـن «خضرة» اختصرت لها الطريق، وقالت: قولي إنهم من أهل أبيك.

هزت رأسها، وقالت: إن كان هذا يريحهم، سأقوله.

قالت «خضرة»: أعرف أن هذا ما يريحهم، والودع ينبئني به.

ثم فاجأتها، وقالت: شيخ الزاوية يعرف حكايتهم، وهو أمين عليهم مثلك تمامًا.

ابتسمت «نبوية»، وقالت: طبيعي أن يؤتمن مجذوب إلى مَن انحدورا من نسل أمثاله.

كان زوجها قد ملأ رأسها بحكايات عن أهله الذين تفرقوا في البلاد، وفارق الدنيا وهو يتمنى لقاءهم في أي مكان أو زمان، ليجتمع شملهم بعد أن ابتلعتهم البلاد والأيام. استدعت ما سمعته منه في ساعة الصفاء والحنين، وقالت وهي تدوس على حروف الكلام: أشعر بأن روحه تطوف حولنا فرحانة.

ابتسمت «خضرة» مطمئنة إلى ما حققته من تقريب البعيد، وقالت: أهل زوجك مستورين، ومعهم ستعيشين في عز يتمناه أي أحد.

فاجأتها «نبوية» حين قالت لها: خذيني إليهم، ليتم اللقاء.

صمتت «خضرة» برهة، وقالت: من الأفضل أن يجمعكم المكان الذي شهد أيام عز الأجداد الطيبين. واستأذنتها في زيارة «الزاوية» فاستقبلها الشيخ «صفي الدين» بوجه باش، وقال: يتلاقى الساعون للخير دومًا.

(25)

كان لا بد أن يذهب «عمر»، فهو مَن عرفته «الجابرية» على أنه مريد شيخ الزاوية، و«جعفر» لأنه مَن يثقون في قدرته على التفاوض مع «زاهر» على الأرض؛ لهذا وقع الاختيار على «محمود» أن يبقى ليبيع البغال وعربات الكارو وبقية الأثاث الذي تركوه في البيت، ويتسلم أجره وأجر «جعفر» المتأخر لدى وكالة الجداوي، ويُصفِّي إيجار البيت مع أصحابه.

حزمت الأسرة ملابسها، ولفَّ «جعفر» الصناديق الثلاثة التي تحوي النقود والذهب في أربطة من الخيش، ثم وضعها في زكيبة، وكدس حولها ملابس قديمة، حتى لا تصدر شخللة فيسمعها طامع أو لص، وأحكم ربطها. استأجروا مركبًا يمضي بهم إلى «الجابرية»، ولم يرضوا أن يستقلوا واحدًا من حاملي البضائع، كما اعتاد الناس، حتى يكون النساء والمال في أمان.

وسألوا صاحب المركب إن كان يعرف «الجابرية»، فقال لهم: لا يخفى عليَّ نجع ولا قرية تطل على النيل ولو من بعيد.

(26)

أين جدي؟ في أي قبر قد دفن هنا؟ أو في أي بيت قد سكن؟ أو في أي زاوية قد اعتكف راضيًا بما قسمه الله له؟ على أي فرس هام في الزروع؟ أين الصوامع والشون والحظائر والإسطبلات؟ أين ما كان لنا في الزمان الأول؟

نشبت الأسئلة أظافرها الحادة في رأس «جعفر»، والمركب يقترب من شاطئ «الجابرية»، وانجابت أمامه الحكايات تتهادى فوق صفحة النهر الساري على مهل، ثم ارتفعت حتى حطت على هامات الشجر والنخل الذي بدت وسطه بيوت خفيضة، على طرفها سرايا تنطق بآيات العز والأبهة. حين رآها أكبرها، وسأل نفسه: هل أنام في يوم قريب في أي من مخادعها؟

(27)

رمى المراكبي الهلب الحديدي، فانغرس في الطين. مد السقَّالة فحطت على الرمل المخلوط بالتراب. طلب منهم النزول. أخذ كل منهم ما يستطيع، وحمل «جعفر» الزكيبة التي تحوي النقود والذهب. وضعها على الشاطئ في هدوء، وألقت النسوة فوقها بقج الملابس المربوطة. دفع للمراكبي أجرته، فرفع سقالته، وسحب الهلب، ثم اندفع في الماء يجدف عكس التيار راجعًا من حيث أتى.

كانت شمس العصاري تفرش نضارها على الحقول، وترميه في الماء، حتى يحسبه المفلس ذهبًا يتهادى إليه. أعطى «جعفر» ظهره للنهر، وصعد إلى أعلى لعله يجد مَن يؤجر لهم حميرًا تحمل أشياءهم إلى بيت «نبوية» والزاوية.

أرسل بصره فإذا بالأرض بور، لا أحد فيها، يتقافز فوقها الجراد، وتحط العصافير واليمام يلتقط رزقه ثم يطير. مشى قليلًا، وصعد إلى الجسر، وقلَّب عينيه يمنة ويسرة فلم تظهر له سوى زاوية على طرف البيوت تنيخ إلى جوارها مقابر مهملة.

في الجانب الغربي البعيد تراءى له فلاحون انحنت ظهورهم، وسط زرع أخضر، أراد أن ينادي أيًّا منهم، لكنه ابتلع صوته، فهم لن يسمعوه، وإن سمعوا فقد لا يأتي أحد لمساعدته، وإن أتوا فلا يعرف كيف يواجه أسئلة في عيونهم أو تنطق بها ألسنتهم.

عاد إلى الواقفين في انتظاره عند الشاطئ، وقال: لا حيلة لنا إلا حمل ما معنا قبل غروب الشمس.

رفعت النسوة بقج الملابس فوق رؤوسهن. حمل «جعفر» الزكيبة الثمينة. حمل «عمر» أربطة تحوي أواني وأحذية وبقايا طعام. ساروا على مهل. كلما تعبوا توقفوا، وأنزلوا حملهم على الأرض، ثم رفعوه فوق أجسادهم من جديد، حتى بلغوا أول شارع في «الجابرية» مع حلول الغروب.

(28)

في اليوم التالي ثرثرت النساء في البيوت، والفلاحون في الغيطان، والساهرون على المصاطب، عن نسوة أتين إلى بيت «نبوية» يُقال إنهن قريباتها، بينهن امرأتان ليس في جمالهما أحد في «الجابرية». تحدثوا أيضًا عن مريد آخر انضم إلى شيخ الزاوية.

وصل الخبر إلى العمدة فقال غاضبًا: لا يدخل غريب إلى هنا إلا بإذني. وأرسل خفيرًا لاستدعاء «نبوية» فذهبت إليه ترتجف، فلما رآها قال لها ساخرًا: لم أكن أعرف أن لكِ أقرباء.

ردت بصوت خفيض: هناك مَن دلهم عليَّ، ولا يهان ضيف في قرية أنت كبيرها.

استملح ما سمعه منها، رغم أنه يعرف أن كبير القرية هو الوجيه «زياد»، وابنه الذي لا يريد أن يكون كبيرًا هنا في هذه القرية. تنحنح، وقال: كان من الواجب أن تبلغيني قبل قدومهم.

ردت في رجاء: جاءوني فجأة وكنت أنوي إبلاغك لكن سرقني وقت الضيافة.

هز رأسه، ونادى خادمه، وقال له: أعطها ما تُكرم به ضيوفها.

راحت تدعو له بالستر وطول العمر. ورأى هو في دعوتها نافذة تفتح على رغبته في رؤية النساء الغريبات، ليستوثق مما حكاه الفلاحون عن جمال اثنتين منهن، واحدة تجاوزت الخمسين دون أن يسرق الزمن منها كل جمالها، والثانية فتاة يقول عنها الناس إنها تقول للقمر انزل لأجلس مكانك.

(29)

وقع العمدة في غرام «رسمية»، رآها والشمس تسكب حمرتها على خدها الأسيل عند الزاوية، فتوهج قلبه. كان رجلًا شهوانيًّا، له امرأة وحيدة تصده دومًا، وسرى في نفسه عزم مرات على تطليقها، لكن ابنتيه تصدين له، ورأى هو أن من العيب أن يقبل على خطوة، تجعل الناس يلوكون سيرته.

ضبطته ابنتاه مرات يتحرش بالخادمات، وطردتا اثنتين منهن خارج «الجابرية» وقيلت للناس ذرائع أخرى واهية. شكا لابنتيه مما تفعله معه أمهما، فقالت له إحداهن ذات يوم: تزوج أكرم لك.

كان هو، كعادة الرجال في هذا المكان والزمان، يؤمن بأن امرأته قد حرمته من إنجاب ولد، يرث الأرض والعمدية. شغله هذا سنوات، لكن الأيام سارت به دون أن يُقدم على الزواج. كان كلما استملح امرأة رفضتها ابنتاه، فهذه ليست من مقامه، وتلك جف رحمها، وثالثة سيئة السمعة، ورابعة تقع في غرام فتى يماثلها في العمر.

رأى «العمدة» أن الباب إلى «رسمية» مفتوح، فهو قد حسبها فقيرة، بلا حسب ولا نسب، ومثلها ستفرح بأن يكون مقامها بيت العمدة، وأهلها سيرحبون على الفور بمصاهرة كبير القرية، بحثًا عن مستقر بعد غربة، وشبع بعد جوع، وأمان بعد خوف.

كانت النسوة قد أقمن في بيت «نبوية»، و أقام «جعفر» و«عمر» في الزاوية، حيث دفنوا داخلها الزكيبة التي تحوي صناديق النقود والذهب. حرصوا على ألا يعرف أهل القرية، أنهم أسرة واحدة، على الأقل قبل شراء الأرض.

طرق العمدة ذات مساء باب «نبوية»، فلما فتحت ورأته، أشارت إلى النساء أن يسرعن إلى الداخل، فخلت له الصالة. جلس على حصير، متكئًا على حاشية من القطن. وقالت «نبوية» في ارتباك: المكان ليس على قدر المقام. فابتسم، وقال لها: لا فرق بيننا، نحن أهل.

كانت تسمع منه هذا لأول مرة، فارتابت في أمره، لكنها انشغلت بما يجب عليها فعله في هذا الموقف. خيَّرته بين شرب الينسون والقرفة والزنجبيل، فقال لها: الجودة بالموجود. فلما عادت إليه، رشف رشفات متتابعات من كوب القرفة، وقال: المرة القادمة سنشرب الشربات. ارتبكت، لكنها تماسكت واكتفت بالقول: زاد الله من أفراحك يا عمدتنا.

وسألها عمن تكون «رسمية»، فأدركت ما يرمي إليه، وكانت تعرف أنه نوى الزواج غير مرة ثم تراجع. قالت له: هي ابنة واحدة من ضيفاتي.

لم يُضع وقتًا، وقال: أريد أن أطلبها من أمها، ولك الحلوان إن وافقت.

أجابت على الفور: لو الأمر بيدي لن أتأخر عنك.

قال، وهو ينهض، ملتقطًا عباءته وعصا الأبنوس التي يختال بها: جئت من الباب، وفتحت الكلام، وعليكِ البقية.

ونقلت إليهن «نبوية» طلب العمدة، وشرحت لهن ما هو فيه، فقالت «ناعسة»: هو في عمر أبيها، وله زوجة وابنتان.

قالت «نبوية»: لا يعيب الرجل سوى جيبه، ومصاهرة العمدة ستدق لكم أوتادًا غليظة في القرية.

كانت كل امرأة تريدها لابنها، لكنَّ أيًّا منهما لم تفاتح أمها، ولا الفتاة في هذا، ظنت كل منهما أنه أمر مفروغ منه، إلى أن سمعت

كلتاهما من ابنيهما، ذات يوم، أنهما يعتبران «رسمية» أختهما، ولا يتعدى النظر إليها عند أي منهما هذه العتبة.

تداولوا الأمر، متقلبين بين خوف من الرفض، وخوف من القبول، فانتهوا إلى أن يجعلوا الباب مواربًا، لعل الأيام القادمة، تمكنهم من قولة صريحة لا اعوجاج فيها.

(30)

توالت خطوات الشيخ «صفي الدين» على الطريق الذي فتحه إلى سرايا الوجيه «زياد». كانت «حورية» تبدي له امتنانها الشديد لحرصه على زيارة زوجها، بعد أن رأت على وجه الرجل القعيد، بلا حول ولا طول، فرحة كلما لمح الشيخ داخلًا إليه.

في يوم اصطحب الشيخ معه «جعفر» و«عمر» إلى السرايا. كانا مترددين، يقاومان خجلًا وتوجسًا، لكن «صفي الدين» طمأنهما إلى أن طريقه إلى بيت الوجيه صار هينًا، وأنهما لا بد أن يريا الرجل الذي يسعيان إلى شراء أرضه، سواء كان هذا في حياته أو بعد رحيله.

كان «جعفر» و«عمر» يتطلعان إلى رؤية الفتاة الحسناء التي وصفتها لهما «خضرة»، وتنتظر أمها أن يأتي إليها مَن يستحقها فيخطبها. لهذا استجابا في النهاية لطلب الشيخ.

وقف الشيخ عند باب سور الحديقة الخارجية، وكان كل مَن في السرايا يعرفون أن سيدهم يحب مجيئه. هرع إليه الخفير، فقال له: أخبر سيدتك أن معي شابين، يطيب لهما مقابلة الوجيه.

أرسل «جعفر» و«عمر» بصريهما إلى السور الطويل، وأشجار الوحواح متراصة إلى جانبه، تعلوها عراجين نخل موزع بانتظام في صف يتلوها. انثالت رائحة ورد في المكان، فمدوا أنوفهم يسحبون منها على مهل، وينظرون إلى ما أظهره الباب من منظرها البديع.

جاء الخفير تتبعه خادمة، فقادتهم إلى الداخل. كان «جعفر» يتلفت يمنة ويسرة، مستطيبًا أحواض الورد، ومتابعًا النحل الذي يحط عليها، والعصافير التي تحوم حولها، ثم ترتفع إلى حيث أعشاشها على فروع أشجار الكافور بالداخل. تابع عصفورًا ذا ألوان بديعة، فإذا به يعلو ويحط على نافذة موارية. فجأة انخطف «جعفر» إلى وجه مليح يطل على استحياء. انتبه الشيخ «صفي الدين» إلى ذهاب بصر الشاب في اتجاه النافذة فابتسم، وقال: هي «عبلة» ابنة الوجيه التي حكيت لك عنها.

كانت «خضرة» قد أسهبت في وصفها له حين التقتها لتستطلع حظها من الدنيا، فأدرك «جعفر» أن الخادمة لم تبالغ أبدًا. تعجب وهو يمضي نحو باب السرايا من أن تظل مثلها بلا زواج، لكنه كان يدرك أن الجميلة الثرية لا يكون الطريق إليها مفتوحًا بسهولة، فمَن ذا الذي بوسعه أن يتقدم إليها دون أن يكافئها حسبًا ومالًا، ويكون وسيمًا أيضًا.

هو لا ينقصه شيء من هذا، لكن كشف حسبه وماله مبكرًا قد يبدد الغاية الكبرى التي توارثتها الأجيال في «آل صابر»، ويجد أن الزمان قد ادخرها كل هذه السنين، وحفظها الرجال، كي تتحقق على يديه.

قدم الشيخ «صفي الدين» الشابين إلى «حورية» على أنهما مريدان مخلصان، يعتبرهما ولديه، ويسكنان معه الزاوية. انسحب في نفسها جزء من بركته عليهما، فاستراحت لرؤيتهما، وسمحت لهما بأن يصحباه إلى غرفة الوجيه.

لم يخرج الشيخ عما يفعله حين يلقى العاجز، أمَّ الثلاثة في صلاة الظهر، وأطال الدعاء للوجيه بالشفاء والبركة والسكينة، ودعا لابنه «زاهر» أن يرقق الله قلبه على والديه. الشيء المختلف هذه المرة أنه طلب للوجيه طعامًا، وجلس إلى جانبه يضع اللقيمات في فمه، ويمسح ما يتناثر منها على صدره بمنديل نظيف. كان «جعفر» و«عمر» يأكلان معهما، فلما انتهوا، نظر إلى الوجيه، وقال: مَن أكل طعام الكرام لا يخونهم.

فوجئ «جعفر» و«عمر» بالشيخ يقول للوجيه: لو أوكلت أمر الأرض إلى الشابين لانتهى بوارها.

أرسل الوجيه عينيه إلى الشابين، واهتزت شفتاه بابتسامة، وغمغم بما لم يعرفه «جعفر» و«عمر»، لكن الشيخ كان قد تعود على إيماءاته وإشاراته، فأيقن من موافقته. عندها نهض ومشى خطوات نحو باب الحجرة، ونادى الخادمة، وطلب منها أن تستدعي سيدتها. كرر ما طلب أمام «حورية»، فقالت: لا أعرف أن مريدي الطريق لهم في الزراعة. فضحك الشيخ «صفي الدين» وقال: قامت الزراعة هنا في الزمن البعيد على أكتاف المجاذيب.

كان «زياد» يعرف هذا، إذ انتقل إليه من أبيه، الذي ورثه عن جده، حتى الجد الأول الذي خُصص له التزام، كبر حين خرج «الصوابر»

مـن القريـة، لهذا هز رأسـه قليـلًا، فأدركـت «حورية» أنـه يرحب بما عرضـه عليه الشـيخ، لكنها قالت: لا أعتقد أن شـيئًا من هذا سـيتحقق طالما «زاهر» يعتزم بيع الأرض.

ارتعشـت شفتا «زياد» بابتسامة سـاخرة، قرأتها زوجته، وقالت: لا نملك كل الأرض، فأغلبها معنا كحق انتفاع.

فوجئ «جعفر»، و«عمر» بما سـمعاه، تقلبـا بين فرح وحزن. فرحا لأن ما معهما من مال لن يكفي شـراء كل ما يزرعه الوجيه، وحزنا لأن أرض «الجابريـة» لـن تعود إلـى «الصوابـر»، فبعضها يزرعـه العمدة، وبعضها يملكه أهل الحكم، وهؤلاء يأخذون ولا يعطون.

سأل «جعفر»: وهل هذا يخفى على «زاهر»؟

أجابتـه «حورية»: لا، هو يريد بيع ما نملـك، والحصول على خلو رجل من منتفع جديد.

(31)

احتـارت النسـوة والشـبان الثلاثـة في أي خيـار يسـلكون؟ المال الـذي معهم قـد يكفي شـراء الأرض المملوكـة للوجيـه، لكنها تمثل الجـزء الأصغر مما يزرعه. جزء كبير مـن المال يكفي لاقتناص أرض الانتفـاع، ومـا يبقى يُمكنهم مـن بناء بيت على طـرف الأرض، أو إلى جانب الزاوية.

اقتحـام هـذه العقبة يقتضـي عبور ما هـي أكبر منها. فمَـن ذا الذي يقتنع بأن ثلاثة شباب من مريدي شيخ، لا يملك شيئًا من حطام الدنيا،

لديهم مال يشتري أرضًا ويبني بيتًا، اللهم إلا إذا آمن الناس بأنهم لصوص نهبوا بيت أحد الأثرياء في بلد بعيد، وفروا إلى «الجابرية» متسترين بقناع أهل الطريق.

وعدهم الشيخ «صفي الدين» بأنه سيجد مخرجًا لهم، فقال له «محمود» الذي كان قد انضم إليهم بعد أن أنهى مهمته في «إسنا»: المهم ألا تغمض عبوننا عن الأرض حتى لا يسبقنا أحد ويخطفها منا.

رد الشيخ «صفي الدين»، وقال: لن يرضى أحد بشراء أرض متنازع عليها.

(32)

اكتشفت «أم الخير» أن زوجها رجلًا ضائعًا. حين رآها تكدح عند المعبد نهارًا، ماهرة في التقاط الرزق، نصب شباكه حولها. أمطرها بمعسول الكلام، الذي لم يكن يملك غيره. لاحقها مرات واختلى بها في مكان بين المعبد والوكالة. حدثها عن أنه رجل «كسيب»، فإذا به عاطل، فاقد الصبر والمثابرة، يتنقل بين عمل وآخر؛ لأن أصحابه لا يطيقون بخله بجهده، وإثارته المشكلات مع الآخرين.

عمل مع مراكبية كانوا يحملون البضائع من أسوان إلى القاهرة، وعمل حمالًا في وكالة الجداوي، وقهوجيًا في مقهى قريب منها، وساعد نجارًا وحدادًا وصاحب دكان، وعمل سايس إسطبل في قرية قريبة، وعزق أبامًا في أرضها. ما إن يستقر في مكان حتى يتركه، متوهمًا أنه لم يُخلق لهذه الأفعال الشاقة.

مـا إن أُغلق عليهما باب غرفة اسـتأجرها فوق سـطح أحد البيوت حتى اسـتملح البقـاء في مخدعه، ينفق مما كانت هـي قد ادخرته، وما أعطاه لها الذين ظلت سنوات في خدمتهم، وكلما حدثته عن خروجه للكد، قال لها: هناك عمل أفضل أنتظره.

اكتشفت ذات ليلة أن العمل الذي ينتظره لم يكن سوى السرقة. جاء إلى غرفته ذات ليلة أربعة رجال، خشنو الملامح، زائغو البصر. التهموا مـا أعدته لهم من طعام. دخنوا الجـوزة التي اصطحبوها معهم، بعد أن دسـوا في المعسـل قطعًا من الحشيش. كانوا يتهامسـون حتى لا يصل حديثهم إلى سمعها، لكنها التقطت ما يكفي لتعرف أنهم عصابة.

صرخت فيه بعد انصرافهم: لن آكل من حرام.

لطمها على وجهها. دفعها في صدرها فأسقطها على الأرض. ركب فوقهـا وراح يمطرهـا صفعًا ولكمًا، وهي تصرخ غيـر عابئة بالفضيحة التي تندفع من النافذة إلى الجيران. قام وركلها بقدمه فتكومت تنتحب متحسرة على حظها الأسود الذي أوقعها في رجل لا يُعتمد عليه.

قاطعته أيامًا مكتفية بالبكاء كلما نظر إليها، لعلها تجد في قلبه بقايا شفقة يمكن أن تنفذ منها إلى إقناعه بالابتعاد عن العصابة، والانخراط في عمل حلال. كان يعرف أنها بلا أهل، وليس أمامها من سبيل سوى البقاء معه حتى لو واصل الاعتداء عليها.

حيـن اشـتعلت في جسـده الرغبـة واقترب منهـا صدته فـي عزم، وقالت: جسـدي حرام على الحرامي. نظـر إليها في غيظ. هجم عليها

وألقاها على مفرش من القطن فوق حصير جديد. اعتلاه وثبت ذراعيها. رمى جسده عليها، بينما يده تجردها من سروالها، ثم التحم بها، وهي تجأر وتقاوم، حتى تراخت عزيمتها، فاستسلمت له، وهو يطعن ويعض رقبتها ولعابه يسيل عليها، ونار عرقه تبلل نارها، وسعاره يمرق في أحشائها، حتى وجدت نفسها تطوق جسده، ناسية أي شيء سوى ما هي فيه.

كان هو يؤمن أن المرأة إن شبعت من زوجها تحملت قسوته، وكانت هي قد احترقت سنين في انتظار مَن يطفئ نارها، فصار وقت المضاجعة فقط هو الذي يحل فيه بينهما الغفران والنسيان. لكن المرأة لا تكتمل في عينيها رجولة زوجها إلا إذا وسَّع لها عيشها من كده، فكان وقت الخلاف والنكد بينهما أطول كثيرًا من وقت الاتفاق.

وجدت السخط يكاد يفتك بها ذات يوم فهددته قائلة: إن لم تنتظم في عمل حلال سأترك البيت.

قهقه ساخرًا، وقال: غرفة حقيرة ليست بيتًا، ولا أهل لك لتذهبي إليهم.

نظرت إليه في تحد، وقالت: أهلي سبقوني إلى «الجابرية»، وإن عدت إليهم سيرحبون بي.

كان يعرف «الجابرية»، فطالما مر بها وقت عمله مع المراكبية، فقال لها: لو كنت عزيزة عليهم؛ لأخذوني معهم، ووجدوا لي رزقًا هينًا.

ذات صباح قال لها: سأغيب يومين فلا تقلقي. فانتهزت الفرصة للهرب. صرت ملابسها في ملاءة، وحملتها فوق رأسها متوجهة إلى المرسى. أقلها مركب شراعي إلى مرسى آخر قريب من «الجابرية»، كان المراكبية يستريحون عنده ساعة يتناولون فيها الطعام والشراب.

وصلت إلى بيت «نبوية» عند الظهر، فلما رأتها النسوة فرحن، وهن يظننها قد جاءت زائرة، فإذا بها تبكي على أكتافهن، وتضج بالشكوى من الرجل الذي ساقها إليه حظها التعيس. ولمَّا سألنها عن سبب غضبها منه، اكتفت بالقول: يضربني ليل نهار.

لم تكن أي منهن قد تفادت ضرب زوجها ولو مرة واحدة في حياتها، فقلن لها: نكد ويروح لحاله.

حين عاد «حفني» إلى الغرفة لم يجدها، سأل جارة عجوزًا تسكن غرفة مقابلة، طالما كانت تسمع صراخ «أم الخير» وتشفق عليها، فقالت له: رأيتها تحمل بقجة هدومها قبل يومين، وأغلقت الغرفة ومشيت.

كان يعرف أنها بلا أهل في «إسنا»، فأدرك على الفور أنها نفذت وعيدها، ورحلت إلى «الجابرية». فكر في أن يذهب للتو خلفها، لكنه آثر أن ينتظر أيامًا حتى تبرد أعصابها، ويكون هو قد فرغ من سرقة خططت لها العصابة، فيصبح بيده مال يوفر له نفقات السفر، ويظهره أمام «الصوابر» بمظهر القادر على الإنفاق، فيعزز حجته في استعادتها.

كانت «أم الخير» قد انقبضت فور دخولها بيت «نبوية». وجدت السيدات اللاتي عشن زمنًا في بحبوحة يضيق بهن المكان. يتحلقن وقت الطعام حول طبقين من الخوص كأي أسرة فقيرة، فإن جاء موعد النوم تلاصقن فوق حصر من البوص.

اقتربت ذات صباح من «رقية»، وسألتها: ما يجبرك يا سيدتي على هذا العيش، وأنتم في غنى عنه.

ابتسمت، وقالت لها: المضطر يركب الصعب.

عرفت في ثرثرات النساء أن الثروة التي حملوها معهم من «إسنا» تستقر منتظرة اليوم الذي تخرج فيه لشراء الأرض، وبناء سرايا تليق بالصوابر. حين همست في أذن «خضرة» سائلة إياها عما إذا كانت صناديق المال والذهب لا تزال موجودة أم فقدها الشبان وأمهاتهم وستطول حياتهم الشاقة، التي لا يحتاجون فيها إلى خادمات، أبلغتها أنهم قد دفنوها في أرضية الزاوية، إلى أن تأتي ساعتها.

ولأن هذه الساعة لا يعرفها أي منهم على وجه الدقة، أدركت «أم الخير» أن بقاءها هنا يمثل عبئًا على أناس لم يكفوا عن الإحسان إليها، حتى وهم في أحلك الظروف. فكرت في العودة، لكنها خشيت إن فعلتها يزيد «حفني» في الإساءة إليها، فصبرت حتى يأتي إليها، معولة على أن رجلًا مستعر الاشتهاء مثله لن يُطيق صبرًا على فراقها.

لم يتأخر «حفني». طرق باب بيت «نبوية» ذات صبح، وقابلته «أم الخير» بوجه عابس، وقلب طروب. قالت له «رقية»، حين طلب

مـن زوجتـه أن تعود معه: لهـا رجال لهم القرار. وقادتـه «خضرة» إلى الزاويـة، مشـى أمامها، وهي خلفـه تدله، دون أن تكشـف عن وجهها حتـى لا تفطـن النسـاء إليهـا. كانت قد غيـرت هيأتها، خلعـت القرط المعلـق في طـرف أنفها، وأزالت الوشـم مـن ذقنها، وارتـدت جلبابًا مثـل الذي ترتديـه زوجات الفلاحين، ومع هذا قدرت حسـاب ظنون صاحبات الذاكرة القوية.

لمَّـا وصـل «حفني» إلـى الزاويـة كان عليـه أن يصبر علـى توبيخ الشـيخ، وعتـاب الشـبان الثلاثـة. كانت له قـدرة عجيبـة على تقمص الأدوار، فارتـدى لبـاس الزاهديـن، لا سـيما بعـد أن أدرك أن زوجته حفظت سره، ولـم تتحدث سوى عن اعتدائه عليها.

ارتاب الشـيخ «صفي الدين» فيه رغم تظاهره بالخضوع، لكنه قدم حسـن الظن على ما سـواه، ولـم يـرد أن يفرق بين رجل وأسـرته، بعد أن همسـت «خضـرة» في أذنه قائلة: ظهرت علـى «أم الخير» علامات الحمل.

لـم يكن «حفنـي» يعرف، فقـال له الشـيخ: ضرب المـرأة الحامل جريمة مضاعفة.

اضطربت مشـاعر «حفني» حين سـمع الخبر، وسـرى في أوصاله إحسـاس تختلط فيه المسـؤولية بالذنـب، دون أن يعـرف إن كان هذا سيسـتقر في نفسـه، أم تجرفه نوازعه الشريرة. كان موعد صلاة العصر قد حان، فأمره الشـيخ بأن يتوضأ مع الشـبان، فقال: لا أعرف الوضوء يا مولانا.

رمقه الشيخ بغيظ، وقال لـ «جعفر»: علمه، لعلها تكون أولى خطواته نحو الهداية.

صلى معهم، وأنصت إلى شروطهم بإمعان، ووافق عليها دون تردد. لم تكن سوى كف عن الاعتداء على «أم الخير»، ومراعاتها في شهور حملها، والإخلاص لوليدها حين يطل على الدنيا.

ما إن ركبا المركب نحو «إسنا»، حتى قال لها: هربتِ من الفقر إلى فقر، وليس بوسع مجاذيب ونسوة تفترشن الأرض أن يوفروا لكِ ما تستغنين به عن بيتك.

نظرت إليه في اشمئزاز، وقالت: مثلك لا يرى سوى ظاهر الأشياء.

لم تمر سوى أيام حتى عاد إلى غلظته معها، بعد أن أيقن أنها لن تلجأ إلى «الجابرية» مرة أخرى، ثم غيَّرها بفقر مَن لاذت بهم، فصرخت في وجهه: ستكون لهم أرض وسرايات.

قهقه، وقال: رجعتِ من مشوارك واسعة الخيال.

أعطته ظهرها، وقالت في غيظ: لديهم ما يجعل ألفًا من أمثالك يتمنون أن يخدموا في بيوتهم.

استيقظ داخله اللص الذي فارقه أيامًا معدودات، حين رأى صدقًا في عينيها وهي تحدثه عن ثراء «الصوابر»، فقال: ربما تكونين على حق، لكن هذا لا يخلو من سر غريب.

وفاتح «حفني» أفراد العصابة، حين التقاهم في المقهى، بما سمعه من زوجته، فقال له كبيرهم: جارها لتعرف أكثر. ولذا رأت منه في الأيام اللاحقة ودًّا غير معهود، حتى جاءت ليلة ضاجعها فيها ثلاث مرات وهي تصرخ تحته من فرط اللذة، ثم مد ذراعه، وأخذ رأسها إلى صدره، وراح يمسد شعرها في حنان، وهي تغمض عينيها في امتنان. وحين أدرك أنها مهيأة للثرثرة، فتح باب الكلام عن «الصوابر».

كان يحاذر من سؤالها عما يريده، وإن كان قد وجد طريقًا إلى نفسها، لتبوح أكثر، حين قال: يا ليت ما تقولينه عن ثراء «الصوابر» يكون صحيحًا، سيعود على ابننا شيء مما لديهم، حتى لو كانت صدقة. لاذت بالصمت، وإن كانت قد استحسنت كلامه، فواصل: مَن يدري أن تكون لهم أرض وسرايا، لنخرج من هذه الغرفة الكئيبة، ونعيش هناك في «الجابرية». سبق لي الشغل بالفلاحة، وستكون فرصة طيبة لنأكل لقمة حلالًا.

فتح أمامها نافذة لوعد جديد، فقد كانت تعاني من الوحدة، وعلى قدر ما حزنت للحال التي آلت إليها الأسرة التي هبطت من ثراء إلى سترة ثم فقر عابر، فابتهجت لفكرة اللحاق بها في قابل الأيام.

لم يأتِ فجر هذه الليلة حتى كان «حفني» قد عرف أن للصوابر ثروة مخبأة في الزاوية التي زارها، وصلى بها، واعتقد شيخها أنها ستكون بداية طريق جديد يسلكه، لكن منذ متى كان الناس يقفزون فجأة من ظلام الدنس إلى النور المقدس إلا بمعجزة؟ وكيف للمعجزات أن تحط رحالها في هذه الغرفة الكئيبة؟

ونقل ما عرفه للعصابة، فابتهجوا، وقال كبيرهم: هذا ما يستحق أن ننشغل به حتى نناله.

ووضعوا خطة أوعزت لهم بها شياطينهم، واطمأنوا في جلستهم إلى أنها نافذة، وستنتهي إلى اقتناص الخبيئة الثمينة، التي أهدتها الجبال في زمن بعيد، لتستقر في الطين.

تسلل اللصوص ليلًا إلى «الجابرية». كان القمر قد غاب مبكرًا، واستكان الزرع تحت الظلمة العميقة، يقض مضجعه نقيق الضفادع، وصرير الجنادب، ورفيف البوم الساعي إلى الفئران الشاردة، ونباح الكلاب من بعيد ينافسه مواء القطط. لكن شيئًا من هذا لا يصل إلى آذان الذين يغطون في سبات عميق، داخل الغرف المقبضة.

وصل اللصوص إلى قمح حان حصاده، بالقرب من الزاوية. ربضوا فيه يسترقون السمع حتى يطمئنوا إلى أن أحدًا لا يسمعهم أو يراهم. خلص لهم من طيات الظلام شبح يمشي فوق الجسر، ثم سمعوا دقات عكازه إن اصطدمت بحجر أو بقعة صلدة وسط التراب الناعم. قال كبيرهم: يبدو أنه خفير الزراعة.

فقال «حفني» هامسًا: ننتظر حتى يمضي بعيدًا.

لكن آخر قال: بالعكس، هذا ما نريده.

أشعلوا النار في القمح، وصرخوا كأنهم أصحابه، فصرخ الخفير، وزعقت امرأة هناك فوق بيت، ربما كانت تطمئن على كتاكيتها من هجوم القطط الضالة. كمن اللصوص بعيدًا عن سريان النار، ورأوا

أربعة رجال يخرجون من الزاوية، ويجرون نحو ألسنة اللهب، وظهر رجال هناك يوسعون خطاهم جريًا، وهم في صراخ ولوعة.

حين انهمك الجميع في إطفاء النار، التي كان اللصوص قد وزعوها على أماكن عدة حتى لا يسهل إطفاؤها إلى أن ينتهوا مما يقصدون، تسللوا هم إلى الزاوية. رفعوا الحصر، وضربوا الفؤوس في أماكن متفرقة، حتى علق في أحدها شيء، فقال: هنا، احفروا هنا.

توالت الضربات في سرعة، حتى أطلت فوهة الزكيبة، فالتقطها اثنان منهم يسحبونها، بينما الآخرون يشرخون التراب المكدس حولها، حتى خلصت لهم، فرفعها أكثرهم قوة فوق كتفه. في سرعة خاطفة مد الرجال فؤوسهم إلى الأرض المنبوشة، فردوها إلى استوائها، بعد أن ضربوها بظهور الفؤوس، وكدسوها بأقدامهم، ثم خطفوا الحصر وفرشوها كما كانت، كي يؤخروا اكتشاف السرقة حتى الصباح.

راح حامل الخبيئة يهرب في اتجاه النهر، وبقية العصابة تجري خلفه، حتى وصلوا إلى الماء. كان في انتظارهم قارب أجَّروه، حمله المركب في مجيئهم إلى المرسى القريب من «الجابرية»، وكان بالمركب رجل يحسن التجديف، فلما قفزوا إليه، راح يدفعه في اتجاه سريان الموج الخفيف، حتى ابتلعهم الظلام.

(33)

تكاثر الرجال على النار فأخمدوها، لكن نارًا أخرى ظلت مشتعلة في قلوب مَن حُرقت أقماحهم. كان الشيخ والشبان الثلاثة الأكثر

إقدامًا في ضرب ألسنة جهنم كي تخرس، فلمَّا خرست، سمعت آذانهم كلمات الامتنان من الفلاحين، فشعروا بأن هذه الكارثة قد قربتهم من أهل «الجابرية».

مضوا وآذانهم حاملة عبارات الشكر والدعاء، حتى أسقطهم التعب أمام الزاوية فناموا متقلبين بين حزن على أقوات الكادحين، وفرح من هذا الدرب الذي فتح لهم فجأة قلوبًا لم يطرقوا أبوابها من قبل.

كان الشيخ أول مَن استيقظ عند صلاة الفجر، فدخل إلى الزاوية، شعر بأن قدميه تتعثران في تراب لدن. جلس في الظلمة الرائقة يتحسسه. ظن أن ما مسه جاء من عجيج أثاره الذين هرعوا نحو النار، وربما داسوا في لهفتهم أرض الزاوية بأقدامهم الحافية، فنبشتها أظافرهم الخشنة الحادة.

أيقظ الشبان، فتوضأوا، وصلوا فوق الحصير الذي ناموا عليه أمام الزاوية، فلمَّا انتهوا، كان النور قد أخذ يزحف فوق الزرع، ثم يتسلل إليهم، حتى بان لهم ما أخفته الظلمة عنهم.

كان «جعفر» هو أول مَن دخل الزاوية، ليواصل نومه بعد هذه المعركة الحامية. وقعت عيناه على تراب لدن، فارتجف قلبه. تلفت حوله، فبان له نبش على طرف الحصير، فرفعها ثم صرخ. هرع إليه الشيخ والشابان ورأوه وهو يجثو على ركبتيه، ينبش بأصابعه في لهفة ووجع، فلم يجد الخبيئة مكانها.

جاء صوت القـوال يخالط عزفًا حزينًا. سـرى الرباب فوق الزرع، وتسلل كسيرًا من نوافذ البيوت الخفيضة، ثم اضطرب من فرط اللوعة والحُرقة حين لامس دموع نسوة يبكين الآمال الضائعة:

غريب مكسـور بـلا مال والخَلـق بيـردوا إيـده

لا سـند عـدَّل المـال ولا نخـل ضلـل جريـده

الضُّحَى العَالِي

(1)

بيـوت خاويـة، وقلوب عامرة بالرجـاء، وعقول تنظر إلـى البعيد. ما كان على بعد خطوة اتسعت إليه المسافات، لكن الخيال الجموح، وعزم الرجال، قادر طوال الوقت على أن يردم الهوة بين المستحيل والممكن. وهكذا لم يفارق الأمل أحفاد الصابر الكبير في استعادة ما ضاع.

اتجهـت الظنـون إلـى واحد مـن أهـل «الجابريـة»، لكن مَـن هذا الـذي عرف سـرهم الدفين؟ كانت النسـوة معزولات عـن كل اللاتي فـي البيـوت، جاراتهن ومَن هن أبعـد. لم يتحدثن مـع أي واحدة عن الخبيئة. الشـبان الثلاثة كانوا يعرفون جيدًا أن ألسـنتهم لم تتحرك ولو برهة في حلوقهم كاشـفة عما كان مسـتقرًّا في أرضية الزاوية. الشـيخ كان أحـرص منهـم على السـر. فمَن يا ترى قد فعلهـا؟ أيكون الحريق مدبرًا ليلهيهم عن ثروتهم؟ أم إن صدفة عمياء قادت شخصًا بلا ضمير للاستيلاء على ما عولوا عليه أن يعيد إليهم بعض مجدهم الغابر؟

كانـت «نبوية» وحدها التي تخرج وتدخل، فلمَّا سـألوها إن كانت قد كشفت سرهم لأحد من أهل القرية، أقسمت على أنها لم تفعل هذا أبـدًا، وكانـت لوعتها لا تقل عن لوعتهم، وعقلها شـارد مثلهم في كل الدروب، لعلها تهتدي إلى أول خيط لفك اللغز العجيب.

رآهم «صفي الدين» يصارعون حيرة قاتلة، فقال: ما لا يسعى الرجال خلفه لا يُستعاد.

رد «جعفر» محذرًا: السعي قد يضاعف المتاعب.

لكن الشيخ أصر على أن يفعلوا كل ما يجب عليهم، حتى لا يعيشوا بقية أعمارهم متحسرين على ما جلبه لهم الصمت والحذر والخوف. نظر إليهم، وقال: لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.

كانوا حقًّا مذبوحين من الوريد إلى الوريد، فاستجابوا لما أراد، وتشاوروا في الأمر فوجدوا أنهم يجب أن يبدأوا من العمدة، أليس هو المتكفل بحفظ الأمن في القرية كلها؟

طرق الشيخ عند المساء بيت العمدة. حكى له ما جرى، والرجل يفتح عينيه اندهاشًا، ويحاول أن يتغلب على قلق الأسئلة التي تخزه: مَن هذا المجذوب والذين معه؟ أهي عصابة ظنت أن رداء المجاذيب كذبة تصون سرها كل هذه الأيام؟ أم هي أسرة غنية هاربة من ثأر؟ ولا يمكن أن تكون النذور والأعطيات الضئيلة قد تراكمت فصنعت ثروة حوتها ثلاثة صناديق؟

أدرك «صفي الدين» ما يدور في ذهن العمدة، فقال له: إن الشبان وأمهاتهم، جمعوا ميراثًا كبيرًا تركه لهم آباؤهم، وجاءوا لشراء الأرض التي يريد «زاهر» بيعها. سمعوا عن عزمه البيع، فسعوا إلى الشراء، وآثروا ألا يقدموا على هذه الخطوة قبل موافقة الوجيه «زياد»، فدفنوا مالهم انتظار يوم يحصلون فيه على موافقته، حتى يصح البيع قانونًا، ويزينه الرضاء.

وانزعج الشباب لكشف سرهم، لكن «صفي الدين» قال لهم حين اختلى بهم في الزاوية: لا أحب أن يجري على لساني كذب، ويكفيني الكذبة البيضاء الكبرى التي وضعت نفسي فيها محبة فيكم. ثم صمت برهة، وواصل: ستثبت لكم الأيام أن ما نطقت به اليوم كان في صالحكم.

حقق العمدة في الأمر طويلًا. لم يترك رجلًا ولا امرأة في القرية إلا وسألهم، لكن الجميع نفوا أن يكونوا من السارقين. لم يجد العمدة ردًّا على الشيخ سوى القول: ليس أمامنا سوى انتظار ظهور آثار النعمة على أحد، أو يطلع علينا صبح فنجد أحدهم قد هرب من القرية.

لكن الأيام مضت ولم يتغير حال أي من الفلاحين، ولا هرب واحد منهم. ظلت واقعة السرقة لغزًا أعيا الرؤوس، وحكاية تروى في «الجابرية»، لكن كل مَن ثرثروا لم يدُر بخلدهم أبدًا أن هؤلاء المسروقين هم من «الصوابر»، الذين كانوا في يوم من الأيام سادة هذا المكان.

(2)

بلغ اليأس في نفوس الشبان وأمهاتهم منتهاه. لم تعد لهم إلا السلوى التي كان يطلقها الشيخ «صفي الدين»، وهو يرسل ناظريه إلى القبور، ويقول: بدأ أوائلكم من الصفر.

يقف «جعفر» عند الضُّحى العالي فوق الربوة التي لم ينل منها الزمن، حيث تستقر الزاوية والمقابر، يوجه عينيه نحو الأرض البائرة. يرى النهر هناك يجري كعادته، ويقول: هنا ضرب المجاذيب فؤوسهم ذات يوم بعيد، فقام كل شيء.

(3)

يبـدو أن القاع لن يلامـس أي أرض، فكلما اعتقـدوا أن الأمور قد حطت عنده، وجدوها تهوي ساقطة من جديد، حتى صاروا يظنون أنه قاع أبـدي، أو أن قيعان الدنيا كلها قد سـيقت إليهم، وفُرضت عليهم، حتـى اندمغـت فيهم. لكـن كان عليهـم أن يحاولوا مفارقة هـذا القاع التعيس من جديد.

الفتية الذين قبضوا على الوعد، لم يكن بوسعهم أن يظلوا جالسين عنـد الزاوية، يتلقون الإحسـان الضئيل. الأرض البـور نادتهم، إلا أن صاحبهـا كان عاجـزًا عـن فرض إرادته علـى ابنه الراغب فـي أن تبقى على حالها ليسهل التخلص منها.

كانوا قد اعتادوا الكدح فوق عربات الكارو وخلفها، فصار لهم عناد البغـال التي تجرها؛ لذا لم يكن من الصعب عليهم أن يرفعوا الفؤوس في أرض العمدة. طلبوا من الخولي أن ينضموا إلى الفلاحين، ورحب العمدة بهم؛ لأنهم أهل «رسمية»، التي بدا الطريق إليها مفتوحًا. الشبان وأمهاتهم لم يهللوا لنسبه كما كان يتوقع لأنهم ذوو ثروة، أما الآن فهم أجراء في أرضه، ونسوتهم يأكلن من ضربات الفؤوس فيها.

عاد إلى طرق بابهم، فرحبت النسـوة، وتذكرن حديث «نبوية» عن الأوتـاد الغليظة التي يدقونها في أرض «الجابرية» إن صاهروا العمدة. زفت «رسمية» إلى زوجها في ليلة شتوية، لتنام على فراش لين بعد أن كانت الحُصر الخشنة قد حفرت في جسدها علامات ظاهرة.

أعطى العمدة الأسرة الغريبة بقدر ما كان يتغلب على بخله. طلبت منه «رسمية» أن يبني لها دارًا أخرى، لتبتعد عن مضايقة زوجته الأولى وخدمها، فتململ وتذمر، ثم وعدها أن يحقق لها ما أرادت بعد الحصاد. حين أتى الحصاد لم يفِ بوعده، وقال لها: «لمَّا تولدي لي الولد سيكون لكِ ما تريدين».

أنجبت «رسمية» من العمدة ابنًا سمَّاه «رشدان»، وبنى لها دارًا فسيحة، فأصبحت أمها وعمتها وامرأة «منازع» تجدن فيها متنفسًا من بيت «نبوية»، رغم أن «عمر» و«محمود» جعلا العيش فيه أفضل، حين قاموا بترميم جدرانه وطلائها، واشتروا له الأسِرَّة والسحارات والأكلمة، والأواني الجديدة.

(4)

جاب «زاهر» الزمام باحثًا عن مشترٍ ومنتفع، لكن الكل كان يعرف أن أباه لا يرضى بهذا، فصدوه بذرائع عدة، إلا أنهم لم يغلقوا الباب انتظارًا لرحيل الوجيه القعيد. كانت «حورية» تعطي ابنها ما يطلبه من مال حتى يصرف ذهنه عن بيع الأرض، فكان يقبض على ما أخذ، ويغيب في المحروسة شهورًا ثم يعود.

عاد ذات يوم فانفردت به أمه، وقالت: إن بقيت تأخذ مما ندخره للزمن، بينما الأرض بائرة، سينفد كل شيء، ولن تجد ما تنفقه. وكانت قد أعيته الحيل ابتغاء البيع وأخفق، فنظر إليها، وقال: مَن بقي من الفلاحين يزرعون أرض العمدة. امتلأت عيناها فرحًا، وقالت: هذه مشكلة لها حل، فاتركها لي.

أرسلت خفير السرايا إلى الزاوية يستدعي الشيخ «صفي الدين»، فجاء يسبقه عكازه. اختلى إلى الوجيه يصلي ويدعو له. حين انتهى، فاتحته فيما تعتزم فعله، فتهللت أساريره، وقال لها: انفضي عن رأسكِ الهم، مقضية بإذن الله. وأبلغ الشيخ الشبان الثلاثة بما سمعه، فشمروا سواعدهم، وقالوا: نحن أول مَن يضربون فؤوسهم في أرض الوجيه. ابتسم، وقال: لكنها أرض واسعة في حاجة إلى سواعد كثيرة.

كان الشيخ قد عاصر طرفًا من أيام الالتزام القاسية، فحدثهم عن الفلاحين الذين كانوا يهربون من ملتزم إلى آخر، ويعرضون جهدهم في سخاء ورضا. حدثهم في هذا، فوقفوا على جانب مما جرى لأجدادهم، وترحموا عليهم. فكروا في هذه اللحظة في ترميم قبورهم، فأعادوها إلى هيئتها الأولى، بل أحسن.

سألوا الشيخ عما فكر فيه كي يحقق طلب «حورية»، فقال لهم: يفيض الأُجريَّة عن حاجة أصحاب الزرع في القرية القريبة من الزاوية التي تركتها.

كان زمام هذه القرية ضيق، ما تُفتح أرضها ذراعيها حتى تصدها الصحراء المترامية من الغرب. باتت الأسرة الواحدة على كثرة عددها تقدح في قراريط معدودات لا توفر لها سوى ما يملأ أنصاف البطون، بل أرباعها.

كان الشيخ مُطمئنًّا إلى أن كلمته في هذه القرية مسموعة، فركب الماء إليها ذات صباح، ومعه «عمر». كان أول مكان دخله هو زاويته، فوجد المجذوب الذي تركه على حاله غارقًا في التسابيح بينما لا

توجد إلى جانبه إلا كسور خبز يابسات، وصُرة من الكِشْك الناشف، ومقطف استقرت في قعره بصلات، وزير مملوء حتى نصفه بالماء.

سأله عن حال الناس، فقال المجذوب: زادت حالتهم سوءًا، فهم يتناسلون بلا حساب، والأرض لم تزد شبرًا واحدًا. فاصطحب «صفي الدين» الفتى «عمر»، ودخلا القرية، ورآه الناس فأقبلوا عليه مرحبين، فقال لهم: تجمعنا صلاة الظهر في الجامع. وعقب الصلاة، قال له أحدهم: فقدنا البركة منذ رحيلك. ابتسم، وقال: جئتكم بالسعي مع البركة حتى بيوتكم.

حكى لهم عن أرض خصبة واسعة وبائرة، تنتظرهم هناك. راح يشرح لهم الآية القرآنية: «**فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور**». خلب حديثه كالعادة ألبابهم، فقال أحدهم: ثقتنا فيك بلا حد يا مولانا. فابتسم، وقال: لم أقطع كل هذه المسافة لأسوقكم إلى الضياع أو الهلاك. رد فلاح آخر: خذ مَن يفيضون عن أرضنا، فإن وجدوا أرزاقهم جارية، استقروا هناك، ولحق آخرون بهم.

كانت «حورية» قد أمدت الشيخ بالمال الذي ينقل به الرجال، فقاد مائة فلاح منهم إلى النيل ليقلهم مركب إلى «الجابرية» مع فؤوسهم ومناجلهم ومقاطفهم، وهم في سعادة غامرة، دفعتهم إلى أن يسكبوا غناءهم الصافي فوق الماء:

هنا من الرجال مية والرزق يحب الخِفِّيَّة

وراحوا يتطلعون إلى حياة جديدة، اطمئنوا إلى أنها ستكون أفضل من عيشهم، طالما هم في صحبة الشيخ الجليل. وصلوا إلى

«الجابرية» عند أول الليل، تتابعوا فوق الجسر، الذي أكلت منه الأيام كثيرًا فانخفض، وقادهم الشيخ إلى الفسحة الممتدة بين الزاوية والمقابر، فجلسوا يتهامسون، ثم تركهم ومشى نحو السرايا. كانت «حورية» قد رأتهم على الجسر يكسوهم نور القمر والغبار، فرقص قلبها في صدرها، وأمرت الخادمات أن يجهزن لهم طعام العشاء.

قال الشيخ لها: لن يطلع الفجر إلا وهم يركبون الأرض.

أعطته صُرة من النقود، وقالت: أعطِ كلًّا منهم أجر أسبوع، حتى يطمئنوا.

حملت الخادمات والخفر بلاليص الجبن القديم والعسل الأسود واللفت المخلل، وثلاث صحفات فخار مملوءة بالقريش، ورصات البتاو اللدن. ساروا خلف الشيخ حتى بلغوا موضع الرجال. ناداهم الشيخ لتناول طعامهم، فلمَّا فرغوا منه أعطاهم أجورهم مقدمًا، فانشرحت صدورهم للعمل.

قضوا حاجاتهم في الأرض البائرة، ثم تراصوا نائمين على الأرض الصلدة، حتى أذن الفجر. صلى بهم الشيخ، وقادهم الشبان الثلاثة إلى البور. قادوا المحاريث المهملة، فجرتها الأبقار تشرخ الأرض المتكلسة. ضربوا فؤوسهم عزقًا وتقليبًا، حتى تشم الأرض الهواء، وتراها الشمس فيستيقظ ترابها المكدس من غفوته الطويلة.

جاءت بذور الفول فحفروا لها حُفرًا متتابعة. رشوا بذور البرسيم على صفحات الأحواض المستوية. هرعوا إلى الطنابير والشواديف،

يرفعون الماء، فيجري غامرًا الأرض الظمأى. لم يمر الأسبوع الأول، حتى كانت الأرض قد تهيأت لمواصلة دورها المعتاد. بعد أسبوع آخر، نبت فيها خضار، لتودع أيام الخراب.

(5)

وزع «صفي الدين» المهام على الشبان الثلاثة. جعل «عمر» هو «الخولي» على الفلاحين. كان «محمود» يجيد الحساب فمسك دفاتر الأرض. وأوكل إلى «جعفر» مهمة التواصل بين السرايا والفلاحين، وقال له: هذا أمر يحتاج إلى الحكمة.

صمت برهة، وقال: أنت يا مولانا خير مَن يفعل هذا.

ابتسم، وقال: لا يجب أن تشغلني الدنيا أكثر من هذا.

نظر «جعفر» في عيني الشيخ طويلًا، وقال: فلاحة الأرض ذِكر أيضًا يا مولانا.

استملح الشيخ ما سمع، وقال: أنا رجل بيني وبين القبر خطوة، أما أنت فأيامك أمامك، وأريد أن يثق فيك الوجيه والهانم، لتنبت جذورك من جديد في أرض قرية أنشأها جدك «رضوان».

(6)

تتابعت خطوات «جعفر» إلى السرايا. كان كلما دخل من باب الحديقة أرسل ناظريه إلى النافذة، لعل «عبلة» تطل منها، ثم ردها إلى أمام قدميه سريعًا، خوفًا من أن تضبطه مشغولًا بها. كانت هي قد انشغلت بالفعل. ما إن تلمحه داخلًا، حتى تدفن عينيها في شيش

النافذة، لتراه ولا يراها، لكنه كان يحس أنها هناك واقفة أو جالسة في انتظاره، وأن هناك ما يدب في صدرها، مثلما يدب في صدره.

كان يهز أحيانًا رأسه في عنف لعله ينفض ما بها من انشغال، لكن هيهات، فالذي يشغله يسري في دمه، وينبض في قلبه، ولا سبيل للتخلص منه بنفض الرأس، أو التلهي، أو دفن عينيه في الأرض وهو يتقدم نحو باب السرايا، فتنطلق نبضة عفيّة مع كل خطوة، ويتوه في خيالات عجيبة أليفة.

صار يحب الذهاب إلى السرايا ويخشاه، فمَن هو بعد أن ضاع منه ما معه، وصار مجرد أجير لدى الوجيه؟ لكن «حورية» لم تعامله أبدًا كأجير، إنما منقذ لهم من الإفلاس والضياع. طابت لها أخلاقه، وأدركت حكمته، حين رأته يمضغ الكلام جيدًا قبل النطق به. استملحت كل ما يبديه من علامات الرجولة، قوة وأمانة ووفاء، وهمة متناهية حيال الأرض، حتى قالت له ذات يوم: أتمنى لو كان «زاهر» مثلك.

خفض رأسه، وقال لها: لا أريد أن أقول لكِ إنني أعتبر نفسي في مقام ابنك، فربما يغضبكِ هذا.

ابتسمت، وقالت: كلامك يسعدني.

شجعه ما سمع منها على أن يستجيب لنداء عواطفه، ولا يكبتها مثلما كان يفعل بالأمس. جاءته «عبلة» في أحلامه، جميلة مثلما رآها، حين جاء إلى السرايا مع الشيخ أول مرة. سكن أذنيه صوتُها الذي سمعه مرة واحدة أيضًا.

في يوم كان في البهو ينتظر الهانم، فإذا بالمحبوبة تظهر هابطة السلالم إليه. رمقها فارتج صدره. مدَّ بصره أمامه لا يرى شيئًا، تائهًا عن المكان والزمان، حتى سمعها تقول له: مساء الخير.

هب واقفًا، وقال لها، دون أن ينظر إليها: مساء النور.

صمتت وهي تتطلع إلى خجله، وقالت مشجعة: أمي متعبة، وأرسلتني لمقابلتك.

نسي ما جاء من أجله، وقال بحروف متلعثمة: وددت لو أخبرت الوجيه بما تحتاجه الأرض.

مدت يدها نحو السلالم، وقالت: تفضل. ثم أفسحت له الطريق ليسبقها، فمضى متعثرًا في خطوات تفضحه، حتى بلغ الردهة المؤدية إلى غرفة الوجيه، وقال لها دون أن يلتفت إليها: أخبريه بقدومي.

غابت في الغرفة دقيقة واحدة، ثم عادت ووقفت إلى جانب الباب، وأشارت إليه ليدخل. رفع رأسه ليتبين موضع قدميه فرأى «عبلة» مرة ثالثة. التقت العينان بالعينين. انقدح شرر أقوى مما كان من قبل، وهو يرى ابتسامة عذبة ترف على شفتين حمراوين مكتنزتين، وقبلها بريق خاطف في عينيها، قال أشياء كثيرة، أسعدته وأربكته، فشعر بأنه قشة تتلاعب بها الريح.

مد يده وصافح الوجيه، ثم جلس فوق مقعد في مقابلته. كانت ابنته قد أسندت ظهره إلى وسادتين لينتين. لم تغادر الغرفة، فلم يفارقه الارتباك، ثم تشجع حين وجد الرجل يهز له رأسه، وابتسامة مرحبة ترتسم على شفتيه، فراح يبلغه بما يريد.

رغم ارتجافه جاء كلامه مرتبًا، ينم عن رجاحة عقل وسويَّة. كانت أول مرة تسمعه يستفيض في شرح ما يريد، فملأها غبطة. تقدمت لتجلس بالقرب منه، عن يمينه إلى الخلف قليلًا، تحط عينيها على شاربه المقصوص في عناية، وجانب شفتيه اللتين تنطقان الكلام على مهل، وكتفه العريضة، وكفه الممشوقة في قوة، وخاتم العقيق الذي يطوق بنصره. شعرت بأنه هو الذي كانت تنتظره كل هذه السنين.

لمَّا انتهى، صحبته إلى باب السرايا، وقبل أن يخرج قالت له في خفر ودلال: لا تغيب عنَّا. فمضى لا تقدر ساقاه على حمل قلبه الراقص، ولا أحلامه التي تهادت أمامه، وحطت على أحواض الورد، ثم ارتفعت إلى أغصان الشجر، وعراجين النخل. شعر بأن الدنيا قد أقبلت عليه، وأعطته في هذه اللحظة أكثر مما توقع. لم يشعر بنفسه إلا وهو يشد على يد الخفير الذي سار معه حتى باب الحديقة، ثم وجد نفسه ينظر إليه ويقول له: أنت زين الرجال.

خرج إلى درب يأخذه نحو الزرع والبيوت، والخفير ينظر إليه متعجبًا ويبتسم، ولا يدري ما الذي دفعه لأن يقول له هذا، بينما كان من قبل لا يتحدث معه إلا حين يلقي عليه السلام، أو يسأله عن الخادمة التي تنتظر قدومه لتصحبه إلى داخل السرايا.

(7)

لم تمر سوى ثلاثة أيام حتى وجد «جعفر» قدميه تأخذانه إلى السرايا. حمل في رأسه ذريعة للذهاب إلى هناك، أحكمها حتى تكون مقنعة لمَن يسمعونه. كان يريد أن يُفاتح الهانم في جمع السماد البلدي

مـن حظائر الفلاحين، ورمـي حفن منه تحت جذور الفـول، لتتعافى، وأن يطمئن في الوقت نفسه على صحتها.

حيـن وصل إلى باب الحديقة وجد الخفير كاسـف البـال مرتبكًا، علـى النقيض مما كان يراه من قبل. تخوف من أن يكون بالسـرايا خبر غير سعيد يخص الهانم، لكنه طرد هذا الخاطر من نفسه. أوقفه الخفير عند الباب، وكان لا يفعل هذا، فأطلق الحيرة في شراينه. تركه ودخل إلى باب السرايا، ثم عاد، وقال له: الوجيه الصغير في انتظارك.

تعمـد «زاهـر» أن يترك «جعفر» جالسًـا في البهو، أطـول كثيرًا مما اعتاد. كان القلق يأكله، ولا يُسـري عنه سـوى أمله في أن يرى «عبلة» ولـو ثانية واحدة، أو يسـمع صوتها، حتى لو كانـت فقط تنادي إحدى الخادمات. ظهر «زاهر» على السـلالم متجهمًـا، يرمي خطوات ثقيلة إلى أسفل، ورآه «جعفر» فنهض، ينظر إليه في توجس.

جلـس «زاهر» في مواجهة «جعفر» دون أن يكلف نفسـه تحيته، أو يأذن له بالجلوس. ألقى إليه نظرات مسـتهينة، اقتحمته من قدميه حتى ناصيته، ثم سأله: ما أخبار الأرض؟

أجابه في جدية: كل شيء طيب.

فاجأه بسؤال آخر: أين المسؤول عن الحسابات؟

أبرز «جعفر» دفترًا في يده، وقال: هذا دفتره، وكل شيء مقيد فيه.

مـد «زاهر» ثلاثة أصابع من يديه يطلب الدفتر، فأعطاه «جعفر» له. وضع ساقًا على ساق، وفتحه ونظر في الأرقام المتتابعة، دون أن يفهم

منها شيئًا، لكنه تعمد أن يبين تشككه في الحسابات، فقال: واضح أنكم تغشون الوجيه.

احتقن وجه «جعفر»، وقال: حاشا لله، لا يمكن أن نخون مَن أحسن إلينا.

كان «زاهر» قد سمع فور عودته من المحروسة إلى «الجابرية» عن الثروة الضائعة، واعتبرها أكذوبة اختلقها هؤلاء المجاذيب ليرتقوا بأنفسهم وسط الفلاحين، ويقدموا أنفسهم إلى كبار القرية. نحى الدفتر جانبًا، وقال: يبدو أنك لم تتعلم كيف تخاطب مَن يُحسنون إليك.

شعر «جعفر» بإهانة شديدة، فقطع خطوات نحو الدفتر والتقطه، وقال: أشكرك يا بن الأصول.

كانت «عبلة» واقفة خلف الدرجة العلوية من السلم، تنصت إلى ما يدور، وتخشى أن يتهور «زاهر» كعادته، فيفعل مع ضيفهم ما يسيء. صدق حدسها، إذ انتفض أخوها واقفًا، والغضب يملأ عينيه، وصرخ: لا أنتظر منك شهادة يا خسيس.

احمرَّ وجه «جعفر»، إلا أنه كظم غيظه، وهمَّ أن ينصرف، فواصل «زاهر» صراخه: لا تمشِ إلا إذا أذنت لك. لكن «جعفر» أعطاه ظهره، وقطع خطوتين نحو الباب، فلحق به «زاهر»، وأمسك كتفه، وأداره نحوه، ثم رفع يده ليصفعه، فأمسك «جعفر» بها في قوة، ورفعها إلى أعلى، ثم دفعها إلى جانبه، وقال: لولا أنني في بيتكم لرأيت ما لا يرضيك.

كانت «عبلة» قد صارت بينهما، فطوقت صدر أخيها بذراعيها، وقالت: عيب عليك.

نظر إليها في غضب، وقال: أتنصرين هذا الحمار عليَّ.

أراد أن يزيحها جانبًا ليخلص إلى «جعفر»، لكن «حورية» كانت تهبط السلالم في سرعة، وتصرخ: إياك يا «زاهر».. ستكون قطيعة بيني وبينك.

قبل أن تصل إليهما، كان «جعفر» ينسحب نحو باب السرايا، ومرق من نصفه المفتوح، بينما الخفير يقف على مقربة منه، وقد سمع كل ما دار.

(8)

عاد «جعفر» إلى الزاوية موزعًا بين حنق وانكسار. حكى ما جرى للشيخ «صفي الدين»، وأعاده على سمعي «عمر» و«محمود» فقرر الشبان الثلاثة أن يمتنعوا عن العمل في أرض الوجيه. في اليوم التالي، سلموا الدفتر إلى الشيخ ليعيده إلى الهانم.

حاول الشيخ أن يثنيهم عن قرارهم، الذي فيه ظلم لآل بيت يتمسكون بهم، ما عدا شخصًا واحدًا، لا يرون لهم ما يفعله، لكن «جعفر» قال في حسم: إن رضينا بما فعله «زاهر» اليوم سيجلد ظهورنا غدًا.

ذهبوا للتو إلى بيت العمدة، وأبلغوه أنهم راغبون في الانضمام إلى فلاحيه، فرحب بهم على الفور. وأرسلت «حورية» خفير السرايا ليستدعي «جعفر» إليها، لكنه اعتذر له، وقال: أبلغ الهانم أن مكانتها في قلبي لن يهزها أبدًا طيش ابنها، لكنها لا ترضى لي الهوان.

راق الـرد «عبلة»، فزاد إعجابها بالفتى «جعفـر»، وأيقنت أكثر، أنه وحـده الذي يمكن أن يكون شـريك حياتها في قابـل الأيام، وليذهب «زاهر» بحمقه إلى الجحيم.

ولمـا وجد «زاهر» أمه ممعنة في الغضـب، حاول أن يهدئها فقال: سـأرعى الأرض بنفسي، وأكف عن السفر، ولعل هذه التضحية تكفي لذهاب غضبك.

نظرت إليه في استهانة، وقالت: لا أثق بك.

اقترب منها متوسلًا: امنحيني الفرصة وسترين.

(9)

لو أن رجلًا قاسـيًا يمسك عصا، ويضرب أناسًا يتوجعون، دون أن يفكر أحدهم في مقاومته، فمن المؤكد أن مَن يضرب سيُنهك بعد مدة. كذلك مَن يريد أن يسـيطر على الناس بالبطش والغشـم، لا يستطيع أن يُبقي رجاله وقدراته يقظة وقابضة على الأمور طوال الوقت. اللين في حزم هو أسـهل الطـرق التي يجب أن يسـلكها مَن يحتـاج إلى الناس ليساعدوه في رعاية ماله.

لـم يـدرك «زاهر» هذا، فلم يذهـب إلى الفلاحيـن أول يوم بالخبز والوعد، إنما بالسوط والوعيد. ركب فرسة بيضاء، طالما امتطاها أبوه في أيام صحته. رمح على الجسـر، يصرخ فيمَن يكدحون في الأرض، ويسبهم بألفاظ جارحة.

كان الشيخ «صفي الدين» قد أوصاهم بمواصلة العمل إلى أن يعود الشبان الثلاثة، فصبروا على سخف «زاهر» وغطرسته، أملًا في أن يأخذه سفر جديد، أو يدرك أن ما يفعله ليس هو ما ينفع. لكن الأيام مرت، ولم يتغير. تلكأ في دفع أجورهم، مؤجلًا إياها إلى موسم الحصاد. كان عليهم أن يصبروا حتى ينالوها حين يأتي موعدها.

شكوا إلى الشيخ فكان يواسيهم، ويقول: لا يجب أن نتخلى عن الوجيه الطيب وزوجته وابنته، حتى يقضي الله أمرًا. كأن الشيخ كان يقرأ الغيب، أو حدثته نفسه بأن هذا الوضع لن يطول، فإما يذهب عنهم «زاهر» حين يبيع حصاد زرعه، ويسافر إلى ملذاته، وإما تتمكن الهانم من إقناعه بأن يفسح الطريق للشبان الثلاثة من جديد. لكن الغيب لم يأتِ بهذا ولا ذاك، إنما بشيء لم يكن أبدًا في الحسبان.

(10)

استيقظ أهل «الجابرية» ذات يوم على جلبة عارمة، فتحوا نوافذ البيوت الخفيضة. أطلت النسوة من فوق السطوح، فوجدن أمامهن الرجال الذين غابوا منذ سنين، يتقدمون في الشوارع الضيقة نحو بيوتهم، ضامري الأجساد متعبين.

كانوا بعض أولئك الذين ربطهم الجند وأخذوهم إلى حفر القناة. بعضهم فقط، فكثيرون منهم ماتوا تحت أكوام التراب الهائلة. هناك مَن هرب فأكلته الصحراء، أو أُطلق عليه الرصاص فسقط مضرجًا في دمه. بعضهم عاد بساق واحدة، أو ذراع واحدة. بعضهم سملت إحدى

عينيه، أو صُمَّت أذنه. بعضهم سكنت جسده جروح مندملة وخدوش تركت فيه علامات ظاهرة. أما انكسار النفوس فكان أفدح.

كانوا قد عرفوا ما حدث لهم جيدًا، وحددوا مَن تسبب في يتم أطفال، وقطع أرزاق آخرين، وحرمان زوجات في الفُرش الخشنة من لذة مؤجلة، وحرمان أرض من أن تنبت حبها تحت كد سواعد مخلصة. كان الغيظ يأكلهم، والزمن الصعب قد علمهم أن لا أحد بوسعه أن ينتصر في صمته الطويل على الضيم.

في رحلة العودة بمركب من «القاهرة» إلى «الجابرية»، كانوا قد قرروا الانتقام ممن ظلمهم، وليكن ما يكون. لم ينسَ أي منهم المشهد الأخير لهم في القرية قبل أن يأخذهم الجند، بدأوا منه وفكروا طويلًا في كل ما جاء بعده، وهم يجلسون في ساعات راحة كانوا يلتقطون فيها أنفاسهم المبهورة بين كدح وكدح، وانتهى تفكيرهم إلى الإيمان الجازم بالانتقام.

اتفقوا على ما يريدون، وذات ليلة قفز خمسة منهم سور السرايا، من مكان بعيد عن عيني الخفير. احتموا بالأشجار وجذوع النخيل، حتى وصلوا إلى أول نافذة. انحنى أحدهم، فركب الرجال الأربعة ظهره تباعًا، وقفزوا إلى الداخل. كان أحدهم يعرف غرف السرايا جيدًا، فقد كان خادمًا فيها قبل أن يطرده «زاهر» ذات يوم لينضم إلى الفلاحين. قاد المتسللين إلى غرفة «زاهر»، وكان بابها مواربًا، وهو يستعد للنوم. دلفوا إليها سريعًا، فوجدهم أمامه. قبل أن يهب ليلتقط «الجربندية» المستقرة في الخزانة، أو حتى يصرخ، كانوا قد كتموا فمه بكوفية نزعها أحدهم من فوق كتفيه، ثم طرحوه أرضًا. مد أحدهم يده

إلى وسادة لينة، وكتم بها أنفاس «زاهر»،وراح يدوس في عنف، وبقية الرجال يثبتون ذراعي «زاهر» وساقيه المتين ترفرفان أملًا فى الإبقاء على حياة تذهب، لكنها ذهبت. تركوه جثة هامدة، وتراجعوا في حذر، حتى صاروا عند سور الحديقة، فقفزوا خارجه، وابتلعهم الظلام.

جاء ظهر اليوم التالي دون أن يظهر «زاهر» في البيت، وظنته أمه قد عاد إلى سابق عهده وأثقل في الشرب الليلة الفائتة، لكن «عبلة» قالت لها: رأيته يقظًا عند انتصاف الليل، ولم يجهز شرابًا، ربما أتعبه الذهاب إلى الغيطان على مدار الأسبوع، فتأخر في النوم.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على شفتي«حورية» وقالت: مسكين، لم يتعود على الكد.

أذن العصر ولم تُفتح غرفته، فأرسلت أمه خادمة لإيقاظه، فجاءت مسرعة وعلى وجهها صفرة، وقالت: ناديته كثيرًا فلم يستجب.

هرعوا إلى الغرفة. قلبوه يمنة ويسرة، فوجدوه خامدًا بلا حراك.

(11)

هرع أهل القرية إلى السرايا حين سمعوا صراخًا آتيًا من نوافذها. وقفوا عند السور يسألون، فقال لهم الخفير: سيدي «زاهر» مات.

أبلغوا العمدة فجاء مع شيخ الخفر وثلاثة من الخفراء. اختلى العمدة بالهانم في البهو، فقالت له: في الأمر شيء، فراشه مبعثر على غير العادة.

سألها إن كان شيء قد سُرق من خزانته فنفت، وقالت وهي تبكي: كان أمس في كامل عافيته.

جاء خفير السرايا يجري، ثم وقف يلهث وقال: هناك آثار أقدام في طين الحديقة، من السور وحتى النافذة الجانبية.

صمت العمدة برهة، وقال: لا بد من إبلاغ الثُّمن.

جاء ضابط وعشرة من عساكره. تابع آثار الأقدام، حتى النافذة، ثم وجد بعض الطين مطبوع على بلاط الردهة وغرفة «زاهر»، وبعضه يلطخ الملاءة البيضاء لسريره. نظر جيدًا إلى جثة «زاهر» فوجد وجهه قد مال إلى اللون الأزرق، وعلى رقبته خدوش أظافر حادة. أمسك بكفيه، فوجد في أحد أظافره دمًا متجلطًا، وشعرات بيضاء وسمراء. التفت إلى الهانم، وقال: من الواضح أنها جريمة قتل.

ردت «عبلة» في لهفة: لا أعتقد أن أحدًا في كل هذه القرية قد فعل هذا.

هز الضابط رأسه، وقال: هناك جرائم أغرب من الخيال، وعلينا أن نحقق ونرى. ثم التفت إلى العمدة، وقال: لا بد من إجراء تحقيق هنا، فربما نصل إلى شيء. وسأل الهانم وابنتها، إن كانت تساورهم شكوك في أحد، فنفتا تمامًا. طلب إحضار الخادمات وسألهن على انفراد، فأظهرت إجاباتهن له أنهن بريئات. ضيَّق عليهن الخناق، فقالت إحداهن إن خلافًا دب بين «زاهر» وشاب اسمه «جعفر» يتردد على السرايا من حين إلى آخر.

طلب الخفير، وحاصره بالأسئلة، فحدثه عن أنه أول مَن رأى آثار الأقدام الحافية في طين الحديقة، وسأله أين كان الليلة الفائتة، فأجابه أنه كان ينام خلف باب الحديقة كعادته. طلب منه أن يمد إليه كفيه، وأمعن النظر في أظافره فلم يجد عليها آثار شيء. ملأ الضابط عينيه من الخفير جيدًا، فارتبك الرجل، ثم باغته بالسؤال: هل للقتيل أعداء أو خصوم في القرية؟

أجاب الخفير: لا، لم تكن له بين أهل القرية صحبة، ولم يختلط بالفلاحين إلا في الأيام الأخيرة.

صمت الضابط برهة، ثم سأل: ألم ترَ أو تسمع عن خلاف بينه وبين أحد.

تنحنح الخفير، وابتلع ريقه، وقال: مشاجرة بسيطة مع شاب اسمه «جعفر»، لكن..

قاطعه الضابط، والتفت إلى العمدة، وسأله: مَن «جعفر» هذا؟

أجاب العمدة: شاب طيب سكن قريتنا في السنة الأخيرة مع أهله، لكن لا أعتقد أن مثله يقتل.

تدخلت الهانم: هو واثنان من أهله يرعون أرضنا، ولم نرَ منهم سوءًا أبدًا.

طلب الضابط من الخفير أن يحكي له ما سمعه من هذا الشجار، فأخبره بكل ما يتذكره، وتدخلت «عبلة» وقلبها يرتجف: كنت موجودة، وتدخلت بينهما، ولا أعتقد أن ما جرى يمكن أن يؤدي إلى قتل.

التفت الضابط إلى العمدة، وقال له: سأنتقل إلى دارك، وأرسل خفرك لاستدعاء «جعفر».

كان «جعفر» قد وصله خبر موت «زاهر» فأسف له، وكان يعتقد أنه ربما سكت قلبه من فرط الشراب، أو أنه مجرد واحد من الذين يرحلون في شبابهم، لكنه وجد نفسه، وهو في الحقل، محاطًا بالخفر، وأحدهم يقول له: أنت مطلوب في دار العمدة.

سكنته هواجس وهو يسير معهم، سرعان ما كان يطردها على قدر إيمانه ببراءته. اعتقد أن الأمر لن يتعدى توجيه بعض الأسئلة له، ثم يعود إلى الحقل، لكنه فوجئ بالضابط يوجه له تهمة قتل «زاهر»، ثم يأمر العساكر بالقبض عليه.

أراد العمدة أن يدفع الضابط في اتجاه بعيد عن «جعفر»، فأشار إلى قدمي الشاب، وقال: الأقدام التي تركت آثارها على الطين، لم تكن لشخص واحد، وكانوا حفاة، أما هذا الشاب فلم يرَه الناس يمضي في الشوارع إلا وهو يلبس نعلًا، حتى عند الوضوء لا يفارق القبقاب قدميه.

رفت ابتسامة خافتة على شفتي الضابط، وقال: ربما خطط للجريمة، ودفع لمَن ارتكبها.

ربطوا «جعفر» من يديه في سرج حصان الضابط، ومضى به، والعسكر يتبعونه جريًا على الأقدام.

(12)

نـزل الخبر على «عبلـة» كالصاعقـة، أضناها فقـدان «جعفر» أكثر مما أوجعها موت أخيها. ارتسمت في عين الوجيه الدهشة، فتضاعف حزنـه. كان يُعوِّل على الزمن ليعلم ابنه كيـف يكون مخلصًا للأرض، لكـن ها هـو فقد ابنه الذي أتى من صلبه، وابنـه الذي ظن أن الزمن قد أهـداه له. كانت «حورية» قد فاتحته فيما شـعرت به بيـن ابنتها والفتى الذي سـيق إلى السجن، فبدا في عينيه اطمئنان وغبطة. ضاع كل شيء في لحظة، وبدا غاية في القلق على مصير زوجته وابنته.

ارتـاح الفلاحـون الذيـن جـاء بهـم الشـيخ «صفي الديـن» لموت زاهـر، وانضم إليهم العائدون مـن حفر القناة، بمَن فيهم القتلة، وكانوا حريصين على أن يظل السر مدفونًا في صدورهم، وألا يحدثوا به أحدًا حتى زوجاتهم اللاتي انتظرن سنوات عودتهم من بعيد.

زار الشـيخ «صفـي الدين» سـرايا الوجيه، وقدم لـه واجب العزاء، ثـم حدثه في أمـر عودة «عمر» و«محمود» إلى العمـل في أرضه، فبان الرضـاء في عينيه. أرسـلت «حوريـة» الخفير ليسـتأذن العمدة فوافق. واصل الشابان عملهما، وكلهما أمل في أن تظهر براءة «جعفر» فيلحق بهما، فيتصل ما انقطع ذات يوم عصيب.

فتـح الشـابان آذانهمـا، يلتقطـان أي أخبـار ترشـح من أفـواه أهل القرية، لعل واحدًا منها يقود إلى تبرئة المظلوم، لكن الأيام مرت دون أن تنضـح الصدور بشـيء. وطلـب الثُّمن العمدة فذهب راكبًا فرسـه. عرف أن «جعفر» يصر على الإنكار، وكان الضابط قد سأله عن وجود

شـهود، فوعده بأن يسـعى في التقاط الأخبار لعله يلقى شـهودًا. وفور عودته طلب من الخفر أن يحدثوا الناس عما إن كان أحدهم قد سـمع أو رأى شيئًا يدل على مرتكب الجريمة.

وسـمع القتلة الخمسـة هذا، فتنـادوا للقاء ذات ليلة تحت شـجرة الكافور. قال أحدهم: ستظل الجريمة تطاردنا طالما أن الشكوك تحيط بالشاب الذي قُبض عليه. وفكروا فيما ينبغي عليهم فعله، فاتفقوا على أن يذهـب اثنـان منهما إلـى العمدة ويبلغانـه أنهما قد سـمعا «جعفر» يتوعـد «زاهـر» بعـد أن خرج مكسـور الخاطر مـن السـرايا. أخذهما العمدة إلى الضابط، فقصا على مسـامعه حكاية كان القتلة قد حبكوها جيـدًا، ثم أعاداها أمام المحكمة، فقضت بسـجن «جعفر» مؤبدًا، بعد اتهامه بكراء رجال من الفلاتية أو اللصوص لتنفيذ الجريمة.

(13)

سيق «جعفر» إلى السجن. ألقوه بين القتلة واللصوص والعاجزين عـن دفـع ما عليهـم من ضرائـب. جلس أيامًـا صامتًا، يصبـر على كل محـاولات دفعـه إلـى الكلام، ويـرد بهدوء المتحرشـين به في سـبيل إخضاعـه لسـطوة قدامى السـجناء، إلـى أن فاض به الكيـل ذات ليلة، فأوسع أقواهم ضربًا، ليصبح مسموع الكلمة بين السجناء أجمعين.

لـم يفعل كسـابقه، بـل اسـتعمل قوته وحكمتـه لصالح السـجناء. سـردوا عليه حكاياتهم الأليمة. بعضهم كان مظلومًا مثله. منهم الذين ارتكبـوا جرائمهـم تحـت ضغـط الحاجـة الشـديدة، أو بفعل سـورة الغضب العارم. عدَّ «جعفر» كل الحكايات تسـرية وتسلية، إلا حكاية

واحدة توقف عندها طويلًا، وكان معنيًّا بسؤال صاحبها عن التفاصيل الصغيرة، وكأنه يتحسس موضع أقدامه في الأيام المقبلة.

كان الرجل من الفلاتية، سرق وقتل، وهرب إلى الجبل، ومكث فيه سنين طويلة، وهو يحسب أن المقام سيطول به على حاله، إلى أن ضُبط ذات يوم وهو يسرق جاموسة سمينة من حظيرة فلاح في قرية بعيدة. كاد أن يعبر بسريقته النيل، لكن أحد خفراء الزراعات رآه، وصرخ وهو يجري نحوه، فاستيقظ النائمون ولحقوا به، وأمسكوه. أوسعوه ضربًا، ثم ساقوه إلى العمدة، فحبسه في بيت العدة والكرباج، ومنه أخذوه إلى الثُّمن مقيد اليدين.

كان الرجل يضحك، ويقول: الطمع هو الفخ الذي لا يمكن النجاة منه. ثم يبدي ندمًا على ما أقدم عليه، ويقول: أردت الهروب بسريقتي، وكنت مطمئنًّا إلى أنني سأصرع الخفير بضربة من خنجري حين يصل إليَّ، لكن ضربة من عصاه الغليظة أسقطت خنجري، ولحق بي مَن استيقظوا.

كان «جعفر» يستعيد بحكايات هذا الرجل ما سكبه أبوه في أذنه وهو صغير عن جده «مهدي» الذي أقام مملكة كاملة من الفلاتية، لم يُسقطها الطمع إنما سوء الحظ. استعاد أيضًا كل ما يعرفه عن الجبل الذي جاد على أبيه «منصور» بثروة طائلة، ضيَّعها هو في ساعة من الغفلة.

لكن كل هذه الحكايات تضيع من ذهن «جعفر» حين تباغته حكاية أخرى أليمة. كان أكثر ما يضنيه هو أن تؤمن «عبلة» بأنه قاتل أخيها. رأى وجهها على جدران العنبر يعاتبه. زارته في أحلامه فهب في ليالٍ

كثيـرة مفزوعًـا، يـداري دموعـه. غافل الرجـال وانفرد بنفسـه يحدث محبوبته، ويؤكد لها براءته، وهو موقن أنها تسمعه.

لـم يكن السـجن يتعبه أكثر من الشـوق، إلى الحبيبـة وأهله، وإلى الأرض التـي أخلـص لهـا، وإلـى العهـد الـذي يسـري فـي أوصـال «الصوابر» منذ زمن بعيد. كان هذا الشـعور يضغط عليه بشـدة، وكلما تذكر السنوات الطويلة التي عليه أن يقضيها بين جدران السجن، انتابته حالة من جنون، آمن بأنها هي التي ستقضي عليه وليس تقييد حريته.

تملكته رغبة في الهرب. كان قد سـمع من الرجال حكايات الذين حاولـوا الهرب مـن قبل، بعضهم صـاده رصاص الحـرس، وبعضهم أمسـكوا به كدجاجة دائخة، بعد هرولة مضنية. هناك مَن أفلت ليواجه عبء المطاردة المسكونة بالخوف والقلق.

لم يكن يشغله ما بعد هربه، فالمهم أن يصل إلى «عبلة» ويؤكد لها براءته، وبعدها يفر إلى دنيا الله الواسـعة، أو حتى يعود ويسـلم نفسـه لسـجانيه عن طيب خاطـر، ليقتل هـذا الجنون، الذي ينشـب أظافره، ويطلق جمره، في رأسه وقلبه، كلما ساحت ظنونه دون أن يكون قادرًا على جمع نثارها المبعثر في المسافة بين سجنه وسرايا الوجيه.

أحكم خطته على مهل. لم يخبر بها أحدًا، حتى جاءت ليلة ونفذها في مهارة فائقة، أسـعفته ليجد نفسـه خارج السـجن. جـرى على قدر اسـتطاعته، وأقدامـه تـدوس ظنونه وجنونـه، وتفتح لـه الطريق إلى ما أراد، وليكن بعدها ما يكون.

(14)

رغم أن «جعفر» كان يعرف أن أول مكان سيُبحث فيه عنه هو «الجابرية» غامر وذهب إليها. وكيف لا يفعل هذا وهي التي فيها الذين فكر في الهرب من أجلهم؟ حسبه أن بين اكتشاف هروبه والبحث عنه ساعات يمكنه أن يحقق خلالها ما يريد.

كان بيت «نبوية» في وسط القرية، فلا سبيل للذهاب إليه إلا بعد انتصاف الليل، فقصد الزاوية. وجد الشيخ مع «عمر» و«محمود»، عانقوه طويلًا، دون أن يسألوه للوهلة الأولى عن شيء، لكنه أبلغهم على الفور أنه قد هرب. لم يكن في حاجة إلى أن يثبت لهم براءته، فقد كان بصحبتهم ليلة مقتل «زاهر» لكن شهادتهما عدتها المحكمة مجروحة.

طلب منهم أن يأخذوه إلى النساء المنتظرات في وجع. انتظروا حتى انتصاف الليل، وذهب «عمر» أولًا ليستطلع الطريق، فوجد كل أهل القرية نيامًا. أيقظ النساء لانتظار القادم إليهن. جلسن على قلق وشوق، حتى وجدوه بينهن. عناق وبكاء ودعاء، واطمأن هو على أن حالهن يجري في ستر بعد أن عاد الشابان إلى أرض الوجيه، ومدت إليهن «رسمية» يد المساعدة.

قال لهن، وهن يستمهلنه للبقاء قليلًا: لا بد أن أمشي الآن. فسألنه عن المكان الذي سيقصده، فقال: لا أعرف، لكن سأبحث عن فرص وآتي للاطمئنان عليكم. وأمده «عمر» و«محمود» بكل ما لديهما من مال قليل، ليعينه في رحلته الآتية.

لم يخرج من الشارع قاصدًا الزراعات التي يلفها الظلام، إنما أخذته قدماه إلى السرايا. دخلها هذه المرة من المكان الذي تسلل منه قاتلو «زاهر». شب فوق السور، وصار في الحديقة، يستره الظلام والجذوع والفروع المتدلية على الأرض، حتى وصل إلى تحت النافذة الجانبية للغرفة التي تبيت فيها «عبلة». كانت مغلقة، فوقف حائرًا، ثم لمح شرفة مجاورة، ينيخ عليها جذع نخلة عالية. صعد وهو يكتم أنفاسه، حتى قفز عليها. كان بابها مواربًا، فدلف منه إلى الردهة. وصل إلى باب غرفة «عبلة»، وطرقه خفيفًا حتى لا يفزعها، إن دخل عليها وهي نائمة. تأخر فتح الباب، فهمَّ أن يفتحه، لكن يدًا من الداخل فتحته، وامتلأت عيناه بوجه «عبلة» التي كانت ساهرة في هذه اللحظة تفكر فيه.

تضاربت مشاعرها بين اضطراب وحيرة وفرح، لكن المفاجأة ألجمت لسانها، فهمس لها: هربت لأقول لكِ كلمة واحدة. أفسحت له الطريق، فدخل، وأغلقت هي باب الغرفة. نظر إليها طويلًا، وقال: أموت لو ظننتِ بي سوءًا.

هزت رأسها، وقالت: أومن بأنك بريء.

قال وهو يغالب دموعه: لا يشغلني إيمان أحد في هذا العالم ببراءتي إلا أنت.

نظرت إليه في إشفاق، وقالت: لم يخب ظني فيك أبدًا.

سحَّت دموعها سخيَّة، فمد أصابعه إلى خدها، ومسح الدموع على مهل. تلاقت أربع عيون في سرعة، وتزاورت أسرع، لكنها لم تلبث أن

عادت يحدق كل منهما في الآخر. قالت العيون كل شيء، لكنه أطلق الكلمة التي ظل يحلم بالإفراج عنها في سجنه، فسحبها من أعماقه الدفينة، وقال لها: أحبك.

ارتبكت في فرح، وحاولت أن تستدير بعيدًا عن عينيه، وفمه الذي كان رفيف الكلمة المختزنة لا يزال قائمًا عليه، لكنه أمسك كتفيها في لطف، وقال: أريد أن أسمع منك. وبعدها سأذهب حتى إلى الموت راضيًا.

قالت وهي ترتجف. أبعد الله عنك كل شر. لم تقل الكلمة، لكنها لانت بين يديه، حتى وجدت نفسها تلقي رأسها على كتفه. طوقها بذراعيه وهو يجهش بالبكاء، وقال: لم أعد أريد شيئًا آخر في هذه الدنيا. فسكبت على ظهره كلمات أسعدته وأوجعته، إذ قالت: لا يزال ينتظرنا الكثير، ولم يُخيِّب الله رجائي.

خلصها بلطف عن كتفه، ليجد جبينها الوضاح ماثلًا له، فلثمه في قبلة خاطفة. ارتجفت لكن شعورًا بالامتنان اجتاحها. كانت بقايا الدمع لا تزال على خديها، فمد هذه المرة لسانه ورشفها، ثم هبط إلى شفتيها والتقمها، وهي تحضنه بقوة، على قدر شوقها، والحرقة التي كانت تضنيها حين تستيقظ في الصباح على أحلام هانئة يلتحمان فيها، حتى الرعشة الأخيرة.

نظرت إلى النافذة، وقالت: أخشى أن تشعر بك إحدى الخادمات.

قطع خطوات نحو النافذة، ثم توقف، وقال: أخاف أن أظلمكِ إن طلبت منكِ انتظاري.

قطعت الخطوات إليه، وارتمت في حضنه من جديد، وقالت: لن أكون لأحد غيرك.

نظر إليها مليًّا ليرى في عينيها أثر ما نطقت به، فقالت: أعدك.

زال عنه الكدر فجأة، وهز جسده كأنه يريد أن يرقص، فابتسمت، وقالت: يسكنني أمل كبير في أن براءتك ستظهر عما قريب. ثم سألته: إلى أين تذهب؟ رد وهو يمد يده إلى النافذة ليفتحها: لا أعرف الآن، لكن ما أعرفه أنني سأراكِ قريبًا.

ثم قفز إلى الحديقة في خفة، وابتلعه الظلام

(15)

لم تنم «عبلة» من فرط الفرح. تقلبت كثيرا في مخدعها تستعيد ما سمعته من «جعفر» مرات ومرات. تمد يدها إلى جبينها الذي لثمه، وخديها اللذين ارتشف من فوقهما الدموع، ثم تحط أصابعها على شفتيها فترتعش. لم تكن تفكر في أحزان تنتظرها حين تأتي أيام الفراق والانتظار، لكن أحزانًا أخرى اجتاحتها عند ظهر اليوم التالي، حين صرخت «حورية» من أعماقها: مات الوجيه.

حاولت التخفيف عن أمها، فقالت لها: ارتاح ٥ ألم العجز والانكسار.

ردت وهي تتنهد في حرقة: الرجل حماية ولو كان عظم في قُفة.

وكأن «حورية» لم تطق العيش بعد رحيل زوجها، فلحق به بعد أيام. وكان على «عبلة» أن تدبر حالها، وتجيب عن السر الكبير

الـذي أطلقته ألسـنة الناس في القرية: كيف لفتـاة أن تحافظ على إرث «الجوابر»؟

(16)

كان الفلاتي السـجين قد رسـم لـ «جعفر» معالم طريقه في الجبل. حكى الرجل في سـخاء، ولم يكن يدري أن مَن يسـمعه يسـتبين مكانه المقبـل بين الهاربيـن. أعطاه أول الخيـط، حين قال لـه: أي من البدو سيكون دليلك إلى الفلاتية.

لـم يكن هـذا بغريـب عليه مـن الحكايات التـي قصها عليـه أبوه، فسأله: أي بدوي يعرف الطريق؟

ابتسـم، وقال لـه: نحن نعيش في الجبال برضاهم، هم مسـتفيدون منـا، وكثير مـن إبلهم وأحصنتهم سـرقناها وبعناها لهـم بثمن قليل أو أهديناها لهم.

خـرج «جعفر» من «الجابرية» قبيـل الفجر. وصل إلى النيل، حيث كان يعـرف مـكان قوارب الصيـد الرابضة، التي يربطهـا أصحابها إلى أوتـاد أو فـي جـذوع شـجر يلثمهـا المـاء. كان الصيـادون ينامون في عشـة بعد يوم عمل شـاق، وسـهرة راقت لهم في نسـيم الصيف. فك قيد قـارب، وأطلقه على مهل، وراح يجدف فـي خفة، حتى ابتعد عن الشاطئ قليلًا. زاد من تجديفه بهمة شديدة حتى بلغ الشاطئ الآخر.

ربط القارب في شجرة ليجده الصيادون نهارًا، وقطع الشريط الضيق المزروع بالذرة حتى صار في أول الجبل. ألقى نظرة يمنة ويسـرة، دون

أن يهتدي إلى مدق يأخذه إلى حيث يريد. كانت المسافة بينه وبين مغارة الفلاتية بعيدة، وعليه أن يجد مَن ينقله إليها مقابل بعض المال. لم يرَ أحدًا في هذا الصباح الباكر، فسار إلى صخرة عالية، وجلس تحتها، يرسل ناظريه إلى الصحراء المفتوحة، حتى رأى حين أشرقت الشمس قطيع ماعز يجري بعيدًا، وخلفه بدوي يمتطي جملًا. مشى نحوه، وأشار إليه، فلما بلغه، قال للرجل: أريد الذهاب إلى المعلم «فتيحة الجاسر».

نظر إليه البدوي طويلًا، ثم سأله: في أي شيء تقصده؟

أجاب على الفور: أحمل إليه رسالة عاجلة.

وجد البدوي مترددًا، فمد يده إلى جيبه، وأخرج ما قبضت عليه أصابعه من قطع النقود، فلما بانت في كفه، سرت سعادة في ملامح البدوي، وقال له: الطريق إلى المعلم طويل، وتحتاج إلى جمل أو حصان، وزاد وماء.

ابتسم «جعفر»، ووضع يده في جيبه دون أن يخرج شيئًا، وقال: دبر الأمر ولك مثل ما أعطيتك.

ساق البدوي ماعزه، وأمسك برسن الجمل، وسار إلى جانب «جعفر»، وقال: سآخذك إلى مَن يصحبك إلى هناك.

ظلا سائرين إلى أن بلغا أكواخًا متجاورة، فأوقفه البدوي، وترك الماعز ترعى إلى جانبه أحراشًا متناثرة. دخل إلى أحد الأكواخ، ثم عاد ومعه شاب أسمر تطل من عينيه نباهة ظاهرة، فنظر إلى «جعفر»، وقال له: اتبعني.

دخل به إلى حظيرة كانت بها جِمال وحمير، وقال له: اختر ما تركب. ثم فتشه ليطمئن إلى أنه مجرد من أي سلاح. ركبا جملين، تتدلى منهما قِربتين من الماء وصُرتين من الزاد. انطلقا حتى بلغا مغارة الفلاتية عند العصر.

ما إن رأى «جعفر» المعلم «فتيحة» حتى قال له: جئتك برسالة من أحد رجالك في السجن.

كان السجين من أعز رجاله. واقتطف «جعفر» بعضًا من التفاصيل التي كان قد سمعها من السجين فاطمأن المعلم له، ولان كثيرًا حين قال له «جعفر»: حكى لي رجلك عن شهامتك وكرمك يا معلم. ومد يده إلى جيبه، وأخرج كل ما فيه من نقود، وأعطاها للمعلم، فنادى الرجال وعرفهم على الوارد جديدًا إليهم، وقال: ضيفي إلى أن يختار الانضمام إلينا.

كان «جعفر» قد حدثه عن أنه يبحث عن مكان آمن للاختباء بعض الوقت، إلى أن يدبر أمره، بعد أن يطمئن إلى أن ضابط الثُّمن لم يعد يسعى خلفه. قرأ معه الفاتحة على أن يظل مخلصًا للفلاتية، لا يعصي لهم أمرًا ما دام بينهم، ولا يذيع لهم سرًّا حين يفارقهم، ولا يتأخر عن أن يُقدِّم لهم يد المساعدة إن احتاجوا إليها في أي يوم من الأيام.

(17)

ارتدت «عبلة» ملابس الرجال. ركبت الفرس الذي كان لأبيها، وخرجت ذات ضحى إلى الجسر، لترى الفلاحين وهم يكدحون في أرضها. توقفت تحت ظل شجرة كافور، ورفعت يدها تشير إلى

«عمـر»، وكان يحدث الفلاحين في شـيء لم تسـمعه، انتبه إليها، ومد بصره ليتبين مَن يستدعيه، لكنه لم يعرفه.

مشـى إلى حيث هي، فلمَّـا اقترب منها، قال في دهشـة: لا أصدق ما أراه.

ابتسمت، وقالت: زهقت من قعدة البيت.

رمى عينيه عند قدميه، وقال في حياء: يعز علينا تعبك.

قالت في ثقة: وددت لو فعلت هذا منذ أن عجز أبي، لكنه كان يرفض.

ووجدهـا «عمـر» تتردد كثيـرًا على الحقـول، فأمـر الفلاحين ببناء تعريشـة لها، وطلب من الحُصريَّة أن يجهزوا حصيرًا تملأها، ثم فرش فوقها سـجادة، أرسلتها إليه من السـرايا، ومعها ثلاثة كراسي، لتجلس إليه ومعه «محمود» تراجع الحسـابات، وتطلـع على ما تريده الأرض من سباخ وبذور، وما يحتاجه الفلاحون من شواديف وطنابير وفؤوس ومناجل وسماد بلدي، وتنصت إلى شكواهم.

وجدت في الشـابين أمانة وتفانيًا، فأطلقت يدهما في اتخاذ القرار، وكان المـردود دومًا طيبًـا. كان كلاهما يعرف ما بينهـا وبين «جعفر»، فأخلصـا فـي خدمتها، ولـم تكن هـي تبخل عليهمـا بجزيـل العطاء، فاستردت أسرتا «الصوابر» و«آل بخيت» الكثير من عيشها المستور.

كان «محمـود» فرحًا لأن قلب «عبلة» قد دق ورق لقلب «جعفر»، ويـرى أن هـذا من المعجـزات التي أخفاهـا القدر من أجـل أن تقرب «الصوابر» من استرداد مجدهم الضائع عبر أقرب الطرق وأسلمها. أما

«عمـر» فكان متقلبًا بين هـذه المعجزات التي طالما انتظر أهله مجيئها بفضل بركة الراحلين، وبين مشاعره التي تحركت، دون إرادة منه، حيال «عبلة»، لكنه لم يدع هواه يغلبه. كبت أحاسيسـه، بل قتلها. حوَّلها إلى غبطة عارمة، وهو يقول لنفسه كلما وجد قلبه يريد أن ينبض: اختارت «عبلـة» أفضـل مَن فينا، وهذا دليل على أنهـا جديرة بالمحبة، وهو من إعجابي بها، وليس أمامي سوى أن أتمنى لها كل الخير.

فاتحت النسـاء «عمر» و«محمود» في أمـر زواجهما، بعد أن صارا يملآن عيون الناس فـي «الجابرية»، فاختار كل منهما واحدة من بنات العمدة، وذللت «رسـمية» بسطوة دلالها الطريق لهما، فرضي العمدة، ورحبت زوجته التي كان قد وصلها أن الشابين صارا محل ثقة «عبلة» وآلت إليهما إدارة أرضها الوسيعة.

بنى «عمر» و«محمود» بيتين لهما عند طرف القرية على قطعة أرض أهدتها لهما «عبلة» عن طيب خاطر. جاءا بالنجارين من أولاد «غطاس» فأعدوا لكل بيت ما يلزمه من أثاث. ابتاعوا من دكان اليهودي «أدرعي» الأواني. حين اطمأنا إلى أن البيتين صارا صالحَين للسكن، عقد مأذون القريـة قران «عمر» على «هنيَّة»، و«محمود» على «رضيَّة»، وزفا إليهما في ليلة صدح فيها القوَّالون على الرباب، وغنى المنشـدون في حضرة ذِكـر، بعـد أن ذُبحت العجول والخراف من حظيـرة «عبلة»، فأكل أهل القرية، وعاشوا ليلة سعيدة، لم يشهدوا مثلها منذ وقت طويل.

لـم يمر سـوى عام حتـى رزق «عمر» بولد أسـماه «رافـع»، ورزق «محمـود» ببنت أسـماها «بديعة»، فعـاد بيتا «الصوابـر» و«آل بخيت» يدب في رحابهما وارد جديد.

لكن عام الفرح أبى أن ينتهي إلا ويطلق حزنًا في عروق الأسرتين، إذ ماتت «رقية» وتبعتها «ناعسة»، ودفنتا في قبرين على مقربة من قبر «رضوان». وما إن بدأ العام الجديد حتى مات «صفي الدين»، وحُفر له قبر إلى جوار الزاوية، ونُصب عليه شاهد، واكتسى بضريح راح الناس يقصدونه للبركة في الأيام اللاحقة.

(18)

سارت حياة العمدة «مرتجي الجابر» مع زوجته «رسمية» على أفضل وجه. اطمأن إليها، ونقل خزينة أمواله من بيت زوجته الأولى إلى بيتها. كانت غاية في الأمانة على ماله. تعرف أن أغلبه سيذهب إلى ابنها «رشدان».

لكن حياة الأزواج لا تمضي دومًا دون منغصات، قد تثيرها مشكلات صغيرة تنشب بين حين وآخر. إحداها تطورت ذات ليلة وهما في غرفة النوم. بلغ غضب العمدة مداه، فصفعها على وجهها، وقال لها: أنتِ بلا أصل، وجعلت منكِ هانمًا يوقرها الناس.

صرخت في وجهه: أنا هانم قبل أن أعرفك.

نظر إليها ساخرًا، وهي لا تزال تضع كفها على موضع الصفعة، وترتجف غاضبة، وقال: عشنا وشُفنا الهانم التي جئت بها من بيت «نبوية».

صرخت مجددًا، وقالت له: كلنا أولاد تسعة.

عاد إلى سخريته، قائلًا: ليست كل البطون واحدة.

نظرت إليه في تحدٍّ، وقالت: البطن الذي حملني أفضل من البطن الذي حملك.

زاد غضبه، وهمَّ أن يصفعها مرة أخرى، لكنها جرت من أمامه، وهي تقول: العين لا تعلو على الحاجب، وأهلي كانوا فوق أهلك زمنًا طويلًا.

ألجمته عبارتها، فتمتم بما لم تسمعه، ثم نظر إليها، وهو يستعيد حكاية ثروة أهلها الضائعة، ثم قال: لا يوجد في الزمام كله مَن هم أفضل من «الجوابر».

ضحكت هازئة، وقالت: يبدو أن أباك لم يحكِ لك عن أصل هذه القرية، أو أنه لم يسمع من جدك ما يحكيه لك.

غمغم في غضب، وقال: مَن أنتِ حتى يأتي ذكر أجدادي على لسانك؟

واصلت تحديها: أجدادك خضعوا لأجدادي، لكن الدنيا دوّارة.

عاد للسخرية: من الترك أنت؟ أم من الأسرة العلوية وأنا لا أدري؟

كشفت ما خبأته وأهلها سنين، وقالت: أنا من «الصوابر» على سِن ورُمح.

قهقه غير مصدق: أي «صوابر»، لقد كان من بينهم معدمون وفلاتية ومجاذيب؟

أجابته: جدي الكبير «رضوان الصابر» هو مَن زرع أول قيراط في هذه الأرض، وبنى فيها أول دار، وجدك الكبير كان يتمنى رضاه وينافقه.

جلس العمدة مكانه غير مصدق. تاه في شرود طويل. راح ينظر إليها، بعد أن جلست أمام تسريحتها، تمشط شعرها في عصبية، موزعة بين ندم على كشف سر أهلها الذي خبأوه طويلًا وبين ارتياح بعد أن عرف العمدة مَن هي المرأة التي تعطيه جسدها كلما أراد، ويظن أنه قد أنعم عليها بالزواج منها.

تركها وخرج إلى صالة البيت، يُقلِّب ما سمعه في رأسه، وآثار الغضب تتسرب من نفسه رويدًا رويدًا، فلمَّا هدأ تمامًا دخل إليها، وقال: تخون المرأة زوجها إن خبأت عنه سرها.

التفتت إليه، وقالت: لم تسألني من قبل لأجيبك.

جلس على طرف السرير، وقال: ها أنا أسألك.

لاذت بدلالها الأخاذ، الذي تعرف أنه السهم الذي يمرق دائمًا إلى صميم قلبه، فلا يستطيع منه مهربًا، وسألته: ألا يُشرِّفك أن يكون «الصوابر» أخوال ابنك؟

هز رأسه، وأجابها: يُشرِّفني.

سألته: هل إن حكيت لك تصون سري؟

وفي محاولة منه أن يستدرجها لتحكي له كل شيء، قال لها: بيننا ابن تمنيته من الله طويلًا، وأنت وابنك عندي أغلى من أي أحد، ولا تنسي أن ما يضرك يضرني قبلك.

قامت إلى السرير، وجلست إلى جواره، وأزاحت عن رأسه العمامة، ثم أخذته إلى صدرها، وسردت على سمعه حكايتها كاملة، وهو شارد يتعجب من تصاريف الدنيا، التي تأخذ وتعيد، وتدفع الماضي في قلب الحاضر، دون سابق ترتيب.

أدركت أنه قد لان في يديها، فنزعت عنه ملابسه، قطعة قطعة، وهو مستسلمٌ لها كعادته، منتظر عبثها به كيفما شاءت، حتى يصل إلى الشهقة الحارقة، ثم يرتمي في سبات عميق. لكن العمدة ظل مفتوح العينين، يحاول أن يطرد عن نفسه الوساوس والهلاوس التي سكنته، ثم قال لنفسه بصوت خفيض، لم تسمعه هي بعد أن غرقت في نوم عميق: لن يغفر لنا أهلنا أننا ضيعنا مجد العائلة في فرشة امرأة.

كعادته، بحث في كل هذا عما يفيده، الآن قبل الغد. برقت في رأسه فكرة اغتبط لها، وقال: قد تكون فرصتي الوحيدة لتصبح أرض «عبلة» في يدي، ولابني من بعدي، وهو عندي أهم مَن في هذه الدنيا.

(19)

انتظر العمدة حتى الضُّحى، ثم سار إلى سرايا الوجيه. أجلسته الخادمة في البهو انتظارًا لمجيء «عبلة»، التي كانت قد فرغت من إفطارها، واستعدت للذهاب إلى التعريشة لتباشر العمل في الأرض. نزلت إليه مرحبة، وطلبت من الخادمة أن تعد له القرفة التي كانت تعرف أنه يفضلها. راح ينظر إليها في حيرة، لا يعرف من أين يبدأ الكلام.

أدركت قلقه، فقالت له: يبدو أن معك خبرًا سيئًا، يثقل لسانك.

نظر إليها، وقال: ربينا الثعابين في جحورنا.

ملأها توجس، وسألته: أي ثعابين؟

تنحنح، وبلع ريقه، وسألها: هل تعرفين شيئًا عن الرجلين اللذين تسلما مراعاة العمل في أرضك؟

ابتسمت، وقالت: أعرف ما يعرفه كل الناس.

سحب رشفتين من كوب القرفة، وواصل: عرفت الليلة الفائتة ما لم يخطر لي على بال.

ثم حكى لها ما أبلغته به زوجته، وهي صامتة لا يبدو في عينيها أي عجب. فلما فرغ من كلامه، قالت له: صرت صهرهم، هم أخوال ابنك، وآباء أحفادك.

طوح يده في الهواء، وقال بحروف غاضبة: ورطة، لا أريد لكِ مثلها.

سألته على الفور: أي ورطة؟

بلع ريقه، وقال: ربما يدبر زوجا ابنتيَّ ما يسلب منك أرضك، فيضيع على يدك ويدي كل ما كان لـ «الجوابر» في هذا المكان.

وسايرته لتعرف ما يفكر فيه، فسألته: إن كانت هذه مشكلة، فما حلها لديك؟

صمت برهة، واستجمع زمام أمره، وقال: لا أدعوك إلى طردهما، لكن أنبهك إلى ما قد يقع في قادم الأيام.

ابتسمت، وقالت: لم أرَ من «عمر» و«محمود» إلا الأمانة والإخلاص.

هز رأسه، وقال: مع هذا لا بد من الحذر.

قالت وعيناها ذاهبتان إلى شاربه الكث المتدلي على شفتيه: أحيانًا تكون البنت بمائة رجل.

تنحنح، وقال: أعرف أنك واعية إلى مصلحتك جيدًا، لكن قد تحتاجين إلى أحد من أهلك يساعدك في أن تظلي قابضة على زمام الأمر.

سألته، وكانت قد أدركت ما يرمي إليه: مَن يا ترى هذا الذي تفكر فيه؟

أجابها على الفور: اجعلي أمر الشابين تحت عينيَّ، حتى لا نُفاجأ بما لا تُحمد عقباه.

ضحكت، وقالت: يا عمدة، لا أعتقد أن لديك وقتًا لأحد، فأنت مشغول بمتاعب العمدية وأرضك وزوجتيك.

وصمت، فواصلت: اطمئن، أنا أقدر خوفك على مجد عائلتنا، لكن أنا معنية بهذا مثلك.

لم يجد ما يقوله، سوى: من واجبي أن أنبهك، والأمر لك، وعمومًا لا ترددي في الرجوع إليَّ حين تحتاجين إلى هذا.

وقفت، فنهض العمدة، وكان قد فرغ من شرب القرفة، ووضع الكوب على طاولة صغيرة أمامه، وقال: من جانبي لن أقصر في الاطمئنان عليك من حين إلى آخر.

لكن العمدة لم يعاود زيارة السرايا مرة أخرى، فبعد أسبوع واحد من لقائه «عبلة» أخذته سكتة قلبية إلى العالم الآخر.

(20)

عاد أحد الفلاتية ذات مساء إلى الجبل، وقال وعليه علامات الحسرة: الفيضان أغرق القرى. وحكى عن موج عاتٍ كنس بيوتًا بساكنيها، وكيف كان الناس عاجزين عن مواجهة هذا الاجتياح الكبير. انهمك الرجال في حديث عن الماء، كيف فيه الخير والنماء والحياة، لكنه يكون أحيانًا شرًّا مستطيرًا، في السيل والفيضان والطوفان. ثرثروا طويلًا بينما «جعفر» شارد لا يخالطهم الحديث. نظر إلى المعلم «الجاسر»، وقال له: لا بد أن أذهب للاطمئنان على أهلي.

قهقه الرجل، وقال: اجلس واحمد الله على نجاتك.

لكن «جعفر» ألح في طلبه، فقال الرجل: لا سبيل لعبورك النهر الآن، فاصبر حتى يهدأ الماء.

بقي على قلق، حتى عرف أن الماء قد غاض. ركب جَملًا ووصل إلى عشش البدو، فتركه عندهم، كما أوصاه «الجاسر». كانت الشمس تتوسط السماء، فمكث على الشاطئ الشرقي، حتى اقترب الغروب، ثم دفع لصياد كان قد أوحشه التقاط رزقه، فنزل إلى النيل فور تراجع الموج. بلغ الشاطئ الغربي مع حلول الظلام. كانت الأرض لا تزال زلقة، وبرك الماء تناثرت هنا وهناك، وطمرت تحتها الكثير من الزروع.

شخَص ببصره إلى الأمام الغارق في الوحل والظلمة، ووجد نفسه يواجه ما ليس له به سابق خبرة، فوقف محتارًا، لا يعرف كيف ينقل

قدميه بعيدًا عن الأوحال. كان قد خلع حذاءه، ووضعه تحت إبطه، وشمر جلبابه عن ساقيه، وربطه حول خصره. تعثرت خطواته، لكنه كان يتلمس أي بقعة يابسة على قدر ما يجد، إلى أن اقترب من الجسر.

كانت الحقول خالية، وأضواء لمبات الجاز الواهنة تنبعث من نوافذ قريبة. هناك على اليسار أضواء أكثر جلاء، تهديها الكلوبات المعلقة داخل السرايا. أي طريق يسلك؟ هل يذهب إلى السرايا الآن، فهي الأقرب إليه؟ أم ينتظر حتى ينام الخفير والخدم بعد انتصاف الليل؟ لكنه لم يلبث أن اهتدى إلى المكان الذي عليه أن يبلغه حتى تمر الساعات فتخلو أمامه الشوارع إلى بيت «نبوية».

وجد حدًّا مرتفعًا من التراب، صنعه الرجال ليحولوا دون دخول الماء، الذي طمر مواضع خفيضة من الجسر وساح نحو البيوت. مشى فوقه على مهل، وصعد به إلى أن صار أمام الزاوية. كانت مغلقة ومظلمة، وحولها تعوي ريح أطلقها المساء المخيف، تضرب جوانب القبور، ثم تنحرف إلى الزاوية فتهتز سعفات الجريد، وأوراق البوص اليابسة، المثبتة في جدارها، باعثة رهبة في المكان.

فتح باب الزاوية، وكان يعتقد أن الشيخ قد نام مبكرًا، أو أنه جالس يتهجد في الظلام، لكن أدرك في النور الخفيف الذي أرسلته النجوم، أن المكان خالٍ. نادى بصوت خفيض، فلم يسمع سوى صوته. أين ذهب الشيخ؟ سأل نفسه، وغمره خاطر أن الرجل ربما يكون قد فارق الزاوية بعد أن أحاط بها الماء، وانقطعت السبل بينها وبين شوارع القرية.

خرج إلى القبور. وقف أمام قبر «رضوان»، وبعده إلى قبر «غنوم»، وقرأ الفاتحة على روحيهما، ثم امتطى القبر الأول، فصار بوسعه أن يرى البيوت جيدًا. لاحت له السرايا زاهية بالنور الأبيض، ورأى أشباحًا تتحرك هناك. ابتسم وهو يسأل: أي شبح منها للمحبوبة المنتظرة؟

انتبه إلى ضريح جوار الزاوية، فدار حوله، حتى وجد شاهدًا يدل على ساكنه، فبكى الشيخ الراحل بكاءً حارًّا، وانخرط في قراءة أدعية، كان قد حفظها عنه، ثم دخل إلى الضريح، وقبل العمود البارز المسجى برداء أخضر، حيث اتجاه الرأس المدفون، وخاطب الراقد تحت الثرى بصوت خفيض: نم في سلام، وأعدك بألا يتوه مني الطريق الذي أخذك إلى هنا، وأخلصت له وكأنك من «الصوابر».

كان نباح الكلاب يتواصل بلا انقطاع، وسمع نداءات متقطعة بين حين وآخر. هذا ينادي زوجته. هذه تنادي أولادها. وتختلط الأصوات بنباح الكلاب ومواء القطط. جلجلت قهقهة صافية شقت الليل إلى أذنيه، فقال لنفسه: يبدو أن الناس هنا قد اجتازوا محنة الفيضان.

ظهر قمر آخر الشهر في صفحة السماء، مرسلًا نوره الواهن، ليكشف بعض ما جرى للأرض. كان عليه أن ينتظره حتى يغيب، أو يهتدي به إلى حيث يريد. جلس يفكر، فأدرك أن الفيضان حال بين القرى وبين البندر حيث ضباط الثُّمن وعساكره، وأن الطريق إلى بيت «نبوية» ليس محفوفًا بالمخاطر. ربما لا يراه أحد، فالفلاحون يخلدون إلى النوم مبكرًا. حتى لو رآه البعض فقد لا يعرفونه، وإن عرفوه فمَن ذا الذي بوسعه أن يبلغ عنه مطارديه، والقرية معزولة على هذا النحو.

فك وثاق جلبابه، وارتدى حذاءه، ومضى على مهل نحو البيت. لم يقابله أحد في الشارع، إلا الكلاب والقطط الضالة، وعِرَس وفئران تجري نحو شقوقها في الجدران الطينية. طرق الباب بأطراف أصابعه، وانتظر. سمع حفيف قدمين آتيتين إليه. سمع صوتًا يسأل: مَن؟ وضع شفتيه في ثقب الباب، وأجاب: أنا «جعفر». انفتح الباب عن «نبوية»، التي ما إن رأته أمامها وخلفها نور اللمبة الزاهن، حتى انخرطت في البكاء.

صافحها بقلب مرتجف، وأغلق الباب، وسألها: أين أمي؟

غلبت بكاءها، وقالت له: استرح الآن.

جلسته فوق حصير جديدة مستقرة في جانب الصالة، وقالت له: سآتي لك بطعام، لا بد أنك جائع.

وملأت الظنون ذهنه، فألح في طلب أمه. جلست «نبوية» في مواجهته، وحكت له كل ما جرى في غيابه. وضع رأسه بين كفيه وانتحب في شدة، بينما صدره يرتج ألمًا وحسرة على أنها رحلت دون أن يراها. جاءت «عزة» و«خضرة» فسلمتا عليه، وواسته كل منهما في شفقة، وأثارهما بكاؤه الحرور فتجددت الأحزان، وشاركتاه البكاء.

وعرف أيضًا بزواج إنجاب «عمر» و«محمود» فقرر أن يغادر إلى بيتيهما. ولم يكن يعرف أين هو؟ فقالت «خضرة»: سأمشي أمامك إليهما، حتى لا ينتبه إليك أحد.

وجعلت بينها وبينه مسافة كافية، وهو يتبعها إلى أن بلغ بيت «عمر»، وكان يستعد للنوم، فخرج يفتح الباب متثائبًا، فلما رأى «جعفر» احتضنه بشدة، وأخذه إلى الداخل، وهو يقول: تأخرت علينا.

تنهد في حرقة، وقال: لم يأتِ إليَّ خبر يطمئنني على سلامتي إن نزلت إليكم، ووجدت الفرصة بعد الفيضان.

أرسل «عمر» يستدعي «محمود» فجاء على عجل. جلس الثلاثة يستعيدون الحكايات حول الراحلتين، ثم سألهما «جعفر» بغتة،عن وقت وفاة الشيخ «صفي الدين»، وكان قد نسيه قليلًا في غمرة حزنه على أمه، فأبلغاه أنه فارق الحياة مع مطلع العام، وأنه أوصاهما بألا يتنازلا عن الحلم الذي يسري في أوصال القافلة كالدم في العروق.

نظر إلى «خضرة» فأدركت أنه يريد أن يسر إلى الشابين بما لا يريد لها أن تسمعه، فقالت: سأذهب للسلام على «منية» وطفلها. ثم التفت إليهما «جعفر»، وسألهما عن «عبلة» فحكيا له عن ارتدائها ملابس الرجال، والتعريشة التي نصبت لها على طرف الحقول لتباشر منها سير العمل، لكن الفيضان جرفها في طريقه.

أحضرا له طعامًا، فلم يجد شهية لتناول شيء منه، لكنه مد يده إلى لقيمات حتى لا يُغضب «عمر»، ثم شرب الزنجبيل أملًا في أن يساعده في التغلب على خشخشة تنبعث من صدره العريض. فلمَّا سحب آخر رشفة، قال للشابين: أريد أن أرى «عبلة».

تبادلا النظر، وقال «عمر»: كيف تدخل إليها، وأمامك السور العالي والأبواب المغلقة، وخفير وخدم؟

ابتسم، وقال: لا تخشوا من شيء، فأنا أعرف طريقي إليها. ثم نهض، وقال: سأراها ثم أمضي إلى الجبل.

وسألاه عن مكانه، فقال: مكان آمن، وحولي كثيرون لا يبخلون عليَّ بشيء.

قال «محمود»: أبلغنا عن مكانك، فربما فكرنا في زيارتك للاطمئنان عليك.

ابتسم، وقال: لا أفضل هذا، حتى لا تلفتا الانتباه إليكما. وربما يزعج هذا الفلاتية.

قال «عمر»: لن نجبرك على شيء، لكن لا تتأخر علينا.

دس كل منهما يده في جيبه، وأخرج ما به من نقود ومده إليه، فقال: لست في حاجة إلى نقود.

لكنهما أصرا، وكانت النقود رسوله إلى قلب «الجاسر»، لا سيما أنه لا يشارك الفلاتية الإغارة والسرقة أو العمل لحساب مَن يؤجرهم لقتل نفس، أو حرق زرع وبيوت، فأخذ المال في امتنان.

قال له «محمود»: عليك أن تذهب أولًا لعزاء «رسمية».

- عزاؤها في مَن؟

- العمدة، تعيش أنت.

كانت «خضرة» قد جاءت، فقالت: يحلو للناس السهر في الساحة المؤدية إلى بيتها، ولا أضمن أنها قد خلت منهم.

قال «عمر»: لا داعي لذهابك، وسنبلغها مواساتك، ونشرح لها عذرك.

مضى على مهل يستتر بظلام الجدران حتى وصل إلى سور السرايا. كان يعرف مكان الجزء المتهدم منه، فلما بلغه وجد أحجارًا قد رُصَّت فيه، متعاقبة غير ملتصقة جيدًا. حاول أن يشب فوقه من مكان آخر فأخفق، فعاد إلى الأحجار. رفع ذراعيه حتى قبضت كفاه على أول حجر. زحزحه فانخلع في يديه. حمله ووضعه إلى جانبه، ثم فعل الأمر نفسه مع الذي يليه، حتى صار بمكنته أن يشب منه، ففعل. مشى يتخفى في جذوع النخل والأشجار، حتى وصل إلى غرفة «عبلة»، كانت نافذتها مواربة، ونور ينبعث منها. كمش مكانه فسمع حفيف قدميها في الغرفة. اقترب وناداها بصوت خفيض. خرجت ومدت بصرها في الظلام. كان النور خلفها يرسم له نصفها العلوي، فقال لها: أنا «جعفر».

وجمت، والفرحة ترقص في شراييها، وقالت له: اذهب إلى الباب، سأفتح لك، الكل نائم.

واستقبلته في البهو الذي كان آخر عهده به الإهانة التي تلقاها من «زاهر». أخذ يديها في يديه، وقال لها: يقتلني الشوق إليك. همست له في تأثر شديد: تأخرت عليَّ. رد وهو يُقبِّل جبينها: «غصب عني».

طلبت منه أن يتبعها إلى غرفتها، وكان الطريق إليها آمنًا، إذ أتى غطيط الخادمات من غرفتهن يجرح السكون. اختلى بها، واحتضنها بقوة، وهي تبكي، ومن غيوم الدمع رأت النافذة مفتوحة، فخلعت جسدها من بين ذراعيه، وأغلقتها. وكانت اللمبة المعلقة في الجدار تصارع من أجل أن يبقى نورها المتداعي حاضرًا، لكن اصطكاك

النافـذة في قوة دفع هـواء إليها فانطفأت، ولفهما الظـلام. اهتدى إلى أنفاسها اللاهثة الساخنة، فالتحم بها في حضن جديد.

ووجد نفسه يقول لها، دون ترتيب أو تفكير: تتزوجيني يا «عبلة».

لم يسـمع ردها، لكن الرد جاء في ضغطة قوية من ذراعيها، فانهال على وجهها تقبيلًا، ثم هبط بشفتيه إلى شفتيها، فالتقمهما، وعصرهما في حرقة، فاختلط لعابهما وهي تتنهد تاركة اللذة تسـري في عروقها. مـد ذراعيه، وحملها إلى السـرير، وقفـز فوقها يواصـل تقبيل صدرها ووجههـا وشـفتيها، فلمـا شـعرت بشـيء يتمـدد إليهـا صلبًا سـاخنًا، ارتعدت ودفعته إلى جانبها، وهي تقول: لا تجعل الشيطان يغلبنا.

ماتت حرارته بغتة، وسـبح بعينيه في الظلمة الرائقة المفروشـة في سقف الغرفة، وقال: أخشى أن تمضي السنوات ولا ينطفئ الشوق.

صمتت برهة، ثم قالت: بوسعنا أن نفعل ما نريد.

مد ذراعه تحت عنقها ثم سحب رأسها إلى صدره، وسألها: كيف؟

قالت: أنت عرضت عليَّ الزواج.. وأنا قبلت.

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة لم ترها، وقال: ما الذي يُجبرك على الزواج ممن هو الآن فلاتي ضائع؟

أجابته على الفور: مع المحبة لا توجد عوائق.

لـم يجد مـا يرد به عليهـا، فواصلت هـي: يمكننا تدبير كل شـيء، ويبقـى الأمـر بين مَن نأتمنهـم عليه حتى يأتي الوقـت الذي يعرف كل الناس أن ابنة الوجيه قد تزوجت من أشجع الشباب وأنبلهم.

ارتاح لقولها، وانهمرت في رأسه خواطر وتدابير عما يجب عليه فعله، لكن كل شيء ضاع بغتة حين قالت: آن الأوان أن تنهزم الكراهية أمام المحبة، ويجمع «الصوابر» و«الجوابر» فراش واحد.

انتفض جالسًا، ونظر إليها، فوجدها تقول: عرفت كل شيء.

سألها: مَن أبلغك؟

- العمدة رحمة الله عليه عرف من زوجته «رسمية»، وأبلغني قبل وفاته.

- رجل مثله لم يخلُ قلبه من الأحقاد القديمة.

- أحقاده ماتت معه.

سألها في لهفة: وأنت؟

ضحكت، فوضع يده على فمها في سرعة، وقال: يسمعك أحد.

أزاحت يده، وقالت: حذَّرني منكم، فأبغلته أنني لم أجد مَن في إخلاصكم ووفائكم.

أمسك كتفها اليسرى، وأدارها حتى تلاقى وجهاهما في الظلام، وشدها إليه، ثم غرقا في قبلة طويلة، ذابت فيها كل أحقاد الماضي، وقال لها: هي المرة الثالثة التي يلتقي فيها الصوابر والجوابر في الفراش.

(21)

أرادت له أن يخرج من الباب، لكنه سمع سعال الخفير، فقال وهو ينظر من النافذة: سأذهب على طريقة الفلاتية الذين صرت منهم. ثم

أفزعه أن تظن به السوء، فقال لها: لم أشاركهم في شيء مما يفعلونه، وليس لي معهم سوى المقام المؤقت. صافحته، وهي تدوس على يده، وقالت: داخلك خير يغلب أي شر.

فتح النافذة على مهل، ومد يديه إلى جذع النخلة المسنودة إلى جانبها. قفز فصار فوقه ينشب أظافره فيه، ويهبط محاذرًا، حتى لامست قدماه الأرض. غاب بين الشجر والنخيل، ووصل إلى الجزء الذي أزاحه من السور. قفز وصار خارج السرايا.

كان عليه أن يمضي نحو النهر، متحسسًا طريقه بين الأوحال، يدفعه خوف من أن يراه أحد ويبطئه خوف من أن يسقط في بركة أو لُجة. وبينما هو يتوخى الحذر في سيره، ناظرًا تحت قدميه حتى لا تنزلقان، اصطدم بجسد فارع يابس، فرفع بصره، فإذا به رجل يمضي نحو القرية. التقت العينان بالعينين. مد «جعفر» يده بسرعة ليسحب الكوفية على وجهه، لكنه سمع الرجل يسأله: أهربت من السجن يا «جعفر»؟

رد عليه في سرعة: «جعفر» مَن يا أعمى؟

ثم دفع الرجل بقوة، فأسقطه في الوحل، وجرى نحو النيل، لا يلتفت خلفه، حتى بلغ الموضع الذي تربض فيه قوارب الصيد. فك وثاق أحدها، وأخذ يجدف بقوة، غير عابئ بالجلبة التي يحدثها شق المجدافين للماء. انتبه أحد الصيادين، ونادى في الظلام: مَن هناك؟

لم يرد، وواصل التجديف، ولمَّا بلغ منتصف النهر، خلصت له ثلاثة أجساد تجري على الشاطئ، ثم قفزت في قارب، راح يتبعه، لكنه

اقترب من الشاطئ الشرقي قبلهم، وحين اطمأن إلى ضحالة الماء، ترك القارب وقفز. رفع جلبابه وأطلق ساقيه تشرخان الماء حتى وصل إلى اليابسة، وصعد سريعًا إلى الجبل.

(22)

عصر «جعفر» ذاكرته، فأفزعه ما جادت به عليه. أدرك أن الرجل الذي رآه وهو يتخبط في الأوحال والبرك هو مَن شهد عليه في المحكمة، ولم يكن يعرف بالطبع أنه واحد من قتلة «زاهر». حين حكى للمعلم «الجاسر» الذي كان قد آمن ببراءته، قال له: سيذهب هذا الوغد إلى الثُّمن للإبلاغ عما رآه، ويستجوب الضابط أهلك ليعرف مكانك.

قال مُطمئِنًا إياه: لم أبلغهم بمكاني أبدًا.

نظر إليه «الجاسر» مليًّا، وقال وهو يتكئ على الحروف: هذه مسألة لا ينفع فيها الإنكار.

قرب «جعفر» وجهه منه، وقال وهو ينظر في عيني المعلم طويلًا، وقال: لم أكذب عليك من قبل.

هز «الجاسر» رأسه، وقال: عليك أن تمتنع عن زيارة أهلك حتى ينجلي الأمر.

بدا على وجه «جعفر» أسى وحيرة، فقال له «الجاسر»: لا تخشَ على أهلك، بوسعهم أن ينكروا زيارتك لهم.

صمت «جعفر» برهة، وقال: ليس هذا فقط ما يحزنني.

وانتظر «الجاسر» أن يبوح له «جعفر» بما يوجعه، فلم يتأخر عليه، حدثه عن رغبته في الزواج؛ لأن مثل محبوبته لا يجب أن تنتظر أكثر من ذلك، وكيف كان يعتقد أن المسافة بينه وبينها قد ضاقت، وأطلعه على ما فكر فيه من أن يتزوجها سرًّا، لا يعرف بهذا سوى أهله، وهو يضمن كتمانهم الذي اختبره طويلًا، ثم يهبط إليها من الجبل مرة واحدة كل شهر، وكيف تبدد هذا في لحظة مشؤومة رآه فيها الرجل وعرف مَن هو.

ضحك «الجاسر»، وقال: يهبط بعض رجالي إلى زوجاتهم تباعًا كما تعرف، لكن هذا يتم في حذر شديد.

قال «جعفر» وهو يتنهد: حتى هذا حُرمت منه.

شد المعلم على يده وقال: لا تحزن، لديَّ حل مؤقت إلى أن تنكشف الغمة.

عرض عليه أن يبني كوخًا بين البدو، وسيوفروا له الحماية، ويقيم فيه مع عروسه الأسابيع الأولى لزواجه، ثم تهبط هي إلى القرية، ويعود هو إلى المغارة، بعد أن يضبطا مواعيد اللقاء تباعًا. وصمت برهة، وقال: شرطي الوحيد أنه إذا شك فيها أحد وتبعها إلى الجبل، وأمسكوا بك، لا تدل علينا أبدًا.

قهقه «جعفر»، وقال: أعتقد أن العروس سترفض من الأساس هذا العيش الخشن.

وأبلغه مَن تكون هي، فسأله على الفور: هل تحبك؟

أجابه وهو يزاور عينيه بعيدًا: نعم.

ابتسم «الجاسر»، وقال: سترضى، طالما لا حل أمامكما سوى هذا.

شرد «جعفر» في خواطر مضطربة، وتطلع إلى الصحراء الممتدة أمام عينيه، فرآها تضيق على اتساعها، وشعر بأن شيئًا ثقيلًا يقبض على صدره. أدرك المعلم ما يضنيه، فقال له: لديَّ طريقة تطمئنك على أهلك.

رفع وجهه إليه ليسمع منه، فقال: ثق بي، فأنا أستطيع أن أفعل الكثير من أجلك، وغدًا سترى.

هز «جعفر» رأسه، وقال: أعرف أنك على قدر وعدك يا معلم.

(23)

أبلغ الرجل رفاقه في القتل أنه قد رأى «جعفر». تنادوا ليلًا، والتقوا عند الزاوية. جلسوا في بقعة صلدة تفصل بين قبور «الصوابر» و«الجوابر»، وتشاوروا في الأمر طويلًا. قال أحدهم: علينا أن نبلغ الثُّمن.

تدخل الثاني: ربما يجدد هذا النظر في القضية، وتحوم حولنا شبهات نحن في غنى عنها.

قال الثالث: أخاف أن يفكر «جعفر» في الانتقام.

بلع الرابع ريقه، وقال: هو لا يعرف القتلة.

رد الثالث: لكنه يعرف مَن شهدا ضده.

كان الخامس يجلس منصتًا جيدًا إلى ما يسمع. تطلع إليه الرجال ليعرفوا رأيه. حك ذقنه بطرف إصبعه، وقال: نعرف أن «جعفر» لم يقتل، وصعب على شاب مثله، سمعنا عن استقامته، أن يُقدم على مثل هذه الجريمة. وطالما أن السر مدفون بيننا نحن الخمسة، فلا خوف على الإطلاق.

تنحنح أحدهم، ثم تساءل ساخرًا: هل هناك سر يبقى بين خمسة؟

قال الخامس: نعم، إن كان كشفه سيأخذهم إلى السجن.

طأطأ الأول رأسه، وقال: لا أعتقد أن السر لا يزال بيننا فقط.

نظروا إليه في اندهاش، وقال الثالث: يبدو أنك لم تلتزم بالكتمان.

لاذ بالصمت، وزاغ بصره في اتجاه الخلاء المظلم، ورفت شفتيه بكلمات حبيسة. وكان الخامس يراقبه جيدًا، فقال له: يبدو أن السر قد خرج منك.

لم يرد، فواصل الخامس: لا تخفِ علينا شيئًا. نحن في مركب واحد، وعليك مصارحتنا لندبر أمرنا.

زفر في تألم، وقال: أرجو أن تسامحوني.

لم ينطق أي منهم، وتطلعوا إليه، ليواصل كلامه. بلع ريقه، وقال: لم أقل لأحد سوى زوجتي.

قهقه الرابع وقال: النساء لا يصبرن على سر، خصوصًا زوجتك.

هز رأسه رافضًا ما سمع، وقال: هي تعرف منذ سنين، ولم تقل لأحد.

قال الثالث وهو يمصمص شفتيه على ما آلت إليه الحال، وقال: ربما قالت ولم تخبرك.

لكن الخامس قال بعد أن تطلعت إليه العيون ليدلي بدلوه: لو كانت قد فعلتها، لدار الكلام ووصلنا، فقد مرت على الجريمة سنوات.

(24)

أرسل «فتيحة الجاسر» إلى قرية «الجابرية» رجلًا اسمه «هريدي الجرجاوي» يبيع الملح الجبلي. تمر جماله بالفلاتية في غدوه ورواحه. يمكث عندهم ليستريح وتنيخ جماله تلتقط أنفاسها، ويزودهم بما يملحون به طعامهم. كان المعلم يثق فيه كثيرًا، فانتظر حتى جاء، وسأله: هل تبيع الملح في «الجابرية»؟

أجابه وهو يستعيد أسماء القرى التي يمر بها، وقال: لم أدخلها سوى مرة واحدة.

ضحك «الجاسر» وقال: أريدك أن تذهب إليها مرة ثانية.

هز رأسه مرحبًا، وقال: «غالي والطلب رخيص».

شرح له المهمة التي كلفه بها، وقال له: حذار أن يعرف بمهمتك أحد غير مَن أعنيهم.

طلب من «جعفر» أن يصف له بيتي «عمر» و«محمود»، فرسم له خط سيره. وأعاد على سمعه تحذير المعلم، وقال: هذه خدمة لن أنساها لك أبدًا.

جاب بائع الملح القرية من أدناها إلى أقصاها، ينادي على بضاعته، فتخرج النسوة لابتياع ما معه، إما بالنقود أو بأقداح القمح والذرة والشعير والفول. عند بيت «عمر» توقف طويلًا، ونادى ناظرًا إلى النوافذ. فُتحت إحداها في الطابق العلوي وأطلت «هنيَّة» وهي تسحب طرحتها على وجهها، ومدت إليه سلة من خوص في قعرها قروش، وقالت له: خذ الفلوس وضع الملح.

اقترب من النافذة، وقال لها: من عيني، لكن لديَّ رسالة إليك.

- أي رسالة؟

تلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يسمعه، وقال: رسالة إلى السيد «عمر».

- لم يأتِ من الغيط.

- أرسلي مَن يستدعيه.. إنه أمر ضروري، وليقل له مرسالك أنك أنتِ مَن تريدينه.

أرسلت خادمتها إلى الحقول، فلم يتأخر مجيء «عمر». اقترب من البيت فوجد بائع الملح لا يزال مكانه، يختلق ذرائع كي يطيل بقاءه. أناخ الجمل، وراح يعدل على ظهره زكيبة الحبوب التي جمعها لقاء بيع ملحه، ويضرب كتل الملح بشاكوش من الحديد. ألقى عليه السلام، ودخل إلى زوجته، فأبلغته بأن بائع الملح يقول إنه يحمل رسالة إليه. خرج إليه، وناداه، بعد أن فتح باب البيت على مصراعيه، وقال له: تفضل. فدخل على الفور، وقال له: لديَّ رسالة إليك من ابن عمك «جعفر».

ولمَّا انتهى مما يحمله، ابتسم «عمر» وقال: لا، لم يأتِ أحد من الثُّمن إلى بيوتنا، ولم يرسل الضابط في استدعائنا.

وسأله «عمر» إن كان «جعفر» قد عرف الرجل الذي قابله في الوحل، فأجابه: أحد اثنين شهدا ضده. فقال «عمر»: جاء الرجلان

إلينا قبل سنين نادمَين، وقالا إنهما أبلغا المحكمة بما سمعاه فقط، ولم يكن أي منهما يحسب أن الأمور ستنتهي بسجن جعفر.

ـ هل صدقتهما؟

ـ الخلاف بين «جعفر» و«زاهر» في تلك الليلة المشؤومة سمع به كثيرون، حتى خادمات السرايا، وهن أيضًا أبلغن الضابط بما جرى، حين استجوبهن، وكذلك فعل الخفير.

– عمومًا، من الحكمة أن تطوي الشاهدين تحت جناحك، حتى لا يبلغ أحدهما عن مجيء «جعفر» إليكم.

– هما يعملان مع الفلاحين في الأرض، ولم نرَ منهما سوءًا.. الانتقام لا يجري في دم «الصوابر»، وعفا الله عما سلف.

(25)

اطمأن «جعفر» إلى أن الثُّمن لم يعد يسعى خلفه. كان الضابط وعساكره قد داهموا بيت «نبوية» عقب هروبه فلم يجدوه. طلب الضابط من العمدة أن يضبطه إن رآه، ثم توقف الأمر عند هذا الحد. ربما نسيه الضابط في زحام انشغاله بمآسي الفلاحين، وأفعال المجرمين. ربما تم نقله إلى مكان آخر. ربما هرب سجناء آخرون، وتوزع انشغاله بين الهاربين. ربما هو دعاء أمه، التي لم تكن تكف عن رفع يديها إلى السماء لأجله، أن تُعمى عنه عيون مَن يقصدونه بسوء، ولأنه بريء فقد استجاب الله لها.

كان الثُّمن في كل بلد قد اعتاد وقائع الهروب. هروب من السخرة في حفر القناة. قبلها هروب فلاحين من كل ملتزم باغ. هروب مجرمين إلى الجبال. هناك مَن كانوا يعبرون الحدود إلى بلاد بعيدة. الهروب كان أمرًا معتادًا، والهاربون لا يجب عليهم أن يتصرفوا وكأن حياتهم قد انتهت في لحظة الفرار.

لتمضي الحياة كما كان ينبغي لها أن تجري، وليذهب أي شيء إلى الجحيم. مَن يعوض الشباب الذي تجف نضرته بتدفق السنين؟ ما الذي يطفئ نار الشوق، أو يغني عن دفء اللقاء؟ ليتصرف كما لو كانت جريمة لم تقع، ولا يمنعه الحذر والخوف من مواصلة العيش كما تمناه.

اقترب من «فتيحة الجاسر» ذات صباح، وقال: أنتظر ما وعدتني به يا معلم.

ابتسم، وقال: لا يستغني رجل سليم عن النساء.

كان للمعلم زوجة تدين بالمسيحية اسمها «روزينا»، عشقها في شبابه وعشقته، وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنتًا، ولم يكن يطيق الابتعاد عنها طويلًا، فكانت تأتيه متخفية إلى الجبل، ليختلي بها أيامًا في مغارة أخرى صغيرة على مقربة من مغارة رجاله. في مرات قليلة كان يهبط إليها محاذرًا في الليالي المظلمة، مستغلًّا أن بيته على طرف القرية.

لم يكن أي من أهل القرية، إن رآه، قادرًا على الإبلاغ عنه خوفًا من انتقامه، بل كانوا يعدونه مصدر حماية لهم، إذ لا يجرؤ لص على التسلل إلى قريتهم، وهو يعلم أن منها هذا الرجل، الذي يتحاكى

الناس بشجاعته وقسوته. مع هذا كان «الجاسر» يطلب من رجاله الحذر، ويقول: لا يأتي الغدر إلا من رجل جبان.

نظر «الجاسر» إلى «جعفر» وسأله عما إذا كان بحوزته مال، فقال: كنت أفرغ ما بجيبي في يدك، لكنه لا يكافئ كرمك.

- سأعطي البدو مالًا ليبنوا لك دارًا بسيطة بينهم.

- دَين سأسدده لك فور مقابلة أي من أهلي.

- هذا فقط؟

- لك فوق دَينِك حلوان كبير.

اكتمل بناء الدار. غرفتان من الحجر المرصوص في عناية، ربطته عجينة من الماء والرمل والحصى، فوقهما تعريشة من الجريد والبوص، وله نافذة تطل على الصحراء الممتدة إلى بعيد. دخله «جعفر» موزعًا بين فرح بحياة أخرى، ولو مؤقتة، وخوف من ألا يروق هذا المكان لـ «عبلة»، وهي مَن اعتادت سُكنى السرايا.

سأل نفسه، وهو ينظر إلى كثيب من الرمل يجاور صخرة عالية: ربما تكون متطلعة إلى مغامرة.

كان عليه أن يبلغها بما انتهى إليه، فعبر النهر ذات ليلة، ودخل غرفتها كما اعتاد. أنصتت إليه، وسألته: كيف أعيش بين أغراب؟

نظر إليها في تودد، وقال: ليس عيشًا دائمًا، إنما هو مكان نلتقي فيه بين حين وآخر، حتى تنتهي مطاردتي.

صمتت تحت وطأة اضطراب مشاعرها، فواصل هو: البديل أن أعود إلى القرية، وليكن ما يكون.

طفح انزعاج في مقلتيها، وقالت: لا، هذا خطر عليك.

أبلغته أنها راضية بما دبره، لكنها اقترحت عليه بديلًا: يمكننا أن نعقد قراننا سرًّا، ولتبقى في السرايا لا تبرحها، وأنا أضمن الخفير والخادمات، وأنت بالطبع تضمن أهلك.

ندت عنه ابتسامة ساخرة، وقال: سجن جديد.

نظرت إليه في غيظ، وسألته: أتسميه سجنًا وأنا فيه؟

أغمض عينيه قليلًا، ثم فتحهما، وقال: لا أريد أن أكون كمحظيات القصور، أنا اعتدت البراح.

واتفقا على أن تأتيه هي بين حين وآخر، ويأتي هو إن سنحت الفرصة. انتظر حتى سافر الليل بعيدًا، وانطلق إلى بيت «عمر»، فرحّا بما انتهى إليه مع «عبلة»، فقال له: ابقَ عندي حتى أدبر الأمر. وذهب في صباح اليوم التالي إلى شيخ الجامع الذي كان هو المأذون أيضًا، وقال له: أريدك في مهمة، على أن تبقى سرًّا بيننا.

- خيرك عليَّ وفير، والكريم لا يُضام.

ـ الأمر يخص ابنة الوجيه.

- لم تبخل على الجامع بشيء كلما قصدناها، كما كان يفعل المرحوم «زياد» عن طيب خاطر.

خرج «عمر» من عند الشيخ إلى السرايا، وأبلغ «عبلة» بما دبره، فوجد منها ترحيبًا. في الليلة التالية قصد الشيخ السرايا، وتسلل إليها «جعفر»، وتبعه «عمر» و«محمود» و«عزة»، فعُقد القران، وسط بهجة الخادمات، ولم يشعر أحد من أهل القرية بما جرى.

قضى «جعفر» سبع ليالٍ في السرايا. في الليلة الثامنة عاد إلى الجبل.

(26)

شاع في القرية بعد أيام أن ابنة الوجيه تحب النزهة في النيل. أجَّرت قارب صيد، وكانت تركبه مع خادمتين وخفيرها، ويجدف الصياد بها في اتجاه الموج ساعة، ثم يعود بها إلى القرية. كانت تريد للناس أن يعتادوا ارتيادها النهر، فصار لها ما أرادت.

جاء «عمر» بالقفلاط إلى حديقة السرايا ليصنع لها مركبًا يليق بها. جهز ألواح الخشب والغراء والحبال، وظل شهرًا كاملًا يعمل حتى صار المركب جاهزًا. جهز الفلاحون مرسى من الأحجار قريبًا من المكان الذي يربط فيه الصيادون قواربهم.

حملوا المركب على عربة كارو عريضة يجرها بغلان، ثم دفعوه إلى الماء، و«عبلة» واقفة في مقدمته، بينما الفلاحون يتطلعون إليها من الغيطان فرحين لفرحها، وهم الذين لم يروا منها إلا كل خير.

قيل إنها تريد أن تبحر بالمركب إلى المحروسة. وصلها ما يردده الناس، فوجدتها فرصة كي يستقر في أذهان الناس أسباب ما أقدمت

عليه. ذهبت إلى المحروسة بالفعل، لابتياع ما تريده لبيتها الجديد البسيط. تعلمت في هذه الرحلة على يد المراكبي المؤتمن، كيف تفرد الشراع، وتدفع المجاديف، وتُهدهد الموج، وتُحايل الريح.

كانت كلما نزلت إلى المركب قال الناس إنها ذاهبة إلى المحروسة، أو إلى أي من البنادر المتتابعة على النيل لنزهة أو شراء ما يلزمها من حاجيات. أعجبت بها نساء القرية، وكن يعشن خاضعات في قبضة الرجال. لم تكن أي منهن تعرف أن «عبلة» خاضعة أيضًا لرجل، لكن ليس خضوع الحاجة والخوف وكسر الجناح وهشاشة القوارير، إنما الخضوع الذي تفرضه المحبة على العاشقين.

وكانت تركب الماء، حتى يرسو المركب في مرسى جهزه أهالي النجوع المتناثرة شرق النيل، فتجد حصانين في انتظارها، واحد لها والآخر للخادمة، ويربط المراكبي المركب ويبقى بين مَن يعدون الطعام للمسافرين إلى أن تعود السيدة، التي ما إن تتوغل قليلًا في الجبل، حتى تجد «جعفر» ينتظر على حصان ثالث، ليسيرا نحو عشهما البسيط.

أراد «جعفر» أن يبني في الجبل بيتًا آخر يليق بـ «عبلة»، لكن المعلم «فتيحة الجاسر» قال له: لا تشذ عن الناس حولك، فيطمعوا فيك. وكان قد نصحه أن يخفي عنهم مَن تكون زوجته، ليتعاملوا معه على أنه مجرد فلاتي يتعشم فيهم أن يوفروا له الحماية، لقاء مال قليل يدفعه لهم بين حين وآخر.

وفاتح «جعفر» زوجته في ضيقه من إنفاق أهله عليه، وإنفاقها هي على نفسها، دون أن تبخل عليه بما يتقبله منها في خجل. قال لها ذات ليلة: لا بد أن يكون لي رزق.

- وهل قصرنا معك في شيء؟

- يخجلني أن أمد يدي، وأنا لا أزال في كامل قوتي.

سرى أمام عينيها في هذه اللحظة طيف «زاهر»، فقالت: كسب القوت واجب، ولو كان من عمل بسيط.

كان قد فكر في الأمر، وطلب أن تمده بعشر نعجات وخمس عنزات وكبش وتيس مليح، وناقة عفيَّة، على أن تكون شريكة له، يرعاها في الجبال كما يفعل البدو، وما تدره من ربح يكون له ثلثه ولها الثلثان. وافقت، لكنها اشترطت اقتسام الربح، فعدَّ هذا من كرمها، ثم التفت إليها، وقال:

- ربما يعرك أن يكون زوجك راعي غنم.

ـ مهنة الأنبياء، وما جدك وجدي الكبيرين سوى أجيرين في الأرض.

- لا تنسي أنهما من المجاذيب أيضًا.

- كلام ذاب في الزمن ولا دليل عليه إلا ما يتناقله الناس.

- أيًّا كان، المهم الآن أننا نصنع حكاية جديدة للفلاحين والمجاذيب والبدو والفلاتية أيضًا.

- قلت كل شيء ونسيت الأهم، إنها حكاية العشق.

بنى حظيرة إلى جانب بيته، وأمدَّته «عبلة» بما طلب. أرشده العربان إلى أماكن الرعي، وطالبوه بأن يكونوا هم شراة خرافه حين تكبر، فوافق ممتنًّا. انطلق بقطيعه الصغير يبحث عن الأحراش، وما ينبت في الرمل من بذور تحملها الريح، ويسقيها المطر. كانت «عبلة» تحمل إلى قطيع زوجها، كلما صعدت إلى الجبل، رُبطًا من البرسيم وأجولة من التبن، توضع على ظهر الناقة من مرسى النيل حتى الحظيرة. لم يبخل على أغنام الأعراب وإبلهم ببعض ما يأتيه من الوادي، ففرحوا بهذا الخير الذي أتاهم من حيث لا يحتسبون.

ساعده أحد العربان في تعشير كبشه للنعاج، وتعشير تيسه لعنزاته، ولقح جمل ناقته، فزاد قطيعه بعد شهور، وولدت ناقته قعودًا. بعد عام ونصف دخل جيبه ما باع به الخراف والتيوس. ترك النعاج والعنزات الجديدة تزيد من قطيعه. صار بوسعه أن يوفر ثمن طعامه وشرابه، وما يعطيه للبدو لقاء حمايته. كان يذهب إلى المعلم «فتيحة» حاملًا خروفًا وتيسًا يذبحهما رجاله فيأكلون لحمًا طريًّا، ثم يدس في جيبه بعض المال، ويقول له: من بعض خيرك يا معلم.

توطدت علاقته بالعربان، وعدُّوه واحدًا منهم، وهذا لم يكن عليهم بالأمر الهين في بادئ الأمر. عرض عليهم ذات يوم أن يبني زاوية إلى جانب أكواخهم وعششهم فرحبوا. ولمَّا كبر القطيع طلب من كبير العربان أن يؤجر له مَن يساعده، فأمده بصبيين عارفين بأماكن الرعي.

ووجد «جعفر» لديه بعض الوقت للراحة، فقرر أن يقضيه بما يفيد. عرض على العربان أن يعلم أولادهم القراءة والكتابة، فأسعدهم هذا. جاءته «عبلة» بالقراطيس وألواح الإردواز، وكانت تشاركه تعليم البنات في أيام وجودها معه. منحته مهمته الجديدة مكانة بين البدو، وضاعفت إحساسه بذاته، وأدرك أن سنوات هروبه لم تذهب في تدبير الأمان والقوت فقط، كأي حيوان شارد.

وقالت له «عبلة» ذات ليلة: يبدو أن في بطني جنينًا من صُلبك. فطار من الفرح، لكنه حط على الأرض من الخوف، وقال لها: هذا معناه أن يعرف أهل القرية بأمر زواجنا. طمأنته قائلة: حين يقترب موعد الولادة سأمكث في البيت، ولن يعرف سوى الخادمات، حتى يصير بوسعنا أن نعلن على الناس كل شيء.

وحرصت إن ذهبت إلى التعريشة الجديدة التي بنيت لها، على نحو أفضل من تلك التي جرفها الفيضان، أن ترتدي جلبابًا فضفاضًا، ولا يقترب منها إن كانت في الحقول سوى «عمر» و«محمود».

وذات ليلة مقمرة، جاءت «عبلة» لحبيبها بطفل يشبهه أسمته «ناجي»، مستبشرة بهذا الاسم أن ينجو أبيه من يد السوء التي تطارده.

(27)

جاءت الشهور العجاف. لم تسقط الأمطار على الهضاب البعيدة، فغاض النيل، وبانت في قلبه جزر صغيرة. تراجع الماء في الترع،

وجفت القنوات، فعطش الزرع. جاهد «عمر» و«محمود» كي يساعدوا زروعهم على أن تجد ما تروي به ظمأها. هبطوا بالطنابير إلى حافة الماء، تغرف ما وسعها، وتلقيه في قنوات حفروها في الأرض التي انحسر عنها الماء على طرف النهر، تنتهي بحفر عميقة. يتلقاها رجال آخرون يجلسون إلى الشواديف، يرفعون بها الماء إلى القنوات.

كان عملًا مضنيًا، عجز عن القيام به كاملًا كل الفلاحين الذين يكدحون في أرضي الوجيه والعمدة الراحلين. لكن الجسر امتلأ ذات صباح بجماعات منهم هجروا قراهم بعد أن جف زرعهم. جاءوا حفاة جوعى، بعضهم يجرون خلفهم بهائمهم الضامرة. كانوا يقصدون البندر، إذ وصلهم أن بعضًا منهم قد شردوا في شوارعه، يتلقطون طعامهم من القمامة، أو يمدون أيديهم إلى أهل الإحسان.

خرج إليهم «عمر» وأوقفهم. عرض عليهم العمل معه فرحبوا. انضموا إلى السُّقاة، فزادت الطنابير والشواديف. بعضهم كُلِّف بملء الجرار الضخمة وإلقاء مائها في القنوات التي تنتهي عند رافعيه حتى أول الزرع. شاركت نسوتهم وعيالهم في العمل. لم يكن بوسعهم جميعًا أن يغمروا السرائب والأحواض بالماء، لكنهم تمكنوا من أن يبقوا زروعهم على قيد الحياة.

جاء لهم «محمود» بحُصر وفرشها في البقعة الفسيحة التي تجاور الزاوية، فكان هناك مبيتهم. فتحت غرف الخزين فخرجت منها بلاليص المش والعسل، وقفف البصل، ورصات البتاو. علقت على الكوانين آنيات يغلي فيها العدس والويكا والأرز، توفر لهم طعامًا على

قدر حاجتهم. كانوا على استعداد للكدح مقابل الطعام، لكن «عمر» حدد لكل منهم قرشين صاغًا يقبضهما كل أسبوع.

شهد أهل «الجابرية» للرجلين اللذين أتيا أول ليلة بعيدة إليهم مع ثالثهم الغائب بالحكمة والقدرة، وهم يتلقون أخبار الجوع الذي يجتاح القرى حولهم، فيجبر أهلها على الفرار.

ظنت «عبلة» أن الحكومة سترأف بهم هذا الموسم، لكن الصرَّاف طرق البيوت يُحصِّل الضرائب. قطع بعض الناس من أقواتهم ودفعوا. عجز آخرون عن الدفع، فهُددوا بعرض أرضهم في المزاد، لكن «عبلة» ومعها «عمر» و«محمود» دفعوا عن العاجزين.

(28)

خلا منصب العمدة في «الجابرية»، وفكر الناس فيمَن يشغله. فاتحوا إمام المسجد، فقال لهم: نشاور ساكنة السرايا. تململوا من أن يوكل الأمر إلى فتاة، حتى لو كانت تفعل أكثر من فعل الرجال، فقال لهم: صاحبة أغلب أرض الزمام التي ترتزقون منها، لا بد أن تكون لها كلمة. فوضوه في استشارتها، فقالت: لا يوجد في القرية خير من السيد عمر. تمنت في هذه اللحظة لو كان «جعفر» طليقًا ليتولى المنصب، لكن ما بوسعها أن تفعل وهو لا يزال هاربًا من مطارديه؟ ذهب «عمر» و«محمود» على رأس وفد من رجال القرية إلى الثُّمن، حاملين هدايا ثمينة إلى الضباط، فعادوا آخر النهار يتراقصون على الجسر خلف عمدتهم الذي صار، وهو راكب فرسه، يتطلع إلى دنياه الجديدة، ويقرأ الفاتحة في سره على أرواح أجداده.

أوكلت «رسمية» إلى أخيها «عمر» رعاية ما ورثته وابنها عن العمدة الراحل، وهو النصف، وكان بيد «عمر» ما ورثته زوجته عن أبيها، فصارت أغلب أرض القرية خاضعة لأمره، لا سيما بعد أن وثقت فيه «عبلة».

استلهم «عمر» و«محمود» تجربة «جعفر» التي كانا يطَّلعان عليها كلما ذهبا سرًّا لزيارته، فبنيا حظيرتين واسعتين على طرف الحقول، بعيدًا عن الزاوية والمقابر، وجاءا بقطيع من الأغنام والماعز، وصغار جاموس وبقر، واستأجرا رجالًا لرعايتها.

لم يمر سوى عامين حتى قصدهما جزارون من كل القرى لشراء العجول والتيوس والكباش. حين فاض هذا عن قدرة الجزارين، جاءا بالقفلاط، وافقت «عبلة» أن تمدهما بالمركب، فتحمل ما تُغله الحظيرتان إلى سوق البهائم في البندر، فتراكمت في خزينتيهما أموال، عوضت ما ضاع منهما في سالف الأيام.

جدد «عمر» الزاوية والمسجد، ووسع الكُتَّاب بعد أن زاد أولاد القرية المقبلين على التعلم، ثم حوله إلى مدرسة، بعد أن تواصل معه مسؤولون عن المعارف في القطر المصري. قدم لهذا تبرعًا سخيًّا، وشاركت «عبلة» بتبرع مثله.

شهدت القرية لأول مرة قدوم معلمين عينتهم الحكومة، لتعليم الأطفال اللغة العربية ومبادئ الحساب والعلوم. جاء «عمر» بشيخ آخر يساعد إمام المسجد في أداء هذه المهمة. كان كلما سمع صوت الأطفال وهم يتلون آيات القرآن، ابتسم وقال: كان أجدادنا يحبون هذا الصوت اللين، وحرصوا دائمًا على ألا ينقطع.

وحين وقف في اليوم التالي فوق الربوة العالية، وترامت أمامه البيوت الخفيضة ماثلة لناظريه، قال في توجع: كان اسمها «الصابرية».

وفاتح «محمود» في أمر إعادة الاسم القديم إلى القرية:

ـ حلم سكن رؤوس الأجداد، وآن الأوان أن نحققه.

– أنت تعرف أن هذا كان يفرح أجدادي أيضًا، لكن علينا ألا نفتح باب المشكلات.

– أي مشكلات، وقد صرت عمدة القرية؟

– قد يغضب هذا ابنة الوجيه، ولا تنسَ أننا أقلية وسط الجوابر.

تنهد «عمر» في حرقة، وقال: تشتت أهلنا في البلاد، ولا أعرف كيف يجتمعون.

حلقت فوق رأسيهما طيور غريبة. صنعت دوائر متلاحقة، وتقاربت حتى صارت دائرة واحدة ترسمها الأجنحة، ثم تناثرت كل في طريق. نظر «عمر» إليها، وتساءل: يعود الطير الغريب إلى موطنه، فمتى يطير «الصوابر» إلينا؟

(29)

استدعى ضابط الثُّمن ذات صباح العمدة الجديد فذهب إليه على الفور. وجد عمد القرى هناك يجلسون في حيرة، وتختلط في رؤوسهم الظنون. قال أقدمهم في المنصب: لا يحدث هذا إلا في الأحداث الكبرى.

تبادل العمد النظرات، وقلوبهم ترتجف، فواصل الرجل: يبدو أن مصيبة قد وقعت.

رد أحدهم: الأحوال في قرانا مستقرة، ولم نسمع عن أي حدث وقع في الزمام كله.

جاء إليهم الضابط، فوقفوا يحيونه، فأشار إليهم بالجلوس، وجلس هو على مقعد يتصدر مقاعدهم، وقال: قامت هوجة في المحروسة، وعليكم ضبط الأمور في قراكم.

عرفوا منه أن قائد الجيش واسمه «عرابي» قد تمرد على ولي النعم، وطمأنهم بأن هذه الفوضى ستمر بسلام. قال «عمر»، وكان أحدث العمد: بيننا وبين المحروسة سفر طويل.

رد الضابط في حسم: الفتنة انتقلت إلى بعض القرى، خصوصًا في الوجه البحري، وعليكم الانتباه والحذر.

(30)

وصل إلى «جعفر» خبر ما يجري. أبلغه أحد البدو أن كبيرهم قد تلقى رسالة من قائد الثوار، يدعوه فيها إلى تأييده، وقال له: الحكم مرتبك، ويده القابضة قد فلَّت ولو قليلًا.

وجد «جعفر» الفرصة سانحة كي يهبط إلى الوادي وهو آمن. فعين أهل الحكم لا ترى سوى مَن يبايع الثورة، أو يتحمس لها، ولو بقلبه. جاء ليلًا كعادته، لكنه دخل هذه المرة من باب السرايا. استقبلته «عبلة»

مبتهجة، وقالت: لا تتركنا طالما الهوجة جارية، فعين الحكم غافلة، وضباط الثُّمن خائفون من نزول القرى.

قضى «جعفر» أيامًا لا يبرح السرايا. كان مطمئنًّا إلى أن قطيعه يرعى هناك في سلام. قرر ذات صباح أن يذهب إلى الأرض، ليشرف على سير العمل فيها، لكن «عبلة» لم تتحمس لقراره، وقالت له: ابنا عمك وعمتك لا يقصران في شيء.

قال لها: أشتاق إلى رائحة الطين، وعرق الفلاحين، وإن شعرت بأي خطر فطريق هروبي معروف.

كان «عمر» قد أوكل أغلب أمر أرض «عبلة» إلى «محمود» بعد أن آلت إليه العمدية، واختار معه خوليًّا معروفًا عنه همته وخبرته في الفلاحة، فواصل العمل في الأرض سيره على نحو أبقى رضاء صاحبتها، واطمأن «جعفر» حين راجع دفتر الحسابات، وقال لزوجته: الرجال ذوو الثقة كنز ثمين.

(31)

عند ظهر أحد الأيام جاء رجل غريب إلى القرية. سأل عن سرايا الوجيه. دله الناس عليها، فدخلها على عجل، وقال للخفير: أريد مقابلة الوجيه.

نظر إليه الخفير متعجبًا، وقال له: الوجيه توفي منذ سنوات.

هز رأسه، وقال: رحمة الله عليه، كان رجلًا مخلصًا.

وساد بينهما صمت، قطعه الرجل قائلًا: أين ابنه؟

تشكك الخفير في الرجل، وقال لنفسه: ربما يكون من عسس الثُّمن، ويسعى وراء «جعفر». أوقفه عند الباب، وسأله: لماذا تريده؟

تلفت الرجل حوله، وقال بصوت خفيض: معي رسالة إليه من قادة الثورة.

هز الخفير رأسه، وقال له: ابقَ هنا لأستئذن أصحاب السرايا.

نادى الخادمات فلم تسمعه أي منهن. كرر النداء وانتظر، وصعد السلالم إلى البهو العلوي، فوجد «جعفر» يلاعب ابنه «ناجي»، و«عبلة» تراقبهما باسمة. لما رأيا الخفير نظرا إليه في دهشة، وكانت «عبلة» لم تعتد صعوده إلى الطابق العلوي إلا نادرًا. وقف أمامها، ويده ممتدة إلى بندقيته يعدل وضعها على كتفه، وقال: رجل يقول إنه رسول الثوار إلى الوجيه.

انتفض «جعفر» واقفًا، وسأله: أين هو؟

- أوقفته بالباب.

قطع «جعفر» خطوات نحو السلالم، لكن «عبلة» أوقفته، ثم نظرت إلى الخفير، وقالت: أدخله إلى البهو السفلي، واطلب من خادمة أن تعد له ما يشربه.

حين انصرف الخفير أمسكت بيد «جعفر»، وقالت: يبدو أنك قد نسيت ما أنت فيه.

- لا يقتل الخطر سوى خطر جديد.

- إنه الجنون.

- بل هي المغامرة.

- الرجل جاء للوجيه، يبدو أنه لم يسمع بخبر رحيله، فدعني أقابله.

- إن كانت مخاطرة كما قلت، فكيف أدفعك إليها، وأختبئ أنا كالفئران.

مضى يهبط السلالم، حتى خلص إلى الرجل. صافحه بحرارة، وقال له: أهلًا برسول الأبطال.

تشجع الرجل، وقال وهو يرشف من كوب الزنجبيل الذي أحضرته الخادمة: الرجال في المحروسة يحتاجون إلى كل رجل شجاع في بر مصر. فهز «جعفر» رأسه، وقال له: تأكد من أنك لن تذهب من هنا مخذولًا.

تهلل وجه الرجل، وقال: هذا الشبل من ذاك الأسد، فالوجيه لم يتأخر أبدًا في مد يده للبلاد، كُلما كان يطلب منه هذا.

ابتسم «جعفر»، وقال: يحزنني إبلاغك أن ابن الوجيه لحق بوالده، والدوام لله وحده.

ترحم الرجل على «زاهر»، وقال: أعرف أنه كان له ابن وحيد.

وصارحه «جعفر»: أنا في مقام ابنه، وزوج ابنته.

تردد الرجل قليلًا، ثم أفصح عن مهمته: نجمع موافقة الوجهاء وكبار الملاك على مطالب قادة الثورة، ونفتح الطريق لأهل القرى الراغبين في الانضمام إليهم.

مد «جعفر» يده وقبض على يد الرجل، وقال: طلبك مجاب، لكن أخبرنا بما علينا فعله.

أبلغه الرجل أنه يريد أن يضع اسمه في قائمة المنضمين إلى مطالب الثورة، وألا يمنع أيًّا من أهل القرية يرغب في الانضمام إلى الثائرين، سواء بالذهاب إلى المحروسة أو الالتحام بالرجال الغاضبين في البنادر.

قال «جعفر» على الفور: شرف لي أن يكون اسمي بين هؤلاء، وسننادي في القرية عمن يرغب في الانضمام إليكم، وسنتكفل بنفقات رحلته وإقامته في المحروسة أو البندر.

نهض الرجل واقفًا، وقال: عيون الرجال تدل عليهم.

وكتب اسمه رباعيًّا في ورقة معه، ثم همَّ بالانصراف، فاستوقفه «جعفر»، وسأله: ألست في حاجة إلى شيء آخر؟

ابتسم الرجل، وقال: ما حصلت عليه يكفي ويزيد.

واستمهله «جعفر»، وصعد إلى الطابق العلوي، وفتح الخزينة التي كان يدخر فيها مالًا تحصل عليه من بيع خرافه وتيوسه ونوقه، خطف صرة تحوي ثلاثين جنيهًا من الذهب، وهبط سريعًا، ومدها إلى الرجل، وقال: يحتاج الرجال هناك إلى مال يساعدهم على الاستمرار في عملهم الجليل.

لكن الرجل رفض تمامًا، وقال له: إن أردت هذا، فعليك أن تقدمه بنفسك إلى قادة الثورة في «القاهرة».

انصرف الرجل، وترك «جعفر» وقد سكنته روح جديدة، لم يعرفها من قبل. لأول مرة يزول عنه الخوف، كأنه لم يولد في نفسه أبدًا. رأى وهو يصعد السلالم رجالًا وضعوا رؤوسهم على أكفهم، تشمخ أنوفهم في عزة، وتثير نداءاتهم هدير الجماهير الغفيرة التي تهتف لهم. تجسد أمامه الذل كأنه ورقة شجر يابسة، فداسه بقدمه على الدرجات الرخامية، التي كانت «عبلة» واقفة على أعلاها، تنظر إليه في عجب، ويصلها ما يسري في نفسه.

قالت له بين وجل وإعجاب: يطل الحماس من عينيك.

قال لها في جدية: لم يُخلق الرجال للاختباء.

مكتبة ياسمين

(32)

ذات مساء فزع أهل القرية لصراخ مدو. هرعوا نحو الصوت الزاعق، فوجدوا امرأة تهيل التراب على رأسها أمام بيت خفيض. ظهر خلفها رجل يمد يده ليسحبها إلى الداخل، لكنها تقاوم متشبثة بالأرض. كانت تقول له في تحد: سأفضحك يا قاتل.

نظر الناس إليه متعجبين من قولها، فهو كان واحدًا من الذين عادوا من السخرة، ليواصل كدحه في الأرض، دافنًا رأسه بين رؤوس المغلوبين الصامتين. استبقها، وجلس القرفصاء، ومد كفه وأغلق فمها، لكنها حركت رأسها في سرعة، وعضت أصابعه بقوة، حتى صرخ. أفلتت منه، ونهضت مسرعة، فحال الرجال الواقفين بينه وبينها. وسمعوها تقول في إصرار: هانت العشرة عليك يا قاتل؟

عـاد النـاس إلـى عجبهـم ممـا تقوله. سـخر أحدهـم منهـا، وقال ضاحـكًا، وهـو ينظر إلى الرجـل النحيل: لا تكذبي علـى الرجل، فهو لا يقدر على قتل نملة.

ملأها الغيظ فأفلت منها السـر، وقالت، بعد أن استدارت إليه وهو بين سـواعد رجال يمنعونه من الهجوم عليهـا: هو قاتل «زاهر»، ومعه أربعة كلاب.

صرخ زوجها فيها بقوة: اسكتي يا بنت الكلب.

لكنهـا واصلـت تحديهـا، وقالـت: سـتعرف الآن مَـن الكلـب يـا عويل.

وزعقـت فيمَـن حولها: أفسـحوا الطريـق. فتباينت الأجسـاد التي كانت قد تزاحمت أمام البيت، ووجدت المرأة لها مسربًا بينها. راحت تسـرع نحـو دار العمـدة. وظن زوجها أنهـا قد جرت إلـى بيت أهلها، فراح يقول للناس: أصابها جنون، وتتوهم أشياء غريبة.

حين اسـتقبلها العمدة في صالة بيته، قالت له: ابن عمك بريء من قتل «زاهر»، فزوجي هو القاتل ومعه أربعة.

لم تمضِ سـوى سـاعة واحدة حتى كان الرجال الخمسـة متحفظ عليهم في بيت العدة والكرباج، يقف أمام بابه الخفراء الخمسـة الذين أتـوا بهم مـن البيوت، واضعيـن البنادق في رؤوسـهم، ثـم يدفعونهم بدباشكها كلما تباطئوا ليسألوا عن سبب القبض عليهم.

أدخل «عمر» المرأة إلى الرجال الخمسة، فواجهت زوجها بما قاله لهـا ذات ليلة بعيـدة، بينما العمدة يتفرس في ملامـح الرجال الأربعة، ويقـرأ ما يـدل عليه الانزعاج الذي سـكن ملامحهم، وهو يهز رأسـه، ويقول: شاء الله أن يظهر القاتل بعد كل هذه السنين.

أرسـل العمدة في طلب «جعفر» فأتى على عجل. كان يحسـب أن ابن عمه قد وصله خبر الرجل الغريب الذي أتى إلى السرايا، ويريد أن يعرف ما جرى، لكنه فوجئ بما لم يدر في خلده.

سيق القتلة إلى الثُّمن، ومعهم المرأة شاهدة. ضيق الضابط الخناق عليهم، فاعترفوا. ردت إلى «جعفر» براءته وحريته. صار عليه أن يتخذ قرارًا كان يشغل رأسه، دون أن يداهمه إحساس بأنه سيفعل ذلك ليس عن شـجاعة ولا إقدام، إنما هو انجراف المضطر أو الذي لا يبالي، أو المحاصر الذي يفر من قدر إلى قدر.

(33)

عبثًـا حاولت «عبلة» أن تثنـي «جعفر» عن قـرار الالتحاق بالثوار. قالت له غاضبة: أنت لم تخلق إلا للأرض.

وكان يؤمن بأن الأرض تأتي وتذهب بإرادة ظالمين يسكنون قصور المحروسـة، ويشـربون عرق الغلابة، الذين يرونهـم مجرد دود أعمى يرعـى دون توقف، فقـال لها: ربما ينتصر أهل البلـد، فتزيد أرضنا، أو نتملك أرض الانتفاع.

ولأول مرة تسخر منه بإشارة من يدها، ورعشة رسمت على شفتيها، وقالت: أو ينهزمون ويضيع منا كل شيء.

رد في غيظ: لن يعرف أعداؤنا أنني زوجك.

صرخت فيه: لكنني أنا أعرف، وكفى غربتك الطويلة عني، التي ما إن انتهت ببراءتك حتى رحت تبحث عن غربة جديدة، وكأنك تفر مني.

قطع الخطوات التي تفصل بينهما، وأخذها في حضنه وهي تبكي، وقال: ليس من المروءة أن نصمت الآن.

بكت على كتفه، وقالت: فقدت أهلي، فلا تيتم ابنك صغيرًا.

داس على حروف الكلام، وهو يقول: سيفخر ابني بي سواء عدت سالمًا أو دُفنت وأنا أجاهد في أرض بعيدة.

خلعت جسدها من ذراعيه، وتركته يدخل إلى غرفته، وأسرعت هابطة السلالم، نادت الخفير، وقالت له: اذهب إلى العمدة وأبلغه أنني أنتظره الآن.

جاء «عمر» يرفل في عباءة من الجوخ الأسود. دخل إلى بهو السرايا فوجد «عبلة» أمامه واقفة وعلى وجهها انزعاج شديد، وقالت له: «جعفر» أصابه جنون.

وكلما حكت له باختصار ما يفكر فيه، ابتسم وقال: العرق دساس.

غاظها رده، فسألته في اشمئزاز: أي عرق؟

أجابها من جوف زمن بعيد: قيل لنا إن جدنا الأول كان محاربًا.

هـزأت منـه، وقالـت: لـم يـأتِ مجدكـم إلا مـن الأرض، وجدك «رضوان» كان فلاحًا.

قال لها بصوت خفيض: أنا أتحدث عمن كان قبل «رضوان».

اقتربـت منـه، وقالـت: أرجـوك أن تسـاعدني فـي إقناعـه بعـدم الرحيل.

انتبه إلى أن قرار «جعفر» سيجر عليه متاعب لا قبل له بها، بل قد يكلفه العمدية في غمضة عين إن وصل الخبر إلى الثُّمن، فسألها: أين هو؟

سبقته على السلالم حتى انتهيا إلى حيث يجهز «جعفر» ما يستعين بـه في الرحلة. لما رآهما، نظر إلى «عمر»، وقال: لا أنتظر منك سـوى توديعي في صمت.

رد «عمـر» في تـودد: لم تعتد منـي الصمت حين تهجـم الأهوال. وراح يحكـي عـن اللقاء الـذي جمع فيه الضابط عمـد البلاد، ثم قال: إن صممت على ما في رأسـك، فلتعلم أن خسارتنا قد بدأت من الآن. وباغتـه رد جعفـر: احسـبني لا أزال مطـاردًا بسـبب جريمـة تبين لك أننـي لـم أرتكبها، وإن سُـئلت عني قل لمَن يسـألك إن حياة الجبل قد أعجبتني، وعدت إليها.

كانـت «عبلـة» متقلبـة بين إعجـاب بزوجها وخوف مـن مصير قد ينتظـره وينتظرها، لكن الإعجاب غلب الخوف برهة، فقالت: ليقضي الله ما شاء.

رد «عمر» غاضبًا: الله لا يريد بعبده أن يرمي نفسه إلى التهلكة.

نظر إليه «جعفر» باسمًا، وقال: هلاك الرجال في جُبنهم.

هز «عمر» رأسه، وقال: قاتل الله العناد الذي أورثه لنا الأجداد.

(34)

انشغل «عمر» في الأيام اللاحقة بموت «نبوية»، فانتقلت «خضرة» إلى بيت العمدة. كانت قد صارت عجوزًا، تحتاج إلى مَن يعينها على مواصلة الحياة. لم ينسَ لها «عمر» ما فعلته في سالف الأيام فلم يقصر في توفير عيش يليق بامرأة قدمت لأهله الكثير.

انشغلت «عبلة» بتربية ابنها «ناجي». خصصت له غرفة في السراي يتلقى فيها دروسًا إضافية إلى جانب ما يتعلمه في المدرسة. لم تنسَ دورها المتواصل في رعاية أرضها. كانت قد اعتادت غياب «جعفر»، لكنها هذه المرة كانت أشد قلقًا عليه.

جاءتها ذات صباح المرأة التي اعترفت ضد زوجها، وقالت لها: نجيت زوجك، وأرحت أخاك في قبره، لكن أتعبت نفسي.

تطلعت إليها في حيرة، فواصلت: كان عائلي، ولم تعد في البيت كسرة خبز واحدة.

فطنت «عبلة» إلى ما يجب عليها أن تفعله، فاستدعت النسوة الخمس عند المساء. جئن منكسرات يسكن عيونهن العشم والرجاء. جعلت اثنتين لتنظيف فناء المدرسة وفصولها، حيث الحُصر التي

يجلس عليها الأولاد، والمقعد الذي يجلس عليه المعلم. كلفت اثنتين بملء الأزيار الموضوعة إلى جانب الزاوية والمسجد والمدرسة. أبقت الأخيرة مع خادمات السرايا. خصصت لكل واحدة منهن أجرًا أسبوعيًّا يكفي لإطعام أولادهن وكسوتهم.

قالت للأخيرة التي اختارتها خادمة جديدة: اخلعي ملابسك في الحمام، وصبي عليها ماء مغليًّا، ثم اعصريها وانشريها على أي شجرة خارج السرايا لتقدحها الشمس، ثم ارتدي ملابس من البيت. كانت «عبلة» تعرف أن شقوق جدران الطين في بيوت الفلاحين تسكنها البراغيث والبق، ولا تريد لأي من هذه الحشرات التي تجعل الفلاحين يقضون لياليهم في جحيم، أن تتسلل إلى السرايا.

جعلتها كلما أتت تخلع ملابسها في غرفة صغيرة على جانب سور السرايا، وترتدي ملابس نظيفة، فإن انتهت من عملها مع حلول المساء، تخلع لباس الخدمة، وترتدي ملابسها التي أتت بها من بيتها، وتنصرف، لتأتي صباح اليوم التالي. كانت تأمر الخفير أن يدخل الغرفة كل أسبوع ليرشها بسموم قاتلة للحشرات.

مضت الأيام عليها ثقيلة. كان طيف «جعفر» يطاردها في كل مكان. في مخدعها حين تتقلب فيه ليلًا يصهرها الشوق إليه، وحين تلمح النخلة الواقفة عند نافذتها، وعلى مقاعد البهو، وفي الردهة المؤدية إلى الغرف، وفي الحديقة التي تحلق فيها العصافير والفراشات.

تمنت لو كانت عصفورة بوسعها أن تطير نحوه حيث يكون، أو موجة تجري في النهر الذاهب إليه، أو دفقة هواء تعاند ما اعتادته الطبيعة فتسري من الجنوب إلى الشمال. كانت كلما رأت المرأة التي اعترفت ضد زوجها، تقول لنفسها: نصرة الحق واجبة.

انقطعت أخبار «جعفر»، لكن ما يجري هناك في المحروسة كانت تنقله الأفواه من قرية إلى قرية حتى يبلغها. يحمله المراكبية الذين يأخذون البضائع إلى «القاهرة». يتحدث به الوجهاء وهم يتوجسون من تبدل الأحوال إلى غير صالحهم. تصل إرساليات إلى العمد تجدد التنبيه عليهم بأن يحفظوا الأمن، ويلجموا أي راغب في الانضمام إلى الثوار.

ووجدت «عبلة» نفسها تقول للعمدة حين جلسا في التعريشة المشرفة على الحقول: لا نعرف شيئًا عن ابن عمك الغائب.

صمت برهة، وقال: الأحداث هناك تهدأ ثم تفور من جديد.

سألته إن كان يقدر على الوصول إلى «جعفر»، فقال: سأرسل من يأتينا بأخباره.

وبينما رسوله يضع قدميه في مركب ذاهب إلى المحروسة، فزع أهل القرى لخبر رج النفوس، وغابت التفاصيل الصغيرة في غمرة الحدث الجلل، الذي لم تكن «عبلة» تدري أنه سيغير حياتها إلى الأبد.

(35)

قال الناس إن الجيش الإنجليزي نزل في القناة التي شارك أهل «الجابرية» في حفرها قبل سنوات، وأن قادة الثورة اصطحبوا الجنود

لملاقاة الغزاة في «التل الكبير». زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر. شُرعت الآذان لتلتقط أي خبر، بينما تكاثفت في الجو غيوم سوداء، وانطلقت همهمات مسكونة بالخوف والرجاء.

خيَّم الصمت على السرايا نهارًا، وفي الليل هجمت الكوابيس المنذرة. هبت «عبلة» مفزوعة، وقد جف ريقها. مدت يدها وصبت من الدورق الزجاجي ماء في جوفها، لعلها تستكين، لكن ما رأته في نومها جعلها لا تشعر أبدًا بالارتواء. كانت قد رأت «جعفر» يمتطي صهوة فرس أبيض، وسط حشد من جُند مدججين بالبنادق. كان وجهه يضيء كأن القمر قد نزل من عليائه واستقر فوق عنقه. كان يزعق ويصمت، يبكي ويضحك، ويشير بيده إلى الأمام، ثم ينطلق. رأت حمم نار تندفع صوبه، لكنه لا يرتد إلى الوراء، بل يتقدم، ويصد النار بصدره، ثم فجأة وجدت الفرس وحيدًا.

صرخت تنادي عليه، لكنه لم يرد. شخصت ببصرها لعلها تراه، فلم ترَ سوى دخان فضي، يتلوى صاعدًا إلى السماء. جرت نحوه، وأمسكت ذيله، فجذبها نحو الفضاء، وهي ترفرف كيمامة فرت من صيادها. راحت تجذب خيط الدخان إلى أسفل، لتعود به إلى الأرض، لكنه تسرب من يديها، فوجدت نفسها تهوي سريعًا، حتى يرتطم جسدها بالرمل، بينما لحن حزين ينطلق داعيًا إياها إلى السكون.

(36)

جاء إلى «الجابرية» غريبان ذات صباح. الأول بهلول، رث الثياب، تحط على رأسه عمامة خضراء مشبعة بالعرق والتراب، وفي عنقه عُقد

من الخرز مختلف الألوان. مشى في الشوارع يدب بعكازه، فيثير حوله الغبار. يتوقف أمام البيوت، وينادي مَن لا يراه الناس، أهو شيخه البعيد؟ أم شخص ظلمه؟ أم آخر قد يلقاه في قابل الأيام؟ لا أحد يعرف.

مدت النسوة والصغار كسور الخبز والبلح، لكنه رفض أن يأخذ من أحد شيئًا، وطلب فقط جرعة ماء. شرب حتى ارتوى، ثم سأل أحد الأولاد: أين الزاوية؟

دلوه عليها فمضى نحوها صامتًا هذه المرة، حتى دخلها عند الضحى، وأغلقها عليه. بلغ مجيئه العمدة فأرسل خفيره يرى أي رجل هو، فعاد إليه يقول: مجذوب، ربما بلغه فراغ الزاوية فأتى ليُعمِّرها.

وتذكر العمدة أيامه مع الشيخ «صفي الدين»، فقال: ليكن طعامه وشرابه من بيتي.

حين زاره «عمر» بعد أيام في الزاوية، نظر إليه طويلًا، وسأله: ألست أنت الذي تركك الشيخ «صفي الدين» في الزاوية البعيدة؟

هز رأسه، وقال: نعم، لكني تركتها منذ سنين، حين تأخر هو في العودة إليَّ، وجاورت الشيخ «عبد الرحيم القناوي» سنوات، حتى حلمت به يدعوني للمجيء إلى هنا.

ربت «عمر» كتفه، وقال: مقدور ألا تخرب لنا زاوية.

ثم أشار إلى هيئته، وقال: لم يكن الشيخ «صفي الدين» مثلك. كان يحرص على نظافة ثيابه، ولا ينقطع للتسابيح، وفي آخر سنوات عمره

كان يذهب إلى الأرض ليرعى شغل الفلاحين، ويرى في هذا جوهر الطريق إلى الله.

صمت الرجل برهة، وقال: ليس لديَّ غير هذه الثياب، وما علقته في عنقي أعطاه لي بهلول عند ضريح «القناوي» وهو مقبل على الموت، وأوصاني بارتدائه، ولا أريد أن أخون وصيته.

ابتسم «عمر»، وقال: حين تعرق في الأرض، ستدرك أن هناك وصية أعظم عليك الالتزام بها.

لاذ المجذوب بالصمت، فواصل «عمر»، وهو يشير بيده إلى الزروع: كانت كل هذه أرضًا بورًا، فضرب فيها المجاذيب فؤوسهم في زمن بعيد، فصارت كما تراها عامرة بالخير.

وأرسل إليه ثوبين نظيفين، وأوصى الخولي بأن يجذبه إلى الزرع، وقال له: أريد للأرض أن تلمس قدميه فتحل بركته فيها، كما كان يفعل الأولون.

الرجل الثاني كان بدويًّا ممن ترك «جعفر» عندهم قطيعه، وكانوا قد باعوا وأخذوا أجر رعيهم، وجاء أحدهم بما يفيض إلى «عبلة». كان آخر غير الذي اعتاد أن يأتي إليها منذ أن فارق صاحب القطيع «الجابرية» وذهب لينضم إلى الثوار. قابلته في البهو السفلي. مد يده في جيبه، وأخرج صُرتين من النقود، وقال: هذا حقك.

كان يبدو عليه انكسار، وفي عينيه كلام كثير حبيس. وكانت هي قد حرصت على أن يبقى القطيع هناك في الجبل، حتى لا ينقطع رزق

الذيـن يقومـون علـى رعايته. نظـرت إليـه طويلًا، وهـو صامت يحط ناظريه عند قدميه، وسألته: أتريد أن تقول شيئًا؟

تنحنح، ورفع وجهه، وقال: جمعتني الأقدار هناك برجل شجاع.

دب في صدرها التوجس، وسألته في لهفة: أي رجل؟

- زوجك «جعفر».

وكان الرجـل الذي أرسـله «عمر» قد عاد قبل يومين دون أن يأتي بخبـر جديـد. اهتـزت لما قاله البـدوي، وأمطرتـه بأسـئلة حائرة: هل رأيته؟ كيف حاله؟ أين هو؟ لماذا لم يأتِ معك؟ متى يأتي؟

بلع البدوي ريقه، وقال: هو في مكان أحسن.

سألته، مغالبة فزعًا راح يضرب صدرها: أي مكان؟

تلجلج قليلًا، ثم استقامت عبارته: عند ربه. ثم راح يتلو الآية: «ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا. بل أحياء عند ربهم يرزقون».

صرخت فهب البدوي واقفًا، وقال: عرفت منه أنك امرأة قوية.

أغمضت عينيها، ومادت بها الأرض، واندلع نشيج في صدرها، فكتمته، لكنه لم يلبث أن انفجر فأجهشت بالبكاء، وقالت له: متى وقع هذا؟

ولمَّا أخبرها بيوم استشـهاد «جعفر»، أدركـت أنه اليوم التالي لهذه الليلـة التـي داهمهـا فيها الكابـوس الغريـب. كان الرجـل قد صحب «جعفـر» إلى المحروسـة، فيوم رحيلـه أوقف المركب عند المرسـى المـؤدي إلى أكواخ البـدو، وذهب إليهـم ليوصيهم بقطيعـه، ويطلب

منهـم أن يراعـوه وكأنه معهم، ثـم يعطوا زوجته حقه مـن بيع الخراف والتيـوس والجِمال. كان يومها يتحدث في حماس عن الواجب الذي نـاداه، وتأثر البدوي به، وكان يعرف أن الثوار قد خاطبوا شـيخ القبيلة ليساندهم، فقال له: لن أتركك وحدك.

عبثًا حاول أن يثنيه عن قراره. قال له الرجل: ربما تحتاج في غربتك إلى مَن يخفف عنك.

طلبـت منه «عبلة» أن يحكي لها كل شـيء بالتفصيـل، كأنها كانت مـع الغائـب، ففعل الرجل، حتى وصل إلى السـاعة الأخيـرة في حياة «جعفر»، فسألته: أين دُفن؟

أجابهـا وريقه قد جف من الحزن والثرثـرة: دفناه في «التل الكبير» مع شهدائنا الأبرار.

سألته، وهي لا تستطيع أن تكبت دموعها: هل تعرف مكان جثته؟

هز رأسه، وقال: نعم.

(37)

صار الناس كأن على رؤوسـهم الطير. عادت الهامات منكسـة من ثقـل الهموم والقهر الراكد فيها. وتسـاءل مَن نجا من المقتلة: كيف لا ينظـر إلـى الأرض مَن خاب أمله؟ كيف لا ينكسـر مَن يفتقد إلى قوت يومـه؟ وكيف لا تتعفـن آراء تافهة يبديهـا المنتفعـون، ويحركها نفاق رخيص، بعـد أن هجرها السـعي للحرية والكرامة؟ وطـرح العارفون سؤالًا أعمق: كيف ينتصر بلد أهين أهله بتدبير محكم؟

وسط الأسئلة التي لا إجابات فاصلة عنها، جيء برفات «جعفر»، وحمله الدوكار الذي كان قد اشتراه «عمر» قبل سنة، ليعاد دفنه إلى جانب أجداده الراحلين. يومها أبلغت «عبلة» ابنها بما جرى لأبيه، وأخذته إلى قبره، فجلس أمامه يجهش بالبكاء. مدت يدها إلى خده، وكفكفت دموعه، وقالت له: كن رجلًا جسورًا مثله.

ربته ليكون كما أراد له أبوه، فكانت تصحبه معها إلى التعريشة، ليسمعها وهي تحاسب الخولي في جدية ودقة، تُراجع ما تم إنفاقه على البذور والسبخ وفلاحة الأرض، وتقدر ما ستغله في موسم الحصاد. لم تجعل هذا يشغله عن تحصيل العلم، فأظهر فيه نجابة، شهد له بها شيوخه. وتوجه أحدهم ذات يوم إلى «عبلة»، وقال: يُستحسن أن يواصل طريق العلم في الأزهر.

سكنت الفكرة رأس «عبلة» واستشارت «عمر» فقال لها: أخشى أن يأخذه الطريق كما أخذ جده «محفوظ».

لكن الولد الذي كان قد طاله الوعي من أوسع الأبواب، قال: لا غنى عن مكان ولدت فيه، ولن أترك أمي وحدها إلا سنوات، حتى أحصل على العالمية كما قال شيخي.

شد «عمر» على يده، وقال: كأني أسمع «جعفر».

ذات صبح شد المراكبي القلوع و«ناجي» واقف على مقدمة المركب يطالع «الجابرية» وهي تغيب رويدًا رويدًا، حتى ابتلعتها المسافات والنخيل والشجر.

(38)

استيقظت «الجابرية» ذات صباح على أحذية غليظة تدق شوارعها المتربة. فزع الناس لما رأوه. أغلقت النساء الأبواب، وربضن داخل البيوت يمددن الآذان إلى ما يجري. كان الرجال يستعدون للذهاب إلى الحقول، فتسمرت فؤوسهم فوق أكتافهم. كل واحد منهم ظن أن الأذى سيطوله، لكنهم لم يلبثوا أن عرفوا مَن يقصد الضابط وعساكره. قصدوا بيت العمدة، فجاءهم على عجل بلباس النوم، نظر إليه الضابط وقال: هرب مسجون من قريتكم، بعد أن قتل أحد الحراس.

لم يكن هناك مساجين في القرية سوى الخمسة الذين قُبض عليهم في قتل «زاهر»، فسأل العمدة: مَن هو؟

- اسمه «برهوم أبو تعلب».

كان هو الرجل الذي شهدت امرأته ضده، فخاف «عمر» من أن يقصد السرايا بسوء، حين يعرف أنها خادمة فيها. قال للضابط: لم يأتِ إلى هنا، ربما يكون قد صعد الجبل.

قال الضابط في حسم: عليك أن تفتح عينيك جيدًا، وليبحث خفرك عنه في الزراعات.

ثم سأل الضابط: أين بيت الهارب؟

فتش العساكر البيت فلم يعثروا سوى على أولاد الرجل، بينما كانت أمهم قد غادرت إلى السرايا. سأل الضابط عن بيوت أقربائه فلم

يترك أيًّا منها دون تفتيش، لكن هذا لم يأتِ بجديد، فغادر القرية مكلفًا العمدة بالتحري والبحث، حتى يعثر عليه. وفتش الخفر الزراعات. دخلوا غيطان الذرة والقصب، تطلعوا إلى النهر والجسر، ومدوا أبصارهم إلى هامات النخل والشجر، وشاركهم الفلاحون البحث، لكنهم لم يجدوا أثرًا للهارب.

كان «عمر» قد هرع بنفسه إلى السرايا لينبه «عبلة»، ثم اطمأن إلى قيام السور الذي يحيط بها على حاله. صرخ في الخفير: افتح عينيك جيدًا، ولتكن بندقيتك عمرانة دومًا. إمعانًا في الحرص طلبت «عبلة» من زوجة الرجل أن تبقى إلى جانب أولادها، وتغلق باب ونافذتي بيتها بإحكام، فربما هرب لينتقم منها. وكلف «عمر» اثنين من خفره لتبادل الوقوف على باب بيت المرأة، فإن خرجت لأي سبب فليذهب أحدهما معها، حتى تعود.

مضت الأيام دون أن يظهر الرجل، وقال شيخ الخفر: لا بد أن يكون قد انضم إلى الفلاتية.

صمت «عمر» برهة، وقال: إن فعلها صار أشد خطرًا.

قلل شيخ البلد من الأمر، وقال: لن يجرؤ على القدوم إلى هنا، فهو يعرف أننا سنرسله إلى السجن مرة أخرى.

طوح «عمر» يده في الهواء مستهينًا بما سمع، وقال: مَن أدراك أنه لا يفكر في الانتقام مني أنا. ألست مَن قبض عليه وسلَّمه إلى الثُّمن؟

رد شيخ الخفر: عندها يكون قد حفر قبره بيده.

(39)

هاجم «عزة» مرض شديد، فانشعل «عمر» بمرضها، وأدرك أنها النهاية. أخفق المُزيِّن والعطار في مداواتها، وراح جسدها الذي غزته بُقع سوداء، تؤكد شيخوختها الواهنة، يتداعى حتى أسلمت الروح ذات ليلة مظلمة. غسلوها بعد انتصاف الليل، وحفروا لها قبرًا إلى جانب «رقية» و«ناعسة»، وحمل الرجال نعشها، وساروا به على ضوء المشاعل إلى المقبرة.

وبينما كانوا منهمكين في دفنها، دوت صرخات عالية من السرايا، وانطلقت رصاصات تمزع السواد والسكون. وقف المشيعون يتطلعون إلى مصدر صراخ الحناجر، وفرقعات البندقية. وقال «عمر»، وهو يهيل آخر حفنة من التراب على قبر الراحلة: وقع المحظور.

جرى مغبرًا نحو السرايا، وخفره والفلاحون يتبعونه وفي يد بعضهم مشاعل يذبل نورها، حتى بلغوا السرايا. كان الخفير يقف عند بابها الخارجي فوق رجل ملقى على الأرض ينزف ويتوجع، وفي يده سكين عليها آثار دم يجف. ملأ «عمر» عينيه منه، وعرف أنه «برهوم». سأل الخفير عما جرى، فأجابه وهو يرتعش: تسلل هذا اللص إلى السرايا، واعتدى على السيدة «عبلة».

أمر «عمر» رجاله أن يأتوا بالمُزيِّن ليرى جُرح «عبلة»، وهرع إلى داخل السرايا، وخلفه الرجال. لكنه أشار إليهم عند الباب أن يقفوا منتظرين، وصعد إلى الطابق العلوي. حين دخل إلى غرفة «عبلة»

وجدها ملقاة على سريرها تنزف، وحولها الخادمات يتقلبن في خوف وحيرة، وهن يحاولن وقف الدم النازف، دون جدوى.

صرخ «عمر» في إحداهن: هاتي المُزيِّن.

وقال لأخرى: اطلبي من الخفر أن يأتوا إليَّ بالدوكار.

جلس إلى جانب «عبلة»، وهي تنظر إليه بعينين غائمتين. كان الدم ينزف من كتفها اليسرى، مد يده، وأزاح جلباب النوم عن الكتف، فأطل الجرح غائرًا. تحسسه بأصابعه، وقال: الحمد لله، الطعنة بعيدة عن القلب. لكن أناتها راحت تتصاعد، وجسدها يتراخى في استسلام، وفي عينيها رجاء مَن يتشبث بالحياة.

قال «عمر» للخادمة: هاتي برطمان البن. سكب في راحة يده حتى امتلأت، وكبس الجُرح بأطراف أصابعه، وداس عليه خفيفًا، وهي تكبت صراخها من فرط الألم. انفطر قلبه لوجعها وضعفها الذي لم يعهده فيها من قبل، فوجد نفسه يأخذ رأسها على فخذه، ويمد أصابعه إلى شعرها الطويل الذي انثال فوق صدرها، ليبعده عن الجرح، ثم أمسك يدها، ليختبر النبض فوجده يجري سريعًا.

قال لها وهو يغالب دموعه: اجمدي، أنتِ قوية، ستكونين بخير.

رغمًا عنه سقطت منه دمعتان على خدها الأسيل، ففتحت عينيها لترى في عينيه آلاف المعاني المطمورة تحت إرادة الكبت والحرمان الطويلين. لمَّا وصله ما وصلها، ارتجف خجلًا ووجلًا، وقال لها: أنتِ الغالية دائمًا.

ولم يكن في شروده ينتبه إلى الخادمات، فلسعه صوت إحداهن، حين قالت: غالية وعالية يا سيدي.

وقالت له «عبلة» بصوت خفيض متقطع: أوصيك خيرًا بابني «ناجي».

رد في جزع: هو في عيني، لكن ستظل عيناكِ عليه، وترين أولاد أولاده.

دخلت خادمة أخرى، وقالت وهي تلهث: الدوكار جاهز.

كان المُزيِّن قد وصل قبلها. مسَّ الجرح بأصابعه، فوجد البن قد ساعد على تجلط الدم، لكنه أوصى بنقلها إلى مستشفى في البندر. طلب منها أن تشرب ماءً كثيرًا. أتى «الدوكار» فأسندتها الخادمات حتى ركبته، وإلى جانبها «عمر»، يجفف عرقها بمنديل من قطن ناعم، ويهمس في أذنها: اجمدي يا ست الستات.

راق لها ما خاطبها به، وكانت تسمعه منه لأول مرة. فتحت عينيها قليلًا، فرأت انخطاف لونه من فرط الجزع، فقالت له: لا تخف، سأكون بخير.

أزال الطبيب البن المخلوط بالدم، وطهَّر الجرح جيدًا، ورش عليه محلولًا يخدره، ويهيئه لإبرته، التي كانت كلما انغرست في الجلد واللحم تأوهت متألمة، بينما «عمر» يتقافز مكانه، كأن الإبرة تنغرس في لحمه. رآه الطبيب على حاله هذه، فقال له: واضح أن زوجتك لها في قلبك مكانة عالية.

سـمعت هي ما قيل، فصمتت ولاذ «عمر» مثلها بالصمت، وسـاح كلاهما في خواطر متشـابهة، بل متطابقـة. وفي رحلة العودة، قالت له في صوت مسكون بالامتنان: أشكرك على كل ما فعلته لي.

مـلأ عينيـه مـن الكتلة البيضـاء التي حطـت على كتفها مـن القطن والشاش الأبيض، وقال: جُرحك جُرحي، والله أعلم.

ابتسمت، وقالت: حب «جعفر» لك لم يأتِ من فراغ.

لسـعه ذكر اسم الراحل، فشعر بخجل وغيرة في آن، لكنه تماسك، وقال لها: كان أخي، بل كنت أراه نفسي.

صمتت برهة، ثم قالت له: رحمه الله، والبركة فيك.

أراد أن ينطق شيئًا، لكنه بلعه، وكانت هي قد اعتدلت في جلستها، فرأت شفتيه ترفان في صمت، لكن عينيه نطقتا بما لم يجرؤ على قوله. كان فيهما ما رأته في عيني «جعفر» حين كان يأتي إلى السـرايا لمقابلة أبيها وأمها مثقلًا بعشقها، ثم وهو يتسلل إلى غرفتها، أيام أن كان على باب البوح لها بما يكنه صدره.

(40)

اندمل جُرح «عبلة» وانفتح جُرح «عمر». صار ألم الجسد شيئًا هينًا فـي وجه ألم الروح. تراجع الأول مع الدواء الذي وصفه الطبيب ومع غيار القطن والشـاش المغموس فـي المحاليل المطهرة، الذي واظب المُزيِّن على تجديده يوميًّا. أما الثاني فكان يتجدد نزيفه كل يوم.

التهبت مشاعر «عمر»، فغرق في عشق «عبلة»، ولم يدرِ كيف يبرأ منه. كبته في الماضي البعيد القريب، حين وجد «جعفر» في طريقه، وأدرك أن الفتاة التي مال إليها تعشق غيره. ذهب «جعفر» بلا عودة، لكن العشق لم يذهب. كان شرارة خابية تحت أكوام من الرماد الكثيف، ما إن أُلقي فوقه حطب جديد حتى اشتعل. كان أرضًا قاحلة، ما إن انهمر فوقها المطر حتى نبت فيها كل ما تختزنه من بذور حملتها الريح في غفلة من الجميع. كان خيطًا من نور يحجبه ظلام دامس مسكون بالخوف والحيرة والحرمان، ما إن انقشع حتى فج عفيًّا يبدد كل ما يقع أمامه.

جلس في السلاملك يستعيد الوقت الذي قضاه مع «عبلة» في رحلة قصيرة اندمل فيها جرحها. ذهب الوقت ولا يمكن إرجاعه، لكن التفاصيل التي سكنته هجمت كعاصفة. سكناتها وحركاتها، صمتها وهمساتها، وكل ما كان يطل من عينيها.

ووجد نفسه مثقلًا بهموم تنوء بها الجبال، فنهض وسار نحو الزاوية. كان المجذوب قد عاد من الكدح في الأرض، ألقى فأسه إلى جانبه، وجلس في اتجاه القبلة يطلق لسانه بالتسابيح. وقف على باب الزاوية، فرآه المجذوب، ملأ عينيه من وجه «عمر»، وقال له: لا يحتار مَن عرف الطريق.

- ليس طريقًا واحدًا، إنما تشعبت أمامي الدروب.

- بل هو درب لا ثانٍ له، إنما هي الظنون والمكابرة.

اقترب «عمر» من المجذوب، وجلس إلى جانبه، وسأله: كأنك تعرف لماذا أتيت إليك؟

- الصب تفضحه عيونه.

- كبرنا على الصبابة يا عم.

- العشق لا يستأذن أحدًا، ولا يختار وقتًا، وما دام القلب ينبض، يتسلل إليه، ولو كان المرء يمشي على ثلاث.

ورآها «عمر» ثاني كرامة للمجذوب بعد نزوله الأرض يكدح مع الفلاحين، لكنه سأله: كيف عرفت بحالي؟

ابتسم المجذوب وقال: لا اختلاف في المحبة. لاذ «عمر» بالصمت، فواصل المجذوب: محبة الخلق من محبة الرب. في الاثنين انكسار، وذهاب هيبة تلقيها أوهام الدنيا في نفوس الغافلين. ثم نظر المجذوب إلى باب الزاوية، حيث لاح الزرع والسماء، وقال: في التردد حسرة بالغة.

أدرك «عمر» أن المجذوب قد اقتحمه. بدت نفسه أمامه عارية، فقال له: أخشى من الصد، ولا أقدر عليه.

ابتسم المجذوب، وقال: الطريق واحد، ومفتوح أمامك، فاقطعه في خطوات قليلة، وستجد كل شيء ميسرًا.

اكتسى وجه «عمر» بالسرور والطمأنينة، وهب واقفًا، وهو يقول للمجذوب: إن كان ما تقول فلك الحلوان.

هز المجذوب رأسه هازئًا، وقال: حلواني أن أراك قد قتلت الحيرة والظنون.

سار نحو السرايا، وصعد إلى غرفة «عبلة» مدفوعًا بطاقة جبارة، اختزنها في نفسه، وأغلق عليها كل الأبواب والنوافذ، ليبقيها على حالها التي كانت عليها وهو في الزاوية. ما إن جلس في مواجهتها، حتى قال لها: آن لوجعي أن يلحق بوجعك.

ابتسمت، وتطلعت إليه، وهو يبعد عينيه عن عينيها، ثم قال: لم يزر النوم عينيَّ منذ عودتي من المستشفى.

كان التعب باديًا على مُحيَّاه، وليس في حاجة إلى شرح حاله، فسألته: ما الذي يُتعب عمدتنا؟

صمت برهة ثم قال بصوت غارق في التبتل: لا يُتعبني غيرك.

لم تندهش، ولم تنطق بشيء، وتطلعت إليه من جديد تاركة إياه يكمل، فقذف الكلمة التي كبتها طويلًا، وقال: أريدك في الحلال.

كان إحساسها قد سبق لسانه منذ أيام، لكنها، وكعادة الأنثى في مثل هذا الموقف، أبعدت عينيها سريعًا عن ملاقاته، فأدرك هو ما عليه أن يقوله: لا أريد ردًّا منك الآن، قلِّبي الأمر في رأسك، وعليَّ أن أغلب قلق الانتظار. وأمهلها أسبوعًا، لكن قلقه العارم دفعه في اليوم الخامس إلى السرايا. التقته هذه المرة بوجه باسم فاطمأن قلبه، لكنه فوجئ بها تقول له: لا بد من أن أشاور ابني.

ـ هو يعرف جيدًا أن الشرع لا يمنع زواجنا.

- ليت الأمر يقف عند هذا الحد.

هرب الجزء الأكبر من طمأنينته، وتطلع إليها في ود، وسألها بصوت غارق في الرجاء: هل هناك عقبة أخرى؟

- زوجتك ستغضب، ولا أريد أن أفعل ما يخرب البيوت.

اكتسى وجهه بمسحة من الغضب، لكنه كتمها، وقال: منذ متى كان رجالنا ينتظرون رأي النساء؟

ـ لا تنسَ أنها قريبتي، وهذا يزيد الأمر صعوبة.

مد يده ليمسك يدها، لكنها سحبتها في رفق، وسمعته وهو يقول: سأفاتحها، وأنا واثق من إقناعها.

اعتدلت في جلستها، وقالت: لا أعرف أن زوجة ترضى بضرة.

لم يجد بدًّا من مصارحتها، فقال: تزوجتها دون حب، ولم أظلمها، ولم أنقص من حقها شيئًا. ثم استجمع شجاعته، وقال: أصابها برود منذ انقطاع دورتها الشهرية، وتتهرب مني بحجج واهية.

احتمت بالصمت الخجول من جديد، فواصل هو: لم ينبض قلبي يومًا لامرأة إلا أنت.

رفعت عينيها إليه، وسألته: منذ متى؟

أجابها دون تردد: حين رأيتك أول مرة، ثم كتمت مشاعري بعد أن أسرَّ إليَّ «جعفر» بما بينكما.

ابتسمت، وقالت: هذا نبل منك على أي حال.

أطربه قولها، وأراد أن يطمئنها، فقال: دعي لي «هنية»، وسأحرص على ألا أكسر قلبها.

نظرت إليه بطرف عينها، وقالت ساخرة: لو طالني ما طال «هنية»، فهل تبحث عن ثالثة؟

نظر إليها في تمعن، وقال: تختلف النساء في هذه، وعمومًا فأنا يكفيني منك أن أرى وجهك الجميل.

ضحكت، وقالت: صرت تقول كلامًا جميلًا يا عمدة.

تنهد، وقال: يتجمل الكلام في حضرة الجميلة.

ضحكت وقالت: ما أدراني أن تكون «هنية» قد سمعت هذا من قبل.

أفاق من نشوته، وقال: سأفلح في إقناعها.

لكن «هنية» صرخت في وجهه حين فاتحها، وقالت: أكلتني لحمًا وترميني عظمًا يا ظالم؟

كانت ذريعته حاضرة، فاقترب منها في تودد، وقال: أدخل عليها السرايا دومًا، وتأتي هي إليَّ في التعريشة، لمراجعة حسابات الأرض، وأريد أن أُخرس الألسنة.

أجهشت بالبكاء، فوضع يده على رأسها، وقال: لست أول رجل يتزوج فوق امرأته.

أزاحت يده في غضب، وقالت: لم أقصر في شيء حتى تمد عينيك إلى واحدة غيري.

زاد من حيلته، فقال لها، مؤكدًا كلامها: لا أنكر إخلاصك وكرمك.

واعتقد أنها في طريقها إلى الرضا، فقال: أعاهد الله على أن أعدل بينكما. لكنها فاجأته بما لم يكن في حسبانه، وقالت له في حسم: لن أقبل بضرة، فإن عزمت على تنفيذ ما في رأسك، فلتفعله دون أن أكون على ذمتك.

سألها في جزع: ما معنى هذا؟

أجابته بنبرة قاطعة: تطلقني.

ثم نهضت، وقالت: سأذهب إلى بيت أخي «رشدان»، وأنتظر، فإما أن تُراجع نفسك، أو ينتهي ما بيننا.

ثم التفتت إليه، وقالت: لكنني لن أسامحك أبدًا.

(41)

لم يمانع «ناجي» في زواج أمه، وأفهمها «عمر» أن غضب «هنية» سيأخذ بعض الوقت، لكنها ستعود في النهاية إلى بيتها، وقال: تفك الخط، وربما منحها هذا عقلًا متزنًا، سيهديها إلى ما في صالحها.

ضحكت «عبلة»، وقالت: كان أبوها يأتي بها أحيانًا لتحضر دروسي، وأشهد أنها امرأة ذكية، تستوعب ما تسمعه سريعًا، لكنها

ضيقة الصدر، غيورة. كانت على النقيض من أختها التي لم تُقبل على التعليم، لكني كنت أراها متسامحة.

هز «ناجي» رأسه، وقال: تداوي الأيام جراحًا عميقة.

كانت «عبلة» مطمئنة إلى محبة «عمر»، ومستجيبة لنداء يسكنها عن حاجتها إلى رجل. كانت على رزانتها لا تقوى على العيش دون مَن يدفئ لها فراشها. عاشت سنوات تنتظره قبل أن يظهر «جعفر» في حياتها، وما إن قابلته حتى أخذته منها المطاردة، فلما مكث إلى جانبها تركها ساعيًا خلف نداء آخر، لم تقتنع هي بأنه سبب كافٍ ليُكتب عليها الفراق من جديد. طالما عضت بأنيابها على الوسادة الخالية إلى جوارها، وهي تستعيد اللحظات التي تحلق فيها خارج كل شيء، وهو يغرس داخلها آخر امتداد لحرقته العارمة. تعلمت معه أكثر أنها لا يمكنها الاستغناء عن رجل.

لم يكن «عمر» أقل وسامة وقوة من «جعفر»، ويزيد عنه إخلاصًا للعمل في الأرض، وحرصًا على تعزيز ماله، بلا شح ولا إسراف. لم تنكر «عبلة» حين كانت تجلس إليه لتراجع معه تكاليف الأرض وعوائدها، أنها تمنت لو كانت مهارته في هذا قد حلت في نفس «جعفر»، وهي عندها ليست بالأمر الهين الذي تريده في رجلها، كما رأته في أبيها الوجيه.

كان قد وافق على طلبها بأن يقيم معها في السرايا، وحين تململ، قالت له: لم أعتد غير هذا المكان، ولا أريد أن أسلب «هنيَّة» بيتًا ستعود

إليه. لكن «هنية» لم ترجع. صممت على الطلاق، واستردت أرضها التي كان «عمر» يزرعها، فانتقل الإشراف عليها إلى أخيها «رشدان» ومعه ابنها «رافع» الذي كان أقرب إليها من أبيه، حتى إنه غضب لغضبها، وصحبها إلى حيث استقرت، وهو يقول: الأم أولى بولدها.

(42)

اكتشفت «هنيَّة» بعد طلاقها أنها امرأة مسكونة بضغينة فوق طاقتها. كانت قد كبتتها طويلًا، ولم تجد لها مصرفًا. لم تكن في حاجة إلى التفكير في إيذاء أحد، ولا التخطيط للإضرار بأحد. قضت سنوات شبابها الأولى حبيسة في دوار أبيها العمدة، لا تزورها لحظات حقد إلا حين تسمع عن زواج أي من فتيات القرية اللاتي يصغرنها سنًّا، لكنها كان تعزو تأخر زواجها هي وأختها إلى أن أحدًا من شباب القرية لا يجرؤ على طلب يد أي منهما، وهم فقراء لا مال لهم، حتى جاء الشبان الثلاثة الغرباء، وامتلكوا الجرأة، ثم أتاهم المال.

لم تنسَ أمها، التي كانت بنت عم أبيها، أن تحكي لها الحكايات القديمة، لكنها لم تنشغل بها كثيرًا؛ لأن «الجابرية»، وقتها كانت خالية من «الصوابر». لم تجد مَن تدفع إليهم حنقها وغضبها، وعدتهم جزءًا من الماضي البعيد، الذي يُستعاد على سبيل التسلية، أو ليثبت مَن يحكيه كيف كان قويًّا وانتصر، وآلت إليه الأمور.

طالما سمعت من أبيها، يقول عن الوجيه: أخشى أن يكون آخر رجالنا الكبار، فابنه لا يُبشر بخير.

وحين قالت له: أنت كبير أيضًا يا أبي.

ابتسم وقال: بين «الجوابر» درجات، لم تختلط، ولا ينساها الناس.

لم تجد «هنيَّة» ما تنوي الحديث فيه لأخيها «رشدان»، فقال لها مختصرًا الطريق: لا ينتصر مَن استعجل.

ارتاحت لقوله، وسألته: هل تدبر أمرًا يعيد إلى أختك كرامتها؟

أجابها في تململ بسؤال أيضًا: هل يريحك أن أقتل «عمر»؟

ضربت صدرها بيدها، وقالت: هذه الهزيمة بعينها. تساق أنت إلى السجن، وترث «عبلة».

ربت كتفها، وقال: عليك أن تصبري، ولا تنسي أننا الطرف الضعيف في هذه المعركة.

فطنت إلى ما يعنيه، وقالت: إن كانت أرضنا أقل، فليست الأرض كل شيء.

ابتسم في مرارة، وقال: تربينا على أنها سبب القوة الوحيد في بلادنا.

نظرت في عينيه مليًّا، وقالت: عزوتنا أكثر، فهو الوحيد من رجال «الصوابر» هنا، فابن «جعفر» قد يأخذه طلب العلم في الأزهر إلى غير رجعة، وابن «عمر» من رحم أختك، يميل إلينا.

تنهد في ضجر، وقال: يبدو أنكِ قد نسيتِ أن أغلب «الجوابر» يدينون بالولاء للسيدة «عبلة»، ويتحركون دومًا بإشارة من يدها.

عضت على أسنانها، وقالت: خائنة، لم تخلص لحكايات الأجداد.

قهقه «رشدان»، وقال لها: تسبين أباك، وتسبين نفسك، فهو تزوج من ابنة «الصوابر»، التي هي أمي، وعقد قرانك راضيًا على أحد شبابهم.

تنهدت في حرقة، وقالت: أبي لم يعرف إلا بعد أن قُضي الأمر.

ضحك «رشدان» وقال: كنت سأقدر كلامك لو أن أبانا طلق زوجته فور أن أخبرته بنسبها، وطلبت أنت الطلاق فور أن عرفت مَن يكون «عمر».

ثم صمت برهة، وقال لها: ابنك انحاز لأمه، وإن فعلت مثله سأكون مع أمي.

صرخت فيه من جديد: لا تقارني بمَن ماتت.

تثاءب وقال لها: لا تعتقدي أن حقدي على «عمر» يعود فقط إلى رغبتك التي انفجرت فجأة، إنما هو خوفي من أن يكبر أكثر بعد أن وضع يده على مال «عبلة»، ويبتلعني في طريقه.

هنا فتح «رشدان» الباب لأخته، لتخبره بما فكرت فيه طوال الأيام الفائتة. اغتصبت ابتسامة عجلى، وقالت: إن لم تكن لك أرض مثلهم، فيمكنك أن تسبقهم إلى ما يرفعك فوقهم سريعًا، وتسترد العمدية التي ضاعت منا في غفلة.

سألها، متلهفًا: ما هو؟

تنحنحت، ثم انخفض صوتها، وكأنها تخشى أن يسمعها أحد: الصناعة.

نظر إليها متعجبًا، وقال: لم نرث عن أجدادنا سوى الزراعة، ولا نعرف غيرها.

ابتسمت، وقالت: الصناعة تحتاج إلى مال، وأنا سأساهم بما لديَّ، أما مَن يصنعون فيمكننا أن نؤجرهم، كما نؤجر الفلاحين لأرضنا.

واقتربت منه، وقالت: قبل سنة، جاء إلينا رجل يهودي من «قوص» وعرض على «عمر» إنشاء معاصر قصب لصناعة العسل والسكر والزيوت، لكنه رفض.

انتبه أكثر إلى ما تقول، وسألها: أتعرفين اسم الرجل وعنوانه؟

- اسمه «قطاوي» ومعروف للناس جميعًا في «قوص».

(43)

عاتبت «رضيَّة» زوجها «محمود» لأنه لم يتدخل ليُثني «عمر» عن قراره. أنصت إليها، ثم سألها هازئًا: أيحزنك حال أختك أم تخافين أن أفعل مثل «عمر»؟

ارتفع صوتها وهي تقول له في تحد: افعلها، وسترى ما يجري لك.

وكان قد اعتاد منها حدة، منذ أن عرفت أنه من «آل بخيت»، وأن أجداده كانوا خدمًا في سرايات «الصوابر» وأجراء في أرضهم، وأن

النسب الذي قام بينهما كان اضطرارًا أيام «نجع بحر»، فلم يجد سوى ابتسامة يمرر بها الموقف، وقال: دائمًا ما تقلبين الهزار جَدًّا.

عادت إلى سيرتها الأولى، فقالت: لا هزار في مثل هذا الأمر، ولا أسمح لك بأن تنطق بهذا، بل مجرد وروده على خاطرك مرفوض.

ضايقه أن تُمعن في الحديث معه بهذه الطريقة، خاصة أنها كانت تبدو متعمدة إهانته، فوقف غاضبًا، وقال لها: لم أعد أطيق ما تقولينه وتفعلينه.

وكان يظن أن كلامه سيجعلها تكف عن التطاول، لكنها تمادت، وقالت: أنت قبلت أن تعيش ظلًّا للصوابر.

تطلع إليها غاضبًا، ثم نهض يريد أن يغادر البيت، لكنها رشقته بسهم قاس: لا تريد أن تنسى أصلك القديم.

توقف، ثم اقترب منها، ونظر إليها فوجد في عينيها تحديًا وعنادًا، فلطمها على وجهها. جن جنونها، وصرخت: أتضرب ستك يا خدَّام؟

همَّ أن يلطمها من جديد، لكنه تمالك نفسه، وقال لها، وهو يعض على ضروسه: الخدم أفضل من «الجوابر»، آكلي السحت والقتلة.

ثم قال لها، وهو يهم للخروج من البيت: أعود فلا أجدك هنا.

وجد نفسه يسير نحو الزاوية. كان الليل يرمي عليها سوادًا كثيفًا، تثقبه لمبة جاز واهنة الضوء، معلقة في جدارها، تهدي نورها إلى

الحصير المفروش خارجها. جلس ينظر إلى بحر الظلام الممتد فوق الزروع، ثم حط بناظريه على القبور، حيث الصمت الجليل. خرج من رأسه شبح، تراقص هناك، تهيأ له أنه لفاتنة «آل بخيت» التي صارت سيدة الجميع في الزمن القديم، فوجد نفسه يناديها: عمتي «بديعة»..

سمعه المجذوب فخرج إليه، وكان قد عرف صوته، فقال له: يتسع الخلاء لمَن ضاق صدره بالهموم.

رفع إليه وجهًا كسيرًا، وقال: لا يريد أهل هذه القرية أن ينسوا الماضي البغيض.

ابتسم المجذوب، وقال: كان ذهبت، ويكون ذاهبة، وسيكون مآلها إلى ذهاب.

فطن «محمود» إلى مقصود الكلام، فقال: لا شيء يذهب طالما الحكايات تولد، وترددها الألسنة على الدوام.

قال المجذوب: لا يميز بين الناس سوى التقوى.

ضحك «محمود» ساخرًا، وقال: لا مكان لها في صدور يسكنها الغل والفساد.

جلس المجذوب إلى جانب «محمود»، ومسح بكفه على رأسه، وتلا سورة «الناس» ثلاث مرات، ثم قال له: ساعة شيطان وذهبت، فلا تجعله يغلبك. لاذ «محمود» بالصمت، فواصل المجذوب: ليس هناك أسوأ من خراب البيوت.

وأدرك «محمود» أن الرجل قد وصله ما جرى، فقال: أهانتني يا مولانا.

قال المجذوب: لا تخلو البيوت من غضب، والرجل العاقل مَن لا يقرر وهو غاضب.

قال «محمود»: عزمت على تطليقها.

نظر إليه المجذوب في إشفاق، وقال: لا تُقدم على شيء بغيض.

ثم طلب منه أن يقوم معه إلى القبور، فلما صارا بينها، رفع المجذوب يده، وأشار إليها، وقال: هنا يُدفن الفرح والحزن، والهدوء والغضب، مع أصحابه.

تنهد «محمود» في حرقة، وقال: ليت الحكايات قد دُفنت معهم أيضًا.

(44)

لم توافق «هنيَّة» أختها على ترك بيتها، وقالت لها: لا تخيبين مثلي، وتفسحين الطريق لامرأة أخرى، تحصد ما زرعت.

رفعت رأسها إليها متعجبة، وقالت: كأن ضرب أختك لا يجرحك.

أخذت رأسها بين كفيها، ونظرت طويلًا في عينيها، وقالت: ولدت الفرصة ليكون «محمود» معنا، فلا تُضيِّعيها.

وسألتها في جزع: أي فرصة؟

صمتت برهة، وقالت: لا يجب أن يبقى زوجك تابعًا أعمى لطليقي الغادر.

وضعت يدها على خدها، حيث أثر الصفعة كان لا يزال باديًا عليها، وقالت: لن يصبح الخادم سيدًا.

ضحكت «هنية»، وقالت: هو كذلك لأنه لم يجد مَن يفتح عينيه على ما يجب عليه أن يفعله.

كانت قد أحكمت في رأسها تدبيرًا، تُبعد به «محمود» عن كنف «عمر» فيصير عقله وقلبه مع «الجوابر»، ثم قالت: لم يخلُ الزمن من بعض رجال «آل بخيت» وقد مالوا إلى «الجوابر».

سكن الكلام رأس «رضيَّة»، لكنها قالت: طردني من البيت.

- دعي هذه لي، ويكفي أن غضبك قد فتح لنا الطريق.

- أي طريق؟

- حين يأتي مَن أرسلنا في طلبه، ستعرفين كل شيء.

(45)

جاء «قطاوي» إلى «الجابرية» على عجل. جلس مع «رشدان» في السلاملك القديم. جفف عرقه بمنديل قطني أزرق، وقال: حدثت العمدة عن باب رزق واسع، لكنه أغلقه.

ابتسم «رشدان» ساخرًا، وقال: دعك منه، فرأسه سيظل، طوال عمره، مدفونًا في الطين.

ثم اقترب من «قطاوي»، وقال: أنا جاهز لأسمع منك.

حدثه «قطاوي» عن السكة الحديدية التي سيمدها الإنجليز لتمر بـ «الجابرية»، وقال له: كل شيء سيتغير بعدها، والذكي مَن ينظر إلى الأمام.

سأله «رشدان» عن الصناعات التي يمكن إقامتها في القرية، فأخبره بأن أفضل صناعة في مكان يزرع فيه القصب هو العسل الأسود والسكر، أما القطن فيخرج الزيت من بذوره، وما تبقى تضاف إليه أشياء أخرى، ويصبح علفًا لتسمين العجول.

وسأله قطاوي: كم عدد رؤوس الجاموس في القرية؟

قهقه «رشدان»، وقال: لم أفكر في عدها من قبل. ثم حك ذقنه وقال: جرت العادة في بلدنا منذ زمن طويل أن كبارها يشاركون الفلاحين على الجاموس والبقر والغنم، إلى جانب ما يربونه في حظائرهم. وصمت برهة، محاولًا أن يستجمع عدد الماشية التي يملكها، وما هو ملك «عبلة»، وما في حظيرتي «عمر» و«محمود».

أخرجه «قطاوي» من شروده، قائلًا: من الآن عليك الاهتمام بكل شاردة وواردة في «الجابرية» وما حولها من قرى. وأخبره بأن بإمكانهم جمع الألبان من الفلاحين، ويا حبذا لو صنعوا معملًا لإعداد الجبن والقشدة، ووضعها في صفائح، لتصديرها إلى البنادر، ثم قال له: ابني «ليشع» لديه خبرة طويلة في هذا.

سـأله عـن الطريقة التـي تجري بهـا صناعتهم، فقـال: عليك رأس المال، وعليَّ الخبرة مقابل ربع الأرباح.

اكتسـى وجه «رشـدان» بالحيرة، فمن أين يدبر كل ما هو مطلوب، كي ترى «الجابرية» على يديه ما لم تره من قبل. لكن «قطاوي» اختصر لـه المسـافة، فقال: ليـس كل المال نقـودًا، إنما أرضك التـي علينا أن نزرعهـا بمحاصيـل تحتاجها صناعتنا، فـإن لم تكفِ عليـك أن تؤجر المزيد من الفلاحين، أو نشتري منهم ما نريد.

فتح «رشـدان» خزانته وأحصـى ما فيها، وقدَّر أثمـان حُلي زوجته وأختيه، لكن ما جمعه لم يكن كافيًا لإقامة العصارات والمعامل. فكر في الاستدانة ليُطلق ما يريد، لكن «هنيَّة» قالت له محذرة: نبدأ بعصارة القصب، ومن تراكم الأرباح نقيم ما بعدها.

سـألها إن كان من الأفضل أن يبيع جزءًا من أرضه، فقالت غاضبة: لن يستفيد من هذا سوى «عمر».

وكان ابنـه «بهاء» يدخل عليهما السـلاملك، فنظـرت إليه، وقالت لأخيهـا: لا تترك ابنك بـلا أرض، فمهما صنعنا، فهـذا يمكن أن يتبدد بين ليل ونهار، أما الأرض فلا أحد يحملها على ظهره ويمشي. فقهقه وقال: لكنه يمكن أن يحمل خيرها ويحرم أصحابها منه. ثم قال لها في جدية: نرهن الأرض، ونستردها فيما بعد.

إلا أنهـا رفضت هـذا الخيار، وقالـت: إن دخل «محمود» شـريكًا معنا، فلن نكون بحاجة إلى الاقتراب من الأرض بيعًا أو رهنًا.

قهقه من جديد، وسأل: وهل يقبل بعد ما عيَّرته به أختنا؟

ولأنها أحكمت التدبير، قالت في ثقة: سيكون معنا. أنا أضمن هذا.

قامت على الفور، وتوجهت إلى بيت «محمود». كان يجلس حزينًا في صالة بيته، يمضغ في بطء طعام العشاء، ويحملق في السقف شاردًا. جلست إلى جواره، وقالت، وهي تمد يدها إلى كسرة خبز: مَن أكل خبز الناس وجب عليه أن يخلص لهم.

شعر بخجل؛ لأنه نسي أن يدعوها إلى العشاء، وقال: لو علمت بزيارتك لطلبت من الخادمة أن تعد لكِ وليمة.

ضحكت، وقالت: بصلة المحب خروف.

رفت على شفتيه ابتسامة، لم تلبث أن ماتت، وسألها: أين المحبة فيما فعلته أختك؟

- وبختها أنا وأخي، وندمت على ما قالته.

- يخرج المكتوم وقت الغضب.

- في كثير من الأحيان يدفع الغضب صاحبه إلى الهلوسة.

- لم أتعود في أختك الجنون.

- لكنك اعتدت فيها الرعونة. إنها الصفة السيئة التي نعرفها فيها منذ صغرها، وطالما حذرناها من عدم مضغ الكلام قبل النطق به، لكنها لم تتعلم شيئًا.

وسألها «محمود» إن كانت قد جاءت إليه بطلب من زوجته، فوجدت الفرصة سانحة أمامها، وقالت: لم أرها نادمة على شيء مثل حالها الآن.

ارتاح «محمود» لقولها. بلع اللقمة الواقفة في فمه، بعد أن ظل يلوكها طويلًا، وكأنه يفرغ فيها شحنة الغضب الذي تمور به نفسه، وقال: لو كانت نادمة حقًّا، لانتظرت في بيتها حتى أعود، واعتذرت.

اقتربت «هنية» مما تريد، فقالت: أرادت أن تُمهد لاعتذارها، فوسطتني بينكما.

لم ينطق، ومد يده على مهل إلى طبق الجبن، فغرس فيه كسرة بتاو جديدة، فقالت «هنية»: لا أظن أن رجلًا كريمًا مثلك يرفض وساطتي. ووجدت في ملامحه بعض الرضا، فواصلت: لن تكسر خاطري، إن جئت بها لتشاركنا العشاء.

صمت، فنهضت، وخرجت سريعًا إلى بيت أخيها، وعادت ومعها «رضيَّة»، التي نفذت وصية أختها دون تردد. جلست القرفصاء إلى جانب زوجها، وقبلت رأسه، ثم سحبت يده، فتركها لها. طبعت فوقها قبلة، وقالت: سامحني.

وتدخلت «هنية» على الفور: المُسامح كريم.

ورأى «محمود» ابنه واقفًا، وفي عينيه فرحة بعودة أمه، فقال: ساعة شيطان وراحت.

وكان على «هنية» أن ترمي الطُّعم الآخر لصيدها، فقالت: تراك «رضية» رجلًا كبيرًا، بأخلاقك ومالك وما تعرفه عن فلاحة الأرض، وسياسة الفلاحين.

نظر «محمود» إلى زوجته، فنطقت بما اتفقت عليه مع أختها: مهارتك مسجونة في قناعتك، وبعض الطموح يفيد الرجال.

ولم يدرك «محمود» ما ترمي إليه «رضية»، فتدخلت «هنيَّة»: هو طَموح، وإلا ما وفر لك هذا العيش الطيب.

قالت «رضيَّة»: لا أنكر، لكن البحر يحب الزيادة.

وانفتح الباب أمام «هنيَّة» على مصراعيه، فقالت وهي تضحك: طبعًا، أليس جده «بحر» قد أقام ذات يوم نجعًا على أطراف الصحراء، وصار كبيره وسيده، الذي يتغنى به القوَّالون في الأفراح؟

مصمص «محمود» شفتيه، وتساءل: أين أنا من جدي؟

تدخلت «هنيَّة»، وهي تدرك أنها قد لامست النقطة قبل الأخيرة في تدبيرها، وقالت: تقدر تعيد عظمة جدك.

ونهضت لتنصرف، تاركة البقية لأختها. التي ما إن اختلت بزوجها في غرفة نومها، حتى مدَّت يدها إلى الخزانة، وأخرجت منها قميص النوم الأحمر، الذي يروق له، وارتدته على عجل، ثم نظرت إليه، وقالت: لا بد أنك تشتاق إليَّ.

حين تمددا في مخدعهما، رمت رأسها على صدره، وقالت له: انفتح اليوم باب خير، وأراك تستحق أن تأخذ نصيبك من هذا الرزق.

نقلت إليه ما دار في بيت أخيها، وقالت: يكبر الرجال مع المغامرة.

صمت برهة، ثم قال: أنا لا أفلح إلا فيما أعرف.

عبثت بأطراف أصابعها في الشعر المتكاثف على صدره كغابة منسية فوق جلده الأسمر، وقالت: يُعرف الناس بالتجربة.

لم ينطق فواصلت هي: لن تترك ما تعرفه، لكن ستفتح إلى جانبه بابًا جديدًا، والرزق يحب الخفة.

كان رأسه مشغولًا بما سمع، لكنه بدا مأسورًا بالطريقة التي ألفها، ولم تخذله أبدًا، وهي الزراعة وتربية الماشية والضأن، فقال: دعيني أفكر، فهذه خطوة ليست سهلة. وكانت تعرف كيف يقرر على مهل، فقالت: ابننا كبر، ولا أراه متحمسًا للفلاحة، ألحقناه بالمدرسة، لكنه اكتفى منها بمراحلها الأولى، وربما يجد في الصناعة ما كان غائبًا عن ذهنه، ويبحث عنه دون أن يعرف ما هو.

(46)

بينما كان «محمود» يفكر على مهل قبل أن يذهب في الطريق الذي رسمته له زوجته، استيقظ أهل «الجابرية» ذات يوم على مسَّاحين توزعوا في الأرض، يشدون خيوطًا سميكة في الزراعات دون أن يستأذنوا أصحابها. هرع الخولي إلى السرايا، وأيقظ «عمر» الذي كان الليلة الفائتة غارقًا في المحبة حتى سقط هامدًا. قام يتثاءب وفتح

بـاب الغرفة الذي طُرق كثيرًا، وقال للخادمة في غضب: لم أمت بعد، ليكون كل هذا الإلحاح.

قالت له بصوت خفيض: معذورة يا سيدي، فالخولي يستعجلك لأمر مهم.

حين وصل إلى الزرع، كان عمال، يرتدون زيًّا أزرق، يدقون أوتادًا غليظة، ولا يشغلهم الزرع الذي يخلعونه ويلقونه جانبًا، بينما جنود من الإنجليز يقفون لحراستهم، وبنادقهم معلقة في أكتافهم. ذهب «عمر» إلى رجل تختلف سحنته عن الجُند، كان قد سمعه يوجه العمال بأوامر قاطعة، وسأله في غضب: مَن أنتم؟ وكيف تقتحمون أرضنا بلا استئذان؟

أدرك الجُند غضب «عمر»، فهرعوا نحو الرجل، وكان مهندسًا مصريًّا يشرف على العمل، ثم التفوا حول «عمر»، لكن المهندس أشار إليهم بالانصراف، ثم قال: نجهز لامتداد السكة الحديدية.

كان «عمر» وغيره من العمد، قد وصلتهم أخبار عن هذا منذ مدة، لكنهم ظنوا أن تنفيذ المشروع سيستغرق بعض الوقت، وإن تم فسيكون هذا بعلمهم. سأل المهندس بصوت هادئ هذه المرة: كان يجب أن تخبرونا لنكون في انتظاركم.

هز المهندس رأسه، وقال: تلقينا الأوامر على عجل، ولم يكن لدينا وقت للحديث مع أحد.

رمى «عمر» بصره ليرى عرض المساحة المخلوعة من الزرع، وسأل: ألم يكن من الأفضل انتظار موسم الحصاد؟

أجابه المهندس في فتور: الحكومة لا تنتظر شيئًا، ولا أحدًا.

وكان المهندس قد سمع الخولي ينادي «عمر»، بحضرة العمدة، فقال المهندس: يجب أن تفرح يا عمدة، فقريتكم ستكون لها محطة يقف عندها القطار، ويربطها بالقُطر كله.

اغتصب «عمر» ابتسامة، وقال: أنا فرحان طبعًا.

نظر إلى المساحة الممتدة من الزرع الذي اغتالته يد العمال، وقال: لعل العمران يقوم في قلب هذا الخراب.

وجاء رجل آخر، في يده دفتر وقلم حبر، وسأل «عمر»: نعد اللافتات التي توضع على محطات القرى. أليست هذه هي «الجابرية» كما في الدفاتر الرسمية؟

وكما يلدغ ثعبان قدم رجل شارد، أيقظ السؤال «عمر» من غفلة طويلة. استعاد في لحظة حكايات الأجداد، وكيف سكنها وعد بإعادة القرية إلى اسمها القديم، الذي كان يقفز على لسانه دون إرادة منه حين يسأله أحد في البندر عن بلده.

سأل الرجل في استعطاف: أليست هناك مهلة في اختيار الأسماء؟

- نحن ملتزمون بالوارد في الدفاتر الرسمية.

- كيف يتم تغيير اسم قريتنا؟

– تتقدم بطلب إلى المديرية، ويُستحسن أن يكون مشفوعًا ببصمات أغلب أهلها، فإن وافقت سننفذ القرار.

– هل هناك وقت لهذا؟

ـ طبعًا طبعًا.. إنها سكة حديدية وليس مدقًّا في الغيطان.

وقال «عمر» للخولي، وهما ينسحبان من أمام العمال والمهندس والجنود: لو كان ثمن المساحة الضائعة استرداد اسم قريتنا القديم، فهذا خير.

حين عاد إلى السرايا سألته «عبلة» عن سبب استدعائه، فقال لها: يرسمون مكانًا في أرضنا لمد السكة الحديدية.

تهلل وجهها بفرح، وقالت: أخيرًا ستكون لنا مواصلة أسرع للسفر إلى المحروسة.

وقطعت خطوات نحو النافذة، ورمت بصرها إلى النهر، فظهر هناك المركب الشراعي الذي تملكه. لوحت إليه بيدها، وقالت ضاحكة: وداعًا، وإلى الأبد.

ولحق بها «عمر»، وقال: لن نستغني عنه لنقل بضائعنا.

واصلت الضحك، وقالت: يرفض الناس في البداية كل جديد، حتى يجدوا أنفسهم خاضعين له.

تركها غارقة في فرحتها، وهبط إلى البهو السفلي، ونادى الخفير، وقال له: أحضر لي الشيخ «مقبول» الإمام الجديد للمسجد. وجاءه

الشيخ يلملم أطراف قفطانه، ويعدل العمامة فوق رأسه، وكان قد استلم عمله في القرية قبل أسابيع قليلة، فقال له: عن أي موضوع ستكون خطبة الجمعة المقبلة؟

- أفكر في أن تكون عن فضيلة الإحسان.

- من الإحسان أن يسترد الناس حقهم الضائع.

ـ لا شك في هذا يا حضرة العمدة.

ـ أريدك أن تخطب فينا عن فضيلة الصبر.

- جعلنا الله من عباده الصابرين.

ردد «عمر» قول «آمين» ثلاث مرات. وكان وقت الغداء قد حلَّ، فأقسم على الشيخ أن يبقى معه في السرايا ليتناولا طعامهما سويًّا. نادى الخادمة، وهمس في أذنها: جهزي غداءً من لحوم الطير، وحمري لنا رطلين من لحم الضأن.

رفت على شفتيها ابتسامة، وسألته بصوت خفيض: كل الطير؟

هز رأسه، وقال: كله، وخذي وقتك.

وضعت الطعام أمام الشيخ «مقبول» فتطلع إليه يتلمظ. كان لحمًا محمرًا من الضأن، وحمامًا محشيًّا بالفريك، ودجاجتين وذكر بط، إلى جواره طبيخ اللوبيا والملوخية والأرز، وصحنان من شوربة الخضار الساخنة، وبتاو لدن، ومخلل اللفت.

تطلع الشيخ إلى ما فوق المائدة، وقال: هذا كثير يا عمدتنا.

ابتسم، وقال: هذه أول مرة تدخل السرايا، وقدرك كبير عندنا يا شيخنا.

وطال بهما الجلوس إلى المائدة، وشرح «عمر» للشيخ الطرف الذي يريده من تاريخ القرية، وهو صامت لا يريد لشيء أن يلهيه عن الطعام، ثم سأله «عمر»: أيهما أفضل يا شيخنا، الصبر أم الجبر؟

بلع الشيخ نسيرة من ذكر البط، أتبعها بجرعة ماء، بينما ذهنه يستجمع الإجابة، ثم نطق بها: الصبر كله خير، إلا إذا كان ضعفًا إزاء ظلم. أما الجبر، فليس فيه من خير إلا جبر خاطر مكسور، وأغلبه افتراء وقهر وإكراه.

ابتسم «عمر»، وسأل: فإن كانت محاولة لمحو ظلم، صبرنا عليه طويلًا؟

أجاب الشيخ: كل خطوة نسعى بها لرفع ظلم، أو إماطة أذى، هي مباركة.

هز «عمر» رأسه، وهو موقن أنه قد وصل إلى ما يريد، وقال: وجد أمثالك في هذه الدنيا يا شيخنا ليشاركوا في هذا السعي.

قال الشيخ، وهو يمده يده إلى حمامة محشية يفسخها في عجلة: هذه مهمتنا، والله المستعان.

فتح الباب أمام «عمر» ليطلب مباشرة من الشيخ أن يعينه في استعادة اسم القرية القديم، وأفهمه أنه يريد أن يمهد رؤوس أهل القرية في خطبة الجمعة القادمة لهذا الأمر، بأن يحدثهم بعد أن يستفيض في

شرح فضائل الصبر، عما كان عليه اسم القرية، ليفكر الناس فيه، ثم تستملحه ألسنتهم.

جفل الشيخ، حتى كادت اللقمة تنحبس في زوره، وقال: هذا قد يثير غضب «الجوابر»، وهم الأكثرية هنا.

ابتسم «عمر» وقال: عليك فقط أن تفتح الباب قليلًا، واترك بقية الأمر عليَّ.

كان «عمر» يعرف جيدًا أنه وابنه وابن «جعفر» هما فقط مَن ينتمون إلى عائلة «الصوابر» في كل هذه القرية، بل إن ابنه مال إلى أمه، فلا يجب عليه أن يحسبه معه بشكل كامل. أما «الجوابر» فقد تناسلوا في القرية جيلًا بعد جيل، فكثر عدد ذراريهم، وكانوا يتصرفون طوال الوقت على أن القرية لهم، وأن البقية من الفلاحين الذين أتوا في زمن سابق، والنصارى، ورجل من اليهود وامرأته وابنه، والذين سكنوا القرية من المعلمين بالمدرسة، وحتى المجذوب الذي يسكن الزاوية، هم ضيوف عندهم. وكان «عمر» نفسه، وقبله «جعفر» و«محمود» يصلهم هذا الشعور، ويجدون هذه المعاملة، ولولا قربهم من الوجيه، ثم ابنته، ومصاهرتهم للعمدة الراحل، لم يكن «الجوابر» يتحملون بقاءهم، وربما طردوهم كما وقع لهم في «الحجاني» قبل سنين طويلة.

خاف «عمر» أن يفاتح «عبلة» بما يفكر فيه فتغضب، وربما لا تكتفي بالغضب، بل تؤلب عليه أهلها، وتحضهم على التمسك باسم القرية قائمًا كما غيَّره أجدادها. لذا فضَّل أن يلتقي أهل القرية من

غير «الجوابر» في السلاملك الملحق ببيته. أرسل خفره في استدعاء الفلاحين مجموعات متلاحقة، وكذلك فعل مع النصارى، واعدًا إياهم بأن يعيد ترميم كنيستهم على نفقته الخاصة، ووعد اليهود بزيادة تجارتهم، مع قدوم القطار.

شرح لمَن جاءوه ما يعتزم الإقدام عليه. أنصتوا له يتقلبون في حيرة وخوف، فهم يعرفون أن عائلة «الجوابر» هي الأكثر عددًا، وأن العمدة ولو تزوج من ابنتهم الثرية، فلا يعرفون إن كانت توافق زوجها على ما يريده أم ترفض، وربما لا تعرف أصلًا. طافت برؤوسهم وجوه الأشرار من «الجوابر»، الذين ورثوا تجبر جدهم «درويش» رغم رقة حالهم، إلا أنهم لم يكن بوسعهم إغضاب العمدة وفي يده الكثير لإيذائهم إن لم يخضعوا له قولًا وفعلًا.

لكن «صليب» كبير النجارين، الذي بلغت مهارته سكان السرايات في القرى البعيدة فكانوا يأتون به لتجهيز أثاثها، قال في هدوء: يمكنك يا عمدتنا أن تسلك طريقًا آمنة.

تطلع إليه منتبهًا، فقال: بعض المال لحاكم المديرية يبدل اسم القرية.

سأله «عمر» عما إذا كان هذا ممكنًا بالفعل، فأجابه: والمسيح الحي، هذا ما يحدث. ولمَّا رأى الشكوك في عيني «عمر»، راح يؤكد: لا تنسَ أنني دخلت سرايات في كل القرى، وما قلته جرى أمامي بالضبط.

استحسن «عمر» هذا الحل، لكن شيخ الخفر تدخل، وكان مواليًا للعمدة كل الولاء: حتى لو جرى هذا في السر، فلا نضمن رد فعل «الجوابر» حين يجدون لافتة المحطة مكتوب عليها اسم «الصابرية».

وسأله «عمر» عما يتوقع، فقال: إن وجدت الحكومة أن التغيير سيأتي بالمشاكل، فلن تقدم عليه.

لاذ «صليب» بالصمت، لكن «عمر» استنطقه حين سأله عما إذا كانت القرى الأخرى التي وصلها شريط السكة الحديدية قد ثار فيها عراك على اللافتات، فقال: يحدث هذا إن فوجئ الناس بالتغيير.

تدخل شيخ الخفر: إن كان معنا أهل القرية ما عدا «الجوابر» فسنضمن تنفيذ ما نريد.

أيقن «عمر» أن الطريقة التي بدأ بها حين استدعى إمام المسجد إلى السرايا، والناس إلى السلاملك، هي الأجدى. كان يعرف أن بيده أوراقًا يمكنه استخدامها في الوقت المناسب، فوحده الذي بوسعه أن يستدعي ضباطًا وعساكر من الشرطة لحماية خياره، إن وقع نزاع.

انتبه إلى أنه لم يفاتح «محمود» بما سيفعله، فأرسل إليه أحد الخفراء ليحضره، لكنه لم يكن في هذا الوقت موجودًا في بيته. كان يجلس إلى «رشدان» يسمع منه عن الخير الذي ينتظره إن انضم إليه في الطريق الذي رسم «قطاوي» لهم معالمه، فلما انتهى من عرض الأمر، هز «محمود» رأسه، وقال: أنا شريككم منذ اليوم.

(47)

حشر الخصوم في زاوية ليتساوى عندهم الموت والحياة ليس من السياسة في شيء. يعرف الجنود أن حصار جيش دون ترك فرصة له للهروب خطر. يعرف الطباخ أن تنفيس الآنية يحميها من الانفجار. يعرف العامل أن تشحيم آلته يمنع خرابها. يعرف الفلاح أن ترك الهالوك ينمو مستريحًا يفسد زرعه، ويعرف أيضًا أن الفيضان إن هجم دون أن يكون مستعدًّا له خسر كل شيء.

(48)

أدرك «عمر» أن الأمر يتطلب أن يستميل بعض «الجوابر» إليه. يعرف هو جيدًا أن كثيرين منهم يكتمون غضبهم حيال استئثاره بأرض الوجيه بعد زواجه من ابنته، لكنهم آثروا الصمت، وإن كانت بعض الألسنة قد انفلتت بمكنون الصدور أيام «جعفر»، واستمرت على حالها.

واحد منهم كان قد أرسل في طلب يد «عبلة»، لكنها رفضته في حزم، وقالت لمرساله، وهي عجوز تسمى «رتيبة»، يحلو لها أن تسرد على مسامع الصغار أيام الأجداد: لا أريد من الرجال سوى ابني، وسأكتفي بتربيته. لكنهم رأوها قد غيرت رأيها، وتساءلوا حانقين: هل خلا الجوابر من رجال يصلحون لها، حتى تفضل عليهم الغريب؟

بدأ «عمر» بهذه العجوز، التي صارت قعيدة لا تبرح دارها. طرق بابها ذات مساء، فقام حفيدها وفتحه، ليجد العمدة في وجهه. ربت كتف الصغير، وألقى السلام بصوت جهوري، لينبه مَن في الدار، فسمعها تقول له: تفضل.

كانت العجوز تجلس فوق حصير في غرفة داخلية، يتخلل ضوء اللمبة الشحيح شعرها الأبيض، وأمامها صحن مملوء ببيض الدجاج، تنهمك في عده على مهل، كأنها تُسلي نفسها، وتمرر جزءًا من أوقاتها العصيبة. ما إن رأت العمدة، حتى امتلأ وجهها بالعجب، وفتحت فمها لترحب به فبانت أسنانها المُثرمة، دون أن يفلح الضوء في تبديد سوادها. قبل أن تنطق قال هو: قيل لي إنك مريضة فجئت لزيارتك.

نظرت إليه، وقالت: لا تؤاخذني يا عمدة، لا أستطيع الوقوف للسلام عليك.

ابتسم، وقال لها وهو يجلس قبالتها: لا عليك، أنت أمنا جميعًا، وواجبنا أن نجيء إليكِ حيث تكونين.

سرى ارتياح في تجاعيد وجهها الضامر، وقالت: كلك واجب يا بني.

راق له أن تناديه بابنها، فقال لها: نحن نسايب، ولا فرق بيننا.

صمتت برهة، ثم سألته عن حال «عبلة»، فأجابها: تركتها فرحة بولدي الذي في بطنها.

ابتسمت، وقالت: مبروك. هي تستحق كل خير، وأنت أيضًا.

كان قد أوصى اثنتين من الخادمات

كان قد أوصى اثنتين من الخادمات بأن تتبعانه إلى بيت العجوز بهدية لها. وحين سمع الباب يطرق، وأدرك أنهما قد جاءتا بعده كما أوصاهما، قال للعجوز: لم أرد أن آتيك ويدي فارغة.

دخلت الخادمتان، على رأس إحداهما قفص يتزاحم داخله دجاج وذكر بط ووزة، وفي يديها صفيحة من الجبن. أما الثانية فتحمل على رأسها شوالًا مملوءًا بأكياس من الأرز والفول والعدس، وفي يدها زراوية من الفخار مملوءة بسمن الجاموس.

تطلعت «رتيبة» إلى ما وضعته الخادمتان على مقربة منها، وقالت: هذا كثير يا عمدة.

ربت كتفها، وقال لها في امتنان: لا شيء يكثر عليكِ يا حاجة.

أشار إلى الخادمتين أن تنصرفا، ثم قال: أعرف أنكِ مسموعة الكلمة بين إخوتنا من «الجوابر».

ضحكت بصوت رفيع متقطع يشبه ثغاء عنزة مجروحة، وقالت: السن لها أحكامها.

ابتسم، وقال: أطال الله لنا في عمرك.

ودس يده في جيبه وأخرج حُقًّا مملوءًا بالزيت، ومده إليها، وقال: أوصيت العطار أن يُعدَّه لكِ خصيصًا، ليساعدك على تخفيف آلام المفاصل.

مدت يدها لتأخذه منه، لكنه أبقاه في يده، وقال لها: اسمحي لي أن أدلك ساقيك، على الأقل لتعرفي كيف تستخدمينه حسبما أوصاني العطار.

اكتسى وجهها بخجل، وقالت: لا يصح يا عمدة.

لكنه لم يضع وقتًا، ومد يده إلى جلبابها، لينحسر عن ساقيها، وهو يقول: أنتِ ناديتيني بابنك، ولا خجل من أن يدلك الابن ساقي أمه.

استسلمت لأصابعه التي راحت تسحب الزيت خفيفًا فوق قدميها وساقيها حتى الركبتين، وقالت: يفعل الكبير ما يليق به دومًا.

شعر بأنه يقترب مما يريده، فقال لها: وكذلك تفعل الكبيرة ما يجب عليها.

تطلعت إليه، وكان ناظراه ذاهبين إلى ساقيها، وقالت: ما تطلبه مُجاب يا عمدة.

ابتسم، وقال: لا أطلب إلا ما فيه الخير لقريتنا.

هزت رأسها، وقالت: لم يفعل أجدادك الطيبون إلا هذا.

انفتح الباب أمامه على مصراعيه، فقال على الفور: تغلَّب أجدادنا على الضغائن بترك كل ما لا يؤلف القلوب، ولا يجعل العقول تفكر في كل نافع.

كانت تظن أنه قد قصدها لتصلح ما بينه وبين «هنيَّة» وأخيها «رشدان»، وكانت قد وصلها مبكرًا ما يعتزمان الإقدام عليه، ليكبر شأن «رشدان»، فكل أخبار العائلة تسقط في حجرها وهي جالسة في مكانها تروض الوقت. كان الخبر قد وصله أيضًا، لكن حساباته قدَّرت أن ترك زراعة الأرض إلى غيرها مشروع محكوم عليه بالفشل، وسبق له أن رفضه حين عرضه عليه «قطاوي»، بل فرح لهذه الخطوة،

وقال لشيخ الخفر، وهما يتضاحكان في السلاملك: عليَّ من الآن أن أستعد لشراء أرض «هنيَّة» وأخيها، حين يعجزان عن سداد خسارة مشروعهما الجديد.

لم تُقدِّر «رتيبة» أن الجالس أمامها يدلك ساقيها النحيلتين، لا يفكر في استرجاع زوجته، ولا في مشاركتها المغامرة التي تقدم عليها، وتأكدت من هذا حين قال لها: طلقت «هنيَّة» إلى غير رجعة، لكن ابنها ابني، ولا يجب أن يفتح هذا باب الضغينة من جديد.

فطنت إلى بعض ما يريد، وانهمرت الحكايات القديمة في رأسها. تجمعت في بؤرة واحدة، ضاقت حتى صارت نقطة سوداء، قد لا يبددها حدب «عمر» وابتساماته التي لا تفارق وجهه وهو يجلس قبالة العجوز، ولا نور اللمبة، الذي اشتد حين أدارت اللاكور بيدها فور قدومه، لتمدد عويلها الغارق في الجاز.

قالت له: تصفية ما في النفوس ضرورة، كي لا يصبح العيش منكودًا.

أدرك أن حكمة السنين قد أهدتها إلى سبب زيارته، فقال: في الحكايات القديمة ما يفتح الجراح التي شُفيت، وفيها ما يساعد على غلقها إلى الأبد.

هزت رأسها، ولاذت بالصمت، فواصل: أعرف أن أهلنا من «الجوابر» يستمعون إليك، يسألونك عما مضى ويجدون عندك الإجابات حاضرة.

- لا أجيبهم إلا بما سمعته من السالفين، ولا أزيد عليه.

- لم يكن الماضي شرًّا خالصًا.

- هو كذلك.

قال وهو يفرك يديه بعد أن فرغ من تدليك ساقيها: لا أطلب منك إلا التركيز على الحكايات التي تصفي النفوس من الأحقاد، وتصلح ذات البين.

تنهدت، وقالت: في هذا حكايات كثيرة، لا أستطيع نسيانها، ولا إنكارها.

قال وهو ينهض للانصراف: أعرف أنكِ إن وعدتِ التزمتِ، وأخبار ما تقولينه ستأتيني، ولتكن زيارتي هذه عربون صفحة جديدة بيننا.

مد يده ليصافحها، فمدت يدها المعروقة، فلما تقابلت اليدان، قال لها: أنتِ أم الكل، ولا تفعل الأمهات إلا ما ينفع أولادهن وأحفادهن.

(49)

في صباح يوم الجمعة، وبينما كان إمام المسجد، يردد صامتًا ما عليه أن يقوله في هدوء، قالت «عبلة» باسمة: ستصبح أبًا للمرة الثانية يا عمدة.

تدفق السرور إلى عينيه، وقال لها: هل تأكدتِ من حملك؟

أجابته بصوت متناوم: نعم.

شعر بأن الله قد أرسل له هذا الرباط الوثيق في الوقت المناسب، فقال: أريد بنتًا جميلة كأمها.

ضحكت وقالت: هو ولد. نبت القمح ولم ينبت الشعير.

اقترب منها، وأخذها في حضنه، وسألها: هل فكرتِ في اسم المولود؟

هزت رأسها، وقالت: سلو عائلتنا أن الرجل يسمي ابنه، والمرأة تسمي ابنتها.

كاد يصرخ احتفاءً بهذا السلو الذي فتح له بابًا من حيث لا يحتسب، لكنه كتم صرخته، وقال: سأسميه «صابر».

ثم سكت ليعرف رد فعلها، فلم تنطق. فقال في نفسه: السكوت علامة الرضا. ونادى الخادمات فجئن مسرعات، ووقفن أمامه منتظرات أوامره، فقال لهن: من اليوم، لا تتعبن الست في شيء، وإن طلبت لبن العصفور تأتين به.

(50)

ركب «عمر» الدوكار، يسوقه الحوذي، وأمامه الأمشجية يوسعون له الطريق إلى البندر. كان يقصد المديرية ليعس على خبر السكة الحديدية. عرف من الموظفين أن الأمر سيستغرق شهورًا، وربما يصل إلى سنة كاملة. كان هذا وقتًا كافيًا ليهيئ أهل القرية لما يريد.

في طريق عودته، وبينما كان الدوكار يجري فوق الجسر، رأى مركبًا راسيًا ينزل منه «ناجي» مرتديًا جُبَّة الأزهر وقفطانه وعمامته. أوقف الدوكار، وانتظره. حين اقترب منه وجده قد صار نسخة من أبيه، في بسطة الجسم، وملامح الوجه، حتى الخطوة والالتفاتة. وحين استجاب لندائه وهو يصعد إلى الجسر، تأكد «عمر» من أن صوت الفتى أيضًا يشبه صوت أبيه.

أفسح له مكانًا إلى جانبه، ورفع اثنان من الأمشجية حقيبتين كانتا معه، لتوضعا إلى جانب الحوذي. أراد «عمر» أن يطيل انفراده بالفتى العائد، فقال له: لا بد أن المكان قد أوحشك.

هز رأسه، وقال: أكيد.

عندها قال «عمر» للحوذي: استدر لنقضي على الجسر بعض الوقت.

قهقه «ناجي»، وقال: أمي توحشني أكثر.

ابتسم «عمر»، وقال للحوذي: كما كنت، لكن على مهل، حتى لا تهيل حوافر الخيل التراب علينا.

والتفت إلى «ناجي»، وقال له، وهو ينظر في عينيه جيدًا: أنت فخر «الصوابر» يا مولانا.

وجده يبتسم في امتنان، ثم قال: أنت عِزُّنا يا عمدة.

تنحنح «عمر»، وقال: كان أبوك مخلصًا لوعد الأجداد.

هز «ناجي» رأسه، وقال: أتذكر بعض ما قاله.

ضغط العمدة بيده على كتف الفتى، وقال: يخلص الفرد منا لعصبه أكثر من غيرهم. لم يعقب «ناجي» فواصل العمدة ليفسر ما يقصده: العم قبل الخال.

قهقه «ناجي» وسأل: ألا يمكن أن نخلص للأعمام والأخوال معًا؟ صمت «عمر» برهة، وقال: لا بأس، لكن لكل منهم درجته.

لم يكن ما في رأس «ناجي» من علوم أزهرية يجعله يتقبل ما سمعه من العمدة بسهولة، لكنه لم يرد أن يغضبه. هز رأسه ناظرًا إلى الزراعات الممتدة حتى صفحة النهر، وقال: لا أحد له مقامك في نفسي يا عمي.

طالما كان «ناجي» ينادي «عمر» بالعم، لكن نُطقَها هذه المرة بدا له وقع آخر في أذني العمدة. تهلل، ومدَّ ذراعه وأمسك كتفه، وضمَّه إليه، وقال: نجاك الله من خُبث أخوالك.

قهقه «ناجي»، وقال: لا تظلمهم، فكثير منهم طيبون.

مصمص العمدة شفتيه، وأراد أن ينبش المخبوء في صدر الفتى، حتى يطمئن إليه تمامًا، فقال: لم أرَ أحدًا طيبًا فيهم إلا والدتك، وربما تكون هي قد حكت لك عن أخريات في عائلتها مثلها.

كان «ناجي» يُثبِّت عينيه على حقيبته التي تهتز إلى جانب الحوذي، مبديًا خوفًا من أن تسقط على التراب، وفي الوقت نفسه ذهنه شارد فيما قاله له «عمر». كان بعيدًا عن القرية عدة شهور، ولم تصله أي أخبار

منها. ظن أن خلافًا قد نشب بين العمدة و«الجوابر»، فانتقل شروده إلى ما يجب عليه أن يفعله ليصلح بين الطرفين، مستغلًّا ما حصَّله من معرفة دينية حول إصلاح ذات البين وصلة الرحم، تساعده على أداء مهمته.

أعاد بصره إلى العمدة، وسأله: هل ثار خلاف مع الجوابر أثناء غيابي؟

أجاب العمدة ضاحكًا: ربنا لا يأتي بخلاف، إنما أصارحك بهواجسي، فأنت كبرت، وصارت كتفك في كتفي، أنا وأنت وابني هم الذين تبقوا من «الصوابر» في بلد كان لهم، اسمه من اسم جدك، وكان أغلب أرضه في أيديهم، وصيتهم يطير إلى آذان الناس في الصعيد.

صمت «ناجي» برهة، ثم سأل: أين ذهب «الصوابر»؟

ابتسم «عمر» وقال: يبدو أنك لم تسمع من أبيك شيئًا عن هذا. لم ينطق «ناجي»، فواصل العمدة: تفرقوا في البلاد.

عاد «ناجي» إلى السؤال: ألم يفكر أحد من قبل في أن يجمع شملهم؟

تنهد العمدة، وأجاب: الوعد الذي حمله لنا الأجداد هو أن نتجمع في بلدهم الأصلي. سنين طويلة، وأسرتنا مطاردة من بلد إلى آخر، فلما عدت إلى حيث كان الأجداد، فكرت في البحث عن أهلنا، لكن يبدو أنني سأبحث عن إبرة في كومة من قش.

سأله «ناجي»: هل تعتقد أن كل أهلنا يحفظون أنسابهم، كما نفعل نحن؟

أجابه على الفور: هذه فضيلة لا ينساها الجميع في بلادنا.

كان الدوكار قد وصل إلى السرايا، وبينما يستعدان للنزول، قال «ناجي»، وفي عينيه اطمئنان شديد: صار البحث عن الأهل سهلًا في زماننا.

سرى فرح في ملامح «عمر»، وسأله: كيف؟

أجابه، وهو يلوح لأمه التي كانت تنظر إليهما من الشرفة، وقال: أعرف الطريق كما أعرفك.

وبعد تناولهما العشاء، همس «عمر» في أذن «ناجي»: أريدك على انفراد.

كان لا يريد أن يُطلع زوجته على ما يفكر فيه، على الأقل قبل أن يعرف الطريقة التي أشار إليها ابنها. وقبل أن ينطق، قال له «ناجي»: لم نعد في حاجة إلى أن نجوب البلاد باحثين عن أهلنا.

نظر إليه العمدة مليًّا، وسأله: دلني على الطريق وأنا جاهز.

ابتسم، وقال: ننشر إعلانًا في صحيفتي «الأهرام» و«المقطم» ندعو فيه كل مَن يقرأه من العائلة أن يأتي لزيارتنا هنا.

انطفأ وجه «عمر»، وقال متشككًا: لا أظن أن مثلهم يقرأ الصحف.

قهقه «ناجي»، وقال: من المؤكد أن فيهم مَن أرسل أولاده إلى الكتاتيب والمدارس، وربما كان منهم زملاء في الأزهر، ولا أعرفهم.

حـك «عمر» ذقنه بأطراف يُمنـاه، وقال: حتى لو كان الأمر كذلك، فهؤلاء قلة، وأنا أريد عزوة كبيرة.

طمأنه «ناجي»: مَن سـيقرأ سـيبلغ مَن لا يعرف القـراءة، ولا بد أن بعضهم يعيشون جماعات في القرى البعيدة.

ثم عاد وسأل: المهم، أن تفكر في مناسبة.

ضحـك «عمـر» وقـال: يبـدو أن أمك لم تخبـرك بأن لـك أخًا في الطريق.

اتسـعت حدقتا «ناجي»، وسـرى في ملامحه فـرح طفولي، وقال: مبروك يا عمي.

قـال «عمر»: حيـن تضع ولدها سـأقيم فرح طهور لـه، يحكي عنه الناس. وسأدعو أهلنا لمشاركتنا الأفراح.

ووجد «عمر» الفرصة مناسبة كي يخبر «ناجي» بما جدَّ على القرية، فقال له: ألم تلاحظ شيئًا ونحن نسير فوق الجسر؟

طوح «ناجي» رأسه نافيًا، وقال: كل شيء على حاله تقريبًا.

قهقـه «عمر»، وقال: هناك شـيء سـيغير كل شـيء هنـا. ريح قوية ستهز حياتنا البليدة.

سأله في لهفة: شوقتني إلى ما تريد.

تنحنـح، وقـال: سـتمتد إلينا السـكة الحديديـة، وسـتكون لقريتنا محطة.

انتفض «ناجي» واقفًا على قدميه من فرط الفرحة المباغتة، وقال: خبر عظيم، سيختصر القطار عليَّ الطريق، وسيكون سفري سهلًا.

صمت «عمر» برهة، وسأله: لم تسألني من أين كنت راجعًا حين التقينا؟

رد «ناجي»: ربما كنت في البندر.

ابتسم «عمر»، وقال: يعجبني ذكاؤك. نعم كنت هناك أسأل عن موعد مد السكة الحديدية إلينا.

قال «ناجي»: أتمنى أن يكون هذا قريبًا.

ضحك «عمر»، وقال: لا تستعجل، فأنا أتمنى أن يأخذ الأمر وقتًا كافيًا حتى أكون قد رتبت لما أريد.

سأله وهو ينظر إليه في اهتمام: وماذا تريد يا عمدتنا؟

أجابه على الفور: أسعى لأن يوضع على اللافتة التي سينصبونها فوق محطة قريتنا اسم «الصابرية».

وجم «ناجي»، وفطن إلى كل ما دار بينه وبين العمدة منذ أن رآه، وحتى اللحظة التي يجلسان فيها يحتسيان الينسون والقرفة. رأى «عمر» الحيرة التي سكنت ملامح الفتى، فقال له: عليك أن تساعدني من أجل تحقيق حلم الأجداد.

ضحك «ناجي»، وقال: لا شيء يتغير هنا، الكل يسعى خلف أوتاده.

انتاب «عمر» فتور طارئ، لكنه أراد أن ينفخ في أوصال الفتى، فقال له: كان هذا حلم أبيك.

رد «ناجي» وهو يطحن الحروف على مهل، فخرجت ممطوطة: أخشى أن يُغضب هذا «الجوابر»، وتبعث الأحقاد من القبور.

نفخ «عمر» في ضيق، وقال: لم تُدفن الأحقاد يومًا واحدًا. وأراد أن يكسب «ناجي» إلى جانبه، فقال: ليس بيني وبينهم شر، نيتي صافية، وأفعل دائمًا ما لا يجعل الأحقاد القديمة تفسد علينا حياتنا.

قهقه «ناجي»، وقال: يا عمدة، أمي، التي هي زوجتك منهم، وسيكون لك منها ابن، وابنك الذي يماثلني عمرًا ولد من رحم امرأة منهم.

وضع «عمر» يده على كتف «ناجي»، وقال: لا تخشَ شيئًا، أنا أفعل ما لا يجعل «الجوابر» يشعرون بأن هذا الأمر سيتم غصبًا عنهم.

وسأله «ناجي» بغتة: هل فاتحت أمي في الأمر؟

أجابه، وهو يدفع في صوته طمأنينة: سأخبرها طبعًا، ولديَّ ثقة في أنها لن تمانع.

وقفز سؤال إلى ذهن «عمر»: هل أخبرتك أمك ذات يوم بشيء من الحكايات القديمة؟

ابتسم «ناجي»، وقال: هي لا ترى الأمر كما تراه يا عمي، وكما يراه أهلها. إنها سيدة واسعة الصدر، وراجحة العقل، لم تزرع أبدًا في نفسي ما يدفعني إلى الكراهية.

(51)

كان «عمر» قد رتب ليوم الجمعة جيدًا. ففي ليلته جاء جزار وذبح ثلاثة عجول في مكان معزول خلف الحظيرة. وضعت الخادمات القيزانات على الكوانين لطهي اللحم والأرز وطبيخ الفاصوليا والبطاطس، والتهب الفرن لإعداد البتاو والزلوط. بعد الصلاة، وقف «عمر» أمام المسجد، وقال: كل مَن في المسجد معزوم على الغداء.

تبادل الناس النظرات. وسأله أحدهم: ما المناسبة يا عمدتنا؟

قهقه، وقال: وهل يجب أن تكون هناك مناسبة لنأكل سويًّا؟

تأخر «رشدان» في الخروج، وكان يرمي خطيب الجمعة وهو يُحدث المصلين عن الصبر بطرف عين مملوءة بالهواجس، لا سيما حين راح يربط بين الصبر وبين اسم القرية القديم. رآه «عمر»، وكان يفرق بينهما ثلاثة رجال جالسين في الصف الأول، يلتفت خلفه، ويحط عينيه في عيني رجل آخر من «الجوابر».

انتظر «عمر» بين الرجال، حتى خرج «رشدان»، فناداه قائلًا: لا يحلو الطعام إلا بحضورك يا بن أختي.

وضايقه أن يناديه بهذا، وهو الذي يرسم على مهل خطوات طريقه كي يكون كبير القرية. كان مؤمنًا بأن «عمر» استفاد من خير «الجوابر»، أخذ الكثير ولم يعطهم شيئًا. وكانت أخته قد عبَّأت نفسه غبنًا من خاله، فلم يستطع أن يكتم غضبه، بل قال في تحدٍّ: عشم إبليس في الجنة.

كان قـد أدرك من الخطبة بعض الترتيب الذي يدبره «عمر»، ويرى وجـوده خصمًا من رغبتـه العارمة في أن يحافظ على وصية أبيه، الذي قـال له قبـل موتـه: أودع الدنيا والقرية كلهـا في عباءتنا، أنـا والوجيه، فإياك أن تُفرِّط في هذه العباءة.

وكان يحلو له أن يخلو إلى «رتيبة» ليسـألها عن حكايات الأجداد، التـي كلمـا خمدت في نفسـه ذكَّرته بهـا «هنيَّة». كبـرت الحكاية حتى صـار مقتنعًـا بأنه لا بد أن يكـون في خصومة مع خالـه، أو على الأقل يقف أمامه ليحول دون ابتلاعه القرية في عباءته.

ضايـق رده «عمـر»، فقال له فـي غيظ: يبدو أن أختي «رسـمية» لم تُحسن تربيتك.

زام «الجوابر» في غضب، وقال واحد منهم: الدار دار أبونا والغرباء يطردونا.

تدخـل «ناجـي»، وقـال وهو يمشـي نحو «رشـدان»: نحـن أهل، والدليل أنا وأنت.

فرمقه «رشدان» في استخفاف، وقال: أنت ابن أبيك، وهو ليس منا.

كظم «ناجي» غضبه، وأكمل السير نحو «رشدان»، فظن «الجوابر» أنـه سيشـتبك معه، فتكاثـروا عليه، ودفعـه أحدهم، فسـقطت العمامة عن رأسـه. مال أحد الفلاحين والتقطها، وكانـت قد تغبَّرت من تراب السـاحة العريضـة أمام المسـجد. نفضهـا ووضعها على رأسـه، بينما «ناجي» يقول: هذه خطيئة كبرى، وعقابها أليم.

انبرى واحد من «الجوابر»، وردَّ في غضب شديد: تكلم على قدرك.

وصرخ فيه «عمر»: تأدب، فقدره لم يبلغه أحد منكم، ولن يبلغه.

وكان الشيخ «مقبول» قد فرغ من التسابيح الطويلة التي اعتاد أن يلهج بها لسانه عقب الصلاة، فخرج يتعثر في قفطانه. شق الجمع حتى وصل إلى «ناجي»، وقال له: حقك عليَّ يا شيخ.

قهقه «رشدان»، وقال: خذ شيخك واذهب يا ضلالي.

كان «محمود» يراقب ما يجري صامتًا، فنظر إليه «عمر»، وقال له: خذ أنت نسيبك وامضِ، حتى لا يسمع ما لا يرضيه.

تزاحم فلاحون حول «ناجي» يربتون كتفه، ويسحبونه في لطف إلى الخلف. آخرون منهم التفوا حول «رشدان»، وسحبوه أيضًا في رفق. وقال «محمود»: كنا قبل دقائق متراصين في الصلاة، اقصروا الشر، وليقف كل شيء عند هذا الحد.

لم يشأ «عمر» أن ينسحب مهزومًا، وهو عمدة القرية، فألقى نظرة على وجوه «الجوابر» وكان محاطًا بالخفر وشيخهم، وقال: ستدفعون ثمن ما جرى.

استدار، فمشى الفلاحون خلفه إلى الوليمة التي وعدهم بها. أما فلاحو «الجوابر» فقد وقفوا في أماكنهم، ونظروا إلى «رشدان» ليرد، فقال للعمدة في تحدٍّ: أعلى ما في خيلك اركبه.

كان خبر ما جرى قد طار إلى سمع «عبلة»، فقالت لزوجها غاضبة: ينتظر الناس من الكبار الحكمة.

ثم التفتت إلى ابنها، وقالت له: يسمو كبار العقول والنفوس عن الصغائر.

رد في حزن: أغضبني سقوط العمامة من فوق رأسي، وهي ما يجب أن تكون لها مهابة في نفس كل مَن يراها.

ابتسمت، وقالت لتهدئ من خاطره: لا مؤاخذة على الجهلاء.

وباغتها «عمر» بسؤال، لم تتوقعه: انفتح باب الغضب، وعرف كل إنسان موضعه، فإلى أي فريق تميلين؟

اكتسى وجهها بالغضب، ونظرت إلى «ناجي»، وقالت: لا يوجد لأحد مكانة في نفسي أعلى من ابني.

ارتاح لقولها، ثم رماها بسؤال آخر: وأنا؟

بان في عينيها خجل، وأعادت النظر إلى «ناجي»، وقالت: أنت تعرف الإجابة.

ساد صمت، قطعته هي قائلة: أنت عمدة البلد، وينتظر منك كل أهل القرية العدل والحماية.

لم يكن معنيًّا في هذه اللحظة بالعدل، ولا يفكر إلا في حماية نفسه وابنها. يضنيه أنه بلا عزوة، بعد أن اقتلعت نوائب الأيام أهله من القرية، ويقول لنفسه كلما اختلى بها: «الكثرة تغلب الشجاعة». ثم

يفيـق على الباب الـذي فتحه «ناجي» أمامه، حين دله على طريق جمع شتات عائلته المبعثرة في البلاد.

(52)

يفتـح التفكير في الشـر الأذهان على غريزة التوحش التي سـكنت الإنسـان منذ زمن الغابة. تستطيل الأسـنان والأنياب. تتسع الضروس الطاحنة. تتحول الأظافر إلى أظلاف ومخالب. تصبح العيون مفتوحة من الحواجب حتى الخدود، ترقب الفرائس.

وإذا كانـت الحيوانـات الضاريـة تعرض عن الصيد إن شـبعت، لا يشـبع الإنسـان أبدًا من السـعي وراء القوة: المال والجاه، والعضلات المفتولـة. البنـادق المحشـوة بالرصـاص، وقبلهـا السـيوف والرماح والحراب والسهام والسكاكين والخناجر والشوم. الأسنان التي تعض، والأظافر التي تخمش. اللكمـات والصفعات والركلات والنطحات. الألسنة المسكونة بالعبارات البذيئة. العيون المملوءة بالوعيد.

تستيقظ الأحقاد الخامدة تحت أطمار من الغفلة والتلهي والتجاوز ومحاولة النسـيان، بعد أن تدق الأسافين، لتجرف أمامها كل ادعاءات التسـامي والتسـامح. وفي أيام الخلاف العارم، يجد مثيـرو الفتنة لهم دورًا كبيرًا.

انتقـل هؤلاء بين السـلاملك الجديد، والسـلاملك القديم، يجدون طعامًـا وشـرابًا، ويقبضـون أثمان الأخبـار التي حملوها بيـن الطرفين، ويزيدون عليها من عندهم الكثير، وكأنهم يرمون حزم الحطب الناشف على جمر أتعبه طول الانتظار، وكلما أراد أن يخمد، اشتعل من جديد.

هكذا مرت الشهور بين «عمر» و«رشدان»، انتعشت فيها الحكايات القديمة والنميمة، فاتسعت الهوة، وقُطعت الجسور، ورفع كل طرف الشعار البغيض الذي طالما أهلك النسل والحرث: إما أنا أو هو.

لم تخلُ هذه الشهور من فرح. ولدت «عبلة» طفلها الثاني «صابر»، ورقص العمدة أمام الرضيع محتفيًا بقدوم رجل جديد إلى «الصوابر». وضع «رشدان» أثاثات عصارة القصب والزيت. حصل «ناجي» على العالمية من الأزهر. أرسل اثنان من رجال القرية أبناءهما إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر. تخرج أول شاب من القرية في مدرسة المعلمين وصار معلمًا في مدرستها. عاد المَسَّاحون يضبطون حدود الشريط الذي سيجري فيه القطار.

في الشهور نفسها ولدت الأحزان. مات ثلاثة صبية غرقًا في النيل، وماتت «رتيبة» آخذة حكاياتها معها، وحزن عليها «الجوابر» كما لم يحزنوا على أحد من قبل. ولم يكن حزن «عمر» أقل، فقد ماتت «رتيبة» وكان مَن حولها حين يرونها يظنون أنها ستعيش مئة عام. في شهورها الأخيرة ذبلت، وزحف إلي جلدها سواد غريب، وانفتحت في شراينها بحور الألم، حتى طلب الجميع من الله أن يرحمها من العذاب، واستراحوا بفيضان روحها.

ومات شيخ الزاوية، بعد أن أوصى أن تُدفن فأسه معه، تاركًا وِرده لمَن يأتي بعده، بعد أن قرأه آلاف المرات، في نور الشمس الساطع، وعلى ضوء اللمبة الواهن، ومن ذاكرته قبل أن يخلد إلى النوم.

في النزع الأخير كان معه «عمر»، يحاول أن يخفف الحُمَّى التي أطلقت الجمر في دمه. كان يرتجف، يرغي ويزبد، وتجري على لسانه أقوال عجيبة. فتح عينيه إلى «عمر»، وأطال النظر، ثم قال له: تأتي الهموم على قدر العزم.

اعتقد أن الرجل يحدثه عما يكابده في هذه الأيام، بعد أن اشتد خلافه مع «الجوابر» إلى أعلى مراتبه، لكنه فاجأه قائلًا وهو يلتقط الحروف من يد الرحيل الأبدي: اصبر على ما ستُبتلى به، فهو جديد عليك.

دس خرقة في طست الماء، وعصرها، ومررها على جبين المجذوب، وقال: لا جديد يأتي، فقد جربت كل أصناف الابتلاء.

تنهد المجذوب، وقال: لا يعلو على ابتلاء المرء في أحبائه.

كاد «عمر» يقهقه، لكنه كتم الضحك خجلًا من مهابة الموقف، وقال: ليس هناك أقسى من أن يعطيك الذي جاء من صلبك ظهره.

رفت ابتسامة على شفتي المجذوب، وقال: أعطني الوِرد.

مد عمر يده إلى كتيب صغير ملقى إلى جانبه على الحصير، ورفعه إلى المجذوب، فتلقفه بيمينه، وقال: يبقى هذا هنا حتى تتسلمه صاحبته، التي ستأتي من بعدي.

تعجب «عمر» مما سمعه، وسأله: هل تسكن المكان امرأة؟

حرك الرجل جفنيه، وقال: ليست أي امرأة، فإن عزمت على المجيء خلِّ بينها وبين ما تريد.

صمت «عمر» برهة، ثم قال: منذ متى كان هناك أوصياء على مَن انجذب.

أمسك المجذوب بيد «عمر»، وقال له: عاهدني على ألا يضنيك هذا، فالله وحده أعلم بأحوال خلقه.

هز رأسه، وقال: أعاهدك يا مولانا.

ظهر امتنان في عيني الرجل، ثم قال: عاهدني على ألا يبكيني أحد، وأن يحضر جنازتي أهل القرية، بمَن فيهم خصومك، ويحضرها النصارى واليهود، ولا تقم لي عزاء.

هز رأسه موافقًا، فقال الرجل: بعد موتي، أرسل مَن ينظف الزاوية، ويسقي شجرها والرياحين، ويعطرها بالمسك، حتى تليق بمَن تسكنها بعدي.

وواصل هز رأسه، ثم فاجأه المجذوب بأمر غريب. أمسك يده، وقال: إن جاءتك التي استأمنتك فلا تخنها من جديد.

نظر إليه، وقال: لا تحدثني عن امرأة لم تطق العيش معي.

كان يقصد «هنيَّة»، لكن المجذوب قال له: في حياة كل إنسان سر مطمور، أو سر انكشف لأهله فطمروه، ولفه النسيان.

صمت «عمر» برهة، وقال: حياتي كتاب مفتوح، وهذا أحد عيوبي.

رفت على شفتي المجذوب ابتسامة ساخرة، وقال: بذرة غرستها في أرض ليست لك، فأنبتت ما هو لك، وبين الحرام والحلال مساحة واسعة من العفو.

بـدا ما يسـمعه غاية في الإبهام، فهز رأسـه في عنف لعلـه يهديه ما يقربـه مـن الفهم، لكنـه عجز عن إدراك شـيء. عصر الخرقـة المبتلة، ودفعها إلى جبين المجذوب، وقال له: كأنك تُلقي الوصية الأخيرة.

ابتسم، وقال: تنكشف الحُجب للراحلين بلا عودة.

انتبه «عمر» إلى ما سـمع، وأراد أن يخرج من دائرة الألغاز، فسـأل مباشرة: هل تعرف شيئًا أخفيه؟

شرد المجذوب قليلًا، وقال: إن أتتك التي وهبتك جسدها فصدقها.

ثم تمتم المجذوب بكلمات لم يسـمعها الجالس عنده، وانبلجت عيناه لا تريان شيئًا ولا أحدًا في هذه الدنيا. مد «عمر» أطراف أصابعه، وأغلق عيني مَن لن يحدثه مرة أخرى، وسـحب الشال من فوق كتفيه، وغطـى به وجهـه، ثم رفع كفيـه إلى السـماء، يقرأ الفاتحـة على روح الطيب الذي غاب.

في أواخر هذه الشـهور، انحسـر ماء النهر، فبـارت زراعات كثيرة، وشـح الرزق. تعطل الفلاحون فجلسـوا فوق المصاطب ببطون شـبه خاوية، وآذان مفتوحة على الحكايات. اسـترجع الرجال في جلساتهم شيئًا من سيرة بني هلال، ورددوا وعيونهم مغمضة من فرط التأثر:

سبع سنين يا نجد

لا هبهب البحر

ولا سلسل المطر

ولا ريح طاير

لكن القوَّالين استعادوا سيرة أخرى، مستسلمين لهجوم الماضي البعيد. انتعش وجدانهم مع غلبة الأحزان. عصروا قلوبهم، فداعبت وتر الرباب، لينطلق العزف مجروحًا، على قدر الإحن والخوف والوعيد، وجادت القرائح بالمواويل:

جريح وطبه غايب والغضب سايل بحور

والعقل يجري هرايب من جدع دمه يفور

telegram @yasmeenbook

الفهرس

نَجْعُ بَحْـر 5

أَيَّامُ الذَّهَب والـدَّم 40

الوجَعُ والمَسرَّة 59

الضُّحَى العَالِي 131

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الثالث

حسن، عمار علي.
ملحمة المطاريد: رواية / عمار علي حسن . - ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2025.
304 مج 3؛ 20 سم.
تدمك: 4 - 503 - 795 - 977 - 978
1- القصص العربية.
2- الملاحم العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 29087 / 2024

telegram @
yasmeenbook

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriahbookstores.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى: 2025م.

تصميم الغلاف الفنان: أحمد فرج

عمار علي حسن

رواية

ملحمة المطاريد

الجزء الثالث

telegram @
yasmeenbook

الدار المصرية اللبنانية

مَحَطَّةُ القِطَار

(1)

تنصب الأيام فخاخها أمام السائرين مهما كانوا في حذر. زاوية عمياء تهجم منها الشرور والأوجاع، ببنما يظن مَن أحكم التدبير أنه قد ظفر بالنجاة إلى الأبد. حتى الطرق المستوية مملوءة بالحفر، فما بالك بتلك التي اعوجت، تعلو وتنخفض، تضيق وتتسع، ولا تتهادى لأقدام المتعجلين.

أشد الفخاخ قدرة على الصيد هي التي تسكن الرؤوس. حكايات فاسدة ملتوية. روايات مفعمة بالحنين إلى الغابة. عناد يركب صاحبه. رغبة في الانتقام تتدفق في العروق بلا هوادة. النظر إلى الحياة من أسفل. بقاء الليل قائمًا في النفوس المهيضة حتى في وقدة الظهيرة.

لكن بين العميان على كثرتهم، توجد دومًا قلة مبصرة. بصيرة قبل البصر، قد يمنحها العلم أو الحكمة، ويا حبذا لو كانا معًا. هكذا كان «ناجي»، يبحث بين ظلام الحكايات عن خيط النور، فيقول للعمدة: بئس القرار الذي يتخذه الغاضبون. لكن العمدة يعانده قائلًا: حمية الرجال تدفع الأيام إلى الأمام.

(2)

رسا مركب عند «الجابرية» ذات صباح. نزل منه شاب متين الجسم، في يده عجوز كليلة البصر، تتوكأ على عصا ممشوقة من شجر الصفصاف. كانت العجوز تمشي على مهل، لا تكاد ساقاها تحملانها. ما إن تقطع خطوات، حتى تتوقف لاهثة. نظر الشاب إلى بيوت القرية التي لاحت من بعيد، وقال لها: أرفعك على كتفي حتى لا يطول بنا الطريق.

هزت رأسها رافضة، وقالت: لا أريد أن تدخل بي القرية كسيحة.

وبينما هما يتجادلان ظهر خلفهما فلاح حافي القدمين على الجسر يمتطي حماره، فقال له الشاب: أريد مساعدتك. فأدرك الفلاح ما هو مطلوب منه، فترجل، وقال له: احملها برفق على ظهر الحمار.

مضى بها الحمار، وهي تقبض بيديها المعروقتين الواهنتين على مقدمة البردعة الممزقة. يسندها الشاب من اليمين والفلاح من اليسار. كانا غريبين على الفلاح، فسأل الشاب: مَن تقصد في قريتنا؟

نطقت العجوز بحروف مرتعشة: نريد بيت «عمر الصابر».

قال الفلاح: نعم، بيت العمدة.

قالت العجوز: هل صار عمدة القرية؟

أجابها الفلاح: منذ سنوات طويلة.

تهلل الشاب لما سمع، وأدرك أن رحلته المضنية قد تنتهي بما يسره، ويرفع عنه الشقاء الذي لازمه منذ ولادته، وحتى اللحظة التي يحياها الآن، ويسمع فيها أنه قد صار ابن عمدة.

لم يغلب الفلاح فضوله، فسأل الشاب: هل تقصدانه في مظلمة؟

نطقت العجوز: مظلمة طويلة يا بني، أطول مما تظن.

صمت الفلاح برهة، ثم قال: سأذهب بكما إلى السلاملك، هو مكان نظر المظالم، أما السرايا فالعمدة لا يقابل فيها طالبي الحاجات.

رقص قلب الشاب في صدره حين سمع كلمة السرايا، ونظر إلى العجوز في امتنان، كما لم ينظر إليها من قبل، وقال لها: لم يذهب تعبك هدرًا يا أمي.

انبسطت تجاعيد وجهها، واستردت أنفاسها المبهورة، وقالت: لا تتعجل، فنحن لا ندري ماذا فعلت الأيام بمَن نقصده؟

حين وصل الحمار إلي السلاملك، أنزل الشاب العجوز، وأفسح له الخفر الطريق، فأجلسها على كنبة مفروش عليها كليم بني اللون. أسندت ظهرها إلى حاشية لينة من قطن، مكسوة بغطاء بني أيضًا، يكاد يمتزج بجسدها المصنوع من خشب الزان. أبلغ الشاب أحد الخفر، أنه جاء وأمه من بعيد للقاء العمدة في أمر مهم.

جاء «عمر» وخلفه اثنان من خفره. ما إن رآه الشاب حتى هب واقفًا، يتطلع إليه في رجاء. لم تقوَ المرأة على النهوض. حاولت لكن

جسدها خانها، فأعادت ظهرها إلى المسند وهي تلهث، وقال لها «عمر» في إشفاق: ما عليك يا أمي.

انقبضت لما سمعته منه، لكن حالتها بالنسبة لرجل لا يزال قادرًا على النهوض والمشي والنطق بهذا الصوت الجهوري، لم تجعلها تتعجب. هي لم تعد لتكون له كما كانت في الماضي. فهذا مستحيل، لكنها جاءت إلى هنا لتنهي شقاء ولدها، ابن الخطيئة.

لم ينتبه «عمر» في البداية للشاب جيدًا، لكنه حين جلس أمامه وحملق فيه ارتج قلبه. ولأنه عاش منذ طفولته في بيت يعرف المرايا، وكذلك في شبابه، رأى نفسه في الشاب. كأنه هو قبل سنوات بعيدة. نقل بصره إلى وجه العجوز، وتفرس فيه جيدًا، وتدفقت في رأسه الأسئلة كأشواك مسنونة، وغرق في حيرة، بينما تدفقت صور ظن أنها طُمست إلى الأبد. تحضر زاهية ثم تبهت وتغيم، مفسحة الطريق إلى صور أخرى.

ملأت الشكوك نفسه، وقبل أن يسأل العجوز عن شيء، نظر إلى الخفيرين اللذين كانا واقفين إلى جانبه، وقال لهما: اذهبا، وأرسلا خادمة لتحضر لنا ما نشربه.

ابتسمت العجوز عن أسنان مثرمة، وقالت: طول عمرك كريم يا سيدي.

رن صوتها في أذنه. كان الصوت القديم الذي أيقظ في نفسه الكثير من الأحاسيس، وكانت طلتها التي أطلقت في شرايينه النار، وقت أن

كانت مستعرة لا تهدأ، ولا تنطفئ. نظر إليها، وأعاد النظر إلى الشاب، وولد في نفسه السؤال الذي حبسه منذ أن رآهما: هل أنت..؟

وقاطعته بصوت غارق في الرجاء: خدامتك «تماضر».

ضرب «عمر» جبينه بيده، وقال: يااااااااه، ما أغرب الدنيا!

أرادت أن تقترب منه فسألته عن سيداتها، فانقبضت ملامحه، وقال: الباقية في حياتك.

تغضنت تجاعيد وجهها بالحزن، وقالت: يبدو أنني قد تأخرت طويلًا.

رفع وجهه إلى الشاب، وسألها: هل هذا ابنك؟

فأجابته دون تردد، وقطعت المسافات في كلمتين: وابنك أيضًا.

ارتعش من هول المفاجأة، وخانه لسانه، فسأل في تعجب: هل هذا معقول؟

ابتسمت المرأة، وقالت له: انظر إليه جيدًا، إنه أنت أيام شبابك. كنت كلما نظرت إليه تذكرت أيامي معكم. شقيت حتى أربيه، ولم أشأ أن أفارق الدنيا وأتركه وحيدًا، بينما أبوه رجل مقتدر.

لم يعرف ما يقول، ولا كيف يتصرف، فقبض على الحاشية القطنية الناعمة بيده، وأعاد النظر إلى الشاب، الذي كان يتطلع إليه صامتًا، وفي عينيه دموع حبيسة وخوف ورجاء. وقبل أن ينطق، واصلت العجوز: من حقك أن تعرف أن لك ابنًا صار شابًّا يملأ العين.

يكذب هو إن قال إنه قد نسي «تماضر». الخادمة التي كانت عيونها مسكونة بالنداء، ثم انطفأ الآن، كما ذهبت جاذبيتها، لكنها لم تفقد بعد حضورها الآسر. عذبة نظرتها، وتنهيدتها، وإشارتها، وكان أعذب انكسارها، وهي تحاول أن تردم الهوة بين خادمة وسيدها، بمزيد من التفنن في إثارته، لتراه خاضعًا لها، قبل أن تعطيه نفسها عن طيب خاطر، حتى الشهقة الأخيرة.

إحساس عاشه معها، لا يزال يبحث عنه، رغم أنه تزوج من امرأتين جميلتين بعدها. كان انتقالًا من غابة متوحشة إلى حقل مهندسة زروعه، جميل المنظر، يريح العين، لكن كل الخُطى فيه مضمونة ومأمونة، تفتقد إلى المغامرة. لم ينسَ «تماضر» في كل مرة واقع فيها إحدى زوجتيه، وهو يضبط نفسه يبحث عن الريبة واللهفة الحارقة.

نظر إليها في عطف، ورفعت هي إليه عينين عاد إليهما بعض البريق. همَّ أن ينهض ويصافحها، ليرى ما إذا كان جسدها لا يزال، رغم تقدم السن، يحتفظ ببعض حرارته المتقدة، لكنه وجد نفسه يتراجع أمام هجوم الهواجس والأسئلة. تراءى له وجه «عبلة» وهي تتطلع إليه في اندهاش وعتب؛ لأنه أخفى عنها هذا السر، وكان يقول لها دومًا، من فرط ما أطلعها على مكنون نفسه، وما أهداه إليها ذكاؤها الحاد: صرت أمامك كتابًا مفتوحًا.

ها هي صفحات من كتابه خبأها كل هذه السنوات، لم يفتحها أمام «عبلة»، ولا «هنيَّة» التي يخشى أيضًا من رد فعلها إن عرفت أنه كان

يكـذب، حيـن قال لهـا في ليلة العـرس، وبعد أن فـض بكارتها: ذقت أخيـرًا طعـم الأنثـى. ولمَّـا أخبرته بأنـه قد فتـح عينيها على مـا كانت تجهلـه، وسـألته عن التجـارب التي جعلتـه يفعل بها ما لـم توصها به أمهـا، قبيل الزفاف بأسـبوع كامل، قال لها: سـمعت كثيـرًا من الرجال أيام العمل بوكالة الجداوي، وهنا في الحقول. أما «عبلة» فقد قالت له بعد المضاجعة الأولى: تفعلها وكأنك راحل بعدها.

لـم تكن تدري أن «تماضر» قد علَّمته كيف يكتشـف المخزون في جسده للنساء، ودربته على أن يعبث بلا خجل، بعد أن كانت هي تعبث به، لتوقظ اشتهائه العارم، فيستجيب لها دون تردد، ويتساءل عمن علَّم الخادمة كل هذه الفنون.

لا يهـم أن تكتشـف «هنيَّة» أنـه قد كذب عليها، إنمـا لأنها وجدت بحضور هذه العجوز إلى «الجابرية» منفذًا آخر لتكيد له. واحدة مثلها، تشـمخ بأنفها في غـرور لا يخمد، وتتحدث دومًا عن أنها عاشـت في بيت أبيها عيشـة الأميرات، سـتعرف أن الرجل الذي رضيت بالاقتران بـه، وكانت ترى طوال الوقت أنها قد قدمـت تنازلًا كبيرًا بالزواج منه، له ابن من خادمة.

شـيء واحـد كان يخفـف من وطـأة الموقف الذي وجد نفسـه فيه بغتة، إنه هذا الشاب القوي، الذي سينضم إلى «الصوابر». متين البنيان بلا حد، لا أحد من جيله في القرية يماثله قوة. عشـرة شـباب في شاب واحـد، جاءه فـي وقت كان محاصرًا هـو بالكثرة المتحفـزة، المفعمة بالرغبة في الانتقام، والتي تغلب الجاه والمال والشجاعة.

دار كل هذا في ذهنه بين غمضة عين وانتباهتها. تعجب كيف يمكن للمرء أن يختصر حياة طويلة في برهة واحدة. لم يكن قد عرف من قبل كيف يُكثِّف الزمن، ويضغط الحكايات والهواجس، على هذا النحو الغريب. أسند رأسه على كفه، ففطنت «تماضر» إلى شروده، فقالت: لم تهرب منك الحيرة القديمة يا سيدي.

قفزت إلى ذهنه كلمة «سيدي» التي نطقت بها في المرة الأولى التي وقع في فخها بعد أن نصبته له بإحكام، وكيف أنه قال لها وهو يتودد إليها كي تساعده على إطفاء النار التي اشتعلت في جسده: أنت سيدتي، وأنا خادمك.

عرف وقتها كيف تتحكم الأنثى في الاشتهاء، أو تديره على مهل، متمنعة وهي راغبة. وكيف تنهار الحصون التي يبنيها الذكر من فرط جهله أو كبريائه المصطنع أو الخوف من الفضيحة.

جاءت الخادمة بأكواب القرفة والينسون، ومدتها إليهم، فأخذ الشاب القرفة، وكذلك فعل العمدة، وأخذت هي الينسون. سحب رشفتين من كوبه الساخن، ثم ملأ عينيه من وجهها، وسألها: لماذا تأخرت كل هذا الوقت يا «تماضر»؟

واستعذبت اسمها حين نطق به، فقالت في تودد: كل شيء بميعاد يا عمدة.

انتبه إلى أنه لم يسأل الشاب عن اسمه، فسأله. ابتسم وقال له: اسمي «محبوب».

تدخلت «تماضر» قائلة: سميته هكذا؛ لأنه ابن محبة ضائعة. تطلع إليها متعجبًا، فواصلت: لم أكن امرأة ساقطة، أنا أعطيت مَن أحببته ما أراد، لست نادمة. وكانت قد صارحته في الزمن القديم بمحبتها له، رغم فارق السن بينهما، لكنه لم يحفل بما سمع منها، وعدَّه جزءًا من الفخ الذي نصبته له، أو سبيلًا لتشجيعه على أن يتقرب منها أكثر.

ووجد نفسه يسألها: هل تزوجتِ يا «تماضر»؟

ـ اكتفيت من الحياة برجل واحد، هو أنت.

– لماذا لم تعودي للبيت قبل مغادرتنا «إسنا» لتخبريني بما جرى لك؟

– لم أقدر على رفع وجهي إلى وجه أمك. كنت جريحة ومكسورة، يكاد الخجل يقتلني، وطال الزمن بي حتى وجدت طبابتي.. في مرات كثيرة اقتربت من داركم، ثم عدت مسرعة، خائفة حزينة، وتابعت أخباركم من بعيد، حتى عرفت أنكم رحلتم، فانقطع الأمل.

– صرتِ الآن قادرة على أن ترفعي وجهك، وتتحدثي بما أخفيتيه كل هذه السنين.

– يهرب الخجل مع تقدم العمر.

ولم يهرب من الابتسام، وهي تقول: أنا امرأة قعيدة كما ترى. والتفتت إلى «محبوب» وقالت: وضعت كل همومي في تربية ابني، وكان الله بي رحيمًا، فكلما كان يكبر، ويستدير وجهه، وضع فيه ملمحًا منك، وصار أنت، حتى إنني كنت أخطئ في بعض الأحيان وأناديه باسمك.

تنهد في ألم، وقال: يبدو أنكِ قد تعبتِ كثيرًا.

أطرقت صامتة، وكأنها تستجمع الحكاية الطويلة، لتطلقها في دفقة واحدة، ثم قالت: عملت خادمة في البيوت، وكنت أخبر أصحابها بأنني أرملة مات زوجها في حفر القناة، فكانوا يعطفون عليَّ كثيرًا. ولمَّا كبر «محبوب» رفض أن يتركني لخدمة الناس. منذ صباه وهو يكد لنرتزق. وجدت فيه شهامتك أنت و«جعفر» و«محمود»، حين لم تجعلكم نعومة أيديكم تتواكلون على ما تركه لكم الآباء، وارتضيتم بأشغال لم تُخلق لكم.

ثم توقفت فجأة، وسألت: أين سيدي «جعفر»؟

سكن الحزن ملامحه فجأة، وقال: البقية في حياتك.

ضربت صدرها بيد واهنة، وقالت: يا للخسارة! كم كنت أحترم هذا الشاب، الذي كبر قبل الأوان!

وواصل هو: أما «محمود» فهو معنا هنا، يشارك في عصارات قصب وزيوت وطاحونة.

تنهدت، وقالت: طيب، ويستحق كل خير.

شرد في خاطر داهمه فجأة، حين امتلأ رأسه بصورة هذه العجوز، التي تتعثر خطواتها على ثلاثة، ساقين متهالكتين وعكاز. أدرك كم كبر هو أيضًا، ووضع أصابعه على خده يتحسس موضع التجاعيد التي جاءت، ولمس فوديه، وكأنه يريد أن يهش الشيب الذي زحف إليهما بقوة. فطنت هي إلى ما انتابه، وهمت أن تسأله عن زوجته وأولاده،

لكنه قال لها: لتبقي و«محبوب» معنا كضيفين عزيزين، ولتعذريني في إخفاء الخبر، إلى أن أُمهد له.

انكمشت مكانها، ونظرت إلى ابنها، وقالت: معذور يا عمدة، فقد جئتك من غير ميعاد.

أبعد عينيه عن وجهها، متغلبًا على الضعف الذي سرى في شرايينه، وقال: في البيت مَن تنتظرك، وستفرح لمجيئك.

أدركت مَن يقصد، فسألته في وجل: هل «خضرة» لا تزال هنا؟

أجابها، وهو يهب واقفًا: نعم.

نادى خادمة، وقال لها: جهزي غرفة للسيدة وولدها، ستبقى معنا ضيفة عزيزة.

راق لها أن يناديها بالسيدة، وإن كان وصفها بالضيفة أطلق في نفسها ريبة، واستدعت الماضي البعيد، حين تخلى عنها، وتركها تخرج من دارهم في «إسنا»، دون أن يسألها إلى أين هي ذاهبة، أو يفكر، ولو مرة واحدة، في البحث عنها، بعد أن ابتلعتها شوارع المدينة.

أما هو فتذكر فجأة وصية المجذوب الأخيرة، وقال لنفسه: هي التي وهبتني جسدها، ولم تكذب عليَّ.

(3)

خصصت الخادمة الغرفة، وجاءت لتسند «تماضر» كي تستريح. تبعها «محبوب» صامتًا، فلمَّا انغلق عليهما الباب، قال لأمه في أسى: ظننت أنه سيجري نحوي، ويأخذني في حضنه.

ابتسمت، وقالت: كان يحضنك بعينيه.

تحسست بكفيها السرير الصغير الذي أخبرتها الخادمة بأنه لها، ومدت بصرها إلى سرير مثله يقابله أُعدَّ لابنها، وقالت له: لا تؤاخذه، فهو بارع في إخفاء مشاعره. احترت في السنين البعيدة أن أعرف إن كان قد أخلص لي أم لا، لكنه كان يروغ مني، وترك لي الحيرة، وذل السؤال.

كان «محبوب» يجلس عند قدميها، ليخلع حذاءها الأجرب، فقال، وهو يسند ظهرها إلى الوسادة: ما أراه أنه يحمل لكِ مودة.

ابتسمت، وقالت: ربما يحن لشبابه فقط، وهذا ليس قليلًا.

(4)

كان القلق قد سكن نفس «قطاوي» حين عرف ما جرى عند المسجد بين «عمر» و«رشدان». قال للأخير بعد أن سمع منه على مهل: ليس من المصلحة أن تقوم بيننا وبين «العمدة» عداوة.

telegram @
yasmeenbook

ـ لا تخشَ شيئًا، فكفتنا هي الراجحة.

- لا تجعل الغرور يفتح أمامنا باب الخسارة.

- القرية لنا، وأهلي هم الأكثرية، ومعنا المال.

- معه السلطة، وهذه ليست بالقليل. هو عين الحكومة على كل شيء هنا، وكلمته مسموعة.

- الحكومة لا تشغلها سوى الضرائب، ونحن لا نتأخر في دفعها عن أرضنا، ولما تدور العصارات، سندفع عنها ما هو مطلوب.

- لا تنسَ أن الإنجليز يريدون استقرارًا، حتى يقبضوا على زمام الأمر.

وكان «رشـدان» قد وصله ما فعله عسـاكر الإنجليز في البندر حين ثار شغب، فقال: سنكون حذرين في تدبيرنا.

- لنفكر فيمَن يصالحك على العمدة، ونغلق باب الشرور.

- لا يمكن أن أصالحه.

- يا رجل، إنه خالك، وأنتم تقولون الخال والد.

- خالي وأخذ مني ما ليس له، وينظر إلينا في استعلاء.

- إذن لا بد من أن نمضي في طريق آخر.

ثـم جال ببصره في أرجاء السـلاملك، وواصـل: المكان جاهز، لا ينقصه إلا العمدية، ومعها السلاحليك والخفر.

- هل تعني..؟

- لا ينقصك شيء لتكون أنت عمدة القرية.. لا أعرف كيف أفلتت منك الفرصة أن ترث العمدية عن أبيك؟

- كنت لا أزال صغيرًا، وإمام المسجد جمع الناس حول «عمر».

- ها أنت قد أجبت. الصغير قد كبر، والناس أغلبهم من أهلك.

- هنـاك فلاحون جـاءوا إلينا من بعيـد، والنصارى، ومـا تبقى من اليهود، ويوجد معلمو المدرسـة، ولا تنسَ أن «عمر» متزوج من سيدة «الجوابر» أجمعين.

- هناك ما هو أهم، إنها الحكومة يا عزيزي.

- صلته بها أقوى.

- لا تشغل بالك بهذا، فلديَّ ما أستطيع فعله.

طلب «قطاوي» ورقة وقلمًا، فجيء له بما أراد. جلس ليكتب شكوى إلى المديرية ضد «عمر»، وساعده «رشدان» في تذكر كل ما يمكن أن يكون نقيصة في أداء العمدة، وأولها أنه لا يعدل بين الناس، ويثير الفتنة، ثم زعم أنه يجبر الفلاحين على العمل في أرضه بلا أجر، مستغلًّا سلطته في إعادة السخرة إلى القرية بعد زمن طويل من انقضائها.

ولمَّا فرغ «قطاوي» من كتابة الشكوى، قرأها على «رشدان» وهو ينتظر منه استحسانًا، لكنه قال: يمكنه بسهولة أن يُكذِّب كل هذا، وسيجد مَن يشهد لصالحه.

ضحك «قطاوي»، وقال: لا تتعجل الأمور يا عزيزي، إنها البداية، وكما يقال: «العيار اللي ميصبش يدوش».

راح «قطاوي» يستعرض أمامه أسماء مَن يعرفهم من الكبار، الذين كانت الصناعة والتجارة طريقه إلى جيوبهم، وكان لسانه المعسول طريقه إلى قلوبهم. كان يتحدث في فخر، ضاربًا عصفورين بحجر واحد، فهو يستطيع أن ينفع بهؤلاء الكبار مَن يشاركه في المشروع الجديد، ولديه قدرة بهم أيضًا على ضرر مَن يفكر في الغدر به أو يسعى إلى سرقته. لم يغب على «رشدان» ما يقصده الرجل، إذ كانت عيناه تنطقان بهذا، متقلبة بين لين وشدة، ووعد ووعيد.

وسأله «رشدان» إن كان أحد من هؤلاء الكبار يشغل باله بالعمدية في قرية بعيدة، فقال: هم يدركون جيدًا أن مقاليد الحكم في بلادنا تبدأ من القرى، وبعضهم تعود أصولهم إلى الريف. وحين وجد السرور قد ملأ وجه «رشدان»، ابتسم، وقال له: لكن كل شيء له ثمنه.

وضع «رشدان» يده على جيبه، وقال: إن جئت لي بالعمدية فلك الحلوان.

قهقه «قطاوي» وقال: الحلوان لهم، أما أنا فيكفيني تثبيت ما بدأناه.

(5)

ترك «عمر» السلاملك، وتوجه على الفور إلى السرايا. قطع الطريق إليها سيرًا على قدميه. طلب من خفره أن يتبعوه من بعيد، وكانوا قد اعتادوا أن يكونوا خلفه مباشرة، لا سيما منذ أن ساءت علاقته بـ «الجوابر». كان يريد أن يفكر وحيدًا في كل ما سمعه من «تماضر». تنجاب في رأسه الحلول، فيرى الأمر سهلًا، لكن في كل يسير تولد عسرة. تَعقَّد كل شيء أمامه، ولأول مرة يجد نفسه أمام شيء آخر من الماضي يطارده. قال لنفسه بصوت خفيض: ألم يكن كافيًا الوعد الذي حملناه على أكتافنا حتى كَلَّت؟

حين وصل وجد «ناجي» يجلس في البهو السفلي، يحتسي مشروب النعناع الساخن، محملقًا في الجدران. كان شاردًا كما لم يرَه «عمر» من قبل، حتى إنه لم يشعر بدخوله. ألقى عليه السلام، وجلس قبالته، ثم قال له: أراك مهمومًا.

ابتسم، وقال: يشغلني الآتي، وعليَّ اتخاذ قرار مهم على مهل.

ظن «عمر» أنه مشغول بالتدابير السارية حيال «الجوابر»، لكنه فوجئ به يقول: جاء وقت الاختيار. ثم سحب رشفة من كوب النعناع، وقال: إما أن أبقى في «القاهرة»، ويكون لي عمود في الأزهر، أو أرضى بما عرضه عليَّ شيخي.

- هل هناك عرض آخر؟

- يرى شيخي أن بلدي أولى بي. صارت هناك معاهد أزهرية في البنادر، وعلى أمثالنا ألا يتركوها للجاهلين.

فرح «عمر» لما سمعه، وقال له مشجعًا: لم يرَ شيخك سوى الصواب.

كان في حاجة إلى أن يبقيه إلى جانبه، فهو شاب على علم وحكمة، يُجلُّه أهل القرية، ويلجؤون إليه في كثير من المسائل، بعد أن وثقوا فيه أكثر من إمام المسجد. وجوده في البندر سيفتح له بمرور الأيام مسارات مع كبار الموظفين، وضباط المديرية، وربما تكون له كلمة مسموعة عند الإنجليز، الذين يلتقطون أمثاله ليكونوا جسورًا بينهم وبين عموم الناس.

رفع «ناجي» رأسه، وقال: وجودي في «القاهرة» يفتح لي طريقًا فسيحًا.

ابتسم «عمر» وقال: أنت هناك مجرد واحد من كثرة، أما هنا فستكون في الصدارة.

راق له هذا الرأي، وكانت زاوية لم ترد على خاطره، فقال للعمدة: ما خاب مَن استشار.

ابتسم «عمر»، وقال: كن قريبًا منا، أمك في حاجة إليك، ويكفيها أنها انتظرت طويلًا. أبوك كان طريد جريمة لم يرتكبها، يأتيها بين حين وآخر، وأنا مشغول بأمور العمدية والأرض، وأنت ما إن كبرت لتعوضها، حتى سافرت إلى الأزهر.

ثم نظر إليه في تودد، وقال: أنا أيضًا في حاجة إليك. كن بجواري في هذا الظرف العصيب.

صمت برهة، ثم قال: يقدم الله ما فيه الخير.

وغاص كل منهما في هواجسه. لم يحسم «عمر» في المسافة التي قطعها بين السلاملك والسرايا أي شيء، ووجد في الشاب الجالس أمامه خير مَن يُطلعه على سره، ويستشيره فيما يجب عليه أن يفعله. طالما استشاره في أمور معقدة، فكان عنده الرأي السديد.

تنحنح، فانتبه «ناجي» إليه. اكتسى وجهه بابتسامة عذبة، وقال: يبدو أن عمدتنا لديه اليوم ما يعكر صفوه.

انتابه تردد وحيرة، وقال: مشاغل العمدية والأرض، لا جديد.

- لا أعتقد، يبدو أن هناك أمرًا آخر.

صمت العمدة برهة، وقال: لا أجد خيرًا منك يعينني على هذا الهم، الذي لم يكن على البال ولا الخاطر.

وتطلع إليه مشجعًا إياه على أن يواصل كلامه، فقال: أنت تعرف أني أراك ابني، بل منزلتك في قلبي أعلى من منزلة ابن «هنيَّة».

- لا تحتاج إلى قول هذا.

- سأخبرك بكل شيء تفصيلًا، وعليك أن تعذر وتقرر.

- لا يجب أن تكون حواجز بين أب وابنه.

تزحزح في جلسته حتى اقترب منه، وراح يحكي له كل شيء، من البداية وحتى النهاية. كانت الكلمات تتعثر على لسانه، ثم تنطلق، لتعود إلى عثرة جديدة. حكى دون أن يرفع عينيه إليه. بقي ناظراه مدفونين على سجادة ملونة مفروشة تحت قدميه، حتى بدا أنه مشغول بإحصاء الخطوط الملونة والصور. كان يغالب الخجل، وهو يختصر الزمان والحنين والوجل في عبارات مكسورة كخاطره.

وأنصت إليه «ناجي» بإمعان، فلمَّا انتهى قال له: لا يهرب الكبار من مشكلاتهم.

- لم أُخفِ عنك شيئًا.

- الابن سر أبيه.

- حين تغلبني الظنون، أبحث عندك عن اليقين.

- المصارحة تجلي الهموم، والبوح يذهب عن النفس كثيرًا مما يضنيها.

وسأله «ناجي» إن كان عليه أن يصارح «عبلة» الآن بهذا الأمر، فقال له: لنؤجل هذا حتى نستيقن من كل شيء.

طلب «ناجي» أن يرى «تماضر»، وقال له: قرأت في علم الفراسة، أوزن مَن أراه، وأعرف إن كان صادقًا أو كاذبًا.

ابتسم «عمر» وقال: نتعشم دائمًا أن نجد عند أهل العلم الرأي السليم.

(6)

حين وصل «ناجي» إلى الغرفة التي تسكنها «تماضر»، وجد خضرة عندها. وكان «محبوب» يجلس على كليم، ينصت إلى الحكايات القديمة التي تتبادلانها. طلب «ناجي» الانفراد بـ «تماضر» فذهبت «خضرة» إلى غرفتها، وخرج «محبوب» إلى السلاملك يغالب الخوف والحيرة.

جلس «ناجي» على مقعد قبالتها، وقال لها مشجعًا: مَن تقع عيناه عليكِ يا أماه يشعر بارتياح عجيب.

- يعطي الله القبول لمَن يشاء، هو أعلم بحالي.

نظرت إلى قفطانه الفخيم وعمامته ناصعة البياض، وظنت أنه ربما يكون إمام المسجد، أو مأذونًا أتى به «عمر» ليعقد قرانه عليها، ويرد إليها كرامتها أمام ابنها، وأهل القرية أجمعين. في نظرتها هذه اندفعت صور الماضي قوية في رأسها، تحضر ثم تغيم، وهي تعصر ذهنها لعلها

تنهي ظنونها حول هوية الجالس أمامها. وفطن هو لما يدور برأسها، فقال لها في تودد: أنا «ناجي بن جعفر».

سرت في ملامحها فرحة، حتى علا صوتها على وهنه، وقالت: الغالي ابن الغالي.

سرَّه ما سمع، وشعر بأن شيئًا عزيزًا حميمًا يربطه بالعجوز الجالسة أمامه. شيئًا أمتن مما تصور وهو يقطع الطريق من السرايا إلى بيت العمدة. اقترب منها، وقال: ما أقسى ما يُفرق البشر!

- هكذا الدنيا يا ولدي، ما إن تعطي حتى تأخذ.

راقت له حكمتها، وتزحزح في جلسته، ثم مد بصره إليها، وقال: وقع عليك ظلم كبير.

- لست نادمة على شيء.

لاذ بالصمت، بينما سكنت رأسها هواجس، حاولت طردها بسؤال مباغت: هل أخبرك العمدة بما جرى بيننا؟

- جئت من أجل ذلك.

- هل وجدته مصدقًا ما قلته له؟

- لم يُكذِّبه أمامي على الأقل.

أصابها شيء من خيبة الأمل، وقالت: الظن يجرح الحقيقة.

- ليس ظنًّا، إنما رغبة في الوصول إلى اليقين.

– له ما يريد، قلت ما عندي، والله يهديه إلى الصواب.

وبذهنية قاضي الشريعة، كما ارتضى أن يكون، سألها وهو ينظر في عينيها: في مثل هذا يحتاج الناس إلى أدلة قاطعة.

انكسف بالها، وقالت بصوت واهن: وهل هناك دليل أكبر من ابنه؟ يراه الناظر إليه، ومَن رأى «عمر» في شبابه، وكأنهما حبة فول انقسمت إلى نصفين.

– هذا معقول، لكن ألا يوجد دليل آخر؟

– توجد شاهدة على كل هذا، يعرفها العمدة جيدًا، كانت تعمل خادمة في بيتكم بـ «إسنا» مثلي تمامًا، اسمها «أم الخير»، أحمد الله على أنها لا تزال حية ترزق.

بدا «ناجي» وكأنه يعتبرها أول قضية يفصل فيها. تمرين جاء على غير موعد، بل هو أعمق من هذا، إنها مسألة تخص شخصًا يدين له بالكثير، والحكم فيها سيترتب عليه ما لا يمكن أن يستهين به أحد من الأسرة. استدعى كل ما يعرفه عن الفراسة، ونظر في عينيها مليًّا، وسألها: متى قابلتِ «أم الخير» لآخر مرة؟

– لم أرها منذ ستة أشهر على الأقل.

– هل تعرف أنكِ جئتِ إلى هنا؟

– لم أخبرها هذه المرة، حتى لا تمنعني كما فعلت في مرات سابقة، كنت كلما هممت لأجيء وبختني، وأطلقت في نفسي الصدود، عن رجل تخلى عني، وربما يؤدي ظهوري في حياته فجأة إلى إرباكها.

– متى عرفت «أم الخير» خبر ما في بطنك؟

– هـذا يوم لا يمكن أن أنسـاه. جريت إلـى «أم الخير» فور معرفتي بخبـر حملي. كنـت حزينة وحيرانة وخائفة وفرحانة ومطمئنة. شـعور غريـب كان يملأنـي. دوامـة كانـت تسـحبني حتـى أحـس أن روحي ستخرج من جسدي، ثم تعيدني إلى الحياة مرة أخرى. كنت خائفة من الآتي، وفرحة بأن في بطني ابن رجل غالٍ عليَّ. لقيت نفسي في واحدة من اللحظات التي لا تغيب عن بالي أبدًا.

– هل تزوجتِ بعد خروجك من بيت العائلة؟

أجابت وفي صوتها صدق ظاهر، لم يخفَ عليه: لم يمسـني رجل إلا عمر. وشـعرت بـأن هناك مَـن كان يجب عليها أن تذكـره، فتاهت برهة، ثم عادت: ولدت محبوب بعد خروجي من بيتكم بسـبعة أشهر، علـى يد داية إن كانـت لا تزال حية فهي عجوز عمرهـا فوق الثمانين. كان هذا في غرفة ضيقة اسـتأجرتها فوق سـطح بيت قديم، وحضرت الولادة أم الخير، وأمامها اخترت اسم ابني.

– وما عنوان الداية و«أم الخير»؟

– عنوان «أم الخير» في رأسـي، وسـأبلغك به، أما الداية فلا أعرف لها عنوانًا، لكن «أم الخير» التي ولدت ست مرات، ربما تعرف.

أخـرج من جيبـه ورقة وقلمًـا، ودوَّن العنـوان التي أملتـه عليه، ثم طواها ودسها في جيبه، وقال: تأكدي من أنني لن أظلمك.

هزت رأسها، وقالت: رحم الله أبوك، كان شجاعًا وعادلًا.

(7)

تـرك «محبـوب» أمه مع «ناجي» وكان قد ضجر من جلسـة البيت، وهـو الـذي اعتـاد البراح، فخـرج إلى الشـارع ينظر إلى وجـوه الناس والبيـوت. كل مَـن رآه مـن الرجال والنسـاء العجائز نظر إليـه طويلًا، وراح يطابق وجهه بوجه العمدة حين جاء إلى القرية شابًّا. قال بعضهم في سره: هل كان له ابن يخفيه عنا؟

أخذتـه قدماه إلى الزاوية. كان بابها مواربًا على فراغ وصمت. نظر فيها فوجد كُتيِّبًا ملقى على حصير يتوسطها. دخل على مهل، وأمسك الكتيب، ونظر فيه بحسرة، فهو لم يلتحق بالكتاب ولا المدرسة. حال فقـر أمـه بينـه وبين أن يفـك الخط، كما هـو صديقه الصدوق «سـيف الدرديري»، الذي هو وحده مَن يعرف حكايته.

نظر إلى الكُتيِّب طويلًا، وراح يقلب صفحاته على مهل، وهو يشعر بارتيـاح. كان يشـبه الكُتيِّبات التي رآها في صحـن جامع «عبد الرحيم القنـاوي»، أدرك بالطبع أنه ليس القرآن، فالأخير لا يخفى عليه شـكل حروفه، وحجمه، إنما هو شيء يخص الدين على أي حال.

ترك الكُتيِّب مكانه، بعد أن قبَّله، وخرج ينظر إلى القبور المتراصة، ثـم إلـى الـزرع الممتد هنـاك، ليلوح له الجسـر، وخلفه النهر، وسـأل نفسه: هل يكون لي في هذا المكان عيش وصحبة؟

(8)

انتشـر فـي القريـة نبأ الغريـب الذي هو صـورة كاملة مـن العمدة،

حتى وصل إلى «رشدان»، فأنصت إلى ما سمعه، وقال: أمر عجيب ومريب.

فلما أبلغ «هنيَّة» بما سمع، فكرت قليلًا، ثم سألت: هل له أخ لم يخبرني عنه كل هذه السنوات؟

- لم تحدثني أمي يومًا عن شيء كهذا.

ثم قفز إلى ذهنه «محمود»، فقال: عندنا مَن يأتينا بالخبر اليقين.

لكن «محمود» قال متعجبًا: «يخلق من الشبه أربعين».

لم تشفِ إجابته غليل «هنيَّة» التي سكنت نفسها شكوك، بأن وراء الغريب سرًّا. وجدت نفسها تتقلب على حصير من جمر، فقالت: لا أستطيع الصبر. وتفتق ذهنها عمن سيأتيها بالخبر اليقين، فنادت ابنها «رافع»، وقالت له: وحدك الذي يستطيع دخول بيت أبيك الآن. وحدثته عما يتردد بين أهل القرية، فطوح ذراعه في الهواء مستهينًا بكل شيء، وقال: يحب أهل قريتنا النميمة أكثر من الأكل. لم يعجبها رده، فقالت له في حسم: لا تعصَ أمك إن طلبت منك شيئًا.

صمت قليلًا، ثم خرج على الفور إلى بيت العمدة. فلمَّا وصل طرق الباب، ليجد خادمة في وجهه. اقترب منها، وسألها: هل في البيت ضيوف؟

- ضيفة وابنها.

- أريد أن أراهما.

وجمت ولم تعرف ما عليها أن تفعل، فتركها في ترددها وقطع الصالة الخارجية إلى ردهة تؤدي إلى الغرف، فلمَّا وجدته عازمًا على ما يريد، أشارت إلى الغرفة المهجورة، وقالت: هنا.

فتح الباب، ووقعت عيناه على وجه «محبوب»، فاتسعت حدقتاه دهشة، وقال وهو ينقل بصره إلى أمه: مرحبًا بضيوفنا.

وسألته «تماضر» عمن يكون، فابتسم، وقال لها: أنا «رافع» ابن العمدة.

تطلعت إليه في فرح، وقالت، وهي تنظر إلى ابنها: أنا «تماضر»، وهذا ابني «محبوب».

صمت برهة، وسألها: من أي بلد أنت؟

أجابه «محبوب»: من «إسنا».

راح «رافع» ينقل بصره بين العجوز وابنها، وهو يحاول مغالبة الخواطر الغريبة التي اجتاحته. شعر بارتياح شديد لهما، وكأنه يعرفهما منذ زمن بعيد، ولولا أن أمه لن تكتفي بما انتهى إليه، وقد توبخه إن عاد ليخبرها بما سمعه فقط، لاكتفى بهذا الارتياح، ونهض خارجًا. تعثر السؤال على لسانه، كلما همَّ أن يطرحه، غاب في حلقه، لكنه لم يلبث أن غلب تردده، وقال متوجهًا إلى «محبوب»: كأنك أبي كما وعيت على صورته وأنا طفل.

سألته «تماضر» على استحياء: ألم يخبرك أبوك عنا؟

هز رأسه، وقال: لم أقابله منذ شهور.

قهقه «محبوب»، وسأله: هل عدت من سفر؟

- لا، لكن أمي تركت البيت غاضبة، وذهبت معها.

ابتسمت «تماضر»، وقالت: من الطبيعي أن ينحاز الولد إلى أمه.

ولم تشأ «تماضر» أن تخبره بمن تكون، حتى يستيقن العمدة مما يسعى إليه، ثم يخبر هو أهل القرية جميعًا. تنحنحت، وقالت: أنا قريبتكم، فرقت بيننا الظروف والأيام.

لم تكن إجابتها كافية، فسألها: هل أنتِ عمتي؟

- نعم، أنا كذلك.

- حكى لي أبي عن تفرق أهله بين البلاد في الزمن البعيد، وجميل أن يجمع الله شملنا.

- قادر على كل شيء.

(9)

أصر العمدة على أن يصحب «ناجي» إلى «إسنا». حاول أن يثنيه عن هذا، وقال له: لا يصح أن نترك المرأة وابنها هنا بين مَن لا يعرفونها جيدًا. لم يكن يدري في هذه اللحظة أن أهل القرية يتهامسون عن الغريب الذي رأوه يشق الشوارع إلى الزاوية، فقال: سأوصيهما بألا يخرجا من البيت حتى نعود. وحين لم يجد «ناجي» مقتنعًا بما عزم عليه، قال: يأكلني الحنين إلى أيام شبابي هناك.

حين خرجا إلى المرسى ليركبا الماء إلى المدينة، قال «عمر» وهو ينظر إلى الشريط الذي شق الزرع انتظارًا للقطار: ستقصر المسافات قريبًا.

لم يجد «عمر» المدينة كما كانت يوم أن غادرها. مبانٍ جديدة امتدت على أطرافها. أخرى حلت مكان التي هُدمت. بدت الشوارع غريبة عنه، لا يُقربها من نفسه سوى البيوت التي بقيت على حالها تغالب الزمن، ومعها وكالة الجداوي، والمعبد، ومآذن المساجد وقبابها.

كانت «أم الخير» تسكن شقة ضيقة في بيت قديم، بعد غرفة السطوح، اشتراها زوجها قبل سنوات، بعد أن أخذ نصيبه من سرقة الأموال التي كانت مدفونة تحت الزاوية، وقال لها إنه نصيبه من تجارة شارك فيها. لم تصدقه وقتها، لكنها لم ترفض الانتقال إلى سكن جديد، بعد أن ضاقت الغرفة بها وبأولادها. لم يصارحها وقتها خوفًا من أن تهرب إلى «الجابرية» من جديد، وتُبلغ سيداتها بما جرى، وهي التي كانت موالية لهن أكثر من زوجها اللص الغشوم. لكنه وهو على فراش الموت اعترف لها بكل شيء، ثم أغمض عينيه إلى الأبد.

عرفت «عمر» فور أن فتحت الباب، وقالت في فرح: خطوة عزيزة يا سيدي، مفاجأة جميلة!

وقدمت له القرفة التي كانت لا تزال تتذكر محبته لها، وسألته: كيف عرفت عنواني؟

- مَن يسأل لا يتوه.

نظر إلى صبي بجوارها، كان يجلس متطلعًا إلى «عمر» و«ناجي» في صمت، وسألها: هل هذا ابنك؟

- واحد من خمسة رجال.

- ما شاء الله، ربنا يخلي.

وسألته وهي تتطلع إلى «ناجي»، دون أن تقدر على إخفاء ارتباكها: زيارة خاصة لي، أم كنت في «إسنا» ولم ترضَ العودة إلا بعد مودتي؟

ـ جئت أنا و«ناجي» لزيارتك في أمر مهم.

ملأت عينيها من «ناجي»، فأدرك ما يدور برأسها، فقال: أنا ابن المرحوم «جعفر».

وتدخل «عمر»: إنه قاضٍ شرعي.

وقبل أن تنطق قال «ناجي»: جئناك في أمر ضروري، ولا توجد غيرك مَن تجيبنا عن السؤال الذي يشغلنا، وأنا واثق أننا سنجد عندكِ الصدق.

ارتج صدرها، معتقدة أنهما قد تمكنا من فض سر السرقة القديمة، وجاءا للحساب. غلبت ارتباكها، وقالت: لم أتمنَّ لكم دومًا إلا كل خير. حين أخذ «عمر» في سرد ما سمعه من «تماضر»، راح الارتباك يزول من نفسها رويدًا رويدًا، حتى ارتفع صوتها هذه المرة، وقالت في ثقة: كل ما قالته صدق.

لكن «ناجي» أراد أن يسمع منها أيضًا، فدعاها إلى أن تُخبره بكل ما جرى في السنوات التي مضت. أعادت الحكاية، غارقة هذه المرة في تفاصيل صغيرة، لكن مسارها الأساسي لم ينحرف عما قالته «تماضر»، ولا ما أعاده «عمر». كان «ناجي» يدقق في كل ما تنطقه، يُقابل الكلمة بالكلمة، ويُضاهي العبارة بالعبارة، والأمارة بالأمارة، حتى استقر في يقينه أن «محبوب» من صلب العمدة، وأن التي تركوها في «الجابرية» تصارع القلق والحيرة، تستحق أن يرد إليها اعتبارها.

كان «عمر» ينقل بصره بين فم المرأة وعيني «ناجي» فيزداد اقتناعًا بكل شيء، وهو غارق في شعور لم يجربه من قبل. كان فرحًا لأنه وجد الولد الذي يعوضه عن تخلي «رافع» عنه، وكان حزينًا على أنه ظلم امرأة لم تضن عليه بشيء، وابنًا قست عليه الحياة بعيدًا عن لين العيش في كنف أبيه. كان خائفًا من رد فعل أهل القرية إن عرفوا الحكاية القديمة، وكان مطمئنًّا إلى قدرته على أن يُقنع الناس بما يريد، وليذهب مَن لا يصدقه إلى الجحيم. الشيء الوحيد الذي جعله يضطرب هو ما يتوقعه من «هنيَّة»، أما «عبلة» فهي امرأة عاقلة، وحتى لو أصابها ضيق، فسيتمكن «ناجي» من تهدئتها، وهو القاضي الذي عاهد الله على ألا يظلم أحدًا.

حين انتهت «أم الخير» من نبش الماضي، سألها عن زوجها، فأجابته: مات منذ سنين.

نظر إلى ولدها، وعاد يسألها: أين بقية أولادك؟

ابتسمت، وأجابته: اثنان في داريهما، تزوجا وأنجبا، فصرت جدة، واثنان يسعيان على رزقنا.

برقت فكرة في رأس «عمر»، فهو في أشد الحاجة إلى الرجال في أيامه هذه. اقترب منها، وسألها: هل أنت راضية عن العيش هنا؟

- نحمد الله على نِعَمه.

- صارت لي هناك أرض واسعة، ومعلف بهائم، وأفكر في قادم الأيام أن تكون لي تجارة.

- ربنا يوسعها لك، ويزيدك من الخير والبركة.

- أتمنى لو جئتم معنا، هناك البراح، واللقمة الطيبة.

تدفق الفرح في وجهها، وقالت: لو عليَّ لقمت معك من الآن، لكن لا بد أن يوافق أبنائي.

- هل يمكن أن أقابلهم؟

نظرت إلى شعاع الشمس المنكسر على كليم قديم تحط عليه أقدام الجالسين، وأجابته: لم تبقَ سوى ساعة واحدة على عودة اثنين، والثالث هنا. كلهم أجراء، يلتقطون أرزاقهم يومًا بيوم.

صمت «عمر»، وهو ينظر إلى «ناجي» الذي بدا مستريحًا لما يسمع. وضع إلى جانبه كوب القرفة بعد أن سحب آخر رشفة فيه. دس يده في جيبه، وأخرج جنيهًا، ومده إلى الصبي، لكنه هز رأسه رافضًا، وهو ينظر إلى أمه، فقالت له: لا ترد يد سيدك «عمر»، فخيرهم علينا.

قُضيت الساعة في حكايات الماضي البعيد. طُرق الباب ودخل شابان فارعا الطول، ينطق وجهاهما بعافية ورضاء. قدمت لهما الضيفين، وقالت لأحدهما: أبلغ أخويك بأني في انتظارهما لأمر لا ينتظر.

فلما جاءا، فاتحهما «عمر» بما يريد. وعدهما بحياة أكثر راحة، بعد أن عرف من أمهما أن كلًّا منهما يسكن غرفة ضيقة مع أولاده، ويعيش على الكفاف. قال لهم وهو ينظر في وجوههم التي تراصت أمامه: ما أدرانا، لعلكم تكدون بإخلاص وتصبح لكم أرض وبيوت.

حين اطمأن إلى الراحة التي سرت في أوصالهم، نظر إلى «أم الخير»، وقال لها مشجعًا: أنتِ زرت بيت «نبوية»، صار فارغًا ومغلقًا، وهو يتسع لكم جميعًا.

- لا أحد يكره جمع الشمل والبراح.

ابتسم، ونظر إلى ابنها الأكبر، وسأله: كم من الوقت تحتاجون لجمع أشيائكم؟

- ما لدينا لا يحتاج إلى أي وقت.

ربَّت كتفه، وقال: يمكنني أن أبقى في «إسنا» يومًا آخر، سأبيت في الفندق القريب من الوكالة، وعند ظهر غد سآتي لنحمل عفشكم فوق المركب، ونذهب إلى «الصابرية».

هكذا نطق اسم القرية، باعتبار ما يؤمن بأنه سيكون.

(10)

حين امتلأ بيت «نبوية» بالقادمين شاع في القرية أن العمدة يلملم أهله الذين تفرقوا في البلاد، ويأتي بهم إلى «الجابرية» ليجد معهم عزوة تعينه على مقارعة «الجوابر». كان قد اتفق مع «أم الخير» و«تماضر» على أن تجيبا السائلين بأنهما قريبتين له، تزوج إحداهما، والثانية في مقام خالته. أما «محبوب» فقد أبلغ الخفر بمَن يكون، ولم يشأ أن يُعطي أيًّا منهم تفاصيل، وقال لنفسه: وجهي شهادة لا تحتاج إلى سؤال.

وكان «محبوب» ساقط قيد، فساعده «ناجي» على استخراج شهادة ميلاد، ما إن أمسكت بها «تماضر»، وقرأ لها «ناجي» ما فيها، حتى أطلقت زغرودة واهنة، وأخذت «خضرة» في حضنها، وقالت لها: لم يذهب تعبنا هدرًا.

بلغ الخبر «هنيَّة» فاشتعلت النار في صدرها، وقالت لابنها «رافع» الذي بدا لا مباليًا بما حدث: جاء لك بمَن يشاركك الميراث.

- لا يضر واحد من ثلاثة أن يرث نصيبًا يكفيه.

- لا أجدك في أي يوم تغضب كالرجال.

- وهل يوجد غضب أكثر من أن أترك أبي وحيدًا، وأجيء معك؟

نهض، وقال لها: ربنا يرحمني من هذا الشقاء. ثم التفت إليها، وقال: حلمي أن تكون لي تجارة في المحروسة. سحرني خان الخليلي منذ أن زرته مع خالي السنة الماضية.

فقـدت «هنيَّة» الأمل في ابنها، وأطلعت أخاها «رشـدان» على النار التي تأكلها، فقال لها في غضب أشد: أقتل «صابر» و«محبوب» فأذهب إلى السجن، كي يرث ابنك وحده، ويبدد الميراث في تجارة خاسرة.

حملـت اللهيب فـي صدرها، وأغلقت على نفسـها بـاب غرفتها، لا تريد أن تُكلم أحدًا. طرقوا كثيرًا، لكنها لم تفتح. أيام وهي حبيسـة. تضع لها الخادمة الطعام والشراب على عتبة الغرفة، وحين تأتي لأخذ ما وضعته، لا تجدها قد تناولت منه أي شيء يُذكر. في الليل وهم نيام تخرج إلى الكنيف لتقضي حاجتها، ثم تعود إلى محبسـها الاختياري، سابحة في خواطر مضطربة.

لم تكن تدرك أن الوحش السـاكن في نفوس الغابرين قد سـكنها. كامن هو في الجينات المتسلسـلة ينتظر لحظة الانهيار حتى يهجم بلا هـوادة، ليجعل من صاحبـه مضحكة للجاهلين. ثـلاث ضربات على رأسـها، الأولى زواج «عمر» من «عبلـة»، والثانية إنجابه منها، والثالثة ظهور ابن له سيرث مع ابنها، والأهم هي الكذبة الكبرى التي عاشتها. لم تقدر نفسـها علـى حمل طاقة الغل المشـتعلة داخلها، وما زاد على الحد انقلب إلى الضد.

كانت تمـد المزلاج حتى آخره، ولا تسـتجيب لطرقات الباب بين حين وآخر. حاولوا جميعًا إخراجها إلى الهواء الطلق الذي يهب على نوافذ الصالة، والغرف الواسعة، والسلاملك، لكنها كانت قد اختارت الضيـق والظلام. تغوص في نفسـها بعيدًا، فتـرى الغيظ والقهر يقبض عليها. تستسلم له، تاركة إياه يعبث بها.

في الليل تتراءى أمامها صورة امرأة تركت شعرها لريح محملة بالغبار والعفن. كانت تمد إليها يدها وتقهقه عاليًا، فترتج الجدران لضحكاتها، ثم تتشقق، لتخرج منها رؤوس ثعابين تفح بلا انقطاع. تتجرد المرأة من ملابسها، وتقدم لحمها العاري للثعابين دون خوف.

تصرخ «هنيَّة» فيها أن تبتعد، لكنها لا تُعيرها اهتمامًا، تتقدم وتعطي ثديها لأكبر ثعبان يتوسط الجدار، فيخرج لسانه ويلحس حلمتيها على مهل، ثم يغلق فمه ويغور في الفتحة التي يطل منها رأسه، ثم ينغلق الجدار خلفه، كأن شيئًا لم يكن.

تختفي المرأة العارية. تذهب إلى حيث لا تعرف «هنيَّة»، كما جاءت من مكان لا تعرفه، ويحل السكون والسواد. تنهض من جلستها المفعمة بالدهشة والخوف. تمد يديها في حذر، وتتحسس الجدران التي تشققت، فتجدها قد عادت ملساء كما كانت.

أحيانًا تجد المرأة جالسة إلى جوارها على السرير، تنظر إليها بعينين ضاحكتين. تمد «هنيَّة» يدها لتمسك شعرها المتهدل على كتفيها، لكنها تقبض على الفراغ. يغيظها ما جرى، فتكور قبضتيها، وتضرب الجسد الذي تراءى لها، لكن الهواء الراكد يبتلع الضربات الغاضبة، ولا تسمع صراخًا، ولا أنينًا، ولا حتى اعتراضًا. تعيد ذراعيها إلى جانبها، وتسأل المرأة: مَن أنتِ؟ لكنها لا تسمع سوى صوت ضحكات مجلجلة.

ذات ليلة شعرت بأن يدين تقبضان على عنقها، وتعصرانه بقسوة. انتفضت خائفة، ومدت كفيها لتزيح ما يخنقها، لكنها لم تجد شيئًا.

انتفضت واقفة فوق سريرها، تتأرجح من الغضب والخوف، ثم قفزت إلى البلاط البارد، وأسرعت نحو الباب، سحبت المزلاج، وفتحته هاربة.

وجدتها الخادمة خارجة بوجه أصفر، يكسوه رهق، ويتصبب العرق فوقه غزيرًا، بينما شعرها مبعثر فوق عينين غائمتين، وعلى خيطي حمالتي الصدر، اللتين تنحرفان عن مسارهما تحت جلباب نوم خفيف، ينحسر عن ظهرها، ليفسح الطريق أمام الشعر الهائم، فينسدل عليها مخبئًا بعض لحمها.

جرت نحوها، وقالت: حمدًا لله على سلامتك يا ست.

لم تلتفت إليها، مضت في طريقها، وحين اعترضتها الخادمة، أزاحتها بقسوة، فارتمت جانبًا، تراقبها وهي تخرج على هذه الهيئة الغريبة، حتى بلغت الباب الخارجي للبيت. أزاحت المزلاج، فصارت في الردهة المؤدية إلى السلاملك. كان «رشدان» يجلس مع «محمود» و«قطاوي» يراجعون حسابات المشروع الجديد. هبوا واقفين لمرآها. ألجمتهم الفجيعة، وتيبست فيهم السيقان. كسر «رشدان» وجومه، وقال لها، وهو يهم نحوها: تعالي يا أختي.

لكنها لم تتوقف، مضت في طريقها. صرخ مناديًا الخادمة: هاتي جلبابها. ثم أمسك بكتفيها في عنف، وسحبها إلى الخلف، وهي تقاومه مغمغمة، ثم قالت له: اتركني لحالي. فسألها بعينين مملوءتين شفقة وخوفًا: أين تذهبين؟ قهقهت، وقالت: لا أريد البقاء في هذا البيت الذي تسكنه العفاريت.

استمرت تقاومه، وهو يسحبها بقوة، حتى أعادها إلى البيت. أجلسها في الصالة الخارجية، وكانت الخادمة قد جاءت لها بجلباب. راحت تبكي بحرقة، وتطلب منه أن يتركها تمشي، وهو يُخبرها بأن الوقت ليل، وعليها أن تبقى حتى الصباح. كان يريد أن يُهدئها ليعرف منها ما أصابها، لكنها راحت تهذي بعبارات غير مفهومة.

ألبسها الجلباب، ثم خرج، وأغلق الباب بإحكام. كان «قطاوي» و«محمود» لا يزالان واقفين ينتظران ما يجري، فما إن صار معهما، حتى قال «محمود»: خنقتها الوحدة والسكون والغضب.

لكن ذهن «رشدان» ذهب في طريق آخر، شغل رأسه منذ أن رآها على هيئتها تلك. جاءه صوت أبيه، وهو يقول لأمه ذات ليلة بعيدة: انقلب حالها بين يوم وليلة.

كان يحكي عن جدتهم «لواحظ» التي أصابتها نوبة جنون عنيفة، وكانت تهيم على وجهها في الشوارع والغيطان، وأتعبت كل مَن حولها. كان «رشدان» وقتها ينصت عميقًا، وتتراءى أمام عينيه صورها التي رسمها أبوه، كما نقلت إليه من السالفين، حتى إن أمه استبشعت الأمر، فطلبت منه أن يُغير دفة الحديث.

استعاد كل هذا، ونظر إلى «قطاوي»، وقال: يبدو أن أيامًا عصيبة تنتظرني.

وقال له «محمود» بصوت متعثر في الخجل والتردد: اعرضها على شيخ، فربما تجد عنده الشفاء. لكن «ناجي» عندما سمع عما جرى

لهـا طلب ابنهـا «رافع»، وقال له: في القاهرة يوجد معالجون نفسيون وروحانيون، وعليك أن تأخذها إلى واحد منهم.

رفض «رشدان» هذا تمامًا، وأتى إليها بشيخ ذاع صيته في الزمام، فلم يتغير حالها. دله الناس على قس يعالج الأرواح المعذبة، فأرسل واحدًا من نصارى القرية لإحضاره، فلما جاء، نظر إليها طويلًا، وقرأ على رأسـها آيات مـن الإنجيل، وأدعية، لانت لهـا. فرغ من قراءته، وقـال: استجيبوا لمـا تريـد، فكل لـوم أو حصـار لها، يزيـد حالتها سوءًا.

جيء بشـيخ آخر، فوضع يده على رأسها، وقرأ بعض آيات القرآن، وأدعية، فلما سمعته استكانت، وبدا أنها تستعذب هذا. ملأ عينيه منها، وقال: لا تحرموها مما تريد.

أرادت هـي فعـلًا، فـذات صباح خرجـت صامتة، وأخوهـا وابنها يتبعانهـا، حتـى وصلت إلى بيت العمـدة. كان الباب مواربًـا فأزاحته. دخلـت في ثقة كأنها لم تغادره يومًا. كان «عمر» في السـلاملك، فلما لمحهـم قام إليهـم، وكان ما جرى لهـا قد وصله خبره. صـار ثلاثتهم خلفها، وهي تفتح أبواب الغرف، حتى وصلت إلى الغرفة التي تجلس فيهـا «تماضر» وابنها. توقفت أمامهما، ونظـرت إليهما طويلًا، بعينين اتسعتا بلا حد، حتى خافت منها العجوز، وتململت في جلستها، فقال لهـا «عمـر»: أم ابنـي. تقدمت نحو المـرأة، حتى صـارت بينهما ثلاثة أشـبار فقط، أعادت النظر إليها، ثم مدت أصابعها تتحسـس التجاعيد المتلاحقـة فـي وجهها، ورفعت كفهـا حتى حطته على شـعر العجوز

الأبيض، وأطلقت ضحكة طويلة، ارتجفت لها «تماضر» وابنها وكل الواقفين حولها.

استدارت «هنيَّة» وأزاحت أجسادهم من طريقها، ومضت حتى بلغت الشارع، فقال لها «رشدان» وهو يراها لا تتوجه إلى بيته: إلى أين تذهبين؟

التفتت إليه، ورمت كفها في الهواء تطرده، ومضت دون أن تكلم أحدًا، حتى بلغت الزاوية. فلمَّا دخلتها تذكر «عمر» ما حكاه له المجذوب، وقال: بلغت مكانها.

نظر إليه «رشدان» في غيظ، وسأله: أي مكان؟

نظر إليه في إشفاق، وكأن الخصومة قد رحلت وسكنت إلى جوار النائمين في القبور، وقال: سأحكي لك، ولا تقاطعني.

سرد على سمعه ما رواه له المجذوب في لحظاته الأخيرة، وقال: قدرها، ولا مفر منه.

التفت «رشدان» إلى الزاوية، ورآها جالسة مكانها تمسك الورد بيمناها، وتنظر فيه بإمعان. قلَّبت صفحاته سريعًا، ثم عادت إلى الصفحة الأولى، وأخذت تقرأ بصوت ندي، فقال «عمر»: قلت لك إن هذا مكانها.

رفع «رشدان» بصره إلى قبور الراحلين، وقال: لم نعرف من قبل أن امرأة انجذبت.

لـم تغادر نظرة الإشـفاق عيني «عمـر»، وقال لـه: اعتبرها الأولى، لكنها لن تكون الأخيرة.

نظر «رشـدان» إلى ابنه ليرى شـيئًا من الإحسـاس بالخجل، وربما العار، يحط في ملامحه، لكنه وجده مستسـلمًا، فسأله: ألا يغضبك أن تبقى أمك هنا؟

قـال، وهـو يغالب البـكاء: هي اختـارت، وليس علينا إلا التسـليم بقضاء الله.

وقال «عمر»: سآتي إليها بمَن تعتني بها.

سرى غضب في وجه «رشدان»، وقال: لم أمت بعد.

صمـت «عمـر»، ولـم يجد الوقـت مناسـبًا ليجادله، فقـال: البركة فيك.

ثم وجد سـبيلًا لإرضائه، فقال: عليك الخادمة، وعليَّ الخفير، فلا يجب أن نترك امرأتين بلا حماية في الليل، حتى لو ضمتهما الزاوية.

(11)

استأذن «محبوب» أباه في أن يرسل إلى صديقه «سيف الدرديري» ليأتي إلى القرية. قال له إنه شـاب طيب، وهو مستودع أسراره، ومُعينه على قسـوة الحياة. كان وحيـدًا مثله، تيتم في صغـره، إذ مات أبوه في حفـر القناة، ولـم تطق أمه صبرًا علـى فراقه، فلحقت به. تـركاه صبيًّا، فكافح من أجل أن يدبر قوته، ولم يمد يده يتكفف الناس. راق الطلب للعمدة، وقال في نفسه: رجل جديد يزيد عزوتي.

ولمَّا جاء «سيف»، ووجده «عمر» شابًّا قويًّا مستقيمًا، أسند إليه حراسة «هنيَّة» وخادمتها، لقاء أجر يتقاضاه كل أسبوع. بنى له غرفة على مقربة من الزاوية، فأخلص في مهمته، حتى رضي «رشدان» نفسه عنه.

كان صوت «هنيَّة» يأتيه لينًا، فيرتعش قلبه، وتقف عيناه عند حافة البكاء. يرمي أذنيه إلى الصوت الطلي الذي يتدفق من الزاوية إليه. يمد بصره إلى القبور الساكنة، ويقول: مهمة مباركة.

حين يسمع الصوت قد صار في الهزيع الأخير من الليل أشبه بحداء عجيب، يقول لنفسه: هي التي تحرسني. وحين يسمعها تكلم امرأة تناديها بـ «لواحظ»، يقول لنفسه: تخاطب شيختها البعيدة.

(12)

تلقى «عمر» ضربتين في أيام معدودات. كان يظن أن ما جرى لأم ولده قد قرَّب بينه وبين أخيها، بعدما كسرا الخصومة بحديث ودي عند الزاوية. خدعه الانكسار الذي كان عليه «رشدان»، كان يعتقد أنه اتعظ، وصار يدرك أن الآخرة أقرب إلى المرء العاقل من الدنيا. لم يكن يدري أن الضعف الذي بدا على «رشدان» ليس اعترافًا بذنب، ولا تعبيرًا عن رغبة في الاعتذار، ولا إبداء نية في طي صفحة الماضي، إنما كان استجابة لنداء داخلي يطلب منه أن يمرر لحظة انكساره بأي طريقة، وأي ثمن، ولا يُعطي عدوه فرصة التشفي فيه.

كانت الضربة الأولى هي قرار بإعفائه من العمدية، وإسنادها إلى «رشدان». حين رأته «عبلة» حزينًا، قالت له ضاحكة: لولا العيب لأطلقت الزغاريد فرحًا بنجاتك من هذا الهم الثقيل.

كانت تحمل «صابر» بين ذراعيها، فمدته إليه، وقالت: شغلتك العمدية عن أن تضم ابنك في أي يوم، غارت وغارت أيامها.

أخذه منها وهو يداري تأففه، وكان يريد أن يقول لها إن الرجال لم يُخلقوا للرضاعة. كتم الكلام، تاركًا إياه يسري في شرايينه، ويجثم على صدره، دون أن يموت، إنما يحيا في نفسه كالبركان الذي ينتظر لحظة الانفجار.

وجاءت هذه اللحظة أسرع مما يتوقع. طعنة نجلاء ضربته من نافذة لم يظن أن أحدًا قادرًا على أن يرفع عنقه ليرى منها شيئًا. ثغرة كانت مغطاة بخيوط العنكبوت، بينما الواقف أمامها يتصور أنه قد سدها بالصخر الصوان. زاوية عمياء لم يرَ السهم الذي يمكن أن يمرق منها إلى عنقه أو سويداء قلبه.

حين كان «قطاوي» يعس عن أقرب وسيلة تمكنه من إطاحة العمدة عرف أن أغلب الأرض التي يزرعها هي انتفاع وليست ملكًا لزوجته «عبلة»، فكاد يصرخ من فرط الفرحة، وهو يضرب الطاولة بقبضة يده، ويقول لـ «رشدان»: صار لمشروعنا مدد في يدنا.

رفع إليه عينيه متسائلًا، فواصل: كنت أخشى من الاضطرار إلى شراء القصب والقطن من أرض «عبلة»، وحتمًا كان «عمر» سيبالغ في السعر، وحين نلجأ إلى غيره في البلاد القريبة، قد يتدخل لديهم ليعرضوا علينا السعر نفسه، ووقتها سنكون مضطرين إلى تخفيض الأرباح.

ابتسم «رشدان»، وقال له: يا لك من داهية! أنا أعرف أن بعض الأرض انتفاع، لكن لم أكن أحسب أن ذلك سيفيدنا؛ لذا لم أبلغك بهذا من قبل. فقهقه «قطاوي» وقال: في الصناعة لا بد من أن تقدر حساباتك بدقة.

صار الحلوان اثنين لكبار الموظفين، ففتشوا في الدفاتر، وادَّعُوا أن ما يُدفع عن أرض الانتفاع لا يكافئ أبدًا ما هو مستحق عليها، بل اتهموا مَن يقوم على زراعتها بسرقة الأموال الأميرية، وطالبوا بسحبها منه، وإسنادها إلى مَن لا يأكل مال الحكومة.

تم هذا في الخفاء، وحين نضجت الأوراق بحصولها على مختلف الموافقات، جاء إلى «الجابرية» ذات ضحى ثلاثة من الموظفين في نظارة الزراعة يحرسهم خمسون جنديًّا. توجهوا إلى السرايا على الفور. طلب كبيرهم مقابلة السيدة «عبلة»، وقدم إليها أوراق تنازل عن الأرض.

كان «عمر» في السلاملك، بعد أن طُلب منه أن يزاول دور العمدة إلى أن يتم تعيين مَن يخلفه، فجاء إليه خفير السرايا مسرعًا يُبلغه. هرع وخلفه خفره، وحين دخل من باب الحديقة وجد كل هؤلاء الجُند. شعر بالإهانة للوهلة الأولى؛ لأنهم اقتحموا القرية، بل جاءوا إلى مكان يسكنه، وفيه زوجته وابنه، دون استئذان.

لكنه سرعان ما نحَّى الإهانة جانبًا، فهذه ستتبدد آثارها مع الزمن، ولديه ما يستطيع أن يقوله للناس من الأكاذيب مُبررًا ما جرى، أما سحب كل هذه الأرض من تحت يده، فهذا ما لا يمكن أن يزول أثره.

سيجد نفسه بين عشية وضحاها قد فقد كل هذه الأرض الشاسعة، ومعها الكثير من المال والهيبة.

كان الموظفون يجلسون في بهو الطابق السفلي ينظرون إلى «عبلة» وهي منكسة الرأس، وإلى جانبها «ناجي» يحاول تهدئة روعها. بدت كما لم يرها «عمر» من قبل، تائهة في أوراق التنازل وأخرى عن ضرائب قديمة لا بد من سدادها، كانت بحوزة صراف يرافقهم.

استشاط العمدة، الذي صار مؤقتًا، غضبًا، وقال للموظفين: لن نُسلِّم الأرض حتى نراجع الدوائر المختصة.

لكن كبير الموظفين قال له: يجب أن تكون أول رجل في هذه القرية ينفذ أوامر الحكومة.

ـ هذا أمر ظالم، لا بد أن هناك خطأ ما.

– لا مجال لخطأ هنا يا عمدة، أمامك الأوراق مستوفاة، ونحن ليس بيدنا شيء.

تدخل «ناجي» في هدوء، تكسوه رزانة قاض، وسأل: هل آلت الأرض إلى أحد؟

أجابه كبير الموظفين: تستردها الحكومة، ثم تسند زراعتها إلى مَن تشاء.

لاحت أمامه فرصة، فقال: نسدد الضرائب المتأخرة، ونسعى في استرداد الأرض.

فتح الطريق أمام حل يُسهل مهمة الموظفين، فقال كبيرهم: عين العقل، وقعوا على ورقة التنازل، ثم راجعوا نظارة الزراعة.

قال «ناجي» بصوت هادئ: الأمر لا يقتصر على الزراعة، إنما نظارة الأوقاف أيضًا. ثم التفت إلى والدته، وقال لها: وقعي، وليقدر الله خيرًا.

أخذ الموظفون أوراقهم، وحصَّل الصراف ما تأخر من ضرائب، وانصرفوا جميعًا.

كان كثير من أهل القرية قد تجمعوا أمام السرايا، ورأوا الموظفين والجُند خارجين على مهل. سألهم واحد من الفلاحين: خير يا بيه؟

نظر إليه في استهانة، وقال: سَلِ العمدة فعنده كل شيء.

لكن العمدة لم يقل لهم سوى إنهم رجال الحكومة قد جاءوا لتحصيل أموال أميرية متأخرة. لم يشأ أن يحدثهم عن ضياع ما يزرعه، حتى لا يصل الخبر إلى «رشدان» فيشمت فيه، أو يسعى من خلفه لركوب الأرض. نظر إليهم، وقال لهم في غضب: ليعد كل منكم إلى داره، ومَن جاء من الغيطان يذهب ليكمل شغله.

دارت بينهم همهمات، وقد فطِنوا إلى أن ما يكسو وجه العمدة من جزع وخوف وحيرة، لا يمكن أن يكون سببه تحصيل مال متأخر. أي مال هذا الذي يُجرَّد له كل هؤلاء الجند؟

تأكدوا من كل شيء، حين جاء المسَّاح، بعد أيام، ومعه بعض الجند. لم يأتِ القادمون إلى السرايا، إنما نزلوا الأرض مباشرة، ونادى المسَّاح الخولي، وسأله: أين أرض الانتفاع؟

كانت المرة الأولى التي يسمع فيها هذه الكلمة، وهو الذي ظلَّ طوال السنوات الفائتة، لا يعرف صاحبًا للأرض كلها إلا «عبلة»، ولا يرعاها سوى العمدة. قال للمسَّاح: لا أعرف ما تقصده.

طلب منه أن يستدعي السيدة «عبلة»، فذهب وعاد يمشي خلف العمدة، الذي كان يرمي خطواته فوق قلب يرتجف، وبصر زائغ، ونفس مكسورة كزجاج مهشم. قضى ليلته ساهرًا، يتقلب على جمر، ورأسه تائه في ظنون لا حد لها. نظر إلى «ناجي»، وقال: مَن قلعني من العمدية، هو مَن فتش وراء الأرض.

قال «ناجي»، الذي كان أيضًا يتخبط في أسئلة عديدة: ربما يكون جردًا قام به الإنجليز للأرض والمناصب.

سأله في لهفة: كيف نبدد كل هذه الهواجس؟

أجابه وهو غارق في التفكير: سأسأل في المديرية.

تدخلت «عبلة»: أظن أنه أبعد من المديرية كثيرًا.

وقال «عمر» في غيظ: ليت الصباح يأتي الآن، لنمضي إلى حيث جاءت الطعنة.

وبينما كان يستعد للذهاب إلى المديرية أولًا، ليستطلع الأمر، جاء المسَّاح. رمى بصره فوق الزروع النابتة، وأخرج من حقيبته خريطة مرسومة فوقها أحواض الزرع، وقال وهو يشير إلى البعيد: هناك أرض الانتفاع.

هز «عمر» رأسه، وقال: هي كذلك، فاذهب لقياسها.

ابتسم الرجل، وقال: أقيس أولًا أرض الأملاك، فهي الأقل، وما تبقى يكون هو انتفاعنا.

لكن «عمر» كان قد أضاف إلى الأملاك أرضًا أخرى طرحها النهر، فقال: بها زيادة أهداها لنا النيل.

عاد المسَّاح إلى ابتسامته التي لا تخلو من سماجة، وقال: ما أُضيف إلى الأملاك لكم، وما أُضيف إلى الانتفاع يكون له. ثم مدَّ القصبة ورماها على الأرض، وانخرط في الإحصاء على مهل. سأله «عمر» وهو يداري غيظه: متى تنتهي؟

رفع المسَّاح رأسه، ورمى بصره فوق الأرض المزروعة، وقال: قد أقضي النهار كله هنا.

صمت «عمر» برهة، ثم نظر إلى الخولي وقال له: اذهب إلى السرايا وأبلغ «ناجي» أننا سنضطر إلى تأجيل مشوارنا إلى الغد.

جاء الغد بعد أيام عصيبة، قضاها الاثنان في السعي وراء ما جرى، فلم يخرجا بشيء سوى حديث عام عن حق الحكومة في استرداد أرض الانتفاع، وتحصيل الضرائب المنسية والمتأخرة. وسأل «عمر» في تودد: ألا يمكن أن يعاد تخصيص أرض الانتفاع لنا من جديد؟

أجابه موظف الأوقاف: قدم طلبًا بهذا، وأشفعه بمخالصات الضرائب، ويكون التقدير لصاحب القرار.

داري «عمـر» انكسـاره، وقـال للموظـف: البركـة فيـك، ولـك الحلوان.

تجهم الرجل، ثم قال: الأمر أكبر مني كثيرًا.

نظـر «عمر» إلى «ناجي» يسـتنجد بـه، فقال: سـأطلب مقابلة ناظر الأوقاف.

لكـن المقابلة انتهت دون وعد بشـيء، فالرجل، الـذي وافق على مقابلـة «ناجـي» حين أبلغـوه أنه قاضٍ شـرعي أزهري، قـال له: الأمر أتاني من جهة عُليا.

سـأله عن هذه الجهة، فابتسـم وقـال له: لا يخفى عليـك أن البلاد تحت الاحتلال، وله الأمر والنهي.

سأله في رجاء: ألا توجد وسيلة لمقابلة أحد من هذه الجهة؟

هز الناظر رأسـه نافيًا، وقال: قدم طلبًا، لكن سـلطة التقدير ليسـت في يدي، إنما بوسعي التوصية.

تنهد «ناجي» في حرقة، وقال: نتعشم خيرًا في معاليك.

لـم ينطـق الناظر، بـل مد يـده إلـى درج مكتبه، وأخـرج حزمة من الأوراق، وضعهـا أمامـه، وراح ينظر في أولها، فنهـض «ناجي» وتبعه «عمر»، وقال الأخير: ليكن الخير على يد الطيبين.

(13)

في أيام غياب «عمر» عن القرية جاءت الأوامر بتعيين «رشدان» عمدة للقرية. في طريق العودة ركبا القطار إلى أسيوط، ثم هبطا ليستقلا مركبًا إلى «الجابرية». ما إن بلغا القرية حتى رشق شيخ الخفر السهم في صدر «عمر»، حين قال له: راحت العمدية إلى «رشدان»، واستغنى عني؛ لأنه يعرف إخلاصي لك.

ما إن سمع الخبر حتى أمسك صدره، لينزع عنه السكين الحادة التي غُرست فيه بقسوة. صرخ «ناجي» في الرجل: امضِ الآن بعيدًا. فهرع يتخبط في خطواته، لكن «ناجي» ناداه بصوت تمزعه اللهفة والخوف: تعالَ. استدار ليجد العمدة يتساقط على الأرض كنخلة ضربتها العاصفة. جرى نحوه، وهو ينوح: سلامتك يا عمدة. وأمسكا به، ليتمدد على الأرض، ويده على صدره، يعض على ضروسه، ويهز رأسه في عنف. صرخ «ناجي» في شيخ الخفر من جديد: هات الدوكار. ورفعاه حتى جلس يقاوم طعنات نفسه. أسنداه حتى تمدد في سريره، وهرعت الخادمة إليه بدورق الماء فشرب. أخذ «ناجي» بعض المياه في يده، ورشها على وجهه، وصدره، وراح يدلكه على مهل، وهو يقول: يغور كل شيء، فالمهم صحتك.

لكن جسده خانه أكثر، حين عرف بإسناد أرض الانتفاع إلى «رشدان»، وقال بصوت واهن: هُزم «الصوابر» على يدي. وجاء طبيب من البندر، فأوصى له بالدواء، وطلب منه أن يستريح، ثم أوصى «ناجي» بأن يخفي عنه أي خبر سيئ. لكن السوء كله كان قد سكن

جسده. لم يمضِ سوى أسبوع واحد حتى خانته الحياة كلها. دفنوه في قبر يطل من الزاوية اليمنى على قبر جده «رضوان».

سكن الأسى النفوس شهورًا. كان بحرًا من الأحزان، لم يزده موت الخادمات القديمات الثلاث «خضرة» و«تماضر» و«أم الخير» تباعًا ولو قطرة واحدة، وقال «ناجي» وهو يستعيذ بالله من الهم والحزن: كأن المرحوم أراد أن يطوي زمنه معه، ليُدفن إلى جانبه.

لم يبقَ إلا «محمود»، الذي قال لزوجته بعد موت «عمر»: ابتعدت عنه، لكني كنت أشعر بأن ظهري مستور طالما كان حيًّا. وذات ليلة اكتشف أن هذا الإحساس لم يكن كاذبًا، فقد صار عاريًا تمامًا. عاد من سلاملك العمدة الجديد، لا تكاد ساقاه تحملانه، فوجد «رضيَّة» في انتظاره ليتناول معها الغداء. رمى جسده على أول مقعد صادفه في البيت، وقال لها: ضعنا يا «رضيَّة»، سرقني أخوك.

جرت نحوه ملهوفة، وهي تقول: خير.. خير، ما لك؟

كان حلقه قد جف من الأسى، فطلب منها أن تأتيه بدورق مياه. صب منه في فمه، ثم فوق رأسه، وقال:

- في رأسي نار.

- ماذا جرى؟

كان صدره يعلو ويهبط في سرعة، فأجابها: دقيقة، وأخبرك.

كانت قد تعودت الصبر عليه، فرغم أنها أخت «هنيَّة» لكنهما كانتا مختلفتين في كثير من الطباع، وكأنهما لم يُحملا في رحم واحد، من

صلب رجل واحد. وقفت إلى جانبه، تجفف بكفها قطرات الماء المستقرة في تجاعيده الخفيفة. بدا لها كأنه قد كبر سنين في يوم واحد. أعادت عليه السؤال ملهوفة، فزم وجهه يحاول البكاء، وقال: غافلني ودس لي عقدًا بين الأوراق لبيع نصيبي له.

اندلع في أوصالها غضب عارم، وتمنت لو كان «رشدان» أمامها فبصقت على وجهه، ثم خلعت نعلها وانهالت على رأسه ضربًا. تماسكت حتى لا تزيد من وجعه، وقالت له في محاولة لتهدئته: لا تقلق، أنا قادرة على إصلاح ما انكسر.

طلبت منه أن ينهض معها على مهل، وأسندته حتى غرفة النوم، وقالت له: تمدد، واطرد من رأسك ما جرى. ثم أسرعت وأحضرت له مشروب الليمون، ومدته إليه، فأخذه منها بيد ترتعش، وسحب رشفتين ورده إليها. قالت له: لا بد أن تتماسك، وتواجه المصيبة لا أن تستسلم لها.

سألها بصوت غارق في الأسى والانكسار: هل تقدرين عليه؟

طردت الشكوك من رأسها، وقالت له محاولة أن يسمع منها ما يطمئنه: إن رضي بظلمك، فلن يظلم أخته.

أشار بيده نحو باب الغرفة، وقال: اذهبي إليه، فقد يجعل الله بيدك تخفيف بلوتنا.

لكن «رشدان» قابلها بعينين يملأهما التبجح والتجبر. تركها واقفة أمامه، وقال: هو باع وأنا اشتريت.

صرخت فيه: أنت كاذب.

- الأوراق لا تكذب.

- تكذب إن كانت مزورة.

- التوقيع لزوجك، وعلى الأوراق ختمه أيضًا، فمن أين يأتي التزوير؟

تقدمت إليه، وأمسكت بكتفه، وهزته بعنف، وقالت: لولا أنني متأكدة من شرف أمي، لقلت إنك ابن حرام.

هب واقفًا في غضب، وقال لها: إن زدتِ طردتك. ما ورثتيه أخذتيه، ولا مكان لك في بيتي.

سألته بصوت غارق في الانكسار: أتطردني من بيت أبي؟

- إن استمرت إساءتك فلا أريدك هنا.

ألجمها السكوت، ولم تعرف ما تقول، فواصل هو ساخرًا: اذهبي، واجلسي إلى جوار أختك المجنونة في الزاوية التعيسة.

تخلت عن التحدي، وأوغلت في الانكسار كثيرا، وقالت له: إن لم تتراجع عما فعلت، فليس مستبعدًا أن يصيبني الجنون.

عاد يقهقه، وقال: ليته يحدث، سأستريح منك أيضًا.

غلبت دموعها، وقالت له بصوت مشروخ: ربيتك مع أمك، وكنت تُبلل حجري.

ـ لا تنسي أنكِ تكلمين عمدة البلد.

– عمدة على نفسك يا ولد.

حـاول أن يكظم غيظه، فداس على أسـنانه، وهـو يغمغم، لكنه لم يقدر. انفلتت أعصابه، فصفعها على وجهها، ثم ثبت مكانه، كأنه شُـد إلى موضع قدميه بأوتاد غليظة عميقة. لم يصدقِ ما فعله، وكانت المرة الأولى التي يؤذي أيًّا من أختيه بيده. كان يكتفي بإيذائهما بلسانه، ولم يـرَ أباه يضربهما، إنما يوبخهما حين تخطئان. نعم كثير من أهل القرية يضربـون زوجاتهـم وعيالهم، مـن البنين والبنات، لكنه لـم يرَ هذا في بيتهـم، بـل وجد أباه، وقـت أن كان مهابًـا في عمديتـه وأملاكه، يقرع أجيرًا ضرب ابنته، ويقول له: البنت لا تؤدب بالضرب يا بغل.

أصابها انهيار عصبي، فخرت مكانها سـاقطة. وجد نفسـه يقرفص إلـى جوارها، يحرك خديها، وينظـر مرتعبًا في عينيها الغائمتين. صرخ فهـرع إليـه الخفر والخدم، فطلب ماء، وملأ منه شـدقيه، ثم دفعه على وجههـا رذاذًا كثيفًـا، فأطلقـت شـهقات متواصلـة، ثم فتحـت عينيها فوجدتـه جالسًـا عنـد صدرها. أزاحتـه بيدها، وهي تحـاول الجلوس بمسـاعدة واحـدة مـن الخادمـات. جلسـت وأغمضت عينيهـا قليلًا، وكأنها لا تريد أن تراه، أو تحاول أن تطرد ما حدث من ذاكرتها تمامًا.

نهضـت، وهمَّـت بالخروج من البيـت. حاول أن يسـتبقيها، لكنها رفضـت. تصرف في هذا الموقف كأخيها الصغير، المسـتعد أن يجود عليهـا بقدر من اللهفة والحنان. لكنه لم يكن لديه اسـتعداد لتقديم أي تنازل كسـارق مال زوجها. أدركت هذا حين وضعت عينيها في عينيه،

فقرأت كل ما فيهما. كان لديها استعداد لابتلاع إهانة الصفعة مقابل أن تعود لزوجها، الواقف على حافة هاوية قد يسقط في موت أو عجز أو جنون، بشيء يعيده مرة أخرى إلى الأمان، حتى لو انفضت الشراكة في المصنع والورش، وعاد مجرد صاحب معلف لتسمين العجول، أو حتى أجيرًا فيما تبقى من أرض «عبلة» أو حتى عند أخيها نفسه، أو حتى خادمًا في سرايا «ناجي» كما كان أجداده، أو تهيم معه وابنها على رؤوسهم في البلاد.

رجعت مترنحة، كأن أحدًا قد ضربها بعصا غليظة على رأسها، أو سكرت دون خمر. لم تتوجه إلى بيتها. شيء من أمل تدفق في نفسها، فمشت نحو الزاوية. أليست هناك «هنيَّة» التي أنقذها هذا المكان الذي حلَّ فيه الطيبون من أن يرميها الناس بالجنون، فقالوا: صارت ولية طاهرة.

ربما يكون لهذه الوليَّة رأي. لن يدفعها الوِرد الذي تقرأه بصوت طلي إلا إلى الخير. وصلت فوجدتها جالسة تحملق في بقعة السماء التي أطلت من الباب المفتوح. تقدمت نحوها ورمت جسدها عند ساقيها الممدودتين، وقالت لها: وقعت من السماء في حجرك.

رفعت بصرها إليها دون اعتناء، ولاذت بالصمت. تزحزحت «رضيَّة» حتى التصقت بأختها، وقالت لها: لا يذهب شر إلا حين يتصدى له أهل الخير.

هزت رأسها، وكأنها تنفض ما علق به من حكايات أخذتها زمنًا طويلًا في شرود، وسألتها: لا أريد منك سوى السكينة.

طفرت عيناها بدموع ساخنة، وقالت: فارقتني السكينة من ظلم أخيك.

لم ترد عليها، وبدا أنها غير راغبة في سماع شيء. لكن «رضيَّة» راحت تحكي لها ما جرى، وكأنها تبوح للجدران والحصير والوِرد والفراغ والخادمة التي تركتهما وجلست عند الباب، والحارس الذي ابتعد عند المقابر فور أن رأى «رضيَّة» قادمة.

لم تجد منها سوى ابتسامة طويلة، ثم نطقت أخيرًا: لن يتمتع بالحرام.

عبثًا حاولت «رضيَّة» أن تحثها على مساعدتها، فقامت من عندها كاسفة البال، وعادت إلى بيتها، لتجد «محمود» غارقًا في القلق. ما إن رأى وجهها حتى فطن إلى الخذلان الذي يسكنه، ومع هذا تمسك بالأمل الكاذب، وسألها: ماذا فعلت؟

لم تشأ أن تصارحه، وهو على حاله هذه من الضعف، فقالت: لان بعض الشيء، لكنني بحاجة إلى معاودة الحديث معه.

تنهد، وقال: لا أظن أن مثله يلين.

اقتربت منه، ووضعت رأسه على صدرها، وقالت: ربك قادر على تليين الصخر.

ندت عنه صرخة عالية، ونادى: يا مُعين. فوضعت يدها على رأسه تدلكه، وقالت: امسك في حبال الله، واطلب منه المدد.

(14)

وجد «ناجي» نفسه في قلب العاصفة، يصارعها وهو يمضي بحمل ثقيل على كتفيه. أولاد «أم الخير» وأحفادها، وأخوه «صابر» الذي أتى إلى دنيا غير التي كانت، والأخ الثاني «محبوب» الذي انتابه شعور بأنه كان شؤمًا على أبيه، وصديقه «سيف» الذي طرده العمدة من عند الزاوية، وقال له: لا يحرس أختي غريب لا أصل له.

رأته «عبلة» مهمومًا، فقالت له: راح الرخاء، لكن لم تزُح السترة. وكانت تعرف أن «ناجي» لا خبرة له في زراعة الأرض، ولا يمكن أن تطلب منه ترك وظيفته المرموقة ليسعى بين الفلاحين. استعادت خبرتها القديمة، حين كانت تذهب إلى التعريشة، تراجع دفاتر الحساب، وتعرف كل شاردة وواردة عن زراعتها المديدة. وكانت قد استملحت «محبوب» حين رأته، وقالت لزوجها قبل رحيله: أرسل الله لك رجلًا آخر ليكون في كتفك.

حين عاد «ناجي» من البندر يوم الخميس ليقضي الراحة الأسبوعية معها كما اعتاد، قالت له: استوحشت الأرض والفلاحين.

نظر إليها متعجبًا، وقال: نركب الدوكار وآخذك في نزهة إلى الزرع والجسر والنيل. هزت رأسها، وقالت: ليست نزهة، إنما هي المهمة القديمة.

صمت برهة، وقال: لا أستسيغ هذا، وحولك كل هؤلاء الرجال.

ابتسمت، وسألته: أتراني قد صرت عجوزًا؟

بادلها الابتسام، وقال: ابنة الوجيه لا تشيخ أبدًا، لكن إن كان هناك مَن يساعدنا، فلِمَ تتعبين أنت؟

سألته على الفور: هل فكرت في أحد يقوم بالمهمة؟

- لا بد أنك أنت قد فكرت ودبرت.

- ما رأيك في «محبوب»؟

- اخترتِ القوي الأمين.

وأرسلت الخفير في طلب «محبوب» فجاء مطأطئ الرأس، لا يقدر على أن يرفع عينيه في عين «عبلة». أجلسته في بهو الطابق السفلي. في المكان نفسه الذي كان يجلس فيه «جعفر» قبل سنين. تنهدت وقالت:

- لا يغلق بيت به رجال.

- عامر بحسِّك يا ست.

ـ أنا خالتك.

- شرف كبير لي.

وسألته إن كان يعرف شيئًا عن الزراعة، فقال: عملت فلاحًا أجيرًا، أفعل ما يُطلب مني، ولا أزيد.

- المهم أنك كنت تتقن عملك.

- يعلم الله أنني اجتهدت كما أقدر.

- مَن يجتهد يرتقِ، ومَن يواصل بإخلاص يتعلم الكثير.

وبدأت معه من الصفر. كأنه لا يعلم شيئًا عن الزراعة. حدثته عن مواسم الزراعة، وأنواع المحاصيل، ومقدار ما يغله الفدان الواحد إن وجد عناية، أو لم يجد. وتحدثت عن الري والسبخ، وأجور الفلاحين، وأنواع الحشائش الضارة.

أنصت إليها بإمعان، وقال: ما شاء الله يا.. يا.. يا خالتي، علمك في هذا غزير.

ابتسمت، وقالت له: لا تتردد في سؤالي، ولتعد إليَّ في كل شيء، وستجد ما يعينك.

وكان «ناجي» يسمعهما، فقال: وأنا سأتولى تعليم «محبوب» القراءة والكتابة والحساب.

لم يكن أولاد «أم الخير» يعرفون شيئًا عن الزراعة. ولدوا وكدحوا في المدينة، ومنها جاءوا ليُرزقوا في أعمال كان يسندها إليهم «عمر»، فلما مات، جلسوا في البيت لا يعرفون ما عساهم أن يفعلوا. أسفوا لبقائهم عاطلين، وفكروا في العودة إلى «إسنا»، لكن «ناجي» طرق باب بيت «نبوية» ذات صباح، وقال لهم: أنتظركم في السرايا على الغداء.

أكلوا ما لم يأكلوه من قبل، وهامت نفوسهم برجاء أن يخرجوا من المكان وقد عرف كل أحد سبيل رزقه. كان لهم ما أرادوا. سألهم «ناجي» إن كانوا يعرفون شيئًا عن التجارة، فقالوا جميعًا: استرزقنا من جيوب تجار كبار.

ابتسم، وقال: آن الأوان أن ترزقوا من تجارتكم.

رفع أكبرهم رأسه، وسأل: أي تجارة؟

– في الريف تجارة لا تبور. سأمد كلًّا منكم بعربة كارو يجرها بغل، وستدورون على القرى، تشترون القمح والذرة والشعير والفول والقطن، ولدينا شونة غلال، نجمع فيها ما اشتريتم ويأتي تجار من بعيد لشرائه. المال لنا، والجهد لكم، والربح نوزعه حسب الشرع.

هزوا رؤوسهم موافقين، فقال لهم: أسبوع واحد ونبدأ. ومد يده في جيبه وأعطى كلًّا منهم جنيهًا، وقال: اشتروا لأولادكم ما يريدون. ثم أشار إلى أخيهم الأصغر، وقال له: أنت سيكون عملك في شونة الغلال.

كان خفير السرايا قد تقدمت به السن، وضعف بصره، ووهن جسده، فأشفق عليه «ناجي». طلب منه أن يستريح في بيته على أن يظل أجره جاريًا. غضب الرجل، وقال: ما زلت قادرًا، ولا أقبل الصدقة.

ابتسم «ناجي» وقال له: أنت تحرس السرايا من أيام جدي، وما هذه بصدقة، إنما معاش تقاعد، مثلما يحدث مع خفر الحكومة.

عرض الحراسة على «سيف» فقبلها، لكن ظل طوال الليالي يمد أذنه نحو الزاوية البعيدة، لعلها تلتقط شيئًا من حداء «هنية»، فلمَّا عجز كان يستعيده صامتًا. طالما وجد نفسه تحدثه بأن يتسلل إلى هناك، ويمكث عند القبور ولو دقائق، لكنه كان يخشى أن يراه أحد من خفر العمدة، فيقع ما لا تُحمد عقباه.

(15)

تضيق الأرض على الخاملين. تسقط السماء على رؤوسهم البليدة، وتضربهم فيخرون على الأرض، يستفون ترابها. لا يقدرون على رفع وجوههم ولو قدر قبضة يد إلا إن زال عنهم الكسل والتواكل. أما مَن سعوا متوكلين على مُقدر الآجال، ومُقسم الأرزاق، فلهم وحدهم أن يمدوا أنوفهم لتسحب من النسيم ما شاءت.

بهذا أوصى «ناجي» رجاله، وقال لهم: مَن طلعت عليه الشمس في بيته فلا يسأل عن رزقه.

تطلعوا إليه صامتين، فابتسم، وقال: لم أقرأ هذا في كتاب، لكن علمتني إياه الحياة، ورأيته في عيون المجتهدين من الرجال.

والتفت إلى أمه، التي كانت تتابعه في إعجاب، وقال: كتب على «الصوابر» أن يؤجروا من المحاولات التي لا تنتهي.

ابتسمت، وقالت: لا يضام ناس فيهم رجل مثلك.

(16)

لم يجد «محمود» أمامه بعد أن استعاد بعض قوته سوى «عبلة». إنها لا تزال مسموعة الكلمة بين «الجوابر»، ووجودها يصد عن أسرتها تَجبُّر العمدة وطمعه، فذهب إليها ذات ليلة، واستقبلته مرحبة، وقالت: وقعت في يد مَن لا يرحم.

نظر إليها مستعطفًا، وقال: أنا أخطأت حين تركت «عمر»، وأتمنى لو أعطتني الحياة فرصة لتصحيح هذا الخطأ.

وكانت قد تحدثت مع «ناجي» قبل أيام عما جرى له، فقال لـ«محمود» حين رآه: يمكنك رفع دعوى أمام القضاء، تتهم فيها العمدة بالتزوير.

- أي تزوير؟ رأت زوجتي توقيعي على الورق، وختمي مطبوع إلى جانبه.

ـ حاول، ولن تخسر شيئًا.

- لكن مثل هذه القضايا يطول نظرها، وقد أموت وأنا أنتظر حكمًا، سيكون غالبًا ليس لصالحي.

وأتاهما نباح الطاحونة، وزمجرة العصارة، وغناء العمال الذين يحملون أعود القصب لتهرسه، فقال: كلما سمعت هذا الصوت شبت النار في نفسي.

سألته إن كان «قطاوي» يعرف ما جرى، فقال: أظن أن الأمر كله من تدبيره.

- هل كان هناك أحد معكما وقت توقيعك الأوراق؟

- لا، وحتى لو كان هناك أحد، فلا أعتقد أنه سيجرؤ على الشهادة ضد العمدة.

- ارفع الدعوى، واصبر، فلعل الأمور تسير أسرع مما تتصور.

وعرضت عليه أن يساعد «محبوب» في الإشراف على الزراعة، فصمت برهة، ثم قال: لا أريد أن أكون حملًا ثقيلًا عليكم. فنظرت إليه

في امتنان، وقالت: شـقيت حين ابتعـدت عما تعودت عليه، وعودتك إليه تعينك على المحنة.

رفـع عينيه إليهـا، مغالبًا البـكاء، وقال: كنت أطمع في وسـاطتك، لعل العمدة يسمع لك.

رفت على شـفتيها ابتسـامة خجلى، وقالت: كان أبي يسـتدعي أباه فيأتي مسرعًا، لكن الزمن قد تغير.

اقترب منها، وقال يستعطفها: هذا جميل لن أنساه لك.

وتلكأ العمدة في القدوم إلى السرايا. أرسلت إليه مَن يطلبه مرتين، وفـي الثالثـة جاء متثاقلًا، ومـا إن رأى «عبلة» حتى قـال: لولا أنكِ من «الجوابـر» ما جئت، فالنـاس يأتون إلى السـلاملك لطلب حاجاتهم، والعمدة لا يذهب إلى أحد.

تجاوزت ما سـمعته، وهي تدرك أنه قد فطِن إلى سـبب المقابلة، ولـم يكن أمامها من سبيل سوى أن تفي بوعدها «محمود» أن تتوسط لـه. نظرت إليـه في اشـمئزاز، وقالت: الكبـار يحرصون علـى إقامة العدل.

تصنع الغباء، وسألها: هل شكا مني أحد؟

– لا أصدق أن «محمود» قد باع لك شيئًا.

– الأوراق لا تكذب.

– يكذب البشر، ويسجلون كذبهم على الورق.

هب واقفًا، وقال لها محاولًا أن ينهي الحديث: لم أنتظر منك اتهام كبير الجوابر بالكذب.

أشارت إليه أن يجلس، وهي تقول: الكبير بفعله وليس بمنصبه، وإن كان الأمر بالسنين، فلست الكبير.

جلس متضجرًا، يسحب عباءته لتداري صدره، وقال: هاتي ما عندك، فليس لدي وقت أضيعه في حديث فارغ.

صرخت فيه حتى ارتعدت ملامحه فجأة، وهي تقول: حقوق الناس ليست حديثًا فارغًا.

استكانت ملامحه، مستعيدة هيأتها الأولى، وقال بصوت تكسوه السماجة: ليس لمَن تدافعين عنه حق عندي.

اختارت زاوية أخرى، وقالت بصوت لا يخلو من تودد: أعرف أنك تؤدي الصلوات في موعدها، ومَن هو مثلك يفهم أن الحرام لا ينفع.

هب واقفًا، وخطا نحو الباب، ثم التفت إليها، وقال: أنا أسترد ما كان لأجدادك في هذا البلد، وكان عليك أن تعينيني لا أن تقفي في وجهي.

نهضت، وهي تشير إلى الباب كي يخرج، وقالت له: أفسدك الحقد والحكايات القديمة.

ثم واصلت وهو يفتح الباب: إن كان في هذا البلد أحد عليه أن يسترد ما له فهم «الصوابر».

استدار وقال لها ساخرًا: يبدو أنكِ قد نسيتِ أن «محمود» من «آل بخيت»، وهم كانوا خدمًا في بيوتنا.

خانتها أعصابها، فبصقت، وصرخت، وهي تسأله: أي شيطان أنت؟

لكنه لم يجب. أعطاها ظهره، ومد ذراعه، وأغلق الباب، ومضى غاضبًا.

(17)

عند باب الحديقة ظهر أمامه «سيف»، وكان لم يرَه وقت مجيئه. وقف «رشدان» ونظر إليه في استهانة، وسأله من طرف فمه: ألا تزال موجودًا في البلد؟

لم يرد، ونظر إليه في تحد، فرماه بنظرة مسكونة بالوعيد، وقال: لن يحميك مَن تقعد عند بابهم ككلب جائع.

غلى الدم في عروقه، لكنه تماسك، وقال: شكرًا يا عمدة، اعتدنا منك الأدب. ثم استدار، ومضى بعيدًا عنه.

وكعادة رجل مسكون بالشر، انشغل «رشدان» وهو يركب دوكارًا قد اشتراه يوم أن آلت إليه العمدية، بتدبير ما يؤدب حارس السرايا، الذي كان يعتقد أنه قد غادر القرية إلى غير رجعة. أرسل خلفه مَن يراقبه، فعرف أنه قد تسلل ذات ليلة إلى الزاوية، بعد أن أغلق الباب الخارجي للحديقة. لم يمكث هناك سوى دقائق. لم يقترب من بابها، الذي آلت حراسته إلى رجل جديد من رجال «رشدان»، إنما جلس

فـوق قبـر «رضوان»، الذي صار في اسـتواء بعد أن رممـه «عمر» قبيل رحيله. كان يُحدِّق في النجوم البعيدة، ويمد أذنه ليسمع حداء «هنيَّة»، ويهز رأسـه في تأثر، ثم نهض سـريعًا، ونفض جلبابه مـن الغبار الذي علق به، وعاد من حيث أتى.

قال «رشـدان» لخفيره: حين تراه يمضي نحو الزاوية تعالَ وأبلغني على الفور.

واستدعى خادمة «هنيَّة»، وكانت أرملة وحيدة تقترب من الخمسين، واتفق معها على أن تمسـك بتلابيب «سـيف» حين يقترب من الزاوية، وتصـرخ ليجري النـاس إليها، وقبلهم سـيكون الخفـر عندها. وقفت المرأة حائرة، ثم قالت: لم أرَ منه شرًّا أبدًا.

صـرخ فيها حتى كادت تسـقط مـن الفزع: عليكِ تنفيـذ أمري دون جدال.

تماسـكت قليـلًا، وسـألته: مـاذا أقول للنـاس إن جاءوا مسـرعين لصرخاتي؟ ابتسـم في هدوء، وقال: أبلغيهم أنه أراد جذبك بالقوة إلى الزراعات.

ملأها فزع، وقالت: أنا امرأة مسكينة، ولا أملك سوى شرفي.

صرخ فيها من جديد: ما سـيحدث سيؤكد شرفك هذا، إن كان لكِ شرف.

بلعـت ريقهـا، وقالـت فـي اسـتعطاف: اعفنـي مـن هـذه المهمة، ويكفيني خدمتي لأختك بإخلاص.

هشـها مـن أمامه كذبابة، وقـال متوعدًا: إن لم تفعلي مـا أُمرتِ به، سـيضيع شـرفك بالفعل، وتمضغه ألسـنة الناس على المصاطب وفي الغيطان.

مر أسـبوع كامل، و«سيف» لا يقترب من الزاوية. كان يتسلق جذع شـجرة كافور عالية، ويتخيَّر مكانًا منبسـطًا تتوزع منهـا أفرعها في كل اتجـاه، ويرمي أذنه نحو حداء خافت، تحمله نسـائم الليل الطرية إليه. يتهـادى فيكاد يتبيـن حروفه، ثم يروغ بعيدًا، تـاركًا للصمت مكانه في الفـراغ، أو لنبـاح الكلاب، ونقيق الضفادع، وصريـر الجنادب، ومواء قطط شاردة تتشاكس حول سور الحديقة.

لم يطق «سـيف» صبرًا على ضياع الموسـيقى التي تسـكن روحه، فخرج ذات ليلة قاصدًا الجبَّانة. هرع الخفير إلى «رشدان» وكان جالسًا في السلاملك يدخن الجوزة بعد أن دس الحشيش في المعسل، وأبلغه بما رآه. سحب نفسين طويلين، ونظر إلى خادم كان يجلس عند قدميه ينفخ الجمـر، وقال للخفير: هناك مَن يراقبه بالقـرب من الزاوية، فلمَّا يراه، سيفعل ما هو مطلوب.

رآه الرجـل فجـرى نحو الزاوية. كانت «هنيَّـة» ممددة على الحصير، تضع رأسـها فوق وسـادة طرية، وتغيب في نوم عميـق. وكانت الخادمة جالسـة عند الباب، تمد أنفها إلى النسـيم العليل، مسـتعذبة رائحة الزرع والطين. غمزها الرجل في كتفها، وقال لها: اقترب «سيف» من المقبرة.

هبَّت واقفة ترتجف، وقالت له: اختبئ جانبًا، حتى تسمع صراخي فتسرع إليَّ.

أعطاها ظهره، فبصقت، وقالت: عليَّ تحمل وزر الظلم، وعليك تحمل وزر شهادة الزور.

قبضت الخادمة على جلبابها من عند صدرها، وشدته في عنف فمزعته. ألقت طرحتها على الأرض فانكشف شعرها الطويل، فعبثت فيه بأصابعها، وخمشت رقبتها بأظافرها، وعضت شفتيها بأسنانها، وخلعت نعليها الممزقين، ومشت على أطراف أصابعها في هدوء.

كان «سيف» قد اقترب من الجبَّانة. مد أذنيه فلم يسمع الحداء. وقف مكانه يتطلع إلى الزاوية في عجب. فقد كان هذا هو وقت انطلاق الصوت الطلي. رمى بصره نحو الظلام المنسدل فوق القبور، ومصمص شفتيه في أسى. همَّ أن ينصرف، لكنه شعر بدبيب قدمين تقتربان منه. التفت فوجد الخادمة. قبل أن ينطق، أمسكت بجلبابه من عند رقبته، وصرخت: عيب عليك يا خسيس.

سرى الرعب في أوصاله، ولم يدرِ ما يفعل، فقال لها: ماذا جرى لك؟

لكنها لم تتوقف عن الصراخ، فبرز الرجل المختبئ، وأمسكه معها، وهو يقول: يا عديم الشرف والمروءة.

حرص الرجل على أن يكون صوته عاليًا، ليسمعه الساهرون فسمعوا. هرعوا على قدر ما أسعفتهم سيقانهم، حتى وصلوا إلى المكان. وخلُصت لهم من بين طيات الظلام أجساد امرأة ورجلين. وقفوا وقد انعقدت ألسنتهم من الدهشة، لكن الرجل قال لهم: أراد هذا النذل تلويث شرفكم.

لم تمضِ سوى دقائق، أنصت فيها الرجال إلى ما قالته الخادمة، وهم يتطلعون إلى «سيف» في غيظ. كان يصرخ فيهم، ويُقسم إنه لم يمسها. لكن الناس اعتادوا أن يصدقوا امرأة تتقول على رجل. كان الخفير قد وصل إليهم، فأمسك «سيف» من يده، وقال للرجال: لنأخذه إلى العمدة، وهو يفصل في أمره. راح يتململ من بين أيديهم محاولًا الإفلات، لكنهم تكاثروا عليه، وسحبوه في عنف، حتى بلغوا السلاملك.

كان كثير من الناس قد هبوا فزعين من نومهم، وخرجوا إلى الشوارع، ليروا «سيف» مسحوبًا، يتلقى الصفعات المتوالية، وصوته مشروخ، يحلف بأغلظ الأيمان ويبرئ نفسه، بينما الخادمة تسير خلفهم بجلباب مشقوق عند صدرها، تداريه بكفيها.

ما إن رآهم العمدة حتى نحى الجوزة جانبًا، وسأل: ماذا جرى؟

همَّ «سيف» أن ينطق، لكن الخفير لكزه في عنف، فلاذ بالصمت، وقالت الخادمة: هذا النذل أراد الاعتداء عليَّ. وحرصت على أن تمد يدها نحو صدرها، وعنقها، ليرى الناس ما حلَّ بها.

أعاد العمدة قصبة الجوزة إلى فمه، وسحب نفسًا طويلًا، وقال: احبسوه في بيت العدة والكرباج حتى الصباح. شدوه حتى كاد يسقط على الأرض، فأمرهم العمدة: اتركوه. وناداه: تعالَ يا بهيم.

قطع «سيف» خطوات متثاقلة نحو العمدة، الذي نهض وراح يشمر عن ساعده الأيمن، وينظر إلى كفه، فأدرك الواقفون أنه سيصفعه، فتراجعوا قليلًا. وبينما يتقدم العمدة إليه، وهو ينظر إليه باستهانة، صرخ «سيف» حتى جفل منه «رشدان» فوقف مكانه، والخفر والرجال

والخادمة يتطلعون إليه واجمين. وقبل أن يسترد «رشدان» جأشه، كان «سيف» قد هجم على خفير، وخطف البندقية من كتفه، وصوبها نحو «العمدة» ثم استدار إلى الكل، وصرخ فيهم: ابعدوا عن طريقي.

وقبل أن يتنبه إليه بقية الخفر، ضغط على الزناد، فخرجت رصاصة مزعت الهواء، وارتطمت بالجدار. عندها تراجع خطوات إلى الوراء، ثم أطلق ساقيه للريح. صرخ العمدة: هاتوه.

جرى خلفه الخفر، لكنه كان قد لاذ بشارع جانبي، ومنه إلى خرابة، أسلمته إلى انحناء شارع آخر، ينتهي عند الزراعات. أطلق الخفر الرصاص خلفه، لكن أيًّا منها لم تصبه، إنما ضربت الجدران وأسطح البيوت، وأبواب أغلقها أصحابها في سرعة خاطفة.

صرخ الخفير الذي خُطفت بندقيته: ضعت، وضاع أولادي. وراح يجري وراء «سيف» في الحقول ملهوفًا. جرى بلا سلاح، موقنًا أنه إن لم يلحق به سيكون مصيره السجن بلا عذر ولا جدال. لكن خطواته، وهو في نهاية العقد السادس من عمره، لم تكن باتساع خطوات شاب قوي، يهرب من عار مصطنع وسجن، بل قتل، وإلا ما كان كل هذا الرصاص الذي مرق فوق رأسه، ولم يصبه.

ظل يجري والليل يبلعه، حتى بلغ النهر. كانت قوارب الصيد راسية مربوطة إلى أوتاد مدقوقة على الشاطئ، فك أحدها بسرعة، ودفعه نحو الماء، ورمى جسده في داخله، وجدف في قوة. حين انتبه إليه الصيادون، رفع بندقيته في اتجاههم، لتلمع في ضوء القمر، فانكمشوا في أماكنهم، تاركين إياه يبتعد حتى بلغ الشاطئ الشرقي.

(18)

تحفظ العمدة على خفيره في السلاحليك، بعد أن وبخه قائلًا: ألم يعلموك أن سلاحك هو شرفك، بل حياتك؟

وكان مطأطئ الرأس يبكي بحرقة، حتى إن الخادمة أجهشت بالبكاء أيضًا، وهي تدرك جيدًا أنه كان عبدًا مأمورًا مثلها. انتبه العمدة إلى بكائها فنهرها، فبلعت دموعها، ووقفت صامتة لا تعرف ما عليها أن تفعله. نظر إليها في تقزز، وقال: ابقي هنا، ولا تُبدلي ملابسك.

عاد إلى الجوزة يسحب منها، ويحكم التدبير لما سيكون في الغد الذي بات على الأبواب. فلمَّا جاء الصبح، كان قد كتب إلى قسم الشرطة يخبره بما جرى. حرص على أن يكتب اسمي «عبلة» و«ناجي» في بلاغه، باعتبار «سيف» يعمل حارسًا لسرايا الأولى، وأتى إلى القرية بمعرفة الثاني. وقال لنفسه، وهو يعيد ما كتبه: لا تنتقم من العبد إنما من سيده.

وأرسل خفيرًا إلى «عبلة» يبلغها بما فعله حارسها، ففتحت عينيها دهشة، وسألته: متى حدث هذا؟

أجابها، وهو يزاور عينيه بعيدًا: الليلة الفائتة عند الزاوية.

أرسل شيخ خفره بالبلاغ إلى المديرية، وجلس ينتظر قيام الدنيا. بعد العصر جاءت تجريدة من ضابط يقود خمسة من العساكر، وبدأ التحقيق في الواقعة. بدأ بالخفير، الذي وقف منهارًا، تتعثر الكلمات على لسانه، لكنها لم تخرج في النهاية عما رسمه العمدة.

أرسل الضابط يستدعي «ناجي» و«عبلة» إلى السلاملك، لكن مرساله عاد يقول: القاضي في البندر، والسيدة لا تريد أن تترك السرايا.

ووجدها «رشدان» فرصة ليوغر صدر الضابط على السيدة، فقال: لا أحد يعصي أوامر الحكومة.

نظر الضابط في غضب إلى عساكره، وأمرهم: عودوا إليها وأبلغوها أنها إن لم تأتِ، سنقبض عليها، ونأخذها مقيدة اليدين إلى القسم.

أدركت أن العناد قد ينتهي بضياع هيبتها، وتذكرت ما كان يقوله أبوها دومًا من أن عصيان أوامر الحكومة ليس شجاعة، والأفضل أن يتظاهر الإنسان بالطاعة، ويلتف على الأمر، إن رآه في غير صالحه. اعتصمت بالحيلة والتذاكي، وقالت لنفسها: مواجهة العمدة أمام رؤسائه أفضل من الهروب.

ركبت الدوكار، ومعها الحوذي وخادمة. فلما وصلت عند السلاملك، لم تترجل، وطلبت من الحوذي أن ينادي أحد الخفراء. حين جاء طالبته بأن يُخبر العمدة بقدومها. قال له طلبها بصوت جهوري أمام الضابط، فأشار إليه أن ينهض ليأتي بها، فتوجه على الفور إليها، وقال في تصنع مفضوح: يعز عليَّ أن تضامي بسبب خسيس لم يحسن القاضي اختياره.

لم ترد، ونزلت ومشت إلى جواره، تكظم غيظها، حتى وصلت إلى السلاملك. جلست أمام الضابط رابطة الجأش، وسألته في اعتداد: ماذا تريد؟

مـلأ عينيـه من هيبتها، وحسـنها الذي لم يكن كله قـد غادرها بعد، وقال: أبلغني العمدة بأنكِ تعرفين ما جرى.

هزت رأسها، وقالت: عرفت، ولا أصدق.

ارتفع صوت «رشدان»: أتكذبينني، وكثيرون شهود على سوء أدب حارسك؟

أشـار إليه الضابط أن يصمت، وقال لها: لا نريد منكِ سـوى معرفة الأماكن التي يمكن أن يكون قد هرب إليها الخاطئ السارق.

هزت رأسها، وقالت: لا أعرف.

صمت الضابط برهة، وسألها من جديد: مَن يعرف؟

أجابته دون أن يزول عنها تماسكها: جاء به ابن زوجي من «إسنا»، لكن لا أعرف عنوانه هناك.

اسـتدعى الضابط «محبـوب» ولم يكن الخبر قـد وصله، فقال في ثقة: لا أصدق أن «سيف» قد فعل هذا.

نظر إليه الضابط في استهانة، وقال: لا يهمني شعورك، إنما أريد أن أعرف عنوان الهارب.

سأل «محبوب»: أتسمح لي بأن أذهب وأحضره؟

هز الضابط رأسـه في غضب، وقال: هذه مسـؤوليتنا، وليس عليك إلا أن تبلغنا بعنوانه.

أمـلاه العنـوان، فدوَّنه في ورقـة، والتفت إلى العمـدة، وقال: أريد الخادمة لتدلي بأقوالها.

بعـد أن انتهى مـن التحقيق مع الخادمة، قال للعمدة: سأرسـل إلى شـرطة «إسـنا» لتتابع «سـيف»، أما أنت فافتـح عينيك لعلـه يعود إلى القريـة سـرًّا، واجعل أحد رجالـك يراقب «محبوب» مـن بعيد، فربما يذهب إليه ليُحذره.

هز العمدة رأسه، وقال: حاضر.. حاضر، تحت أمرك.

فجـاء أمر الضابط: هات خفيرك مقيدًا، سـيُلقى في الحبس إلى أن نسترد السلاح.

(19)

لم تنسَ «عبلة» ما حدث. أضمرت في نفسها إجبارها على الذهاب إلى بيت «رشـدان»، بينما أبوه، وهو الذي كان أكبر سنًّا ومهابة من ابنه الغرير، طالما جاء هو إلى السرايا ليطلب من الوجيه ما يريد، أو يرجع إليه في إشارة جاءته من الثُّمن. لم ترَ أباها ولا أمها ذات يوم يُستدعيان إلى استجواب أو مساءلة. وسألت نفسها في أسى: هل يرجع كل شيء بي إلى الخلف؟

لم تكن مسـكونة بالحكايات التي أفسـدت جيلًا تلو أجيال، لكنها كانـت تؤمن بأن الابن، أو حتـى الابنة، عليها أن تضيف مدماكًا جديدًا إلى بناء العائلة. سـألت نفسها: ماذا أضفت أنا؟ وبدت الإجابة محبطة لهـا. أرض الانتفـاع ضاعـت، وسـرايا الوجيه التـي كانت قبلـة للثراء

والأبهة والمهابة، لم تعد على حالها، حتى جدرانها كلحت، وأشجار حديقتها توحشت، وسكنتها الغربان والبوم.

لم يكن لها ما تفتخر به سوى «ناجي»، أول موظف حكومي في العائلة، التي لم تخرج عن الزراعة طوال القرون التي رمحت في لمح البصر. ليس أي موظف، إنما هو قاضي شريعة، تملأ علوم الدين وغيرها رأسه، ويأتي إليه شيوخ المساجد ليستشيروه في أمور شرعية استعصت عليهم.

كان يرضيها أيضًا أنها لم تكن مجرد حلقة بلا معنى في سلسلة طويلة، بل كانت واسطة عقد، وجسرًا ربط «الجوابر» و«الصوابر» معًا في حبل متين. نعم لم تكن المرأة الأولى التي تزوجت من خصوم الزمن وحاملي أختامه الثقيلة، لكن لم تكن هناك مَن ارتقت مكانة تطاولها، وهي التي لم تنسَ تحصيل نصيب من المعرفة، ونام في فراشها رجلان من خيرة «الصوابر»، وكانا ينظران إليها دومًا بإكبار، ويحرصان على فعل ما يرضيها.

انتظرت، تعد الدقائق، حتى عاد «ناجي» في إجازته الأسبوعية، فأطلعته على ما جرى، وقالت: لا يجب أن نترك الأمر كله في هذه القرية بيد «رشدان».

وسألها عما تفكر فيه، فقالت: كان «عمر» يعتزم جمع «الصوابر» المتفرقين في البلاد، فتواصل أنت ما بدأه، ولتكن لك العزوة التي تسد العيون المملوءة بالطمع.

وكان «صابر» يجلس إلى جوارهما يأكل قطعة من الحلوى، فنظرت إليه، وقالت: إن استسلمنا لهذا التراجع، فقد يكبر هذا الولد ليجد نفسه بلا شأن.

ابتسم، وقال لها: كيف هذا، وأنا أتطلع إلى إرساله إلى الأزهر، ليكون مثلي وأفضل.

بادلته الابتسام، وقالت: مهما طالت رحلة الطيور لا تنسى موطنها. نظر إليها في إعجاب، وقال: كلامك مسكون بالحكمة دومًا.

ربتت كتفه، وقالت: عين الحكمة ألا نترك الظلم يكبر في هذه البلدة.

فطِن إلى أنها لا تزال متأثرة بما جرى لها في غيابه، فقال: من الحكمة ألا نقرر شيئًا في ساعة غضب.

مدت يدها إلى دورق المياه، وشربت حتى ارتوت، ثم قالت: ألم تفكر يومًا في العمدية؟

ضحك حتى بانت أسنانه البيضاء، وقال: أي عمدية تلك التي تطاول منصب القضاء؟

اقتربت منه، وقالت: لكن الناس هنا لا يهابون سوى العمدة.

نظر إليها، وقال: لم أغب كل هذه السنين في الأزهر، وأملأ رأسي بكل هذا العلم، ثم يحدد لي الناس هنا موضع قدميَّ. ثم تنهد، وقال: لم يأتِ على ذهني أبدًا أنكِ مشغولة بهذا الأمر في أي يوم من الأيام.

تـراءت أمامها صـور الماضي البعيد، وقالـت: كان هناك ما يغنيني عـن مثل هذا التفكير، ثروة جدك ومهابتـه، وعمك الذي تزوجته وهو عمدة القرية.

قال لها: الزمن تغير، وكبار الملاك في القرى يرسلون أولادهم إلى المدارس، وينتظرون اليوم الذي يصبحون فيه موظفي حكومة.

لكنهـا لـم تتخـلَّ عمـا شـغلها، فسـألته بغتـة: مـا رأيـك فـي «محبوب»؟

صمت برهة، وقال: قوي، وراجح العقل، يتقدم في التعليم بخطى مذهلـة، لكنه لا يزال يشـكو مـن أن أهل القريـة ينظرون إليـه على أنه غريب أتاهم فجأة.

ابتسـمت، وقالـت: منذ دقيقـة كنت تـرى أن الناس ليسـوا هم من يرسمون لنا الخطى.

تناول دورق المياه، ورشف قليلًا، وقال: العمدية لها شأن آخر.

واسـتعادت ما فعله «رشـدان»، وقالت: يخضع النـاس هنا لأوامر الحكومة حتى لو لم تعجبهم.

سـألها عما تفكر فيه، فردت عليه بسـؤال: ألا يسـتطيع القاضي أن يساعد قريبه في أن يصبح عمدة قرية؟

لم يشأ أن يغضبها، فقال: دعيني أدبر الأمر على مهل.

(20)

كان «رشـدان» مبتهجًا لشعوره بالانتصار على «عبلة». اعتبر أنه قد نـال منها، مرة حيـن عرف أهل القريـة أن الرجل الذي كان حارسـها، وهي الأرملة التي لم يخاصمها الجمال بعد، رجل لا شرف له، حاول اغتصاب خادمة. ومرة لأنه أجبرها على القدوم إلى السلاملك.

دار دخان الحشـيش برأسه، فانجلى صوت الشيطان الذي يسكنه، فقال للخفير: أريد خادمة الزاوية الآن.

جـاءت المـرأة تتعثر فـي خطواتهـا. وقفـت أمامه، وتطلعـت إليه صامتـة. سـحب أنفاسًـا متلاحقة، ودفـع الدخان حتى غطـى وجهها، وقال: لم تنتهِ حكايتك.

نظرت إليه، خائفة، وسألته: هل من جديد يا حضرة العمدة؟

ابتسم، وقال: سيستدعونك مرة أخرى أمام المحكمة حين يقبضون على الولد الهارب.

اسـتردت أنفاسها المبهورة، وقالت: اطمئن، فلن أزيد على ما قلته للضابط.

قهقه، وقال: واعية، لكن هناك أمرًا آخر.

مدت عنقها إليه، وقالت: تحت أمرك يا عمدة.

ابتسم، وقال: لا تخافي، فهذه المرة لن تجلسي مرتجفة أمام ضابط أو قاض، إنما عليكِ فقط أن تقولي لامرأة غيرك أو اثنتين أن «سـيف»

حين تمنعتِ عليه، صرخ فيك، قائلًا: مَن أنتِ حتى تتمنعين عليَّ، سيدة القرية كلها نامت في حضني عارية مرات ومرات.

ارتجفت، واهتز لسانها كثيرًا، وهي تقول: إلا العِرض يا عمدة.

دس يده في جيبه، وأخرج جنيهًا ذهبًا، وقال لها: هذا سيجعل الكلام يجري على لسانك.

لم تمد يدها إليه، فصرخ فيها: أتردين أعطيتي؟

مدت يدًا ترتجف، وأخذت الجنيه، ثم وقفت مكانها تغالب القهر والأسى. نظر إليها، وقال: هذا سر بيننا، فإن وصلني أنكِ أخبرتِ أحدًا بأني صاحب هذه الفكرة، قطعت لسانك.

استدارت، وقبل أن تخرج من باب السلاملك، قال: سيسألك النسوة اللاتي يأتين إلى المقبرة والزاوية عما جرى، وليس عليكِ إلا أن تدسي بين الكلام ما طلبته منك.

ثم سحب نفسًا طويلًا ونفخ، فانطلقت من فمه ومنخريه سحابة دخان أزرق، وهو يقول: سأمرغ أنفكِ في التراب يا متكبرة.

(21)

يستعذب الناس النميمة. تكبر في رؤوسهم أسرع من الزرع والعيال. تلتقطها الآذان، فتسكن الرؤوس المشدودة إلى الأوهام والخيالات المريضة. تدور كدوامات الريح التي تتسع دوائرها فتثير الغبار بلا هوادة. كل منهم يصنع لها دائرة، فرحًا بها، ويرصعها

بحـروف الكلام المنمق، الذي يضيفه إليهـا من عنده، دون أن يرف له جفن، ومن الكلام صنف لا يُنسي بعضه بعضًا، ولا ينسخه.

تناقلت النسـوة الكلام. همسـن بـه على مهل، وفـي نعومة. جرى سريعًا كما يجري الماء العذب في حلوق الظامئين. وصل إلى الرجال فـي البيوت، ورددته الألسـنة على المصاطب، وفـي الحقول. وحدها التـي تخصهـا المكيـدة كانت آخر مَـن يعلم. فالكلام يـدور ولا يصل صاحبه، إلا بعد زمن، وقد لا يصل أبدًا.

عاد «صابر» ذات يوم من المدرسـة يبكي. استقبلته خادمة في بهو الطابق السفلي، وسألته في جزع: ماذا جرى؟

لكنه لم يرد. صعد السلالم إلى غرفته، وأغلق عليه الباب، وانخرط في بكاء حار. جاءته أمه ملهوفة، أخذت رأسه على صدرها، فرفعه في غضب، وزحزح جسـده بعيدًا عنها. نظرت إليه متعجبة أمره، وسألته: ما لك؟

نظر إليها في عتاب، وقال: لا شيء. أنا تعبان، وأريد أن أستريح.

كانت قد اعتادت على ألا تجبره على قول شـيء، حتى يفصح عنه حيـن يهـدأ، فتركته، وأغلقت الباب. لكنها فوجئـت به في اليوم التالي يرفض الذهاب إلى المدرسة. عاتبته لأنه لم يفعلها من قبل، فقال لها: أنا متعب جدًّا.

اسـتمر تعبـه فـي اليوم التالـي، وهي تحسـب أن جسـده يعاني من وعكة، فهو يجتهد في اسـتذكار دروسـه ليل نهار. لكن ما كانت متعبة

هي نفسه. شيء يثقل صدره كصخرة مسنونة. كلمات تطارده، كلما حاول طردها حضرت لتشرخ روحه.

كان يوم الخميس فجاء في آخره «ناجي» وحين سمع بما يعاني منه أخوه، انفرد به في حجرته. وضع كفه على جبينه فلم يجده ساخنًا. وضع أصابعه تحت ذقنه، ورفع رأسه ليرى عينيه، لكن «صابر» لم يقدر على النظر في عيني أخيه. أمسك كتفه، وهزه خفيفًا، وسأله: ما بك؟

لاذ بالصمت، وانخرط في البكاء. وضع راحة يمناه على رأسه، وتلا آيات من سورة «يس»، وقال له مبتسمًا: مَن حسدك؟ زملاء الفصل أم المدرسون؟

عاد إلى الصمت، فقال له: حتى الأطفال لا تخلو نفوسهم من الهموم.

فطِن الصغير إلى أن القاضي قد مسه ما يشعر به، فسأله: هل عيَّرك أحد بشيء من قبل؟

وخزه السؤال، واستعاد بعض صور الماضي وكلامه، ففي الريف لا يكف الصغار عن اختراع ما يضايقون به بعضهم بعضًا، خصوصًا النجباء في الدراسة، يسوق الحسد مَن هم دونهم لاختلاق ما يضايقونهم به. حركة جاءت في غفلة، أو شيء لا إرادي يصنعه الجسد، ضراط أو فساء أو مخاط يندفع على حين غرة، أو عبارة قيلت دون تفكير، أو شيء اشتهر به الآباء والأمهات. طالما رأى «ناجي»

هـذا أمامه صغيـرًا، وكان فرصة لصناعـة النميمة والغيـظ. وكيف لا ينفـع في هذا أن يكـون مَن يُعيِّره الأطفال ابنًا لثري أو كبير في القرية، فالصغـار لا يضعـون المال والهيبة في اعتبارهـم حتى يطالهم وعي، يقـود إلى لجمهم أو قمعهم، حتى عن الأمور الطيبة، وقول الحق في شجاعة.

اعتقد «ناجي» أنه شيء من هذا، فقد كان «صابر» يزم أنفه أحيانًا ثم يحركه سريعًا بشكل لافت، حتى يظن مَن يراه أنه يسعى إلى خلعه من وجهـه. ربت كتفه، وقال له: لا يخلو أحد ممـا يلفت انتباه المتربصين به.

غلبه البكاء، وقال: ليته كان شيئًا يُطاق.

ابتسـم «ناجي»، وقال: لا يخلـو العباقرة من غرائب، وأنت تسـبق سنك في الفهم والفصاحة، وأتوقع لك أن تكون عالمًا كبيرًا.

وحكـى لـه كيف كان هو يهز رأسـه، ويحركه إلـى الأمام والخلف سـريعًا، وكيف كان الصغـار يُعيِّرونه بهذا، ويقولون عنـه إنه لن يكون سـوى مجـذوب يلازم الزاويـة، وها هو قـد تخلص من هذا السـلوك المتكرر، وصار رأسه ثابتًا فوق عنقه، بعد أن امتلأ علمًا.

ووجـده ينصت إليه، دون أن يبـدو عليه أي تأثر، فقال: نرث أحيانًا أشياء ممن جئنا من صلبهم، ولا ذنب لنا فيها.

اهتـز جسـد الصغيـر، وقـال بصوت خفيـض: ومـا ذنبنـا أن نرث العار؟

امتقع لون «ناجي»، وقال: أنت ابن كبار، لا يقدر أحد على أن يعثر في حياتهم على ما يشين.

عـاد إلى البكاء، ودفـن وجهه بين راحتيه، وقال: هناك مَن يقول إنه وجد.

سأله بصوت حاد: مَن هذا؟ وماذا وجد؟

صمت الصغير برهة، ثم سأله: هل أنت واثق في أمك؟

لسـعه السـؤال كلدغة عقرب أعمـى، فأجابه وهو يحـاول أن يرفع وجهه الصغير ليرى ما في عينيه: لم أتوقع منك هذا السؤال.

أزاح الصغيـر وجهه بعيدًا، وقال: للأسـف، هناك مـا جعله يجري على لساني.

فقد «ناجي» صبره، وقال له: تحدث في صراحة، فقد شغلتني.

حـرَّك أنفه سـريعًا، وقـال دون أن يتوقـف الرفيف: عيَّرنـي العيال بأمي، بأمك.

هـز رأسـه، حتى كادت العمامة تسـقط مـن فوقه، وقـال: قطع الله لسان مَن يخوض فيها بسوء.

واعتقـد أن الأمر يتعلق بالحـارس الهارب، الذي اضطرتها ما اتُّهم به أن تذهب إلى بيت العمدة، فقال: وما ذنبها أن يُتهم حارس السـرايا بشيء لم يفعله؟

احتد صوت الصغير، وقال: ذنبها أنه حارسها.

ابتسم «ناجي» وقال: أنا قاضٍ، والمتهم عندنا بريء حتى تثبت إدانته، وحتى لو ثبتت إدانة «سيف»، فهذا لا يسيء لأمنا، وفي الشرع «لا تزر وازرة وزر أخرى».

لم يفهم ما سمعه، وزاد صوته احتدادًا، وقال: لا أريد أن أسمع اسمه.

ربت كتفه، وقال: إذا كان هذا يضايقك فانسَ الأمر كله.

خرجت حروفه مبتلة بالدموع، وقال، وهو ينظر هذه المرة في عيني «ناجي»: ما سمعته لا يمكن نسيانه.

عاد يسأله: ما هو؟

صمت برهة، وقال: عاهدني على أن يكون سرًّا بيننا.

سرى غضب في أوصاله، فكظمه، وقال له: لن أتركك حتى تخبرني بما سمعته، ولا تنكر منه شيئًا.

حكى له كل شيء، و«ناجي» يهتز مكانه غير مصدق ما يسمع، فلما انتهى، قال له: قطع الله ألسنتهم، إنها مخبصة جديدة، معروف مَن أطلقها.

رفع وجهه إليه في رجاء، وسأله: هل أنت لا تصدق هذا الكلام؟

قال، وهو يدوس على الحروف، ليؤكدها: هذا من سابع المستحيلات، إنما هو رمي محصنة، يرفضه الله والقانون وعقلاء الناس.

نظر إليه دون أن يدرك كل مرامي كلامه، وسأله: هو كذب؟

أخذ رأسه بين ذراعيه، وجذبه برفق إلى صدره، وراح يمسد ظهره، ويقول: كذب، ولن أترك مَن صنعه دون عقاب.

ثم خلع رأس الصغير من صدره، ونظر في عينيه، وقال له: لا تخبر أمنا بشيء، فهذا كلام لا يصح أن يُقال أصلًا، وأمهلني حتى أثبت لك أنه كذب وافتراء.

وسأله «صابر» في لهفة: هل أنتظر في البيت حتى تبرئ أمي، وأعود إلى المدرسة؟

أجابه على الفور: لا أعرف أن أحدًا من أجدادك قد هرب من مواجهة ما يعترض طريقه. اذهب إلى مدرستك، فإن قال لك أحد هذا الكلام الفارغ، قل له على الفور: هذه كذبة اخترعها العمدة ليسيء إلى أمي الشريفة.

نظر إليه متعجبًا، وسأله: لكن العمدة قريب أمي، فهل يفعل ما يسيء إليه؟

تنهد في حرقة، وأجابه: يقرصك الثعبان من أقرب جحر.

ونهض وهو يضرب كفًّا بكف، ويقول: يأتي الغدر من أقرب الأقربين.

(22)

لم ينم «ناجي» ليلته. هجمت عليه الظنون والمخاوف، وشعر لأول مرة بأن رأسه مسكون بما لا يطيقه. توسوس له كل شياطين

الأرض بالانتقام ممن كذب على أمه، لكنه سرعان ما يتذكر أن مثله لا يجب أن يتصرف بما يُغضب الله، أو يخرج على القانون.

هو يعرف عقوبة رمي المحصنات، استعادها صامتًا كما قرأها في كُتب الشريعة، لكن عبء إثبات أن العمدة هو مَن فعلها كان يزلزل كيانه، لا سيما حين داهمه خاطر بأن هذه الكذبة ستدور على ألسنة الصغار ونساء البيوت، إلى أن تكبر الظنون، وتمتد من القرية إلى خارجها، لتصبح واحدة من حكايات المحاكم المشهودة، وقد يمسه منها الكثير.

لم يكن أمامه سوى «محبوب». خرج إليه في الهزيع الأخير من الليل، وطرق باب بيت «نبوية»، فخرج إليه متثاقلًا يتثاءب. لم يقدر على إبلاغه بالأمر في البيت، حتى لا يصل حديثهما إلى أحد. طلب منه أن يخرجا إلى الجسر، أو المقبرة، وقال له: عذرًا، لم يأتِ بي إليك في هذه الساعة سوى ما لم أصبر عليه حتى الصباح.

طوق كتفه بذراعه، وقال له: ليس بيننا ما يتطلب الاعتذار.

وجدا نفسيهما يسيران نحو الجسر، تراهما النجوم الزاهرة في هذه الليلة المظلمة، ويملأ أذنيهما نقيق الضفادع، ونباح الكلاب، وهسهسات الزرع حين تداعب شواشيه النسائم الطرية. لم يتحدث «ناجي» في البداية فيما قض مضجعه، إنما ساق حديثًا عن الزرع والبيوت. فلما ابتعدا، سأله بغتة: هل تعرف طريق «سيف»؟

- أعرف عنوانه في «إسنا» لكنني أعتقد أنه لم يرجع إليه.

telegram @
yasmeenbook

- وربما رجع.

- هذا ممكن.

- لنذهب إليه، الآن قبل الصباح.

تقدم عنه خطوتين واستدار إليه، فخلص له وجهه من طيَّات الظلام، وسأله: هل جدَّ ما يضيركم مما اتهموه به؟

- جدَّ ما لم يكن في الحسبان.

- ما هو؟

- أعفني من الإجابة، فهي آتية، والكل في هذه القرية يجب أن يعرفها.

- ليكن ما تريد.

(23)

لم يكن «سيف» يعرف مأوى له سوى مسقط رأسه. المدينة التي تحن خطواته إلى شوارعها، والنوافذ التي تطل على رأسه وهو يعود آخر المساء مجهدًا. فك البندقية، ولف أجزاءها في شاله الأبيض، ووضعها تحت إبطه. راح يجري بمحاذاة الشاطئ الشرقي للنهر، حتى وصل إلى مرسى يبعد ثلاثة أميال عن «الجابرية» يقف عنده مركب عائد إلى الجنوب. تحسس ما في جيبه من نقود، فلم تكن سوى ثلاث ريالات من الفضة، أبرزها للمراكبي، وقال له: خذني معك إلى «إسنا».

فلمَّا بلغ المدينة، لم يذهب إلى الحجرة التي كان يسكنها، فهي لا تنتظره. لم يكن يثق في أهل المدينة سوى باثنين: «محبوب» و«عبد الصمد»، والأخير شاطره أيام الشقاء والعوز، وساعات الفرح القليلة التي كانا يخطفانها من قلب الأحزان المقيمة.

كان «عبد الصمد» في مثل سنه، يسكن مع أبيه وأمه الطاعنين في السن غرفتين فوق سطح بيت عتيق، ويكدح ليوفر لهما ثمن اللقمة والدواء وإيجار السكن. ما إن رأى «سيف» حتى تلقفه بين ذراعيه يبكي، وقال له: لم يهنأ لي عيش منذ رحيلك.

ابتسم، وقال له في مرارة: عدت بحمل ثقيل.

وحكى له ما جرى، وقلبه يرتجف، فلما انتهى قال له: بيتي مفتوح لك، ولا تخف. ثم قال له، وكأنه يطمئن نفسه: في زحام المدينة لن يعثر عليك أحد.

صمت برهة، وقال: فترة مؤقتة إلى أن أُدبر أمري.

نظر إليه في شفقة، وسأله: أتريد أن تتركني مرة أخرى؟

أجابه وهو يغالب دموعه: هذه المرة ليس باختياري. ثم واصل: يجب أن أرحل بعيدًا، فيكفي مَن عرفت أنني جلبت لهم المتاعب.

لم يكن بيت «عبد الصمد» بعيدًا عن ذهن «محبوب»، فهو وحده الذي بقي من الثلاثة في «إسنا»، فلما نزلها برفقة «ناجي» توجه أولًا إلى الغرفة التي كان يستأجرها «سيف» فوجد عجوزًا قد سكنتها. توجه إلى المكان الثاني على الفور.

كان «سيف» مستلقيًا على ظهره شاردًا في همومه، حين سمع صوت «محبوب» يسأل أبا «عبد الصمد» عنه. هبَّ واقفًا، وهرع نحو الباب، فلمَّا رأى «ناجي» قبَّل رأسه، وقال له: يحزنني أني تركت لكم ما كنتم في غنى عنه.

نزع ابتسامة فاترة من جوف أحزانه، وقال له: أنا واثق من براءتك، لكن الشر طال مَن لا ذنب لها.

تطلع إليه حائرًا، فاقترب منه، وحكى له ما جرى. ضرب «سيف» الكنبة التي كانوا يجلسون عليها في مدخل الغرفة، وصرخ: الوغد، والله سأشرب من دمه.

ربت «ناجي» كتفه، وقال له: لا تجعل الغضب يسبقك إلى ما علينا أن نفعله، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى التفكير بحكمة، والتصرف بوعي.

دفن وجهه بين راحتيه، وقال بصوت كسير: هذا أمر لا يجب السكوت عليه.

قال «ناجي»: لو كنت سأسكت ما سعيت وراءك، لكن علينا أن نُحكم التدبير، حتى لا نعالج الخطأ بخطأ أكبر.

وعرض عليه أن يترك «إسنا»، ويذهب إلى مدينة «سوهاج» ليختبئ في شقة «ناجي» التي كان قد اشتراها في المدينة، لتكون مقر راحته بين ساعات العمل، وقال له: يجب أن يكون مكانك معروفًا لي، حتى إذا جاء وقت احتياجي لك وجدتك.

وكان قد فكَّر في أن يستدعي خادمة الزاوية، فهي بداية خيط هذه القضية برمتها، ويجعل زميلًا له يحقق معها، وهو قادر ببراعته أن يستنطقها، فيحصل من أقوالها على ما يُبرئ «عبلة» و«سيف» معًا، ويزيح العمدة من منصبه، بعد أن يثبت اتهامه، فيضرب عصفورين بحجر واحد.

كتب العنوان في ورقة، وأخرج نسخة من مفتاح الشقة، وبعض ريالات من الفضة، ومدهما إلى «سيف»، وقال له: لتذهب وحيدًا متخفيًا، فربما يكون هناك مَن يتبعنا. أنا سأسبقك إلى «سوهاج»، وأنتظرك.

ونظر إليه «محبوب»، وهو يمد يده ليصافحه، وقال: عاهدني على أن تأتي.

– منذ متى كنت أخون عهدًا؟

– أنت أخي الذي لم تلده أمي.

وتنهد «سيف»، ونظر إلى «ناجي»، ووضع يده على عنقه، وقال: رقبتي فداء الست «عبلة».

وانتظر «سيف» ساعات ليستيقن أنهما قد غادرا «إسنا»، ثم قال لصديقه «عبد الصمد»: آن الأوان أن تستريح من أعبائي.

نظر إليه مندهشًا، وقال: لا يتعب أخ من أن يحمل بعض هموم أخيه.

احتضنه كأنه يودعه إلى الأبد، وقال له: لا تقلق، فهو مشوار قصير، لا بد منه.

- إلى أين العزم؟

- طريق إلى براءتي، وإزاحة الهم عمن أتعبتهم.

خرج «سيف» من « إسنا» عند الظهر، حاملًا بندقيته بعد أن لفها في كيس من القماش السميك. كان قد فكَّر فيما سيفعله، أحكمه في رأسه خلال هذه الساعات الفاصلة بين ذهاب «ناجي» و«محبوب» وقدوم «عبد الصمد». لم يكن هو ذلك الذي أوصاه به «ناجي» لكنه ما اعتقد أنه وحده ما يشفي غليله، وينهي الشرور من قرية طالما داعبه أمل عريض في أن يجد بين أهلها صُحبة ولُقمة. وقال لنفسه، وهو يهم ليقفز إلى مركب ذاهب إلى الشمال: طالما السجن آت، فليكن في أمر يستحق.

كان يقصد «الجابرية». هي وحدها التي يجب أن يذهب إليها أولًا، وقد يكون أولًا وأخيرًا، لا يدري. غلبه النوم في المركب، فرأى «ناجي» في منامه، ينظر إليه بعينين مملوءتين بالعتاب، دون أن ينبس ببنت شفة، وكأنه يسأله: لماذا فعلت هذا؟ فأجابه دون تردد: أمك في مقام أمي، ولو افترى أحد على أمي بمثل هذه الكذبة المشينة، ما ترددت في قتله.

عند منتصف الليل، رسا المركب عند «الجابرية»، في المرسى الذي كان قد جهز لمركب «عبلة» قبل سنين. هبط «سيف» وقطع مدقًّا

ضيقًا بين الزروع كان يعرفه جيدًا. بين أعواد القصب جلس يلتقط أنفاسه، وفتح كيس القماش، وأخرج البندقية، وركب أجزاءها. تأكد من أن خزانتها لا تزال عامرة برصاصتين، من تلك التي اشتراها من «إسنا»، ويحتاج إلى واحدة فقط، وعليه أن يُحسن استخدامها.

كان عليه أن يُحاذر، ليتمكن من غريمه، بعيدًا عن عيون الخفر وبنادقهم. هو يعرف جيدًا بيته، فقد أرسلته إليه خادمة «هنيَّة» مرات ليأتي إليها ببعض حاجاتها، ورآه يوم سحبوه إليه يوسعونه ضربًا. للبيت باب خلفي، يطل على الزروع، فإن كان موصدًا، فنافذة الغرفة التي ينام فيها العمدة، تبقى أحيانًا مواربة، تستقبل النسيم في ليالي الصيف.

تسلل على مهل. لم يكن خائفًا سوى من أن يفشل في بلوغ هدفه. كان الصمت يفرض هيبته على القرية، فحتى الكلاب كفت في هذه الساعة عن النباح، وتوقفت الضفادع عن النقيق. الليل يطرح ستائر عريضة لا يخلُص منها شيء. لا يراه إلا هو، وقبله ربه الذي يعلم ما في نفسه. توقف فجأة، ورفع كفيه إلى السماء، وقال قلبه: اللهم مكني من عدوي.

خرج من حقل القصب، ثم عاد خطوتين وجلس مكانه، ومد بصره لعله لا يرى أحدًا. لم يكن هناك أحد في طريقه، فمشى على مهل، حتى بانت له الجدران الخلفية لبيت العمدة. سمع سعال امرأة، فجفل قليلًا، وتحسس بندقيته. انتظر حتى خمد السعال، وعلا شخير يلوث السكون، فقال لنفسه: الآن وإلا أفلت من يدي.

واستغل العتمة الجاثمة خلف الجدار، ووقف فيها يتطلع يمنة ويسرة، حتى يستيقن من مكان العمدة في هذه الساعة. مد أذنه تحت نافذة غرفة نومه، لعل شيئًا يصدر منها يدل على وجوده فيها. لكن الإجابة جاءت من السلاملك. كان سُعالًا وشهقات طويلة، فعرف أن «رشدان» يجلس كعادته مغمورًا بالدخان الأزرق، يسحب حتى يدور رأسه في خيالات عجيبة.

كان يعرف أنه في أغلب هذه الجلسات يكون وحيدًا، ليس معه إلا الرجل الذي يدس له الحشيش في المعسل، ويرفع الجمرات فوقه. لكن كان عليه أن يستيقن من هذا. التصق بالجدار، وقطع الخطوات نحو المكان المقصود، واسترق السمع، فأتاه صوت العمدة وهو يحكي ويضحك عاليًا، بينما الرجل لا يرد إلا قليلًا، شاهدًا على هذيان مصطنع، يتدفق من نافذة موارية.

كان يعرف أن بعض الخفر يمسون في أغلب الأحيان قريبين من السلاملك، منشغلين بالثرثرة أو تناول مشروبات ساخنة، أو شاردين في عذاب نفوسهم وهم يسترجعون الإهانات التي تلقوها من فم العمدة في النهار.

رفع «سيف» هامته، وأغلق عينه اليسرى، فرأى قفا العمدة ماثلًا أمامه. رفع بندقيته، ومد ماسورتها على مهل، لتصبح الفوهة مصوبة إلى رأس «رشدان». سحب الترباس إلى الخلف والأمام، فاندفعت طلقة في مكان الانفجار. غرس عينه فوق جسد البندقية، وصار الهدف واضحًا أمامه في نور الكلوب. في اللحظة التي كان يضغط

فيها على الزناد، انتبه الرجل الجالس أمام جمرات النار الصافية، فصرخ، وعندها انطلق الرصاص.

رأى «رشدان» يسقط على وجهه، قبل أن يتراجع نحو الزراعات، وملأت أذنيه فرقعات بنادق الخفر وصياحهم. توزعوا في سرعة خاطفة وراء البيت، وسمع مَن يقول لهم: الرصاص جاء من النافذة.

مدوا أبصارهم فرأوا شبحًا يجري، نحو زارعات القصب، فأطلقوا الرصاص غزيرًا، فاستقرت إحداها في فخذ «سيف»، فابنجس الدم، واندلع الألم، وهو يحاول جاهدًا أن يرفع قدميه، حتى تمكن من دخول الزراعات، يقفز على ساق واحدة.

كانوا قد اقتربوا منه، فاستدار قليلًا، وجلس القرفصاء، يغالب الوجع. مد بندقيته ليطلق الرصاص عليهم فيتراجعون، لكن لم تكن في الخزنة سوى رصاصة واحدة. سحب الترباس ليطلقها، لكن خانته يداه، اللتان كانتا ترتخيان في وهن، بينما الرؤية تغيم أمام ناظريه.

لاذ بالصمت، كاتمًا تأوهات جارحة كانت تريد أن تخرج. كان الدم ينزف غزيرًا، والظلام يتكاثف أمام عينيه الغائمتين. رفع جلبابه، وتحسس موضع الجرح. نزع شاله الأبيض، وربط فخذه بشدة، ليتوقف الدم. حاول الوقوف ليكمل الهرب، لكنه شعر بهبوط حاد يكتسح جسده، فلم يقوَ على السير. صدته أعواد القصب المتكاثفة، فسقط مكانه، دون أن يقدر هذه المرة على كتم آهة خرجت منه فجأة، فاستدل الخفر على مكانه، وأمسكوا به.

رفعوه في عنف، فصرخ فيهم: اتركوني يا أولاد الكلب. ضربه أحدهم بدبشك البندقية في ظهره، وسحب الآخر كوفيته، وربط يديه، وشدوه يعرج حتى بلغ السلاملك.

كان أهل القرية قد تجمعوا عند بيت العمدة، يتبادلون الحديث عما جرى. فرأوا الخفر وهم يسحبون «سيف» نحوهم. حين وصل إلى الحشد، صرخ قائلًا: أريد أن أقول شيئًا للناس. لم يمهلوه، ودفعوه بقوة حتى كاد يسقط على وجهه. لكن أحد الواقفين، وكان من عجائز «الجوابر»، قال: اتركوه، فربما يبلغنا عمن حرضه على قتل العمدة.

رموه على الأرض، والتف الناس حوله مادين آذانهم ليسمعوه، فقال: سأقول كل شيء، حين تحضر خادمة الزاوية. فأرسلوا أحدهم مسرعًا ليحضرها. لم يخبرها بشيء، فجاءت تلهث خائفة، وهي تظن أن العمدة هو مَن طلبها. أوسعوا لها بين أجسادهم، فرأت «سيف» ممددًا أمامهم يتوجع. ضربت يدها بصدرها، وسألت في لهفة: ماذا جرى؟

أجابها أحد الخفراء وهو ينظر إلى «سيف» في اشمئزاز: هذا الخسيس قتل العمدة.

سألت من جديد: قتله أم أصابه؟

رد أحدهم: الرجل مات، وشبع موتًا.

نظر إليها «سيف» في تودد، وقال: أريد أن أقابل ربي، بعد أن ترفعي عني ظلمي.

تطلع إليها الناس متعجبين، فسألته: أي ظلم؟

- ادعاؤك أنني اعتديت عليك عند الزاوية.

تلفتت حولها، وقالت: لم أرَ منك شيئًا يسوء، لكنني أُجبرت على اتهامك.

وسألها شيخ الخفر: مَن أجبركِ يا مخبولة؟

صمتت برهة، وقالت: العمدة.

مد عجوز «الجوابر» رأسه، وسألها في غيظ: وما الذي يفيد العمدة مما جرى؟

تنهدت، وقالت: كان يريد أن يطرد «سيف» من القرية، ويسيء إلى الست «عبلة».

رفع «سيف» يده طالبًا الحديث، فصمت المتحلقون حوله، وقال للخادمة: أنتِ تعرفين مَن زعم أنني قد مسست ثوب السيدة «عبلة».

رفعت وجهها، وقالت: حاشا لله، إنها أشرف من الشرف، وما قيل عنها أجبرني العمدة عليه.

نظر إليها الناس في اشمئزاز، وبصق أحدهم على وجهها، فقالت: أنا مغلوبة على أمري، وأنتم مثلي، ولو كان قد أمر أحدكم بإطلاق هذه الكذبة ما استطاع أن يخالفه.

جذبها أحدهم بقوة إلى الخلف، وقال لها: ارجعي مكانك.

وقال آخر: هل تتركون الشاب ينزف حتى يموت؟

فصرخ «رافع» في غضب: ثأرنا عنده، ولا بد من قتله الآن.

لكن شيخ الخفر، تدخل في حسم: من مصلحتنا ألا يجده البوليس جثة هامدة.

عاد «رافع» يصرخ: القاتل يُقتل، هذا أمر لا جدال فيه.

أمسك شيخ الخفر كتف «رافع»: اهدأ يا سيدنا، الثأر لا يُؤخذ من عاجز.

ووصل الخبر إلى السرايا، بينما كانت «عبلة» تصارع الأرق، مهمومة بما آلت إليه حال «صابر» الذي لم يكف العيال عن مضايقته. أبلغتها الخادمة، وهي تعتذر، فقالت لها: خبر مثل هذا لا يجب أن ينتظر حتى الصباح. وطلبت منها أن تبلغ الحارس الجديد بتجهيز الدوكار، فلما وصل إلى الحشد، قال أحد الواقفين: جاءتنا العفيفة الشريفة. وكانت أول مرة تسمع أحدًا يناديها بما هو مُسلَّم به. أفسحوا لها الطريق، فألقت نظرة على «سيف» وقالت: لا بد من نقله إلى المستشفى.

قال عجوز «الجوابر» غاضبًا: إنه مجرم، قتل العمدة، ونخاف أن يهرب.

طمأنه شيخ الخفر: يجب أن يبقى حيًّا، على الأقل حتى يأتي الضابط، ويعترف أمامه.

وقال أحد الواقفين: يمكننا أن نخرج الرصاصة من فخذه هنا.

كانوا معتادين مثل هذه الحوادث، فهزوا رؤوسهم موافقين. دفنوا سكينًا في المجمرة التي كانت لا تزال ترسل لهبها الأزرق في قلب السلاملك. حملوه، ووضعوه على كنبة جانبية في صالة البيت. تقدم أحدهم، وكان بارعًا في هذا، ونظر إلى «سيف» قائلًا: لولا ما قاله شيخ الخفر، لتركنا الرصاصة تأكل حياتك. وغرس السكين، فصرخ «سيف» عاليًا، ودار فزعه وألمه في الشوارع كلها، حتى تململت قلة كانت لا تزال غاطسة في نومها، فهب بعضهم مذعورين. أمسك شيخ الخفر بالمقذوف الغارق في الدم، قلَّبه في يده، ثم لفه في منديل من قماش، ووضعه في جيبه.

وكانت خادمة الزاوية لا تزال واقفة على طرف الحشد، فدخلت إلى السلاملك حيث تجلس «عبلة»، وقبلت رأسها وهي تبكي: سامحيني يا ست.

نظرت إليها متعجبة، وسألتها: على أي شيء؟

طأطأت رأسها، وقالت: على ما قلته في حقك.

رفعت وجهها إليها، وقالت: لا أعرف عن ماذا تتحدثين.

أدركت الخادمة أن السيدة لم يبلغها ما خاض فيه الناس. صمتت، ونظرت في وجوه الحاضرين، وقالت: لا شيء.. لا شيء.

ثم انسحبت إلى الخلف، تاركة إياها تنظر إلى «سيف» في شفقة، وهو يتصبب عرقًا، رغم برودة الهواء، الذي يتدفق من النافذة. اقتربت منه، وسألته: لم يكن العقاب على قدر الجرم، فالكلام يواجه بالكلام، وليس بالرصاص.

رمى بصره إلى الحاضرين، وقال بصوت واهن: أريد سيدتنا على انفراد.

أشارت إلى الواقفين أن ينصرفوا، فلمَّا اطمأن إلى خروجهم، قال لها: يدافع الابن عن عِرض أمه.

لم تفهم قصده، فتنهد في حرقة، وبلع ريقه، وكان قاسيًا كعصا قدحتها الشمس سنينًا. حكى لها ما جرى، وهو يلهث من فرط التعب. كان يُبعد ناظريه عن عينيها، وهي متسعة الحدقتين اندهاشًا وغضبًا؛ لأن العمدة جرؤ على هذه الفِرية، ولأن هذا كان يدور على الألسنة دون أن يبلغها.

قالت له: لا تشغل بالك، المهم أن تتعافى.

رفت على شفتيه المقددتين ابتسامة، وقال: لو لم أفعل هذا، ما أخرست الألسنة. عرف الناس كل شيء، وهذا ثمن بسيط، يدفعه ابن لأمه.

نهضت، وطلبت شيخ الخفر، فجاء مسرعًا. قالت له: نأخذه في الدوكار إلى المستشفى.

وهمَّ أن ينطق، فقال «سيف»: لا داعي لهذا، أنا بخير.

وقال شيخ الخفر: ليست المرة الأولى التي نخرج الرصاص من أجساد الرجال، وينهضوا سالمين.

نظرت إليه، وسألته، وهي تشير إلى «سيف»: أخشى أن يؤذيه أحد من أهلي.

حرك شيخ الخفر رأسه يمنة ويسرة، وقال: سأتحفظ عليه إلى أن يأتي ضابط القسم في الصباح، وسأجعل الخفر يحرسونه، ولن يدخل عليه أحد.

صمتت برهة، وقالت: أنا سأبقى هنا حتى الصباح.

بلع ريقه، وقال: لا داعي لتعبك يا ست، الأمر لا يستحق.

ألقت نظرة على «سيف» وقالت: هذا أقل ما أقدمه له.

كان شيخ الخفر، قد أمر بأن تترك جثة العمدة مكانها، ليعاين البوليس الجريمة كما وقعت. أغلق باب السلاملك حتى لا يراها الناس على حالها هذه، وألقى فوقه ملاءة بيضاء، وهو ينظر إلى بقعة الدم المنداحة حوله، ورأسه الخامد الملقى فيها، وقال في سره: تُخرب البيوت في ثانية.

(24)

لم يحزن على موت العمدة أحد أكثر من «قطاوي». عاد بصحبة ابنه «ليشع» إلى «الجابرية» بعد خمسة أيام من الحادثة، فلمَّا عرف، جلس في السلاملك يجهش ببكاء حار، تائهًا في أسئلة يعجز ذهنه عن إجابتها من هول الصدمة. كان قد عوَّل على طمع الراحل وجبروته في اتساع مشروعهما، ليصبح الأكبر في الصعيد كله.

اقترب منه «ليشع»، وهمس في أذنه: مصيبة وحلت على رؤوسنا.

كفكف دموعه، وقال: لم تكن على البال ولا الخاطر.

وسأله وهو يتلفت حوله: البكاء للنساء، أما أصحاب المال فعليهم التفكير فيما هو آت.

هز رأسه، وقال: هذا ما يبكيني.

وكان هناك خفير واقفًا بالباب، فقال له: أريد أن أرى «بهاء».

كان «قطاوي» يعرف أن «رافع» لم يهتم سوى بالهروب من قرية يحمل فيها عار أمه المجذوبة، فلم ينشغل بالمصانع ولا الأرض. والعمدة لم يشرك ابنه «بهاء» في شيء، تركه للفراغ يأكله، لا يعرف من الدنيا سوى اللهو، ولا يعرف كيف يكسب المال، إنما كيف ينفق على الملذات، وكان بعض الناس يتحدثون عن ميله إلى مواقعة الأطفال، لا سيما من أبناء الخادمات. رغم هذا فإن أمه تدلله، حتى إنها دافعت عنه حين ترك المدرسة، وقالت: المدارس لطالبي الوظائف.

كان «رشدان» لا يقدر على مواجهتها، فترك لها الأمر، واستسلم لقولها: سيكون العمدة بعد عينك، أطال الله عمرك. لكنه لم يُعده لهذه المهمة. انشغل عنه بالمكائد والأرض، ثم بالمشروع الجديد. لم يقدم له في يوم نصيحة، ولم يعاقبه على شكوى جاءته من آباء أقرانه وأمهاتهم، وتغاضى عما سمعه عن انحراف ميوله. لم يرَ فيه سوى جسد ينمو، وعقل واقف مكانه، ووجدان عامر بالخراب. كان يعتقد أن الوقت ملكه، وستأتي الفرصة التي يجذبه فيها إلى معترك الحياة. وحين كان الطاعنون في السن يحكون له عن «زاهر»، محذرين إياه من أن يترك ابنه يسير على درب اللهو، كان يقول لهم: لست مشلولًا كما كان الوجيه.

كان «ليشع» يعرف الكثير عن «بهاء» فهو في مثل سنه، وطالما صاحبه إلى البندر، يتنعم من إغداقه عليه بلا حساب، وكان «رافع» يصاحبهما أحيانًا.

اقترب «ليشع» من أبيه، وقال له: أرى موت العمدة فرصة لا يجب تضييعها.

نظر إليه في جزع، وسأله: أي فرصة يا مجنون؟

ابتسم، ثم تلفت حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يسمعه، وقال: الوارث لا يعرف شيئًا عن المشروع، ولن يحاسبك بالمليم كما كان يفعل أبوه.

نظر «قطاوي» إلى ابنه في غيظ، وقال: أنت تحسبها من طرف واحد. ثم تنهد في توجع، وقال: سنفقد جبروت العمدة الذي كان يخيف الناس فيشتري منهم المحاصيل التي تحتاجها عصارة القصب والطاحونة ومصنع الجبن والقشدة، بأثمان قليلة.

لاذ «ليشع» بالصمت يفكر فيما سمعه من أبيه، فواصل الأخير: كان أيضًا يصد عنا الطامعين.

سأله «ليشع» إن كان يقدر على التدخل لتذهب العمدية إلى «بهاء»، ويقفان هما خلفه، يحركانه كما شاءوا، فابتسم وأجابه: ولد مستهتر لا يملأ عين أحد.

ضحك «ليشع» وقال: ضعفه سيكون لصالحنا. أنا أعرف عنه الكثير. ثم تزحزح، حتى التصق به، وقال: علينا استغلال تعاطف

الناس مع «بهاء» لما جرى لأبيه، ونطلب له ما نريد. فغمس «قطاوي» إصبعه في فخذ ابنه، وقال: يبدو أنك لا تعرف كل ما يدور في هذه القرية الملعونة من حكايات مسكونة بالأحقاد والتربص.

(25)

يأتي القدر بما لم يكن في الحسبان، ويطيح أحيانًا بقلاع الشر. يرفع الطيبون أكف الضراعة إلى السماء طالبين منها التدخل، لكن أين من بينهم هؤلاء الذين يخلصون في الطلب فتُستجاب دعوتهم. في أغلب الأوقات يُرَد الناس خائبين، بعضهم يدرك أن إخلاصه ليس كافيًا، وبعضهم يظن أن السماء قد ابتعدت رغم أنه يراها كلما رفع رأسه عاليًا.

يدب اليأس في نفوس المتواكلين، أما المتوكلون فيدركون أن الله قد منحهم القدرة على أن يبددوا القبيح بالجميل، والرديء بالحسن، والشر بالخير، وعليهم أن يغوصوا عميقًا في أنفسهم، ليفجروا الطاقة الكامنة المهملة، يسحبونها على مهل، لتطفو على السطوح الباردة المتبلدة، وتطمر تحتها الانسحاب والاستسلام، وكلما أراد أن يطل برأسه البليد، دفعته الهمم المتوثبة إلى أسفل.

كان «ناجي» من بين الذين يرجون من السماء، ويدبون بأقدامهم على الأرض، ليشقوا مسارب لهم يمضون فيها هادئين، دون أن تفارقهم اليقظة من رؤوس الأفاعي، وأنياب الضواري، التي تندفع من الجانبين باحثة عن فريسة.

آمن بضرورة أن يعمل دومًا على ما يحرم النفوس الشريرة من القدرة على الفعل، وتنخلع أوتادها من الأرض، وتضربها العواصف بعيدًا، لتُدق مكانها أوتاد جديدة، تمكن الساعين وراء العدل والحرية من الثبات في وجه الذين يمشون على الأرض متثاقلين بالغرور والبطش والاستباحة.

كان له زميل ثالث، غير هذا الذي برع في التحقيق بعد أن تعلم من الفقه فنون المحاورة والمداورة وانتزاع الحقيقة من أفواه المراوغين، ومَن يجيدون فن الكتمان. زميله هذا كان ابن حاكم المديرية، ليس في رأسه علم راسخ، لكن في لسانه قدرة عجيبة على كسب القلوب.

فاتحه في شأن العمدية، بعد أن أوصته «عبلة» بأن يسعى على دربها لأحد غير «رشدان»، لكنه عاد إليه بعد يومين، ليقول: له سند كبير في «القاهرة»، لا قبل لأبي به.

فلما مات «رشدان» عاد إليه، وفاتحه من جديد، فابتسم، وقال: الآن يمكن لأبي أن ينفعك.

سأله عن «محبوب»، فوصف له حاله جيدًا. صمت، وقال: نسبه وصفاته ترجح كفته، لكن عليه أن يستوفي الشروط.

وكان من الشروط أن يكون صاحب أملاك، وله دار تصلح مقرًّا للعمدية. فعاد «ناجي» إلى «عبلة» بما عليهما تدبيره. أنصتت إليه جيدًا، وقالت: له ورث مما تركه أبوه، ويمكننا إصلاح بيت «نبوية»، الذي عاد متهالكًا، تكاد جدرانه تنقض، لكنه متسع الأرجاء. فكر قليلًا، وقال: نهدمه ونُعيد بناءه.

أصر «محبوب» على التنازل عن جزء من حقه لأخيه «صابر» لقاء ثمن بناء البيت. وفي اليوم التالي ضُربت الفؤوس والأزاميل في الجدران القديمة، فتهاوت صريعة، ورُفعت الأنقاض على ظهور الحمير. جيء بالأحجار والبلاط وألواح الخشب، وانهمك أربعة بناءين في إقامة جدران جديدة. لم تمر سوى أربعين يومًا، حتى تهيأ المكان للعمدة الجديد.

وبينما كان البيت يُبنى، اختار «ناجي» لابن عمه أحد معلمي المدرسة، ليواصل محو أميته، بعد أن كان قد أهملها في غمرة الأحداث المتلاحقة. ضحك «محبوب» وقتها، وقال: التعليم في الكبر كالنقش في الحجر.

لكنه شجعه، وقال: لا يليق بالعمدة أن يجهل القراءة والكتابة.

وخصص «ناجي» أيام إجازته الأسبوعية لإعطاء دروس لـ «محبوب». كان يُجلسه أمامه، ويشرح له مسائل في الفقه، ويقص على سمعه طرفًا من تاريخ مصر، وما تعلمه منفردًا من شؤون السياسة وطبائع البشر. وأظهر «محبوب» قدرة عجيبة على الاستيعاب والفهم، وشرح الله صدره للعلم، حتى قال لأخيه: أتعلم العوم، وأنتظر يوم أن أسبح في النهر وحدي. فطن إلى ما يريد، فقال له: حين تتمكن من تعلم القراءة، سأختار لك مجموعة من الكتب.

كتمت السرايا خبر السعي وراء العمدية عن أهل القرية، حتى يكتمل بناء البيت، ويأتي الأمر من أعلى بتعيين «محبوب» عمدة «الجابرية». وبينما كان «محبوب» يَجد في البحث عن عروس تناسب

مقامه الجديد، كان «قطاوي» يحاول إقناع «بهاء» بقبول مكان أبيه، لكنه كان يرفض ويقول: لا أريد هذا الهم الثقيل. أنا خُلقت للبهجة، وليس للفصل في سرقة دجاجة أو عنزة أو زحزحة فلاح حد أرضه إلى أرض جاره.

وحين ضيَّق الخناق عليه اشتكى لأمه، فقالت بلهجة صارمة: العمدية لم تجعل جده كبير القرية في وجود الوجيه.

وقهقه «بهاء»، ونظر طويلًا في عيني «قطاوي»، وقال: اسعَ لي في الحصول على البهوية، هذه أرفع وأجدى.

– لا بأس، طالما أنت تريد هذا، لكنها قد تكلفك الكثير.

– ما خُلق المال إلا للأبَّهة والمتعة.

– نحسب أرباحك في نهاية العام، وندفع لمَن في القصر في سبيل ما تريد.

وكان «محمود» قد ذهب إلى «بهاء» بعد مرور أربعين يومًا على وفاة «رشدان»، لعله يجد عند الابن إنصافًا، فصرخ في وجهه، وقال: ما أعرفه أنك بعت نصيبك، وانتهى الأمر.

قال له في تودد: لم أبع، وأمك و«قطاوي» يعرفان الحقيقة.

نظر إليه ساخرًا وقال: لا يريان إلا ما أرى.

ارتفع صوته، وقال له في حدة: إن لم تعطني حقي باختيارك، سآخذه رغمًا عنك.

هب «بهاء» واقفًا، وهو يشير نحو الباب ليطرده، وقال: القانون لا يحمي المغفلين.

فانصرف، وهو يقول بصوت خفيض: جار الزمان عليَّ حتى سبني «بتاع العيال».

(26)

عرضت «عبلة» الزواج على ابنها «ناجي» غير مرة، فكان يتذرع بأسباب واهية. كانت تعرف أنه لا توجد في القرية مَن تناسبه، فسألته ذات ليلة: ألم تقع عينك على أي بنت في البندر؟

- شغلني النظر في لكتب.

- ألا توجد أخت زميل لك تناسبك؟

- هناك واحدة، لكنها لا تريد العيش في الريف.

دق قلبها سريعًا، فهي تخشى أن يفارقها إن صارت له في البندر زوجة وأولاد، وهي التي تعبت من الوحدة أيام هروب «جعفر»، وانشغال «عمر» بشؤون العمدية. قالت له في ثقة: لن أعدم حيلة في إيجاد مَن تليق بك.

- أعتقد أن هذا من مسؤوليتي أنا.

- القرار النهائي سيكون لك، فاتركني ألعب دور الخاطبة مرة أخرى في حياتي.

وكانت قد وجدت لـ «محبوب» فتاة جميلة طيبة اسمها «عطيات»، هـي ابنة أحد عُمد القـرى المجاورة. كلَّفـت أولاد «أم الخير» بتقصي أخبارهـا، فجمعـوا لها كل واردة وشـاردة عنها، فذهبـت ذات ليلة مع «محبوب» و«ناجي» لخطبتها، وعادت بموافقة مبدئية من أبيها.

نظـر إليها «ناجي» فـي امتنان، وقـال: تنتظرك مرة ثالثـة حين يكبر «صابر».

تاهـت قليـلًا، وعادت تقول: هذا إن كنـت لا أزال في هذه الدنيا.. كما أن «صابر» يصر على الذهاب إلى الأزهر.

وكان «ناجـي» لا يتصـور الحياة مـن دونها، فنهض وقبَّل رأسـها، وقال: أطال الله في عمرك.

ولـم يمر على زواج «محبوب» من «عطيات» سـوى شـهر واحد، حتى جاء القرار بتعيينه عمدة «الجابرية»، فانتقل إلى بيته السـلاحليك والخفـر وبيت العدة والكربـاج، واصطف الفلاحـون مهنئين، راجين من الله أن يروا على يده العدل والسكينة.

(27)

لـم يطق «قطاوي» لهو «بهاء» ونزقه. نصحـه مرات بأن يلتفت إلى ما يفيده، حين رآه وهو يعرض عليه سـير مشـروعهم غير مهتم إلا بما يجنيـه مـن أرباح، ليخطف نصيبـه منها، وينفقه بلا حسـاب. اختلى به ذات يوم، وقال له: مَن لم يراعِ أكل عيشه ضيعه من يده.

نظر إليه في استهانة، وقال: هل حدث مكروه؟

نظر إليه في غيظ، وقال: يبدو أنك لا تدري بما يجري.

وشرح له كيف كان أبوه يدبر احتياجات المصانع من القصب وبذور القطن والقمح والألبان بأسعار زهيدة، وكيف كان هذا يُضاعف الربح. ثم قال له: ترك أبوك فراغًا وعليك ملئه.

صرخ في وجهه سائلًا إياه: هل تريدني أن أدور على بيوت الفلاحين لأجمع لك ما تريد؟

ابتسم، كاتمًا غيظه، وقال: كان الناس هم مَن يأتون إلى أبيك.

في اليوم التالي ركب الدوكار، وجاب بنفسه على بيوت القرية والغيطان، مطالبًا الفلاحين بأن يجتمعوا في السلاملك بعد العشاء. لم تستجب إلا قلة منهم. جلسوا إليه متطلعين إلى ما يطلبه. عرض عليهم الأسعار التي حددها «قطاوي» فقال أحدهم: هذه أسعار لا تناسبنا.

وقال آخر: كفانا البيع بالخسارة سنوات طويلة.

وقال ثالث: نحرث ونزرع ونسقي ونعزق ونحصد شهورًا، وما تعرضه لا يساوي كل هذا.

صرخ فيهم: ما أمرت به سينفذ، ولن أسمح لكم ببيع عود قصب واحد، ولا حبة قمح لغريب.

تبادلوا النظرات، ولاذوا بالصمت. تركوه يرغي ويزبد وآذانهم صماء عما يسمعون، وخرج غير «الجوابر» منهم قاصدين بيت «محبوب»، أبلغوه بما جرى، وقال أحدهم: جئنا إليك طالبين الإنصاف.

هز رأسه، وقال في ثقة: لن يضام أحد منكم، طالما أنا على قيد الحياة.

ووصل ما جرى لسمع «قطاوي»، فغافل «بهاء» وذهب قبيل المغرب إلى السلاملك الجديد. تطلع إلى العمدة صامتًا، فتركه يتعثر دقائق في الكلام المحبوس في رأسه، ثم باغته: وراء زيارتك هذه أمر، أنا أعرفه.

تزحزج في مكانه، ثم قال للعمدة في تودد: أنت لا ترضيك الخسارة.

ابتسم ساخرًا، وسأله: خسارة أم ربح أقل؟

انغرس السؤال في رأسه كشوكة حادة، وأجاب: لم يكن الربح كثيرًا أيام «رشدان»، ولولا خراب بيوت عمال المصانع لصفيتها ورحلت.

- أقرب طريق لحل المشكلات هو الصدق.

- أنا لا أكذب عليك يا عمدة.

- لا أطالبك بأن تطلعني على دفتر الحسابات، لكن أطلب منك ألا تظلم الغلابة.

وكان «قطاوي» قد دبر أمرًا في رأسه، فقال: سيكون الدفتر بين يديك إن قبلت ما سأعرضه عليك.

نظر إليه صامتًا، ثم هز يده ليشجعه على التصريح بما يريد، فتنحنح، وقال: سيكون أمرًا طيبًا أن تشارك في المشروع.

- ليس لي مال لأشاركك.

- تدخل معنا بالعُشر، وتسدد أصل رأس المال تباعًا من أرباحك.

وفطن «محبوب» إلى ما يفكر فيه «قطاوي» فقال له: ليس لدي وقت لهذا.

- أنا أملك واحدًا وخمسين في المائة، تعطيني حق الإدارة، ولن أشغلك في شيء.

جرى في رأس «محبوب» كل ما شرحه له «ناجي» عن أكل السحت، وبيع الغرر، فقال له: الحرام لا ينفع.

كان «قطاوي» قد زحزح عجيزته إلى حافة الكنبة، فتراجع في مكانه، وقال بصوت خفيض: لم نسرق أحدًا يا عمدة.

رد عليه بصوت حاد: الأثمان الزهيدة التي كان يدفعها «رشدان»، لعنة الله عليه، هي عين السرقة.

امتقع وجه «قطاوي» وقال: طالما نصحته بألا يبخس السعر، لكنه كان يؤكد لي أنهم راضون.

- رضا المقهور ليس برضا.

ووقف «محبوب» فأدرك «قطاوي» أن عليه الانصراف. لكنه لم يقطع الأمل في أن يفكر العمدة فيما عرضه عليه، فقال: وجودك معنا، سيضبط كل شيء، ولنفتح صفحة جديدة.

ودعه «محبوب» قائلًا: يفعل الله ما يشاء.

فاتح «عبلة» فيما عرضه عليه «قطاوي»، فتهلل وجهها، وقالت: لا تضيع الفرصة. اتسعت عيناه اندهاشًا، وقال لها: حسبتك سترفضين دون نقاش يا هانم. ابتسمت، وقالت: طالما فكرت في أن ينتهي هذا المشروع في يدنا، ولم أكن أعرف كيف أنفذ إليه. وتطلع إليها ليعرف ما في رأسها، فقالت: يذكرني بهاء بأخي زاهر ومثله سيبيع نصيبه تباعًا لينفق على ملذاته، وبدلًا من أن يأخذه الغريب، فنحن أولى.

(28)

استيقظت القرية ذات صباح على جلبة عارمة. خرج الفلاحون من بيوتهم مسرعين. تزاحموا على الجسر، ومدوا أعناقهم إلى عربات تتراص فوقها عوارض خشبية متينة، وأخرى تحمل قضبانًا حديدية. أخرى محملة بالزلط والبازلت والرمل. توزع عمال بلباس أزرق، وفي أيديهم مفكات سميكة، ينصتون جيدًا إلى ثلاثة من المهندسين، أحدهم يرطن بالإنجليزية، ويتولى الاثنان ترجمة ما يقول إلى آذان السامعين.

فتحت «عبلة» النافذة، فرأت أمامها مشهدًا لم تقع عليه عيناها من قبل. سألت الخادمة، فقالت لها: وصلت السكة الحديد إلى «الجابرية».

سرت في وجهها بهجة غامرة، وقالت: ضاقت المسافة بيني وبين «ناجي».

لم تكن تدري وقتها أن المسافة ستكون صفرًا، بفعل الأشرار الموجودين في كل مكان وزمان ومهنة، لا يشغلهم أولئك الذين يدوسون عليهم في سعيهم إلى ما يحقق منافعهم.

(29)

كان «ناجي» يسير على الدرب الذي قطعه قبله جداه «محفوظ» و«محمد». أزهري مختلف، تآلف في نفسه الطموح والرغبة في التميز مع ميل إلى المشاكسة ورثه عن السابقين. طالما شكا إلى أمه مما يواجهه في عمله، فكانت توصيه دومًا بأن يفعل ما يقتنع به، دون تردد ولا خوف، وتقول: أبوك ترك كل شيء، وسار خلف نداء بعيد.

كان فخورًا بأبيه، حكى عنه كثيرًا لزملائه في الأزهر، وواصل الحكايات خلال عمله بالقضاء الشرعي، واختمرت الحكاية في رأسه إلى درجة أنه فكر في أن يكتبها، ويخلط فيها تصوره عن الجهاد في سبيل الوطن والحرية، ومقاومة الظلم الذي يُثقل كاهل الناس. وجعله تأثره بما حاق بأبيه من ظلم يتحرى الدقة في كل أحكامه، غير ناظر إلى شيء غير الدلائل والقرائن الدامغة التي تقدمها كل حادثة أو واقعة في حد ذاتها، ثم يبحث في الشرع عما يصلح لإصدار قراره، فيقضي فيها بما استقر في يقينه، ولا يشغله مَن يكون أمامه من أصحاب المخالفات والجُنح والجرائم، كبيرًا كان أم صغيرًا، غنيًّا أو فقيرًا، صاحب عزوة أو مقطوعًا من شجرة.

كان زملاؤه ينصحونه كثيرًا بألا يهمل مقامات الناس، فكان يقول لهم: المقام الأسمى عندي هو البراءة. جلب له هذا متاعب جمة، لكنه واجهها بعزم وصبر لا يلين. أدرك رؤساؤه هذا فكانوا يُبعدونه عن نظر قضايا يريدون لها أن تمضي في غير طريق العدالة؛ لأن أصحابها ذوي

سلطان وجاه. ومع الأيام أدرك «ناجي» أنه مستبعد، لتمرده على أن يكون مجرد موظف يستوفي أوراق المتنازعين.

استدعاه ذات يوم رئيسه في العمل، وقال له: طالني أذى كثير من ورائك.

نظر إليه متعجبًا، وسأله: أي أذى يطال مَن يقضي بالعدل؟

نفخ متضجرًا، وأجابه: أذى كبار لا قبل لنا بهم.

ابتسم «ناجي» وقال في ثبات: لا يستطيع أي من هؤلاء أن يجلب لنا نفعًا ولا ضُرًّا يوم المحشر العظيم.

قلَّب الرجل أوراقًا أمامه في سرعة، ليغلب الضيق الشديد الذي سرى في أوصاله، وقال: في الشرع اتساع لمَن أراد ألا يثير المشكلات.

فطِن «ناجي» إلى ما يقصده، فقال له: في حقوق الله مسامحة، وفي حقوق العباد مشاححة.

رفع وجهه إليه غاضبًا، وقال: لا يُضيِّع الناس إلا الانسياق وراء العبارات المسجوعة الفارغة.

قابل «ناجي» الغضب بغضب أشد، واحتد صوته: قواعد الفقه ليست كلامًا فارغًا.

رماه بنظرة ساخرة، وقال: كأننا لم ندرس الفقه أيام كنت صغيرًا تبول في سروالك.

ضايقه ما سمع، فضرب حافة المكتب بقبضة يده، وقال: الويل لمَن يعرف ولا يعمل بما عرف.

نهض الرجل من فرط الحنق، وقال له: سأحيلك إلى التحقيق لتعرف كيف تخاطب رؤساءك.

منذ ذلك اليوم تعكر صفو العلاقة بينهما، وسكنتها الإحن والمكائد، فراح الرجل يعد سرًّا التقرير تلو أخيه ليثبت أن «ناجي» لا يصلح لمهمة القضاء الشرعي، ويطلب ممن هم أعلى منه أن ينقلوه إلى وظيفة أخرى.

انتهز فرصة قضية منظورة أمام «ناجي» كان طرفها أحد أبناء البشاوات، أقامت زوجته التي تنتمي إلى أسرة فقيرة دعوى ضده. كانت القضية قد حلَّت أمام رئيس «ناجي» في العمل، وحين أعمل فيها الشرع والعرف والعقل، وجد أن الحكم فيها سيصدر ضد ابن الباشا. ورغم أن قضايا الكبار كانت تُبعد عن «ناجي» أحال الرجل هذه القضية إليه، وعوَّل عليها أن تقصم ظهره، بعد أن عرف من مطالعة أوراقها أن الحكم سيصدر لصالح الزوجة.

زار الرجل الباشا في قصره، وقال له: يؤسفني أن أبلغكم أن القاضي الذي ينظر في اتهام ابنك متحجر، لا يريد إلا أن يدينه.

ابتسم الباشا، وقال: بوسعك أن تسندها إلى قاضٍ آخر.

بلع ريقه، وقال: سيكون هذا صعبًا، وأخشى إن فعلت، أن يُرفع الأمر إلى مَن هم أعلى مني.

– وما الحل إذن؟

– أنا طالبت بنقله إلى وظيفة أخرى، لكن لم يستجب لي حتى الآن.

– أخبرني أين استقر طلبك، واترك الأمر لي.

وفوجئ «ناجي» بصدور قرار بنقله إلى نظارة المعارف. استشاط غضبًا حتى كاد يمزق الورقة التي سلمها إياه الساعي. لكنه لم يلبث أن تمالك زمام نفسه، وقال لها: رُب ضارة نافعة. خرج، يلملم غضبه، إلى مديرية المعارف. كان حنقه يتساقط تحت قدميه وهو يخطو شاردًا فيما جرى، وما ينتظره في قابل الأيام. سكنت رأسه الآية القرآنية التي تقول: «وأنذر عشيرتك الأقربين»، فلمَّا بلغ مكتب المدير العام قال له: أريد أن يكون النقل إلى مدرسة «الجابرية».

أصدر المدير قرارًا بما طلب «ناجي» ليُمسي مدرسًا للغة العربية والتربية الدينية، وقال له وهو يسلمه القرار: مكان ناظر المدرسة سيشغر بعد شهور، فإن أخلصت في عملك فهذا مكانك.

(30)

استقبلت «عبلة» ما جرى لابنها بفرحة غامرة، وقالت له: رأيتك وأنت تستذكر دروس «صابر» وتُعلم «محبوب» كيف يصبح صاحب رأي سديد، فوجدتك لم تخلق لشيء في هذه الحياة أكثر من تربية الناس وتعليمهم.

ولم تكن تضنيه المهمة الجديدة التي ساقوه إليها، إنما الظلم الذي وقع عليه، فقال لها: يحزنني أن طريقي هذا لم يكن من اختياري.

ابتسمت، وربتت كتفه، وقالت: إن جاءك الغضب فاجعله جودة.

وسألته عما إذا كان قد رأى شيئًا جديدًا في طريقه إلى السرايا، فقال: رأيت عمال السكة الحديدية، لكن لم أشأ أن أحدثهم وأنا على حالتي هذه من الغضب والذهول.

(31)

لم يمضِ سوى أسبوع واحد على دخول «محبوب» شريكًا في المشروع الجديد، حتى توعك «قطاوي». خارت قواه، فأوصاه الطبيب بملازمة السرير في راحة طويلة، لكن قلقه على ماله جعله يغادر مخدعه دون أن يتعافى جسده، ووصل «الجابرية» لا تكاد تحمله ساقاه. كان يسعل، ويضع يده على صدره بين الفينة والأخرى، وتخرج الكلمات من فمه متقطعة، لكنها بينت ما يريده.

نظر إلى «محبوب»، وقال: جئت لأخبرك بإسناد الإدارة إلى ابني حتى أتعافى. أخرج العبارة، ثم اهتز جسده بعنف بعد أن اجتاحته نوبة سعال مجنونة، فنهض «محبوب»، ورفع دورق المياه الذي كان يحط على صينية إلى جوار أكواب الينسون، ومده إليه، فراح يسحب جرعات متلاحقة، والماء يسيل على صدره، ثم هدأت أنفاسه، ونظر إلى العمدة، وقال: اعذرني يا عمدة، النوبة هذه المرة شديدة.

نظر إليه بإشفاق، وقال: لم يكن هناك داعٍ لتتعب نفسك. ورآه يغتصب ابتسامة من قلب أوجاعه، فقال له: لو أنني أعلم ما أنت فيه لجئت أنا إليك. فتح حقيبة جلدية كالحة، وأخرج منها دفترًا، ونهض ليجلس إلى جوار «محبوب»، وقال: أُطلعك على الحسابات، لتعرف إلى أين وصلنا.

وكان «قطاوي» قد أرسل مَن يخبر ابنه أن يلحق به إلى بيت العمدة، فجاء وأبوه يغرس إصبعه في الدفتر، ويقول: هذه هي النفقات حتى نهاية الشهر الفائت. ثم نظر إلى «ليشع» ومد إليه الدفتر، وقال: واصل أنت عرض الحسابات على العمدة، وأخبره بما تحتاجه في الأيام القادمة.

هز العمدة رأسه، وسأل: أين شريكنا الثالث؟ أليس من الواجب أن يطلع على الدفتر أيضًا؟

رفت ابتسامة ساخرة على شفتي «قطاوي»، بينما طوح «ليشع» يده في الهواء، وقال: ينام مخمورًا في بيته.

نظر «قطاوي» إلى العمدة، وقال: تعبت من نصحه، لكن لا يسمع إلا صوت شيطانه، ويزيد في الشراب حتى يفقد الوعي.

كانا يعتقدان أن هذا الكلام سيُرضي «محبوب»، لكنهما فوجئا به يقول: مهما كان، فطالما أنه لا يزال شريكًا لنا فمن حقه أن يعرف كل شيء. وأغلق الدفتر، ورمى بصره إلى «قطاوي»، وقال: عليك أن تستريح، والبركة في ابنك، فهو ورث عنك الدقة والانتباه، فليأتِ في وقت آخر ومعه «بهاء»، لنراجع كل شيء، ونعرف ما تحتاجه المصانع وندبره.

لكـن «بهـاء» رفـض أن يذهـب إلـى السـلاملك الجديـد، وقـال: «محبـوب» له العُشـر فقـط، وهو مَن عليـه أن يأتي إلينا. رماه «ليشـع» بنظـرة ملؤهـا الغيـظ، وقال: كفاك طيشًـا، أبـي أدخله شـريكًا حتى لا تتسرب محاصيل الفلاحين من بين أيدينا، وتكون هذه المصانع مجرد قطع من حديد لا قيمة لها. فضرب ركبته بيده، ورد: أنا قادر على هذا، ولم نكن في حاجة إليه. رفَّت ابتسـامة سـاخرة على شـفتي «ليشـع»، وسأله: ألم تطرق البيوت طالبًا من الناس أن يأتوا، فلم تستجب سوى قلة؟ وحتى مَن اسـتجابوا خرجوا ليشـكوك للعمدة، ولولا أبي أدخله معنا، ما كان للمشكلة أن تُحل، بأقل الخسائر. فبصق، ونطق: سأؤدب هؤلاء الملاعين بعد البهوية.

تطلع إليه «ليشـع» في اسـتغراب، وقال: يبدو أنك تعتقد أن البهوية سـتطلق يدك. إنها شيء شـرفي إن فقدت شـرفك قد تفقده. ولم يجد «ليشع» طريقة ليجعل «بهاء» يصحبه إلى بيت «محبوب» سوى أن قال له: لنجارِ «محبوب» حتى تحصل على البهوية، وبعدها لها ألف حل.

وافق على مضض، وقال: أيام أثقل من الجبال.

(32)

كان علـى «ناجـي» أن يذهب إلى المدرسـة ليسـلم قـرار نقله إلى الناظر. لكن «عبلة» اسـتمهلته، وقالت: يمكن لهذا أن ينتظر إلى الغد، أما ما أريدك أن تراه الآن عن قرب فهي السكة الحديد.

ابتسم في فتور، وقال: رأيتها، لكن من بعيد.

– يبدو أنك قد نسيت ما كان يسعى وراءه المرحوم «عمر».

– أنستني هموم كثيرة.

– كان «عمر» يريد أن يوضع اسم القرية القديم على محطتها التي اقترب إنشاؤها.

– كيف أنسى أمرًا كهذا؟

– ألم يكن وجودك في القضاء يساعدنا أكثر على تحقيق هذا؟

– لم أترك القضاء إلا قبل يومين، وزميلي الذي ساعدنا على تنصيب «محبوب» عمدة لا يزال موجودًا.

تنهدت في حرقة، وقالت: أخشى أن يشتد الخلاف حول هذا الأمر، تُطلق فيه شتائم، وتُرفع شوم وسكاكين وبنادق.

انتبه إلى شيء آخر، وقال: ربما. ثم انتبه إلى شيء ثالث، وقال لها: عجيب أمرك، ألستِ من «الجوابر»؟

ابتسمت وقالت: بيني وبينهم حجاب لم يتبدد أبدًا، كما أن لي ولدين من الصوابر، أنجبتهما من رجلين منهم، واحد عشقته، والثاني عشقني، وبينما تنكر لي أهلي، مدا لي يد العون، وعملا ما في وسعهما لإرضائي.

– تسبقين زمانك يا أمي.

صمتت برهة، وسألته: ماذا عساك أن تفعل لو وقع بينك وبينهم شجار، وأنت ليس حولك رجال كُثر؟

ـ كنت قد أوصيت عمي بشيء، لكن القدر سبقنا، وعليَّ أن أبدأه الآن قبل الغد.

- أتذكر هذا، لكن ماذا تنوي بالضبط؟

- عائلتنا كبيرة كما تعرفين، لكنها تفرقت في البلاد.

- طالما سمعت هذا من أبيك وعمك.

- اكتفيا بالكلام، واجترار الأحزان على ما فات. أما أنا فلن أتكلم فقط.

- أتريد أن تبحث عن إبرة في كومة قش.

- كل الإبر ستأتيني دون أن أغادر مكاني إلا لرحلة واحدة.

- أي رحلة؟

أجابها، وهو ينظر إلى قطعة من السماء أطلت من النافذة: من «القاهرة» تكون البداية.

وشرح لها ما كان قد طرحه على عمه، فاستملحت الفكرة، وقالت: لكل جيل ما لا يخطر أحيانًا على بال العجائز.

(33)

تسلم «ناجي» عمله في المدرسة، وطلب من الناظر أسبوعًا إجازة، هو في حاجة ماسة إليه. خرج من عنده إلى عمال السكة الحديد. سأل أحد المهندسين عن الوقت الذي سيستغرقونه حتى تُنشأ محطة قريتهم، فأجابه: ليس أقل من شهر.

عاد إلى السرايا، وقال لأمه: لا بد من مناسبة أدعو أهلي إليها.

- تزاور الأهل لا يحتاج إلى سبب.

- يحتاج، إن كانت الفُرقة قد طالت.

- لن نجد مناسبة أفضل من زواجك.

- هذه ورطة وليست حلًّا.

اقتربت منه، وقالت: وجدت لك العروس المناسبة.

تطلع إليها مندهشًا، فقالت: ابنة الناظر.

- متى قابلتيها؟ وأين؟

- رأيتها في مكتبه، حين استدعاني لأمر يخص أخاك.

لم ينطق، فواصلت: بنت جميلة، اسمها «نوارة»، تجيد القراءة والكتابة، وأبوها رجل علم وخلوق، رقيق الحال لكنه عفيف النفس. هي وحيدته، ولها أخ، اسمه «طاهر» يدرس في الأزهر منذ سنوات.

واصل صمته، فقالت: نذهب الآن، ونفاتح أباها، وتراها قبل ذهابك إلى «القاهرة».

وما إن رأى «ناجي» العروس حتى انخطف قلبه، ومال على أمه هامسًا: ما أعظمك خاطبة!

ابتسمت، وقالت: صبرت ونلت يا بن بطني.

ابتهج الناظر لهذا النسب، وكذلك ابنته، التي ما إن اختلت بـ «ناجي» في بيت أبيها ساعة من الزمن، حتى راق لها حسن حديثه وهيأته، وشعرت بأنه الرجل الذي كانت تحلم به. حسب ومال وعلم.

قالت «عبلة»: خير البر عاجله.

قال الناظر: لا أحتاج إلى السؤال عنكم، لكن أريد بعض الوقت لأدبر حالي.

- أنت تأمر، وعلينا التنفيذ.

صمت الرجل متحيرًا، فقالت له: نحن جاهزون، وابنتك ابنتنا.

غادر «ناجي» إلى «القاهرة» كما لم يغادر من قبل. كان قلبه يرفرف فرحًا، وتسكن أذنيه ألحان عجيبة، تقع بين الترتيل والحداء والأهازيج. كان وجه «نوارة» ينطرح أمامه على صفحة الماء، حتى وصل إلى «أسيوط»، ومنها ركب القطار إلى «القاهرة»، فظل الوجه يطارده حين يراه مفروشًا أمامه على بساط الزرع، وفوق هامات النخل، وأغصان الشجر. يغيب، فيعصر رأسه ليأتيه، فتكتمل أمامه الملامح على مهل، فيقول لنفسه: حين تجود الحياة على المرء تهبه الجمال والسكينة.

كان قد صاغ الإعلان على مهل، قرأه مرات حتى حفظه، ثم نظر إلى الورقة طويلًا، قبل أن يدسها في جيبه، وقال: قد تجمع الحروف أشتات التائهين في البلاد، وبين العباد.

وكلَّما توقف القطار عند قرية، تطلع «ناجي» إلى اسمها المكتوب على لافتة تتوسط المحطة، ونظر إلى البيوت الخفيضة، وقال لنفسه: ما أدراني لعل واحدًا من أهلي يسكن هنا.

وصل إلى المحطة الأخيرة والليل على الأبواب. توجه على الفور إلى لوكاندة قريبة منها، وحجز مبيتًا لليلة واحدة. في الصباح قطع الشارع إلى جريدة «الأهرام»، فدفع أجر الإعلان، ثم ذهب إلى جريدة «المقطم». أخذ منه الموظف الورقة، وقرأها على مهل، وقال له: منذ متى لم تجتمع بأهلك؟

- لم أرهم أبدًا، افترقوا عنا منذ زمن بعيد.

- سأنشر إعلانك، لكني أنصحك بطريقة أقرب.

- إليَّ بها، ربنا يكرمك.

- أتعرف دار المحفوظات.

- أنا حاصل على العالمية من الأزهر، وذهبت إليها مرات.

- هناك ستجد مَن يساعدك على الوصول إلى ما تريد.

تطلع إليه الموظف بدار المحفوظات، ثم ألقى نظره على الأرفف والخزانات المحشوة بأوراق يكسوها التراب، وقال: لدينا سجل بالعائلات، لكن البحث فيه يستغرق وقتًا.

لف العمامة التي تحط على رأسه، يظهر منها الطربوش الأحمر الزاهي، وقال: اعتبرها مهمة خاصة.

ابتسم الموظف، وسأله: من أي البلاد هم؟

- ابدأ من «قنا» وحتى «المنيا».

زام الموظف، وهو يقول: أربع مديريات، إنه أمر شاق.

قال له «ناجي» متوددًا: سأساعدك، ولك الحلوان.

خلع الموظف طربوشه الأحمر، ونهض إلى الخزانات، وفتح واحدة منها، وأخرج ملفات مكدسة بالأوراق، التي أبلاها الزمن، وقال: علينا التحلي بالصبر حتى نعثر على «الصوابر».

ضحك «ناجي» وقال: يتفرق الناس في البلاد لأسباب شتى، لكن من الأصول أن يعرف المرء أهله.

سحب الموظف ورقة بيضاء وقلمًا. مدهما إلى «ناجي»، وقال: كلما وجدنا أحدهم، سجل اسمه وعنوانه.

اضطر «ناجي» إلى تمديد بقائه في «القاهرة». يستيقظ صباحًا ويقطع الشوارع مسرعًا إلى دار المحفوظات، فيجد الموظف في انتظاره، فيكملا البحث عن الضائعين في البلاد. في اليوم الرابع امتلأت ورقتان كاملتان بالأسماء والعناوين. راح يقرأها، وعلى وجهه فرحة غامرة. ثم دس يده في جيبه، وأخرج جنيهًا من الذهب، وقال للموظف: هذا حلوانك.

- لم أفعل سوى ما تطلبه وظيفتي.

- ليست رشوة على أي حال، إنما حلوان اهتدائي إلى أهلي.

مـد الموظـف يـده وأخـذ منـه الأوراق، ونظر فيهـا مليًّا، ثـم قال: يمكنك اختصار الطريق.

تطلـع إليـه وفـي عينيه سـؤال، فأجابـه: أرسـل إليهم خطابـات على عناوينهم، فربما هم أيضًا يبحثون عنك، ولا يعرفون كيف يصلون إليك.

قال، وهو يهز رأسـه مسـتملحًا الاقتـراح: أخطرتهـم بإعلانين في «الأهرام» و«المقطم».

مط الموظف شفتيه، وقال: لا تضمن أن يكون من بينهم مَن يواظب على قراءة الصحف.

قضـى «ناجـي» ليلته فـي اللوكاندة يكتـب الخطابـات إليهم. كان خطابًا واحدًا، ينسـخه، ويدسـه فـي ظرف، ويكتب عليـه العنوان. في الصبـاح سـلَّم الأظرف إلـى مكتب بريـد العتبة، وخرج يقول لنفسـه: زرعت وعليَّ انتظار الحصاد.

في طريقه إلى المحطة جلس على مقهى ليسـتريح. لفت انتباهه أن الناس يحتسون مشروبًا أحمر داكنًا من كوب زجاجي صغير. أشار إلى النادل فأتاه مسرعًا، همس في أذنه سائلًا، وهو يشير إلى كوب موضوع على طاولة أمام زبون ينظر إلى الشـارع في هدوء: أي مشـروب هذا؟ ابتسـم النادل وقال: شـاي. ظهـر تعجب على وجه «ناجـي»، وقبل أن يسأل، واصل النادل: مشروب جاء به الإنجليز من بلاد الهند.

شـرب الشاي فاسـتملحه، فلما انتهى الكوب طلب غيره، ثم سأل النادل: من أي مكان أشـتريه؟ فدله علـى محل بقالة في وجه المقهى،

فقام على الفور، واشترى بعضه، وهو يقول لنفسه: سيروق لـ «عبلة» إلى جانب «القهوة»، التي تفضلها.

كان قد دعا أهله لحضور زفافه. وحين عاد إلى «الجابرية» وجد ثلاثة رجال في انتظاره. كانوا أخوة يقطنون بندر «جرجا». أحدهم موظف في مديرية الري، والثاني مدرس رياضيات، والثالث موظف بنظارة الحقانية. احتضنوه تباعًا، وهم يحبسون الدموع.

قال المدرس: نعتذر أننا لم ننتظر الموعد الذي حددته في «الأهرام»، ورأينا أن من واجبنا أن نأتي مبكرًا، لعلك بحاجة إلينا في ترتيب عُرسك.

ردت «عبلة» في امتنان: هذا بيتكم، مفتوح لكم في أي وقت.

وحدثه المدرس عن أنهم تواصلوا مع أهلهم في إحدى قرى «المنيا»، كان قد تعرف عليهم من ابنهم الذي زامله أيام الجهادية.

قال موظف الحقانية: صغيرة الدنيا على اتساعها.

ابتسم «ناجي»، وأشار إليهم ليتبعوه إلى سطح السرايا. كان الواقف فوقه يرى بيوت القرية كلها. رفع يده وحركها يمينًا ويسارًا، وقال: هنا عاش أجدادنا قبل أن يتفرق شملهم.

ورمى بصره نحو الجبَّانة، وقال: قبورهم هناك، تنتظر عودة الغائبين.

قال موظف الري: يجب أن نزورها لنقرأ الفاتحة على أرواحهم الطاهرة.

مدَّ «ناجي» إصبعه إلى الزرع، وقال: لنا أرض، كانت وسيعة، لكن ما بقي منها ليس بالقليل.

وانجلى أمامهم شريط السكة الحديدية، حيث يميل العمال على العوارض يثبتونها، فقال «ناجي»: لم يبقَ إلا وقت قليل، وتضيق بيننا المسافات.

تبادلوا الحديث مقلبين أوراق العائلة، فأيقن «ناجي» أنهم على انشغالهم بأهلهم، ليسوا مسكونين بالوعد مثله، فهو من بيتهم الكبير، أما هم فقد تساقطت الحكايات من رؤوسهم. ضاعت في مشاغل الحياة التي لا تتوقف هجماتها الضارية. بعضهم أوقف نسبه إلى جد آخر، كان يتوقف عنده في السجلات الرسمية، وفيما يرد على خاطره إن تذكر الراحلين، في ساعات الراحة والسمر، أو في الملمات الصعبة، التي تدفعه إلي أن يستمد عزمًا، كمُن في جيناته، أو رأى الآباء والأجداد الأقربين يظهرونه، دون كلل ولا ملل.

وكما كان «الصوابر» متفرعين في مسقط رأسهم، موزعين بين ثراء أصحاب الالتزام، ومتوسطي الحال من أصحاب الأملاك التي لا تقارن بما لدى أهل البيت الكبير، والفقراء الذين يتعشمون في أثريائهم أن يمدوا لهم يد العون والحماية، ظل كثير منهم على هذه الحال في مختلف البلاد.

لم يكن «ناجي» تشغله أموالهم، ولا مناصب الذين ارتقوا منهم في مدارج العيش بتملك الأرض أو الحصول على وظائف، لكنه كان مهتمًّا بعددهم، بالعزوة التي تسد عيون الناظرين. فالرجل رجل، مهما

كانت حيازته أو مكانته، طالما حرص على أن يعرق، ويكسب قوته بشرف وإخلاص.

(34)

الرجولة لا تهب فجأة كالعاصفة، إنما تنمو على مهل، كما ينبت الزرع ويشمخ في وجه النسيم. كما يمضي الأطفال من الحبو إلى الدبيب على الأرض. تُستقطر كما يمتص النحل رحيق الزهر، وتُستجمع كشذرات الذهب الضائعة في الصخور.

ولأنها كذلك، فلا يطلب الحكيم من شخص لم يكتسب الرجولة من الصغر سواء بتجربة قد عركته، أو بنطفة سرت في خلاياه كهدية ثمينة من الأسلاف، أن يغضب كرجل حين يكبر، حتى لو كان يجلس فوق رؤوس كل الناس.

هذا ما كان يؤمن به «ناجي»، علَّمته إياه تجربته المتنوعة، بما منحته في عيون الناس عمرًا فوق عمره، وعرفه مما كانت تحكيه أمه عن أبيه، ومن الفراسة التي حلت في نفسه دون إرادة منه، ثم عززها بما قرأه عنها، حتى صار قادرًا وقت عمله بالقضاء على تبين الحقيقة من الوهلة الأولى.

استبشر خيرًا بطلائع «الصوابر»، الذين سبقوه إلى القرية، وبينما كان يودعهم عند المرسى وهو يأمل أن تنهمر عليه ردود مَن وصلتهم خطاباته، كان خمسة منهم قد وصلوا إلى السرايا بالفعل. كانوا فلاحين يسكنون نجعًا شرق النيل، ليس بالبعيد. أحدهم يمتلك قراريط قليلة، والأربعة يعملون أجراء في أرض الناس.

جلسوا يتطلعون إلى جدران البهو وأثاثه، تغمرهم فرحة بأن الزمن قد جاد عليهم بأهل مقتدرين. وقد أحسنت «عبلة» استقبالهم، وأمرت الخادمات أن يجهزن لهم طعامًا دسمًا، شاركهم فيه «ناجي» بشهية مفتوحة، وهو يرمي بصره من النافذة إلى الجسر، آملًا أن يرى آخرين من أهله يهلون من بعيد. لكن ظهر غريب على «حمار» يرتدي زيًّا يختلف عما ألفه أهل القرية. حين اقترب، تهلل «ناجي»، وقال لنفسه: إنه ساعي البريد.

سلمه عشرة خطابات، سُجلت على أظرفها عناوين مختلفة، موزعة بين المديريات الأربع، وبينها ثلاثة خطابات جاءت من «القاهرة». فض «ناجي» الأظرف على الفور، وقال لأهله الذين كانوا يلتهمون الطعام دون تمهل: الخير على قدوم الواردين.

لم يخل أي يوم لاحق من خطابات أو زيارة. يأتي فرد واحد أو جماعة، و«ناجي» يحصيهم كأنه يحسب أشولة الغلال في الشونة، أو عدد الفدادين التي يملكها. كان مشغولًا بالعدد، يضاهيه بعدد رجال «الجوابر» في القرية، ويقول: لا بد أن أغلبهم عددًا.

تسمعه أمه فتضحك، وتقول: في أهلك رجال الواحد منهم بمائة.

لم يكن يدبر لمعركة، ترفع فيها العصي والفؤوس والخناجر أو يُطلق الرصاص من فوهات البنادق، إنما كان يبحث عن الردع. فمَن ذا الذي بوسعه أن يجرؤ على منازلة مَن يفوقونه عددًا. وحين تراه أمه مهمومًا بالعدد، يضحك ويقول لها: أريد أن يملأوا القرية يوم العُرس.

كان يحرص كلما جاءه أحد، أن يصطحبه إلى سلاملك العمدة، ليعرف أن أهله ليسوا فقط أصحاب مال، إنما لهم اليد الطولى في القرية. يأخذهم إلى الزرع، ويرفع سبابته ويشير إلى اتساعها، ويقول: كل هذا لنا. ويأخذهم إلى الجبَّانة، يطوف بهم على قبور الراحلين، ويحكي عن كل أحد منهم باستفاضة، ويحرص أن يسبقه بالنظر في عيون سامعيه، ويقول: جدكم فلان، ليربط قلوبهم بالقرية، بعد أن يعرف كل منهم أن جذوره العميقة مستقرة في أرضها.

(35)

اشتعلت النار في نفس «بهاء»، وقال لأمه: هذا الأزهري الماكر يدبر لنا أمرًا.

هدأت من خواطره المضطربة، وقالت: دعوة أهله إلى عرسه القريب، ليست فيها ما يخيفك.

نظر إليها في غيظ، وسألها: منذ متى كان أي منهم ينشغل بجمع المتفرقين في البلاد؟

- هم غرباء، يؤدون واجبهم، وينصرفون.

نظر إليها في استهانة، فقالت له في حدة: زوجناك ليستقيم أمرك، فلم تتبدل حالك. ولما أنجبت قلت ستتغير حياتك، لكنك تصر على أن تمضي في طريق خاسرة.

عاد يقول لها، دون أن يلقي بالًا لكلامها: أتمنى أن يُخيِّب الله ظنوني، ويرحل جميع اللموم.

لكـن «ناجـي» كان قد تحدث مع الأجـراء الأربعة عـن بقائهم في القرية، ليكدحوا في أرضه أفضل من أراضي الغريب. وقالوا له إن لهم بيوتًـا وعيالًا، فيسـر لهم الأمر، قائلًا: على يسـار المقبـرة هناك أرض فارغة نملكها، يمكن أن تبنوا فيها بيوتًا جديدة.

تبادلوا النظرات في حيرة، ففطن إلى ما يشغل أذهانهم، فقال: يبيع كل منكم بيته، ويأتي ليبني هنا، والأرض هدية مني إليكم. وسألهم إن كان أبناؤهم قد التحقوا بالمدارس، فقالوا: لا توجد مدرسة في قريتنا، إنمـا كُتَّاب لم ينتظـم أولادنا فيه. فزاد في إغرائهم، وقال: هنا مدرسـة نلحق أولادكم بها، ولا تشغلوا بالكم بما يحتاجونه من مصروفات.

قبـل العُـرس بيـوم واحـد امتـلأت القريـة بالقادمين. رسـت بهم المراكـب، وانتظرتهـم الأحصنة والحمير، ومنهم مَـن ركب الدوكار. ورآهـم أهل «الجابرية» وهـم يتجاورون في حديقة السـرايا، يحتسـون الشاي في تلذذ، ثم يتقاطرون جماعات إلى المسجد في وقت الصلاة، فتساءلوا: أين كان كل هؤلاء ضائعين؟

بعـد صـلاة العشـاء أجلسـهم «ناجي» فـي الحديقة، ووقـف فيهم خاطبًـا. تحـدث عـن الجـدود الغابريـن، والحكايـات التـي سـكنت النفـوس والـرؤوس، والوصايا التـي حملت وعدًا، عليهـم أن يعرفوه جيدًا، ويعملوا له مخلصين. تطلع بعضهم إلى بعض صامتين، ووقف أحدهم، وقال: سـمعت شـيئًا عن هـذا من أبي، قاله مـرة واحدة، ولم يكرره.

وقال آخر: أنا لم أسمع به من قبل.

وسأل ثالث: أخبرنا بما علينا فعله، ولن نخذلك.

تعالت الهمهمات بين الجالسين. وكل منهم ينبش في رأسه لعله يهتدي إلى أي شيء يعرفه. وأدرك «ناجي» ما هم فيه من حيرة، فقال، وهو يعدل العمامة فوق رأسه: إياكم أن تعتقدوا أنني جمعتكم لأذى، إنما هي صلة الرحم، التي يعرف رجل مثلي قدرها.

وقف موظف الحقانية، وقال: ما بدأناه يجب ألا ينقطع، لكن لكل منا ظروفه.

رفع «ناجي» يده إلى اتجاه شريط السكة الحديدية، وقال: هذه القرية كانت تحمل اسم جدكم الأكبر، وبعد أيام ستقام على رأسها محطة قطار، ولا يجب أن يُكتب عليها إلا الاسم الذي نرضاه جميعًا.

رد موظف الحقانية: هذه تحتاج إلى موافقة الحكومة.

ابتسم «ناجي»، وقال: هذا أمر مفروغ منه، لكن بعض أوامر الحكومة وقراراتها تراعي ما يطلبه الناس.

سأله موظف الري، وكان يعرف جيدًا كيف يتنازع الفلاحون على مناوبات الري في أيام الماء الشحيح: هل يوجد مَن يعترض؟

هز «ناجي» رأسه، وقال: هنا مربط الفرس. ثم تنحنح، مستعدًّا للمكاشفة، وقال: سُميت القرية باسم عائلة جاءتها في الزمن البعيد، فلما راح أجدادكم من هنا غيَّروا الاسم، ولن يقبلوا بسهولة عودته إلى أصله.

رد موظف الحقانية: حين يأتي الأمر من أعلى سيمتثلون له. فملأ «ناجي» عينيه من الجالسين، وقال: وربما لا يرضون، فإن وجدوا عزوتنا أمامهم صدتهم عن المنازعة.

أدرك الرجال أن السبب الحقيقي لجمعهم ليس عرسًا، ولا صلة رحم، إنما بحث عن عزوة. عادوا يتبادلون النظرات، فقال «ناجي»: تفرق آبائي وأجدادي في البلاد، لكن أيًّا منهم لم ينسَ الوعد، وورثوه لنا قبل المال، وعليكم أن تمتنوا لحرصنا على اسم العائلة. فتطلعوا إليه صامتين، فواصل: ما أخبرتكم به ليس أمرًا، إنما هو رجاء.

قال مدرس الرياضيات: لا تحمل همًّا، وكل ما علينا أن نتصرف بحكمة.

رد «ناجي»: قدمت طلبًا بما أريد إلى مدير المديرية، وابنه، وكان زميلًا لي في القضاء الشرعي، وعدني خيرًا.

سأل موظف الحقانية: متى يشرعون في إنشاء المحطة؟

أجابه «ناجي» وكان قد عرف الموعد بدقة من أحد المهندسين: بعد أسبوع واحد. فقال أحد الفلاحين: يبقى بعضنا هنا، ومَن لا يقدر، يذهب عقب العرس، ويعود بعد أيام.

اتفقوا على هذا الرأي. طلب «ناجي» من «محبوب» أن يجمع في السلاملك النصارى واليهود، ومَن تبقوا من آل بخيت، وشيخ الجامع، والفلاحين الغرباء الذين أتوا قبل سنين واستوطنوا القرية، وهم ينتمون إلى أسر فقيرة، وبعضهم لا ظهر له، وطلب منه أن يستميلهم إلى جانبه.

في يوم العُرس جاء كل أهل القرية، ومنهم بعض «الجوابر»، حيث حرص «ناجي» على دعوتهم، فلبى بعضهم. هناك مَن امتنع وعلى رأسهم «بهاء». مدت أسمطة الطعام في الحديقة وأمامها في فراغ وسع كثيرين، وتقاطرت على الطريق المؤدي إلى السرايا.

أكل الناس حتى امتلأت بطونهم، وشربوا الشاي، الذي عرفوه هنا. وبعد أن اختلى العريس بعروسه في غرفة ناعمة، نُصب التخت للقوَّالين، فأنشدوا الأشعار على عزف الرباب. حرص القوَّال على أن يتلو على مسامعهم سيرة «الصوابر» التي انداحت في القرى وسكنت المواويل والأغنيات. أُقيمت في اليوم التالي حضرة ذِكر. فُرشت لها الحُصر في منتصف الحديقة، وجاء إليها شيخ الطريقة البيومية، ومعه منشدوه، وحامل الدف، ونافخ الأرغول، فانطلقت المدائح طرية، تسري في شوارع القرية، حتى وصلت إلى الزاوية.

اهتزت «هنيَّة» في جلستها. وضعت الوِرد إلى جانبها، وانشرح صدرها للإنشاد العذب، فطفرت الدموع من عينيها، ثم انتفضت واقفة، فنهضت الخادمة تنظر إليها في حيرة، ووجدتها تخرج صامتة. سألتها: إلى أين؟ لكنها لم تجب. سارت مجذوبة إلى اللحن الشجي، ودقات الدف التي تنبض في قلبها، حتى بلغت الحضرة.

فوجئ الناس بها قادمة، فنظر إليها مَن يعرفونها متعجبين، لكنها لم تكن مشغولة بحملقة الناظرين ولا همهماتهم. مضت حتى بلغت طرف الحضرة، ثم توغلت فيها حتى صارت على مقربة من الشيخ، وهو يتمايل بين الذاكرين، يضرب راحتيه حتى يضبط الإيقاع، الذي

يهديه العزف والدقات المتواصلة والحمحمات الملتهبة والنشيج المحبوس في الصدور.

توقف أحد الذاكرين، وأشار إليها أن تخرج، لكنها لم تُلقِ له بالًا. همَّ أن يمسك بها، لكن الشيخ أشار إليه أن يرجع إلى مكانه، فرجع مسرعًا إلى الصف الأيسر. لم يتوقف الشيخ عن ضرب راحتيه، وهو ينظر إلى «هنيَّة» في امتنان. اقتربت أكثر، وحاذته، وراحت تضرب راحتيها مثله، وتهز رأسها، فتنزاح الطرحة عن رأسها، ليطل شعرها الأبيض، بينما وجهها مسكون بالفرح والاطمئنان.

كان أحد «الجوابر» حاضرًا، فانسل من بين المتفرجين، وجرى نحو بيت «بهاء». كان يجلس وحيدًا، أمامه زجاجة خمر استقر أغلبها في جوفه، ويلتقط معها حبات الترمس المسلوق، والجبن، والخبز الجاف. وقف يتطلع إليه، ولم يدرِ إن كان يخبره أم ينصرف صامتًا. صرخ فيه «بهاء»: ماذا تريد؟

اقترب منه في وجل، وقال: عُرس ابن الصوابر صار عارًا على «الجوابر» أجمعين.

صرخ فيه من جديد: لا تطير السكرة من رأسي، وهات ما عندك مرة واحدة.

فأبلغه بما رآه. فهب «بهاء» واقفًا، وكاد ينسى نعليه، لولا أن الرجل نبهه. مضى غاضبًا، والرجل يتبعه، حتى بلغ الحضرة. وقف قليلًا متطلعًا إلى عمته، وهي تتمايل غير عابئة بأحد ولا بشيء. كان بعض سُكره قد راح عنه، لكنَ رائحة الخمر تفوح نفاذة من فمه.

تقدم إليها مسرعًا، وأمسك كتفها، وجذبها بعنف، فكادت تسقط على ظهرها. توقفت الحضرة بإشارة من الشيخ، ونظر إليه وقال له: كيف تفعل هذا؟ فلم يرد، وراح يشد «هنيَّة» ليخرجها من بين الرجال المتقابلين. فارت الدماء في عروق الجالسين، فانتفض غاضبًا رجل قوي البنية من فلاحي «الصوابر» القادمين من بعيد، وهو لم يكن يعرف هذا الشاب الطائش الذي يعتدي على امرأة، ولا يعرف مَن تكون هي بالنسبة له، فكل ما شغله وقت أن اندفع نحو «بهاء» ليمنعه أنه يعتدي على حضرة ذِكر تُقام في سرايا كبيرهم الجديد، ويهين الشيخ الذي سمح لهذه المخبولة بأن تجاوره بين الذاكرين.

أمسك الرجل «بهاء» من كتفيه، وصرخ فيه: عيب عليك. فدفعه «بهاء» في غضب، لكنه لم يتزحزح من مكانه، بل ضغط على ضروسه، وطوق ذراعي «بهاء» ثم رفعه بين يديه عاليًا، ومشى به خارج الحضرة، فضج الناس بالضحك. قام أحد «الجوابر» وقال: كفاية.. كفاية. لكن الفلاح لم يمتثل للنداء، وخرج بين صفوف الجالسين، وهم يوسعون له الطريق، حتى ألقى «بهاء» تحت شجرة كافور، فارتطم رأسه بها. طار بقية ما في رأسه من خمر، ونهض سريعًا، وبصق على وجه مَن ألقاه، فما كان منه إلا أن صفعه بقوة على وجهه، فسقط على الأرض من جديد.

هرع الجالسون إليهما، فحالوا بينهما. وقف «الجوابر» غاضبين مما جرى لمَن يُعوِّلون عليه ليكون كبيرهم في قابل الأيام. كتموا غيظهم لأنهم يدركون خطأ «بهاء». وجد الشيخ أن في استئناف الحضرة

فرصة ليعيد الناس إلى أماكنهم، فأشار بيده إلى ضارب الدف، فدق عليه، وانطلق الأرغول، تبعه صوت المنشد. طربت «هنيَّة» فعادت إلى مكانها، تتمايل بين الذاكرين.

عاد «بهاء» إلى البيت، يغلي جسده من فرط الغضب، ولا يقدر على تهدئة الرغبة في الانتقام التي سكنت رأسه. كانت أمه قد خلدت إلى النوم، فلم تدرِ به، وهو يسحب بندقيته من الخزانة، ويلتقط رصاصات، ويخرج قاصدًا الحضرة.

كان رجال «الجوابر» قد لحقوا به ليتداولوا الأمر، منقسمين بين مَن يرى أن «بهاء» قد أخطأ، وأولئك الذين يشعرون بالإهانة لما فعله به الفلاح، الذي رفعه فوق رأسه، وكأنه حزمة قش، وألقاه دون اعتناء. وصلوا إلى السلاملك القديم، فلم يجدوه، فقط كانت بقية زجاجة الخمر، وما حولها من مزة، وكنب صامت، وأرائك تنتظر الجالسين. جلسوا، ليتموا حديثهم، يحاول العاقلون منهم تهدئة الحمقى.

ظنوا أن «بهاء» لا يزال في البيت، ولم يدرِ أي منهم أنه قد انسل من الباب الخلفي، وحاذى الزرع، يلفه الليل. وسع خطواته، وهو يلهث، والبندقية تهتز في يده، حتى وصل إلى السرايا. كان الحاضرون منجذبين إلى الإنشاد، يعيدون به تنقية صفو نفوسهم التي تعكرت.

كان حارس السرايا قد انخرط في الحضرة، مغمضًا عينيه في خشوع، فلم يرَ أحد «بهاء» وهو يدخل، ويسير على مهل إلى جانب السور، محتميًا بالظلام الذي يرمي سواده في وجه نور الكلوبات

الساهرة. جلس القرفصاء، يمد بصره ليتبين موضع الفلاح الذي أهانه.

رآه جالسًا يميل إلى رجل بجواره يحدثه. فلمَّا اعتدل، سمحت قامته المديدة لـ «بهاء» أن يصوب فوهة البندقية إليه في سهولة، وأعطته مساحة خالية إلى جوار السور فرصة التقدم دون أن يشعر به أحد، بينما حرم ظل الشجر عيون الجالسين من الانتباه إليه.

كتم أنفاسه، وسحب الرفاس على مهل، فلم يضف صوته إلى صدح الإنشاد شيئًا، ووضع سبابته على الزناد، وأحسن التنشين، فانطلقت رصاصة لتستقر تحت عنق الفلاح، فسقط بين الجالسين والدم يلطخ جلبابه، وهم في ذعر لا يعرفون من أين أتاه الغدر.

أخرستهم الفجيعة لثوانٍ معدودات، ثم صرخ أحدهم، فهاج الناس وماجوا، وتوقفت الحضرة، وانطلقت الأسئلة الباحثة عن أجوبة لا يعرفها أحد في هذه اللحظة. وقف أحدهم، وغرس إصبعه نحو السور، وقال: الرصاصة أتت من الخلف.

واندفع الرجال يسرعون في الاتجاه الذي أشير إليهم أن يسلكوه. لم يروا «بهاء» لكنه كان يراهم، فألقم البندقية رصاصة أخرى، وسحب الرفاس، وضغط الزناد من جديد، وأطلق رصاصة لعلهم يتراجعون إلى أن يجد مسربًا للهروب فأصابت أحدهم في كتفه. سقط بينهم مضرجًا في دمه. توقف بعضهم خوفًا. مضى البعض في تقدمه، ليخلص لهم رجل نحيل من الظلام. صرخ أحدهم: إنه هناك.

تراجع «بهاء» إلى الخلف، حتى التحم ظهره بالسور، وسحب الرفاس من جديد، لكنه قبل أن يلقم بندقيته رصاصة ثالثة، كانوا قد أمسكوا به. قبض أحدهم على البندقية، ورفعها إلى أعلى. جذب الثاني يد «بهاء» فأبعدها عن الزناد. ضربه ثالث بسيف يده على ظهره بقوة شديدة. ركله رابع في ساقه، فخر ساقطًا مكانه، لكنهم جذبوه، بعد أن استولوا على البندقية، وجروه على الأرض، يغلق فمه الذي ملأه التراب اللدن وأوراق الشجر اليابسة.

كان صوت الرصاصة الثانية، التي انطلقت بعد توقف الحضرة، قد وصل إلى أذن «ناجي»، بينما هو مستلقٍ على ظهره، يلتقط أنفاسه المبهورة، بعد أن انتهى للتو من مضاجعة عروسه، فهب واقفًا، يداري عريه في النور الشفيف. سمع دبيب أقدام الخادمات يسرعن، فارتدى جلبابه الأبيض على عجل، وهبط مسرعًا حتى صار بين المحتشدين.

أفسحوا له الطريق حين رأوه، وقال أحدهم: قُتل رجل منا، وجُرح آخر حالته صعبة، وقد يموت أيضًا.

ارتج قلب «ناجي» فزعًا، وقلَّب بصره ذات اليمين واليسار باحثًا عن القتيل، لكنه وجد «بهاء» مكومًا على الأرض يتألم من آثار الضرب المبرح الذي انهال على جسده بلا حساب. وقال أحد «الصوابر» بصوت يسكنه الغضب: لم نشأ قتله حتى نعود إليك. فأشار إليهم أن يهدأوا، وتقدم نحو «بهاء»، ونظر إليه في غيظ، وقال: لم ترث من السالفين سوى الحماقة.

وتطلعوا إلى «ناجي» ليقضي في أمره. وكان شيخ الطريقة قد اقترب، وهو يقول: لا تقتلوه.. لا تقتلوه. فرد «ناجي» مطمئنًا إياه: لا تقلق يا مولانا، أنا لم أنسَ القضاء بعد.

أمرهم «ناجي» أن يحملوا المصاب فوق الدوكار، ويسرعوا به إلى مستشفى البندر، وأن يُقيِّدوا «بهاء» إلى شجرة كافور، فرفعوه بين أيديهم، وألصقوه بالجذع الأملس، ولفوا حول جسده حبلًا متينًا. سأل «ناجي» عن القتيل، وكانوا قد مددوه على الأرض، فأخذوه إليه. تطلع إلى وجهه الساكن في أسى وأسف، ثم جلس القرفصاء إلى جانبه، ينتحب.

كان العمدة قد ترك الحضرة إلى داره ليستريح قليلًا، بعد أيام شاقة قضاها في استقبال وخدمة الواردين من أهله، فأرسل «ناجي» إليه، حتى يرفع الأمر إلى قسم الشرطة. في الطريق حكى المرسال له كل شيء، فاختلط في نفسه الحزن والفرح. كان حزينًا على قريبه الذي جاء ليموت بينهم، وتعكير صفو هذه الليلة الجميلة التي اغتيلت بهجتها، وكان فرحًا لذهاب «بهاء» من طريقه، وهو الذي انشغل طويلًا بتدبير يجعل المشروع الجديد يؤول إلي «الصوابر» في يوم ليس بالبعيد.

لمَّا وصل العمدة، طلب من المتزاحمين أن يترجعوا، ومد يده يفك وثاق «بهاء»، وأمر خفره: احبسوه في بيت العدة والكرباج حتى نبلغ الشرطة في الصباح. وطلب من أحدهم حمل البندقية التي ارتُكبت بها الجريمة، فالتقطها ومضى خلفه. كان الشيخ قد أشار إلى مريديه أن يجتمعوا صامتين فوق واحدة من الحصر المفروشة، فامتثلوا على

الفـور، تجاوروا وعلى وجوههم كآبة، يُقلِّبون عيونهم في الجالسـين، ويتملكهم خوف من أن تنزلق الأمور إلى ما هو أخطر.

صـدق حسـدهم، فقـد وصـل إلـى «الجوابـر» المجتمعيـن فـي السـلاملك القديم نبأ ما جرى، وكانوا قد سمعوا صوت الرصاصتين، فظنوا أنه قد أتى من قلب الزراعات. هبوا مذعورين، وجروا لا يعرفون مـا عليهـم أن يفعلوه في هـذا الموقف العصيب. بلغوا السـرايا، وكان «ناجي» لا يزال بين أهله. سـألوا الخفير عن «بهاء» فأبلغهم بأنه سـيق إلـى دار العمدة، فاسـتداروا ذاهبين إليـه. جرى الخفيـر نحو «ناجي» فأبلغه، فأشـار لرجاله أن يتبعوه، وأسـرع الخطى، حتى لحق بهم وهم على مشارف السلاملك.

ناداهم بصوت جهوري: توقفوا.

استداروا إليه، وقال «رافع»: لن تمر الليلة على خير.

مـرر «ناجـي» عينيه سـريعًا علـى أيديهم، فلـم يجد بها شـومًا ولا فؤوسًـا ولا مناجل ولا بنادق، فأيقن أن عليه أن يُحسـن القول حتى لا تزيد المأساة، التي أفسدت عليه أيام عرسه. رفع عقيرته ليسمع الجمع: قُتل رجلنا لكننا لم نقتل رجلكم، وليحكم بيننا القضاء.

رد أحدهم وكان أكبرهم سنًّا: رجلكم مَن بدأ بالشر، ولقي جزاءه.

وهمَّ أحد فلاحي «الصوابر» أن يتقدم نحو الرجل، مدفوعًا بغضب عارم، لكن «ناجي» أمسـك كتفه، وأوقفه، قائلًا: حين أتكلم تسـمعون أنتم أيضًا.

تراجع الرجل، فقال «ناجي» وهو يتذكر ما قرأه في كتب الفقه أن جلوس الغاضب ينقص عنه بعض حنقه: تعالوا لنجلس في السلاملك، وقولوا ما شئتم.

لكن أحدهم قال وهو ينظر باستهانة نحو دار السلاحليك: العمدية التي جاءتكم في غفلة من الزمن.

استعان «ناجي» بصبر كان يسري في عروقه من صلب أسلافه، وبما تعلم إياه أيام القضاء، وقال: اختاروا أي مكان نجلس فيه.

رد أحدهم: لا جلوس معكم، حتى يخرج «بهاء» إلى بيته.

وكان «محبوب» قد خرج إليهم، فرد غاضبًا: أنت تطلب المستحيل.

هاجوا وماجوا، وانسحب اثنان منهم إلى الوراء، وقال أحدهم: يبدو أن أيدينا الفارغة قد أطمعتكم فينا.

فطِن «ناجي» إلى ما يسكن رأس الرجل من ضغينة، تدفعه إلى أن يذهب ليعود حاملًا سلاحه، فقال له: ونحن أيدينا فارغة أيضًا، فلا تُحرِّض الناس على الشر، ويكفي ما جرى.

تطلع عجوز «الجوابر» إلى الرجال المتحلقين حول «ناجي» و«محبوب» وخفره المسلحين، فأدرك أنهم أكثر عددًا، فقال: لن ترضوا لنا أن نترك رجلنا محبوسًا ونعود إلى بيوتنا.

رد «ناجي» على الفور: يمكنكم البقاء في السلاملك ضيوفًا حتى الصباح.

قال أحدهم في غضب: سنبقى هنا، وليذهب أحدنا ليرى «بهاء».

زام «محبوب» غاضبًا، لكن «ناجي» قطع الأمر: ليكن ما تطلب.

ثم إلى الخفر: هاتوا حُصر ليجلس الرجال.

ساد صمت، قطعه «محبوب»: ليأتِ «رافع» مع الخفر إلى السلاحليك.

(36)

لم تسل مزيد من الدماء هذه الليلة، بفضل حكمة «ناجي» ونزول «محبوب» على ما قضى به. لكن الإحن ملأت النفوس من جديد. كل ما تبدد في مسارب الأيام الطويلة، عاد وتجمع. تدفق في العروق حتى امتلأت، فاتسعت ونفرت، وكادت تنفجر من انتفاخها الرؤوس.

جلس «الجوابر» ملتصقين، يشعر كل منهم بما يغلي به جسد أخيه. ودخل «الصوابر» إلى السلاملك، يستعيدون ما حكاه لهم «ناجي» عن الخلاف الطويل، والوعد المقيم.

(37)

تشاور «الصوابر» في أمر قتيلهم، فقال «ناجي»: بعد معاينة البوليس جثته، يُدفن إلى جوار أجداده.

رد «رافع»: نأخذه إلى حيث أسرته، فيدفن بجوارها.

قال «ناجي» وهو يرفع رأسه في اتجاه الجبَّانة الصامتة: سآتي بأولاده وأمهم ليعيشوا هنا، وأكتب لهم فدان أرض.

مال واحد من أجراء «الصوابر» على أجير مثله، وقال: لو كدَّ طوال حياته ما امتلك قيراطًا واحدًا.

رماه بنظرة مشمئزة، وقال: أتحسد الرجل على موته، وتيتم أولاده.

رفَّت على شفتيه ابتسامة صفراء، وقال: الحي أبقى من الميت.

غمزه في ركبته ليخفض صوته، وقال: أنا واثق من أنه لن يبخل علينا بشيء.

جاء ضابط الشرطة عند الظهر، عاين الجثة، وقبض على القاتل، وطلب الشهود، فكانوا كثرًا، لكنه قال: أريد شيخ الطريقة.

وكان الشيخ قد قضى ليلته بين مريديه وباتت «هنيَّة» إلى جانبهم. رفضت العودة إلى الزاوية، فخصص لها الشيخ حصيرة، أبعدها عن الرجال، وجعلها خلف جذع جميزة عفية، حتى لا يرى أحد جسدها إن خلدت إلى النوم.

لم تكن مثل البقية كاسفة، بل كان وجهها ينضح ببهجة غريبة، وكأنها قد تلقت خبرًا سعيدًا. تطلق عينيها نحو الأفق البعيد في اندهاش، وكأنها ترى في صفحة السماء وجوهًا مليحة، أو نورًا غامرًا، وربما تشهد موضعها من جنة الخلد، ثم تعود لتغمضهما، متقلبة بين ضحك وبكاء، وتتمايل برأسها وجذعها، كأنها لا تزال تسمع الإنشاد الطليق، يسري في أوصال النسيم.

(38)

كان «محمـود» قد انصرف مبكرًا من الحضرة، بعد أن شـعر بدوار شـديد. كانت عافيتـه قد تراجعت، ولـولا ما تخفف بـه «رضيَّة» عنه، ربما مات كمدًا، أو أصابه كُساح، أقعده في داره لا يبرحها.

حين استيقظ في الصباح أبلغه ابنه بما جرى، فدس قدميه في نعليه، وتركهما تلثمان تراب الشارع على مهل، حتى أوصلتاه إلى دار العمدة. وجد «الجوابر» جالسين، وشعاع الشمس الوليدة يحط على رؤوسهم المسـكونة بالقلـق والغضب. ألقـى عليهم التحية، فردهـا بعضهم في تثاقـل. لاذ بعضهـم بالصمت متطلعيـن إليه في غيـظ، إذ أدركوا أن لا شيء يدفعه إلى الحضور في البكور إلا المطالبة بما يقول إنه حقه.

لكن «محمود» جلس في السلاملك صامتًا، لا يعرف إن كان يترك نفسه للشماتة في «بهاء» الذي وافق على هضم حقه، وأمعن في إهانته، أم يبدي حزنه على النكد الذي حل بالعريس؟ أم يطرد المخاوف التي هجمت عليه من أن ينزلق الأمر إلى ما لا تُحمد عُقباه؟

كان قد استسـلم لما حاق به، ولام نفسـه على الغفلة، لكنه لم يندم على حسن نيته. عزا ما جرى له إلى شيء يسري في عروقه من أجداده الأبعديـن، جعلـه مجذوبًـا، دون إرادة منـه، إلـى العـودة بالحـال إلى أصلها، يسأل نفسه كلما خلا بها: لم يكن «آل بخيت» إلا خدم.

جلس على حافة الجلسة، فلما انتبه إليه «ناجي» نهض نحوه، وأخذه من يده ليجلسـه إلى جانبه في صدارة المجلس، وقال للحاضرين: هو

ثالث ثلاثة، مع أبي وعمي، أخلص للوعد، فجاء معهم إلى قرية غبَّر جدوده أقدامهم في تراب شوارعها.

نظر إليه «محمود» في امتنان، ثم جال ببصره في وجوه الجالسين، وأعاده إلى «ناجي»، وهو يقول في غبطة: أنت أطيب ثمرة في شجرة «الصوابر» العالية. وسرى في نفسه اطمئنان إلى أن حقه قد يعود إليه على يد «ناجي»، لكنه لم يشأ أن يُذكِّر أحدًا به، حتى يأتيه كما ذهب، حين يحل الوقت المناسب.

دخل شيخ الطريقة، يتهادى في جلبابه ناصع البياض، وعمامته الخضراء، فقال الضابط: أستأذنك يا مولانا أن تأتي معي إلى القسم، لتشهد بما رأيت.

- ما سمعته ورأيته وصل إلى آذان وعيون كل الحاضرين.

- شهادتك أثقل عندي من غيرها، ولك أجر مساعدة العدالة.

أمسك العساكر يدي «بهاء» وقيدوهما، فلما خرجوا من السلاحليك، قال «ناجي» للضابط: أرجو أن يُفك قيده، حتى لا نثير حفيظة الجالسين في الخارج.

نظر إليه الضابط، وقال في حسم: هذا ما يقضي به القانون.

- أعرف، لكن إن وجد القانون طريقه دون عناء، هذا أفضل.

نزل الضابط على رغبة «ناجي». أمسك العساكر بكتفي «بهاء»، وساروا به على الجسر، يوسعون خطاهم ليلحقوا بقائدهم الذي

امتطى صهوة جواد تثير حوافره التراب، ويشمخ أنفه في نسيم الضحى الذي أتى رخيًّا من فوق صفحة النيل.

(39)

لم تمضِ سوى أيام حتى جاءهم نبأ موت «قطاوي». ذهب «ناجي» و«محبوب» إلى بيته لأداء واجب العزاء. واختلى بهما «ليشع»، وقال: أتعشم ألا ينقطع شيء بيننا.

همَّ «ناجي» أن ينطق، لكن سبقه «محبوب»: أنت وارث أبيك، ومكانك محفوظ إن أردت.

صمت برهة، وقال: سجن «بهاء» سيطول، ولا أدري إن كانت أمه ستبقى معنا أو تنسحب.

تهلل وجه «محبوب»، وسأله: هل حدثتك في أمر بيع نصيبها؟

هز رأسه، وأجاب: أراد «بهاء» التنازل عن جزء من نصيبه، وهي لم تُبدِ اعتراضًا على ما كان يعتزمه، ويبدو أنها لن تمانع في البيع.. بدأت فعلًا ببيع العبد الذي كان قد اشتراه «بهاء» قبل شهر واحد من سجنه.

قهقه «محبوب» وقال: سيوحشه هذا العبد كثيرًا.

شاركه «ليشع» الضحك، وقال: في السجن سيجد ما يريد، بالفلوس أو بالقوة.

لكن «ناجي» أعاد الحديث إلى جديته، وقال بحروف واثقة: نترك لك الأمر، فإن أرادت فنحن جاهزون، ولن نبخس السعر.

وانتهز «محبوب» الفرصة كي يضرب ضربته، فقال وهو ينظر طويلًا في عيني «ليشع»: نحن جاهزون لشراء المشروع كله، إن أردت أنت البيع أيضًا.

كان «ليشع» يخشى من أن تؤدي يقظة الإحن القديمة بين «الصوابر» و«الجوابر» إلى تعريض ماله للخطر، وطالما حدث أباه حين أقعده المرض في شأن الانسحاب من المشروع، لكن الرجل كان يقول له: بعد عيني، افعل ما شئت.

(40)

مات المصاب في المستشفى، وأتى به «ناجي» ليُدفن إلى جوار أجداده. وكما فعل مع القتيل الأول، نقل أسرته إلى «الجابرية»، وخصص لها فدانًا تزرعه في أجود الأراضي.

تأخر قرار إنشاء محطة القطار. نزل «ناجي» إلى البندر ليستطلع الأمر، فقيل له إنه ينتظر التخصيص المالي في الموازنة الجديدة. ورآها فرصة قد جاءته من حيث لا يحتسب كي يُهيئ الأمر دون متاعب. تذكر ما كان قد بدأه «عمر» حين طرق ذات ليلة باب عجوز «الجوابر» حاملة الحكايات القديمة، لكن القدر سبقه إلى غير ما يريد. ذهب إلى أمه، وكانت وعكة صحية طارئة قد ألزمتها الفراش، وقال لها: جاء دورك يا كبيرة «الجوابر».

طلب منها أن تفعل ما عليها من أجل نزع الحنق من نفوس أهلها. وكان يعرف أنها لا تزال مسموعة الكلمة بينهم، لا سيما الكبار منهم،

الذين يحملون لأبيها امتنانًا لم يبله الزمن. هزت رأسها خفيفًا، متغلبة على أوجاعها، وقالت: بداية الخيط دومًا مع النساء.

وكانت «نوارة» تجلس إلى جانبهما صامتة، فتهلل وجهها، وقالت: رأي سديد معجون بحكمة السنين.

قهقه «ناجي»، وقال: ليس كل الرجال في قريتنا ينزلون على مشورة النساء.

ابتسمت «عبلة»، وقالت: قوة المرأة في ضعفها، ولها على الرجل ما لا تدركه أنت.

وتاهت في صور الماضي، وواصلت: كان أبوك وعمك من خيرة الرجال، لكن كثيرًا مما فعلاه في اطمئنان، كنت أنا خلفه، دون أن يشعر أيهما بثقلي عليه.

رمى نظرة نحو «نوارة»، وقال: أرأيتِ، هكذا يكون مكان الزوجة الذكية في قرار زوجها.

اختارت «عبلة» زوجة عجوز «الجوابر»، وكانت تعرف أن كثيرين منهم يعودون إليها، وأرسلت إليها مَن يُخبرها بأن عليها أن تعود قريبتها المريضة. جاءت المرأة تتوكأ على عصاها، فصعدت بها الخادمة إلى غرفة «عبلة». صافحتها في امتنان، وجلست تنظر إليها، وقالت: ألف لا بأس عليك.

ردت «عبلة»: طالما ضمك هذا المكان مع أبي وأمي.

- شهدت معهما أيام عزنا.

رمت «عبلة» حبلها الذي فتلته على مهل: يدوم العز طالما كان بيننا مَن هي مثلك.

صمتت المرأة، متخبطة في خواطر اجتاحتها عن العائلة التي تتهاوى، فيترنح رجالها على مهل، وتضيق بنسائها البيوت. عادت تقول: لم تعد الحال كما كانت، وأنتِ سيدة العارفين.

فطِنت «عبلة» إلى ما تقصده المرأة، فقالت: لم يخلُ زمن من جسور تصل بيننا.

- لا يوجد بيننا جسر أعلى منك، يا بنت الغالية والغالي.

- بل أنتِ جسرنا العالي، يا أم الكل.

تطلعت إليها العجوز في امتنان، وقالت: لا أحد يكره هدوء البال.

تنهدت «عبلة» في حُرقة، وقالت: لا ينقصنا إلا هذا، وعلى العقلاء أن يخمدوا الفتن قبل أن تقوم.

تنبهت المرأة إلى ما تأخذها «عبلة» إليه، وربما تعللت بمرضها، كي تأتي بها إلى السرايا، وهي تعرف أنه كان مكانًا أليفًا لها، إلى أن انقطعت عنه منذ موت «حورية». ابتسمت، وقالت: يدي على يدك، وإن كان الأمر بيد الرجال.

انتزعت «عبلة» ضحكة صافية من بين أوجاعها، وقالت: بعض النساء يرمين الحطب على النار دون توقف.

سألتها على الفور: هل وصلك خبر عن شيء؟

– علينا أن نعمل حتى لا تكون هناك أخبار في هذه القرية إلا ما يَسُر. وطلبت منها أن توصي نساء «الجوابر» بأن يهمسن في آذان الرجال بما يهدئ النفوس الملتهبة، ولا توسوسن بكلام يحرضهم على الاستسلام للغضب. أفهمتها أنها تعرف أن كثيرات منهن يعدن إليها، ولا تخلو دارها في أي يوم من الباحثات عن الرأي والمشورة.

قالت لها دون مواربة: كل شيء يصب في حجرك منذ أول النهار حتى الليل.

ردت العجوز: أنتِ أيضًا لك في نفوسهن مكانة، لم ينقص منها انحيازك إلى آل ابنيك.

أرادت أن تكسبها إلى جانبها، فقالت: يهمني أمر «الجوابر» أيضًا، فهم أهلي، وأي سوء يمسهم لا أرضاه.

وقبل أن تنهض العجوز على مهل لتنصرف، قالت لها: أتمنى أن أراكِ هنا كثيرًا، مثلما كان يحدث أيام أبي وأمي.

ردت في امتنان: أتمنى أنا أيضًا أن أراكِ في بيوتنا.

استجابت «عبلة» لطلب المرأة، فلم تمر أيام حتى ركبت الدوكار إلى بيتها. وصلته قبيل الظهر في يوم شتوي غائم وبارد، فوجدت عندها نسوة من الجوابر، يتحلقن حول منقد تصفو فيه جمرات حطب من جذوع العنب اليابسة، تحط عليها كنكة شاي. جلست بينهن تمد يديها إلى النار، فلما غلى الشاي، أمسكت بالبراد من مقبضه، وراحت تصب في أكواب من زجاج مستقرة على صينية من الصاج المطلي

باللـون الأبيض، ثم رفعت الأكـواب إليهن، وهن متعجبات مما تفعله سيدة السرايا.

على وقع رشـفاتهن المتتابعة، كسـرت «عبلة» الصمت، قائلة: يعز علـيَّ أن تقاطعن السـرايا. تبادلن النظرات فـي صمت، فواصلت: هي بيت رجل ظـل كبير «الجوابر» إلى أن مات، وهي مفتوحة أمامكن في أي وقت.

وتوالت زيارات النسوة إلى السرايا، وكلما جاءت إحداهن أصرت «عبلة» على ألا تخرج إلا وفي يدها هدية جهزتها الخادمات. قفة فيها صفيحة جبن، وبلاص صغير من العسل الأسود، وبرطمان من العسل الأبيض، وأكياس سـكر، وعبوات شـاي، وكيس من الدقيق، وزجاجة زيت، وزراوية بها سمن بلدي.

وقالت لها إحدى الخادمات ذات يوم: هذا كثير يا ست.

فابتسمت، وقالت: «اِطعم الفم تستحي العين».

واقترب عيد الأضحى، فطلبت «عبلة» من «ناجي» أن ينحر عشـرة خراف سـمينة، يوزع لحمها على الفقراء، ولا ينسى بيوت «الجوابر». استملح الفكرة، وقال لها: نذبح أكثر، فنرسل إلى البيوت لتأكل النساء والعيـال، ثم نمد مائدة هنا في حديقة السـرايا، وندعو الرجال جميعًا، بمَن فيهم «الجوابر» وآل بخيت والنصارى واليهود.

راق لها اقتراحه، وجاء الرجال في ظهر يوم العيد لتناول الغداء. لم يأتِ «الجوابر» جميعًا، لكن نصفهم على الأقل لبى الدعوة. من بينهم

مَـن قَبِـل قبل لفة اللحم التـي وصلت إلى بـاب داره، فاطمأن «ناجي» وهو الذي كان قد أحصاهم من قبل مرتين، واحدة مع «عمر»، وأخرى قبيل عرسه.

حين انفض الجمع، قال لأمه: لا يبلغ أحد النجاح مرة واحدة.

(41)

فوجـئ «محبوب» بوصول «ليشـع» إلى السـلاملك. كان بصحبته شـاب لم يرَه من قبل، قدمه إليه على أنه ابن عمه، واسـمه «عسَّـاف». كان وقـت غـداء، فأصـر «محبوب» علـى أن يأكلا معه، وقـال: عيش وملح يربط شـراكتنا. فابتسما، وتبادلا نظرات أيقن منها «محبوب» أن شـيئًا وراء هذه الزيارة المفاجئة، لكنه لم يشأ أن يبادر بالحديث، ساقه بعيدًا عن المشروع، وسألهما عن الأخبار الواردة من المحروسة حول المظاهرات التي تجوب الشوارع منددة بالاحتلال الإنجليزي.

قال «عساف»: امتدت المظاهرات إلى مدن أخرى خارج العاصمة، وأخمدها الإنجليز باعتقال كثيرين، وقتل آخرين.

نفخ «محبوب» في غيظ، وقال: المهم أن الشـعب استيقظ بعد نوم طويل.

قهقـه «ليشـع»، وقـال: شـعبنا مـا إن يصحو حتـى يعود إلـى النوم سريعًا.

تدخل عسَّاف: الإنجليز في عز قوتهم، ومواجهتهم الآن ليست من الحكمة في شيء.

نظر إليه «محبوب» في غيظ، وقال: إن انتظرنا حتى نساويهم في القوة سنبقى تحت الاحتلال إلى أبد الدهر.

ابتسم «ليشع»، وقال: غريب أن يخرج هذا من رجل الحكومة.

سرى غضب في أوصال «محبوب»، ونطق في غيظ: يكره الناس مَن يتعاون مع الاحتلال من أهل الحكم، حتى لو كان رئيس الوزراء نفسه.

وجاء الطعام، فتحلقوا حول طبلية واسعة، وضعها الخدم على سجادة في قلب السلاملك، فقال «محبوب»: يحلو الكلام على الطعام. ودس «ليشع» لقمة في فمه، فلما لانت، قال: جئنا إليك في أمر فتحناه قبل مدة. تطلع «محبوب» إليه، وقال وهو يمزع جزءًا من بتاوة طرية: يدور هذا في رأسي منذ أن رأيتكما، لكنني انتظرت حتى أستيقن.

قال «عساف»: دخلنا بالمعروف، ونخرج بالمعروف.

قهقه «محبوب» ووارب الحديث بعيدًا، وقال: لا تخشَ شيئًا، لن أحبسك في بيت العدة والكرباج، وكما دخلت ستخرج معززًا مكرمًا.

بادله «ليشع» الضحك، وقال: أم «بهاء» راغبة في بيع نصيبها وابنها.

رد «محبوب» على الفور: نحن مستعدون، وسأترك تقدير الثمن لك.

ثم عاد وسأل: هل «بهاء» موافق على البيع؟

أجاب «ليشع»: زارته أمه في سجنه، وخيَّرها يائسًا أن تفعل ما تشاء، بعد أن صدر حكم بسجنه مؤبدًا. يريد لها أن تترك القرية كلها، فهو يخاف الانتقام من ابنه الرضيع.

هز «محبوب» رأسه تأثرًا، وقال: هذه آخرة الطيش والحماقة.

صمتا برهة، قطعها «عسَّاف» قائلًا: ليست وحدها مَن تريد البيع.

توقف «محبوب» عن مضغ لقمة في فمه، ونظر إليه طويلًا، وهز رأسه، مشجعًا إياه على مواصلة الحديث، فقال: نصيبنا أيضًا سنعرضه للبيع، ولن نجد شاريًا خيرًا منك.

لاذ «محبوب» بالصمت، وهو يدرك أنه لو أبدى حماسة للشراء سريعًا فإن هذا سيزيد في السعر. تزحزح في مكانه، وقال: لا أعرف إن كان بوسعنا شراء كل المشروع أم لا.

فاجأه «ليشع» بالقول: ساكنو السرايا لن يعدموا وسيلة في تدبير المال.

ولم يجد «محبوب» ما يقوله سوى: لا أعتقد أنني ضايقتكم في شيء، ولا أعرف سببًا لهذا القرار.

رد «ليشع»: الحقيقة أننا قررنا إنشاء مشروع آخر في «القاهرة»، هناك سوق كبيرة.

وتدخل «عسَّاف»: مغامرة جديدة، نتمنى أن تنجح.

وقال «ليشع»، وكان أكثر صراحة: الحقيقة يا عمدة أنت رجل لا غبار عليك، لكننا كنا نشتري القصب والقمح وبذور القطن واللبن أيام «رشدان» بأسعار أقل، فكان الربح أكثر.

سكت «محبوب» برهة، وقال: لم أخطئ حين أعطيت الناس حقوقهم.

رد «عسَّاف»: حاشاك يا عمدة، لكن لكل طريقته.

هز «محبوب» رأسه، وقال: أمهلوني أسبوعًا واحدًا، أعود فيه إلى مَن يشاركني، وفي زيارتكم القادمة نجلس لنقدر ونقرر.

(42)

غمرت الفرحة نفس «عبلة» حين سمعت الخبر. نظرت إلى «ناجي» بوجه بهيج، وقالت: فرصة يجب ألا تضيع. وسألها عن تدبير المال، فقالت: عبء هذا أقل كثيرًا من عبء رسو المشروع على غريب، لا نعرف مَن يكون، ولا كيف سيتصرف معنا، ونحن على أبواب أن نكون كبراء القرية بلا منازع. صعدت إلى الطابق العلوي، وأحضرت صندوقًا صغيرًا مملوءًا بحُليِّها، وجنيهات من الذهب. مدته إلى «ناجي» وقالت: جاء أوان نفعه.

عز عليه أن تبيع حُليَّها، فقال: نبيع أرضًا، واحتفظي بمصاغك.

- يبدو أن عيشك الطويل في البندر أنساك قيمة الأرض.

- لم أنسَ، ولكن..

- بيع الأرض عار، حتى لو مكنتنا من امتلاك مشروع قد يأتينا بأكثر مما نجنيه من حصاد المحاصيل. الأرض باقية، وغيرها يذهب. لم يترك لنا الأجداد الذهب والمال، إنما تركوا الأرض، ومنها جاء كل شيء.

وأحصى ما في الشونة من غلال، وفكر في أن يبيع محصول الأرض مبكرًا، ويبيع قطعان الماشية والضأن التي تتزاحم في الحظيرة، وباعت هي المركب الشراعي الذي لن تكون له فائدة لديهم بعد وصول القطار إلى قريتهم.

جلس «ناجي» يُحصي كل شيء، وقال: هذا لا يكفي.

ردت هي: فاتح «ليشع» في تقسيط ما يتبقى، لعله يقبل.

- لا أعتقد أنه سيرضى.

- أبلغه أننا لن نرضى بغريب يملك شيئًا في قريتنا، ولن يكون أمامه سبيل سوى القبول.

ثم برقت في رأسها، فكرة، وقالت: هناك حق «محمود» ولنفاتح أم «بهاء» في رده، فإن قبلت، نمهله هو حتى موسم الحصاد بعد القادم.

صمت «ناجي» برهة، وقال: أظن أنها قبلت الحرام، ولن ترد شيئًا.

وكان «محبوب» قد أبلغهما بأن «ليشع» سيعود بعد أسبوع لإتمام البيع، فقال لها: الوقت ضيق، ولا نريد أن نعلق آمالنا على حبال ذائبة. وقلَّبوا الأمر على مختلف وجوهه، فبدوا عاجزين عن تداركه. لكن

فكـرة برقت في رأسـها فجـأة، وقالت: آن الأوان أن تـؤول إلينا أرض الانتقاع.

اسـتملح «ناجي» ما سـمع، لكن هـذا لم يكن يحل المشـكلة التي يواجهونهـا الآن، فقـال: هـذه نقـرة أخرى، نتفـرغ لها بعد أن نشـتري المصانع.

اسـتعرضت أمامه أسـماء عُمد القـرى القريبة، وقالـت: ربما نجد لدى أحدهم قرضًا، نرده بعد سنتين.

لكنه أبدى أمامها مخاوفه من أن يطلب أيهم شـراكة في المشروع، أو جـزءًا مـن الأرض، فارتـدت كاسـفة البـال، وقالت: لم تبقَ سـوى السرايا.

انزعج من اقتراحهـا، ورآه غريبًا، وقال: هي واجهة لمهابتنا، وفيها كل الذكريات التي لا يمكن أن نتركها لأحد يعبث بها.

اقترح عليهما «ليشع» أن يقترضا المبلغ المطلوب من البنك. وكان «ناجي» قد سـمع عن بنك أنشـأه روفائيل سـوارس وأرنسـت كاسـل برأسـمال مليون جنيه لكنه رفض الفكرة، وقال له: ليس أمامك سـوى أن تُقسِّط لنا ما تبقى.

فكـر «ليشـع» قليـلًا، وقـال: رهـن جـزء مـن أرضكـم فيـه الحل الشافي.

وسـأله «ناجي» عمن يقبل بهذا الحل، فقال: تُرهن لي، وتُرد إليكم بعد سداد المبلغ المتبقي.

ووجده «ناجي» حلًّا مناسبًا، لكن «عبلة»، طوحت يدها في الهواء رافضة؛ لأنها رأت في هذا إهانة بالغة، وبابًا يفتح عليهما ألسنة الناس. نظرا إلى «ليشع»، وسألته هي: عليك قبول تقسيط ما تبقى، وهذا آخر ما عندنا.

صمت برهة، ونظر إلى «عسَّاف»، وكانا قد فكرا في كل الاحتمالات قبل عودتهما إلى القرية، فقال: موافق على التقسيط، لكنه يختلف عن الدفع الفوري.

وتطلع إليه «ناجي» متسائلًا، فواصل: تدفعون المبلغ المتبقي وفوقه الثلث.

احتد عليه «ناجي»: هذا ربا، لا تقبله ذمتي.

قهقه، وقال: تقبله ذمتي أنا، ولا شأن لك بهذا.

نظر إلى أمه لعلها تسعفه بشيء، فوجدها تقول: ليكن العُشر، ولن نزيد.

هز «ليشع» رأسه رافضًا، وقال: هذه خسارة لا أتحملها.

ردت «عبلة»: نقف في نقطة وسطى، فليكن الثُّمن، وهذا آخر ما عندنا.

ابتسم «ليشع»، وقال: لا بأس، سأقبل من أجل خاطر الهانم.

(43)

انتهى الفلاحون من حصاد القمح، وجاء المقرقرون من النصارى وفي يد كل منهم مذراة، راح يغمسها في الجرن العالي أمامه، ويتطلع إلى الهواء لعله يتدفق سخيًّا، فيساعده على فصل التبن عن الغلة في يُسر. مُلئت الأجولة، وحملتها الحمير والجمال إلى الشونة.

كان «ناجي» جالسًا على كرسي أمام الشونة يعد الأجولة، ويقيد العدد في دفتر، بينما يتولى أولاد «أم الخير» رصها في صفوف تعلو تباعًا، حتى تكاد تبلغ السقف. ظل على هذه الحال من الصباح حتى حلَّ الليل، ثم نهض متعبًا إلى السرايا، مطمئنًّا إلى تسديد ما حصل عليه مقدمًا من التجار. ما إن سقط في سبات عميق، حتى طرقت خادمة باب حجرته. لعن الطارقة في سره، وأراد أن يعود إلى النوم، لكن الطرق ازداد، فهب واقفًا، ليجد «نوارة» على الباب، تقول في انزعاج: جاء الفيضان.

استدار مسرعًا نحو حذائه، فدسه في قدميه، وهو يردد في جزع: الشونة.. الشونة. راح يجري في الحديقة حتى بلغ بابها، فوجد فلاحين يسرعون نحو الجسر، فاستوقفهم قائلًا: اتبعوني.

قال له أحدهم: لم يبلغ الماء القرى المجاورة بعد.

لكنه لم يلتفت إليه، وراح يسرع الخطى ملهوفًا. جروا خلفه، ومعهم حارس السرايا والحوذي الذي كان يستلقي على ظهره إلى جوار السور. بلغ الشونة، فلم يجد الماء قد وصلها. التفت إليهم، وصرخ: آتوني بربط القش والأحجار.

ركبـوا عربات الكارو والحمير والجِمال، وأسـرعوا نحو الحقول. كانـت ربـط القمـح مُكوَّمـة كأنها تل عـالٍ. خطفـوا منها علـى قدر ما تحمـل الدواب، فوصلوا إليه وهو يولي وجهه شـطر النهر، ينتظر أول المـاء المندفع. كدسـوا ربط القش صفوفًا متلاصقـة، ووضعوا أمامها الأحجـار التي جمعوها. ضرب بعضهم الفؤوس في الأرض، وكوموا خلفهـم الطمـي أجرانًا صغيـرة، رفعها رجـال آخرون فـي المقاطف، ليضعـوا الطمـي علـى القـش، حتـى ارتفـع السـد، أعلى مـن الجدار الحجري للشـونة، والذي كانت تعلـوه حوائط من الطوب اللبن. دقوا خلفه أوتادًا من أفرع الشجر، ليكون قادرًا على صد الماء.

طوقوا الشونة من كل جانب، وساعدهم ضوء قمر منتصف الشهر العربـي على أن يتبينوا ما فعلوه جيدًا. ألقوا أجسـادهم المنهكة خلف الطوق، بينما ظل «ناجي» واقفًا يتطلع إلى الماء، الذي مد لسـانًا عفيًّا، وانداح في سرائب الحقول فغمرها.

كان فلاحـون آخـرون قـد هرعوا إلى الجسـر، يرمـون فوقه القش والتراب، ويكدسـون في الجوانب المهترئة منه كتل الطين والحجارة. بعضهـم جرى نحـو الشـواديف والطنابيـر الموزعة بالقرب من شـفة النهر، ورفعوها بعيدًا، حتى لا يجرفها الماء في طريقه. رفع الصيادون قواربهـم إلى اليابسـة، التي سـيبلغها الماء لا محالـة، وضعوها خلف أشجار الكافور والجميز المتينة، وربطوها بالحبال في الجذوع الثابتة، تاركين أعشاشهم وأكواخهم الهشة طعامًا رخيصًا للماء.

انهمك آخرون في إغلاق فوهات الشوارع المفتوحة على الخلاء، سدوها بالقش والأحجار، وأهالت عليها الفؤوس كل ما استطاعت أن تغرفه من التراب. هرع مَن كانوا قد تأخروا في حصاد أقماحهم وفي أيديهم المناجل والأشولة. جزوا رؤوس السنابل وهم يسابقون الزمن، تاركين الأعواد الهشة اليابسة للماء الذي بات على الأبواب.

حتى شريط السكة الحديدية غمره الماء. خضعت قضبانه وعوارضه السميكة المثبتة بإحكام لهجوم الفيضان، رغم أنها تعلو على الزراعات. حين نظر «ناجي» إليها في اليوم التالي أيقن أن تشييد المحطة سيتأخر مرة أخرى، فقال في نفسه: محطة مشؤومة، كلما اقتربت ابتعدت.

وحدها الجبَّانة التي اطمأن الجميع إلى أنها ستنجو كالعادة من هجوم الماء الكاسح. ووحدها «هنيَّة» التي لم يحركها شيء. كانت قد تربعت تحت اللمبة، يدها ممدودة إلى الوِرد، تقرأ على مهل، وصوتها الندي يسري نحو النيل والبيوت.

تركتها الخادمة ووقفت فوق قبر «رضوان»، نظرت إلى الساكنين تحت التراب، وقالت: أراحكم الله من عذاب هذه الدنيا الفانية. ورمت بصرها نحو قبر «رشدان»، وبصقت، وقالت: أنت لا راحة لك ولا رحمة.

انقطعت السبل بالفلاحين، فمكثوا في بيوتهم عاجزين عن فعل شيء. كانوا يصعدون إلى السطوح في النهار، يرمون أبصارهم إلى الأرض المغمورة صامتين، ثم يمدونها إلى مجرى النيل، لعله يرأف بهم، ويفرج عنهم، فيعودوا إلى الكدح.

وضاقت النسوة بهم، وهن اللائي أخلصن دومًا للمثل الساري الذي يرى أن جلسة الرجل في البيت أثقل من الهم على القلب. ولمَّا ضاقت الأرزاق زادت المشاحنات، ولم يكن أمام الرجال من سبيل سوى الصبر، أو الهروب إلى المصاطب، ليتبادلوا الحديث عن أوجاعهم، ويحسبوا الساعات التي انقضت على عطلتهم، ويبثوا أشواقهم إلى الفؤوس التي بردت من طول الانتظار.

وتذكرت «عبلة» ما كان يفعله أبوها في مثل هذه الأوقات العصيبة، فنظرت إلى «ناجي»، وقالت: لا يجب أن تنقطع العادة. ولم يفطن إلى ما تقصده، فشرحت له ما عليه أن يفعله، وقالت: في أيام الفيضان تصبح بيوت الكبار هي الملاذ. قام على الفور إلى غرفة الخزين. تطلع إلى أشولة الدقيق والأرز والعدس والفول، وأكياس السكر، وبلاليص العسل، وصفائح السمن والجبن، ثم انهمك في إحصائها، فلمَّا انتهى أيقن أن الخرق متسع على الراتق، لكن «عبلة»، نصحته بأن يبدأ ببيوت الأجراء، وقالت: هؤلاء لا غلة حولهم ولا تبن، ولا يجب أن ننتظر حتى يصرخوا بالشكوى.

نظر إليها «ناجي» في امتنان، وقال: سأرسل إليهم ليأخذ كل منهم ما يعينه على العيش إلى أن تنكشف الغمة. فهزت رأسها رافضة ما سمعته، وقالت: الناس في القرية يفضلون الموت على السؤال. لم يدرك مقصدها، وهو الذي يسكن البندر نفسه أكثر من الريف، فأوضحت: يذهب ما نجود به إلى كل منهم حتى داره.

استعان «ناجي» بالعمدة، الذي رغم قصر مدته في القرية إن قيست بمَن طلب إعانته، إلا أن مهمته جعلته يعرف كل أحد، وأي شيء، يسعفه في هذا خفره، وفضوله الدائم، وشعوره الراسخ بأن مَن يتولى شؤون الناس عليه أن يعرف أحوالهم جيدًا. جلس العمدة في السلاملك، وفي يده ورقة وقلم، وراح يسجل أسماء الذين هم في حاجة إلى الإعانة أكثر من غيرهم. وكانت «عبلة» قد فضلت أن يجري كل شيء في الليل، حتى لا تُجرح نفوس الناس بعوزهم.

بعد العشاء، خرجت الخادمات يغبرن أقدامهن في تراب الشوارع، ومعهن الخفر. طرقوا البيوت، ومدوا إلى كل مَن فتح بابه مؤونته. أغلب الأجراء من «الجوابر» قبلوا الصدقة، وقلة منهم ردت الخادمات قائلين: تكفل أهلنا بنا. فلمَّا عادت الخادمات بالرد إلى «عبلة»، قالت هازئة: لم تغادر الأحقاد القديمة كل النفوس بعد.

(44)

وجد «ناجي» في أيام الفيضان فرصة ليفهم سير العمل في المعاصر ومعمل اللبن والطاحونة. كان فلاحون من القرية قد أتقنوا هذه الحرفة الجديدة، يؤدونها بلا عناء. راجع الدفاتر، حيث الوارد والصادر، وهوامش الربح، وأجور العمال. حرص على أن يشرح له رؤساء العمال كل شيء عن الآلات التي تزمجر، لا تلقي بالًا لمَن باع، ومَن اشترى وصار مالكًا جديدًا.

حين اختلى برؤساء العمل، بعد أن استفاضوا في الإجابة عن أسئلته المتلاحقة، قالوا له: طلبنا منذ مدة طويلة زيادة أجورنا، لكن

لم يُستجب لنا. وعدهم بأن يستجيب حين يتسع الربح. قهقه أحدهم، وقال: هذا ما سمعناه طوال الوقت.

شعر بخجل. غاص في نفسه قليلًا، وقال: ليس الناس سواء.

تدخل آخر ليطلف غلواء ما قاله زميله، فرسم على وجهه ابتسامة عريضة، وقال: مَن جلس ليقضي في الناس لن يظلمنا.

استملح «ناجي» ما نطق به الرجل، وقال: سترون كيف ستختلف الأمور، عليكم بالجد كي يزيد إنتاجنا، وفي هذا حل لكل المشكلات.

وكانوا يعرفون ما على «ناجي» من أقساط، وما تخلى عنه كي يملك ما تركه «ليشع» وأم «بهاء»، فهزوا رؤوسهم وقالوا: لن نبخل أبدًا بأي جهد.

فتح أمامهم باب أمل عريض، حين قال: أجوركم سارية كما هي حتى ينتهي العام، وفي مطلع العام الجديد ستزيد بقدر ما ننتج، وسيكون لكم نصيب أيضًا في الربح.

وفاتحه أحدهم في أمر عامل هرست تروس المعصرة يده، وصار عاطلًا، فقال «ناجي»: هاتوه، وسأجد له موقعًا يفيدنا منه. ثم نظر في وجوههم، وقال في ثقة: اعتبروا أنفسكم شركاء لا أجراء.

صارت هذه العبارة هي عنوان العمل في قابل الأيام. نعم لن يكونوا شركاء في الملكية، ولا في الربح، يأخذون منه بقدر ما يؤول إلى أصحاب كل شيء، لكنهم أيقنوا أنهم صاروا شركاء في المسار والمصير، فأقبلوا على العمل بشهية مفتوحة، وأبلوا بلاءً حسنًا.

وذهب إليه «محمود»، يتقدم خطوة ويتراجع خطوتين. كان قد قضى ليالي طويلة يفكر في همه وحيدًا، ويشرك أحيانًا زوجته «رضيَّة» التي كان بصرها يكل، حتى باتت لا تتبين الناس إلا إن اقتربوا منها كثيرًا. قالت له بعد تفكير: حقك انهضم مع الخسيس وابنه. لكنه كان يتعشم في عدل القاضي السابق، وأكثر في المعلم الذي يعلم التلاميذ أن يسلكوا درب الحياة بقلوب نيِّرة. قال لها: هو يعرف ما كان لي، ولن يقبل ظلمي مرتين. ردت وهي تحرك جفنيها لعلها ترى وجهه وهو بعيد عنها: لن تخسر شيئًا من المحاولة.

استرجع في الطريق إلى السرايا ما جمعه مع الراحلين «جعفر» و«عمر»، فجلس يحكي عن الثروة التي ورثوها وضاعت، وعن الكفاح الذي بدأوه حتى كبروا في مكان عادوا إليه خفية، وعن الوعد الذي حط على أكتاف «آل بخيت» كما كان مع «الصوابر». وكلما همَّ لينطق بما يريد، توقف الكلام على لسانه، فهرب إلى الحكايات القديمة.

فطن «ناجي» إلى ما يريد، فقال له: لم أنسَ ما لك، لكن الديون تثقل كاهلي.

نظر إليه «محمود» في استعطاف ظاهر، وقال: لا ذنب لك فيما جرى لي، ولو جُدت بشيء فهذا من كرمك.

فكر «ناجي» قليلًا، ثم سأله: هل كنت شريكًا في إدارة المشروع؟

سرى في وجهه ارتياح، وأجاب: نعم، وتعلمت أكثر من طول الانشغال.

ابتسم، وقال: سأوكل إليك الإدارة، ولك أجرها، ومن فائض الربح، سأسدد لك نصيبك القديم تباعًا.

هب واقفًا من فرط الفرحة، وقال: أنا لها من الآن.

وقال «ناجي» لنفسه، وهو يودعه عند باب الحديقة: لا يخلص أكثر من صاحب الحق.

وكان «محمود» عند حسن الظن، فشمر عن ساعديه، وقدح ذهنه، فابتكر الكثير من الأساليب في الإدارة، واقترب من العمال، يمد يده معهم، ولا يكف عن إبداء النصائح، فإن أعطى أمرًا جعله هينًا، حتى قال «ناجي» عنه: الهيبة يصنعها العدل والفهم، وليس البطش والاستعلاء.

وسمعته «عبلة» فقالت: لم نعرف عن «آل بخيت» سوى الإخلاص.

(45)

لم يبقَ أمام «ناجي» كي يقبض على كل شيء سوى أرض الانتفاع. استعان بزميله ابن مدير المديرية، فقال له: لا تحمل همًّا، سيزكيك أبي، لكن عليك السعي عند أصحاب القرار في «القاهرة».

وعمل بالنصيحة، فسافر على عجل، ولم يرجع إلا بعد أن قطع شوطًا بالغًا في الطريق إلى الأرض البراح. قدم الطلبات مشفوعة بمكانته، وتاريخ أسرته المشهود مع الأرض. دفع الحلوان لمَن بيده الأمر، فطمأنه إلى أن كل شيء سيصير إليه، وهو ما كان.

حين تسلم الأرض خصصها لخدمة المعاصر والطاحونة، فزرع القصب والقطن والقمح. أطلق أولاد «أم الخير» ليجوبوا القرى جامعين المزيد. كان «محمود» قد وزع العمال على ورديات تعمل ليل نهار، حتى زاد الإنتاج، فلمَّا فاض عن قدرة الشارين على استيعابه، نصحه قريب له من «القاهرة» بفتح سوق جديدة، وقال: لتكن لك وكالة، تباع فيها بضاعتك، فهذا أجدى.

استملح الفكرة، وقال: عما قريب يقف القطار في قريتنا، ويسهل نقل بضاعتنا.

وكان يعرف ما يفكر فيه «رافع» ففاتحه في أمر الوكالة، فقبل مسرورًا، وقال: أنا منكم في النهاية. ابتسم «ناجي» وقال: سأجعل عليها ذا خبرة يديرها، وتكون مساعده إلى أن تتقن المهمة.

رغم انشغاله بمشروعه الذي يتسع بمرور الأيام، لم يترك «ناجي» المدرسة. وزع وقته بينها وبين المشروع والأرض. وحين تأتي إجازة الصيف كان يسافر إلى «القاهرة» ليرى سير العمل في الوكالة، التي راجت بضاعتها بين الناس، فقصدها تجار الجملة والتجزئة والأفراد العاديون، يحملون منها بلاليص العسل، وصفائح الجبن، وأجولة الدقيق.

انتظم في دفع ما عليه من ضرائب، وكان يقدر بدقة نصيب الزكوات والصدقات في ماله، فالتف أهل القرية حوله، بمَن فيهم بعض «الجوابر»، الذين سلموا بأن لا أحد منهم له قِبَل بهذا الشاب الطموح، الذي فاق أجداده في استعادة المجد الغابر، وفي كسب قلوب الناس.

واعتادت أقدام أهله من «الصوابر» أن تطأ شوارع القرية، يأتونها تباعًا، فيحرص هو على أن يمشي بينهم معتدًّا بنفسه، وهو يذهب إلى المسجد والأرض المزروعة والمصانع، فإن قابله أحد من «الجوابر» أوقفه ليتعرف الناس عليه، قائلًا: هذا عمي.

لم يفارق هذا الوصف لسانه حتى عن فتيان «الجوابر»، وكان يقول لنفسه حين يرى الأثر الطيب لما يفعله: تأليف القلوب قبل تنفيع الجيوب.

وحين يقرأ آثار الضغينة التي صنعتها الحكايات القديمة على وجوه البعض منهم، كان يقول: المعاملة الحسنة تذهب البغضاء ولو على مهل.

وسمعته «عبلة» فقالت بصوت قاطع: مرضى القلوب لا تنفع معهم الحسنى.

وتطلع إليها، ليعرف ما يدور برأسها، فقالت: إياك أن يغيب عنك الحذر.

(46)

لا تجري الأيام كما دبَّر الحكماء سيرها في رؤوسهم. هناك دومًا مساحة لا تزول بين الرغبة والقدرة، وبين الخيال والواقع. لا حدود فاصلة بين الخير والشر حتى في النفس الواحدة، فما بالنا بأنفس عديدة. توجد على الدوام زاوية عمياء يمرق منها السهم بغتة إلى قلب المطمئن، فيصيبه أو يرديه قتيلًا.

هناك في عالم الغيب ما تفجع له النفوس التي استكانت للحاضر، وفي الأحلام والرؤى تنبيه لمَن آمن بالعطايا التي يهبها الله في ساعات النوم.

(47)

نامت «عبلة» مطمئنة إلى أن ابنها صار كبيرًا، تسبق سمعته اسمه في كل الزمام. يأتي الناس على ذِكره حين يتحدثون عن الوجاهة والاستقامة، أو عن الكفاح والإخلاص. لم تنسَ كعادتها أن تتمتم بالدعاء له، بعد أن تكر السبحة بين أصابعها، ثم تضعها تحت وسادتها، وتذهب إلى نومها، موتها الصغير.

كانت في الأيام الأخيرة كثيرة الحديث عن الموت، حتى انقبض قلب «ناجي»، والتفت إلى «نوارة»، وقال: لا ينشغل بالموت هكذا إلا المقبلين على الرحيل.

ضربت يدها بصدرها، وقالت: لا ينسى التفكير في الموت إلا من مات قلبه.

وتذكرت جدتها التي ظلت عشر سنوات لا حديث لها إلا عن أهل القبور، وكان مَن حولها ينامون ليلهم وهم يعتقدون أن الصباح لن يأتي عليها بينهم، ثم يستيقظون فيجدونها تدب في البيت كأن الشباب قد عاد إليها.

ولمَّا قرأت في عيني «ناجي» الخوف، قالت له: مثلك لا يجب أن يجزع لأمر لا مفر منه.

هز رأسه، وقال: أمي وتد كلنا ندور حوله، ونمسك به، وأخشى إن غاب نهتز جميعًا بلا مستقر.

لكن «عبلة» استيقظت في هذا الصباح لتحدثه عن شيء آخر. كان وجهها منقبضًا، وفي عينيها زيغ وأسى. قالت له وهو يطبع قبلة على جبينها: اعرف مكان الخنجر المخبوء قبل أن يطعنك.

نظر إليها بعينين سكنهما الوجل والحيرة، وقال: لا تخلو الدنيا من الخناجر.

- تعرف أن بعض ما أراه في منامات الليل يجري بيننا.

- بعض الأحلام تنفيس عن مخاوف، وبعضها هلاوس، وهناك ما نعجز عن تفسيره.

- يبدو أننا مقبلون على أمر غريب، لم ترَه القرية من قبل.

نظر إليها مستفهمًا، فواصلت: رأيت رجالًا يسرعون نحو عظام قديمة في المقبرة، عيونهم حمراء، يتطاير منها شرر فوق البيوت والزروع، وأذرعهم ممدودة إلى أعلى، بينما تقبض أيديهم على شعل نار وعصي وسكاكين وبنادق.

ابتسم، وقال: لا يتصارع الناس على العظم.

هزت رأسها في أسى، وقالت: ما أشقانا هنا أكثر من حكايات الذين ذابت عظامهم تحت التراب!

لـم تنـسَ خادمة الزاوية ما فعله بها «رشـدان». كانـت تترك «هنيَّة» سابحة في خواطرها الشجية، وتذهب إلى قبره كل ليلة. تجلس فوقه، بعـد أن تبصق على الشـاهد المدون عليه اسـمه باعتبـاره عمدة القرية وكبير «آل جابر». تفرد ساقيها، وتطوح قدميها قائلة: أخيرًا صارت لك فائدة يا المجحوم.

طالما حلمت برجل تروق له، فيعتقها من الخدمة، ويدفئ فراشـها البارد، أو يطفئ حرقتها. حين تسـمع شدو «هنيَّة» الذي لا تفهم أغلبه، تتخيـل أنهـا تنـادي حبيبًـا قد هجرهـا إلى غيـر رجعة. تنظر إلى شـعر «هنيَّـة» الأبيـض الـذي يطل مـن تحت طرحتهـا السـوداء، وتقول في سرها: جاءتها الجذبة بعد أن ذاقت طعم الرجال.

وتتذكر «عمر» بجسـده المتين، وطلته الجريئة، وتقول: لا شك أنه قد أشبعها، فمَن لي برجل، ولو كان نصفه أو ربعه. لكنها تغوص خائبة في أحزانها، متذكرة ما فعله بها «رشدان»، فقد أساء إلى سمعتها، فجفل منها الرجال. ورغم أنهم جميعًا قد تأكدوا من براءتها، لكن لم يكن من بينهم مَن يتحمل حتى عبء الشـكوك التي تبددت. تبدو متيقنة من أن «رشـدان» يتفافز الآن في نار جهنـم. يرضيها هذا بعض الوقت، إلا أن السـخط سـرعان ما يجتاح نفسها، فما فائدة أن يتعذب هو في الآخرة، بينما هي تتعذب في الدنيا؟

غلبتها الرغبة في الانتقام، لكن كيف تنتقم ممن مات. لا شيء يبقى منه في الدنيا قد تصب عليه جام غضبها. لعنته سـرًّا وجهرًا، حتى كان

صوتها يبلغ أحيانًا سمع «هنيَّة»، فتنظر إليها صامتة، وتواصل الشدو الحزين.

تمشي بين القبور فتصل إلى مكان تُرك فيه فأس وإزميل وشاكوش وكوريك. أشياء يحتاجها الناس كلما مات أحد كي يحفروا قبره. تمسك كلًّا منها في يدها، وترفعه إلى أعلى، ثم ترمي بصرها نحو قبر «رشدان»، وتقول: حتى عظامك البالية تُنجِّس المكان.

وأضناها السهاد ذات ليلة، نامت فيها «هنيَّة» وارتفع غطيطها يكسر الصمت المقيم. انسحبت في هدوء من جانبها، ملتحفة بظلام لم تفلح النجوم الساهرة مثلها في تبديده. سارت نحو الأدوات المركونة، والتقطتها بين يديها، ومضت نحو قبر «رشدان». كانت في ليالٍ سابقة، تمد يدها وتهز حجرًا بارزًا في جداره، حتى كاد ينخلع. وصلت إلى القبر. تلفتت حولها فتأكدت أنها الوحيدة هنا. جلست القرفصاء، وضربت الحجر بالإزميل فتهاوى إلى جانبها. أعملته مرة أخرى في الحجر الذي يليه، فلحق بسابقه، مثيرًا بعض الغبار. شدت طرحتها ومسحت الغبار من فوق جبينها، وواصلت الهدم في غلٍّ شديدٍ، منحها طاقة جبارة.

لم تمضِ سوى ساعتين حتى كانت قد أزاحت الأحجار من مكانها. نظرت إلى الشاهد، وضربته بالشاكوش في قوة، فتحطم محدثًا صوتًا عاليًا. وقفت مذعورة، تتلفت حولها، لكن الصوت لم يبلغ أحدًا. حتى «هنيَّة» كانت لا تزال تغط بلا انقطاع.

انكشفت لها أرضية القبر لينة، فرفعت الفأس وضربتها فيها فانغرست حتى ناصيتها. سحبت التراب نحو الأحجار المبعثرة، وواصلت الضرب والسحب في تفانٍ، حتى صارت أمامها حفرة. انتابها إجهاد، وتعب فيها الذراعان لكن لم يكن بوسعها إلا أن تواصل. واصلت، بعد أن استعادت همتها، حتى علقت الفأس بالكفن، شدته في عنف فتمزق، ثم حفرت إلى جانبيه حتى خلص لها بين التراب. رفعته في اشمئزاز بالكُريك، وكان هيكلًا عظميًّا نُخر فيه قفص الصدر والأطراف، بينما كانت عظام الجمجمة والفخذ والساقين لا تزال قوية. مدت يدها ونزعت بقية الكفن، ثم سحبته إلى أعلى. جرَّته بعيدًا. نظرت إليه تغالب خوفها، ثم انهالت على الجمجمة بالشاكوش تحطمها. فتتت الساقين، وطحنت العظام البالية، ثم بصقت عليه.

كان نور الفجر الوليد قد شقشق فوق الزروع. رفعت هامتها إلى بعيد، فإذا بها لا تزال وحيدة. بين القبور حفرت سريعًا، ودفعت العظام المهشمة إلى الحفرة الجديدة، ثم أهالت عليها التراب. أعادت الفأس والإزميل والشاكوش والكُريك إلى مكانها. وهرعت نحو الزاوية. في جريها الملهوف لمحت القبر المنبوش في قسوة، فبصقت عليه من جديد. خلعت ملابسها ونفضتها بقوة حتى تساقط عنها التراب، وكذلك فعلت بطرحتها. ارتدت ما خلعته، ودخلت إلى جوار «هنيَّة». دست رأسها في الوسادة، وراحت تبكي وتبتسم في آن.

لم تنم رغم التعب الشديد، شاردة في خواطر يمتزج فيها الخوف بالاطمئنان، والقلق بالسكينة. حدثتها نفسها أن تترك كل شيء

وتمضي. تشرق الشمس فلا يجد لها أحد أثرًا في القرية. لكن رغبتها في أن ترى الفزع والغضب في عيون «الجوابر»، والشماتة في عيون غيرهم، جعلتها تبقى.

وبينما هي متقلبة بين تفكير في الفرار، وآخر في الثبات، استيقظت «هنيَّة». ما إن رأتها تفتح عينيها، حتى تصنعت النوم، أخرجت شخيرًا عاليًا، لكنها شعرت بإصبع تنغرس في كتفها. أدركت أن مخدومتها تريد منها شيئًا كعادتها كل صباح، لكنها سمعتها تقول: أشم رائحة الموت.

غالت في انقباض جفنيها، ورفعت شخيرها أعلى مما كان. لكن «هنيَّة»، أعادت غمزها، بقوة هذه المرة، وقالت لها: كأن ريحًا قد غبَّرت المكان أثناء نومنا.

تصنعت التثاؤب، وقالت بصوت متقطع: لم أدرِ إن كانت الريح قد هبت، فقد نمت مثلك طوال الليل.

عطست «هنيَّة»، وقالت: هاتي دورق المياه. أخذته بين يديها، وسحبت جرعة طويلة، حركتها بين شدقيها، ثم دفعت الماء إلى جوار الحصير. صبت قليلًا في راحتيها، ومسحت وجهها، وسألت وهي تنظر إلى باب الزاوية: من أين أتى هذا التراب والباب مغلق؟

اغتصبت الخادمة ابتسامة من جوف خوفها وقلقها، وكانت تعرف الأوقات التي تسترد فيها «هنيَّة» وعيها كاملًا، قبل أن تغيب في مرضها من جديد؛ لذا قالت لها: ربما تسرب من شقوق الجدران أو خروم الباب.

وبينما هما تتحادثان سمعتا صرخة في الخارج. كانت الخادمة تعرف سببها، بينما قالت لها «هنيَّة»: اخرجي لتعرفي ما جرى. نهضت، ودفعت قدمين مثقلتين بالوجل والتردد، حتى بلغت الباب. فتحته على مهل، ومدت رأسها لترى، فإذا برجل يقف على رأس القبر المنبوش، ينظر إليه في عجب، ويضرب كفًّا بكف. نادته الخادمة: مَن أنت؟

حين سمع صوتها جرى نحوها، وهو يقول: ما رأيته لا يُحكى.

تصنعت الجهل بما يقول، وصرخت فيه: قطعت نومنا، فاذهب إلى حال سبيلك.

أزاحها من طريقه حين رأى «هنيَّة» جالسة في هدوء، ترمي بصرها نحو المقبرة، غير مشغولة بشيء. وقف الرجل عند باب الزاوية، وقال لها في جزع: نبشوا قبر أخيك.

كانت الخادمة قد جرت نحو القبر، فعادت تقول، وهي تتصنع الجزع: ما قاله الرجل صحيح.

قامت «هنيَّة» متثاقلة حتى بلغت الحفرة. غرست عينيها في قعرها اللدن، وقالت: يستاهل.

عادت إلى الزاوية، فلم يجد الرجل أمامه سوى الخادمة، فصرخ في وجهها: أين كنتِ حين حدث هذا؟

غلبت ارتباكها، وقالت: كنت نائمة.

تركها الرجل وأسرع نحو القرية. كانت الشمس قد أشرقت فوق البيوت، وأخذ الفلاحون يسعون إلى الحقول، على أكتافهم الفؤوس، وفي أيديهم أرسنة مواشيهم. أوقف أول مَن قابله، وحكى ما رآه بصوت متقطع من فرط لهاثه. وسمعه التالي، فتوقف، وهكذا فعل الثالث. سرى الخبر خلفهم إلى البيوت، حتى هرع كثيرون نحو المقبرة.

قال أحدهم: مصيبة لم تحل علينا من قبل.

تدخل آخر: لا بد من إبلاغ العمدة.

كان الثالث بينهم من «الجوابر»، فصرخ في حدة: هذا فعل تطير له الرقاب.

ولمَّا جاء العمدة «محبوب»، غلب مسرته، وأبدى جزعًا مفتعلًا، وسأل عن الرفات.

داروا يمنة ويسرة باحثين عن شيء، لكنهم لم يجدوا، فقال أحد «الجوابر»: مَن نبش لم يتركه، أراد أن يلحق بنا عارًا.

نظر إليه «محبوب»، وقال من طرف لسانه: العار لحق بنا جميعًا.

لكن «الجوابر» الذين حضروا، تبادلوا النظرات في غيظ، وسأل أحدهم العمدة في تحد: مَن في صالحه أن يسيء إلينا يا عمدة؟

هز العمدة رأسه، وأجاب: لا أدري.

زاد الرجل في تحديه، وقال: أنت تدري، وكل «الصوابر» يدرون.

كان الخبر قد وصل إلى «ناجي» فتذكر ما قصته عليه أمه من رؤياها، وقال: كلما أوصدنا نافذة للشر انفتح لها باب. وأوصته «عبلة» أن يتصرف بحكمة، فأسرع إلى المقبرة قابضًا على وصيتها، حتى بلغها وهو يلهث. كان الخلاف بين العمدة و«الجوابر» قد بلغ مداه. اتهمه بعضهم صراحة بأنه يعرف مَن ارتكب هذه الفعلة الشنيعة، إن لم يكن هو نفسه وراءها، ففار الدم في عروقه، وقال: لا أعجز عن مواجهة أحيائكم حتى أواجه موتاكم.

وقبل أن ينطق أحد «الجوابر»، قال «ناجي»، وهو يرفع كفه في وجه الواقفين حتى يهدأوا: هذا حديث لا يليق بالعقلاء.

نظروا إليه في استهانة، وقال أحدهم: لو قتلتم واحدًا منا لكان أخف علينا مما جرى.

رد «ناجي» في هدوء: الله بيني وبين الدم، وأنت تعلم.

وأراد أن يُفرغ شحنة الغضب بعيدًا عن المواجهة السافرة، فرمى بصره نحو القبور، وقال بذهن قاض: الأرض مروية حول المقبرة، ولو أن نابش القبر قد ذهب بالرفات بعيدًا سنعرف.

ومشى نحو الزرع، وهم يتبعونه. وقف على حافته، ومد بصره فلم يجد آثار أقدام ذاهبة، لإنسان أو حيوان. دار حول المقبرة ليرى أكثر، فإذا بكل شيء على حاله. التفت إلى الذين يتبعونه، وقال: فتشوا بين القبور، فربما نجد الرفات.

وقلَّبوا أبصارهم، دون أن يزول عنهم العجب والغضب، حتى صاح أحدهم: يبدو أنه هنا.

كان قد لمح طرفًا صغيرًا من الكفن انحسر عنه التراب. هرعوا نحوه وهو يشير إلى ما رأى. فلمَّا استقر بصر «ناجي» عليه، قال: احفروا هنا.

وقال «محبوب»: هنا تراب جديد.

كانت الخادمة تمد أذنيها لتسمع ما يجري، فانكمشت مكانها متحسرة على أنها لم تُحسن إخفاء جريمتها على نحو تام، ثم تواسي نفسها بأنها حققت ما أرادت، وألحقت بالميت وأهله فضيحة ستلوكها الألسن كثيرًا، وتُضَم إلى الحكايات الأليمة، التي تُبقي جذوة الغل مشتعلة. لكنها فزعت حين جاءها صوت أحدهم: وجدناه. وفزعت أكثر، حين جاءتها صرخة: عظامه مهشمة. هناك مَن أراد الانتقام.

مدَّت بصرها من الباب الموارب، لتجد بعض الرجال قد تقرفصوا عند الرفات، ثم رأتهم وهم يرفعونه، بينما هناك بينهم مَن يتحجر في عيونهم الدمع. نظرت إلى ثيابها لتتأكد أنه لا يعلق به تراب بعد. وكذلك فعلت بحذائها، أمسكت به ونفخته في قوة، وبينما تعيده إلى مكانه لمحت آثار التراب في أظافرها. دفعت أصابعها إلى فمها، تقضم كل ظفر تِباعًا، ثم جمعت الأظفار، ودستها في شق صغير بالجدار. صبت حفنة ماء في خرقة ومسحت أطراف يديها جيدًا، حتى زال عنها أي أثر لفعلة الليلة الفائتة.

قبل أن يعيد الرجال الرفات إلى مكانه، قال أحد «الجوابر» في غضب، وهو يتوجه إلى العمدة: هذه جريمة لا يجب أن يفلت فاعلها.

قال «ناجي» في هدوء: ندفنه ثم ننظر في هذا الأمر.

لكن «الجوابر» أبوا دفن رفات «رشدان»، وأصروا على أن يبقى قبره محفورًا على الهيئة التي هو عليها، وأن تظل الحفرة الأخرى على حالها. تحدثوا عن أدلة يجب ألا تُطمس، وعن شكوك يجب أن تظل قائمة إلى أن تبددها الأدلة الدامغة.

ولم يجد العمدة بُدًّا من إبلاغ قسم الشرطة نزولًا على رغبتهم، فجاء الضابط ومعه عساكره. رمى بصره إلى الرفات ثم رفعه سريعًا، ووضع يده على أنفه ليمنع رائحة الموت من التسلل إلى أعماقه، وقال: لم يمر عليَّ مثل هذا من قبل.

وفتح التحقيق في السلاملك، وسأل الضابط أهل «رشدان» عمن يشكون في أنه ارتكب هذه الجريمة. تبادلوا النظرات في توجس، ثم نطق أحدهم قائلًا: ليس لنا أعداء في القرية إلا «الصوابر».

نظر إليهم الضابط في غيظ، وقال: حددوا مَن تتهمونه.

وقبل أن ينطق أحدهم، قال الضابط: أليس للمقبرة حارس؟

هزوا رأسهم لينفوا هذا، بينما قال أحدهم: لا يوجد هناك سوى زاوية، كان لها حارس، لكنه تركها، ولم تبقَ فيها سوى امرأتين، أخت الميت وخادمتها.

طلب الضابط أن يأتوا بالمرأتين، فلمَّا جلس إلى «هنيَّة»، ونظر إليها في إمعان، استغرب هيأتها، فقال له أحدهم: إنها مجذوبة، وليس مثلها يفعل هذا.

وغلبت الخادمة اضطرابها، وكانت قد اعتادت مثل هذا الموقف، فقالت في حسم: كنت أنا ومخدومتي نائمتين.

حاورها الضابط وداورها، فلم يستطع أن يتبين من أقوالها شيئًا ذا بال، ثم صرفها بعد أن قالت: قضيت حياتي في خدمة الراحل وأخته، ويعلم الله مدى حزني على ما جرى له.

وحين تم توجيه الاتهام إلى «محبوب» و«ناجي» جيء بشهود على أنهما لم يفارقا داريهما في الليلة الفائتة. وتضامن الخفر مع بعضهم البعض. غارت الأدلة في إفادات الحاضرين، فلم يجد الضابط بُدًّا من أن يأمر بدفن الرفات، وسأل رجالًا من «الجوابر»: أليس للراحل أعداء في بلاد مجاورة؟

ألجمهم السؤال، فقد كان أعداؤه كُثر، من فلاحي القرية الذين طالما اشترى منهم بثمن بخس، أو خصم من أجور كدحهم في أرضه، كما يحلو له. تراءت في مخيلاتهم صور المظلومين وكانوا كثيرين، فقالوا: هذا أمر يحتاج إلى تدقيق.

ابتسم الضابط، وقال: خذوا وقتكم في التفكير، فإن سمعتم عن شيء، أو سكنت رؤوسكم شكوك في أحد أيًّا كان، فباب القسم مفتوح أمامكم.

لـم ينتـهِ الأمر في أذهـان «الجوابـر» عند هذا الحـد، فعجزهم عن الإتيـان بدليـل الآن، لا يعني عـدم قدرتهم على بلوغه غـدًا. وحتى لو لم تتهادَ إليهم إجابة عن الأسئلة التي وخزت رؤوسهم، فإن شكوكهم وحدهـا كافيـة بـأن تشـغلهم زمنًا لا يعرفـون له حـدًّا. لم تكـن ظنونًا وهواجـس فقـط، بل شـعورًا دفينًا بالعـار، لا يعرفون لـه مصرفًا. كان بعضهم قد طاله ظلم أيضًا من «رشدان»، وهو إن كان أشد وأنكى لأنه من قريب، فهذا لا يمنعهم من الشـعور بالمسؤولية حيال ما جرى، بل الرغبـة فـي الثأر له. هو لم يرَ مَن عَبِث به، ولـم يدرِ أصلًا بهذا العبث، لكـن مَن هم على قيد الحياة، رأوا القبر المنبوش، والرفات المهشـم، ليصير كابوسًا أسود يطاردهم في منامهم.

وحتـى النصـارى الذيـن كان ظلم «رشـدان» لهم أشـد، ومن قبله بعـض أجداده الراحليـن، تأثروا كثيرًا بما رأوا وتمنوا لو لم تكن حرمة الموت قد انتُهكت إلى هذا الحد.

(49)

لم يكن الماء العكـر الذي يجري في أوصال الزمن بين «الصوابر» و«الجوابـر» بحاجة إلى غبار جديـد يلقى إليه، لكنه هذه المرة لم يكن مجرد غبار كنسـته ريح الحنق المحمول على أكتاف حكايات تتناسـل كالبق، بل كان ردمًا هائلًا، صنع سدًّا عاليًا حال بين النفوس التي تاقت إلـى أن ترفع الجسـور والجـدران، وتفتح مجـرى جديـدًا رائقًا، لكن الأيام تظل دومًا حُبلى بما لا يخطر على بال.

لم ينسَ «الجوابر» ما جرى، ولم يغفل «ناجي» ما تغلي به نفوسهم من غل. أدرك أن صمتهم لا يعني الصفح والنسيان، إنما هو انتظار مَن يتحين الفرصة لينفذ إلى ما يريد دون تردد. وأطلع أمه على ما يدور في ذهنه، فقالت له محذرة: بقية الرؤيا لم تأتِ بعد.

وكررت تحذيرها في الأيام اللاحقة، ثم وجدها تسأله: ألا يوجد لي حفيد في الطريق؟

ابتسم، وقال لها: تساور الشكوك «نوارة» أن في بطنها شيئًا، لكني أعتقد أنها تتحدث بما تتمناه.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسأله عن هذا، فانتبه، وقال لها: ما أسعد مَن تهدهده سيدة الزمام.

ابتسمت، وقالت: لتبقَ عيناك مفتوحتين عليه حين يأتي، فأمثال مَن تربصوا بجدك القديم لا يزالون يدبون بيننا في شوارع هذه القرية التعيسة.

كانت هذه وصيتها الأخيرة، ففي اليوم التالي رآها تذوي. غارت من وجنتيها حمرة الحياة البهيجة، وحلَّ مكانها شحوب لم يقدر على أن ينزع منه الاطمئنان الذي سكنه على مدار السنين. حسبها مطمئنة إلى رؤيا جديدة بددت الهواجس والمخاوف التي طالما تحدثت عنها في الأسابيع الأخيرة، لكنه كان اطمئنانًا إلى شيء آخر.

قالت له ذات صباح: كم يسعدني أن أترك الراية مرفوعة.

وخزه قولها، فمد أصابعه تتخلل شعرها الأبيض، وقال:

- رايتنا مرفوعة ما دمتِ فينا.

- أحط نفسك بأهلك، فمَن له ظهر لا يُضرب على بطنه.

وسبح في ظنون لا نهاية لها، سرعان ما أصبحت في اليوم التالي حقيقة مرة، خطفت من حياته أقوى سند اتكأ عليه. كان لا يزال نائمًا، حين أيقظته الخادمة وهي تقول في جزع: سيدتي لا ترد. خلع نفسه من الفراش سريعًا، وجرى نحو غرفتها. كانت ممددة على جانبها الأيمن في فراشها، ساكنة كأنها صارت جزءًا منه. ناداها وهو عند باب الغرفة فلم ترد. كرر النداء فلم يسمع منها صوتًا، ولم يرَ حركة. قطع خطوات إليها، ومد يده في رفق، وغمزها في كتفها، وهو ينادي، فلم تستجب. جثا على ركبتيه أمام السرير، وأمسك يدها، فإذا بالنبض غائب. رمى رأسه على صدرها، وغمس أذنه في اتجاه قلبها، فلم يسمع شيئًا. هزها خفيفًا، ونظر في جزع ووهن إلى سكونها الأبدي. مد أصابع إلى جفنيها وأغلقهما على مقلتين انطفأ بريقهما، وأجهش بالبكاء الحرور. يبكي رحيلها، والفراغ الكبير الذي تتركه في حياته، وشعر لأول مرة باليُتم، رغم أنه قد صار كبير القرية.

نصب الخيَّامية سرادقًا واسعًا في حديقة السرايا. وأرسل «ناجي» أولاد «أم الخير» وبعض فلاحي أرضه إلى أهله في القرى المجاورة، وأبرق تلغرافات إلى الأباعد منهم. وكعادة الناس في مثل هذه المناسبة، ذُبحت عجول وخراف لتقديم طعام إلى الآتين. توافد أهل القرية، وعمال المصانع، وزحف عمد القرى ومشايخها على دواكير

وأحصنة، وكثير من فلاحيها يمتطون الحمير وعربات الكارو. كان السرادق يمتلئ، وينفض ليعمر من جديد، ومقرئو القرآن يسرعون بين العُشْر وأخيه، ليعطوا فرصة لمن ينصرف كي يخلي مكانًا لغيره.

ومع انشغاله في مصافحة القادمين والذاهبين لم ينسَ «ناجي» أن يعد رجال «الجوابر» الذين أتوا للعزاء. كانوا قلة، رغم أن الراحلة كانت كبيرتهم، ولم تُسئ إلى أحد منهم في أي يوم. بعضهم لم ينسَ لها أنها مالت إلى أهل زوجيها المتعاقبين. وبعضهم كان لا يزال مغبونًا مما جرى لقبر «رشدان».

انفض الغرباء، واستمهل «ناجي» أهله كي يبقوا أيامًا معه ليؤنسوه، فنزلوا على طلبه، وازدحمت بهم القرية فرآهم الناس فأكبروهم مرحبين. أما «الجوابر» فتهامسوا عن ذلك الذي يستعرض قوته مستغلًا وفاة أمه. وقال أحدهم: رحلت مَن كنا نتغاضى عن أفعال «الصوابر» لأجلها.

رد آخر، وهو يقلب ناظريه في وجوه الجالسين في سلاملك «بهاء»: صار أغلب المال معهم، وفي يدهم العمدية.

تدخل ثالث: لسنا الطرف الضعيف ورجالنا أكثر.

سخر منه رابع، وقال: ضاقت الشوارع بالذين حضروا عزاء أمه من أهله.

قهقه خامس، وقال: لا يخيف رجال لا يظهرون إلا في المناسبات.

وتطلعوا إلى عجوزهم، وكان ينصت إليهم صامتًا، فقال: لا تستعجلوا الشر، فإن أتى حتى أبواب بيوتكم ردوه بلا خوف ولا تردد.

لكن الشر لم يبلغ الأبواب، إنما وُلد في لحظة كانوا قد تناسوا قدومها. لحظة فاصلة بين زمنين وعهدين، لم يتخيلوا أنها ستهجم عليهم بغتة هكذا، قبل أن يحكموا التدبير في الثأر لما جرى لرفات رجلهم.

(51)

لم تكن جثة «عبلة» قد خلقت دودًا لينهشها، حين وصل إلى السلاملك ظرف مغلق، ما إن فضه «محبوب» حتى سقطت الأحزان من رأسه، وصاح: اليوم فقط يسعد «الصوابر» في قبورهم.

وأسرع الخطى إلى السرايا، فوجد «ناجي» جالسًا في بهو الطابق السفلي يحتسي فنجانًا من قهوة سوداء، يرتشف منه على مهل، غارقًا في حزن دفين. وقف أمامه، وقال له متهللًا: آن لك أن تنسى حزنك ولو ساعة واحدة.

تطلع إليه بعينين كسيرتين، وقال: لم يعد لشيء طعم بعد رحيل أمي.

مد إليه الخطاب، وقال: مثل هذا سيُسعدها في قبرها، فقد كانت تنتظره مثلنا.

قرأ «ناجي» بإمعان، ومع توالي السطور كان الأسى يتساقط من وجهه، فلمَّا انتهى، قال: اليوم فقط اكتمل تحقيق الوعد الذي أضنى حمله نفوس أجدادنا.

ثم رفع سبابته، وقال في حزم: اكتم الخبر عن أي أحد، حتى زوجتك، وشيخ خفرك.

وألقى نظرة من النافذة إلى المكان الذي ستقام فيه محطة القطار، وقال: لم أتخيل اسمًا غير هذا يكون عنوان قريتنا إلى الأبد.

كان المهندسون والعمال قد عادوا إلى تمتين العوارض ومد القضبان، فقام إليهم، ومعه «محبوب» ليسألهم عند موعد إنشاء المحطة. قال له أحد المهندسين: بعد خمسة أيام.

أطلعه على الخطاب الذي وصلهم، فابتسم، وقال: وصلنا مثله قبلكم.

دعاهم «ناجي» إلى تناول الغداء معه في السرايا، فقبلوا دعوته. وبعد أن فرغوا من طعامهم، قال لهم بينما الخادمة تقدم إليهم الشاي: يُفضل أن تكتبوا إلى القسم ليرسل ضابطًا وعساكر يوم البدء في تشييد المحطة. تبادلوا النظرات متعجبين، ولاذوا بالصمت. لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يصدقهم القول فأخبرهم بكل شيء. استعرض تاريخًا طويلًا في دقائق، ثم قال: إعادة اسم القرية القديم قد لا يمر دون متاعب.

ابتسم كبير المهندسين وقال: ستوضع اللافتة بعد أن نفرغ من إنشاء المحطة. معنا وقت لننظر في تجاوز أي مشكلة.

ارتاح «ناجي» لهذا، وقال لنفسه: الفرصة واسعة كي أرتب حضور أهلي أجمعين.

أرسل إليهم خطابات يطلب منهم أن يكونوا على أُهبة الاستعداد ليأتوا إلى القرية لحضور مناسبة طيبة، فجاءته الردود تباعًا تُنبئه بأن الرجال جاهزون لأي شيء.

(52)

انتظر «ناجي» على أحر من الجمر بلوغ الصفحة الأخيرة في كتاب الوعد القديم. يصعد إلى سطح السرايا كل صباح، ليرى قضبان الحديد قد امتدت إلى الأمام، فيغمض عينيه لتتهادى لها لافتة عليها اسم «الصابرية». يبتسم مسرورًا، ثم يغرق في حزن حين يتذكر أن «عبلة» لم تعش لترى هذا اليوم المنتظر.

وبينما هو على حاله، صعدت إليه «نوارة»، وقالت: لا أعرف إن كان خبري سيفرحك أم يحزنك.

تطلع إليها في توجس، وقال: هاتي ما عندك، فيكفي ما أنا فيه من انتظار.

طأطأت رأسها قليلًا، وقالت في خجل: تأكدت من حملي، كل أعراضه هجمت فجأة.

ابتسم، وسألها في تعجب: ما الذي يُحزن في خبر مثل هذا؟

أبعدت عينيها عن عينيه، وقالت: سآتيك ببنت. وضعت القمح والشعير، فنبت الأخير.

نهض إليها، وأخذ رأسها إلى صدره، وقال: شاء الله أن ينعم عليَّ بـ «عبلة» جديدة.

خلعت رأسها من صدره، وقالت: البنت لها رزقان.

رد في ابتهاج: رزقها أتانا قبل أن تخبريني، فلم تبقَ سوى أيام وتهب علينا رياح السعادة الغامرة.

(53)

قبل أن يهبط «ناجي» من فوق سطح السرايا اقتحم أذنيه صراخ عالٍ. تلفت حوله ليعرف من أين يأتي، فوجده يمزع الهواء الفاصل بين مكانه والزاوية. هبط مسرعًا، وخلفه زوجته، ليجد خادمة أمامه، تقول له في أسى: راحت المبروكة.

سألها: أتقصدين..؟

لم تدعه يُكمل، وقالت: ماتت الشيخة «هنيَّة».

اجتمع الناس عند الزاوية، يلقون نظرة أخيرة على الراحلة. كان «الجوابر» قد سبقوا الجميع إليها، فقد كانت قبل الأخيرة من أهل العز والجاه بينهم، وتركت كل هذا في لحظة فارقة في تاريخ القرية كلها. تطلعت النسوة إلى وجهها، وكان يكاد يضيء من فرط السكينة والراحة الأبدية.

ولمَّا رأتها إحداهن على هيئتها هذه أطلقت زغرودة مدوية، فهمهم الرجال في الخارج منكرين. طرق أحدهم باب الزاوية، وقال غاضبًا: اخرسي يا مجنونة.

أتاه صوت زاعق من الداخل: هكذا يودع الناس أولياء الله.

خرجت إحداهن إلى الرجال، تغطي وجهها بطرحة رأسها. نظرت في وجوههم، وقالت: آن للجوابر أن يفخروا بولية لله كانت في نسلهم. واستحسن الرجال ما سمعوا، فصمتوا، تاركين الزغاريد تدوي من داخل الزاوية، تغطي على صوت أحدهم، الذي قال في ثقة: نبني لها مقامًا. مدوا أبصارهم إلى باب الزاوية الموارب ليروا التي تفرح النسوة بموتها، لكن أحدهم أسرع، وأغلق الباب، وقال: سترها الله حية، فلتذهب إلى ربها مستورة.

غسَّلتها الخادمة ومعها امرأة، ولفوها في الكفن، وسكبوا فوقه قارورة عطر كاملة، ثم رفعنها إلى الخشبة، وكانت خفيفة كأنها ريشة تدفعها عاصفة. كان بعض الرجال قد انهمكوا في حفر قبر لها إلى جوار قبر «رشدان»، فحين رفعوها نحوه، توقفت الخشبة فوق الأكتاف، وثقل الجسد الخفيف كأنه صخرة ضخمة. كلما هموا لينزلوها إلى ما حفروه، استعصت الخشبة عليهم، وجذبتهم إلى الوراء.

تبادلوا النظرات متعجبين، ثم كرروا المحاولة، لكن الأمر لم يسهل عليهم. قال أحد حامليها: يبدو أنها لا تريد هذا المكان.

تملكهم خجل شديد، ورموا نظراتهم إلى أهل القرية المحتشدين عند المقبرة، ولم يدروا ما يفعلون. قال أحدهم: نقرأ الفاتحة، ربما تلين. لكنها لم تلن. كلما حاولوا إنزال الخشبة التصقت بأكتافهم، وكأنها شدت إليها بحبال متينة. لاذوا بالصمت متحيرين، فقالت الخادمة: هاتوا الوِرْد ودسوه في كفنها، لعلها تستجيب.

أسرع أحدهم إلى الزاوية، والتقطه من فوق الوسادة الخالية. ناخ الرجال بالخشبة، حتى تهيأت أمام مَن مد عنقه إليها. سحب طرف الكفن، ووضع الوِرد، وأعاده إلى مكانه، وقال: حاولوا من جديد.

لم يتغير شيء. فقال أحدهم: نمضي بها بين القبور، وننزلها في المكان الذي تختاره.

ومشى الرجال حاملين الخشبة بين قبور «الجوابر»، فلما ابتعدوا عن قبر «رشدان» عادت خفيفة كما كانت، فقال أحد حامليها: هذا مكانها.

لكن الخشبة عادت ثقيلة، فرجع في كلامه، وقال: يبدو أنها مأمورة إلى مكان لم نعثر عليه بعد.

قال أحدهم: لنمشِ بها في المقبرة كلها، وحين يأتي مكانها سنعرف.

نفذوا ما سمعوه، وداروا بها بين القبور. وبينما وصلوا إلى بقعة خالية بين قبري «رضوان» و«بديعة» فإذا بالخشبة تقف فوق أكتافهم. ضربوا أقدامهم في الأرض، ودفعوا جذوعهم إلى الأمام، لكن سيقانهم لم تطاوعهم. وقفت الخشبة لا تريد حراكًا. وقلَّب «الجوابر» أبصارهم بين القبرين اللذين يحاذيانهم من الخلف والأمام، وكَبُر عليهم أن يقولوا هذا مكانها. قال أحدهم في غضب: لن ندفنها بين الغرباء.

قال «شنودة» النجار: كلنا أهل.

نظروا إليه غاضبين، فهم يعرفون أنه قد صار في حِمي الصوابر بعد أن كانوا هم حُماته، فبلع لسانه. وبدا الواقفون من غير «الجوابر» شامتين فيهم. أقروا بالولاية للراحلة، التي أرادت أن تضع أهلها فيما يستحقونه من جزاء. عاقبتهم حية حين هجرت فجأة طعامهم وشرابهم، وها هي تعاقبهم ميتة، حين أكدت لهم أن قبورهم لا تروق لها.

وقال أحدهم: كان بيننا رجال طيبون، جدنا «إبراهيم» والوجيه «زياد»، فلنحمل النعش إلى قبريهما.

خف النعش عند قبر «زياد»، فقالوا: أخيرًا وجدنا مكانها.

وضعوا النعش على الأرض، وهموا لحفر قبر جديد، لكنهم وجدوا الخشبة تزحزح من مكانها، كأن مَن فيها حية تديرها إلى الجهة التي تريدها. لم يعبأوا بما رأوه، وحفروا القبر، ولما مدوا أيديهم ليرفعوا ما في الكفن، استعصى عليهم، وتشبث بالخشبة كأنه صار منها.

عاد «شنودة» يقول: للقديسين والأولياء أحوالهم، وليس علينا سوى الطاعة.

لم يكن أمامهم من سبيل سوى هذا، فردموا ما حفروه، وذهبوا إلى البقعة التي اختارتها «هنيَّة». وقبل أن يضربوا فؤوسهم فيها، قال أحدهم: لا تقعوا في الخطأ. لا بد من استئذان «ناجي» أو «العمدة».

هزوا رؤوسهم موافقين، فأسرع أحدهم إلى السرايا. فلمَّا أخبر «ناجي» بما جرى، قال له: لنا شرف أن يكون بين موتانا جسد طاهر.

ثم قال له: أبلغ كبير الجوابر أن هذه إشارة من سيدة صالحة لنا جميعًا أن ننسى خلافات الماضي.

دُفنت «هنيَّة»، وأقام لها أهلها سرادق عزاء في الساحة التي يطل عليها السلاملك القديم. جاء أهل القرية للعزاء، وبلغ ما حدث في المقبرة أهل القرى المجاورة فزحفوا لينالوا البركة من حضور عزاء الراحلة.

ذهب «ناجي» إلى العمدة ليصطحبه لأداء واجب العزاء، فلما خلص جسداهما في نور الكُلبَّات المعلقة في السرادق وأمامه، زام «الجوابر» في غضب، فانبرى أحدهم مسرعًا نحو الرجلين القادمين. وقف أمامهما، وقال: لا داعي لوجودكما، وسعيكما مشكور على أي حال.

همَّ «محبوب» أن يرد في غضب، لكن «ناجي» مد يده وطبعها على فمه، وقال: لا بأس، فعلنا الواجب، وأنتم أحرار.

وانسحبا عائدين إلى السلاملك، فلمَّا جلسا، قال «ناجي» وهو يكتم غضبه: لن تصفو لنا هذه القلوب السوداء.

تذكر «محبوب» كل ما فعلته «عبلة» وابنها في سبيل طي صفحة الماضي البغيض، وقال: قدمنا السلام والخير السبت والأحد، بل كل أيام الأسبوع، ولم نلقَ منهم دومًا سوى الرد السخيف.

تنهد «ناجي»، وقال: لا تخلو الحياة من الأوغاد.

ثم غاص في نفسه، وقرأ على مهل:

«كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ. وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا. وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ».

ابتسم «محبوب» وقال له: الأزهر لا يفارقك أبدًا.

(54)

عادت النفوس مشحونة بالأحقاد، فلمَّا جاء يوم تشييد محطة القطار، تنادى «الجوابر» من بيوتهم، وخرجوا غاضبين إلى السلاملك. أدركوا أن شيئًا ما قد دُبِّر من خلف ظهورهم، وأن الطعنة هذه المرة كانت نجلاء، وقاتلة.

قال أحدهم: نحن كثرة، وعلى جثثنا يتغير اسم القرية.

وكانت بينهم قلة لا تريد الشر، فقال أحدها: لم يتغير، إنما عاد كما كان.

رد عليه أحدهم في غضب: لا يخون أهله إلا الخسيس.

رد الرجل في هدوء: قول الحقيقة ليس خيانة.

انبرى له آخر، وقال: الحقيقة الوحيدة التي نعرفها أن القرية حملت اسم جدنا مئات السنين، وعار علينا أن نجعله يتقلب اليوم في قبره من الحزن.

تبادلوا النظرات صامتين يقرأ كل منهم في عين صاحبه ما يعتزمه. قطع الصمت رجل منهم، وقال: إما أن نكون اليوم أو لا نكون.

وقال العجوز فيهم: لا يجب أن تذهب عنكم الحكمة حتى وأنتم غاضبون.

تطلعوا إليه، فواصل: ربما يكون كل هذا شائعة سخيفة.

وكان أحدهم ممن التحقوا بالكتاب صغيرًا قد رأى اللافتة الجديدة مركونة إلى جانب المحطة قبل نصبها، فقال: رأيت كل شيء بعيني، ولا داعي للتهرب من عبء المواجهة.

صرخ أحدهم في غضب أعمى، وقال: تحايلوا علينا، ولنردهم خاسرين.

سرت همهمات بينهم على ما يجب أن يفعلوه، فاستقروا في نهاية الأمر على المواجهة. تفرقوا إلى البيوت ليحمل كل منهم ما فيها من سلاح. وجاءوا بعد قليل وفي أيديهم البنادق والفؤوس والخناجر والشوم. وبينما هم يستعدون للزحف نحو المحطة، جاءهم «شنودة» يجري. وقف بينهم يلهث وقال: لا تتركوا الغضب يوقعكم في خطأ أشد.

وغاظهم ما سمعوه منه، فأشاروا إليه أن يمضي بعيدًا، لكنه تشبث بمكانه، وتوجه إلى العجوز، وقال: هناك سبيل أسلم يجب أن تسلكوه.

أشار إليه أن يواصل، فقال: لم يغير «ناجي» اللافتة بالقوة، وما عرفته أنه حصل على موافقة المديرية، واعتراضكم سيضعكم في وجه الحكومة.

رد أحدهم: إن واجهت الحكومة اعتراضًا، ستؤجل كل شيء إلى أن تُحسم الأمور.

قال «شنودة»: الأفضل أن تردوا بشكوى رسمية، وليس بالعراك والدم.

ورآهم أحدهم مترددين، فرفع عصاه في غضب، وقال: إن لم تأتوا معي، سأذهب وحيدًا.

وتبعوه والشرر يتطاير من عيونهم، حتى بلغوا المحطة الوليدة. رأى كبير المهندسين الشر على وجوههم، فقال: اختاروا أحدكم ليحدثني.

زاموا وهمهموا وطوحوا أيديهم في الهواء معترضين، لكن المهندس لم يفقد رباطة جأشه. نظر إليهم في حسم، وقال: نحن ننفذ أوامر الحكومة، فإن كان لديكم اعتراض فليكن عليها.

كان أحدهم قد أسرع نحو اللافتة، وقبض على ساقها، ورفعها غاضبًا، ثم أزاحها في عنف، فسقطت عند شريط القطار. وكان الواقفون يتابعونه راضين عما أقدم عليه. فلما استيقن المهندس أن من العبث مواجهتهم، قال في هدوء: قدموا شكوى، وأنا سأرفع اعتراضكم إلى أصحاب الأمر.

كان «ناجي» يتابع ما يجري من فوق سطح السرايا، وكلما دفعه الغضب لينزل إليهم، أوقفته «نوارة»، قائلة: ليس من الحكمة أن تجادل مَن أعمى الحقد عيونهم. ولمَّا وجدت الغضب قد تملكه حتى

دفع قدميه نحو السلم يريد مواجهة الغاضبين، رمت جسدها فوق أحد المقاعد التي تلتف حول طاولة كان يحلو لـ «ناجي» أن يتناول إفطاره فوقها في بعض الصباحات الندية. ووضعت يدها سريعًا على بطنها، وصرخت: الحقني.

عاد إليها مجزوعًا، فقالت له: تحرك ما في بطني من فرط الغضب.

مال عليها، يربت كتفها، ويمد يده إلى بطنها، وهو يقول: الانفعال خطر عليك.

اكتسى وجهها بمسحة من وجل وأسى، وقالت: لا تجعل الجهلاء يفقدونك ما انتظرته طويلًا.

ولمَّا رأت التبرم باديًا على ملامحه، قالت: لو كانت أمك على قيد الحياة ما طلبت منك غير ما أنصحك به.

ثم قبضت على يمينه، وقالت: أخبرتني بأن هذا الأمر نافذ، فلا تعطهم فرصة لإفساد كل شيء.

ورأى رأس خادمة يبين من درجات السلم، فنظر إليها، وأنصت إلى قولها: العمدة ينتظرك في البهو.

طوق «نوارة» بذارعيه، فراحت تمشي على مهل نحو مخدعها، والخادمة تتبعهما صامتة. حين هبطوا السلم، التفت إلى الخادمة، وقال: قدمي القهوة للعمدة، حتى ألحق به.

اطمأن إلى استرداد «نوارة» أنفاسها المبهورة، وخرج إلى العمدة ليجده يكاد يتفطر من شدة الغضب. انتفض واقفًا، وعاجله سائلًا: هل نسكت على ما يجري؟

وجد «ناجي» نفسه في حاجة إلى طرد الغيظ من نفسه، حتى يحتوي «محبوب» الذي كان قد جاء حاملًا بندقيته، وكذلك خفره الذين انتظروا في الحديقة. نظر إليه «ناجي» وغرف ابتسامة عجلى من بئر قلقه وانزعاجه، وقال: نصبوا لأنفسهم فخًّا، فلنتركهم يقعون فيه.

رد «محبوب» وهو يضع بندقيته إلى جانبه: ربما يكون الفخ لنا بسبب سكوتنا على ما يجري.

هز «ناجي» رأسه، وقال: لم أتوقع هذا الرد ممن تعلم جيدًا كيف يزن الأمور.

لاذ «محبوب» بالصمت، فواصل «ناجي»: الأمر منتهٍ واعتراضهم على هذا النحو سيضعهم في تحدٍّ مع الحكومة، ولا يكون علينا إلا أن ننتظر ما نحصده من طيشهم.

نظر «محبوب» في عيني «ناجي» طويلًا، وسأله: ألم ترسل في استدعاء أهلنا؟

أجابه على الفور: سيأتون بعد غد، وهو اليوم الذي تنصب فيه اللافتة على محطة القطار.

سرى في ملامحه ارتياح، وقال: استكثروا أنفسهم علينا، ولا بد من أن يرونا أكثر منهم.

وبعقل قاض، قال له: الحق معنا، ولن نعدم القوة التي تحميه.

وأشار إليه أن يتبعه إلى سطح السرايا ليريا ما يجري عند المحطة. كان «الجوابر» لا يزالون محتشدين حول المهندسين والعمال. بدا كبير المهندسين يجادلهم. بعضهم ينصت صامتًا. هناك مَن يعترض دون أن يصل صوته إلى السرايا. فجأة تراجعوا إلى الخلف، بينما جرى اثنان منهم نحو اللافتة الملقاة على الأرض، وحملاها وسارا بها نحو القرية.

قهقه «ناجي» وهو يشير إلى حاملي اللافتة، والرجال يتبعونهما في ثقة، وكأنهم قد انتصروا، ثم قال: تهزمهم حماقتهم، وأمثال هؤلاء لا خوف منهم.

طوح «محبوب» ذراعه في الهواء، وقال: لا يضرنا أكثر من غضب الطائشين.

بعد يومين هلَّ «الصوابر» على القرية من اليمين والشمال. كانوا يعرفون ما هو مطلوب منهم، فقد شرح لهم «ناجي» كل شيء في خطاباته. تزاحموا في الحديقة، وتداولوا الأمر. قال أحدهم في غضب: نهجم على بيوت «الجوابر» ونؤدبهم.

اكتسى وجه «ناجي» بالغضب، وقال في حسم: لا تخلو عائلة من الحمقى.

وشعر بأنه قد أغضب الرجل، فمشى نحوه، ووضع يده على كتفه، ونظر في عينيه، وابتسم وقال: يا بن عمي، لم آتِ بكم لعراك، إنما لردع مَن يفكر في عراكنا.

وكان المهندس قد رفع شكوى عاجلة إلى المديرية بما جرى، فجاء ضابط القسم ومعه أكثر من ستين جنديًّا. توجهوا على الفور إلى سلاملك العمدة. سأله الضابط عن بيت الرجل الذي سرق اللافتة، فأبلغه به، وأرسل معه خفره، فمشوا إلى جوار الجنود.

تنادى «الجوابر» غاضبين، وتزاحموا حول الجند، فأمر الضابط جنوده أن يصوبوا بنادقهم إلى صدور المتزاحمين، وقال لهم في حسم: إذا ارتكبتم أي حماقة سنطلق عليكم الرصاص، ولا دية لأحدكم.

تبادلوا النظرات في ذعر، وتراجعوا خطوات. انبرى عجوزهم، وقال مستعطفًا: نحن مظلومون، وكنا نظن أنك قد جئت لإنصافنا.

نظر إليه الضابط في استهانة، وقال: للمظلوم طريقة يحصل بها على حقه غير السرقة وإثارة الفوضى.

ثم أشار بيده في حسم لهم أن ينصرفوا. تشبثوا بأماكنهم يقطرون وجلًا وخجلًا، فأمر الضابط بعض جنوده، أن يطلقوا النار في الهواء، ففعلوا. مرق الرصاص من فوق رؤوس المتزاحمين، فنظر إليهم الضابط، وقال في غضب: الرمية القادمة ستكون في صدوركم.

تراجعوا خائبين، ثم انصرفوا تباعًا. لم تمضِ سوى ساعة، حتى عاد اثنان من الخفر يحملان اللافتة، ويسيران بها نحو المحطة، ويسلمانها للمهندسين. أما الضابط فقبض على مَن سرقا اللافتة. قيد أيديهما، وسار بهما الجند نحو الجسر، عائدين إلى القسم.

ومـا إن تسـلم المهنـدس اللافتـة، حتى شـرع العمال فـي نصبها. وقفـت عفية، تغلـب ريحًا قوية هبـت بعيد الظهر. ورآهـا «ناجي» من فوق السرايا، فنظر إلى «نوارة» وقال: لا يضيع حق وراءه مطالب.

ابتسـمت في فتور، وقالت: أخشـى أن تفتح هذه اللافتة بابًا جديدًا للمصائب.

وانطلق صوت الشاعر مفعم هذه المرة بالثقة والفرح:

العشـب مهمـا ينـداس بالمطـر يرجـع خضـاره

والحلـم يشـغل الـراس حتـى يطلـع نهـاره

الكَفُّ الحَمْراء

(1)

تسيل الدماء، وتندلع النار، بسبب التلاعب بالرؤوس، ربما أكثر من غريزة العدوان المتأصلة في نفوس البشر. لا تلعب أكثر من الحكايات التي يصنع شرها كثيرًا من سحرها. وقائع وأحداث لم يكن أي من أبطالها الغابرين يظن أن سيرته ستسكن الأذهان والنفوس على هذا النحو الغريب.

نبوءات ووعود، تختلط فيها الحقائق بالأكاذيب. ينفخ كل جيل فيها، حتى صارت شيئًا مسبوكًا على مهل، له قدرة على أن يجرف أمامه التقاليد والمصالح. يقفز إلى عقول الرجال فجأة فتطير منها الحكمة، وتتكفل النساء بتغذيتها بالجديد. أما القوَّالون فيتلقفونها غضة، وتشكلها قرائحهم المشبوبة بالغناء في صيغة أخرى، فتسري الأسطورة في أوصال الزمن، متغلبة على كل أولئك الذين أرادوا دفنها.

(2)

هجرت الخادمة الزاوية بعد موت «هنيَّة»، لم يسعها سوى بيت «رضيَّة» التي استقبلتها بترحاب شديد، وضمتها إلى أخرى كانت

تلازمها منذ سنوات طويلة. لم يكن أمام الخادمة من سبيل سوى قبول هذا، رغم أنها كانت تغمغم في ساعات الغضب كلما تلقت أمرًا، قائلة لنفسها: صار لآل بخيت خدم.

فرغت الزاوية شهورًا. تراكم أمامها التراب والقش، وبنت العصافير أعشاشًا حول أطراف الجريد التي تطل من سطحها. وكان الناس كلما اقتربوا أسفوا لمنظرها، وتمنوا لو يفاجئهم مجذوب أو بهلول ذات يوم، ويُعمِّرها من جديد.

جاء إليها المجاذيب تباعًا عبر زمن طويل راكبين النهر. رست بهم المراكب عند مرسى القرية، وكانوا يعرفون المكان الذي يقصدونه. وصية تلقوها من أحد شيوخهم، أو تلبية لهاتف سمعوه ينادي عليهم في جوف الليل، أو استجابة لرؤية في منام عامر بالعبر والمسرات، أو لخبر وصلهم أن هناك زاوية تقف على ربوة تطل على قرية يجزل أهلها العطاء.

تحقق لهم ما تمنوا ذات عصر. لكن الآتي لم يحمله الموج الساري، إنما القطار المندفع فوق الحديد. نزل المحطة رجل يلف جسده بعباءة خضراء، وعلى رأسه عمامة لوث الغبار بعض بياضها. مضى فوق الدرب المؤدي إلى الشارع العمومي، وسأل طفلًا صادفه: هل تعرف بيت العمدة؟

أخذه من يده إلى السلاملك، فاستقبله «محبوب» بوجه باش. قُدم له الطعام والشراب، فلم يتناول منه سوى القليل. احتسى القهوة على مهل، وهو يجيل بصره في السقف، ويتمتم بما لا يسمعه غيره. راح «محبوب» يراقبه بطرف عينه، ولا يعرف كيف يبدأ الحديث معه.

صمت المجذوب برهة، ثم قال: أنا من مريدي سيدك الفولي.

تهلل وجه «محبوب»، وقال بصوت مملوء بالخشوع: مدد يا أبا سليمان.

ابتسم الرجل، وقال: ركبت القطار لا أعرف إلى أين أذهب، ووجدتني أنتفض من فوق مقعدي واقفًا، حين توقف عند محطة بلدكم. نزلت دون أن أدري لماذا نهضت؟ ولماذا هبطت؟ ومَن أقصد من الناس؟

هز «محبوب» رأسه، وقال: لكل قرية مفتاحها، وفعلت خيرًا أنك قصدت بيتي.

أمسك الرجل عصاه، ونهض وهو يقول: لا أريد أن أُثقل عليك يا عمدة، أخذت واجبي وآن لي الانصراف.

سأله في وجل: إلى أين؟

أجاب، وابتسامة عريضة تحط على شفتيه: أشعر بأن هناك مَن ينتظرني، ولا بد أن أسعى إليه.

ظن أنه سيتوجه إلى المقبرة، فقد يكون قلبه قد حدثه بساكنيها من المجاذيب والرجال الصالحين، الذين سكنوا الأخصاص، وزرعوا وحصدوا وبنوا في وجه الزمن بيتًا لا يريد أن ينقض. أشار إليه أن يجلس قليلًا، لكن الرجل ضرب عصاه في بلاط السلاملك، بينما قدماه تحطان على سجادة وثيرة. فنادى «محبوب» أحد خفره، وقال له: اصحب مولانا إلى حيث يذهب.

ورآه الخفير يقطع الشارع في اتجاه السرايا، فتبعه متعجبًا حتى بلغ الحديقة. كان الحارس يجلس فوق مقعد يُغرقه نور الشمس، فلمَّا رآهما نهض واقفًا، وهو ينظر إلى الغريب في عجب. رمى بصره نحو الخفير ليدله على شيء، لكنه هز رأسه مبتسمًا، وقال: تبعته دون أن أعرف ما يريد.

مد الحارس المقعد إلى المجذوب ليجلس، لكنه رفع عصاه نحو نافذة مفتوحة، وقال له: أبلغ البك أنني في انتظاره. فلمَّا جاءه «ناجي» طلب أن يختلي به، فأخذه إلى البهو، وأمر الخادمة أن تعد له فنجان قهوة. فلما ذهبت قال له: أحمل إليك رسالة من أحد رجال «الصوابر». ثم مد يده في جيبه وأخرج ظرفًا مغلقًا، وأعطاه له. فضَّه «ناجي» وراح يقرأ وهو ينظر إلى الرجل في عجب. ثم قال له: رأيت الخفير يصحبك، فهل ذهبت إلى دوار العمدة يا عم «نوفل»؟

هز رأسه، وقال: أردت أن أدخل القرية من بابها، لكني لم أبلغه بشيء، فالخطاب لك أنت، والعمدة إن كان من أهلك، إلا أنه في نهاية الأمر عين الحكومة ويدها. وغاص في نفسه قليلًا، ثم عاد: يسامحني الله أنني كذبت عليه، وأبلغته أنني نزلت في محطة الصابرية دون ترتيب. تابعه «ناجي» صامتًا، فواصل: هو يحسبني مجذوبًا جاء ليسكن الزاوية الخالية.

قهقه «ناجي»، وسأله: أعرفت أيضًا حكاية الزاوية؟

ـ قريبك حكى لي كل شيء، فصرت أعرف الكثير عن القرية. حتى السرايا عرفتها فور أن وقعت عيناي عليها.

– لا تخلو عائلة «الصوابر» من الثوار والمحاربين.

– أعرف حكاية والدك، ولهذا أيقنت أن مثلك سيوفر لي الحماية، فعاهدني على أن يكون ما عرفت سرًّا بيننا.

– سرك في بئر غويطة، فلا تخشَ شيئًا.

ثم صمت «ناجي» برهة، وقال: لا يوجد مكان آمن هنا أكثر من الزاوية. هناك لن يسألك أحد عن شيء، وسنقول للناس إنه كما جاء المجاذيب السابقون إليها دون ترتيب منا، جئت أنت. بعثك الله إليها في الوقت المناسب لتعمرها.

– لي صنعة، ولا أريد منك سوى قليل من المال على سبيل السُّلفة، لأواصل عملي، فأنا لا أحب أن أكون عالة على أحد.

– لك ما تريد.

وكانت صنعته هي نسج الطواقي التي يشتريها الفلاحون من البندر لتقيهم شمس الصيف، وبرد الشتاء. كتب ما يريده، وأرسل «ناجي» إلى البندر مَن يشتريه له. لكنه قال له: لا تشرع في عملك إلا بعد مرور شهر على الأقل، يعرفك الناس فيه على أنك المجذوب الجديد، ساكن الزاوية.

أرسل «ناجي» إلى الزاوية مَن يُنظفها، ويملأ الزير بالماء، وحملت خادمة إليها بلاص عسل أسود، وصفيحة جبن قديم، ورصة من البتاو، وكيسًا مملوءًا بالكشك الناشف. حين حلَّت صلاة المغرب، قال له: لتذهب معي إلى المسجد فيراك الناس.

سرى في القرية خبر عن مجذوب جديد اسمه «نوفل»، ففرح الناس بأن الله قد شاء ألا يقطع البركة عنهم. وفي اليوم التالي حملت إليه نسوة طعامًا من بيوتهن، لكنه كان يرد كل مَن تأتي في لطف، ويقول: أحب أن يرزقني الله من كدي.

ورآه الناس بعد أيام وقد شدَّ خيوطًا بُنيَّة إلى جذع شجرة الكافور الواقفة بين الزاوية والمقبرة، ويدفع فيها مغزله، فتتوالى العُقَد الصغيرة بين يديه، وهو منهمك في تبتل، وكأنه يريد أن ينفض عن رأسه الخوف الذي سكنه منذ أن هرب من «المنيا» إلى أن استقر به المقام في «الصابرية».

(3)

أنجبت «نوارة» بنتًا أسمتها «سميحة»، بدت للوهلة الأولى تشبه جدتها الراحلة. أخذها «ناجي» من كف القابلة، نظر إليها طويلًا وابتسامة عذبة تكسو وجهه، وقال: شاء الله أن تأخذ من أمي الكثير.

ووجدها «ناجي» فرصة ليدعو أهله لحضور عقيقة سخيَّة أعدها للقادمة جديدًا إلى الدنيا. لم يتأخروا كعادتهم، ليجدوا أنفسهم هذه المرة ملزمين بالإجابة عن سؤال طرحه عليهم مضيفهم في ثقة: ألم يحن الوقت بعد لتستقروا في «الصابرية»؟

غاصوا في تفكير عميق، ولم يكن بوسع أي منهم أن يتخذ مثل هذا القرار ببساطة. أبلغوه أنهم قد صارت لهم بيوت وأرض في مختلف البلاد التي سكنها الآباء والأجداد القريبين. لكن «ناجي» لم يُعدم، كعادته، القدرة على إيجاد حل. نظر إليهم وكأنه يُحصي الأقرب منهم

إلـى قبول عرضـه، وقال: لا يزال بينكـم مَن لا أرض لـه، فليأتِ ليكدَّ فـي أرضنـا، أو ينضم إلى عمال المعاصر والطاحونـة ومعمل الألبان، وسيتولى الرجال هناك تدريبه على العمل.

كانـت الأربـاح قد تراكمـت، ففكر في الأسـابيع الأخيـرة أن يُقيم عصـارة أخـرى. وكان قد وصله خبـر أن بعض فلاحي القـرى القريبة يبيعـون أرضهـم، إما لعوزهـم، أو لأن هناك ورثـة يتخلصون من تركة زاد الخـلاف حـول توزيعها، أو رغبة بعضهم في السـفر إلى البندر مع أولادهم الذين صاروا موظفين في دواوين الحكومة.

عـاد يقـول لهـم: هنـاك أرض في قـرى مجـاورة معروضـة للبيع، فلتبيعوا أرضكم هناك وتشتروا أرضًا هنا.

وحتى يغريهم أكثر، قال: الأرض هنا لا مثيل لها في الخصوبة.

هزوا رؤوسـهم وطلبوا منه أن يعطيهم مهلـة للتفكير، فقال: خذوا وقتكم، لكن لتعلموا أن جمع شملنا سيريح أجدادنا في قبورهم.

ومـا إن غادروا «الصابريـة» حتى جاء خفير إلـى «محبوب» وقال: سمعت أن رجلًا من «الجوابر» يريد بيع أرضه.

تطلع إليه في فرح، وسأله: هل هذا خبر أكيد؟

ابتسم، وأجابه: لو لم يكن أكيدًا ما أخبرتك به يا حضرة العمدة.

وسـأله عن السـبب، فقـال: بعض «الجوابـر» يـرون أن المكان قد ضاق بهم.

واستقبل «ناجي» الخبر في سرور، وقال للعمدة وهو يضغط على الحروف: لا يجب أن تفلت منا أي أرض يتخلون عنها.

- ربما لا يقبلون البيع لنا.

- لنا حقوق الجيرة، ولن ندع غريبًا يتملك سحتوتًا واحدًا في «الصابرية».

- أنت تعرف عنادهم، فإن بلغتهم رغبتنا في الشراء رجعوا عنه.

- لا بأس، نأتي بوسطاء يشترون لحسابنا، ونعطيهم أجرهم.

في اليوم التالي جاءهم نبأ عرض بيت «بهاء» للبيع. جاءت أمه من البندر، باحثة عن مشترٍ. عرضته على «الجوابر» لكن لم يكن من بينهم قادر على السعر المطلوب. قالوا لها في أسف: نرسل لنخطر الناس في القرى القريبة.

لكنها كانت في عجلة من أمرها، فسألت: ألا يوجد هنا مَن يشتريه؟ كتموا الإجابة التي يعرفونها جيدًا، وقالوا: عليكِ بالصبر حتى نجد مَن تبحثين عنه.

كان «ناجي» يعرف الطريق جيدًا. انتحى جانبًا بإمام المسجد بعد صلاة العشاء، ووسَّطه في الشراء. فلم يتأخر الرجل، ذهب إلى بيت «أم بهاء» متعللًا بأنه قد جاء ليطمئن على أحوالها. استقبلته في ترحاب شديد، وكانت حولها نسوة من «الجوابر» فطلب منها الانفراد به قليلًا، ثم قال لها: سمعت أنكِ تعرضين البيت للبيع.

- هو كذلك، لكن يبدو أن هذا الأمر ليس سهلًا.

- بل أسهل مما تتصورين.

وفاتحها بما جرى بينه وبين «ناجي» فارتبكت وقالت: لن يرضى أهلنا بهذا.

طوح ذراعه في الهواء مستهينًا بما سمع، وقال: مَن حَكَم في ماله ما ظلم.

أناخت رأسها على كفها، ولاذت بالصمت. ولمَّا وجدها الرجل على هذه الحال، رمى إليها ورقته الأخير. دفع كل قدرته على الإقناع في صوته، وقال لها في هدوء: لن يعنيك موقف أهلك طالما ستعودين من حيث أتيت.

ثم مد عنقه ليقترب منها أكثر، وقال: لن تجدي مَن يدفع لك الثمن الذي سيقدمه «ناجي» دفعة واحدة.

تنهدت في وجع، وقالت: أخاف أن يتعذب ابني بالبيع لعدوه.

فوجئ بما قالته، لكنه لم يعدم حيلة. نظر إليها، وسألها: هل يزوره أحد من الجوابر في سجنه؟

أجابته: نسوه وكأنه لم يكن ابن كبيرهم.

هنا لاحت أمامه الفرصة ليُجهز على ذرائعها، فقال: مثل هؤلاء لا تقيمين لهم وزنًا. أما ابنك فاخفي عنه اسم الشاري. وحتى لو عرف فأخبريه بأنك لم تجدي غيره. ولن تكذبي، فما أعرفه أن «ناجي»

و«محبوب» لن يسمحا لغريب أن يدخل القرية، ومعهما القوة والقانون.

وسألها عن حال ابنها، فارتبكت وأبعدت عينيها عن عينيه، وقالت: كان الله في عونه.

هز رأسه، ومصمص شفتيه، وقال: تجربة قاسية، أرجو أن يستفيد منها، ويتجاوزها.

وكان إمام المسجد موكلًا من «ناجي» ليفاوض «أم بهاء» في شراء البيت، بعد أن حدد له السعر الذي يبدأ به، وذلك الذي ينتهي عنده، ولا يزيد. طرح عليها سعرًا فاستنقصته، فرمى إلى سمعها ما هو أزيد، وهو مندهش لقدرة هذه المرأة على المساومة، حتى بلغ السعر الأقصى غير المسموح له بتعديه، فقالت في هدوء: دعني آخذ المشورة وأعود إليك.

- هل ستعودين إلى ابنك في السجن؟

- هو، ولا أحد غيره.

انكسف باله، ورفت على شفتيه ابتسامة فاترة، وقال: أعتقد أنه سيرفض. وشعر بأنه قد أخطأ حين تلفظ بهذا، فقال في سرعة: ليس هناك ما يمنع من القبول، مثل «رافع» الذي باع ورثه في أبيه وأمه إلى «ناجي»، وترك القرية ليسكن المحروسة.

عدلت الطرحة لتواري خصلة من شعرها الأبيض انفلتت فجأة، وقالت: لن أخبره باسم المشتري، ولم يعد شيء يهمه، ضاعت منه أرض الانتفاع وكثير من أملاكه، وهو لاهٍ لا يقيم لكل هذا وزنًا.

(4)

كان «بهاء» قد عقد العزم على ألا يعود إلى القرية مرة أخرى. نهشت الأسئلة نفسه بين جدران السجن، لكن إجاباتها جميعًا كانت تنتهي بقرار الابتعاد. كيف يعود إلى مكان رآه الناس فيه مُهانًا، يتلاعب خصومه بمصيره كما تتلاعب العواصف بزغب اليمام؟

كلما كان يحل برأسه مشهد النهاية، كان يعتصره ألم شديد، ويروض مجبورًا الرغبة في الانتقام. لكنه كان يرى أن ثأره يجب أن يؤخذ على مهل، حتى لا يتمكن أعداؤه من الإيقاع به مرة ثانية. كانت أمه كلما زارته حاولت أن تخفف عنه آثار الماضي، مستندة إلى رغبته في الابتعاد، وتقول: حين تخرج من هنا، تبدأ حياة جديدة، أدخر لك المال، وليس عليك إلا أن تُحسن إنفاقه هذه المرة.

لم ينسَ «البهوية» التي حلم بها، وكان يرى أن أي مال سينفقه في سبيلها سيُرد إليه بفعل الجاه الذي يحوزه. صارح أقرب مَن صادقهم في السجن بما يفكر فيه، فقهقه طويلًا، ثم قال له: منذ متى كان أرباب السجون يصبحون بهوات؟

لكنه كان يؤمن بما تعلمه من «قطاوي» و«ليشع»، اللذين أفهماه أن كل شيء في بلادنا قابل للشراء، وأن المال يفتح الأبواب المغلقة. حتى سجلات السجون يمكن أن تُمحى منها أسماء مقابل رشاوى سخية، والكبار لا يعنيهم ماضي المرء طالما أن في كفه نقودًا كثيرة.

أليس المال هو الذي مكَّنه من أن يقيم له أقوى رجل في السجن وزنًا، بل يهبه مَن يتلذذ به، ويوفر لهذا المكان المعزول والفرصة

الكاملة؟ أليس المال هو الذي أتاح له إدراج اسمه في قائمة العفو التي تُقدم إلى الخديوِ؟ نعم هو. دفع لمأمور السجن، فوضعه على رأس القائمة. وكان عليه أن ينتظر متقلبًا في هواجس شريرة، تهجم عليه صباحًا ومساءً. حتى مناماته لم تخلُ منها، حين يرى نفسه وقد اعتلى صدر «ناجي»، يطبق بيديه على رقبته، ويرى في عينيه صور الأجداد الغابرين، وهم يمدون أيديهم له كي ينضم إليهم، تمنى لو تمكن من اغتصابه لكسر عينه إلى الأبد!

يهب مفزوعًا، فلا ينتبه إليه سوى صديقه «عبد القوي الحاجري». يمد يده إلى جبينه المتصبب عرقًا، ويقول له: لا يفزع إلا العاجز. ويتطلع إليه في ضيق، فيواصل: حين ينتصر الرجل على غريمه يكف عن مطاردته في أحلام الليل.

كان قد حكى له كل ما يشغله، ودفع له كي يوضع أيضًا في قائمة العفو معه، وقال له: لمَّا نخرج من هنا لا تفارقني.

ابتسم، وقال له: أنا معك حيث تكون، ولا أهل لي في هذه الحياة غيرك.

لم يكن «الحاجري» يوافق «بهاء» في ابتعاده عن قريته، وطالما قال له في عينيه: لا تهرب من المواجهة. لكنه لم يقدر على قبول العودة إلى بيته، وأصر على القرار أكثر بعد أن أخبرته أمه بأن القرية استعادت اسمها القديم. حين أبلغته بهذا، ضرب كفًّا بكف، وقال: سقطت القلعة الأخيرة. ولمَّا زارته لتستشيره في بيع البيت، سألها عن المشتري، وحين عرف، غاص في الألم، وسألها من جديد: ألا يوجد غيره؟

تنهدت في حرقة، وقالت: قدم أعلى سعر، ولا يوجد في القرية مَن لديه ثمن الشراء، وهو لن يسمح لغريب بأن يأتي إليها.

عض على أسنانه، وقال: يصر الكلب على محو اسمي من هناك.

وحاولت أن تخفف من حنقه، فقالت: هو في احتياج إلى البيت، ولا يعنيه ما في رأسك.

- مضطر للتراجع خطوة أخرى إن كان هذا لا بد منه كي أرى خصمي جيدًا، قبل التصويب عليه.

- ألم يعلمك السجن خطر هذا الطريق؟

- سأقتله في بطء، وبلا رصاص. هذا أوعر، ويشفي غليلي.

(5)

نزل خبر بيع بيت «رشدان» على رؤوس «الجوابر» كالصاعقة. اهتزوا أكثر من يوم بيع «رافع» نصيبه، وقالوا: هو في النهاية ابن «الصوابر» وإن مال إلينا. تبادلوا الرأي فيما عليهم أن يفعلوه، فلم يجدوا أمامهم سوى العجز. فحتى لو تمكنوا من جمع ثمن البيت من بعضهم البعض، فلن يقدروا على استرداده، فمَن اشتراه لا ينتظر منه ربحًا في بيع أو سمسرة، إنما يريد به أن يغيظ «الجوابر»، أو على الأقل يجعله في خدمة الحلم الذي يتنقل في رؤوس أهله جيلًا بعد جيل.

ترحموا على أيام جدهم «درويش» الذي كان داهية، استعمل ذكاءه وجبروته في غرس أول وتد عفي لـ «الجوابر»، وها هو قد انخلع تمامًا

بسجن «بهاء» وبيع البيت الذي ورثه عن أبيه، وليس هو أي بيت. انخلع وألقي جانبًا، ولن يجد مَن يلتقطه، ويعيد غرسه من جديد.

تنادى بعضهم ليتحدثوا عما جرى. لم يعد لهم سلاملك يلتقون فيه، وخافوا إن جلسوا على المصاطب أن يصل ما يقولونه إلى سمع «الصوابر»، الذين اعتادت أقدامهم شوارع القرية في الأسابيع الأخيرة، وتناثرت أخبار عن رغبة كثيرين منهم في الإقامة فيها، فالتقوا داخل البيوت، وأغلقوا أبوابها جيدًا.

ذات مرة قال أحدهم في غضب: لم أعد قادرًا على البقاء هنا.

تطلعوا إليه، دون أن يتعجبوا مما قال، لكنهم لاذوا بالصمت، وغاصوا في شعورهم المتصاعد بالقهر، وتبادلوا النظرات، إلا أن أحدهم رمى ذراعه مستهينًا بما يسمع، وقال: لا يجب أن تضغط الحكايات القديمة على نفوسنا، وتدفعنا إلى التشرد في البلاد.

بدا في عيون بعضهم استملاح ما سمعوا، فواصل الرجل: هذه القرية كانت لهم، هم مَن وضعوا أساسها، وجاء جدنا القديم عليهم، فلم يضيقوا به.

نهره آخر: لا ترضَ بالذل.

رفت على شفتيه ابتسامة ساخرة، ونطق: قول الحق مُر.

انقسموا بين راغبين في البقاء، ومُصرين على الرحيل، لكنهم آثروا أن يؤجلوا البت في أمرهم إلى وقت لاحق، مستجيبين لقول أحدهم: قرى كثيرة تتجاور فيها عائلتان كبيرتان، ولا ضرر في ذلك. وانتهوا إلى

أنهم يجب أن يتمهلوا ليروا كيف تجري الأمور بينهم وبين «الصوابر» في قابل الأيام.

(6)

لـم يكن «ناجي» يضمر لـ «الجوابر» شـرًّا، لكنه لـم يُبدِ أي تراجع عن رغبته في السيطرة على زمام الأمر. شاركه «محبوب» هذا الشعور، وكانت شهيته قد انفتحت على تملك كل ما يستطيع شراءه، ولم يُخفِ تشفِّيه في «الجوابر». من نصيبه في أرباح المعاصر والطاحونة ومصنع الألبان اشترى أرض فلاح مـن قرية قريبة، تجـاور أرض «الصوابر»، واشـترى بيتًا قديمًـا من النصارى، وشـرع في هدمه ليبنيـه من جديد، وقال: لا بد أن نعمل حساب ذريتنا.

وكان قـد أصبـح له مـن الأولاد ثلاثة وبنـت، ويطمع فـي المزيد، مدفوعًـا برغبـة ظلت دفينة في نفسـه أنـه يحتاج إلى عزوة مـن صُلبه، يطـارد بهـا شـعوره الدائم بأنـه وارد على القريـة جديد، حتـى لو كان عمدتها. ولم يكن «ناجي» يختلف عنه في هذا، فاسـتعجل الإنجاب. وسايرته «نوارة» في هذه الرغبة، حتى قالت له ذات مساء: أتوحم على تين شوكي.

مـد بصره مـن نافذة البهو العلوي إلى أرضه التـي تأخذ ناظريه إلى البعيد، وتلا بصوت ندي: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا».

ألقـت عليه نظـرة حانية، وقالت بصـوت خفيض: ربمـا تكون بنتًا ثانية.

- قلبي يحدثني أنه ولد.. ولكن كل ما يرزقنا به الله يكون خيرًا.

- يقول الرجال هذا، لكنهم في كل مرة يتمنون الولد.

- لا أنكر هذا، فالعمر يجري، وأحتاج إلى مَن يسند ظهري.

- كانت أمك أفضل من رجال كثيرين.

- مثل أمي من الصعب تكرارها.

وكانت «سميحة» على مقربة منهما تلعب بعروسة من القطن اشتراها أبوها لها من البندر، فنظرت إليها «نوارة» وقالت: أراها غاية في الفِطنة، وأحسب أنها ستفوق جدتها حين تنال نصيبها من التعليم.

هز «ناجي» رأسه، وقال: هذا سيجعل جدتها سعيدة في قبرها.

(7)

جاء حارس السرايا ذات ضحى، وقال لـ «ناجي»: المجذوب يستأذن في مقابلتك. لكنه آثر أن يذهب هو إليه بعد صلاة العشاء. وجده يجلس في قلب الزاوية يلتهم، على هدي مصباح آفل، لقيمات من طبق خوص وسيع تستقر فيه ثلاث بتاوات يابسة، وصحن به جبن، وآخر مملوء باللفت المخلل. وقف يتأمله، وهو يلتهم طعامه شاردًا، حتى إنه لم يشعر بمَن وقف بباب الزاوية يتأمله وابتسامة عذبة ترف على شفتيه.

ألقى عليه السلام فانتبه واقفًا، وقال: تفضل، ولو أن طعامي لا يليق بمقامك.

ضحك «ناجي»، وقال: سأخذلك وآكل معك.

جلس إلى جانبه، ومد يده إلى كسرة وغمسها في الجبن، وراح يلوكها وهو يمد بصره إلى الظلام الكثيف الذي يلف المقبرة، وقال: أنعم الله عليك بهذه السكينة.

ووقعت عيناه على خيوط تمتد بين جذع الشجرة وجدار الزاوية، خلصت له في الضوء الشحيح للمبة الجاز الذي أوشك على النضوب، وقال: سمعت عن مهارتك في صناعة الطواقي.

- مهنة ورثتها عن أبي، ويا ليتني أخلصت لها.

- كثيرون يتمردون على مهن الآباء بحثًا عما هو أفضل.

- تركتها إلى التعليم الأزهري، وقطعت فيه شوطًا لا بأس به، كان كفيلًا بأن يضمن لي وظيفة حكومية بسيطة.

- أتضحي بوظيفة في سبيل المجهول؟

- لم أفعل أكثر مما فعله أبوك، بل ما هو أقل، فأين أنا من مقام الشهادة؟

وشرح له كيف سحبه إلى هذا الطريق رجل اسمه «فهمي مربوح» كان من أعضاء «جمعية الانتقام» التي شكلها بعض الشباب الطامحين إلى الكفاح المسلح بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الإنجليز مصر. كان الرجل من بين الذين حصلوا على البراءة لعدم ثبوت أي اتهام ضدهم. ماتت الجمعية التي لم تُعمَّر سوى عدة أشهر، لكن

«مربـوح»، الذي كان على ثقافـة رفيعة، لم ينـسَ دوره. واصل منفردًا عمليـات الانتقـام، ولم تكن سـوى طعن عسـاكر إنجليـز عائدين من البارات ليلًا وهـم يترنحون. فعلها خمس مرات على فترات متباعدة، ومرتين بصحبة «نوفل» إلى أن مات، وترك المهمة لتلميذه.

تنهد «نوفل» في حرقة، ثم رفت على شـفتيه ابتسـامة فاترة، وقال: لـم أنـسَ الكثيـر ممـا كان يقوله لـي. حفظت بعضـه من كثـرة ترديده خاليًـا، لكـن أعمق ما بقي منه في نفسـي، هو ما قاله لـي ذات يوم: لن تُهزم إن لم تنكسـر نفسـك، وتخر إرادتك، ويلين عزمك. الهزيمة تبدأ داخل الإنسـان، فإن تمكنت منه، وملأت شعوره بها، بدأ يسلك درب المهزومين، يقول أقوالهم، ويفعل أفعالهم، يعطي عدوه ظهره، ثم يفر أمامه، فإن كان الشعور بالانكسار طاغيًا ركع المهزوم وطلب من غيره أن يفعل مثله ثم راح يسب الشجعان.

هز «ناجي» رأسـه، وراح يمضغ لقمته على مهل، ثم سـأله: في أي أمر تريدني؟

telegram @
yasmeenbook

- لـم أعتد هذه العزلة القاتلة.

- فيها أمانك، فلا تُضحي به.

- لا أطلب منك سوى أن ترسل لي الجرائد التي تنتهي من قراءتها مع حارس السرايا.

- تسـتعجل ارتيـاب الناس فيـك، فكيف لهم أن يدركـوا أن صانع الطواقي يمكنه قراءة الصحف.

نظر إلى الخيوط التي غامت ألوانها في الضوء الكسيف، وقال: سأغلق باب الزاوية وأقرأ على ضوء اللمبة. ثم تنهد، وقال: انقطعت عني أخبار البلد، ومثلي يجب أن يتابع كل شيء.

وفاجأ «ناجي» بقوله: أظن أن فيك شيئًا من أبيك.

غاص في نفسه طويلًا، ثم رد: جفلت من هذا الطريق، وكفاني ما سمعته من أمي عما يسببه لصاحبه من أوجاع، بل قد يكلفه حياته كلها، ويورث أهله يُتمًا ووحدة.

ابتسم «نوفل»، وقال: هذا يعطي حياة المرء معنى.

لم يجاره «ناجي» وكأنه أراد أن يوصد باب الحديث، لكن «نوفل»، الذي كان بارعًا في تجنيد شباب كثيرين ضمهم إلى الثائرين، قال له: العيش في خطر له لذة لا يعرفها إلا مَن جربه.

قهقه «ناجي»، وقال: مثلنا يخدم البلد بطريقته.

ثم رفع بصره نحو الظلام الذي يترامى فوق الزرع، وسحب أنفاسًا من النسائم الطرية التي تهب من هناك، وقال: أنا أزرع وأصنع، وهذا في نظري دور مهم لبلادنا، أراه أفضل لها من الجري وراء المجهول.

لكن «نوفل» عاجله قائلًا: لا تعتقد أننا مجموعة منقطعة للاعتراض والشغب، بيننا أصحاب الأملاك ورجال المال والموظفون الكبار، ومنهم بكوات وباشوات. ثم رمى إليه طُعمًا آخر، فقال: هناك طريق آخر آمن، يمكنك أن تسلكه في سهولة، وستجد فيه عزًّا وحماية.

تطلع إليه وفي عينيه سؤال، فقال «نوفل»: يمكنك الانضمام إلى حزب سياسي، ولك من المال والأهل ما يجعلك قادرًا على أن تكون عما قريب واحدًا من أعضاء مجلس شورى القوانين.

انشغل رأس «ناجي» قليلًا بما سمع، فعاجله الرجل: ليس للطموح نهاية، ومثلك لا يجب أن يكتفي بمجرد أن يكون كبير هذه القرية. ولمَّا لم يجد منه ردًّا، واصل: أنت على معرفة، وقراءة الجرائد أمدتك بكثير عما يدور في بلدنا، الذي هو الآن في حاجة إلى كل مَن يمد يده إليه.

لم يجد «ناجي» ما يقوله سوى: لندع كل هذا للأيام القادمة.

لكن منذ اليوم التالي وجد «ناجي» نفسه يقرأ ما في الصحف بطريقة مختلفة. لم يعد الأمر بالنسبة له تسلية، أو شيئًا يزيد من تميزه عن بقية أهل القرية، إنما وجد عينيه تحطان على أسماء الأحزاب ورجالها، وما يدور في المجلس النيابي، وما يقوله الخديو ويفعله، وما يصدر عن الاحتلال الإنجليزي، وكل ما يدور في العالم كله.

وذات يوم قال لزوجته: الحياة مراحل، ولا يجب أن يكف المرء عن السعي إلى ما هو أكبر.

وحين قابل «محبوب» في السلاملك، قال له ضاحكًا: ما أصغر «الجوابر» في عيني. رد وهو يسعل بعد أن سحب نفسًا عفيًّا من الأرجيلة: لا تستهن بمكرهم.

(8)

اهتم «ناجي» بتطوير المدرسة منذ أن تولى نظارتها. تبرع لها بمالٍ كافٍ لطلاء جدرانها، وتوسيع فنائها، واشترى مقاعد للتلاميذ الذين فاض عددهم على أماكن جلوسهم، وخصص غرفة لتكون مكتبة. شرح للنجار كيف يقيم أرففها، مثلما رأى في مكتبات «القاهرة»، وجلب إليها العديد من الكتب في مختلف العلوم، وعيَّن لها أمينًا يقوم على فهرسة الكتب، ويُنظم استعارة المدرسين لها.

حض المدرسين على القراءة المتواصلة، وخصص حصص المطالعة لتكون فرصة طيبة لتوسيع مدارك التلاميذ. أقام بينهم مسابقات في الثقافة العامة، وكان يُعطي من جيبه مكافأة لمَن يجيد فيهم. فعل الأمر نفسه في الكُتَّاب، واحتفى بمَن يحفظ سور القرآن.

ودعا ذات يوم نُظَّار مدارس متناثرة في القرى المجاورة، وأطلعهم على تجربته، وأبدى استعدادًا لنقلها إلى مدارسهم، فرحبوا بهذا، ورددوا اسمه في المدارس، وحمله الأولاد إلى البيوت، فامتلأت نفوس الناس في الزمام كله بامتنان عميق له.

وأوصاه «نوفل» بتوسيع نفوذه، قائلًا له: يكبر المرء في عيون أعيان البلد بقدر ما يشهد له أهله برفيع المكانة. فدعا «ناجي» عمد القرى المجاورة ومشايخها، غير مرة، إلى غداء أو عشاء في السرايا، وشرب الشاي والقهوة. كان ينتهي بجلسة في حديقة السرايا يتدبرون فيها أمورهم، ويفضون المنازعات بين المتخاصمين، وينظرون في مشكلات الزراعة والري. كان يجلس في صدارة المجلس، مستعينًا

بما في رأسه من معرفة، ومن خبرة القاضي والمدرس وصاحب الأرض والصناعة، فرآه العُمد كبيرهم، وأوكلوا إليه أن يكون همزة وصل بينهم وبين مدير المديرية.

كان المدرسون الذين يعملون تحت رئاسته ينتمون إلى قرى عديدة حول «الصابرية»، فطلب منهم زيارات لقراهم في أيام جمع متتابعة، ليلتقي أهلها بعد الصلاة. واختار كل مدرس بعض كبار قريته ونابهيها ليجلسوا معه. في كل جلسة كان يستفيض في طرح حلول لمشكلات أهل القرى، ويخرج منها إلى هموم الدولة بأكملها.

وقال له «نوفل» ضاحكًا: يبدأ السياسي الحقيقي رحلته من القاع.

– فتحت عيني على طريق، لا أدري إن كانت نهايته سعيدة أم تعيسة؟

– لديَّ ما ينفعك، فاعتبرني مستشارك.

وكان يختلي إليه في الزاوية، أو يستدعيه للسرايا، ليناقشه فيما قرأه في الصحف، ويسأله عن أسماء وأشياء، وكان «نوفل» يعرف الكثير من التجارب نقلها إليه، وأوصاه أن يسافر إلى «القاهرة» لحضور مؤتمرات يعقدها الساسة، وطلب منه أن ينصت أولًا في إمعان شديد، ثم يشارك في النقاش، ليعرفه الحاضرون.

وأبلى في هذا بلاءً حسنًا، فتردد اسمه بين المنشغلين بالسياسة، وشجعه وجود وكالة له لتبيع منتجات مصانعه في أن يقيم بأي من فنادق القاهرة أيامًا وليالي، يدعو فيها بعض مَن راق لهم حديثه،

ليتبادلوا الرأي. ولم تمر سوى شهور، حتى رأى فيه كثيرون رجلًا محل ثقة.

وزاد تردده على «القاهرة» حين انتقل إليها «صابر» ليلتحق بالأزهر، فاشترى له شقة في الأزبكية، كان يقيم فيها معه أيام وجوده بعاصمة البلاد، ويدعو إليها بعض مَن صادقهم ليتناولوا معه طعامًا مختلفًا أحضره معه من «الصابرية».

واستمع «نوفل» ذات يوم إلى حديثه، فنظر إليه في إعجاب، وقال: لم تبقَ أمامك سوى خطوات، وتصبح أحد أقطاب السياسة في بلادنا.

كان «محبوب» يستملح الخطوات التي يقطعها «ناجي» على دربه الجديد، ويرى فيها سندًا له في الاحتفاظ بالعمدية، وتوسيع طريق تجارتهم، وإن كان يضيق أحيانًا بما ينفقه «ناجي» بسخاء على السياسة. ووجد نفسه يقول له ذات يوم: إن لم تُعطِ السياسة كما تأخذ تكن عبئًا على صاحبها.

نظر إليه في اندهاش، وقال: في الحياة ما هو أهم من المال.

وأقره «نوفل» على رأيه، وقال له: لبلادنا دَين في أعناقنا جميعًا.

كانت «نوارة» منزعجة مما طرأ على زوجها. رأته قد انشغل عنها كثيرًا، وضجت بالشكوى مرات، لكنه كان يرضيها بالهدايا التي يجلبها لها من «القاهرة»، ويختلي إليها ساعات، ليُطلعها على ما يعتزم فعله، وكيف ستكبر معه، وتصير واحدة من هوانم البلد بأسره.

كانت تغلق باب الحديث كل مرة بعبارة مكررة: لنعش كما عاش أهلنا. لكنه كان قد قرر أن يدفع سيرة أهله إلى الأمام دفعة قوية، منصتًا إلى تشجيع «نوفل»، واستحسان «الصوابر» من سكان «القاهرة» أن يكون أحد رجالهم من بين الكبار. وما زاده إصرارًا على هذا أن «صابر» قرر أن يبقى في «القاهرة»، ويلتحق بالجامعة الأهلية بعد حصوله على العالمية من الأزهر.

كانت أخبار ما يفعله «ناجي» تسقط على رؤوس «الجوابر» كالصخور الجارحة. تملكهم خوف شديد من أن يسحقهم حين يزداد مكانة، رغم أنه بدا وكأنه قد نسيهم في غمرة انشغاله الجديد، متبعًا نصيحة «نوفل» الذي أنصت إلى شكواه من أثر الحكايات الغارقة في الإحن، وقال: تكون عظمة الرجل على قدر مكانة خصومه. ثم رفع يده إلى الشمال، وكأنه يشير إلى «القاهرة»، وقال: خصومك أبعد كثيرًا من بقايا عائلة قروية تتداعى. ونصحه أن يفتح صفحة جديدة مع «الجوابر»، وقال: قد تكون بحاجة إلى أصواتهم في الانتخابات المقبلة.

كان قد قرأ في جريدة «الأهرام» أن المعتمد البريطاني اللورد كتشنر قد ألغى مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية، وسيصدر قانونًا يقيم «جمعية تشريعية» مدتها ست سنوات، يُعين فيها سبعة عشر عضوًا، ويُنتخب ستة وستون من مختلف المحافظات، على أن يكون العضو فوق الخامسة والثلاثين من عمره، ونال حظه من التعليم، ودافعًا للضرائب.

وحين قرأ «نوفل» الخبر، قال له: كأن مَن وضع هذه الشروط يراك.

قهقه «ناجي»، وقال: في بلدنا آلاف ينطبق عليهم هذا.

طوح «نوفل» يده في استهانة، وقال: أنت معك ما ليس لأغلبهم.. محبة الناس وثقتهم، ومال يعينك على قضاء حوائجك.

طأطأ «ناجي» رأسه، وكأن شيئًا قد أثقله، وقال بعد أن زفر في أسى: كل هذا قد يضيع خلال قفزة في الفراغ.

كان «نوفل» يعرف أن الانخراط في الهموم العامة ينطوي على مخاطرة، لكنه سمعه لأول مرة يتحدث عن فراغ ينجم عن هذا. ألقى نظرة متعجبة على «ناجي»، فراح الأخير يبدد تعجبه حين قال له: طالما صعدت عائلتي حتى كادت تمسك النجوم، ثم ألقت بها مغامرات بعض كبارها إلى أسفل سافلين.

تنهد «نوفل»، وكان قد أدرك وطأة الحكايات القديمة على «ناجي»، فقال له: ربما تضع أنت حدًّا لهذه الآفة.

(9)

لم يتعلم «بهاء» شيئًا من السجن سوى الصبر. كان قبله لا يجيد لعبة ترويض الوقت، ويتوهم أن بوسعه أن يقول للشيء: تعالَ، فيأتيه مسرعًا، ويكون طوع بنانه. بعد السجن تعلم أن يتخلى عن التسرع والطيش حين يفكر في تدبير أمر لخصومه.

لم يكن في رأس «بهاء» من عدو سوى «ناجي». وحده الذي كان يأتيه في منامه كابوسًا قاتمًا يفزعه. وحده الذي كانت صورته تحط على جدران العنبر كلما نظر إليه وهو يقظ، فكان يبعد ناظريه سريعًا إلى وجوه رفاقه. كم آلمه حين أخذوه إلى زنزانة انفرادية، بعد واقعة سبه لأحد السجانين، ألا يجد الوجوه التي تأخذ عينيه من وجه «ناجي» وهو يلاحقه من الجهات الأربع! وكان يغلي كلما نقلت إليه أمه أخبار خصمه، وقالت له كل مرة: «ناجي» كبر أكثر.

كانت تشرح له ما سمعته أو رأته، كلما كان يلح عليها. حتى حين تركت القرية استجابة لما طلبه منها، لم يعفها من جمع أخبار «الصوابر». ضاقت بانشغال ابنها بخصمه على هذا النحو، وأدركت أن ما ينتظره بعد خروجه من السجن لن يجعله يعيش في سكينة.

نظرت إليه في تودد، وقالت: لك ابن عليك أن تفكر في العيش له.

لم ينطق، فواصلت: أربيه على أفضل وجه، وأُخبره بأنك في سفر وستعود.

كان يهمل ما فطنت إليه هذه المرأة المعذبة بين محبتها لابنها وحفيدها، وعدم اقتناعها بما يملأ رأسه، ويجعله يندفع في طريق الخسران. حاولت مرارًا، وهي في القرية أن تثنيه عما يعتزمه، لكنها فشلت، واستسلمت لعجز صنعه قلب ينبض مرتين، لا لقاء بينهما، مرة لفرط محبته، ومرة للخوف منه، بعد أن صار مخيفًا، وطالما أفسد الخوف الحب، فخضعت له، مكتفية بدعوات كانت تشعر بأنها لا تصعد إلى السماء.

حافظت على ماله حتى سلمته إياه، وقالت له: لم يبقَ مما تركه أجدادك سوى هذا، فإن لم تزده، حافظ عليه. اشترى شقة في بندر «أسيوط». فرشها بأثاث وثير، وأتى بخادمة لتربي ابنه، ثم جلس على أحد المقاعد اللينة يفكر فيما عليه أن يفعله في قابل الأيام. دار رأسه مستعرضًا الكثير من الأشياء التي يمكنه أن يبدأ بها، لكن خياله كلما كان يخطو إلى الأمام خطوة، قفزت المخاوف فردته خطوتين، حتى إنه تعجب من نفسه، وسألها هازئًا: أين أيام الطيش والحماقة؟

وأشار عليه صديقه «عبد القوي الحاجري» بأن يطلق أي مشاريع تُدر عليه دخلًا، حتى لا يتآكل ماله. كان في الحقيقة يريد أن يشق لنفسه دربًا إلى جانب هذا الثري الذي أهدته إليه الأيام في ظلام السجن. نظر إليه «بهاء» في سخرية، وقال: كأنني أنتظر مشورتك.

جفل «الحاجري» وابتلع ريقه، وهو يشعر بأن «بهاء» يريد له أن يعرف أن الرؤوس التي تساوت في السجن آن لها أن تتفاوت. لكن رجلًا مثله لم يستطع تقبل الإهانة المبطنة دون رد. نظر إلى «بهاء» وقال: أنت ابن ريف، ومهما كان لك من مال أو طموح لن تعرف خبايا المدن بسهولة.

رفع إليه عينين كسولتين من فرط الشراب، فواصل: نبدأ بمشروع بسيط، أنا أعرفه جيدًا، وربحه مضمون.

زفر في غيظ، وسأله: أي شيء هذا الذي تضمن ربحه؟

أجابه على الفور: مقهى.

ثم عرض عليه شـراء محل واسع يواجه مبنى المديرية والمحكمة الشرعية وقريب من قسم الشرطة، وقال: في مثل هذا المكان سنضمن زبائـن بلا انقطاع. وحين وجـد في عينيه ترددًا قال له مشـجعًا: أعرف أن هذا ليس من مقامك، لن تظهر في الصورة، وأنا سـأدير كل شـيء. فهز «بهاء» رأسـه، وقال: سأفعل هذا من أجلك، لكن علينا التفكير في أبواب رزق أخرى.

لـم يكن «بهـاء» قد نسـي تطلعه إلى نيـل البهوية، فأنفـق على هذا بسـخاء، لكن الأمـر تعثر، وجاءته ردود شـتى من وسـطائه، وكانوا لا يتورعون عن ابتزازه، حتى انتبه إلى أنه أنفق على هذه الرغبة مالًا كثيرًا، فلعن في سـره «قطاوي» وابنه، وقـال لصديقه «عبد القوي الحاجري» وهو يكتم غيظًا يكاد يمزقه: لا بد من تعويض ما ضاع مني.

نظـر إليـه صامتًا، ينتظر منـه أن يبوح بمـا يدور في رأسـه، فواصل «بهاء»: لم أخلق أنا وأنت لنكدح كفلاحي الغيطان.

سأله في لهفة: ماذا تنوي؟

صمت برهة، ورد عليه بسؤال: هل أنت معي مهما جرى؟

- أفضالك فوق رأسي. لم يعطني أحد في هذه الدنيا مثلك.

- الأيام آتية، وسنرى.

وفوجئ به يعرض عليه ذات يوم خطة للانتقام من غريمه «ناجي»، ثـم قال: هذه مجرد بداية. وبدا «عبد القوي» غير متحمس لما سـمعه، لكـن «بهـاء» كان يعـرف ما يثير حماسـه، فقـال له: سـأعطيك ربع ما

نحصل عليه، وربع للرجال الذين سينفذون ما نريد، والنصف هو جزء مما أخذه مني عدوي في سنوات مضت.

كان «بهاء» يعرف مكان الخزينة في السرايا، هو لم يتغير منذ أن بناها الوجيه. حتى أطفال القرية يعرفون هذا المكان، لكن ليس بوسع أحد أن يصل إليه، وإن وصل، فهي واقفة في الجدار، تلتحم بها أحجاره الثقيلة، وبابها من حديد صلب، ومفتاحها لا يعرف أحد مكانه. وحتى لو تمكن بعض الناس من تخليصها من الجدار، فلن تقدر على حملها سوى عصبة، وأنَّى لهؤلاء فعل ذلك دون أن يشعر بهم أحد؟

أنصت إليه «عبد القوي» ثم قال: هذه مهمة صعبة، خصوصًا في بيت ريفي.

رد «بهاء»: أهل البيت جميعًا منشغلون الآن في ترشح «ناجي» للجمعية التشريعية. وعاد يدقق في عيني «عبد القوي» المملوءتين بالأسئلة، ثم قال: لا تقلق، أنا أعس وراء ما يجري هناك. وراح يحك ذقنه بسبابته ويرمي ابتسامة عريضة، وواصل: أهلنا هناك، ولن يبخلوا علينا بشيء. وأشار بيده نحو ثلاثة أظرف مفتوحة، تطل منها أوراق بيضاء مُلئت سطورها بالكلمات، وقال: يأتيني كل أسبوع خطاب من هناك، فيه شرح لكل شيء.

بدا الانزعاج على وجه «عبد القوي» وقال له: عليك التخلص من هذه الخطابات، فهي ستكون دليل إدانتنا فيما بعد.

قهقه، وقال: لم يرَها أحد غيرنا، وطبعًا «بَدُّور» الذي كتبها وأرسلها، وسأحرقها أمام عينيك لتطمئن.

حاول «عبد القوي» ألا تظهر السخرية التي حلت بنفسه في عينيه، أبعدهما، وسأله: هل ستحرق مَن كتبها أيضًا؟

أجاب: أنا أضمن إخلاص «بَدُّور» لي، وأضمن أكثر حنقه على «الصوابر».

فكر «عبد القوي» قليلًا، وقال: هل ترسل له الخطابات باسمك؟

- لا، بل باسم آخر، خوفًا من أن تقع عينا العمدة أو «ناجي» على عنواني.

وبينما كان الدخان يتصاعد من مجمرة ألقى إليها الخطابات، سأل «بهاء»: هل تعرف شخصًا بارعًا في فتح الخزن؟

- ليس هناك أمهر من «عجب سيده».

- مَن؟!

- هذا اسمه فعلًا.

- أتمنى أن يُعجبني حين يتمكن من فتح الخزانة العامرة بالنقود والذهب.

ثم رفع رأسه وقال: أريد استرداد كل ما أخذوه مني، ومن أهلي.

(10)

في المقهى الذي يجلس «عبد القوي الحاجري» في صدارته، تربع شاعر على كرسي عريض. داعب ربابته، وغاص في رأسه وقلبه،

ليصطاد المعاني العجيبة التي تهز نفوس الجالسين، فيمدون أيديهم إليه ببعض من قليل مالهم.

قبل أن يغرف من الشعر الذي نسج أبياته على مهل، تلفت حوله، وأراد أن يُمهد الآذان المشرعة لسماع قصيدته الطويلة المجروحة، فقال العبارة التي صاغها له أحد الأفندية فحفظها عن ظهر قلب: كل هذه الكبرياء والصبر يا صابرية في شوارعك حلت الغرائب والعجائب التي شاهدها الناس في كل زمان ومكان. على مدار الزمن كنت القلب في جسد مريض. سلام الآن وغدًا، كما كان بالأمس، على أطفالك الميامين، ونسائك الماجدات، أمهات الرجال الذين ينظر إليهم الصعيد كله بإكبار. رغم طول الزمن، ومشقة الرحلة وآلامها، لا تزالين واقفة يا صابرية، اسم أنتِ على مسمى، تجري الحكايات في شوارعك، كما يجري الماء في غيطانك.

كان تمهيد يسبق انطلاق الرباب مجروحًا قبل أن يتدفق الشعر سخيًّا، لكن الشعر مات في رأسه، حين صرخ فيه «عبد القوي»: زهقنا من حكاية «الصوابر»، أليس لديك غيرها؟

كان «عبد القوي» قد أصابه الملل من حكايات «بهاء»، ولا يريد أن يتذكرها، وكان يعرف أن الشعراء ينحازون إلى «الصوابر»، فلم يُرد أن يملأ أذنيه بما يكون فيه «الجوابر» أشرارًا مهزومين، وواحد منهم صار ولي نعمته الآن. لكن أكثر ما جعله يغضب هو أن يتسلل الشِّعر إلى رؤوس الناس فتنضح منها أسئلة قد تقود مع الأيام إلى أن صاحب

هـذا المقهى هو كبير «الجوابـر» الآن، فربما يصرفهم هذا عنه، بعد أن تمكنت كراهية «الجوابر» من نفوسهم.

لم يُبدِ أي تسامح مع الشِّعر الذي يصور هذه الحكاية التي عششت فـي الرؤوس قرونًا، ترمي بها ألسـنة الشـعراء إلـى آذان كل جيل، ولا يكف الناس عن طلب سماعها.

(11)

مـع الأيام راح «ناجـي» يُحلق بعيدًا فيصغـر «الجوابر» في ناظريه، بينمـا كان «بهاء» يغوص فـي الأرض، فكبر في عينيه «الصوابر»، حتى صاروا يسـكنون رأسـه ليل نهار، ويمدون سـيقانهم ليطبقـوا بها على صدره. يتنهد في حرقة، متطلعًا إلى اللحظة التي يزيح فيها هذا الغم.

وقالـت لـه أمـه: أنت تريـد أن تُشـقي نفسـك. لكنه لـم يكن يضع كلامهـا في الاعتبـار، ومضى يجمع الأخبار التي تـرده من «الصابرية» فـي خطابـات بريدية. ثم لم يكتفِ بهذا بل طلب ممن يراسـله أن يأتي إليـه، فجاءه يتخبط في ظنونه. فلما اختلى بـه، قال له: هناك ما لا ينفع شرحه في الخطابات. طأطأ رأسه، وقال: تحت أمرك فيما يريد.

طلب منه أن يصف له بدقة تحركات «ناجي» في هذه الأيام، فوضع أمامه كل شـيء كما يعرفه، وكان لا شـغل له طوال الأسـابيع الأخيرة سـوى مراقبة السـرايا من بعيد، ولملمة ما يتناثر من أخبار على ألسـنة الرجال فـي الحقول وعلى المصاطب، وعلى أفواه النسـاء أمام أفران الخبيز، وعلى عتبات الدور.

وتوقف «بهاء» حين قال له الرجل: أنجب «ناجي» طفلًا.

رفَّت على شفتي «بهاء» ابتسامة صفراء، وسكن في أعماق عينيه غدر حاول أن يداريه، وقال: مبارك له.

وجيء إليه بحرامي الخزن «عجب سيده»، وكان رجلًا نحيلًا، تتراقص عيناه في رأسه كأنها ترقب كل شيء حوله، ولا تكف شفتاه المقددتان عن احتضان لفافة تبغ. يسحب منها بفمه ويطرد الدخان من منخريه سريعًا. جلس قبالة «بهاء» فشرح له كل شيء، ثم تطلع إلى أصابع يده الممشوقة، كأنها خلقت للأعمال الخفيفة الدقيقة، وقال له: صيد ثمين، إن ظفرت به، فلك حلوان كبير.

ابتسم، فبانت أسنانه المتآكلة، وقال: ليس حلوانًا يا بيه، إنما أجر على قدر ما في الخزنة.

هز «بهاء» رأسه، وقال: لن نختلف، المهم أن تنجز مهمتك دون نقصان.

أطرق مفكرًا، وقال له: لا أحتاج سوى إلى نصف ساعة حتى أنجزها، لكني أحتاج إلى مَن يؤمن دخولي إلى السرايا، ويحمي ظهري وأنا جالس إلى الخزنة، ويؤمن خروجي.

قال له «بهاء» في ثقة: لا تقلق، أنا جهزت للأمر جيدًا.

(12)

ما إن رفعت القابلة الوليد بين يديها حتى شهقت، ثم كتمت الصوت الذي انفلت من أعماقها، وأتبعته سريعًا بالقول: فلقة قمر.

ثم انهمكت في تنظيف جسده بالقطن، ولفته في لباس أبيض اشتراه له «ناجي» من «القاهرة». وقبل أن يغطيه اللباس حطت عينا الخادمة الواقفة عند السرير على صدر المولود، ثم اتسعتا دهشة. بلعت ريقها، وقالت لـ «نوارة» في مودة: مبارك لكِ يا ست.

كانت «نوارة» تبلل شفتيها المقددتين بلعاب عالق في لسانها الذي ابيضَّ من كثرة الصراخ، بينما عيناها تطردان الغيم الذي سكنهما أثناء الوجع الرهيب. اعتدلت قليلًا، وقالت للقابلة: هاتي رضوان. وكانت قد اتفقت على هذا الاسم مع أبيه. استملحت القابلة الاسم، ورفعت الوليد إلى أمه، وهي تقول: يتربى في عز أبيه.

أخذته منها، وملأت عينيها من وجهه، لتستيقن مما تسمع، فوجدته يشبهه فعلًا. ابتسمت وهي مستريحة لمرأى وليدها. وبينما تمده لتضعه إلى جانبها مستلقيًا على ظهره، لمحت أطراف خطوط حمراء تطل نحو عنقه. ظنت أنها نتاج احتكاك أصابع القابلة بجسده الغض وهي تسحبه، أو أن اللفة التي طوقت جسده قد حكته خفيفًا. مدت أصابعها، وأزاحت اللفة قليلًا، فإذا هي خمس أصابع. أزاحت أكثر فرأت الكف مبسوطة على صدره.

ملأها فزع وعجب، وسألت القابلة: هل رأيتِ ما بجسده؟

مدت بصرها على الفراش، وقالت بصوت خفيض: يبدو أنكِ كنت تتوحمين على كف أبيه.

أطلقت ابتسامة فاترة، وسألت القابلة: هل رأيتِ مثل هذا من قبل؟

أجابتها على الفور: رأيت أشياء على أجساد مواليد كثر، لكن ليس مثل ما هو مطبوع على جسد ابنك.

وجاء «ناجي» متهللًا، فأشارت «نوارة» إلى القابلة والخادمة لتغادرا الغرفة. فلما اختلت به، فكت اللفافة من فوق صدر وليدها، وأشارت بإصبعها إلى الكف الحمراء، وقالت: لا أعرف ما هذا.

مد رأسه حتى اقتربت عيناه من الكف، وامتلأ وجهه عجبًا، وقال: يا إلهي! كيف هذا؟

- خَلْقُ الله، ونحمده أن الوحم لم يكن في وجهه.

- العِرق دساس.

- هل هي علامة في عائلتكم؟

تنهد، وغاص ذهنه في أوحال زمن طويل، وسألها: ألم تسمعي ما ينشده القوَّالون من سيرة «الصوابر»؟

ـ سمعت بعضها، لكنها تتغير من قوَّال إلى آخر، ولا أتذكر أنني سمعت أحدهم تحدث عن كف حمراء تحط على صدر أحد.

صمت برهة، ثم قال: أنا سمعت، وأتذكر جيدًا أنني سألت عمي «عمر» عما إذا كان هذا من خيال القوَّالين، لكنه أبلغني أنه قد سمع عنها من أبيه، وقال له إنه قد سمعها من جده، الذي كان يؤكد أنها حقيقة وليست من ابتداع الذين يغنون على الرباب، وأن كفًّا حمراء كانت على صدر جدنا البعيد «سالم بن غنوم».

– هل كان جدك، صاحب الوشم، رجلًا طيبًا وناجحًا؟

– يُقال إنه كان وحيد أبيه، حين خطفه رجل من «الجوابر» اسمه «يونس»، وتركه وهو رضيع إلى جوار مغارة وبجواره صندوقان أحدهما مملوء بالنقود والآخر بالذهب، فوجده رجل عقيم غريب، فأخذه إلى مكان بعيد، وهناك صارت له أرض وسرايا.

– حكاية غريبة حقًّا.

– عائلة غارقة حتى نواصيها في غرائب لا تنتهي، ومنذورة لوعد لم يأكله الزمن.

عادت تنظر إلى الكف المطبوعة على صدر الوليد، وقالت: مَن يدري، لعلها علامة على شيء أبعد من خيالنا.

وتذكر ما جرى لجده «سالم» فانقبض قلبه، وتطلع إلى الوليد الذي كان مغمض العينين، سابحًا في ملكوت الله، لا يدري شيئًا عما ينتظره في قادم الأيام.

(13)

تحولت السرايا وحديقتها إلى سوق يعرض فيها أهل القرى رغباتهم في تأييد «ناجي». منذ الصباح الباكر وحتى انتصاف الليل لا تنقطع الأقدام عن المجيء والذهاب. كان لا يبخل على أي منهم بطعام أو شراب. خصص ثلاث غرف خلفية تطل على شونة الغلال من بعيد، لتكون مكانًا لإعداد ما يأكله القادمون ويشربونه.

استعانت «نوارة» ببعض نسوة «الصابرية» ليساعدن خادماتها في النهوض بهذه المهمة المضنية. جاءت بعض النسوة متطوعات، فيما تطوع آخرون إلى جانب أجراء لحمل الطعام إلى الموائد، وأكواب الشاي إلى الأصابع التي تلتقطها، وترفعها إلى الأفواه.

كان منافسه الحقيقي واحد من باشاوات البندر، فلاحت في الأفق نُذر معركة انتخابية حامية. عاش الناس في القرى حالة لم يمروا بها من قبل، وتخالطت في نفوسهم مشاعر المحبة والبذل والتعصب والخوف. كان مَن تلقوا قسطًا من التعليم ينظرون إلى هذه الانتخابات باعتبارها خطوة على طريق الألف ميل. هناك منهم الذين نظروا إلى الأمر باستهانة، فالجمعية التشريعية مجرد صحبة من أهل المشورة، وما يشيرون به لا يُلزم مَن ينصت إليهم، أو يقرأ ما رفعوه من اقتراحات.

واقترب مدرس شاب من «ناجي» ذات يوم، وهمس في أذنه: يعز عليَّ أن تنفق كل هذا كي تلتحق بهيئة لا تزيد على كونها زينة للاحتلال والقصر.

لكن «نوفل» شجعه وقال: حجر أساس يمكن البناء عليه.

لاذ «ناجي» بالصمت، إلا أن عينيه امتلأتا بالأسئلة. فطن «نوفل» إلى ما يدور برأسه، فقال له: البلاد في حاجة إلى قيادة تمثل الناس بحق، ولا توجد وسيلة الآن آمنة أفضل من الانتخابات. وحتى يشجعه أكثر، قال له ما لا يقدر على تجاهله: أبوك اقترب من عرابي والنديم، ولعلك تكون مع لطفي السيد وسعد زغلول في مكان واحد، فهما مرشحان مثلك. ثم وضع يده على كتفه، وداس عليها، وواصل: قد

يولد من قلب ما نحن مقدمون عليه أولئك الذين انتظرهم الشعب طويلًا ليقودوه إلى الاستقلال.

اشتعلت نفس «ناجي» حماسة، فاندفع يبذل أقصى جهد كي يبلغ هذه الغاية. واصل الليل بالنهار، موزعًا الابتسامات في كل اتجاه. مد يده ليصافح أيادي صادفها أو سعت إليه أو سعى هو إليها، ولامست كتفاه أكتافًا. دخل بيوت الفلاحين في القرى، وبيوت الموظفين والعمال في المدن. جلس على المقاهي. مد يده ليمسح رؤوس أطفال صغار، وحدث نساء من خلف الأبواب ووراء النوافذ. دخل المساجد والكنائس والمعابد، وأسعفته بلاغته في أن يُحدِّث كل فئة بما تفهمه، ويروق لها.

لم يستثنِ حتى «الجوابر» من اهتمامه. انتظر بعض رجالهم خارج المسجد وصافحهم. بعضهم دعا الله له بالتوفيق في مهمته. هناك مَن عرض عليه أن يشمر عن ساعديه وينخرط بين رجاله، ويفعل ما يفعلون. يوجد مَن أقسم بالله إنه سيمنحه صوته بلا جدال. قلة لم تذهب إلى السرايا مع الذاهبين.

تنادوا في بيت أحدهم، واتفقوا على أن نجاح «ناجي» سينقله من أن يكون كبير القرية ثم الزمام إلى واحد من أعلام مصر كلها. قال أحدهم، وهو ينفخ ضجرًا وفزعًا: حين يجلس مع كبار رجال مصر لن يرانا.

سخر آخر، وقال: هو الآن لا يرانا بالفعل.

تدخل ثالث: يأخذ «الصوابر» إلى مرتبة لم يبلغها أحد من عائلتنا طوال تاريخها الطويل.

وضرب أحدهم رأسه وكأنه يوقظ ما ركد فيه من قدرة على التفكير في شيء، وقال: لا أعرف إن كان علينا أن نفعل شيئًا أو نستسلم لما يأتي.

وقال خامس: وضعنا أملًا في «بهاء» لكنه خذلنا.

ابتسم «بَدُّور»، وقال: لم يمت الأمل فيه بعد.

تطلعوا إليه في لهفة، وكأنهم ينتظرون أي خبر يخفف من إحباطهم الشديد، وسأله أحدهم: ما الذي يجعلك لا تزال ترى فيه أملًا؟

تنهد، وقال: لم ينسَ «بهاء» ثأره.

قهقه أحدهم، وقال: لا أحد منا يعرف أراضيه حتى يعرف ما يفكر فيه.

وطوح أحدهم يده في الهواء استهانة، وقال: من الحماقة أن ننتظر من طيشه شيئًا مفيدًا.

حك آخر يده في ذقنه وقال: الشيء الوحيد ذو القيمة الذي يمكن أن يفعله «بهاء» لعائلتنا هو قتل «ناجي».

امتقعت الوجوه خوفًا، وقال أحدهم: اخفض صوتك يا مجنون.

قال «بَدُّور» في هدوء: القتل البطيء أشد إيلامًا.

(14)

فـي خياله مـد «بهاء» يـده مرات ليقتـل «ناجـي». رأى وجهه على جدران عنبر السجن، وسوره العالي، فكتم أنفاسه، وصوب الرصاص على رأسـه، ورآه يسـقط تحت الجدار غارقًا في دمـه. لم يدعه يموت سـريعًا، إنما تركه ينـزف ويتوجع، ويمد يده إلى «بهاء» متوسـلًا له أن ينقـذه، فينظـر إليه باسـتهانة، وعلى شـفتيه ترف ابتسـامة سـاخرة، ثم يتقـدم نحـوه، ويضع قدمه على عنقـه، ويدوس عليه فيغرق رأسـه في الدم والوحل، ويرى الفقاقيع التي تصنعها غرغرته اليائسة تتوالى على صفحة دمه.

وبعد أن فارق السجن استعاد المشهد على حوائط شقته، وجدران المقهـى الـذي يزوره بين حين وآخر، حتى لا ينسـى «عبـد القوي» أنه ليس صاحبه. كان يسـتغرقه ما يرى لدرجة أنه يجد نفسه يهرول أحيانًا نحو الصورة المتخيلة، ويبصق عليها ويركلها. صار مريضًا بـ «ناجي»، ولا يحتاج إلى مَن يُشخِّص له ما يعاني منه، لكنه يعرف كيف يشفى.

زاد حنقـه علـى «ناجـي» بعـد أن عـرف نيتـه الترشـح لانتخابات الجمعية التشـريعية، واشـتعلت في نفسه النار، لما أخبره العارفون بأن فرص نجاحه كبيرة، لكن نار الأسئلة كانت أشد: أيقتله بنفسه وليكن ما يكون؟ لكن ماذا لو تفادته الرصاصة الغادرة؟ وماذا لو وصلت الشرطة إلى القاتل؟ هل لديه استعداد أن يقضي بقية عمره في السجن؟ وحتى لـو أجَّر مَن يقتلـه فما أدراه ألا يقع المأجور في يد الشـرطة؟ وربما لو عـرف أن المكـرى عليه بهـذه المكانة لطلب أكثـر، أو يقبض ما يعطيه

لـه «بهاء» ثم يذهب ويبلغ «ناجي» ويأخذ منـه أيضًا؟ ولو قتله ألن يرد «الصوابر» بقتل ابنه إن لم يتمكنوا منه هو؟

زفر متألمًا من شوك الأسئلة، وسأل نفسه: هل يضمن مجرم تفادي العقاب؟

وكان عليه أن يجعل نفسـه بعيدًا عن الشـبهات. يضع بينه وبين مَن ينفـذون حاجزًا، بل اثنيـن، أو حتى ثلاثة، لكن كيـف يمكن لآخر مَن يُكلف بالأمر أن يعي جيدًا ما يقصده مَن أصدره أولًا؟

وجعله خوفه من السجن يختار طريقة أخرى، فسأل «عبد القوي»: هل تعرف القتل البطيء؟

- يقتل ببطء السم والقهر.

- لا أدري كيف أسمم جسده لكن أعرف الآن كيف أقهر روحه.

- ليس من السـهل قهر مثلـه، هذا ما أدركته مـن حكاياتك الكثيرة عنه.

- في هذه السـرايا ظل الوجيه «زياد» سـنوات طويلة غير قادر على ترك مخدعه. أصبح قليل حيلة، يتمنى الموت كل ليلة. هذا هو الموت البطيء.

كان «بهـاء»، وهو يرتب أوراق الشـحناء الطويلـة، قد تذكر حكاية سـمعها مرة واحدة. وقف عندها يستغرق في تفاصيلها القليلة، يمدها حتى تطوق رأسـه من كل جانب، وتتدلى أمامه فتملأ عينيه. يسـتدعي

وجـه العجوز التي حكتها له وهو طفل، يـكاد يرى الكلام الخارج من بين شـفتيها، حين قالت له: لم ينكسـر أحد في «الصوابر» قدر جدهم الذي خطف طفله أحد أجدادنا.

وسـألها صبـي يومهـا: كيـف خطفـه والسـرايات لا تخلـو مـن أهلها؟

ردت في ثقة، وكأنها قد سمعت بأذنيها، ورأت بعينيها، وحكت كل ما جرى لم يغادرها منه شـيء: انتهز فرصة انشـغالهم بموت جدتهم، وانقض مع رجاله على السـرايا، وليس فيها سـوى خدم قليلين تمكن منذ اللحظة الأولى أن يخرسهم.

لكـن المرأة أخفت عنهم أن الخاطف مات مخصيًّا. وأطلع «بهاء» شـريكه «عبد القوي» علـى ما يفكر فيه، فقال: لـن تحين فرصة أفضل من يوم جريان الانتخابات. لكن «بهاء» رفض هذا، وقال: سيأتيه أهله من كل مكان، وربما بقي بعضهم داخل السرايا أو حديقتها.

لم يجد «عبد القوي» ما يقوله فلاذ بالصمت، وغاص في هواجسه، مسـتعيدًا في هذه اللحظة أيام السـجن الكئيبة، ولم يسمع جيدًا «بهاء» وهو يقول: نسرق المال والذهب، ونخطف الطفل.

انتبه «عبد القوي»، لكنه لم يميز كل ما أُطلق نحو أذنيه. رفع رأسه، فتساقطت من عينيه صور السجن، وتساءل: ماذا؟

أعاد عليه «بهاء» ما قاله، فاغتصب ابتسامة من قلب مخاوفه، وقال: تريد ضرب عصفورين بحجر؟

- خمسة عصافير، اليوم الطفل والمال، وحين يقترب موسم الحصاد سنحرق الزرع وكل ما في الشونة من غلال، وأخيرًا سيأتي الدور على العصارات والطاحونة.

- يغيب العقل مع امتلاء النفس بالانتقام.

- لم يكن بين العائلتين سوى هذا منذ قرون، لعبة القط والفأر وصلت إلى جيلنا، ولا بد لنا من نزول الميدان.

لعن «عبد القوي» الكل في سره، لكنه نطق: أنصح بعدم التسرع في أي خطوة.

وأعاد «بهاء» على سمعه ما أوصى به: ليكن بيننا وبين الفاعل حجاب غليظ، فأنا مثلك، لا أريد العودة إلى السجن، إنما إلى القرية لأكون كبيرها في يوم من الأيام.

- يمكنك أن تكون الكبير عبر طريق آخر.

- أعرف ما يدور في رأسك، لكن صارت بيني وبين «الصوابر» مسافة طويلة جدًّا، ليس لي مالهم ولا جاههم ولا عزوتهم. لا بد أن أقفز، بل أطير، لكن كيف؟ الأسهل أن أشدهم هم إلى الوراء.

كتم «عبد القوي» ضجره، وقال: أخشى أن نقفز نحن إلى الخلف.

امتقع وجه «بهاء»، وصرخ فيه غاضبًا: يبدو أنك صرت رجلًا مرتعشًا.

- مَن لا يخاف لا يُخوِّف، وفرق كبير بين الجسارة والطيش.

لـم يشـأ «بهاء» أن يغضبـه، وهو يعـرف ارتباطه بـه، وإخلاصه له، فقـال: صدقـت، ولهذا أعتمد عليـك، وإن نجحنا سـأنقل إليك ملكية المقهى، ولن أطلب منك مرة أخرى الاقتراب من أي خطر.

سرت في أوصال «عبد القوي» فرحة لما سمع، ووجدها هو الآخر فرصة لا يجب أن يُضيِّعها، وعليه أن يحذر كي لا تُضيِّعه.

(15)

كان «ناجي» يجوب القرى منذ أول الصبح وحتى آخر الليل. يعود إلى السـرايا مجهدًا، فيرمي جسـده فـي مخدعه، ولا تمـر دقائق حتى يكـون قد سـقط في سـبات عميـق. لم يكـن الذين يصاحبونه أحسـن حالًا منه. الكل يعود متعبًا، حتى الذين يمكثون في السـرايا من الخدم والحراس والجناينى الذي أتى به «ناجي» ليشذب حديقتها يأتي عليهم الليـل ليجدهم غاية في الإجهاد بعد نهار يقضونه في حركة دائبة لتلبية مطالب الواردين على السرايا.

الكل متعب، ولا تفكير يسري في رأس أحد منهم سوى أداء ما هو مطلوب منه في سـبيل الحلم الكبير. وهل يوجد حلم أكبر من أن يمتد عنق كبير «الصوابر» ليرى القطر المصري كله، من أدناه إلى أقصاه؟!

كان خبـر مـا يجـري في السـرايا قد وصل كلـه إلى «بهـاء»، ورأى أن اللحظة المناسـبة للانقضاض على كبيـر «الصوابر» وقت أن يكون خارج القرية، فهو يضطر إلى المبيت في أي من فنادق البندر البسـيطة

حيـن يتقدم به الليل وهو وسـط مؤيديه، ينصت بـلا ضجر، ويتحدث دون أن يلحن في القول.

اسـتفاض فـي الأخذ والرد مـع «عبد القـوي» حول أسـلم الطرق لتنفيـذ خطتـه، وانتهيـا إلى أن الأمر كلـه يجب أن يوكل إلـى الفلاتية، فهـم اعتـادوا أن يؤجرهم الناس في الشـرور، وهم يكـرون ثم يفرون إلى حيث لا يصل إليهم أحد، لا سـيما في هذه الأيام التي تنشـغل فيها الشـرطة بالانتخابات، وهم يمسكون عن ذكر اسم مَن دفع لهم، لتبقى الجسـور معه موصولة، فيؤجرهم لمهمة جديـدة، والاتفاق يكون مع كبيرهـم، وقد لا يعـرف أتباعه لمَن يعملون بالضبـط، والأهم من هذا أنهم محترفون في القتل والحرق والسرقة، وقليلًا ما يخفقون.

وكان «عجـب سـيده» يعمل مـع الفلاتيـة أحيانًا، حيـن يحتاجونه في فتح الخزائن المسـتعصية عليهم، فجعل منه «عبد القوي» رسـولًا إليهم، وسأله: هل بينك وبينهم ثقة؟

- لم أكذب عليهم يومًا، ولم أخذلهم.

- المهم أن يكون كبيرهم يحترم كلمتك.

- هو يحترم مَن يدفع له.

ثم انتبه «عجب سـيده»، وتوجه إلى «عبد القوي» سـائلًا: هل أنت مَن ستدفع؟

- أنا مجرد وسيط.

- لمَن هذه العملية؟

- موضوع له علاقة بالانتخابات، وأنت تعرف أن المرشحين فيها كبار، يريد كل منهم أن ينتقم من الآخر.

ولاذ «عجب سيده» بالصمت، فواصل «عبد القوي»: إنها لحساب أحد الباشاوات، وهو سيدفع بسخاء.

- يريد أن يقتل منافسه.. أليس كذلك؟

- لا، ليس في الأمر أي دم.

وكان هو نفسه قد سأل «بهاء» عما إذا كان بوسعه أن يختصر كل هذا الانتقام في قتل «ناجي» فسخر منه يومها، وقال: إن مات فممن أشمت، وأشفي غليلي. أريد أن يموت بطيئًا، حين يفقد كل شيء تباعًا، ابنه وكل ما يملك، حتى السرايا، أنتظر اليوم الذي يخرج فيه منها.

صعد «عجب سيده» إلى الجبل، ليعرض على الفلاتية ما أخبره به «عبد القوي»، باعتباره وسيطًا من الباشا، ثم عاد بعد أيام ليقول: الرجال موافقون، لكنهم يشترطون الحصول على نصف أجرهم قبل البدء.

وافق «بهاء» شرط أن يلتزم الفلاتية بخطته، حتى يضمن نجاحها، وكان «عبد القوي» قد حفظها عن ظهر قلب، فحملها إلى «عجب سيده»، وطلب منه أن يأتي بكبير الفلاتية إلى البندر ليأخذ ما طلبه،

لكنه ضحك وقال: هو هناك في مغارته، لا ينزل إلا لقتل أو حرق، ومَن يريد الاتفاق معه يذهب إليه.

وحين عرف «بهاء» نظر إلى «عبد القوي»، وقال له: ليس أمامي مَن أضع فيه ثقتي غيرك.

نظر إليه في غيظ، وقال: نسيت حديثك عن الحجاب بيننا وبين الجريمة.

- هذا لو كنا سنؤجر عصابة من البندر وليس الفلاتية.

- إذا كان الأمر كذلك، فاصعد أنت إليه، فليس هناك مَن يشرح الخطة التي وضعتها أفضل منك.

- لا تنسَ أن الفلاتية يعرفون وجهاء القرى وعمدها، وربما يكون قد رآني ذات يوم، أو من بين رجاله مَن يعرفني.

أنجز «عبد القوي» المهمة، وعاد إلى «بهاء» قائلًا: سيتم كل شيء في موعده، لكنه حين عرف المقصود بالانتقام زاد من الأجر.

بلع «بهاء» ريقه، وسأل في لهفة: كم يريد؟

- أراد مضاعفته، لكني فاوضته حتى صارت الزيادة بقدر النصف.

تقبل «بهاء» الأمر على مضض، ثم رفع إلى «عبد القوي» مقلتين تسبحان في بحر من الامتنان الكاذب، وقال: سأنتظر الأخبار المُفرحة.

(16)

الأيـام دوَّارة، علـى محيطهـا الواسـع يكـون الماضي البعيـد جدًّا أقـرب إلينـا مما وقـع بالأمس. ما جرى أيـام أجداد الجـدود بعيدًا هو نقطـة قريبة، تكاد تلامس، عند خط المنتصف، أختها التي وقعت أمام عيون آخر جيل.

الأيام دوامة، تدور في سـرعة شـديدة، تدهس السـاعات والدقائق والثواني، تلقي جديدها في القيعان البعيدة، وتدفع قديمها إلى السطح. يأتي ما مضى بعيدًا معه كل المخبوء، لآلئ كانت أو طينًا وعفنًا.

بعـض الحكايـات القديمة التي يظـن الناس أن النسـيان قد لفها، أو أن تذكرهـا ليـس إلا فرصـة لتحصيـل تسـلية أو عبـرة، يمكنها أن تقفـز بلحمهـا وشـحمها، لتجري أمام أعيـن الحاضريـن، كأنهم هم الغابـرون، أو أن الغابريـن قد عـادوا على هيئة أخـرى، لا تتبدل فيها سوى الأشياء.

(17)

لاحـت في عيون «ناجي» أمارات النصر. انشـغل الناس في القرى والبنـادر أكثـر بالانتخابـات علـى يديـه، وبان صـدق تأييدهـم له في عيونهـم، ولأنـه كان عارفًا بالفراسـة ازداد طمأنينة إلى أن حلمه في أن يعلو بـ «الصوابر» حتى يلامسوا النجوم قد اقترب من التحقق.

كان «نوفـل» قد نصحه بـأن يكتب إلى بعض الجرائد في «القاهرة» مقالات حول إصلاح أحوال البلاد والعباد، وقال له: لا تكتب بوصفك

مرشحًا للجمعية التشريعية، إنما لكونك معلمًا وفقيهًا وقاضيًا شرعيًّا سابقًا.

عصر ذهنه، واسترجع كل معارفه، وملأ سطور أوراقه بعبارات بليغة، تحمل أفكارًا جيدة فهذا وحده رسوله إلى علاقة دائمة مع تلك الجرائد، والأهم أنها النافذة التي يطل منها على عِليَة القوم، ممن سيزاملونه في الجمعية. فوجئ بعد النشر أن هناك مَن انبرى لمناقشته فيما طرحه، وتوالت المقالات التي ترد على «ناجي الصابر» وتمدح أفكاره، حتى لو اختلفت مع بعض جوانبها. وقرأ «محبوب» كل ما كتب، ثم نظر إلى «ناجي» وقال: هذا هو جناحك الثاني الذي يحط عليه الصوابر، وتطير بهم إلى أعلى. قهقه يومها، وقال: أخشى أن نسقط جميعًا في وادٍ سحيق.

وكأنه في هذه اللحظة كان يقرأ الغيب، أو يُفصح عن هاجس تضطرب به نفسه في الآونة الأخيرة، أو شعور تملك منه جعله يتخوف من الآتي. وقالت له «نوارة» وهي تحضنه بعينيها الوسيعتين: لا يجب أن يُنسيك مقعد الجمعية التشريعية شغلك هنا، وفي الوكالة، فهذا وحده هو الباقي لك، لا يستطيع أحد أن يأخذه منك، طالما كنت حيًّا.

لكن كل شيء لم يبقَ على حاله. ففي الأمتار الأخيرة من سباق الانتخابات، وبينما كان يستعد لحصاد ما زرعه واعتنى به، وقعت الواقعة، فماتت الفرحة، وانقلبت حياته رأسًا على عقب، وسكنت الحيرة والأسى نفسه، وأدرك أن أيامه المقبلة لن تكون سوى عناء في عناء.

كان هناك شيء بغيض يحدث في الوقت الذي كانت الأصوات تُفرز فيه، لتؤكد ما توقعه أهل الدائرة، فيغتبط «الصوابر»، ويمدون أيديهم مصافحين كبيرهم، ويهنئون أنفسهم لأنهم أخيرًا، وبعد كل هذه القرون، سيفتح أحدهم نافذة على القطر المصري كله.

كان الرجال منهكون في هذه الليلة التي تجاور فيها الفرح مع الحزن، والانبساط مع الانقباض، وكان أولها لا ينبئ أبدًا بما جاء في آخرها. تحول الضحك إلى صراخ، والابتسام إلى دموع، وفارت الدماء في العروق، وتطلع «الصوابر» للانتقام، لكن ممن ينتقمون؟

طرحوا السؤال من ألسنة جفَّت من الأسى، لكن الآذان لم تحتوه. سرى في الشوارع التي امتلأت فجأة بالوحشة والخراب، وخرج إلى الزروع، ومنها إلى صفحة النيل، الذي كان يجري، كعادته، غير عابئ بالقلوب المفطورة، والنفوس الحائرة.

سأل أحدهم «ناجي» عمن يشك في ارتكابه هذه السلسلة من الجرائم في وقت واحد، فتطلع إليهم صامتًا. كان خرسه أثقل من أن يُزيحه كل شيء ينفجر داخله.

وكان قد أتاه خبر فوزه بعضوية الجمعية التشريعية بعد ساعات قليلة مما جرى له. لم يضنه حرق الزرع والمصانع قدر خطف ابنه «رضوان». لم يحزن لفقده فقط، بل لانتهاك حُرمة بيته على هذا النحو المهين. دخل اللصوص من نافذة خلفية بينما كانت الحديقة خالية من «الصوابر» الذين تجمعوا أمام مكان فرز الأصوات، مستعرضين قوتهم في وجه رجال الباشا.

الكل ذهب إلى هناك، حتى حارس السرايا، وأغلب أهل القرية، بمَن فيهم بعض «الجوابر». بينهم الذين آمنوا بضرورة طي صفحة الماضي، وهناك مَن تحسبوا للقوة التي سيحوزها «ناجي» بعد فوزه. أفراد منهم كانوا متفرجين، بينما تنبض قلوبهم بأمنية واحدة وهي خسارة غريمهم الانتخابات.

وزع الذاهبون أنفسهم على ثلاثة قطارات تتابعت مواعيدها، وهبطوا إلى البندر لحماية أصواتهم، ثم الاحتفال بفوز ابن قريتهم. وحين مال الفرز لصالحه ضجوا بالفرح. تعانقوا، وصافحت العيون العيون، وصرخت الأفواه من فرط السعادة الغامرة.

بينما كان هذا يجري، استباح الفلاتية السرايا، وكانوا يعرفون ما عليهم فعله، بسرعة ودقة ومهارة مَن عركته التجربة فتعلم ألا يترك خلفه أثرًا يدل على هويته. تركوا للمكلوم «ناجي» حيرة تنهش روحه. في غابر السنين عرف جده مَن خطف ابنه، وصعد خلفه الجبل، لكنه عاد دونه، ومات حزينًا عليه. اليوم هو حتى لا يعرف من أين يبدأ؟

أبلغ «محبوب» قسم الشرطة بما جرى، وجاء ضابطان وخلفهما كثير من العساكر، عاينوا الزرع المحروق، والمصانع التي خربت، وفحصوا السرايا التي لم يعد الوليد يطلق فيها ابتساماته العذبة، ثم قالوا: لا يقف وراء كل هذا سوى الانتقام.

وتطلعوا إليه لينبئهم بشكوكه، فوجدوا ذهنه سائحًا في ظنون عدة. أنصتوا إليه، ووعدوه بأن يبذلوا قصارى جهدهم في التوصل

إلـى الجُناة، وتركوه يبكي ضياع ابنه، وإن كانت دموعه لا تذرف، إنما تسري في شرايينه.

لم يجد أحد يفكر معه في حل هذا اللغز أفضل من «نوفل»، الذي حرص طوال أيام الانتخابات على الابتعاد عن السرايا، حتى لا يشك فيه غريب.

ما إن رآه، حتى قال له: هذه أول مصائب السياسة.

وكان هو مَن دفعه إلى هذا الدرب، فهمَّ أن يدافع عن نفسه، أو على الأقل يواسيه، لكن «ناجي» واصل: أنت طريد بسبب السياسة، وأنا ضاع مني ولدي، وكثير من مالي.

مصمص «نوفل» شفتيه، وسأله: مَن أدراك أن كل هذا كان بسبب السياسة؟

– وهل هناك غيرها؟

– طبعًا غيرها. أنت لك منافس واحد، والانتقام من ابنك أو مالك لن يفيده، ولو كان يضمر بك شرًّا، لتخلص منك أنت شخصيًّا قبل يوم الانتخاب، لا سيما بعد أن أدرك أن الكفة تميل إليك، فهذا فقط ما يفيده، شرط أن يحكم تدبير الجريمة، فلا تساور الشكوك أحد فيه، أو لا يثبت أحد دليلًا على إدانته.

– مَن يا ترى فعل بي هذا؟

– طالما حكى لي زبائني، وهم يقلبون الطواقي ويقيسونها على رؤوسهم، عن الأحقاد القديمة التي تسكن بيوت هذه القرية وشوارعها، وحتى غيطانها.

- هل تقصد..؟

- لم يخرج الأمر عن غرمائكم.

قالها في ثقة، ثم شعر بأنه فتح بابًا لفتنة جديدة، فواصل: هذه مجرد ظنون، وفي كل الأحوال، أنت رجل قانون قبل أن تكون رجل سياسة وصاحب أملاك، والكل يُعوِّل على حكمتك.

أرسل «ناجي» ناظريه إلى بعيد، وتنهد في حرقة وقال: أكثر ما يشغلني الآن هو استعادة ابني المخطوف.

(18)

لم يستطع «بَدُّور» كتمان ما يعرفه. لم يبلغه «بهاء» صراحة بما ينوي فعله، لكن ما إن رأى الدخان يصعد إلى جوف السماء من الزرع والمصانع، وتوقفت الطاحونة عن النباح، ثم عرف نبأ خطف «رضوان»، حتى همس في أذن امرأته: لم يخلُ «الجوابر» بعد من قادر على أن يثأر لهم.

وتطلعت إليه مستفهمة، فحكى لها ما أدركه. ولأنها كانت تعرف اتصاله بـ «بهاء» صدقت ما خمَّنه، بل شاركته ما يفكر فيه، وقالت: الأمر واضح كالشمس.

وهمست في أذن جارتها عند الظهر حين جلستا عند عتبة الدار كعادتهما، وطلبت منها أن تكتم حتى عن زوجها، لكنها لم تستطع إغلاق فمها عما سمعته، فهمست به إلى زوجها، الذي نقله إلى صاحبه، ولم تمر سوى أيام حتى كان كثير من «الجوابر» قد أحيطوا علمًا بمَن يقف وراء ما جرى.

فزع منهم الذين قطعوا على أنفسهم عهدًا بفتح صفحة جديدة مع «ناجي»، وكذلك الذين أرادوا هدنة طويلة بعد أن أدركوا أن المنازلة التي طالت انتهت إلى غير صالحهم هذه الجولة. استعادوا الحكايات القديمة المسكونة بالشر المستطير، وتذكروا ما حكته لهم، وهم صغار، العجوز التي استمالها «عمر»، وأدركوا أن عليهم المبادرة بإبراء الذمة، قبل أن يصل خبر ما جرى إلى «ناجي» فيقصدهم جميعًا بالانتقام.

سأل أحدهم بعد أن تداولوا الأمر: لماذا نفتح بابًا قد لا يبلغه «ناجي» أبدًا؟

رد آخر: لا تسقط في أوهام تصور لك أنه غافل عنا، نحن أول مَن داروا في ذهنه حين فكر في مرتكب هذه الجريمة.

رد ثالث: نحن أمام عينيه، وعيني «العمدة» يعدون علينا أنفاسنا، ويعرفون أننا صرنا أضعف من أجنحة البعوض.

وصدم ما قاله البقية، لكنهم كانوا يدركون بالفعل أن قدرتهم على المنازعة قد تراجعت، وليس أمامهم من سبيل سوى تحمل ما على المنهزمين من أعباء، أقلها التسليم والاستكانة والصبر. وزادت في نفوسهم الريبة فكاد كل منهم يصرخ: خذوني. وزاد الضغط على النفوس المهيضة، فاتفق اثنان منهم على الذهاب إلى السرايا، ليخبرا صاحبها بما علماه، فيضمنان النجاة من انتقامه. وكان معهما رجل ثالث، لكنه فضل ألا يذهب مثلهما، وأن يظل متجنبًا الوقوف في وجه العواصف.

وسمع «ناجي» الرجلين فامتقع لونه، وسأل في لهفة: أين يعيش «بهاء»؟

لكن أيًّا منهما لم يكن يعرف؛ لأن «بَدُّور» لم يخبرهم سوى عن المنتقم الخفي، الذي خرج من السجن، ليثأر لنفسه، ويُفهم أهله من «الجوابر» أنه يعيد إليهم كرامتهم المستباحة. أراد الرجلان الاكتفاء بإبلاغ «ناجي» بما عرفاه، وأن يمسكا عن الخوض في المزيد، لكنه مارس عليهما مهارته كقاضٍ سابق، وحاصرهما بأسئلة مفاجئة ومكررة بعبارات جديدة، حتى ضيَّق عليهما الخناق، فلم يجدا بُدًّا من الإتيان على ذكر اسم «بَدُّور» جاسوس «بهاء».

وكان الثالث قد طلب من الرجلين اللذين قررا الذهاب إلى إبلاغ «ناجي» ألا يدلاه على «بَدُّور» حتى لا تتسع في رأسه دائرة الشك لتشملهم جميعًا، ويكتفيا بأن يبلغاه بأنهما قد سمعا من «أم بهاء» رغبة ابنها في الانتقام وقت أن كانت تزوره في سجنه، لكنهما استبعدا أن تكون لديه قدرة على فعل شيء.

وما إن عرف بذهابهما إلى «ناجي» حتى سارع هو إلى «بَدُّور»، وطلب منه أن يغادر القرية على الفور، وقال له: لا تذهب إلى محطة القطار، ولا تركب الماء، إنما عليك أن تشق طريقك بين زروع القصب لتأخذك إلى محطة أو مرسى قرية مجاورة.

وفعل «بَدُّور» ما نُصح به. وصل إلى بندر «أسيوط» وتوجه على الفور إلى المقهى، وهمس في أذن «عبد القوي» ليُعرِّفه بنفسه، ثم قال: أريد مقابلة «بهاء» بيه على الفور.

ارتجف قلب «عبد القوي»، وسأله في خوف: هل جرى شيء؟

اقترب أكثر من أذنه، وقال: عرف «ناجي» مَن فعل به كل هذا؟

ترك «عبد القوي» المقهى لصبيانه، وسارع نحو بيت «بهاء» فوجده جالسًا في الصالة يطرد آثار الخمر التي أثقلت رأسه في الليلة الفائتة، بينما كانت الخادمة تدس الطعام في فم ابنه. ما إن فتح الباب ورأى «بَدُّور» حتى اجتاحه خوف أطار ما تبقى من سُكْر، وبادره في فزع: منظرك لا يبشر بخير.

طأطأ رأسه، وقال: انكشف أمرنا.

أمسك كتفه في عنف، وسأله: هل تابعك أحد وأنت قادم إليَّ؟

أطلق من فمه صوتًا ينفي فيه هذا، فقال له: اجلس، واحكِ لي كل شيء بالتفصيل.

ورمى إلى أذني «بهاء» كل ما جرى، وهو ينصت إليه، وينظر إلى «عبد القوي» بين حين وآخر. فلما انتهى «بَدُّور»، قال «عبد القوي»: لا يجب أن نبقى حتى يُقبض علينا.

لكن «بهاء» قلل من مخاوفه، وقال: أخبرنا «بَدُّور» بأنه لم يبلغ أحدًا بمكاننا، وسيبقى معنا هنا.

كاد «عبد القوي» يلعن غباء «بهاء»، لكنه كتم ما يريد قوله، واكتفى: يبدو أنك نسيت أن «ناجي» صار اليوم من كبار القطر المصري كله، ولن يعجز عن الوصول إلينا في أي بلد كان.

هجم الفزع فطار ما تبقى من خمول في رأس «بهاء»، وسأل «عبد القوي» في لهفة: ما العمل؟

- ليس أمامنا سوى خيارين: السجن أو الجبل.

- لا يمكن العودة إلى السجن، كما أن الجبل سجن آخر.

- سجن مفتوح على السماء والرمل، أفضل من العنابر والزنازين الخانقة المظلمة.

وسكن الهلع نفس «بَدُّور» فراحت أسنانه تصطك، وسأل: هل تتركوني أنا للسجن أو القتل؟

ضربه «بهاء» في صدره، وقال: بعد كل ما عرفته لا يمكن إلا أن تكون معنا، حتى لو لم ترغب في هذا.

انقبض صدره، وسأل: وزوجتي وأولادي، ما مصيرهم؟

لكزه «عبد القوي» في كتفه، وقال: كثير ممن سكنوا الجبل لهم زوجات وأولاد، لكن المضطر يركب الصعب.

وقال «بهاء»: الشيء الوحيد الذي يُصبِّرني الآن أن معي ما أساوم به «ناجي»، إنه ولده الذي سيأتي لأجله إليَّ ذات يوم زاحفًا.

وكان قد أعطى الطفل لامرأة فقيرة ترضعه مع ابنها الذي يكبره بشهر واحد لقاء مبلغ من المال، فأخذته متهللة، بل رأت فيه رزقًا جديدًا. أبلغها أنه ابنه، وأن أمه ماتت وهي تلده، فزاد إقبالها عليه كي تنال أجر تربية اليتيم، وقالت له: اطمئن، له نصف حناني، ونصف لبني.

ابتسم يومها، وقال لها: اعتبريه أمانة لديكِ إلى أن أسترده.

ابتسمت، وهي ترى يده تزحف إلى جيبه، وقالت: في عيوني يا بيه.

استملح أن تناديه باللقب الذي تمناه، وتطلع إلى نيل ما هو فوقه، لكن ها هو يستعد لرحلة خسران جديد، ويدرك أنه قفز إلى الفراغ. الشيء الوحيد الذي يخفف عنه وطأة ما انتهى إليه هو أنه استطاع أن يكيد غريمه، بل يفجعه ويكسره في يوم فرحته.

سار ثلاثتهم في اتجاه بيت «عجب سيده»، ليأخذهم إلى الجبل، لكنه قال لهم: لا بد من استئذان.

وضعه «عبد القوي» في حالهم العصيبة، وقال له: الوقت ليس في صالحنا.

اقترح عليهم أن يصعدوا معه حتى أحد النجوع، التي يتعاون بعض رجالها من العربان مع الفلاتية، وينتظروا هناك حتى يخبر كبيرهم. ولمَّا بانت في وجوههم خيبة وخوف، نظر إلى «بهاء» وقال: لن يتخلى المعلم عنك، لا سيما بعد أن وفيت بوعدك له، وسددت كل ما طلبه من مال.

وهمس «بهاء» في أذن «عبد القوي»: إن قبلنا المعلم صرت في عصبة تحقق لي ما أريد بعد أن تهاوى عزم «الجوابر».

رماه «عبد القوي» بنظرة مملوءة بالعجب، وقال: لن يعمل الفلاتية لصالحك إلا إذا أعطيتهم مالك، يكفي أن تكون لنا بينهم الحماية.

وكان «بهاء» قد خبَّأ أغلب ماله في فتحة بقدر ذراعين مفرودين في أحد جدران بيته، لا يعثر عليها إلا مَن يعرفها. جدار بناه بين غرفتين داخليتين بعد أن آل إليه البيت، وطلب ممن بناه أن يترك سردابًا ضيقًا يخفي فيه بندقيته، ثم خبَّأ فيه النقود والذهب، وأغلقه بقطعة من الخشب أخذت لون الطلاء، ووضع فوقها لوحة تحوي خيولًا جامحة، وسائسًا يحاول عبثًا أن يروضها.

حمل معه إلى الجبل قليلًا من المال يستميل به قلب كبير الفلاتية، لا سيما إن طال بقاؤه معهم. وصدق ما توقعه «عجب سيده» فالمعلم رحب باستضافة الرجال الثلاثة، وقال لرجاله: لا يخلو جيب «بهاء» من مال.

وما إن وصلوا حتى طلب الاختلاء بـ «بهاء»، وقال له: تأكدت من «عجب سيده» أن أحدًا لم يدرِ بمجيئكم.

هز رأسه ليؤكد هذا، وقال له: لا تخشَ شيئًا يا معلم، الطريق أمان.

قهقه حتى ارتجف قلب «بهاء»، وقال: أنا فقط لم أعتد أن أثقل رؤوس رجالي بأمور جانبية.

سحب نفسًا طويلًا من لفافة تبغ دس في قلبها خيطًا من الحشيش، وقال: لتبقَ بيننا هنا باسم غير اسمك.

رفع «بهاء» وجهه إليه منزعجًا، وسأل: ما الداعي يا معلم؟

- خصمك ليس رجلًا عاديًّا، ستساعده الحكومة، وهذه لها عيون قريبة منا، وقد تكون هنا بين رجالي ولا أعلم.

واختار له اسم «برهامي»، وقال له: اسم صديق الصبا الذي مات بعيدًا عني، ولم يرَ وجهه أحد من رجالي.

ثم التفت إليه، وسأله: هل تضمن «عبد القوي» هذا؟

- أضمنه برقبتي.

صمت المعلم برهة، ثم قال: أما «عجب سيده» فأنا أضمن لسانه.

(19)

أرسل «ناجي» يستدعي كبار «الجوابر» إلى السرايا. ما إن وصلوا حتى صرخ فيهم: قدمنا السبت والأحد وحتى الخميس، وانتظرناكم سنين أن تردوا يوم الجمعة، لكنكم لا تريدون إزالة السواد من قلوبكم، وتصرون على بقاء الأحقاد القديمة.

تطلعوا إليه صامتين، لا يدرون بماذا يردون، فواصل: يبدو أن بينكم مَن يغذون الضغائن في النفوس، وصار بقاؤهم هنا عبئًا على الجميع.

نطق أحدهم بصوت خفيض: بيننا محبون لك يا بيه، ومقرون بفضلك.

صمت برهة، وسألهم: وماذا عن الكارهين؟

رد واحد منهم: لا يكرهك إلا جاهل أو قليل أصل.

وقال آخر: أضنانا ما جرى لابنك، رده الله إليك سالمًا.

تفحص وجوههم جيدًا، ثم قال: لو كنت طائشًا مثل الخاطف لأطلقت الرصاص عليكم جميعًا.

رد أحدهم: الكل يعرف حكمتك، و..

لم يدعه يُكمل، وقال في غضب: الحكمة لا تعني التساهل، وأنا فكرت واخترت ما يريح الجميع.

تبادلوا النظرات، منتظرين إياه أن يكشف لهم عن نواياه، فقال دون مواربة: أعرف مَن فيكم يُحبنا، أو على الأقل لا يكرهنا، ومَن يضمر لنا الشر.

اهتزت قلوبهم خوفًا، ولاذوا بالصمت، فواصل هو: كل مَن فكر ولو لحظة في أن يقصدنا بسوء لا عيش له بيننا. ثم وقف فوقفوا. مد يده إلى جيبه، وأخرج ورقة مدونة فيها بعض الأسماء، مدها إلى الأكبر منهم، وقال: لا أريد لكل مَن ورد اسمه هنا أن يبقى في «الصابرية».

ارتبكت أنفسهم حتى اهتزت لها أجسادهم، وتبادلوا النظرات من جديد. فطن «ناجي» إلى ما يدور في رؤوسهم، فليس لأحد حق مهما بلغ جاهه أو ماله في أن يطرد أحدًا من بلده، لكن كثيرًا من الأمور تجري في البلاد كلها خارج القانون. ورغم أن «ناجي» رجل قانون سابق، وجد نفسه أسير مشاعره في هذه الأيام، وكيف له أن يفكر على مهل، كعادته، في هذا الكرب الشديد، الذي لم يدر بخلده يومًا أنه سيهجم عليه، ولا يدع له أي فرصة سوى أن يضرب بيديه وقدميه ورأسه دافعًا إياه عنه، بأي طريقة كانت.

عـاد ينظـر فـي عيونهـم، وقـال فـي صرامـة: ليـس لدي شـك في أن المجـرم «بهـاء» لو لـم يجد مسـاعدة مـن بينكم ما تمكـن من تنفيذ جريمته.

وهـمَّ أحدهم أن يفتح فمه، لكن «ناجي» حسم الأمر: كل ما لهؤلاء عندي أن أستمهلهم حتى بيع بيوتهم وأرضهم، ولهم أن يشتروا غيرها في أي من القرى الأخرى.

وكان قد فكر في أن يربح أول جولة في الهجوم المضاد على «بهاء»؛ لأنـه يعرف أنـه ما أقدم علـى فعلته الشـنعاء تلك إلا مدفوعًـا بالانتقام لعائلته، أو مسـتجيبًا لأوهام أنه كبيرها وعليـه أن يرد لها ما يراها كرامة ذبيحـة. عاد ورفـع عينيه إلى عيونهـم، وقال: حتى لا يُقـال إنني بدأت مشـواري السياسي بالظلم سأشـتري أنا البيوت والأرض بالسعر الذي تحددونه. وكان يُعوِّل في هذا على أن يجد في رصيد الوكالة التجارية، التي لم تصل إليها الأيدي الآثمة، ما يكفي لبلوغ ما يرمي إليه.

وحضر «ناجي» أول اجتماع للجمعية التشـريعية وهو شـارد. كان كل شيء حوله مفعمًا بالحيوية، وبدا الرجال وكأنهم يدقون أول أوتاد كفاحهـم القـادم ضد الاحتـلال. بنصف ذهـن أدرك صدق مـا قاله له «نوفل»، وقدر كم هو رجل قد عركه النضال.

ظلـت فرحته بما ارتقى إليه مسـروقة، لا سـيما أنه لـم يكن يضمن أن تتمكن الشـرطة من استعادة ابنه المخطوف. نعم، عرف مَن خطفه، وبمَن اسـتعان، لكن أي عصابة هذه التي استأجرها لتلك المهمة؟ أي فجرة حرموا أمًّا وأبًا من رضيعهما؟

كان يعرف أن عصابات الفلاتية تتناثر في الجبال من أدناها إلى أقصاها، لكنه لا يعرف بأي منها اتصل «بهاء». لم تبذل الشرطة جهدًا كبيرًا كي تعرف أن الجريمة من تدبير الهاربين في الجبال، إلا أنها يجب أن تحدد أي عصابة منها؟ وهذا يستغرق وقتًا، والوقت يمر على «ناجي» ثقيلًا.

وقالت له «نوارة» بعد أن شرح لها الموقف: حتى لو حددت الشرطة العصابة الخاطفة، فما الذي يضمن ألا يصاب ابننا بسوء خلال الهجوم، وقد يقتله «بهاء» انتقامًا.

كانت قد انخرطت في بكاء حار كعادتها منذ ضياع «رضوان»، وكان هو يتماسك أمامها، حتى لا يزيد انهيارها، فلما يختلي بنفسه يبكي في صمت، أو يكتم نشيجه الحار، دون أن يغمض عينيه خوفًا من أن تراه واحدة من الخادمات.

حاول جاهدًا أن يخفف عنها بمواساة لا تتوقف، فكانت تظهر له تماسكها، ثم تنهار وحيدة، غارقة في بكاء حرور. حتى «الجرامافون» الذي اشتراه لها ليواسيها ويسليها بالغناء، لم يفلح في أن يجعلها تتلهى عن حزنها لحظة واحدة، أو يجعل الدموع لا تسح في أي يوم على خديها الذابلين.

كانت تجلس فوق السطح نهارًا، ترفع عينيها إلى النهر الذي يجري، لا تقف عنده طويلًا، فلم يعد مرآه يبهجها، لتعبراه إلى الجبل الذي يليه فيلوح لها متجهمًا مخيفًا مفتوحًا على القسوة والضياع. تمد يدها نحو

الصخر والرمل، وتتخيل رضيعها هناك يبتسم لها في عذوبة، ويمد كفيه الغضتين إليها لتنجده.

في الليل تواصل النظر من نافذتها الشرقية، فلا ترى سوى ظلام كذلك الذي يسكن نفسها، ولا تسمع سوى نقيق الضفادع. وكلما تناهى إلى سمعها عواء ذئب يمرح هناك فوق الأحجار القاسية، أو يربض في مغارة، اهتز قلبها هلعًا.

وجدت نفسها تسأل «ناجي» ذات ليلة عن جده الذي خطفه أحد رجال «الجوابر»، فيجد في سؤالها فرصة ليطمئنها بعض الشيء، ويقول: صار من الوجهاء، وعاد ذات يوم إلى «الصابرية»، وزار مقبرة أجداده، ونزل في قصر «غنوم».

لكنها تسأل في انكسار: هل رأته أمه وقتها؟

– كانت متقدمة في السن، فلم يسعفها العمر، لكنك أنت لا تزالين في عز الشباب.

ثم ينتبه إلى أن إقراره ببقاء ابنه مخطوفًا سنوات طويلة يضنيها، فيقول: سأعيد ابنك رضيعًا كما هو.

احتضنت وجهه بعينيها، وقالت: أنا واثقة فيك، لم تخذلني أبدًا.

وعذَّبه قولها، إذ لم يكن هو نفسه واثقًا مما يقول، لكن لم يكن أمامه سبيل سوى أن يساعدها على تمرير الساعات العصيبة.

(20)

فـي أيام قليلة رحل كثير من «الجوابر». لم يقتصر مَن باعوا بيوتهم وأرضهـم على أولئـك الذين حددهـم «ناجي» فهناك أيضًـا مَن فضَّل الرحيـل الآن، قبـل أن يرحل غـدًا. قال واحد منهـم: لا يوجد ما يمنع خصمنا من الانقضاض علينا في أي يوم من الأيام.

وقال ثانٍ: اليوم عرض شـراء البيوت والأرض، أما غدًا فقد يطردنا دون أن يدفع شيئًا.

وقال ثالث: إن بقينا هنا ستظل رؤوسنا منكسة أمام الناس.

ولـم يكن «ناجي» قادرًا على الدخول في مسـاومات حول أسـعار البيوت والأرض، فأسـند المهمة إلى «محبوب»، وساعده «محمود»، الـذي كان قـد لـزم داره بعـد خـراب المعاصـر والطاحونـة، يصـارع شيخوخته التي هجمت عليه فجأة، تتغذى على الفراغ والندم.

تم كل شيء في هدوء، بعد أن أمهلهم «ناجي» أيامًا قلائل حتى يجدوا بيوتًا في قرى أخرى. اثنان منهم فضَّلا النزوح إلى البندر، لاحتراف مهن جديـدة أقـل شـقاءً من الكدح فـي الأرض. واحـد كان ابنه علـى أبواب الالتحاق بالأزهر، ففضل أن يحط رحاله الأخير في «القاهرة».

وقال أحدهم، بعد أن عرف أين يذهب المرحلون قسرًا أو اختيارًا: آن الأوان أن نعرف شتاتًا ذاقه «الصوابر» قبلنا.

ونظـر إليـه آخـر، مسـترجعًا كل مـا جـرى، وسـأل: هل لنـا عودة مثلهم؟

لكنه سمع قهقهة عالية، ثم جاءته الإجابة بصوت كسير: نحن نردد الحكايات لكن لا نُخلص للوعد مثل «الصوابر».

ولما وجد خيبة الأمل قد اكفهرت لها وجوه الرجال، قال: ربما يأتي من أحفادكم مَن يقتله الحنين إلى شوارع دب فيها أجداده، ومقبرة تحوي موتاهم.

وتدخل ثالث، وقال: لا تنسوا أن بعضنا مستمرون هنا، وسيتناسلون ويكثرون مع الأيام.

وعادت القهقهة، ثم انطلق الصوت: لن يكف «ناجي» عن الشدة واللين حتى ينتهي وجودنا هنا.

لكن آخر خالفه الرأي، وقال: مَن بقوا هو يأمنهم، وبعضهم صار فعليًّا من رجاله.

واستيقظ الناس في «الصابرية» ليجدوا بعض أهلها قد غادروها، وهم يحبسون الدموع في مآقيهم. جاءت عربات الكارو والجِمال لحمل الأثاث. خرجت من الشوارع إلى الجسر، تقاطرت أمام عيون الفلاحين، فوقفوا تاركين هراوات فؤوسهم بين أصابعهم، وراحوا يتابعون الراحلين.

كان بين المتفرجين أُجريَّة ليس لهم بلد محدد، يأتون من كل مكان، ويتنقلون بين القرى كالطير الذي يسعى خلف ما يملأ به حويصلاته، ويعود إلى أعشاش هشة تشبه أخصاص البوص والجريد التي نصبوها

سريعًا خلف المقبرة، تشاكسها الريح، ولن يبتعد اليوم الذي تتهاوى فيه بعيد رحيلهم.

زعق القطار على محطة «الصابرية» مؤذنًا بوصوله. تطلعت إليه عيون السائرين خلف الجِمال والكارو. تمنى بعضهم لو كان قد ركب القطار ليأخذه إلى بلاد بعيدة جدًّا، لا يعرف أهلها شيئًا عما جرى لـ«الجوابر»، لكن كانت الرغبة في بقائهم قريبين من مسقط رؤوسهم هي الأقوى. شيء ظل يشدهم نحو الشوارع التي ساروا فيها، والحقول التي أُنيخت فيها ظهورهم، ولم يكف بعضهم عن السؤال: هل لنا عودة؟

وقال إمام المسجد: لم يقصدهم «ناجي» بسوء، كلما مد إليهم يده ليصافحهم لسعتها نار غلهم.

وأتى المدرسون على ذكر ما جرى، فقال أحدهم: أنا شخصيًّا أوذيت من آباء تلاميذ «الجوابر».

وقال آخر: بهم حماقة زائدة.

رد ثالث: بينهم عقلاء طيبون.

عاد الأول يقول: هؤلاء تركهم «ناجي» في بيوتهم وأرضهم، ولم يشأ أن يخلعهم من «الصابرية» بينما جد أجدادهم كان فيها.

تابع الفلاحون قافلة المغادرين، وهي تصغر في عيونهم كلما ابتعدت، حتى اختفت من عيونهم تمامًا، فعادوا يضربون الأرض بقوة، فيتساقط من رؤوسهم كل ما رأوه، وما تحيروا في إدراكه، وسط حياة تأخذ منهم وترد، وتضربهم يمنة ويسرة بلا رحمة.

(21)

لـم يهنأ «ناجي» بعضوية الجمعية التشـريعية، التـي دفع من أجلها أشـياء باهظة، فلذة كبده، وجزءًا كبيرًا من ماله، ووقتًا طويلًا قضاه بين النـاس، وجهـدًا بالغًـا بذله حتى نحل جسـده. كل هذا راح سُـدى في لحظـة، فالحـرب الكونية اندلعـت في بلاد أوروبـا، والمحتل يريد أن يكتم صوت المصريين، فأصدر قرارًا بحل الجمعية.

لـم تكـن الجمعيـة قـادرة علـى أن تترجـم أشـواق النـاس وحاجاتهم كاملـة، وكان صـوت رجالها يدور في أرجاء قاعـة الاجتماعات ثم يموت علـى بابهـا. حتى صرخ «ناجي» وهو يمسـح وجوه زملائـه النواب بعينين غاضبتين: بماذا يفيد النقد والتفنيد واسـتعمال العقل والمنطق، وما عسـاه أن يفعل النصح والإرشاد، أو حتى العشم والرجاء والتمني، إذا كان تبجح مَن يمكسـون بزمـام الأمر قد بلغ مداه، ويمدون ألسـنتهم من أقصى مكان إلى أدناه، لتخرج من حلوق تحت عيون تنظر إلى الناس جميعًا في استعلاء واستخفاف واستهانة، وتقول لهم: ما نفرضه عليكم أطيعوه خاضعين.

وأُعجـب الحاضـرون ببلاغتـه، وأثنـوا عليها، فأوسـعوا لـه مكانًا وسـط الكبار، وقال له أحدهـم بعد أن عرف كثيرًا عن مسـيرته: آن لنا أن نساعدك في الحصول على البهوية.

وتحقـق له ما وُعـد به. قفز إلـى أعلى، لكن أجنحتـه كانت مطوية إلى جنبيه، لا تشـاكس نسـائم، ولا ترقص في ريح، كانت منكمشة من فـرط الحزن على ضياع ابنـه. قال لمَن وعدوه بالبهوية: ليتكم تعدوني باسترداد ابني الضائع.

وكانت الشرطة لا تكف عن البحث. كلما فترت همتها، تدخل أحد لينفخ فيها عزمًا جديدًا، لكنها لم يكن لها أن تتجاوز تعليمات ناظر الداخلية ونصيحته: لا بد من الحذر، هذه عملية تحتاج إلى جراحة ماهرة، حرصًا على حياة الطفل.

عاد الرجال الذين ظنوا أنهم ألسنة الأمة إلى بيوتهم، وفقد «ناجي» الشيء الوحيد الذي كان يُسرِّي عنه بعض الشيء. تحدث مع زملائه في الجمعية عن ضياع ابنه، فانتبهوا إلى أحزانه، تناقلوها بينهم فوصل الخبر إلى أصحاب التحكم والقرار فوعدوا بأن يبحثوا عن «رضوان» في كل مكان.

لم ينتظر هو ما سيفعلونه، أرسل رجالًا يعسون في الجبال، لكن لم يأته ما يبل ريقه. فالعسس سألوا عن «بهاء» بين العصابات المتناثرة في الكهوف، فقيل لهم: لا يوجد أحد بهذا الاسم بين كل العصابات التي عسسنا فيها.

وقال «نوفل» وهو يتعثر في الحروف: ربما هرب إلى بلاد الشام.

رفَّت على شفتي «ناجي» ابتسامة ساخرة، وقال: أو إلى السودان.

(22)

جبل بين النهر والبحر يجيل «بهاء» البصر فيه فلا يرى سوى الصخر والرمل، مثلما فعل «مهدي» في الزمن القديم. قفزت هذه الحكاية إلى رأسه، بينما كان يجلس وحيدًا فوق حجر ضخم مسطح. لم ينسَ مغزاها وإن كانت التفاصيل قد غابت من ذهنه. استعاد على

مهل كل ما سمعه من الناس في «الصابرية»، وما بقي في نفسه من نشيد الشعراء على العزف المجروح.

رآه «عبد القوي» شاردًا فمضى نحوه، وقال: السجن الذي كنا نخشاه هناك، جاء إلينا هنا.

زفر في ألم، وقال: أحد «الصوابر» جعل من بقائه وسط الفلاتية محطة لبعث جديد.

وما إن بدأ يحكي له عن «مهدي»، حتى قال له: أدركت ما تفكر فيه، لكن الزمن غير الزمن، والرجال غير الرجال.

(23)

يتحرك عقرب الساعة إلى الأمام، يمضي على مهل دون ضجيج، بينما كل شيء، وكل أحد حوله، لا يتقدم هرولة وعدوًا، ولا حتى حبوًا أو مشيًا أو عومًا وسباحة، لكنه ربما يكون زحفًا. هو فعلًا زحف في القاع فوق وحل وصخور.

غرقت أحلام «ناجي» و«بهاء» معًا، رغم أنهما غريمان، ولم تطفُ على السطح لتراها العيون عائمة، يراقصها ماء النهر الجاري، أو تهزها الريح.

وحدهم الغواصون الذين يمكن أن يروها وهي تتمرغ حسيرة كسيرة في طين القاع، وتبكي أيامًا كانت فيها أجنحتها ترفرف في السماوات العُلا. يرونها ويرثون لها، لكنهم لا يقدرون على انتشالها من الغرق.

فمَن ذا الذي بوسعه أن يعيد إلى «ناجي» الشغف، وهو مكسور لضياع ابنه؟

ومَن يمكنه أن يجعل «بهاء» يمتلئ بيقين أنه قادر على العودة مثلما كان «مهدي» في الزمن القديم؟

حتى الحكاية الممتدة في شرايين الزمن، تفقد الكثير من وهجها، فلا «ناجي» يعرف أين غريمه لينازله، ولا «بهاء» يعرف كيف ولا متى يستفيد من كبد خصمه الذي صار في يده؟

هذا مسجون في خواطره السوداء، وذلك مسجون في مخاوفه وهواجسه. السرايا على فخامتها سجن، والصحراء على اتساعها سجن، والوقت يمر ثقيلًا، والأحلام ملتصقة بالقيعان البعيدة.

(24)

مضت الأيام عصيبة. كل شيء أمكن تعويضه، جادت الأرض بزرع جديد، وتوالت مواسم الحصاد، وعُمرت المعاصر والطاحونة، وامتلأت شونة الغلال، وعادت تنهب الجسور عربات الكارو التي يجري خلفها أولاد «أم الخير»، الذين صارت لهم بيوت وذراري، ودفعت المدرسة بمزيد من الحاصلين على الشهادة الابتدائية، واكتست رؤوس كل الرجال بطواقي صنعها «نوفل»، وولد جاموس وبقر اشتراه «ناجي» للفلاحين عجولًا صغيرة لتكبر وتلد ويزيد خيرها.

كل شيء استعاد زمنه، واندملت الجراح. جرح واحد فقط بقي ينزف، بل زاد نزيفه، معاندًا كل أسباب الشفاء. وكيف يشفى قلب مَن

يؤرقه الانتظار المر؟ كان وجه الرضيع يطارد أباه في كل مكان. على جدران البيت، وفي المدى، حيث مسطح الزرع الأخضر، وصفحة النهر، وفجوة خفيضة بين نتوئين صخريين للجبل، تأخذ بصر مَن ينظر إليها نحو أفق بعيد غامض مخيف.

كان هو هناك يكبر بين يدي امرأة غير أمه، ليس في سرايا إنما في شقة أرضية بائسة، ليس بها سوى غرفتين تطلان على صالة ضيقة، ولها نافذتان تطلان على حارة جانبية، ينحبس فيها الهواء حتى يفسد، مخلوطًا بروائح الأطعمة الرخيصة وفضلات الآدميين وقمامتهم، وما تفعله الكلاب الضالة بجوار الجدران الكالحة.

كان يكبر بعيدًا أيضًا عن عين «بهاء» الذي كان حريصًا على أن يُبقي الطفل حيًّا في أيام يموت فيها أطفال كثر بسبب الجوع أو المرض. كان يرسل «عبد القوي» بين حين وآخر ليطمئن على ابنه، الذي جاءت أمه لترعاه مع الخادمة، وكذلك «رضوان» ويعطي المرأة ما يجعلها تهتم به، إلى أن تحين لحظة استغلاله، كما رسمها «بهاء» في مخيلته، وكلما حدث صاحبه عنها، قال له: لديك وقت كافٍ لتُحكمها أكثر من هذا.

واضطربت الأحوال في «القاهرة» بعد أن سكتت المدافع على جبهات أوروبا. دبت حركة في أوصال مجتمع كان ينتظر أن يُمنح بعض الحرية حين تضع الحرب أوزارها، فلم يجد سوى النكران. امتدت ألسنة الكبار مطالبة بالاستقلال، ووقف الناس خلفهم. تصارعت الإرادات فانفجر الغضب.

وهـرع «نوفل» نحو السـرايا، فوجد «ناجي» يجلس فـي الحديقة، مغمورًا بشـمس الضحى العالي، يلقي رأسـه إلى مسـند مقعد تنغرس أرجلـه في تـراب ليِّن، ويغمض عينيه قليلًا شـاردًا في أوجاعه. اقترب منه، وقال له:

- سأرحل إلى حيث يجب أن أكون.

رفع إليه عينين مثقلتين بالهموم، وقال: أنا قدرت ذلك.

وأشار «ناجي» إلى الحارس ليحضر مقعدًا لـ «نوفل»، فجلس ينظر إليه مليًّا، وقال: طول الانشغال بالأسى يزيده.

تنهد «ناجي» في وجع، وقال: ليس باليد حيلة.

كان «نوفل» قد فكر جيدًا لِمَا جاء من أجله، فقال: لا تجعل حزنك يمنعك من أداء واجبك.

ضايقه ما سمع، فسأل بصوت حاد: ماذا عليَّ أن أفعل؟

ابتسم «نوفل» وأجابه: لا شك أنك قد عرفت من الجرنال أن بعض زملائك في الجمعية يتصدرون المشهد.

هز رأسـه في ضجر، وتسـاءل: ما أدراني ألا يكـون نصيبي في هذا كنصيب أبي؟

- أبوك خاض حربًا، لكن ما نحن فيه مجرد احتجاج سلمي.

- جرنـال أمس فيه الكثير عن شـوارع تعج بالفوضى، ودماء بدأت تسيل، ومبانٍ تُحرق.

- أعرف، وأعذر الناس الذين يواجهون رصاص الإنجليز بصدورهم.

ثم نظر طويلًا في عيني «ناجي»، وقال: لعل دخول المعمعة ينسيك ألمًا ينهش روحك منذ سنين.

ازدحمت في رأسه آثار الأخبار التي قرأها في الجرائد، الممزوجة بهواجس وهلاوس كثيرة، وقال: ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

وحين طالبه كثيرون، من بينهم إمام المسجد وبعض قساوسة النصارى و«ناحوم» رب الأسرة اليهودية الوحيدة في القرية، بأن يفيدهم عما يجب عليهم أن يفعلوه حيال الغضب الذي تتوالى أخباره من «القاهرة»، قال لهم في حسم: على كل منا أن يفعل ما يقدر عليه، ويحاذر.

(25)

الأيام دائرة مفتوحة، تبتلع أحلام الناس وآمالهم، ثم تغلق قوسها، وتقبض على ما فيها في قسوة فتخنقه، أو تعصره عصرًا، وتبدده، ليقول الضعيف: ذهبت أيامي سُدى.

القوي وحده، مَن يرفع ساعده، ويضرب محيط الدائرة بقبضة قوية، فتظل مفتوحة، ليستمر انهمار الأحلام من جديد، أو تجد الأحلام الحبيسة متنفسًا لها، فلا يفقد أصحابها الأمل في تحقيقها، حتى لو عانوا كثيرًا في سبيل ذلك.

(26)

وجد «ناجي» في الغضب فرصة لتخفيف أحزانه. كان يقول لمَن حوله: لبيت نداء الأمة. وحين يختلي بزوجته، يقول بصوت خفيض، وكأنه يخشى أن يكون هناك مَن ينصت إليه، أو يتخيل أن هناك مَن يمد أذنيه إليه: لا أنكر أن رغبتي في قتل الحزن على ابني أكبر من خوف يملأ قلبي من أن أمضي في طريق أبي، وألقى المصير نفسه.

تمنى لو كان «نوفل» إلى جانبه في هذه الأيام، فطالما أشار عليه بآراء سديدة، استقاها من قلب الآلام المُبرحة التي عاشها، فاكتست بالعمق والصدق. لكن الرجل خرج من الفرار. تمرد على الخوف الطويل، وقال: هذا وقت المغامرة.

ركب القطار من محطة «الصابرية» واللهفة تأكل نفسه على بلوغ ما ظل زمنًا ينتظره على مضض. كان يتمنى لو أن طيرًا عملاقًا أسرع من القطار مائة مرة يخطفه من قلب الصعيد ويلقيه في أي من شوارع «القاهرة».

قبل السفر، نظر إلى «ناجي»، وقال: آن الأوان أن يسكن الزاوية مَن يستحقها.

رفع «ناجي» عينين تفيضان بالامتنان إليه، وقال: شرفت الزاوية بغبار قدميك.

وحين رافقه إلى محطة القطار كي يودعه، كان آخر ما قاله لـ «ناجي»: ربما أراك مصادفة وسط الغاضبين في شوارع «القاهرة».

ذهب «ناجي» إلى «القاهرة» بعد أيام، لكن مكانه لم يكن ذلك الذي اختاره «نوفل»، إنما بين كبار زاملهم في «الجمعية التشريعية». لم يكن في الصف الأول، لكن موقعه سمح له أن يسمع ويرى ما بوسعه أن يعطي الحكاية التي تنتظره في «الصابرية» فصلًا جديدًا مختلفًا.

وملأت الأخبار الصحف مصحوبة بصور الذين يقفون أمام الناس، مدفوعين بعشرات الآلاف من الأكف، التي تقبض على أمل في الحرية. كان «ناجي» بينهم، صورته واضحة، وبعض كلماته منشورة بين كلام الوجهاء. ووصلت الجرائد إلى «الصابرية» بعد أن تسلمها كالعادة ناظر محطة القطار من بائعها الذي يتنقل بجوف العربات في خفة شديدة بين الركاب. ولمَّا لمح الناظر صورة «ناجي» إلى جانب علية القوم صرخ فرحًا، ونادى على الواقفين في المحطة فهرعوا إليه، ليريهم ما رأى.

تداول الناس الخبر، فوصل أسماع معلمي المدرسة، فأرسلوا إلى السرايا طالبين الجرائد، فحُملت إليهم. عرف الناس فتوجهوا إلى المدرسة طالبين أن يُقرأ لهم ما هو منشور، فلمَّا سمعوا امتنوا للمكانة التي بلغها ابن قريتهم. ووسط الحاضرين كان بعض «الجوابر»، فمال أحدهم إلى أذن الآخر، وهمس: صار أكبر مما توقعنا.

غمزه في كتفه، وقال له: اصمت.

ولما اختليا بعيدًا عن الواقفين، عادا إلى ما بدآه، فقال الأول: لا يمكن لعاقل أن ينطح الصخر.

رد الثاني: وما الداعي إلى النطح أصلًا، بعد التصافي والتصالح.

ابتسم الأول في مرارة، وقال: لا يمكن أن تخلو عائلتنا ممن يخلص للحكايات القديمة، إن لم يكن بيننا الآن، فسيأتي يومًا ما.

نظر الثاني إليه في غيظ، وقال: نحن أولاد اليوم، فدعك من أشياء لا تجلب سوى المتاعب.

(27)

خمدت فورة الناس قليلًا، تباطأت الأقدام المستعدة للنزول إلى الشوارع، وتراخت السواعد المتوثبة، وتراءت أمام عيون يسكنها الترقب علامات الخيبة، لكن الثقة في الزعيم كانت كبيرة. دفعوه في وجه الريح، وراهنوا على ثباته. لم يدرك أغلبهم أن الجذر العميق يحتاج إلى تربة صلبة، والجذع القوي تقيه الجذور المتلاحقة من غدر العواصف الهوجاء.

كان «ناجي» يؤمن بهذا، ويقول لمَن معه: لا يُهزم رجال تلاصقت أكتافهم، وتلاقت ظهورهم، لتكون عيونهم وصدورهم مصوبة إلى الجهات الأربع، يدفعون عن أنفسهم أي خطر من يمين أو يسار، ومن أمام أو خلف.

هز الجالسون رؤوسهم مستحسنين ما سمعوا، وقال أحدهم: لا تُهزم عصبة يتفانى أفرادها في الإخلاص لما يؤمنون به، ويكون بينها بذل وإيثار.

لكن النفوس لم تبقَ على حالها، والعدو كان بارعًا في أن يمد أذرعه بين الأكتاف والظهور، فتباعدت قليلًا، لكن هذا كان كافيًا

ليهتز اليقين في النصر الحاسم. وبينما كان «ناجي» مهمومًا بما يسمعه ويراه، نشرت الصحف أخبارًا عن غضب النهر في «السودان»، وهجوم فيضان الخريف المخيف، فركب على الفور حنطورًا إلى محطة القطار ليستقله عائدًا إلى «الصابرية».

حين وصل قبيل الظُّهر وجد الناس يقفون على أطراف أصابعهم، ينظرون إلى النيل بعيون مملوءة بالرجاء، وينصتون إلى العجائز بينهم الذين ينقلون إليهم خبراتهم القديمة عن الفيضانات العاتية. كانوا يطلبون منهم أن يرمموا نقاط الضعف في الجسر، ويسحبوا إليه مزيدًا من التراب، ويدقوا أمامه أوتادًا متينة. هرع الشباب ينفذون ما سمعوه، وأثارت فؤوسهم عجيجًا هائلًا، حملته الريح إلى نوافذ البيوت.

رأى أحدهم «ناجي» يهبط من القطار، فصرخ بصوتٍ عالٍ: البيه وصل.

انتبه الواقفون وانتعشوا، وسرى في أوصالهم اطمئنان، إذ لم تكن الحكايات التي سمعوها عما فعله أجداد «ناجي» قد جفت بعد، فهرعوا إليه، حاملين الفؤوس على أكتافهم. نظر إليهم من بعيد وابتسم، إذ كانت الطواقي التي صنعها «نوفل» تكسو أغلب الرؤوس، فبدوا وكأنهم جُند في جيش واحد، يستعد لمعركة حامية. إنها حرب ضد غضب النهر.

كان «ناجي» مطمئنًّا إلى أن السرايا والشونة والمعاصر والطاحونة ومصنع الألبان في حماية الأسوار التي تطوقها، بجدرانها التي تتمدد الأحجار في أسفلها حتى رقبة رجل واقف. لكن منذ متى كان يشغله

ما يملكه فقط؟ زرعه الواقع شرق الجسر لن ينجو من الماء مهما فعل، فهو مفتوح على فم الماء الواسع، أما غربه فيجب أن يعلو أمامه الجسر كي يكون في مأمن، ومعه المقبرة التي ليس لدى أي أحد استعداد لفقدانها، وهي مخزن الذكريات، حيث يرقد أبطال الحكايات التي تسكن الرؤوس والأفئدة، وتُحرك الألسنة.

ظل «ناجي» وسط رجال القرية، يتابع تعلية الجسر وتمتين جانبه المواجه للنهر، وأطلق الفلاحين يجمعون الخضراوات وثمار الفاكهة قبل أن يغمرها الماء، وحملتها عربات الكارو إلى البندر. أحصى ما في الشونة من أشولة القمح والذرة والفول والعدس، وهو يحسب ما عليه أن يمد بها الناس في أوقات الفيضان، بعد أن تغرق زروعهم، ويجلسوا في البيوت بلا عمل أو قوت.

كان يعرف جيدًا ما يفعله أجداده في مثل هذا الوقت العصيب، ولم يكن بوسعه أن يشرد بعيدًا عن ذلك المسار، مهما كانت آلامه مبرحة من ضياع ابنه، أو فقدان موقعه السياسي الذي أنفق لأجله مالًا طائلًا، ولا البرودة التي سرت في أوصال غضب نبيل كان بين متصدريه، ورأى مَن يفرغونه من مقصده تباعًا، ويحاولون تحويله إلى عقاب جماعي.

داس كل هذا بقدميه اللتين أرهقهما السفر، وراح يزيد من الاهتمام بأنباء موج يجري كالجبال، وقبله أولئك الذين هلوا على الجسر في الصباحات الباكرة، هاربين من قرى ستغرق حتمًا، حاملين على أكتافهم وظهورهم أشياء رخيصة بالية، ليس في بيوتهم الخفيضة غيرها، هي أثاث يعينهم على أيام التشرد في بلاد الناس.

كعادتهم في هذه الأيام يتقاطرون نحو المقبرة، بعد استئذان كبار «الصابرية» ليلوذوا بربوتها العالية، ويشرعوا في نصب خيام أو دق أوتاد لأخصاص من البوص. مقرات مؤقتة إلى أن ينحسر الماء، فيلملمون ما تبقى مما أتوا به، ويعودون إلى قراهم، لعلهم يجدون شيئًا فيها قد تبقى.

كانوا كلما قابلوا أحدًا من أهل «الصابرية»، قالوا له: أنعم الله عليكم بمَن يهتم بتعلية الجسر، وبناء الأسوار، وإلا صرتم مشردين مثلنا.

وبلغ قولهم هذا «ناجي»، فقال: رحم الله الأجداد، لم يُلههم شيء عن أداء الواجب.

وكان من بين القادمين رجل اسمه «سراج العشري»، كان طويل القامة، عظامه العريضة يكسوها قليل من اللحم، كأنه عود قصب قدحته الشمس، له عينان عميقتان، يحسب المدقق فيهما أن العالم كله يستقر في قيعانهما البعيدة. له شفتان مقددتان لا تكفان عن التمتمة بكلام لا يسمعه غيره. لم ينصب لنفسه خيمة، ولم يُقم خُصًّا، فوحدته وخفته جعلت أي بقعة من الأرض تحويه وتستره.

لم يكن من أهل القرية النازحة عن بكرة أبيها، وكل مَن سُئل عنه منهم أكد هذا، وقال: وجدناه بيننا في الهوجة.

أما هو فرد على مَن سأله قائلًا: أنا أكون حيث يدفعني قلبي.

رآه الناس ذات ليلة يحوم حول الزاوية. يضع يده على بابها المغلق، فتعود غارقة في الغبار. يمد أنفه من فتحات في جدارها، ويسحب

شهيقًا عميقًا، ثم يرطن بكلام غريب، لم يفهمه الذين مدوا آذانهم إليه ليلتقطوا شيئًا.

لم تكن عيون الخفر بعيدة عنه، فهيئته المختلفة كانت لافتة للانتباه، وما يهمس به الناس عنه لم يكن ليختبئ كل هذا الوقت. حكوا للعمدة عنه، فطلب أن يراه، فلمَّا مثل أمامه، سأله على الفور: ما حكايتك؟

- غريب أنا، هارب من الفيضان كغيري.

سأله العمدة عن دورانه حول الزاوية فابتسم، وقال: رأيتها في منامي، فشددت إليها الرحال. ثم هز رأسه كأنه يستدعي كلامًا تائهًا، وقال: لم أفتح بابها، ولن أدخلها إلا بإذن.

سأله «العمدة» وهو ينظر إليه في تشكك: تستأذن مَن؟

- كبار البلد.

وأرسل «محبوب» إلى «ناجي» يستأذنه في السماح للرجل بسكنى الزاوية فوافق. وقال أهل «الصابرية» حين سمعوا الخبر: لا ينقطع عن قريتنا أهل الخير.

لكن هناك مَن ارتاب في الرجل، وتهامسوا متسائلين عما إذا كان مدسوسًا عليهم من الإنجليز، ليراقب «ناجي» ورجاله. حين رأوه يختلي بواحد من «الجوابر» خلف الزاوية في الليلة التي سبقت هجوم المياه، ساحت رؤوسهم في ظنون أخرى، وقال «ناجي» لمَن تحلقوا حوله من «الصوابر»، بينما كانوا ينتظرون الفيضان في قلق شديد: لا يمكننا نسيان أن رجلًا اسمه «حجازي» من «الصوابر» عاد إلى القرية متسللًا بعد أن

خلت منَّا سنوات، لتبدأ معه رحلة عودتنا التي تعافت مع الزمن، حتى صار كل شيء بيدنا.

رد عليه أحدهم: اطرده، واكسر وراءه ألف زير.

هز «ناجي» رأسه رافضًا ذلك، وقال: لا تنسَ أنني قاضٍ سابق، ولا يمكنني أن أحكم دون تحقيق وتدقيق.

وكان كبير النصارى يسمع الحديث، فقال: لا يطرد «الصوابر» مَن يحتمي بهم.

والتقط «محمود» الخيط، وقال بعد أن سعل طويلًا، حتى ظن الواقفون أن رئتيه ستخرجان من بين ضلوعه: ليس هذا وقته.

وكان «محبوب» ينصت إلى الحديث صامتًا، ثم تدخل: بعد الشدة نتحرى عن هذا العشري.

(28)

عند عصر اليوم التالي، جاء صوت صارخًا من بعيد يعلن هجوم الماء. زاغت عيون الرجال، وبلغت قلوبهم الحناجر، وتطلعوا إلى «ناجي» فرأوه ثابتًا. صعدت النساء إلى سطوح البيوت، فبانت لهن الأمواج تجري كالجبال، تجرف أمامها أشياء كثيرة، تقلبها في عنف، فتطفو ثم تغيب، ليظهر غيرها.

وسألت امرأة جارتها: هل ننجو؟

لم ترد، للوهلة الأولى، إنما أرسلت ناظريها إلى حيث اقترب الماء، ثم أجابت بصوتٍ عالٍ: يا رب.

وسمعتها جارتها، فكررت خلفها، وسمعت النساء الباقيات فرددن الدعاء، ووصل الصوت إلى الرجال فارتفع صوتهم بالرجاء، وهم ينظرون إلى السماء، رافعين أكفهم إليها. كانوا قد فعلوا كل ما يقدرون عليه، لكنهم لم يُقدروا أن الفيضان سيكون هذه المرة كاسحًا.

ونادى «ناجي» وهو يشير إلى الناس: سارعوا إلى الجبَّانة.

كانت المقابر تطل عليهم ثابتة فوق الربوة. صرخ الرجال على النسوة فتركن سطوح البيوت، وهرعن وصغارهن إلى الجبَّانة، يسحبون خلفهم الجاموس والبقر، ويهشون الأغنام والماعز حتى تكون أمام أعينهم، وتحمل النسوة أقفاص الدجاج والبط والإوز والأرانب. بلغوا الجبَّانة قبل أن يضرب أول الماء أجسادهم.

صار الكل على الربوة، الذين ولدوا بالأمس، والطاعنون في السن ينتظرون الموت. أصحاب السرايات الثلاث في القرية، على تفاوتها، وساكنو الأخصاص والأكواخ على تشابهها. جاء «الصوابر» و«الجوابر» و«آل بخيت» و«النصارى»، و«اليهودي» الوحيد جاء ومعه زوجته «إستر» وابنه وابنته. أبناء البلد والغرابوة. حطت أقدام الجميع فوق أرض صلدة ظلت تنتظر مثل هذه الأيام العصيبة، لا تنقص منه ريح شيئًا إلا وحملت إليه أخرى ما جعله يقف شامخًا في وجه الفيضانات المتكررة.

هنا صمتت الحكايات الأليمة، وكانت في حاجة إلى مَن يُخرسها منذ زمن طويل. سكتت الألسنة في الأفواه التي جفَّت من فرط الخوف. ألَّفَ الخطر بين القلوب، ولم تكن هناك فرصة لبرهة واحدة يحكي

فيها امرؤ عن ضغينة تغزو نفسه، أو تستيقظ من رقادها، أو ترد عليها رغبة في ثأر كانت مختبئة في زحام الأيام، التي كرَّت بلا هوادة.

كل عصي لان فوق الربوة. صار طيبًا كاليمام الذي حلق فوق الموج، وحط على القبور. طيبة صنعتها التقوى العابرة التي تقطع في حياة الناس فجورًا أصيلًا، لا يتخلون عنه إلا إذا رأوا الموت. كأن خطاياهم قد تساقطت في لحظة. رعب ملأ النفوس فألقت كل ما فيها من أثقال البغض.

خفت الأجساد حين سمت النفوس فوق التفاصيل، بعد أن أدركت أن هذه الأشياء الصغيرة من القيل والقال هي الشوك الذي يخز شعورهم طوال الوقت فيدميه، وليس هناك أكثر من وجع تصنعه كف تغرف من الشحناء، وتلقي بها في طريق الناس. إنه وجع من كل اتجاه، جروح ضحايا المعارك، وانقباض نفوس الحاقدين، وقلق الذين يخشون المداهمة، ونكد مَن ينتظر شخصًا يسعى خلفه ليثأر منه.

ورآهم «ناجي» على حالهم هذه، فتمنى لو بقي أثر الطوفان في النفوس طويلًا. التفَّ الناس حوله يتطلعون إليه، فقال لهم: لا عاصم اليوم من أمر ربي.

كتم إمام المسجد قهقهة كانت تريد أن تجلجل، وقال: كأنه طوفان نوح يا بك.

هز «ناجي» رأسه، وقال: ما قرأته في الجرنال عما جرى في السودان يقول إنه طوفان فعلًا.

وانهمـك الناس في إحصاء ما يخافون غرقه، إنها دورهم الخفيضة التي تركوها خلفهم. كان «ناجي» خائفًا على غرق سرايته وشونته. أما العصـارات والطاحونة ومعمل اللبن فكان متيقنًا من أن الماء إن بلغها فلن يتجاوز سورها الحجري.

كانت «نوارة» قد ركبت الدوكار مع ابنتها «سميحة»، وجرت خلفها الخادمات، والجنايني وحارس السرايا. كانت متعبة، وتخشى أن يدفع الخـوف الجنين الجديد فـي بطنها إلى الدنيا، بينمـا الحال في فوضى عارمة. ما إن وصلت إلى الجبَّانة، حتى أدخلها «ناجي» الزاوية، بعد أن أخلاها «العشري»، وانضمت إليها زوجة «محبوب» وأولادها.

قـال «العمدة» وهـو يرى الماء قد غمر أول بيت على طرف القرية: ما يجري فوق طاقة الحكومة.

همهم الواقفون، كاتمين السـخرية. وحده «ناجي» الذي قال له في غضب: فيضان وراء فيضان، والبلاد عارية.

وقال «محمود» بصوت متحشـرج من فرط الوهن: لا نملك سوى طريق الأجداد.

كان هذا آخر ما نطق به، فعند الفجر غادر الدنيا، ولم يتعب الرجال في دفنه، إذ وجدوه قد أسـند رأسه إلى قبر جده الكبير ومات. شقوا له قبرًا إلى جواره، وواروه الثرى. وكانت «رضيَّة» قد سبقته بشهرين إلى الدار الآخرة، فنجت من سـاعات الخوف التي عاشها أهل «الصابرية» مع الفيضان.

(29)

نظر «ناجي» إلى الأرض، ثم رفع رأسه، فذهبت عيناه بعيدًا فملأ الجبل عينيه. كان هناك راسخًا، ينظر هازئًا إلى الماء الذي هجم بضراوة. تعلق بصره بالصخر الكبير، وأطال النظر، فظن الواقفون أنه كان يتمنى لو أمرهم بعبور النيل إلى الجبل قبل الهجوم.

كان هو لا يرى شيئًا سوى وجه «رضوان» مطبوعًا على الأحجار، يتسع ويتسع حتى يحجبها، وتشرق ابتسامته العذبة، ثم تضيع حين ينسكب عليه شعاع شمس العصر الحزينة مع اقتراب المغيب. وتمتم قائلًا: المغيب والغياب.

لم يسمعه سوى «محبوب»، فأدرك ما حلَّ برأسه. اقترب منه، ووضع يده على كتفه، وداس عليها خفيفًا بإصبعيه، وقال له: سيعود الغائب في يوم قريب.

رماه بنظرة يائسة، وقال: البعيد يقربه ربك.

(30)

كان عليهم أن يصنعوا ما يأخذهم إلى الطاحونة، ليأتوا بما يحتاجون إليه من دقيق. قلَّموا النخيل الواقف على الطرف الغربي من المقبرة، ونزعوا أليافًا من الجذوع القديمة، ونسجوا حبالًا متينة. رصوا الجريد وربطوه، وفرشوا فوقه السعف والعراجين. حملوا الرصة إلى طرف الماء، واتخذوا من الشوم المتين مجدافين. ركب أحدهم، وجدف

نحـو الطاحونـة، وعاد بشـوال واحـد من الدقيـق، وراح يكـرر رحلة الذهاب والعودة حتى يأتي بما يكفي.

ضـرب الرجـال أكفهم في طرف الماء، وقطعوا مـا قدروا عليه من الطيـن، وحملـوا الجواليس المتماسـكة إلـى منتصف المقبـرة، ليقيم البنَّـاء فـرن خبيز. غرفوا مـاءً رائقًا، لتعجن النسـوة الدقيق، ولم تمضِ سوى سـاعة حتى راحت رصة البتاو تعلو، ورائحتها تداعب الأنوف، فترقص البطون فرحًا بطعام تاقوا إليه.

بـدت الربوة بما عليها خلية نحـل محاصرة، لا تقدر على الطيران، ولا ينفعها الأسى، وليس أمامها سوى الانتظار. رمى «محبوب» بصره إلى الماء الذي انحسر قليلًا، وقال: ما أغربه من سجن!

وكان أهـل القريـة والغرباء قد تعلقـوا بعيون وجهائهم. اسـتعادوا الحكايـات القديمـة، وذكروهـم بمـا كان يفعله أجدادهـم في مثل هذا الكرب. وفطِن «ناجي» إلى ما يدور في رؤوسـهم، ولا يفصحون عنه، فقال لهم: سنعيد بناء ما هدمه الماء.

كان أغلبهم لم يروا فيضانًا غزيرًا كهذا، فسـألوا العجائز عما فعلوه في وجه مثله حين داهمهم قبل سنين طويلة، فطمأنوهم. قال أحدهم: في فيضانات أقل حمانا الجسر العالي.

لكن الفيضان كان قد علا حتى غمر الجسر، فلمَّا راح الماء ينحسر كان هـو أول ما بان. بـدا جزيرة طويلة تتناثر عليها حفر مملوءة بالماء، تلمـع في صهد الشـمس، التـي كلما كانت تشـرق في صبـاح كل يوم

جديـد، كان جـزء مـن الأرض المزروعة يطـل بوجهه علـى الناظرين إليه، وهم في شـوق إلى أن يضربوا فيها فؤوسهم حين تجف، ليعيدوا زراعتها، فتتواصل حياتهم.

ومع انحسـار الماء كانت الأخبار تأتي من «القاهرة» حاملة الهدوء الذي تسـرب إلى النفوس. خمدت الحناجر التي هتفت في الشوارع، وقبضـات الأيـدي التي دقـت الهواء وهنـت وتراخت. لم تبقَ سـوى مناوشات الألسنة التي لم تتخلَّ عن ترديد ما يريده الناس.

عـاد القطار يجـري بعـد أن انجلت القضبـان، وعـاد الجرنال إلى يـد «ناجي» يقرأ في إمعان متحسـرًا على الآمـال التي حملها الغضب، وانتهت إلى آلام شديدة. وقالت له «نوارة» حين رأته مهمومًا: لا تفكر إلا فيمـا عليـك هنـا. وكان ما عليه هنـا، حيث قرية هو سـيدها، كثيرًا، فجمـع الفلاحين فـي الحديقة، ليخبرهم بما فكر فيـه طويلًا. قال لهم بعد تفحص وجوههم: شمروا لنزرع الغيطان ونبني البيوت.

بدأوا بترميم سور المدرسة الذي حمى مبناها من الانهيار. اندفعت المراكـب الشـراعية لتحمل الأحجار مـن البر الشـرقي حيث الجبل. وكلمـا حطت عينا «ناجـي» على حجر كان يرى فيه صـورة ابنه. صار بوسعه أن يستعيد كل شيء، حتى رفات أجداده في نجع بحر، جاء بها، منفذًا وصية لم ينسَها مع الأيام.

كل شيء إلا الغائب الحبيب.

(31)

حين انحسر الماء تمامًا، عاد «ناجي» إلى السرايا. صعد إلى السطح، وملأ عينيه من الخلاء، حتى حطتا على سن الجبل، فطاردته الصورة من جديد. رآه هذه المرة صبيًّا يمشي الهوينى بعيدًا، يهبط إلى شاطئ النهر، ويلقي جسده دون أن يخلع ملابسه، سابحًا نحو «الصابرية»، ثم رآه يهبط من القطار حين توقف على المحطة مطلقًا صفيرًا يعلن مجيئه، ولم تمر سوى دقائق معدودات، وهو شارد عند المحطة، حتى رآه يسرع فوق طين الأرض مقبلًا وابتسامة تعلو وجهه الذي استدار، يتوسطه شارب قد نبت على مهل.

انتبه إلى «نوارة» التي كانت تقف إلى جانبه تتابعه في أسى، وقال: سيأتي يومًا ما. فكفكفت دموعها الساخنة، وقالت له راجية: احكِ لي عن جدك «سالم» الذي عاد بعد غياب طويل. وكان قد حكى لها عشرات المرات، وهي تغوص في السنين التي رحلت، ووجيب قلبها يعلو، حتى يملأ أذنيه.

وفي صباح اليوم التالي جاءه «محبوب» يلهث، ثم تتابعت حروفه متقطعة لا يكاد يتبينها، وقال: جاءت إشارة تفيد بالقبض على عصابة من الفلاتية بينهم «بهاء»، وكان متنكرًا باسم «برهامي».

ارتدى «ناجي» ملابسه على الفور، وركبا «الدوكار» إلى المحطة، متوجهَين إلى قسم الشرطة. لم يكن يهمه من الأمر سوى معرفة أين ابنه، لكن الضابط أخبره بأنهم لم يجدوه. طلب أن يختلي بـ «بهاء» فأجيب طلبه، فلمَّا انفرد به عاجله: أين «رضوان»؟

أنكر أن يكون على علم بمكانه، مستبقيًا ما يراها الورقة الأخيرة في يده، التي تجعل أمله في أن يحقق بعض ما يريد قائمًا. لكن إنكاره لم ينطلِ على «ناجي»، إذ أسعفته الفراسة على إدراك أن غريمه يكذب. حاوره وداوره، ساومه وفاوضه، لكنه أصر على الإنكار.

طلب من الضابط استجواب بقية العصابة، فأفادوا أنهم لا يعرفون شيئًا عن طفل ضائع. واحد فقط نطق حين حاصرته الأسئلة، ووعده الضابط بتخفيف العقاب إن دلهم على الغائب. كان «عجب سيده» الذي وقف يرتجف زائغ البصر. لم يقُل سوى إن «بهاء» قد ترك «رضوان» عند امرأة في البندر، لكنه لا يعرف مَن هي. ولما عادوا إلى «بهاء» أمعن في الإنكار من جديد، وقال: لم تكن سوى غجرية تمشي في البلاد وراء رزقها.

لم يقدر «ناجي» على مغادرة البندر. اكترى غرفتين في فندق قريب من القسم، وتردد عليه مرات، لكن لم يصل إلى أي جديد. وقال له الضابط، الذي رقَّ لحاله: ربما يعترف في المحكمة. كان الضابط قد ضيَّق الخناق على «بهاء»، زجره، وسبه بأفظع الألفاظ، وربطه إلى عمود في ساحة القسم، وجلده حتى انبجس الدم من راحتيه وقدميه وظهره، لكنه لم يلن أبدًا.

في أسى قال «محبوب»: ننتظر المحاكمة، فربما تأتي بجديد. لكن «ناجي» كان يعرف جيدًا أن غريمه يفضل الموت على الاعتراف. كان ينظر إليه في غيظ وتشف وتحد، وكأن «رضوان» هو الشيء الوحيد الذي يبقي صفحة الماضي البغيض مفتوحة. لم يرضَ حتى بما عرضه

عليه، وكان سخيًّا. اقترب منه، وهمس في أذنه: دلني على ولدي وسأعطيك أرضًا وبيتًا في «الصابرية».

قهقه مغالبًا وجعه، وقال: ينتظرني سجن طويل، قد أموت فيه، ولا يشفي غليلي سوى أن تموت أنت من الحزن والانتظار والحيرة.

عاد يقول له متودِّدًا: لك ابن اسمه «سيف»، عرفت مكانه، وأمك ماتت منذ شهر، أعدك بأن أعيده مع الخادمة إلى «الصابرية» وسأكتب الأرض باسمه.

لكن «بهاء» لم يلن، وقال: احسب ابني بين الذين تشردوا من «الجوابر» على يديك، حتى يكبر معه الثأر منكم.. سميته «سيف» ليقطع رقاب «الصوابر» أجمعين.

هدده «ناجي» وكان كاذبًا، بخطف «سيف» حتى يعود «رضوان»، لكن «بهاء» قهقه ساخرًا، وقال: حتى في هذه أنت الخاسر. افعلها، لتطولك فضيحة في القطر كله.

في المحاكمة، التي حضر «ناجي» و«نوارة» و«محبوب» كل جلساتها، برع «بهاء» في المراوغة. وحين نطق القاضي بسجنه عشرين سنة لم يُبالِ. رفع هامته حتى اعتلت جدار القفص، وأخرج لسانه لـ «ناجي» وقال: ستظل أنت سجينًا أيضًا في سرايتك.

جاب «ناجي» شوارع البندر، مستعينًا بأهله، يسأل الناس عن امرأة تُربي طفلًا لم تلده. سألوا في المقاهي والأسواق والمساجد. طرقوا أبواب البيوت. جروا خلف كل سيدة رأوها تمضي مع صغارها في

الشوارع، لكنهم لم يعثروا على أثر للغائب. قادتهم أقدامهم إلى أماكن الغجر، وملأوا عيونهم من وجوه أطفالهم، كشفوا عن صدور الصغار بحثًا عن كف حمراء، لكن لم يهتدوا إلى ما يريدون.

وعرف ما تبقى من أهله في سائر البلاد ما يضني كبيرهم، فشاركوا في البحث عن الغائب. جابوا القرى، ونزلوا إلى شوارع البنادر، وتعقبوا كل غجرية جاءت إلى قراهم، وعادوا كل مرة كاسفي البال.

لم يشأ أن يترك اليأس يقتله وامرأته، فقال لها: سأعلن في الجرائد، والعلامة التي تحط على صدره تيسر لنا الأمر. جدد الإعلان كل شهر، وكرَّت الشهور فصارت سنينًا، دون أن يقطع الأمل.

حرص على أن يكتب في الإعلان الاسم كاملًا: رضوان بن ناجي ابن جعفر بن منصور بن خير الدين بن مهدي بن مالك بن عطا الله ابن سالم بن غنوم بن وهدان بن رضوان بن عبد القيوم بن خليفة بن عرفان بن سدَّاد. فجاء الإعلان بمزيد من «الصوابر» المنسيين في سائر البلاد، لكنه لم يأتِ بالطفل الغائب.

لم يعد «ناجي» ينظر إلى الجبل بعد القبض على الفلاتية، إنما إلى حيث يتوقف القطار، ويهل ساعي البريد، ويمشي الناس فوق الجسر العالي، وتتوالى أحلام الليل وكوابيسه. وهمست خادمة في أذن «نوارة» أن تستعين بمَن تراهم يعرفون أبعد من الشرطة، وقالت لها: لا نخسر شيئًا إن استمعنا إليهم.

هـزت «نـوارة» رأسـها، ثم ضغطـت علـى «ناجي» كي ينفـذ هذا. رفـض في البدايـة ونازعها، لكـن إلحاحها الغارق فـي الدموع، جعله يسلك طريقًا ما ظن أبدًا أنه سيسير فيه. استعان بالعرافين، وجاء برجل يفتح المندل، لكن أيًّا منهم لم يقطع بشيء ذي بال.

وحـده بهلول اسـمه «عبد الموجـود»، جاء إلى القريـة ذات صبح علـى حمـار نحيل، منحـه بعض أمل. جلـس في البهو السـفلي، وهو غـارق في التسـابيح، وقال: يبدو أنك لـم تنصت إلـى القوَّالين جيدًا، فحين ضاع ابن جدك الكبير لم يسـترح سـوى لنبوءة شيخ الطريقة. ثم دله على رجل اسـمه «حسـن البهي»، وقال: أطلعه الله على شـيء من الأسرار.

ركـب «ناجي» القطار إليـه، ومعه «عبد الموجـود»، فلمَّا صار بين يدي الشـيخ، قال له، دون أن يكون قد سـمع منه شـيئًا: يعود الضائع، ودليلـه محفور على صدره، فـي يوم ماطر، لن ترى زخاته، ولن ينالك منه بلل.

نظر إليه بعينين غارقتين في الرجاء، وسـأله: هل يكون هذا في يوم قريب؟

صمـت الشـيخ برهة، وقـال: فيما نطقـت به إجابـة لا يغفلها رجل ذكي مثلك.

وقال «عبد الموجود»: في العبارة إشارة.

(32)

في طريق عودته تذكر «ناجي» عبارة كان قد سمعها من شيخه في الأزهر، لم ينشغل بها أيامها، أو يعتقد أنه سيكون بحاجة إليها. حفرت في ذاكرته حتى استعادها كاملة: «الحزن غير الاكتئاب، الأول أنت تغلبه، وتجعله مطيَّة لك يمكن أن تأخذك إلى تأمل عميق في الكون، وتصاريف الحياة. الثاني يغلبك، ويجعلك لا تفكر في شيء مثمر، إنما تتآكل نفسك، حتى يضيع من قدميك الطريق».

التفت إلى المجذوب، وسأله: هل في إشارة الشيخ ما يُطمئِن؟

أجابه وهو يروغ بناظريه بعيدًا: أما العودة فمحققة، وليس بالضرورة مَن ينتظر يكون من الشهود.

رفَّت على شفتي «ناجي» ابتسامة حائرة، وقال: عرَّفنا الماء بالماء.

لكنه في الحقيقة كان قد أدرك طرفًا مما كان يعنيه الشيخ «حسن البهي». بان هذا في قوله لزوجته حين عاد: لنهيئ الأمر لولي العهد، هكذا يفعل الملوك، وأصحاب الأملاك.

وعرض على «عبد الموجود» أن يسكن الزاوية مع «العشري»، لكنه رفض بشكل قاطع، وقال: لي فيها مقام، لكن ليس الآن.

قضى الأيام يعيد القرية إلى سابق عهدها. الجدران التي أكلها الفقر الطويل حتى قدر عليها الماء. الشوارع التي ضاعت ملامحها. المدرسة التي كان عليه أن يجهزها للمقبلين على العلم. المسجد الذي فارقه المصلون خلال أيام الفيضان العصيبة. الزاوية التي إن بقيت

علـى حالها فوق الربوة، فهي بحاجة إلـى ترميم جدرانها التي تآكلت، ودقَّ أربع طلمبات تسحب الماء من الأعماق البعيدة، واحدة في بيته، وثانية عند المدرسة، وثالثة عند المسجد، ورابعة عند الزاوية.

ووجد نفسـه ذات يوم يذهب إلى الزاوية وقد هدَّه التعب. رقد إلى جانب «العشـري». رمى إليه نظرة متشـككة لكنه لـم يقدر على الجزم بشـيء. غطس في نوم عميق كانٍ في حاجة إلى أن يبدد به الأرق الذي أصابـه طويلًا. اسـتيقظ فوجد «العشـري» ينظر إليه بعينيـن مملوءتين بالحزن. ابتسم وقال له: من الإشارة ولدت العبارة.

تطلع «العشري» إليه، فواصل: فهمت الآن قصد الشيخ، ولا يشغلني رؤيـة الغائب في عودتـه، إنما يهمني أن يرى كل شـيء في أفضل حال حين يعود. رماه مَن يسـمعه بنظرة ساهمة، أطلقت ألف فأر في صدره، وهو يسـتعيد حكاية «حجازي» لكنه لم يكن قادرًا على أن يتسرع بقرار يوقعه في دائرة الظلم، وهو لا يمكنه أن يملك ما يبدد هواجسه.

غلبـه فـي هذه اللحظة مـا تذكره مـن الحكايات القديمـة عن جده الكبيـر «رضوان» الذي خطف المـاء منه «نجع المجاذيب» فأعاد بناءه ليصبح «الصابرية». رأى أن عليه أن يمد القوَّالين بشيء جديد يضيفونه إلى المسيرة الطويلة التي اختلط فيها الواقع بالخيال.

في طريق عودته إلى السـرايا رأى عن بعد طفلًا قوي البنية، يصارع ثلاثـة من الأطفـال فيغلبهـم. أسـرع الخطى حتـى بلغ المعركـة. نهر الصغار فتوقفوا عن الشجار. ناداهم فامتثل المغلوبون الثلاثة له. الولد الغالب وقف مكانه لا يبرحه، ينظر إليه في عِناد.

سألهم عن أسمائهم، فعرف أن المغلوبين من «الصوابر»، بينما الغالب هو ابن لأحد «الجوابر» الذين ظلوا في القرية. سأل الغالب عن عمره، فأجابه في تثاقل. كان في عمر «رضوان» تمامًا. ربما وُلد الاثنان في اليوم نفسه، أو لا تفصل بين مجيئهما إلى الدنيا سوى أيام قلائل.

ملأ عينيه من الولد المُتغلِّب. تدفقت في رأسه ظنون عجيبة. حين انسحب الولد من أمامه عائدًا إلى بيت أبيه، قال لنفسه: ربما يكون ثأر الصغار الثلاثة معلق حتى يأتي «رضوان».

وحكى ما جرى لزوجته فقالت له: لا تُحمِّل الأمور فوق ما تحتمل. لكنه في هذه اللحظة كان قد صار منحازًا للإشارات التي تسكن كل شيء، وأي أمر حوله، فقال لنفسه بصوت خفيض: يبدو أن الجراح لن تندمل أبدًا في هذه القرية الملعونة.

وتوالت أمام عينيه صور الماضي. زاهية وباهتة. وجد نفسه مُستسلمًا لما قد يأتي، مُخلصًا للحكاية كلها، التي أدرك أنه، ورغم كل ما فعل في سبيل طي صفحة الماضي، ليس سوى أحد العابرين فيها، وأن بقاءها قائمة، تلوكها ألسنة الجدات ليسمعها الصغار فيحفظوها، وينشدها القوَّالون على الرباب، هو قدر مقدور.

صعد إلى سطح السرايا. رمى بصره نحو الجبل والنهر والزرع والبيوت الخفيضة. سحت الدموع من عينيه. ملأ أذنيه عزف الرباب بلا قوَّالين. صار هو القوَّال. تنهد في حرقة، وجاء صوته مجروحًا بالغناء:

صابـر والزمـن غـدَّار يعانـــد اللـي يريـده
بيـــده كاس مُـر دوار كل مـا ينقـص يزيـده

فجاءه ردٌّ بصوت ندي لا يعرف من أين ينبعث:

حزين وماشـي في طريق والخطـو داس النهايـة
مسـتني ييجـي رفيـق يمـد خيـط النهايـة

telegram @yasmeenbook

الفهرس

مَحَطَّةُ القِطَار 5
الكَفُّ الحَمْراء 205

تتناول هذه الملحمة سيرة خمسة قرون، عَبْرَ ستة عشر جيلًا، تتشرَّب روح مصر، تغرف من الواقع، وتنفخ فيه من الخيال، لتُقدِّمه في لغةٍ عذبة، تُناسب ما يجب أن تتهيَّأ له الملاحم الأدبية، ثم تُطلق سردًا متدفقًا يجعل القارئ - رغم طول الحكاية - يلهث وراء السطور، ويطارد تسارع وتصاعد الأحداث.

وقد صدرت «ملحمة المطاريد» في ثلاثة أجزاء، لترصد ملامح الصراع على الثروة والمكانة، من خلال عائلة أُجبرت على ترك قريتها التي أسَّستها، وساحت في البلاد، دون أن ينسى الأحفاد وصية الأجداد التي تُطالبهم باستعادة ما كان لهم، لتنطلق رحلة مطاردة قاسية في ريف مصر، تصوِّر عراك الفلاحين مع فيضان النيل وجفافه..

إنها ملحمة مصرية عن الأمل الذي يجب أن يسكن الرؤوس والنفوس، ويلوح دومًا أمام العيون إشارة زاهية تدل على الطريق، مهما اشتدت الأحوال، وتراخت الهمم، وتباعدت المسافات، وتتابعت الأزمنة، وضعفت الذاكرة.

عمَّار علي حسن، أديب ومفكر مصري، أنجز ستين كتابًا، نصفها أعمال أدبية، عبارة عن روايات، ومجموعات قصصية ومسرحية، وديوانَي شعر، ونصوص سردية، فيما تتوزَّع كتبه على النقد الثقافي والاجتماع السياسي والتصوف. أُعدت حول أعماله الأدبية عشرون أطروحة جامعية، وتُرجمت بعض كتاباته الأدبية والفكرية إلى عدة لغات.

مكتبة ياسمين
telegram @ yasmeenbook

9 789777 955034

للشراء عبر موقعنا
www.almasriahbookstores.com